

# الجزء الثالث

من

## تفسير القرآن الحكيم

الشهير بتفسير المنار

ير أعي في هذا الفهرس :-

- ١ - انه قد روعي الترتيب الهجائي في الكلمة الثانية والثالثة وقدم المرفوع وأهمل اعتبار واو العطف وحرف الجر
- ٢ - ان الاصفار التي عن يسار الارقام تشير إلى إتمام أو إعادة المعنى في الصفحة التالية أو ما بعدها
- ٣ - ان الترتيب على حسب النطق لا المادة

(تنبية) أرقام عدد الآيات في الشواهد تختلف باختلاف عد المصاحف  
شئ لم يجد الآية موافقة لمصحفه وجدها بالقرب من عدده

الطبعة الاولى في مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨ م

طبعة المنار بمصر

## فهرس الغلط الواقع في الجزء التاسع من تفسير المنار وتصحيحه

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	١٠	هو العزيز	العزيز
٥	٢٠	ولقد أوحينا	وكذلك أوحينا
٦	١٠	مؤيس	مؤيس
٧	٥	رسلنا	رسلنا والذين آمنوا
١١	١٠	لون	كون
١١	٢٠	فؤده	فؤاده
١٣	٦	عليهم . اه	عليهم . اه
١٧	٧	لخير	الخير
١٧	١٤	ولدهم	والدهم
١٨	١٧	استعدادهم	باستعدادهم
٢٠	٢٠	لدين	الدين
٢٢	٤	وتنهي	وتنتهي
٢٤	١٤	السبات	الثبات
»	١٩	لمتاع	المتاع
٢٥	٢٠	من غيرهم	ومن غيرهم
٢٦	١	أن ما	يا من مكر
»	٢	أوم	أولم
»	»	ا رض	الأرض
٢٧	١٧	لا يتأو	إلا يتأول
٢٩	١٤	عن القرى	عن أهل القرى
»	١٥	وسنة أهل الله	وسنة الله
٣٠	١	بسورة	بصورة
٣٢	١٦	عليها	عليهم
٤٦	٢٢	المتكلمين	المتكلمين

صواب	خطأ	صفحة	سطر
خداع	الخداع	٨	٤٧
الشياطين	الشيطان	١٢	»
ويظهرون	ويظهرون	٩	٥١
ويهيأهم	ويهيأهم	»	»
بقولها	بقولهم	»	»
لا يبدوهم	لا يبدأهم	٦	٥٧
هذا	في هذا	١٨	٥٩
أعلى الانفس	أزكى الانفس	٢٦	»
ما أنكره	ما نكره	١	٦٠
يناوئوه	يناوؤوه	١٥	»
وهو أجدر	وه أجدر	١	٦١
أنه	إنه	٤	٦٤
مسحور	مسحورا	٢٥	٦٧
آذن	أأذن	١٠	٧١
( وما	وما ) وما	١٦	٧٦
يراد	إراد	٢٥	٧٧
مستسلمين	مستلمين	١٢	»
بواذر	بواذر	١١	٧٨
رايه لم يكن	رايه يكن	١٤	»
استعينوا	ستعينوا	٢٢	»
وفيه تصریح	وفي تصریح	٢٥	٧٩
يطمئنهم	يطمأهم	١٨	٨٠
التوراة	في التوراة	٢٣	٨٣
قبلهم	قبلهم	١٨	٨٦
ورؤيتهم	وروايتهم	٢٣	»

(\* هذه الاغلاط من الاصل المطبوع لتفسير الجصاص نهنا عليها هنا

صفحة	سطر	خطأ	عواب
٨٨	٣	وجود	وجوده
٩٥	١٢	أجل بالغوه	أجل هم بالغوه
٩٦	٢	ذا كان	إذا كان
٩٨	١٣	وسلطاتهم عنها فقد كانت بلاد فلسطين وحرماهم	وسلطاتهم عنها وحرماهم من النفكة بنعيمها فقد كانت بلاد فلسطين إلى الشام تابعة لمصر
٩٩	٢٢	رعون	فرعون
١٠٠	١٢	مخالف	ومخالف
»	٢١	ما اكتشف	ما اكتشف
»	٦	بدء	بدأ
١٢٨	٤	شبهه	اشتبه
»	٢٢	والوهية	وانواهية
١٢٩	٢٥	أفراد	أفرادا
١٣١	١٩	ورد شيء	بردشيء
١٣٢	٢٣	فكارهم	أفكارهم
»	٢٥	بها	به
»	٢٦	شيء	شيئا
١٣٥	١٤	كل المتأول	التأول
١٣٧	٢٣	تكرارا	تكرار
١٤٠	٥	ورائها	من ورأها
»	١٣	وامتاعها	وامتاعها
»	٢٢	يمتع	يمتع
١٤١	»	ألم تروا كيف بدأ	قل سيروا في الارض فانظروا كيف
١٤٢	١٠	الله الخلق ثم الله الخ	بدأ الخلق ثم الله الخ
»	٢٦	منه	منها
»	٢٦	وهذا كآته أراد	هذا وكآته أراد



صواب	خطأ	سطر	صفحة
ملاقاه	وإملاقاه	٤	١٤٣
إنه	نه	٨	»
تضارون	تضارن	٢٣	»
الله	لله	٢٤	١٤٤
والجمع	الجمع	٢١	١٤٧
الفلاسفة	والفلاسفة	١٩	١٤٩
فيها	فيها	٤	١٥٠
يجعلها	يجعلها	»	١٥٧
قالى	وقالى	١٤	١٦٠
عد الدراهم	عد الدرهم	٨	١٦١
فيها	فيه	»	١٦٣
وقائع	قائم	رأس الصفحة	١٦٤
تخيلا	تخيل	٨	»
الدقيق	لدقيق	١٤	»
الذي	لذي	٢٧	»
الى	لى	٢٢	١٦٥
هذا النجار	هذ النجار	٢٤	»
غازا	غارا	٢٥	»
وجهه	وجه	٢	١٧٣
وإن لم تخل	وإن تخل	٥	١٧٤
الباحثين	الباحون	٧	١٧٥
وتوايد	توليد	١٥	١٧٦
هو	وهو	٥	١٧٨
إلا معاني	لا معاني	٢٦	»
يلزمونا	يلزموننا	١٦	١٨٢
الذي يقرؤه	لذي يقرأه	١٠	١٨٤
اللفظ	الفظ	١٣	»

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٨٩	١٠	النور	النور
١٩١	١٨	الرب	إلى الرب
١٩٣	٣	أى خلقه	إلى خلقه
١٩٤	١٤	أن يوصل	به أن يوصل
»	٢٧	ربى	ربى
١٩٥	٢	لمائدة	المائة
١٩٦	٤	حَبَطت	حَبَطت
»	١٤	على	عليه
»	١٥	عليهما	عليه
١٩٨	٢	على هو	على ما هو
٢٠٠	٤	لِنَكُون	لِنَكُون
٢١٣	١٣	لا أياما	إلا أياما
٢١٥	٢٤	منا	ومنا
٢٢٠	رأس الصفحة	يَتَجَرَأ	يَتَجَرَأ
٢٢١	٦	ونبلونكم	ونبلوكم
٢٢٤	٢٥	بالامتين	بالاميين
٢٢٨	١٦	كالرياء	كالربا
٢٢٩	رأس الصفحة	التعزير	التعزير
٢٣٤	١٠	وإهانته	وأهانته
»	١٦	الخبر	الخبر
٢٤٤	٢	الديار الديار	الديار
٢٥٠	١٣	أبي	أنه
٢٦٢	٧	عشرة	عشر
٢٦٤	١٧	مخالف أمر	مخالفا أمر
»	٢٥	المسكنة	والمسكنة
٢٧٦	١٠	بحيرة سارة	بحيرة ساوة
٢٧٩	٥	لفظ	لفظا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٨٢	٢٤	لاتهم	لا تقم
٢٨٥	»	ربيعته	شريعته
٢٩٤		رأس الصفحة كسابقه ولاحقه	
٢٩٦	١	العزلي	العربي
٢٩٨	رأس الصفحة	بشائر المسيح محمد في أنجيل برنابا	بشائر النبي حمجي محمد (ص)
٣٠٥	٥	ماور	ماورد
٣٠٩	رأس الصفحة	الاداة على وجوب العربية	ما يجب مراعاته في دعوة الاسلام اليوم
٣٢٠	١٣	والعثمانيين	العثمانيين
٣٢٢	٦	جاءهم	جاءهم
٣٢٤	رأس الصفحة	كتاب قوم جديد التركي	فتوى المنار في حظر ترجمة القرآن
٣٢٩	٤	تقرأها	تقروها
٣٣٢	١٨	كما بدائع	كافي بدائع
٣٣٥	رأس الصفحة	مذهب المالكية والحنابلة في المسألة	مذهب الشافعية في المسألة
٣٤٣	٢٣	وهذا من دليل	وهذا دليل
٣٤٦	٦	نظام	نظام
٣٥٠	٢٣	الفرق	هذا الفرق
٣٥١	١	شرط إن يكون	شرط إن أن يكون
٣٥٧	٩	خطأهم	خطوهم
٣٦٢	٢١	ان الايمان	يقولون: ان الايمان
٣٦٥	١٣	وَظَلَمْنَا	وَظَلَمْنَا
٣٧٠	١٠	وكان	كان
٣٧٤	٢٠	البحر	البحر

صواب	خطأ	سطر	صفحة
ينهون	ينهورن	٢	٣٧٥
سنة الله في عقاب الامم			٣٨٠ رأس الصفحة هكذا
اذ آمنهم	فأمنهم	١١	٣٨١
آمنوا	آمنوا	٢٠	٣٨٤
آبائهم	آباءهم	٦	٣٨٨
آتيتكم	أتيتكم	١٣	٣٩٩
بهذا	بهذه	٨	٤٠٠
كانت آية الاعراف هذه	كانت هذه آية الاعراف	٩	»
هذه	هذا	٤	٤٠٤
(خاضعين) للاعناق	( خاضعين للاعناق )	١٨	»
القناة	القناة	٢١	»
فيها	فيها	٢٣	٤٠٥
استعمال مادة الفقه في القرآن			٤٢١ رأس الصفحة هكذا
الرقى والتمائم والطلاسم			» ٤٢٢
تدعون اليه	تدعون	٢	٤٢٣
خالهم	خالهم	٢٥	»
المذكور	المذكورة	١٤	٤٣٩
عنه	عن	٢١	٤٤٠
لها	ولها	٢٥	٤٥٤
لا تزال	لا يزال	٨	٤٥٥
فويل	ويل	٢٤	٤٦٤
ويعلمون	ونعلمون	١١	٤٦٥
خمسون	خمسين	١٨	٤٧٥
أن تسمى	تسمى	٨	٥١٤
ما	لما	١١	٥١٤
نزل	أنزل	٢٤	٥١٥

صواب	خطأ	سطر	صفحة
عبدالحارث	عبدالحارث	١٨	٥٢٢
يدعون	يدعو	٢٢	٥٢٦
ولتعرفهم	ولعرفهم	٧	٥٣٢
أفأنت	فأنت	٢٣ و ٢٢	»
العابدون الحامدون السامحون	العابدون السامحون	٢١	٥٣٥
وقال الذين كفروا	وقالوا	٧	٥٥٥
وحده	نفسه	١٤	٥٥٧
تخلف	يتخلف	٢٢	٥٦٥
منها	منها	١٩	٥٦٦
لكم فآخسوم فزادهم	لكم فزادهم	١٠	٥٩٢
واتنظر	وانظر	١٤	٥٩٣
تقدم تفسير	تقدم في تفسير	٢١	»
شرع	سرع	٢٥	٦٠٤
الحال	لحال	٤	٦١٧
قرح	رح	٢٤	٦٢٣
عند	عند	١٠	٦٢٥
نجوى	نجوى	٨	٦٣٠
سمعته وقلبه	قلبه وسمعته	١٦	٦٣٥
قرأنا	قرأنا	٢٥	٦٣٧
	ولا يبخص منه شيئاً (*)	٨	٦٤٤
يجعل	يجل	١	٦٤٧
الفصل	لفصل	٦	»
يؤتي الحكمة	( يؤت الحكمة )	١٨	٦٤٨
فهم يزعمون	يزعمون	٢١	٦٤٩
الطالحين	الطالح الحين	رأس الصفحة	٦٦٨

(\*) ترمج (تشطب) هذه الجملة اذ الشاهد يتم بما قبلها وليس هذا بمحلها .  
التزليل بل محلها في أوائل الآية التي قبلها

# تفسير القرآن الحكيم

هذا التفسير الوحيد الذي فسر به القرآن من حيث هو هداية عامة للبشر، ورحمة للعالمين، جامعة بين حقوق الارواح والاجساد وأمور الدنيا والدين، ومرشد لاصول العمران وسنن الاجتماع، ووسيلة لسعادة الناس في كل زمان ومكان، بانطباق عقائده على العقل، وآدابه على الفطرة وأحكامه على درء المفاسد وحفظ المصالح، وهذه هي الطريقة التي جرى عليها في دروسه في الازهر حكيم الاسلام

## الاستبصار الامثل

الشيخ محمد عبده

(رضي الله عنه)

## الجزء التاسع

أوله ( قال الملأ الذين استكبروا من قومه ) وقد بدىء بنشره في أول المجلد ٢٥ من المنار ( سنة ١٣٤٢ )

( تأليف )

## الشيخ محمد رشيد رضا

مفتي مجلس المنارة

( حقوق الطبع والترجمة محفوظة له )

## الجزء التاسع

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ  
يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ،  
قَالَ أَوْ كُنَّا كُرْهِينَ ( ٨٨ ) قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ  
عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ  
فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ  
تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ

هذه الآيات وما بعدها تتم قصة شعيب عليه السلام. مبدوءة بجواب قومه  
له عما أمرهم به من البر ونهاهم عنه من المنكرات والآثام، وأنذرهم إياه من  
الانتقام، بقوله (فاصبروا حتى يحكم الله بيننا) ورد بأسلوب الاستئناف البياني  
كامثاله من مراجعة الكلام، وتولاه الملا منهم أي كبراء رجالهم كدأب الجماعات  
والاقوام، وهو:

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا  
مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أي قال اشرف قومه وأكبرهم الذين  
استكبروا عن الإيمان له وعتوا عما أمرهم به ونهاهم عنه اتباعا لاهوائهم —  
وقد استضعفوه — تقسم لنخرجنك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من  
قريتنا الجامعة أو من بلادنا كلها — فلفظ القرية والبلد يطلق أحيانا على القطر  
أو المملكة — أو لتعودن وترجعن إلى ملتنا وما ندين به من تقاليدنا الموروثة

عن آباءنا ، فتكون ملة لكم ومحيطة بكم معنا. ضمن العود معنى الظرفية. وهو يتعدى باللام والى وفي ومنه (١٧: ٦٩ أم أميتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ) يعني البعراذ الخطاب قبله لمن مسهم الضرفية وليس فيه من معنى الظرفية ما في قوله (٢٠: ٥٤ منها خلقناكم ونبينها لعبيدكم ) يعني الارض. والمعنى تقسم ليكون احد هذين الامرين: إخراجكم او عودتكم في الملة. فاختراروا لانفسكم، قيل ان التعبير بالعود يقتضي انهم كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها وهو يصدق بالمجموع فلا ينافي القول بعصمة الانبياء من الكفر حتى قبل النبوة ، على ان شعبياً عليه السلام لم يكن قبل النبوة على ملة اخرى غير ملة قومه فيمنعهم ذلك من التعبير في شأنه بالعودة ، وكونه لم يشاركهم في شركهم ولا في بحس الناس اشيائهم وهضم حقوقهم امر سابي لا يلتفت اليه جمهورهم ، ولا يعدونه به خارجاً عنهم، وقال الراغب : العود الرجوع الى الشيء بعد الانصراف عنه إما انصرافاً بالذات أو بالقول والعزيمة اهـ ومنه ذمه والدعوة الى غيره ولا يقتضي هذا المعنى سبق الكون فيه ولا عدمه، فلاحاجة إذن الى تصحيح التعبير بما قيل من تفسير العود بالمصير، وفيه من التكلف ما ليس في القول بالتغليب ، ولا سيما في جوابه عليه السلام ﴿ قال اولو كنا كارهين؟ ﴾ يعني العود في ملتكم على كل حال من الاحوال حتى حال الكراهة لها الناشئة عن اعتقاد بطلانها وقبحها وما يترتب عليها من الفساد في الدنيا والعذاب في الآخرة ؟ فالاستفهام للانكار و«لو» لانهاية ، أو تأمرونا ان نعود فيها وتهددونا بالنفي من وطننا والخراج من ديارنا إن لم تفعل ولو كنا كارهين لكل من الامرين؟ - على الاصل فيما يحذف متملقه، وهو ان يتناول كل ما يصلح له، فالاستفهام للتعجب من صنيعهم واستنكار طلبهم ورفضه بدون مبالاة ، ووجه كل من الانكار والتعجب جهل هؤلاء الملاء بكنه الدين والملة، وكونه عقيدة يدان الله بها، وأعمالا يتقرب اليه بأدائها وان كان غنيا عنها، وانما شرعها لتكمل الفطرة البشرية بالزامها - وجهلهم بكون حب الوطن، وإلف السكن، لا يبلغ هذه المنزلة، وجهلهم هذا ظنوا ان شعبياً عليه السلام قد يؤثر هو ومن آمن معه التتم بالاقامة في وطنه ومجاراة اهله في كفرهم وورذائلهم على مرضاة الله تعالى بالتوحيد المطهر للنفس من ادران الخرافات، وبالفضائل المرقية للنفس في معارج السكال ، ذلك بأن الملة عند اولئك الملاء الخاسرين رابطة تقليدية، وعصبية قومية، يجري اصحابها فيها على قول الشاعر :



وهل انا الامن غزبية ان ثبوت غويت وان ترشد غزبية ارشد  
 وملة الرسل عليهم السلام ليست كذلك بل هي دين مالك للنفس ، حاتم  
 على الوجدان والعقل ، يقصده السكالك البشري الاعلى بمعرفة الله تعالى والقرب  
 منه ، وما يتبع ذلك من صلاح الدنيا وسعادة الآخرة ، فان تكبر صاحبه من إقامة  
 في وطنه واصلاح اهله به فهم احق به بدءاً ودواماً ، وان منع فيه حرية ففتن في دينه  
 كان تركه واجباً ، فان لم يخرج منه شعيب ومن آمن معه إخراجاً وهم كارهون كما  
 اخرج خاتم النبيين مع السابقين الاولين الى الاسلام ، خرجوا مهاجرين كما فعل  
 ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ( ٢٩ : ٢٥ ) وقال اني مهاجر الى ربي إنه هو  
 هو العزيز الحكيم ) وقد اوجب الله تعالى الهجرة على من يستضعف في ارض وطنه  
 فيمنع من إقامة دينه فيها ، ويوجب المتعصبون للاوطان في هذا العصر  
 الهجرة منها اذا منعوا حرية الشخصية فيما هو دون الدين والوجدان ،  
 بل يعز على بعضهم ان يقيم في وطنه اذا منع فيه حرية الفسق والآثام ، ورب  
 اناس عز عليهم ترك وطنهم ، فأثروا البقاء فيه مفتونين في دينهم ،  
 فأظهروا الكفر ليأمنوا على حياتهم ، وظلوا يسرون المحافظة على الاسلام في خاصة  
 انفسهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من تلقينه لاولادهم وتربيتهم عليه فارتدت  
 ذريتهم عنه في زمنهم او من بعدهم ، كما وقع لبعض مسلمي الاندلس بعدئذ  
 الاسبانيين لمرش دولتهم العربية وإكراههم على التنصر او الخروج من البلاد  
 فخرج بعض وبقي آخرون تحت وعيد قوله تعالى ( ٩٦ . ٤ ) ان الذين توفاهم  
 الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الارض -  
 قالوا : ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً  
 ( ٩٧ ) الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا  
 يهتدون سبيلاً ( ٩٨ ) فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفوا غفوراً )  
 وقد قدر بعض المفسرين الفعل المحذوف من الجملة ومتعلق الكراهة  
 هكذا : قال أنخرجوننا من وطننا بغير ذنب يقتضي الاخراج ولو كنا كارهين  
 لمفارقته حريصين على الإقامة فيه ؟ وهو تخصيص لا وجه له ، فاللفظ يقتضي تقدير  
 كراهة كل من الامر لحذف متعلق الكراهة والمقام يجوز تخصيصه بالعود  
 في ملتهم لانه الامم عند الانبياء ، والمناسب لبقية جوابه عليه السلام :

﴿ قد افترينا على الله كذباً ان عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾

( الاعراف . س ٧ ) انتماء الانبياء قبل بعثتهم الى ملل أقوامهم ٥

هذا كلام مستأنف لبيان أهم الامرين وأزكواهما بالرفض والكرامة وهو انشاء في لفظ الخبر فاما أن يكون تأكيداً كيداً قسماً لرفض دعوة الملائمة الى العود في ملتهم كما يقول التنجيات: برئت من الذمة أو من ديني أو من رحمة الله تعالى. اني فعلت كذا. فيكون مقابلة لقسمهم بقسم أعرق منه في التوكيد - وإما أن يكون تعجباً خرج لا على مقتضى الظاهر وأكد بقدم الفعل الماضي، والمعنى ما أعظم افتراءنا على الله تعالى ان عدنا في ملتكم بعد ان نجانا الله منها وهدانا الصراط المستقيم ، بالخنيفية ملة ابراهيم، واذا كان من يتبع ملتكم يعد مفترياً على الله تعالى بقوله عليه ما لا يعلم، لا بهداية من الوحي، ولا برهان من العقل؟ فكيف يكون حال من افتري عليه وضل عن صراطه على علم؟ وان كفر الجحود وهو انكار الحق وغمطه بعد العلم به هو شر أنواع الكفر، والافتراء على الله تعالى فيه أفظم ضروب الافتراء التي لا يقبل فيها أدنى عذر؟

وأنت ترى أن التنجية أدل من العود على إثبات أنهم كانوا على ملة قومهم حقيقة . وقد علمت ان المفسرين يجعلونه تغليباً لاستثمانه عليه السلام . ونقول بناء على ما قررناه من أن عدم إياه من أهل ملتهم لا يقتضي أنه كان يعبد ما يعبدون، ويفعل من التطفيف وبحس الناس أشياءهم ما كانوا يفعلون؛ إنه يصح أن يشمل إنجاء الله تعالى إياه منها بمعنى انجائه من الانتماء الى ملة ما كان يؤمن بعقيدتها، ولا يعمل عمل أهلها، ولا كان يهتدي بعقله ورأيه الى ملة خير منها، فكان موقفه موقف الحيرة في شأنها، كما يؤخذ من قوله تعالى في خطاب النبي الخاتم الاعظم؛ صلى الله عليه وسلم ( ووجدك ضالاً فهدى ) وتفسيره بقوله ( ولقد أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ) الآية

وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا ﴿ هذا رفض آخر للعود في ملتهم مؤكداً بلغ التأكيد معطوف على مناسبه ، والتعبير يدل على نفي الشأن، وهو أبلغ من نفي الفعل، لانه نفي له بالدليل وهو كونه غير مستطاع، ولا جار على سنن الله في الاجتماع، والمعنى ليس من شأننا أن نعود فيها في حال من الاحوال الا حال مشيئة الله ربنا، المتصرف في جميع شؤوننا، فهو وحده القادر على ذلك لا يقدر عليه غيره لا أنتم ولا نحن أيضاً، لاننا موقنون بأن ملتكم باطلة ضارة مفسدة، وملتنا هي الحق، التي بها اصلاح

الناس وحرمان الارض، والموقن <sup>ب</sup> يستطيع إزالة يقينه ولا تغييره، وانما ذلك بيد مقلب القلوب سبحانه ورهن مشيئته <sup>ب</sup> ﴿وسم ربنا كل شيء علماً﴾ فعنده من العلم بأسباب الايمان والكفر والهدى - الضلال والصلاح والفساد ما ليس عندكم ولا عند احد من الخلق، ومشيئته تجري بحسب ~~عظمته~~ خلقه وبما كان يعلمه عليه السلام من حكيمته تعالى وسننه في خلقه أنه يقيم حجته بأهل الحق على أهل الباطل وينصرهم عليهم بالقول والفعل ماداموا ناصرين له وقائمين بما هداهم اليه منه، فكأنه يقول لهم : اذا كان الامر كذلك فلا تطمعوا اذا أن يشاء ربنا الخفي بنا عودتنا في ملتكم بعد ان نجانا بفضله منها واقام الحججة عليكم بنا، وما كان تعالى ليدحض حجته ، ويبطل سنته

فهذا الاستثناء مؤسس للملأ من قوم شعيب من عودته عليه السلام مع من آمن معه في ملتهم ، لانه بعد أن نفى وقوع العود منهم باختيارهم نفياً مؤكداً بأنه ليس من شأنهم ولا مما يجيء من قبلهم في حال ما من الاحوال التي تطرا عليهم كالترغيب والترهيب والرجاء في المنافع والخوف من المضار، ومنها الاخراج من الديار، استثنى حالا واحدة وهي مشيئة الله تعالى وحده، فدل على عموم النفي فيما عدا المستثنى وقد يستعمل لتوكيده من غير ملاحظة لمتعلق المشيئة هل هو ممكن يجوز أن يقع أم لا، كقوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله) أو للتنبية على النفي بكرم الله وفضله لا بالايجاب عليه وهو الوجه الذي اختاره شيخنا رحمه الله تعالى في تفسير سورة الاعلى . ولا يخجل بتوكيد عموم النفي جواز تعلق المشيئة بالنفي في كلام شعيب عليه السلام والقرائن اللفظية والمعنوية تدل على عدم وقوع هذا الجائز وهو انه تعالى لا يشاء عودته مع من آمن معه في ملة قومهم . فهو قد قرر أن هذا شيء لا يقدر عليه الا الله تعالى فطلبه من غيره عبث ، يؤكد ذكر الرب مضافا الى ضمير المتكلم ومن معه فأقاد بدلالة الالتزام او الافتضاء أنه لا يشاء لهم الا ما عودهم بحسن تربيته اياهم ولطفه وعنايته بهم، اذ أنجاهم من تلك الملة الباطلة، وهو تأييد عصمة رسولهم وحفظ جماعتهم من العود فيها ، فكان هذا بمعنى قول عبيد أمين أراد أن يغويه بعض المغوين ويفريه بخيانة سيده الخفي به وصرف بعض ماله فيما يضره هو ويفسد عليه نفسه : ليس هذا من شأني ولا مما يدخل في تصرفي الا أن يشاء سيدي الصالح المصلح المعني بشأني ، وهو اعلم مني بأمرى . فالتعبير ليس مسوقا

لتقرير حجة الاشاعرة على جواز مشيئة الله لكفرهم بالفعل ، ولا حجة المعتزلة على وجوب رعاية الصلاح والاصلاح لهم ولغيرهم بالعقل ، ولكنه يدل بطريق الالتزام على ما ذكرنا من عناية الرب سبحانه وتعالى برسله وأتباعهم المستقيمين على دينهم ، ومضي سنته ووعدته بتأييدهم ، المصرح به في آيات أخرى كقوله تعالى ( إنا لننصر رسلنا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ) وقوله ( ولقد سبقتم كلمتنا لعبادنا المرسلين \* إنهم لهم المنصورون \* وإن جندنا لهم الغالبون ) فهو لن يشاء كفرهم بالفعل ، بل يختار لهم الاصلاح بحكمته وفضله لا بإيجاب العقل . وقد روى ابن جرير وغيره عن السدي انه قال في الآية : وما كان ينبغي لنا ان نعود في شرككم بعد اذ نجانا الله الا أن يشاء الله ربنا والله لا يشاء الشرك ولكنه يقول الا أن يكون الله قد علم شيئاً فانه وسع كل شيء علماً له ولعله يريد أنه لا يشاء ذلك لانه مخالف لسنته الحكيمة وفضله العظيم على رسله ومن آمن بهم وان كان لا يقم من اهل الشقاء بسوء اختيارهم الا بإرادته ومقتضى سنته ، وسننه في الفريقين مختلفة كما شرحناه مرارا

وقد سبق مثل هذا الاستثناء في سورة الانعام ، حكاية عن ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، اذ قال لقومه ( ٦ : ٨١ ) ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون ) وقد اخترنا هنالك أنه استثناء من عموم الاوقات وأنه منقطع معناه : لكن ان شاء ربي ان يصيبني في وقت من الاوقات مكروه من قبل ما تشركون به كوقوع صنم علي يشجني ، فانه يقم بقدرته تنفيذ المشيئة ، لا بقدره شركائكم ولا بمشيئتهم لانهم لا قدرة لهم ولا مشيئة ، ثم علل ذلك بمثل ما علله به بعده شعيب عليهما الصلاة والسلام وعلى نبينا وآله فقال : ( وسع ربي كل شيء علماً ) أي ومعبوداتكم لا تعلم شيئاً ، الخ واخترنا هنا جعل الاستثناء من أعم الاحوال لا الاوقات وان جاز الجمع بينهما ، لان الوقت لا شأن له هنا ، على ان عموم الاحوال يستلزم عموم الاوقات

ثم أكد عليه السلام ذلك كماه بقوله ﴿ على الله توكلنا ﴾ أي اليه وحده وكلنا أمرنا ، مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا من المحافظة على الدين الذي شرعه لنا ، فهو يكفينا أمر تهديدكم ، وكل ما لم يجعله في استطاعتنا من جهادكم . وذلك أن من أصول المعرفة بالله عز وجل التي يعرفها جميع رسله أن من توكل عليه

كفاه ( ومن يتوكل على الله فهو حسبه ) وان من شروط التوكل الصحيح في الامر القيام بكل ما أوجبه الله تعالى فيه من الاحكام الشرعية ، ومراعاة ما اقتضته حكمته فيه من الاسباب والسبب الكونية والاجتماعية . فمن يترك العمل بالاسباب فهو جاهل مغرور ، لامتوكل منصور ولا مأجور ، وقال النبي (ص) لمن سأله أيترك نافته سائبة ويتوكل على الله تعالى «اعقلها وتوكل» رواه الترمذي وقال تعالى لرسوله بعدما مره بمشاورة اصحابه في غزوة احد ( فاذا عزمتم فتوكل على الله ) وانما يكون العزم بعد الاخذ بالاسباب ومنها مظاهرتة (ص) يومئذ بلبس درعين . وقد بينا ذلك مفصلا في مواضع من هذا التفسير (١) والخلاصة انه عليه السلام بدأ جرابه للعلاء من قومه بالتعجب من تهديدهم وانذارهم ، واقامة الادلة الدينية والعقلية على امتناع عودهم الى ملة الكفر باختيارهم . وعدم استطاعة أحد على اجبارهم عليه غير الله تعالى الفاعل لما يريد ، والاستدلال على أن هذا مما لا يريد - وثى ببيان توكلهم على الله تعالى الذي يكفي من توكل عليه ما أهمه وهو فوق كسبه واختياره ، فتجتمع له العناية الكسبية والوهبية - ثم تلك بالدعاء الذي لا يكون شرعيا مرجوا الاجابة الا بعد القيام بما في الطاقة من العمل الكسبي ، والتوكل القلبي ، فقال

﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ المعنى لمادة ( الفتح ) كما حققه الراغب إزالة الاغلاق والاشكال ، وهو ضربان ( أحدهما ) ما يدرك بالبصر كفتح العين والقفل والغلغلق والمتاع من صندوق وغرارة وخرج وعلبة و ( الثاني ) هو ما يدرك بالبصيرة كفتح أبواب الرزق ، والمغلق من مسائل العلم ، والمبهم من قضايا الحكم ، والنصر في وقائع الحرب ، وفي آيات القرآن استعمالات من الضربين كليهما ، ولك ان تقسمه الى حسي ومعنوي - ومن الاول الفتح الذي يكون بالكلام كحكم القاضي وفتح المأموم على الامام في الصلاة وهو أن يقرأ الآية التي أخطأ فيها أو وقف عن القراءة ناسيا لما بقي منها - والى حقيقي ومجازي ومن مجاز الاساس : فتح على فلان اذا جُدد وأقبلت عليه الدنيا ، وفتح الله عليه - نصره . . وفتح الحاكم بينهم ، وما أحسن فُتاحته أي حكمه ، قال

(١) راجع كلمة التوكل في فهارس أجزاءه ومن أوسعها ما في ص ٢٠٧ - ٢١٤ ج ٤

(الاعراف . س ٧) معنى الفتح والفتاحة . عقاب قوم شعيب ٩

أَلَا أبلغُ نبي و هب رسولا بأني عن فتاحتهم غني

و بينهم فتاحات أي خصومات . وفلان ولي الفتاحة بالكسر وهي ولاية القضاء ، وفتحها حاكمه . وعن ابن عباس : ما كنت ادري ما قوله تعالى ( ربنا افتح بيننا وبين قومنا ) حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها : تعال أفتحك . وقالت اعرابية لزوجها بيني وبينك الفتح اه وأثر ابن عباس اخرجته قدماء التفسير المأثور وابن الانباري في الوقف والابتداء والبيهقي في الاسماء والصفات وفسر المفاحة فيه بالمقاضاة . وهو يدل لغة على انها ليست قرشية بهذا المعنى ويؤيد ما روي عن السدي من انها يمانية وخصها بعضهم بالحيرية وذو يزن من اسمائهم . والمناسب ان كل فتح بين فريقين فهو بمعنى الحكم والفصل بينهما إما بالقول والفعل او بأحدهما ومنه النصر ، ومن الآيات فيه ( ٣٤ : ٢٦ قل مجمع بيننا وبينهم يفتح بيننا بالحق وهو الفتح العليم ) ومنها حكاية عن نوح عليه السلام ( ٢٦ : ١١٩ ) فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجياً ومن ممي من المؤمنين ) وهذا عين مراد شعيب عليه السلام في دعائه الملاقي لانداده قبله بقوله حتى يحكم الله ) الخ والمعنى : ربنا احكم وافصل بيننا وبين قومنا بالحق الذي مضت به سنتك في التنازع بين المرسلين والكافرين ، وبين سائر المحقين المصلحين ، والمبطلين المفسدين في الارض ، وانت خير الحاكمين ، لاحاطة علمك بما يقع به التخاصم وتزهك عن الظلم ، واتباع الهوى في الحكم

(٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا

إِنَّكُمْ إِذًا لَخُسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي

دَارِهِمْ جثمين (٩١) الَّذِينَ تَدَّبُّوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ

كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَأْتُواهُمْ بِالْبَاطِلِ ، فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ

أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ

لما يئس الملا من قوم شعيب من عودته في ملتهم ، وعلموا انه ثابت على مقارعتهم ، خافوا ان يهتر المهيدون به من قومهم ، فذروهم ذلك بما حكاه الله تعالى عنهم بقوله :

« تفسير القرآن الحكيم » « ٢ » « الجزء التاسع »

﴿ وقال الملا الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً انكم اذا لخاسرون ﴾  
 هذا عطف على (قال الملا الذين استكبروا) وليس جواباً لشعيب عليه السلام  
 ولا داخلاً في هذه المراجعة بينه وبينهم اذ لو كان كذلك لفصل ولم يعطف، بل  
 ذلك ما قاله له والمناسب فيه وصفهم بالاستكبار فهو الذي حرامهم على تهديده  
 وإنذاره الاخراج من قريتهم المشعر بأنهم هم اصحاب السلطان فيها، وهذا ما  
 قاله لقومهم اغواء لهم بصددهم عن الايمان له، والاخذ بما جاء به، والمناسب فيه  
 وصفهم بالكفر، فهو الحامل لهم عليه، سواء كان سببه الاستكبار عن اتباعه أو غيره،  
 بل لو علم أولو الرأي من قومهم أن سبب صددهم عنه هو الاستكبار والتمتر  
 لما أطاعوهم، ولذلك عللوا لهم صددهم عنه بما يوهمهم أنه هو المصلحة لهم اذ  
 قالوا لهم بصيغة القسم لئن اتبعتم شعيباً انكم في هذه الحالة لخاسرون، وحذف  
 متعلق الخسار ليعم كل ما يصلح له، اي خاسرون لشرفكم ومجدكم، بايثار ملته  
 على ملة آبائكم وأجدادكم، ومناط عزكم وفخركم، واعترافكم بأنهم كانوا كافرين  
 ضالين وانهم معذبون عند الله تعالى - وخاسرون لثروتكم وريحكم من الناس بما  
 حذقتهم به من تظفيف الكيل والميزان وبخس الغرباء أشياء عملاً بتزاز اموالهم، وأي  
 خسارة أكبر من خسارة الشرف والثروة؟ فمعلوم أن اللام في قولهم «لئن» موطئة  
 للقسم وهي أقوى مؤكدة للكلام، والجملة الاسمية وتصديرها بلون وقرن خبرها  
 باللام وتوسيط « اذا » التي هي جواب وجزاء بين طرفيها - كل ذلك من  
 المؤنذات لمضمونها الخادعة لسامعيها، وان مثلها مما يروج بين امثالهم في كل  
 زمان، ولا سيما زمن التفاخر بالآباء، والتعصب للاقوام والاطوان، فاننا ابتلينا  
 في دعوتنا الى الاصلاح بمن كانوا يصدون الناس عنا وعن نصيحتنا لاهل ملتنا بأننا  
 لم نولد في بلادهم، ولا ننتمي الى أحد من أجدادهم، على أننا ننتمي بفضل الله  
 تعالى الى آل بيت نبيهم صلى الله عليه وسلم، وان منهم من لا يعرف له نسب، ومنهم  
 من ليس من القبط ولا العرب، واننا نرى أشد الشعوب عصبية للوطن  
 لا يجعلونها سبباً للصد عن العلوم والقبول ولا الدين ومذاهبه وانما التنافس  
 بينهم في جعل كل واحد منهم وطنه أعز وأقوى وأغنى وأقنى ولو باقتباس  
 العلم من الآخر: نرى رجال الدين الكاثوليك من الالمان والفرنسيين أعوانا على  
 نصر الكثرة ونشرها في بلادهم وغيرها، كما نرى مثل هذا بين رجال  
 البروتستانتية من الالمان والانكليز، كدأبهم وصيرتهم في العلم، فعلماء كل شعب

يتسابقون الى اقتباس ما يظهر عند الآخر من اختراع أو كشف عن حقيقة علمية أو اهتداء لسنة كونية أو منفعة للخلق، ويعززون كل امر الى صاحبه، ويقولون ان العلم لا وطن له . وإنما يقع التفاير والتفرق بين البشر في مثل هذا في ابان ضعفهم وغلبة الجهل عليهم ، وفشو التحاسد وسائر الاخلاق الرديئة فيهم ، واعتبر ذلك في الامة الاسلامية في ابان ارتقاءها العلمي حتى القرن الخامس والسادس اذ كان مثل ابي حامد الغزالي مجيء بغداد عاصمة العلم والملك الكبرى في الارض فيكون رئيساً لاعظم مدرسة فيها بل في العالم ( وهي النظامية ) ولا يحول دون ذلك كونه من قرية طوس في بلاد الفرس — وفيما بعده إذ تغيرت الحال، كما بيناه في مواضع من المنار، ونحمد الله ان تلك النزعة الشيطانية تكاد تزول من مصر بارتقاء العلم والاهم ان على وون النزعة الوطنية المصرية تزداد قوة وانتشاراً

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ تقدمت هذه الجملة بنصها في بيان عذاب قوم صالح عليه السلام من هذه السورة ( الآية ٧٧ ) في راجع تفسيرها ( في ص ٥٠٧ و ٥٠٨ من المجلد الثامن ) وفيه أنه عبر عن عذابهم في سورة هود بالصيحة بدل الرجفة — وكذلك قوم شعيب — والرجفة المرة من الرجف وهو الحركة والاضطراب، ويصدق برجفان الارض وهو الزلزلة ومنه ( يوم ترجف الارض والجبال ) ورجفان القلوب من الهول والخوف ومنه قول عائشة ( رض ) في حديث بدء الوحي : فرجم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤده — والراجح هنا الاول والمعنى فأخذتهم الزلزلة فأصبحوا في دارهم باركين على ركبهم أو منكبين على وجوههم ميتين . فهذا عذاب أهل مدين عبر عنه هنا بالرجفة وفي سورة هود بالصيحة، كعذاب ثمود في السورتين وقد بينا وجه الجمع بينهما

وفي سورة الشعراء أن الله تعالى أرسل شعيباً الى أصحاب الايكة وهم غير مدين فانه وصفه في سورة الاعراف بأنه أخومدين أي في النسب كما تقدم ولم يصفه في سورة الشعراء بذلك كما وصف من ذكر قبله : نوحاً وهوداً وصالحاً ولوطاً ( ع . م ) وقد أخرج اسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس في قوله تعالى — من سورة الشعراء ( كذب أصحاب الايكة المرسلين ) قالوا كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر الى مدين الخ فأفاد هذا أن الله



تعالى أرسله الى قومه أهل مدين والى من اتصل بهم الى ساحل البحر الاحمر وان حال الفريقين في الكفر والمعاصي كانت واحدة وكان ينذرهم متنقلابينهم في زمن واحد، فلا يبعد حينئذ أن يكون العذاب قد أخذ الفريقين في وقت واحد أو وقتين متقاربين ، فكان عذاب مدين بالرجفة والصيحة المصاحبة لها، وعذاب أصحاب الايكة بالسموم وشدة الحر الذي انتهى بظلة من السحاب فزعوا اليها يتردون بظلمها، فأطبقت عليهم فاختمتقوا بها أجمعون، وذهب بعض المفسرين الى أن عقاب الفريقين واحد وسيأتي بيان ذلك في تفسير سورة الشعراء ان شاء الله تعالى

﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها - الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾ يقال غني بالمكان يعنى بوزن « رضي يرضى » اذا نزل به وأقام فيه . هكذا أطلقوه وقيده بعضهم بقيد أو قيدين ، قال الراغب : وغني في مكان كذا اذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره . راكتفى بعضهم بقيد طول الإقامة وبعضهم بالاقامة في رغد عيش

والآية بيان مستأنف من قبل الله عز وجل ناقض لقول الملا من قوم شعيب لقومهم (لئن اتبعتم شعيباً انكم اذا الخاسرون) وقولهم قبله (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا) كأن سائلاً يسأل عنهم باعتبار كل من الحالين كيف انتهى الامر فيها وكيف كان عاقبة أهلها ؟ فأجيب عن الاول بقوله : الذين كذبوا شعيباً وهددوه وأنذروه الاخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم فخرموها كأن لم يقيموا ولم يعيشوا فيها مطلقاً أو في ذلك العيش الرغيد، والامدالمديد ، فتنى انقضى الشيء صار كأنه لم يكن

وأجيب عن الثاني بقوله : الذين كذبوا شعيباً وزعموا أن من يتبعه يكون خاسراً وأكدوا زعمهم بأقربى المؤكيدات كانوا هم الخاسرين لما يعترفون به من تقاليد ملتهم ، ومن مالههم ووطنهم ، ولما كانوا موعودين به من سعادة الدنيا والآخرة لو آمنوا - دون الذين اتبعوه فانهم كانوا هم الفائزين المفلحين ، فالجملته تفيد حصر الخسار في المكذبين له بالنص ، وتقتضي نفيه عن المتبعين له بالاولى، ومناسبة الجزاء للذنب بجعل الحرص على التمتع بالوطن والاستبداد فيه على اهل الحق سبباً للحرمان الابدي منه ، وجعل الحرص على الربح بأكل اموال الناس بالباطل سبباً للخسران بالحرمان منه ومن غيره

واختار بعضهم في نكتة الفصل والتكرار وجهاً آخر وهو انه بيان

مستأنف من الله تعالى جاء بأسلوب الخطابة العربية المؤثرة في الوعظ والتوبيخ وما في معناهما نحو : أنت الذي جنيت علينا ، أنت الذي سلطت علينا أعداءنا ، أنت الذي فرقت كلمتنا ، أنت الذي أوقعت الشقاق بيننا

وقال الزمخشري في الكشاف : ان في هذا الاستئناف وتكرير الموصول والصلة مبالغة في رد مقالة الملا لاشياعهم وتسفيهاً لرايهم ، واستهزاء بنصحهم لقومهم ، واستمظاناً لما جرى عليهم . وقد خفيت على بعض العلماء الاذكياء دلالة العبارة على هذه المعاني كلها لعدم تأملها : فأما المبالغة في الرد فظاهرة لما يدركه كل من الفرق في نفسه بين ما مثلنا به آتفاً لاسلوب الخطابة وبين ذكر تلك المسندات بالمعطف ، وسببه ان تكرار ذكر المسند اليه بصيغة الموصول والصلة المؤذن بعلة الجزاء يعيد صورة كل منهما في الذهن ، ويكون حكماً جديداً بمدحكم ، وللمحكمن من التأثير في النفس ما ليس للحكم الواحد . واما تسفيه الرأي ، والاستهزاء بذلك النصيح ، فهو تابع لهذا التأثير ، المتضمن لما ذكر من التصور والتخييل .

﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالات ربي وانصحت لکم ﴾  
تقدم تفسير مثله في قصة صالح ( ص ٥٠٩ ج ٨ تفسير ) وفيه بحث دقيق في ذكر التولي عن القوم ومخاطبتهم بعد هلاكهم . وقد اتحد إعدار الرسولين لاتحاد حال القومين وعذابهما ، ولكن تتمة الآية هناك ( ولكن لا تحبون الناصحين ) وتتمة الآية هنا ﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ ولا يبعد عندي ان يكونا قد قالاهذا : وذلك ، فعبّر عنهما بأسلوب الاحتباك . والمعنى : اني يا قوم قد ابلغتكم رسالات ربي - اي ما ارسلني به اليكم من العقائد والمواعظ والاحكام والآداب - فجمع الرسالة هنا بحسب متعلقها وافرادها في قصة صالح بحسب معناها المصدرية - وانصحت لكم بما بينته من معانيها والترغيب فيها وانذار طاقبة اللقربها ، فكيف آسى اي احزن الحزن الشديد على قوم كافرين اعذرت اليهم ، وبذلت جهدي في سبيل هدايتهم ونجاتهم ، فاختراروا ما فيه هلاكهم ، وانما يأسى من قصر فيما يجب عليه من النصيح والانذار

( ٩٣ ) وَآأَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيِّ الْأَخْذَنَا أَهْلَهَا

بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ( ٩٤ ) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّمِثَةِ

الْحُسْنَةَ حَتَّى عَمُوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ  
فَاخَذْنَاَهُمْ بِفِتْنَةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

﴿ سنن الله وحكمه في هذه القصص وأمثالها ، والاعتبار بها ﴾

من سنة القرآن الحكيم انه يبين العقائد بدلائلها ، والاحكام مؤيدة بحكمها وعللها ، والقصص مقرونة بوجوه العبرة والموعظة بها وسنن الاجتماع فيها ، كما ترى في هذه الآيات التسم التي قفي بها على قصص القوم المهلكين

﴿ وما ارسلنا في قرية من نبي الا أخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ﴾  
الواو في أول الآية لمعطى الجملة وما بعدها الى آخر السياق الذي وضعنا له العنران على مجموع ما قبلهن من القصص لمشاركته إياه<sup>(١)</sup> في كونه حكما له وعبرامستفادة منه - فمعطف الجمل يشمل الكثير منها ( كالسياق برمته ) ، ولا وجه للفصل هنا .  
والقرية المدينة الجامعة لزعماء الامة ورؤسائها التي يعبر عنها في عرف هذا العصر بالعاصمة كما تقدم مرارا وكان الانبياء يبعثون في القرى الجامعة لان سائر البلاد تتبع أهلها اذا آمنوا . والبأساء الشدة والمشقة كالحرب والجذب وشدة الفقر ، والضراء ما يضر الانسان في بدنه أو نفسه أو معيشته ، والاخذ بها جعلها عقابا ، وقد تكون تجربة وتربية نافعة . وتقدم مثل هذا في قوله تعالى من سورة الانعام ( ٦ : ٤٢ ) ولقد ارسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ( في ص ٤١٢ ج ٧ تفسير ) فانه بمعنى ما هنا ولكن السياق مختلف ، فلما كان ما هنا قد ورد عقب فصوص طائفة من الرسل جعل هذا المعنى قاعدة كلية وسنة مطردة في الرسل مع أقوامهم ليعتبر به كل من سمعه أو قرأه في عصر التنزيل وما بعده . ولما كان ما هنالك قد ورد في سياق تبليغ خاتم الرسل للدعوة ومحاجة قومه جعل خطابا خبريالا لتسليمته وتثبيت قلبه من جهة ولتخويف كفار قريش واندازهم من جهة أخرى - وهذا ملاحظ هنا أيضا ولكن بالنبي للاعتبار بالسنة العامة لا بالقصد الاول . والمعنى : ذلك شأن الرسل مع اقوامهم الهالكين ، وما ارسلنا نبيا في

( ١ ) أي لمشاركة المعطوف للمعطوف عليه

قوم الا وقد انزلنا بهم الشدائد والمصائب<sup>(١)</sup> بعد ارساله أو قبيله لنعمدهم ونؤهلهم بها للتضرع وهو إظهار الضراعة أي الضعف والخضوع لنا، والاخلاص في دعائنا بكشفها، فعمل تقييد الأعداد للشيء وجعله مرجوا. ومما ثبت بالتجارب وتقرر عند علماء النفس والاخلاق ان الشدائد وملاحج الامور مما يربي الناس ويصلح من فسادهم، فالؤمن قد يشغله الرضاء وهناء العيش فينسيه ضعفه وحاجته الى ربه، والشدائد تذكره به، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها بفقدها، فينقلب شاكرا بعدعودها، بل الكافر بالله عزوجل قد تنبهه الشدائد والاهوال مركز الشعور بوجود الرب الخالق المدبر لامور الخلق في دماغه، وتذكره بما أودع في فطرته من وجود مصدر لنظام الكون واقداره، كما وقم كثيرا، والآيات في هذا كثيرة تقدم بعضها، وقدروي لنا ان الحرب العظمى قد كان لها هذا التأثير حتى في أقل الناس تديننا وهم اهل مدينة باريس فكانت المعابد ترى مكتظة بالمصلين في اثناء شدائد الحرب

ومن مباحث البلاغة ان نكتة خلو جملة « اخذنا اهلها » الحالية من الواو وقد - هي أن الاصل في المقترنة بهما ان يكون مضمونها مقدما على العامل فيها كالجملة لاسمية . فاذا قلت ما فعل زيد كذا الا وقد اعد له عدته - كان المتبادر انه اعد ما قبل الشروع في فعله لاجله كقوله تعالى في الجملة الاسمية ( وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون ) أي متلبسون بالظلم من قبل لاجل اهلاك فقط، واذا قيل: ما فعله الا اعد له عدته - شمل إعداد ما قبله لاجله وهي الحال السابقة، واعدادها عند الشروع فيه وهي الحال المقارنة، بل هذه المتبادرة الى الذهن هنا كقولك: ما سألته الا اجابني، أي عند السؤال، ولا يصح أن تقول الا وقد اجابني، ويصح أن تقول ما سألته الا وقد أذن لي، أي قبل السؤال. فان قلنا انه يتعين ان تكون الحال مقارنته في الآية اقتضى ذلك ان يكون ما أفادته هي وما بعدها من الابتلاء بالسيئة ثم بالحسنة ثم بما يترتب عليها من الكثرة وكفر النعمة واقعا كما بعد ارسال الانبياء وفي عهدهم وهو قد يصدق في قوم نوح دون من بعده فلذلك قلنا انها تشمل الحال السابقة والمقارنة، فليتأمل فاننا لم نزال احد بحثنا في هذه المسألة. ولكن الامام عبد القاهر الجرجاني حقق أن الحال المفردة تقييد المقارنة والجملة الحالية

( ١ ) قالوا ان جملة اخذنا الحالية ولم تقرر بالواو وقد لوقوعها بعد « إلا » وهو جائز بالثلاثة الاوجه: الواو وحدها والواو مع قد وحذفها معا

تفيد سبق مضمونها و الفرق بعض الفقهاء بين قولك علي ان اعتكف صائما وقولك علي ان اعتكف وانا صائم وقد بينا هذا في تفسير (ولا تقر بوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا) الآية (فراجع في ص ١١٥ ج ٥ تفسير)

﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ أي ثم بلوناهم بضد ذلك فجعلنا الحالة الحسنة في مكان الحالة السيئة كاليسر بعد العسر ، والغنى في مكان عن الفقر ، والنصر عقب الكسر ، ﴿ حتى عفوا ﴾ أي كثروا ونموا كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وهو من عفا النبات والشجر والشعر ونحوه اذا كثر، وله شواهد عن العرب، وذلك ان اليسر والرخاء سبب لكثرة النسل وبه تتم نعم الدنيا على الموسرين . ومن الشواهد على هذا الابتلاء في القصص التي قفي عليها بهذه العبر قول هود عليه السلام لقومه ( واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ) وقول صالح « عم » لقومه ( واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبراكم في الارض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تمشوا في الارض مفسدين ) وقول شعيب « عم » لقومه ( واذكروا اذ كنتم قليلا فكثرتكم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ) ولكن لم تزد الآلاء هؤلاء الكافرين الا بغيرا وبطرا وفسادا في الارض

﴿ وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ أي وقالوا مع ذلك قولنا لا يدل على فساد فطرتهم ، والنظاس بصيرتهم ، وفقدتهم الاستعداد للاعطاء والاعتبار بأحداث الزمان ، وتغير احوال الانسان ، وتقلب شؤون العمران ، قالوا قد مس آباءنا من قبلنا ما يسوء وما يسر ، وتناوبهم ما ينفع وما يضر ، ونحن مثلهم يصيبنا ما اصابهم ، فتلك عادة الزمان في ابنائهم ، فلا الضراء عقاب من الخالق الحكيم على معاصي تقترف ورذائل ترتكب ، ولا السراء جزاء منه على صالحات تعمل ، وفضائل تلتزم . والمراد انهم جهلوا سنته تعالى في اسباب الصلاح والفساد في البشر وما يترتب عليهما من السعادة والشقاء ، المعبر عنها بقوله تعالى ( ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ) فلما ذكرهم رسالهم بها لم يتذكروا ولم يعتبروا ، بل نموا واعرضوا وانكروا

﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ أي فكان عاقبة ذلك ان اخذناهم

## الأعراف . س ٧ الشدائد تحييص وتربية للمؤمنين وثقمة على غيرهم ١٧

بالمعذاب فجأة وهم فاقدون للشعور بما سيصل بهم ، لانهم كانوا يجبولون سنن الله تعالى في الاجتماع البشري فلاهم عرفوها بعقولهم ، ولاهم صدقوا الرسل في نذُرهم ، وهذا معنى قوله تعالى في سياق سورة الانعام الذي ذكرناه آنفا ( ٦ : ٤٤ ) فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ) وذلك شأن الكافرين والجاهلین : اذا مسهم الشر يتسوا وابتأسوا ، واذا مسهم الخير اشروا وبطروا ، فاذا كان ذلك خيرا قوة وسلطة بغوا في الارض ، وأهلكوا الحرث والنسل

أصاب اهل بيت في احدى المدن السورية تفخة من جاه الشيخ محمد ابي الهدى الصيادي احد المقربين من السلطان عبدالحميد في عصره ، فنهبوا بجاهه الاموال وانتهكوا الاعراض ، وبغوا في الارض الفساد ، فكنا نتحدث مره في أمرهم فقلنا : ألم يكن خيرا لهؤلاء لو اغتنموا هذه الفرصة باصطناع الناس بالمعروف ، وعمل البر النافع للوطن ، فان جاه ابي الهدى ليس له دوام ، ومحو آمن هذا الكلام . فقال السيد الوالد رحمه الله تعالى : إن امثال هؤلاء لا يفهمون هذه الحكم ولا يعقلونها ، ولقد اصاب والدم من قبلهم رياسة إدارية صغيرة كواحد منهم فبغى وبطر وتكبر وتجبج وأذى الناس ، فنصحت له إدكان يوادني ويحترمني وذكرته بتغير الاحوال ، فقال لي يا سيد : ان لكل احد يوما يرقص له فيه الزمان فينبغي له أن يستمتع فيه ولا يضيع الفرصة على نفسه

وقد قال الله تعالى في هذا المعنى ١٧ ، ٨٣ واذا نعمنا على الانسان اعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يؤسأ ( ٨٤ ) قل كل يعمل على شاكلته فربكم اعلم بمن هو اهدى سبيلا ) وقال ( ٢٢ : ٤٥ ) وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم فان الانسان كفور ) المراد بالفرح ما كان عن بطر وغرور ، وقال ( ١٠ : ٢٢ ) هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم برح طيبة وفرحوا بها جاءتها ریح طاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظموا انهم احيط بهم - دعوا الله مخلصين له الدين : لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرن \* فلما ابحا اذاهم يغنون في الارض بغير الحق اقرآ تنمة الآية وما بعدها

وأما المؤمنون بالله وما جاء به رسله حقاً فهم الذين تكون الشدائد

والمصائب تربية لهم وتمحيصاً، كما تكون للكافرين عقاباً وإبلاصاً، وقد بين الله تعالى ذلك في مواضع من كتابه أظهرها بيانه إياه بالتفصيل في قصة أحد من سورة آل عمران إذ قصت حكيمته بأن يقصر المسلمون في سبب من أسباب النصر في الحرب فيظهر عليهم المشركون فينزل تلك الآيات الحكيمة المبينه للحقائق وستن الاجتماع في الحروب والشدائد التي أولها ( ٣ : ١٣٧ ) قد خلت من قبلك سنن فسيروا في الأرض فانظروا - الى قوله - ١٤١ - ولنجس الله الذين آمنوا ويحق الكافرين) ومنها قوله ( ١٢٠ ) ونلك الايام نداؤها بين الناس ) ولكن شأن المؤمن أن يعرف هذه المداولات بأسبابها وحكمها ويتجرى الاتعاظ وتربية نفسه بها، لا كما تراها الكافرون والجاهلون بظواهرها وصورها، والآيات التي بعدما أشرنا اليه منها تتمه وإيضاح لها، في اجمع تفسيرها في الجزء الرابع من التفسير. وفي معناها أحاديث كقوله صلى الله عليه وآله وسلم «عجباً لامر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لاحد الا لله مؤمن : ان أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه احمد ومسلم من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه

( فان قيل ) إننا نرى غير المسلمين يعلمون في هذا العصر ما لا يعلم المسلمون من هذه السنن الاجتماعية التي أرشد اليها القرآن ويستفيدون منها هرباً أو تقوى للمضار يظهر أثرها، استعدادهم للمصائب قبل وقوعها، حتى لا تأخذهم بغتة، وحتى يتلافوا شرورها بعد وقوعها بقدر الطاقة، ويرى أئمة المسلمين جاهلين وغافلين عن ذلك، وقد فتن بعضهم هؤلاء الأفرنج وحسبوا أنهم لا يكونون مثلهم في استمتاعهم واستعدادهم لدفع الشدائد، والاستفادة من الاحداث والوقائم، الا إذ أتوا الاسلام، ونبذوا هدية القرآن !! كفتنوا هم بالمسلمين باحتقارهم لدينهم تبعاً لاحتقارهم لهم، وطعناً فيه بما يظنون من تأثيره في ادلالهم واصعافهم، فما قولك في ظلم الفريقين له ، وفي انتهاء الحرب العامة الاخيرة باستيلاء غير المؤمنين ، على أقطار عظيمة من بلاد المسلمين ؟ وكون أشد اهل هذه الاقطار استسلاماً للذل وخضوعاً للقهر ، هم الذين يدعون أنهم أصح إيماناً ، وأحسن اسلاماً ؟ حتى كان ذلك فتنة لبعض زعماء شعب سلم من الهلاك بعد ان كاد يحاط به ، فظنوا ان التقييد بالاسلام سبب الهلكة ، واللقاء بالأيدي الى إتهلكة ، وإن في الانسلال منها المنجاة وارتقاء المملكة ؟

(قلنا) اننا كشفنا أمثال هذه الشهات ، في تفسير كثير من الآيات ، وفي غير التفسير من المنار ، وبيننا مراراً أن المسلمين قد تركوا هداية القرآن في حدوداتهم ومصالحهم العامة ، وفوضوا أمورهم الى حكاهم الذين يندر أن يوجد منهم من له إلمام بتفسيره أو علم السنة ، حتى من سلموا لهم بمنصب خلافة النبوة — كما تركوا هداية الكتاب والسنة في أعمال الافراد ، فأكثرهم لا يعرف من دينه الا ما يسمعه ويراه ممن يعيش معهم من قومه وفيه الحق والباطل والسنة والبدعة ، وأقلهم يتلقى عن بعض الشيوخ بعض كتب الكلام الجدلية التي ألقت الرد على فلسفة نسخت وبدع باد أهلها ، وكتب الفقه التقليدية الخالية من جل هداية القرآن والسنة في مثل موضوع الآيات التي نحن بصدد تفسيرها ، وما أشرنا اليه في هذا التفسير من آيات الشواهد ، حتى بلغ الجهل من المسلمين في أم المسائل الخاصة بحياتهم السياسية التي هي مناط دلتهم وبقاء ملكهم أو زواله (وهي مسألة الامامة العظمى أن يكتب الافراد والجماعات من علماءهم فيها ما هو مخالف لجميع أئمتهم ومذاهبهم ولاجماع سلفهم ، على ما هفت ظاهر ، واختلاف فاضح . على ان العلماء المتقدمين قد قصروا في هذه المسألة وهم الذين كان العارضة من صفاتهم وملكهم من ملكاتهم ، لا ورقة شهادة يحملونها ممن سبق الاجماع على أن مثلهم من المقلدين لا يعدعالمًا في خاصة نفسه ، حتى يمتد بشهادته لغيره ، بله ما عرف عن بعضهم من شهادة الزور ، وقول الكذب واكل السحت ، وقد استسفر بعض مجاوري الازهر المقدمين لامتحان شهادة العالمية واحدا منهم لمرض الرشوة على الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ليساعدهم في الامتحان فضر به الاستاذ رحمه الله بيديه ، ورفسه برجليه ، وقال له : يا عدو الله أريد أن أغش المسلمين بك وبأمثالك من الجاهلين بعد هذه الشبهة وانتظار لقاء الله ، فأكون ممن يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ؟ ولو كنت ممن يطيبهم المال ، ويحفلون بجمعه ولو من الحلال ، لكنت من أغنى الاغنياء ؟

ولما كان القرآن هو الذي هدى المسلمين الى أنواع العلم ، وأعطاهم الحكمة والحكم ، كان تركهم لهدايته هو الذي سلمهم ذلك حتى انقلب الامر ، وانعكس الوضع ، واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع — كما صح في الحديث — فالسواد الاعظم الجاهل اتبع سنن أهل الكتاب في شر ما كانوا عليه في طور جهلهم من الخرافات ، وابتداع الاحتمالات ، وتقليد الآباء والاجداد ، واتخاذ



الارباب والانداد ، كاعطاء حق التحريم والتحليل للاخبار والرهبان ، وطلب النعم ودفع الضر من دجالي الاحياء وقبوا الاموات ، فغشيهم ماغشي اولئك من ظلمات الجبل ، وجعل الدين عدوا للعلم والعقل ، والنايئة المصرية المتفرنجية اتبعت سنن المرتدين والفاسقين منهم ، في شر ما صاروا اليه في طور فساد حضارتهم ، وقلدوهم حتى فيما لا ينطبق على احوالهم ومصالحهم ، لذلك ضل الفريقان عن هداية القرآن ، واشتركا في اضاءة ما بقي من ملك الاسلام

لا عالم الشرق بدينه ولا مقتبس العلم من الغرب هدى  
 وأما الافرنج فهم وان كانوا على علم واسم بسنن الله في احوال البشر وسائر امور الكون ، قد نالوا به ملكا عظيما في الارض ، فأكثرهم يجمل مصدر هذه السنن وحكم الله تعالى فيها ولا يعتبرون حق الاعتبار بما تعقب الشرور والمعاصي من الفساد في الارض ، فهم كأقوام اولئك الرسل الذين لم تقدمهم النعم شكر الرب المنعم ، ولم تقدمهم النعم تقوى الرب المنتقم ، فقد استعملوا نعمه بالعلوم والتموز وتسخير قوى العالم لاستعباد الضعفاء ، والسرف في فجور الاغنياء ، والنقائل على السلطان والثراء ، ولذلك سلط الله بعضهم على بعض ، وصدق عليهم قوله عز وجل : ٦ : ٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض \* انظر كيف نصرف الآيات لعلمهم بفقهمون ) كما بيناه في تفسيرها ( ص ٢٩٢ ج ٧ تفسير )

فعلم بما ذكر وبغيره أن العلم بسنن الاجتماع وال عمران لا يعني عن هداية لدين التي توقف أهواء البشر ومطامعهم أن نجمح الى ما لا غاية له من الشر ، اولو لا أن عند بعض أمم أوربة بقية قليلة منها تتفاوت في أفرادهم قوة وضعفاً ، لحشرتهم المطامع والاحقاد صفا صفا ، فدكوا معالم ارضهم التي بلغت منتهى العمران دكا دكا ، فجعلوها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ، بل جعلوها بعددك صروحها وهادأ عميقة ، ومهاوي سحيقة ، بقذائف المدافع الضخمة التي تشق الارض شقا ، وتسحق ما فيها سحقاً ، على أنهم قد شرعوا ، فأما ان يجزوا واما أن يزرعوا .

قال تعالى في سورة هود ( ١١ : ١١٦ ) فلو لا كان من القرون من قبلكم اولو بقية ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا ممن انجينا منهم واتبع

(الاعراف . س ٧ ) قرب هلاك أوربة بالترف والفسق كغيرها ٢١

الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ( ١١٧ ) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ) القرون هي الاجيال والشموب، واولو بقية اصحاب بقية من دين وتقوى وعقل وحكمة، روى ابن مردويه عن ابي بن كعب قال أقراني رسول الله صلى الله عليه وسلم ( فلولا كان من القرون من قبلكم اولو بقية - واحلام - ينفون عن الفساد في الارض ) والاحلام العقول الراجحة<sup>(١)</sup> . والمراد من التحضيض في الآية الاولى النفي اي انه كان ينبغي ان يكون في القرون الذين كانوا قبل ظهور الاسلام بالاصلاح العام اصحاب بقية من دين موسى وعيسى وغيرهم من الانبياء أو حكماء العقلاء الذين فسروهم الامرون بالعدل في قوله تعالى ( ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ) ولكن لم يكن ذلك الا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الا كثرون ما أترفوا فيه من الشهوات واللذات، وكانوا ظالمين لانفسهم وللناس، اي ازال الله ملكهم بظلمهم وبطهرهم وتركهم للاصلاح في الارض . قال مجاهد في اتباع هذا الاتراف: في ملكهم وتجبرهم وتركهم الحق .

ومعنى الآية الثانية انه لم يكن من شأن ربك ايهما الرسول المصلح ولا من سنته في خلقه ان يهلك المواسم والمدائن بظلم منه أو بشرك من أهلها والحال أنهم مصلحون في أحكامهم وأعمالهم ، وفي التفسير المرفوع الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سئل عن قوله تعالى ( وأهلها مصلحون ) فقال « وأهلها ينصف بعضهم بعضا » رواه الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جرير « رض » وروي عنه موقوفا أيضا

وهؤلاء البقية لانهلوا منهم أمة فهم حجة الله على الاقوام، ومتى قلوا في امة غلب عليها الفساد، وقرب انتقام الله منها . وقد شهد القرآن بوجود اناس منهم كانوا في أهل الكتاب، وهم يفلون في أوربة عام بعد عام، وقد كان من اصحاب الاحلام منهم الفيلسوف هربرت سبنسر الانكليزي الذي نهى اليابانيين عن الاستعانة بقومه الانكليز على اصلاح بلادهم فيها ، وقال لهم انهم اذا دخلوها لا يخرجون منها . وقال الاستاذ الامام حين تلاقيا بمدينة ( بريتن ) في صيف سنة ١٣٢١ ( ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٣ ) ما ترجمته : محي الحق من عقول أهل

(١) ماورد في احاديث الاتحاد مثل هذا لما لا تثبت به قراءة فهو من قبيل التفسير

فان كان ظاهر لفظه أنه قراءة حمل على أنه مروي بالمعنى

أوربة واستحوذت عليها الافكار المادية فذهبت بالفضيلة . وهذه الافكار المادية ظهرت في الثلاثين أولا فأوسدت الاخلاق وأضعفت الفضيلة ، ثم سرت عدواها منهم الى الانكليز فهم الآن يرجعون القهقري بذلك ، وسترى هذه الامم يختبئ بعضها ببعض وتنتهي الى حرب طامة ليتبين أيها الاقوى فيكون سلطان العالم

قال له الامام : اني آمل أن يحول دون ذلك هم الحكماء ( مثلكم ) واجتهادهم في تقرير مبادئ الحق والعدل ونصر الفضيلة  
قال الفيلسوف : وأما أنا فليس عندي مثل هذا الامل فان هذا التيار المادي لا بد أن يبلغ مده غاية حده

وأقول اني ذكرت في هذا الممنى سياسيا اوربيا في جنيف من بلاد سويسرة فرأيتته يعتقد اعتقاد سبنسر بل أخبرني ان كثيرا من عقلاء اوربة يعتقدون ان فساد الاخلاق بالترف الذي أهلك الامم الكبرى كالليونان والرومان والفرس والعرب قد أوشك ان يقضى على اوربة وستهلك بالحرب التي تلي هذه الحرب الاخيرة ، وما هي ببعيدة . ونصح لنا بان لا نقلد اوربة في مدينتها المادية ، وان نحافظ على آداب ديننا وفضائله ، وأن نجتمع كلمتنا ، ونجعل الزعامة فينا لاهل الرأي والفضيلة منا ، وتربص الدوائر بالاوربيين المعتدين علينا <sup>(١)</sup> وجملة القول أن الانسان حيوان النسي وحشي بجسده ، وملك روحاني بعقله وروحه ، وانه انما يكمل بكمال العقل والروح ويعتدل بالتوازن بينهما ، ولا يكون هذا الا بهداية الاسلام الجامع لكل ما يحتاج اليه البشر من ذلك ، ولهذا نصحننا لزعماء الترك المقتونين بمدينة الافرنج المادية لجهلهم بما يفتك بها من دود الفساد بأن يقيموا حكم الاسلام واصلاحه الذي يكفل لهم القوة المادية والعمران وقيهم غوائل هذا الفساد كالبشفية التي نلت عرش قيصرية الروسية فقلنا في فاتحة الكتاب الذي صنفتناه في مسألة ( الخلافة — أو — الامامة العظمى ) ما نصه :

« أيها الشعب التركي الحمي ! ان الاسلام أعظم قوة معنوية في الارض ، وانه هو الذي يمكن أن يحيي مدينة الشرق وينقذ مدينة الغرب ، فان المدينة لا

(١) راجع التبذة ٦ من رحلتنا الاوربية التي نشرت ج ٨ من المجدد ٢٣ من المنار

تبقى الا بالفضيلة ، والفضيلة لا تتحقق الا بالدين ، ولا يوجد دين يتفق مع العلم والمدنية الا الاسلام ، وانما عاشت المدنية الغربية هذه القرون بما كان فيها من التوازن بين بقايا المصائر المسيحية ، مع انتشار من العلم الاستقلالي والتعاليم الكنسية فان الامم لا تنسى من مصائر دينها ، بمجرد طرود الشك في عقائده على أذهان بعض الافراد والجماعات منها ، وانما يكون ذلك بالتدرج في عدة أجيال ، وقد انتهى التنازع ، بفقد ذلك التوازن ، وأصبح الدين والحضارة على خطر الزوال ، واشتدت حاجة البشر الى إصلاح روجي مدني ثابت الاركان ، يزول به استعباد الاقوياء للضعفاء ، واستئلال الاغنياء للفقراء ، وخطر البلشفية على الاغنياء ، ويبطل به امتياز الاجناس ، لنحقق الاخوة العامة بين الناس ، ولن يكون ذلك الا بحكومة الاسلام ، التي بينها بالاجمال في هذا الكتاب ، ونحن مستعدون للمساعدة على تفصيلها ، اذا وفق الله للعمل بها

«أيها الشعب التركي الباسل : انك اليوم قدر الشعوب الاسلامية ، على أن تحقق للبشر هذه الامنية ، فاغتنم هذه الفرصة لتأسيس مجد إنساني خالد ، لا يذكر معه مجدك الحربي التالذ ، ولا يجرم منك المتفرنجون على تقليد الافرنج في سيرتهم ، وأنت أهل لان تكون إماما لهم بمدنية خير من مدنيتهم ، وما تم الا المدنية الاسلامية ، الثابتة قواعدها المعقولة على أساس العقيدة الدينية ، فلا تزلزلها النظريات التي تعبت بالعمران ، وتفسد نظم الحياة الاجتماعية على الناس»

نصحننا للشعب التركي بهذا ولكن زعماء الكماليين اليوم كزعمائة الاتحاديين من قبلهم قد فتنوا بهذه المدينة المادية ، وجهلوا كنه الاسلام والحكومة الاسلامية ، وقد اعذرنا اليهم بديانها ، وانذرناهم عذاب الله باهلها ، فتماروا بالنذر ، وطفقوا بظلمون ما بقي من الاسلام في حكومتهم وامتهم ، وسئرى ما يكون من امرهم ، وقد ظهر ما كان مستورا من فساد سريرتهم ، ونسأله تعالى لنا ولهم صلاح الحال ، وحسن المآل .

(٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا بِمَنِّهِمْ رَبَّكَاتٍ

مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

لما بين الله سبحانه أخذه لاهل القرى الذين كذبوا الرسل بما كان من كفرهم

وظلمهم لا نفسهم وللناس بين لاهل أم القرى «مكة» ولسائر الناس ما كان يكون من اغداق نعمه تعالى عليهم لو آمنوا بالرسول ، واعتبروا بالسنن ، فقال :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴾ أي آمنوا بما دعاهم إليه رسالهم من عبادة الله وحده بما شرعه من الاعمال الصالحة واتقوا ما نهوهم عنه من الشرك والفساد في الارض بالظلم والمعاصي كارتكاب الفواحش ، وأكل أموال الناس بالباطل ، ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ﴾ قرأ الجمهور فتحنا بالتخفيف من الفتح وقرأها ابن حاصر بالتشديد من التفتيح الدال على الكثرة ، والمعنى لفتحنا عليهم أنواعاً من بركات السماء والارض لم يمهّدوها مجمعة ولا متفرقة . فاذا أريد ببركات السماء معارف الوحي العقلية ، وانوار الايمان الروحانية ، وتفحات الالهامات الربانية ، فالمعنى أن فائدة الايمان واتباع الرسل عليهم السلام تكون تكميل الفطرة البشرية وروحا وجسداً ، وغايته سعادة الدارين الدنيا والآخرة ، واذا أريد ببركات السماء المطر وبركات الارض النبات كما قيل فالمعنى انها ابواب نعم تكون بركات لهم غير التي عهدوا في صفتها ونماؤها ونباتها وحالتهم فيها وأثرها فيهم ، وبذلك تكون بركات فان مادة البركة تدلّ على السعة والركاء من بركة الماء ، وعلى النبات والاستقرار من برك البعير ، الم تقرأ او تسمع قوله تعالى من سورة هود ( ١١ ) : ٤٨ قيل يأنوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك ، وامم سنمتهم ثم يمسه من عذاب اليم ) يخص المؤمنين بالبركات وجعل نعمة الدنيا متاعاً موقتماً للكافرين يتلوه العذاب ، لذلك لم يعظفهم على من قبلهم روى عن محمد بن اصبغ القرظي انه دخل في تلك البركات كل مؤمن ومؤمنة - وفي ذلك لمتاع والعذاب الاليم كل كافر وكافرة . وعن الضحاك قال ( وعلى امم ممن معك ) يعني ممن لم يولد اوجب لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة - ( وامم سنمتهم ) يعني متاع الحياة الدنيا ( ثم يمسه من عذاب اليم ) لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة فالفائدة المقررة في القرآن ان الايمان الصحيح ودين الحق سبب لسعادة الدنيا ونعمتها بالحق والاستحقاق وان الكفار قد يشاركونهم في المادي منها كما قال تعالى فيهم من سورة الانعام ( فلما سوا ما ذكرناه ففتحنا عليهم ابواب كل شيء ) فذلك الفتح ابتلاء واختبار لخالهم كان أثره فيهم فرح البطر والاشهر بدلا من الشكر وترتب عليه العقاب الالهي فكان نعمة لا نعمة ، وفتنة لا بركة .

وأما المؤمنون فإن ما يفتح عليهم يكون بركة ولعنة ويكون أثره فيهم الشكر لله عليه والرضا منه والاعتباط بفضله واستعماله في سبيل الخير دون الشر، وفي الإصلاح دون الفساد، ويكون جزاؤه عم عليه من الله تعالى زيادة النعم ونحوها في الدنيا وحسن الثواب عليها في الآخرة، فالفارق بين الفتحين يؤخذ من جعل هذا من البركات الربانية، ومن تكبيره الدال على أنواع لم يمهدها الكفار، ومما ورد في الآيات الأخرى الدالة على أن غاية هداية الأيمان لجمع بين سعادة الدنيا والآخرة، لقوله تعالى خطاباً للبشر موجه لآبائهم من قصة آدم في سورة طه (٢٠١، ٢٠٢) فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هدي فلا يضل ولا يشقى (١٢١) ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة صنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وقوله في خطاب بي آدم من هذه السورة بعد ذكر قصته المبينة لخواص هذا النوع وحكم الله في خلقه والاصول العامة لدين الرسل الذين يبعثهم لهدايتهم ٣١، ٣٢ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المترفين (٣١) قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للدين آمين وفي الحياء لدنيا خاصة يوم القيامة، كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون) فراجع تفسيرهما في الجزء الثامن من التفسير فهذا بيان لكون أصل الدين يقتضي سعادة الدنيا قبل الآخرة من أول النشأة البشرية في عهد آدم وتقدم آتيا ما أنزله تعالى على نوح وهو الأب الثاني للبشر وقال تعالى حكاية عن هود في سوره (١١: ٥٢) ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم) وهذه الآيات كلها حجج على أعداء الإسلام من المنتهين إليه من غيرهم الزاعمين أنه — وكذا كل دين الهلبي — سبب للضعف والفقير!!

﴿ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ من أعمال الشرك الخرافية والمعاصي المفسدة لنظام الاجتماع البشري، فكانت أخدم بالعقاب أثراً لازماً لكسبهم بحسب سنن الكون، وعبرة لامثالهم ان كانوا يعقلون

(٩٦) أَمْ لَنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ رَسُولٌ مُّسْنَأٌ بِبَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ

(٩٧) أَمْ لَنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ رَسُولٌ مُّسْنَأٌ صَحِيحٌ وَهُمْ يَأْمِنُونَ؟

« الجزء التاسع »

« ٤ »

« تفسير القرآن الحكيم »

(٩٨) أَفَلَيْدُونَ مَكْرَ اللَّهِ؟ فَلَا تَأْنُتُكَ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ  
 (٩٩) أَوْ يَدُ الَّذِينَ يَرْتُونَ الرِّضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِيهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ  
 أَصَبْنَاكُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ إِلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ؟

هذه الآيات الأربع إنذار لامة الدعوة المحمدية عربها وعجمها من عصر النور الاعظم الى يوم القيامة لتمتير بما نزل بغيرها . كما ترشد اليه الرابعة منها . وأهل القرى فيها يراد به الجنس اي الامم ، ويحتمل أن يكون المراد به من ذكر حالهم فيما تقدم وضع المظهر فيه موضع المضمحل يدل على ان مضمونها ليس خاصا بأقوام بأعيانهم فيذكر ضميرهم بل هو قرأعد عامة في أحوال الامم ، فيراد بالاسم المظهر العنوان العام لها ، لا احاد ما ذكر منها ، ولو ذكرها بضميرها او اسم الاشارة لذي يعينها ، لدل على أن العقاب كان خاصا ، لا داحلا في افراد سنة عامة ، وهذا غير ما كان يصرف الاقوام الجاهلة الكافرة عن الاعتبار بعقاب من كان قبلها ، ويحتمل أن يكون المراد به أهل أم القرى عاصمة قوم الرسول الخاتم وعشيرته الاقربين وسائر قرى الامم التي بعث ( ص ) الى أهلها من حيث إن بعثته عامة

﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ﴾ الاستفهام للتذكير والتعجب من امر ليس من شأنه أن يقع من العاقل والفاء عطف على محذوف تقديره على الوجه الاول . اغر اهل تلك القرى ما كانوا فيه من نعمة حين كذبوا الرسل فأمنوا ان يأتيهم بأسنا ؟ إلخ وعلى الثاني أجهل اهل مكة وغيرها من القرى التي بلغتها الدعوة . ومثلها من ستبلغها . ما نزل عن قبلهم وغيرهم ما هم فيه من نعمة فأمنوا أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم — أو اتيان بيات — وهو الهجوم على العدو ليلا وهو بائت فقوله « وهم نائمون » حال مبينة لغاية النفلة وكون الاخذ على غرة كما قال فيمن عذبوا « فأخذتهم بغتة » وليراجع تفسير الآية ٣ من هذه السورة . وكمن قرية اهلكناها فجاءها بأسنا بياتا وهم قائلون

﴿ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر « أو » بسكون الواو ، والمعنى بحسب أصل اللفظة أمنوا ذلك الاتيان أو هذا؟ وهو لا يمنع الجمع بين الامنين — وقرأ الباقون بفتح

الواو على أن الهمة للإنكار والواو للعطف على محذوف كألدي قبليه ، وقد أعيد الاستفهام وما يتعلق به لنكمة وضع امظهر موضع المضمر التي بينها أنفا . والضحى انبساط الشمس وامتداد النهار ويسمى به الوقت ، أو ضوء الشمس في شمس النهار ، واختاره الاستاذ الامام . واللعب بفتح اللام وكسر العين ما لا يقصد فاعله بسبب منقمة ولا دفع مضرة بل يفعله لاس له به أولئذ له فيه كعب الاطعال ، وما يقصد به العقلاء رياضة الجسم قد يخرج عن حقيقة اللعب ويكون اطلاقه عليه مجازيا بحسب صورته ، وكم من عمل صورته لعب أو هزل ، وحقيقته حكمة وجد ، وكم من عمل هو عكس ذلك كالعامل الفاسد الذي يقصد به ما يظن أنه نافع وهو ضار ، وما يتوهم انه حكمة وهو عبث وخرق ، وقد يكون اطلاق اللعب على أعمال هؤلاء الجاهل الغافلين من هذا الباب : أي أو أمن اهل القرى ان يأتيهم عذابنا في وقت الضحى وهم مهملون في أعمالهم التي تعد من قبيل لعب الاطفال لعدم فائدة تترتب عليها مطلقاً أو بالنسبة الى ما كان يجب تقديمه عليها من سلوك سبيل السلامة من العذاب؟

فأما أهل القرى من الغابرين فالظاهر ما حكاه الله تعالى عنهم أنهم كانوا آمنين اتيان هذا العذاب ليلاً ونهاراً فكان إتيانه إياهم فجأة في وقت لا يتسم لتلافيه وتداركه فالاستفهام لا يظهر في شأنهم إلا بماؤ لا يحتاج الى مثله في اهل القرى الحاضرين ، ومن سيكون في حكمهم من الآتين ، والمراد انه لم يكن لهم ان يأمنوا لو كانوا يعملون ، فان وجود النعم ليس دليلاً على دوامها ، فكم من نعمة زالت بكفر اهلها ، وهذا ما كان يجمله الذين قالوا قدمس آباءنا الضراء والسراء ، فراوا صورة الواقع وجهلوا اسبابه . واما الحاضرون فلا يعذرون بالجهل ، بعد ان بين لهم القرآن كنه الامر، وسنن الله في الخلق ، ولكن ادعياء القرآن ، قد صاروا اجهل البشر بما جاء به القرآن ، ويدعي بعضهم ان سبب جهلهم الاتناء الى دين القرآن !!!

﴿ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ﴾ قال الراغب المكر صرف الغير عما تقصده بحيلة . وقسمه الى محمود ومذموم . وأصح منه وأدق قولنا في تفسير ( ٣ : ٥٤ ) ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ) : المكر في



الاصل التدبير الخفي المفضي بالمكوره الى ما لا يحتسب . وقتيما اعلى هذا التعريف بيان السيء والحسن من المكر وون الاكثر فيه ان يكون شيئاً كالشأن وغيره من الامور التي يتجرى إخفاؤها ، وفيه أن مكر الله تعالى وهو تدبيره الذي يخفى على الناس انما يكون باقامة سننه وإتمام حكمه ، وكلها خير في أنفسها وان قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بحيلهم وسوء اختيارهم اه والمراد بالجهل ما يتعلق بصفات الله تعالى وسننه اغتراراً بالظواهر ، كأن يغتر القوي بقوته ، والغني بثروته ، والعالم بعلمه والعابد بعبادته ، فيخطيء تقديره ما قدره الله تعالى فيظن أن ما عنده يبقى ، وما يترتب عليه من الآثار في ظنه لا يتخلف ، كما أخطأ الألمان في تقدير قوتهم وقوة من يقاتلهم من الدول فلم يحسبوا أن تكون دولة الولايات المتحدة منهم

والمعنى أكان سبب أمنهم إتيان بأسنا بيانا أو ضحى وهم غافلون أنهم أمنوا مكر الله بهم باتيانهم من حيث لم يحتسبوا ولم يقدرُوا ؟ ان كان الامر كذلك فقد خسروا أنفسهم فانه لا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون . وقد سبق الكلام في خسران النفس في غير هذا الموضوع

واذا كان أمن العالم المدر والصالح المتعبد من مكر الله تعالى جهلا يورث الخسر ، فكيف حال من يأمن مكر الله وهو مسترسل في معاصيه انكالا على عفوه ومغفرته ورحمته ؟ قال تعالى : وذلكم ظمكم الذي ظننتم بربكم ارداكم فأصبحتم من الخاسرين (وأعلم الناس بالله واعبدهم له واقربهم اليه هم أبعدخلقه عن الامن من مكره ، اذ لا يصح أن يأمن منه الا من أحاط بعبده ومشيئته ، وليس هذا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، (يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) ألم تر الى الرسل الكرام كيف كانوا يستشون مشيئته حتى فجعصمهم منه ؟ كقول شعيب الذي حكاه الله عنه قبيل هذه الآيات (قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وصم ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ) وقد كان أصلح البشر وخاتم الرسل (ص) يكثر من الدعاء بقوله « يا مقلب القلوب والابصار ثبت قلبي على دينك » كما ثبت في الصحاح وقد ذكر تعالى ان الراسخين في العلم يدعون به بقوله ( ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك انت الوهاب )

وقال ( انما يخشى الله من عباده الغفلة ) ويتقارب الامم من ربك انما ضده وهو  
البأس من رحمة الله . فكل منهما مفسدة تبينها مفسدة ثمرة

﴿ اولم يهد للذين يرثون الارض من بعد اهلها ان لو نشاء اصبناهم بدنوبهم ﴾  
يقال هداه السبيل او الشيء وهداه له وهداه اليه — اذا دله عليه وبينه له ،  
واهل الغور من العرب كانوا يقولون هدى له الشيء بمعنى بينه له نقله في  
( لسان العرب ) وذكر انه قد فسر به ما في الآية وامثالها . وهذا التعبير ورد  
في سياق النفي والاستفهام . ومثله في سورة طه ( ٢٠ : ١٢٠ ) افلم يهد لهم  
كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ان في ذلك لايات  
لاولي النهي ) وفي سورة ( الم - السجدة ) ( ٣٢ : ٢٦ ) اولم يهد لهم كم اهلكنا  
من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ؟ ان في ذلك لايات أفلا يسمعون )  
والسياق الذي وردت فيه آية الاعراف التي نفسرها مثل السياق الذي وردت  
فيه آيتا طه والسجدة . والاستفهام هنا داخل على فعل محذوف عطف عليه  
ما بعده كما سبق في لطائره وللتنكير وجوه كلها تفيد العبرة فهو كما تذهب  
النفس فيه مذاهب من أفرها أن يقال : أكان مجهولا ما ذكر أنفا عن القرى  
وسنة أهل الله تعالى فيهم ولم يبين للذين يرثون الارض من بعد أهلها قرنا بعد  
قرن وجيلا في اثر جيل - او ولم يتبين لهم به — ان شأننا فيهم كشأننا فيمن  
سبقهم وهوانهم خاضعون لمشيئتنا فلونشاء أن نصيبهم ونعذبهم بسبب ذنوبهم  
اصبناهم كما اصبنا أمثالهم من قبلهم بمثلها . وقوله تعالى ﴿ وان طبع على قلوبهم ﴾  
معطوف على « اصبناهم » لانه بمعنى نصيبهم اذ الكلام في الذين يرثون الارض  
في العصر الحال أو المستقبل على الاطلاق وليس في قوم معينين طبع الله على قلوبهم  
بالفعل كما ظن الزمخشري وغيره فمعنى هذا العطف وقالوا المعنى : ونحن نطمع  
على قلوبهم . والمراد أنه ينبغي لمن يستحقهم الله في الارض، ورثون ما كان  
لمن قبلهم من ملك وملك، ان يقر الله ولا يكونوا من المفسدين الظالمين،  
ولا من المترفين الفاسقين ، وان يعاموا اذ من الحنم عقاب الامم على السيئات  
وقد خلت من قبلهم المثلات . فلم يكن ما حل بمن قبلهم من المصادقات، بل هو  
من السنن المطردة بالمشيئة والاختيار، فلا هوادة فيه ولا ظلم ولا محاباة . والناس  
في ذلك فريقان : فريق يصاب بذنبيه ، فينمط ويتوب الى ربه ، وفريق يصر

عليه حتى يطبع على قلبه. وهو مستعار من طبع السكة ونقشها. - سورة او كتابة لا تقبل غيرها او من الطبع الذي بمعنى الختم كقوله تعالى ختم الله على قلوبهم ( والطابع والخاتم ) بفتح الباء والتاء ) واحد . وقيل انه مأخوذ من الطبع ( بالتحريك ) وهو الصداً الشديد يعرض للسيف ونحوه فيفسده . يقال طبع الطباع السيف والدرهم - أي ضربه، وطبع الكتاب وعلى الكتاب وختمه اذا ضرب عليه الطابع والخاتم بعد إتمامه ووضع في ظرفه حتى لا يدخل فيه شيء آخر . ومنه الطبع والطبيعة وهي الصفة الثابتة للشيء أو الشخص ، فالسجينة نقش النفس بصورة ثابتة لا تتغير لان ما يتغير لا يسمى طبيعة . ومنه طبع الكتب في الآلة المعروفة بالمطبعة سمي بذلك لانه لا يقبل المحو والتغيير كالخط ، على ان الناس قد صنعوا أحبارا لا تمحى ايضا

ولا يستعمل الطبع على القلوب الا في الشر والمراد به انها وصلت من الفساد الى حالة لا تقبل معها خيرا كالهدي والابمان والعلم النافع الذي هو فوقه الامور ولبابها ، وانما يحصل بالاصرار على الشرور والمعاصي استحلالا واستحسانا لها، حتى لا يعود في النفس موضع لغيرها ، قال تعالى في اليهود ( ٤ : ١٥٤ ) فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقوطم قلوبنا غلف - بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا ) اي الا قليلا منهم وهم الذين لم يطبع على قلوبهم . وقال تعالى في المنافقين ( ٩ : ٨٨ ) وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ) ومثله في سورتهم . وقال هنا ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ اي فهم بهذا الطبع لا يسمعون الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر واتعاظ ، ( وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون ) ما يراد منها ، لان قلوبهم قد ملئت بما يشغلهم عنها ، من آراء وافكار وشهوات ملكت عليها أمرها ، حتى صرفتهم عن غيرها ، فجعلتهم من ( الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا )

قد كان ينبغي للمسلمين وهذا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الامم التي هلك بها من قبلهم وزال ملكهم ، ودالت بسببها الدولة لاعداهم ، اذ بين لهم ان ذنوب الامم لا تغفر لذنوب بعض الافراد وسنته فيها لا تتبدل ولا تتحول ، ولكنهم قصروا

اولا في تفسير أمثال هذه الآيات الميمنة لهذه الحقائق ، ثم في وعظ الامة بها ، وانذارهم عاقبة الاعراض عنها ، وترك الاعاظ بتدبرها ، ومن يقرأ شيئا من تفسيرها فأما يعنى باعرابها ، والبحث في الفاظها ، أو جدل المذاهب فيها ، ثم انهم يحملون معانيها خاصة بالكافرين ، ويفسرون الكافرين بمن لا يسمون انفسهم مسلمين ، وطالما انكر علينا بعض ادعياء العلم والدين ، اننا جعلنا الآيات التي نزلت في الكفار ، شاملة لاهل الاسلام ولايمان مأفوكين عن تدبرها المراد منها جاهلين للسنن العامة فيها . وكذلك كان يقول اهل الكتاب من قبلهم ، فظنوا كما ظنوا ان الله تعالى يحابي الاقوام لاجل رسولهم ، وأنه يعطيهم سعادة الدنيا والآخرة مجاههم لا باتساعهم ، وقد راجت هذه العقائد الفاسدة في المسلمين ، وكانت تجاره للشيوخ المقلدين الجامدين ، والدجالين المضالين المضلين (فما رحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . بل كانوا فتنة للكافرين ، وحنة على الدين ، كما بيناه من قبل وفي هذا السياق أيضا : أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفاهاها ؟ أفلا يعتبرون بقول رسولهم اص ) « شيتنى هودواخواتها » (١) أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين \* أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون )

(١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَسِقِينَ

وجه الخطاب في هاتين الآيتين الى النبي صلى الله عليه وسلم لاجل تسليته وتثبيت فؤاده بما في قصص أولئك الرسل مع أقوامهم من العبر والسنن التي

(١) رواه الطبراني في الكبير عن عتبة بن عامر وأبي جحيفة بسند صحيح ، ورواه هو والترمذي والحاكم عن غيرها وفيه زيادة بيان لآخواتها وابن عساکر برسالة بزيادة « وما فعل بالامم قبلي » وهو وجه العبرة بهود

بين فقها وما فيها من الحكيم في الآيات السبع التي قبلها . قال تعالى

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبأها ﴾ كلام مستأنف قفي به على جملة قصص الرسل عليهم السلام التي تقدمت وما عطف عليها من بيان حكمها وفقها فكانت كالفلك لها ، فالقرى هنا هي المعهودة في هذه القصص ، وحكمة تخصيصها بالذكر أنها كانت في بلاد العرب ما جاورها كان من يمدقوم نوح من العرب ، وكان أهل مكة وغيرهم من العرب الذين عم أول من وجهت إليهم دعوة الاسلام ينقلون بعض أخبارها مبهمه مجمله ، وكانت على هذا كله قد طبعت على غرار واحد في تكذيب الرسل ، والتمازي فيما جاؤا به من النذر ، الى أن حل بهم الكمال ، وأخذوا بعذاب الاستئصال ، فالعبرة فيها كلها واحدة . وليس كذلك قوم موسى فانهم آمنوا . وانما كذب فرعون وملوه فعذبوا ، ولذلك آخر قصته والمعنى تلك القرى التي بعد عهدها ، وطال الامد على تاريخها ، وجهل قومك أيها الرسول حقيقة حالها ، نقص عليك الآن بعض أنبأها ، وهو ما فيه العبرة منها ، وإنما قال نقص لا قصصنا لان هذه الآية نزلت مع تلك القصص لا بعدها .

﴿ ولقد جاءهم رسلكم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما نذروا به من قبل ﴾ أي ولقد جاء أهل تلك القرى رسلكم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم ، وبالآيات التي اقترحوها عليها لإقامة حججهم ، بأن جاء كل رسول قومه بما أعذر به إليهم ، فلم يكن من شأنهم أن يؤمنوا بعد مجيء البينات بما كانوا كذبوا به من قبل مجيئها عند بدء الدعوة الى توحيد الله تعالى وعبادته وحده بما شرعه وترك الشرك والمعاصي . وقيل ان الباء للسببية والمعنى فما كانوا ليؤمنوا بعد بعثته بسبب تهودهم تكذيب الحق قبلها ، وهو تأويل واه جدا فان قوله فما كانوا نفى للشأن ، وليس من شأن كل من كذب بشيء أن يصر عليه بعد ظهور البينات على خطاه فيه ، ولكن شأن بعض المكذبين عنادا او تقليدا أن يصروا عليه بعد إقامة البينة لانها لا قيمة لها عندهم . فهم إما جاهلون بصدق ما نذروا على علم ، وإما مقلدون يأبى النظر والعلم . على أن ما قالوه لا يفهم من الآية الا بتكافؤ الخلف المتبادر من اللفظ . فالمعجب ممن فتصر عليه ولم يفهم غيره . وسيأتي في سورة يونس بعدد ر خلاصة قصة نوح عليه السلام ثم نعتنا من بعده رسلا الى قومهم فجاءهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما نذروا به من قبل كذلك تطبع على قلوب

المعتدين ) فلما راد بهؤلاء الرسل الذين بعثوا بعد نوح من ذكروا في سورة الاعراف ولذلك قال هنا وهناك ( ثم بعثنا من بعدهم موسى ) وحينئذ يحتمل أن يقال في آية الاعراف أن أهل تلك القرى في جلتهم وجموعهم لم يكن من شأنهم أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم وهم قوم نوح بالنسبة الى الجميع ثم قوم هود بالنسبة الى قوم صالح الخ والراجح المختار هو الاول — وبليه هذا — والثاني باطل البتة

﴿ كذلك يطعم الله على قلوب الكافرين ﴾ أي مثل هذا الذي وصف من عناد هؤلاء واصرارهم على ضلالهم ، وعدم تأثير الدلائل والبيئات في عقولهم ، يكون الطبع على قلوب الذين صار الكفر صفة لازمة لهم ، بحسب سنة الله تعالى في أخلاق البشر وشؤونهم ، وذلك بأن يأنسوا بالكفر وأعماله حتى تستحوذ أوهامه على أفكارهم ، ويملاحب شهواته جوانب قلوبهم ، ويصير وجدانا تقليديا لهم ، لا يقبلون فيه بحثا ، ولا يسمعون فيه نقدا ، فيكون كالسكة التي طبعت في أثناء ابن معدنها بصهره واذا بته ثم جددت فلا تقبل نقشا ولا شكلا آخر ومن وجوه تسلية النبي (ص) بالآية إعلامه ان من وصلوا بالاصرار على الجحود والعماد أو التقليد الى هذه الدرجة من فساد الفطرة واهمال استعمال العقل لا يؤمنون بالبيئات وان وضحت ، ولا بالآيات وان اقترحت ، فقد كان كفار مكة يقترحون عليه الآيات وكان يتمنى ان يؤتبه الله ما اقترحوا منها حرصا على ايمانهم ، حتى بين الله تعالى له هذه الحقائق من طباع البشر واخلاقهم ، وتقدم هذا البيان في آيات من اوائل سورة الانعام وأثنائها ، ومما يناسب ما هنا منها قوله تعالى ( ٦ : ١٠٨ ) واقسموا بالله جهد ايمانهم ان جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل انما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ، ( ١١٩ ) ونقلب افئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون ) فقوله تعالى ( كما لم يؤمنوا به اول مرة ) بمعنى قوله هنا « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل »

﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ العهد الوصية بمعنى إنشائها وبمعنى متعلقها وهو ما يوصي به الموصي . وعهدت اليه بكذا وصيته بفعله أو حفظه . ويكون بين طرفين وهو المعاهدة كما يكون من طرف واحد وهو من يعهد « تفسير القرآن الحكيم » « • » « الجزء التاسع »

اليك بشيء ، ومن تلتزم له شيئاً . والميثاق العهد الموثق بضرب من ضروب التأكيد . قال تعالى ( وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ) أي أوفوا بما عهدت به اليكم أوف لكم بما وعدتكم به من الجزاء على ذلك . وكل منهما يسمى عهد الله وقال الراغب : عهد الله تارة يكون بما ركزه في عقولنا وتارة يكون بما أمرنا به في الكتاب وبالسنة رسله ، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشرع كالنذور وما يجري مجراها هـ . والمراد من الاول العهد الذي تقتضيه فطرة الله التي فطر الناس عليها فهي عهد منه يطالب الناس به وبحاسبهم عليه ومنه الحنيفية وأصلها الميل عن جانب الباطل والشر الى جانب الحق والخير ، فقد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان غيبي فوق جميع قوى العالم - وعلى إيثار ما تراه حسناً واجتناب غيره - وعلى حب الكمال وكراهة النقص . ولكنهم يخطئون في تحديد هذه المعاني ويحتاجون الى بيانها بوحي من الله تعالى وهو عهد الله المفصل الذي يرسل به رسله لمساعدة الفطرة على تزكية النفس وإزالة ما يطرأ عليها من الفساد بالجهل وسوء الاختيار . ومن الاصول العامة لعهد الله العام ، على السنة الرسل عليهم السلام ، ما بينه تعالى في أوائل هذه السورة بعد بيان النشأة الآدمية ، والنشأة الشيطانية ، وما بينهما من التنافر والتعادي ، اعني تلك المناداة التي نادى بها بني آدم في الآيات العشر من ٢٥ الى ٣٤ ومنها التحذير من فتنة الشيطان وهو ما عهده اليهم بقوله ( ألم اعهد اليكم يا بني آدم الا تعبدوا الشيطان <sup>(١)</sup> ) ( ومنها ) الوصايا العشر التي هي اصول الدين وقواعده الكبرى في الآيات الثلاث ١٥١ - ١٥٣ من سورة الانعام وفي الثانية منها قوله تعالى ( وبعهد الله أوفوا ) <sup>(٢)</sup>

وقد فسر بعض السلف العهد بالميثاق الفطري العام الذي يأتي بيانه في قوله تعالى من هذه السورة ( واذا اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى الخ رواه ابن ابي حاتم عن ابي العالية وابن المنذر عن أبي بن كعب ، وهما وابن جرير وابو الشيخ عن مجاهد

( ١ ) راجع تفسيرها في ص ٣٥٧ - ٤٠١ ج ٨ تفسير

( ٢ ) راجع تفسيرها في ص ١٨٣ - ١٩٩ ج ٨ تفسير

وروى أبو الشيخ عن قتادة قال : لما ابتلهم بالشدة والجهد والبلاء ثم أتاهم بالرخاء والعافية ذم الله أكثرهم عند ذلك فقال ( وما وجدنا لا أكثرهم من عهد وأن وجدنا أكثرهم لفاسقين ) ويعني ما تقدم من شأن الفطرة في الرجوع الى الله عند الشدة وكون هؤلاء لم تؤدبهم بالبأساء والضراء . وهذا فرع من فروع العهد الفطري ، وقيل انه اراد به انهم كانوا يعاهدون الله تعالى عند الضيق بأن يشكروا له ويوحدهوا اذا انجأهم كما حكي عن بعضهم في عدة سور . وروي عن ابن مسعود تفسير العهد بالايمان اخذ من قوله تعالى ( الا من اتخذ عند الرحمن عهدا ) وهو يتفق مع القول الاول وان لم يصرح به كما قال الحافظ ابن كثير في تفسير الجملة : وما وجدنا لا أكثرهم أي لاكثر الامم الماضية من عهد ( ثم قال ) العهد الذي اخذه هو الذي جبلهم عليه وفطرهم عليه واخذ عليهم في الاصلاب انه ربهم ومليكهم وأنه لا اله الا هو ، واقرؤا بذلك وشهدوا على أنفسهم به ، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا من شرع ، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من اولهم الى آخرهم بالنهي عن ذلك كما جاء في صحيح مسلم « يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم » وفي الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » الحديث . اهـ

والصواب ان العهد يعنى هنا كل ما يصلح له من عهد فطري وشرعي وعرفي مما يلتزمه الناس بعضهم مع بعض في تعاهدتهم وتعاقدهم لانه جاء نكرة في سياق النفي مع تأكيد النفي بمن كأنه قال : وما وجدنا لا أكثر أو أكثر الاقوام عهداً ما يفون به ﴿ وان وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ اي وان الشأن الذي وجدنا عليه أكثرهم هو التمكن من الفسوق وهو الخروج عن كل عهد فطري وشرعي بالنكث والغدر ، وغير ذلك من المعاصي . وإنما حكم على الاكثر لان بعضهم قد آمن والتزم كل عهد عاهد الله عليه أو عاهد الله عليه أو تعاهد عليه مع الناس ، ومنهم من كان يفي ببعض ذلك حتى في حال الكفر اذ لا تتفق افراد أمة كبيرة على الشر والباطل في كل شيء ، وهذا من دفة القرآن في تحديد الحقائق بالصدق الذي لا تشوبه شبهات المبالغة بما يسلب احدا



حقه او يعطي احدا غير حقه، وقد نوهنا بهذه الدقة من قبل، وغفل عنها بعض  
المفسرين فزعموا هنا ان المراد بالانثر الكل في الكل  
والفسق في الاصل اعم من نكث العهد وبتساوي مفهومهما بما فسرنا به  
مهوم العهد هنا. ففي التعبير من محاسن الكلام الطرد والعكس، باعتبار  
مدلول اللفظ، اذ الاول يقرر بمنطوقه مفهوم الثاني الذي يقرر بمفهومه  
منطوق الاول. وفيه الجناس التام بين وجدنا الاولى وهي بمعنى التينا  
والثانية وهي بمعنى علمنا - والمقابلة بين النفي والاثبات في سلب الوجود  
الاول واثبات الثاني

(١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ  
فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ  
مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ  
لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ  
مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَايَاتِي بِهَا  
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ  
مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ  
الْمَلَأَمِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ  
مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ  
حَاشِرِينَ (١١١) يَا تُوكَّ بِكُلِّ سَجِيرٍ عَاجِمٍ

﴿ قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴾

هو موسى بن صمران بكسر العين واهل الكتاب يضبطون اسم والده  
بالهمزة في آخره (عمرام) وبتفتح أوله، رقيم الامم القديمة والحديثة تتصرف

في نقل الاسماء من لغات غيرها إلى لغتها. ومعنى كلمة «موسى» المنتاش من الماء أي الذي أنقذ منه، وروى أبو الشيخ عن ابن عباس أنه قال: إنما سمي موسى لانه التي بين ماء وشجر، فالماء بالقبطية «مو» والشجر «سى». وذلك أن أمه وضعت له بعد ولادته في تابوت (صندوق) أقفلته إقفالا محكما وألقته في اليم (بحر النيل) خوفا من فرعون وحكومته أن يعلموا به فيقتلوه إذ كانوا يذبجون ذكور بني اسرائيل عند ولادتهم ويتركون إناثهم - وقالت لاخته قصيه أي تتبعه لتعلم أين ينتهي ومن يلتقطه، حتى لا يخفى عليها أمره، فما زالت أخته تراقب التابوت على ضفاف اليم حتى رأت آل فرعون ملك مصر يلتقطونه إلى آخر ما قصه الله تعالى من خبره في سورة القصص

وقد ذكرت قصته في عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة أولها هذه السورة (الاعراف) فهي أول السور المكية في ترتيب المصحف التي ذكرت فيها قصته، ومثلها في استقصاء قصته طه والشعراء ويليهما سائر الطواسين الثلاثة (الزلزل والقصص) وقد ذكر بعض المعبر من قصته في سور أخرى كإسراء وهود والمؤمنين، وذكر اسمه في سور كثيرة غيرها باختصار ولا سيما المكية وتكرر ذكره في خطاب بني اسرائيل من سورة البقرة المدنية وذكر في غيرها من الطول والمئين والمفصل حتى زاد ذكر اسمه في القرآن على ١٣٠ مرة فلم يذكر فيه نبي ولا ملك كما ذكر اسمه

وسبب ذلك أن قصته أشبه فضض الرسل عليهم السلام بقصة خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله من حيث أنه أوتي شريعة دينية دنيوية، وكوّن الله تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية، وسنن ما فيها وفي غيرها من حكم التكرار واختلاف التعبير في مواضعها إن شاء الله تعالى

قال الله تعالى ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى باياتنا الى فرعون وملئه﴾ هذه القصة معطوفة على جملة ما قبلها من القصص من قوله تعالى ( لقد أرسلنا نوحا ) الى قوله ( والى مدين أخام شميبا ) - القصة ، فهي نوع وهن نوع آخر، والفرق بين النوعين أن تلك القصص متشابهة في تكذيب الاقوام فيها لرسولهم ومعاندتهم إياهم وإيذائهم لهم، وفي عاقبة ذلك باهلاك الله تعالى إياهم بعذاب الاستئصال. ولذلك عطف كل واحدة منهم على الاولى بدون إعادة ذكر الارسال

للايدان بأنها نوع واحد فقال (والى عاد أخاهم هوداً ... والى ثمود أخاهم صالحاً... ولوطاً ... والى مدين أخاهم شعيباً) وقد أعاد في قصة موسى ذكر الارسال للفرقة ولكن بلفظ البعث وهو أخص وأبلغ من لفظ الارسال لانه يفيد معنى الاثارة والازجاج الى الشيء المهم ، ولم يذكر في القرآن الا في بعث الموتى وفي الرسالة العامة أي بعث عدة من الرسل، وفي بعثة نبينا وموسى خاصة، وكذا في بعث نبياء بني اسرائيل وبعث من انتقم منهم وعذبهم وسباهم حين أفسدوا في الارض. فالتعبير بلفظ البعث هنا يؤكدها فادته اعادة العامل من التفرقة بين نوعي الارسال. أعني أن لفظه الخاص مؤكدها معناه العام. كما يؤكدها عطف هذه القصة على أولئك بتم التي تدل على الفصل والتراخي إما في الزمان وإما في النوع أو الرتبة والاخير هو المراد هنا. وبيانه ان هذا الارسال وما ترتب عليه وأعقبه في قوم موسى مخالف للجملة ما قبله مخالفة تضاد فقد أنقذت به أمة من عذاب الدنيا وهو تعبيد فرعون وملئه لها وسومهم إياها أنواع الخزي والنكال، واهتدت الى عبادة الله تعالى وحده وإقامة شرعه فأعطاها في الدنيا ملكا عظيما، وجعل منها أنبياء وملوكا، وأعد بذلك المهتدين منها السعادة الآخرة الباقية فأين هذا الارسال من ذلك الارسال، الذي أعقب اقوام أولئك الرسل في الدنيا عذاب الاستئصال، وفي الآخرة ما هو أشد وأبقى من الخزي والنكال؟ وقد يظهر للتراخي الزماني وجه باعتبار كون العطف على قصة نوح فان ما عطف عليها من قصص ومن بعده قد جعل تابعا ومتمما لها بعدم إعادة العامل «ارسلنا» كما تقدم آنفاً، وإلا فان شعيباً وهو آخر أولئك الرسل كان في زمن موسى وهو حموه، وقد أوحى الله تعالى الى موسى وهو لديه مع زوجته وأولاده في سيناء وارسله منها الى فرعون وملئه لانتقاد بني اسرائيل من حكمه وظلمه. ويؤيد ذلك كاه أن الله تعالى ذكر إرسال نوح في سورة يونس وقضى عليه بقوله: (ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم) الخ وقال بعد هذا (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون الى فرعون وملئه) ومن المعلوم عقلا واستنباطاً أن التراخي بين بعثة نوح ومن بعده من الرسل زماني إذ كان بمدتناسل الذين نجوا معه في السفينة وتكاثروا وصيرورتهم شعوبا وقبائل، وهذا الاجمال في سورة يونس في الرسل مبني على التفصيل الذي سبقه في سورة الاعراف التي نزلت قبلها أو هو اعتم منه فان الامم قد كثرت بين نوح وموسى عليهما السلام وقد قال تعالى (ولقد بعثنا في كل امة رسولا) وقال لخاتم رسله (منهم من قصصنا

عليك ومنهم من لم نقصص عليك) وقد بينا حكمة تخصيص من ذكر في هذه السورة منهم بالذکر وكذا من ذكر في سورة الانعام وغيرها والمعنى ثم بعثنا من بعد اولئك الرسل موسى باياتنا التي تدل على صدقه فيما يبلغه عنا الى فرعون وملئه . اما فرعون فهو لقب لمولك مصر القديما كلقب قيصر لمولك الروم وكسرى لمولك الفرس الاولين و « الشاه » لمولك الايرانيين في هذا العصر ، وكانوا يطلقون على فرعون لقب الملك أيضاً . واختلف في اشتقاق كلمة فرعون ومعناه ، وفي اسم فرعون موسى وزمنه ، وليس في الآثار المصرية ما يبين هذا واما ملؤه فهم اشراف قومه ورجال دولته ، ولم يقل الى فرعون وقومه لان الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبني اسرائيل ويدهم امرهم وليس لسائر المصريين من الامر شيء لانهم كانوا مستعبدين ايضاً ولكن الظلم على بني اسرائيل الغرباء كان اشد، وانما بعث الله تعالى موسى لانتقاذ قومه بني اسرائيل من فرعون ورجال دولته وإقامة دين الله تعالى بهم في بلاد اجدادهم ، ولو آمن فرعون وملؤه لآمن سائر قومهم لانهم كانوا تبعاً لهم بل كان هذا شأن جميع الاقوام مع ملوهم المستعبدين الجائرين، وقد علم الله تعالى ان فرعون وملؤه لا يؤمنون بموسى وان قومه تبع له لا اختيار لهم وانهم مقلدون ولذلك قتل السحرة لما آمنوا بموسى، وانما آمنوا لانهم كانوا علماء مستقلي العقل اصحاب فهم وراي، وكان السحر من علومهم وفنونهم الصناعية التي تتلقى بالتعليم وليس كالايات التي جاءها موسى فانها من خوارق العادات التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى

وقد اقام الله تعالى الحجة بايات موسى على فرعون وملئه ﴿ فظلموا بها ﴾ اي فظلموا انفسهم وقومهم بالكفر بها كبراً وجحوداً فكان عليهم اثم ذلك واثم قومهم الذين حرموا من الايمان باتباعهم لهم، كما كان يكون لهم مثل اجورهم لو آمنوا بالتبع لهم، وجملة القول ان موسى عليه السلام كان مرسل الى قومه بني اسرائيل بالذات والى فرعون وملئه بالتبع ، ولك ان تقول ان الارسال الى بني اسرائيل مقصد والى فرعون وملئه وسيلة . وقد عدي الظلم في الجملة بالباء لتضمينه معنى الكفر فصار جامعاً للمعنيين ولا يصح تفسيره بأحدهما اذ لو اريد احدهما لمبر به ولم يكن للتضمين فائدة . وقيل ان الباء في قوله فظلموا بها السببية اي فظلموا انفسهم وقومهم بسبب هذه الايات ظلماً جديداً

وهو ما ترتب على الجحود من العذاب بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ثم بالفرق كما سيجيء في محله . والاول اظهر وابلغ على انه لا تنافي بينهما في المعنى ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ اي فانظر ايها الرسول — او ايها السامع والتالي بعين العقل والفكر كيف كان عاقبة فرعون ومائه المفسدين في الارض بالظلم واستعباد البشر حين جحدوا آيات الله وظلموا بها عملا بمقتضى فسادهم . وهذا تشويق لتوجيه النظر لما سيقتضيه تعالى من عاقبة امرهم اذ نصر عبده ورسوله موسى عليهم وهو فرد من شعب مستضعف مستعبدهم ، وهم اعظم اهل الارض دولة وعسولة وقوة ، نصره عليهم اولا بابطال سحرهم وإقناع علمائهم وسحرتهم بصحة رسالته وكون آياته من الله تعالى ، ثم نصره بارسال انواع العذاب على البلاد ثم بانقاذ قومه وإغراق فرعون ومن اتبعه من ملئه وجنوده . وهذه عبرة ظاهرة وحجة قائمة مدة الدهر ، على القائلين انما الغلب للقوة المادية على الحق ، ولا سيما المغرورين بعظمة دول اوربة الظالمة لمن استضعفتهم من اهل الشرق ، وعلى اولئك الباغيين بالاولى ، فأولى لهم اولى ، ثم اولى لهم اولى بعد هذا التشويق والتنبيه قص تعالى علينا ما كان من مبدأ أمر اولئك المفسدين الذي انتهى الى تلك العاقبة فقال : ﴿ وقال موسى يا فرعون اني رسول من رب العالمين \* حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فارسل معي نبي اسرائيل ﴾ نبدأ بما في هذه الآية من المباحث اللفظية والقراءات ونكت البلاغة لتفهم عبارتها كما يجب ويكون سياق القصة بعد ذلك متصلاً ببعضه ببعض ، وفيها بحثان دقيقان أحدهما بدء القصة بالمطف وكونه بالواو ، والثاني قول موسى (ع . م) (حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق) لم أر من تكلم على وجه بدء الآية بالمطف وبيان المعطوف عليه والتفرقة بينها وبين مثلها من سياق القصة في سورة طه اذ قال بعد أمر موسى بالذهاب مع أخيه هرون الى فرعون وتبليغه الدعوة مبينا كيف كان امتثالها للامر (إنا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى) فجاء به مفصلاً على وجه الاستئناف البياني غير موصول بالواو ولا بالفاء ، ومثله في الفصل قوله تعالى في القصص التي قبل قصة موسى من هذه السور قبل والى عاد أخام هوداً قال يا قوم اعبدوا الله) وكذا ما بعده من قصة صالح ولوط وشعيب ، ولم يقل

فقال او وقال ولكنه عطف تبليغ نوح (عم) قبلها بالفاء (لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله) الآية وقد بينا الفرق بين هذا الوصل وما بعده من الفصل في قصة هود عليه السلام

والحاصل ان لدينا هنا عطفًا بالفاء في قصة نوح وعطفًا بالواو في قصة موسى وفصلا بيانيا في القصص التي بينهما يشبهه الفصل في قصة موسى في سور اخرى وله نظائر كثيرة . فأما الاول فعطف التبليغ فيه على الارسال بالفاء لافادة التعقيب وعدم جواز تأخير تبليغ الدعوة . واما الفصل في القصص بعده فلانه لما صار هذا معلوما وكان ما جرى من امر قوم نوح عبرة لقوم هود وكانا معا عبرة لقوم صالح وهلم جرا - حسن في كل قصة من هذه الفصل على انه جواب لسؤال مقدر، كان قائلًا يقول في كل منها ماذا كان من امر هذا النبي مع قومه؟ كما تقدم بيانه . واما الاخير الذي نحن بصدده فوجه العطف فيه وكونه بالواو هو أنه قد بقي في قصة موسى هنا على ذكر إرساله الى فرعون ومائه بذكر نتيجة هذا الارسال وعاقبته بالاجمال وهو قوله تعالى (فظاهوا بها) الخ ، وبدئت القصة بعده بتفصيل ذلك الاجمال ومقدمات تلك النتيجة، فكان المناسب أن يعطف عليها لا ان يستأنف استئنافا بيانيا لما هو ظاهر من الاشتراك بين المقدمات والنتيجة ، أو بين التفصيل والاجمال - وأن يكون العطف بالواو لا بالفاء لان الفاء تدل على التعقيب والترتيب وهو لا يصح هنا لانه يقتضي أن تكون المقدمات متأخرة عن النتيجة وذلك باطل بالبداية ، فتمين أن يكون العطف بالواو ، وهذه دقة في البلاغة لا يهتدى الى مثلها الا غواصو بحر البيان ، ولا يكادون يجدون فرائدها الا في أسلوب القرآن، واعجب للامام الزمخشري كيف غفل عنها اذ لم يتعرض للمسألة من أصلها وحكمة بدء القصة بذكر نتائجها والمعبرة المقصودة منها ، هي - والله أعلم - أن تكون متصلة بما يناسبها من العبرة في القصص التي قبلها ، من حيث إهلاك معاندي الرسل عليهم السلام ججوداً واستكباراً ، وقد ذكرت هذه العبرة بعد جملة تلك القصص لتشابهها مبدأ وغاية كما تقدم ، وقصة مرسى (ص) طويلة فهي تساويها في هذا من حيث رسالته الى فرعون وملئه فقط . وفيها عبر اخرى فيما تشابه به أمر خاتم الرسل (ص) من حيث إرساله الى بني اسرائيل وإرسال محمد خاتم النبيين الى العرب وسائر البشر وتوفيق الله قومها للإيمان

ونشر شريعتهما فيمن أرسلنا اليهم - الى آخر ما بيناه آنفا في نكتة عطفها على ما قبلها ثم ونكتة التعبير ببعثنا . ولذلك ذكر في اواخرها تبشير موسى وكذا عيسى بالنبي الامي الخاتم محمد صلوات الله عليهم اجمعين  
 وأما قوله ( حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق ) على قراءة الجمهور فقد جاء على غير المشهور عن العرب في هذه الكلمة اذ يقولون : أنت حقيق بكذا - وأنت حقيقة بأن تفعل كذا ، كما يقولون أنت جدير به وخليق به ، ولم ينقل عنهم استعماله بعلى ، ولكن ورد في كلامهم استعمال «على» بمعنى الباء كقولهم : اركب على اسم الله - وهو الذي اعتمده ابن هشام في المعنى في تخريج الآية عند ذكر المعنى السابع من معاني «على» الجارة وأيده بقراءة أبي بن كعب رضي الله عنه ( حقيق بأن لا أقول ) ومثلها قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ( حقيق أن لا أقول .. ) لان المتبادر أن الجار المحذوف من أن هو الباء وحذف الجار من أن الخفيفة وأن المشددة قياسي معروف . وقد سبقه الى هذا الاختيار بعض المفسرين : قال الحافظ ابن كثير في الجملة عن بعضهم : معناه حقيق بأن لا أقول على الله الا الحق ، أي جدير بذلك وحرى به قالوا والباء وعلى يتعاقبان يقال رميت بالقوس وعلى القوس وجاء على حال حسنة وبحال حسنة . وقال بعض المفسرين معناه حريص على ان لا أقول على الله الا الحق اه والمراد من القول الثاني أن حقيقاً قد ضمن معنى الحرص وهو منقول عن القراء النحوي المفسر المشهور ، وقد بينا مراراً أن التضمن جمع بين المعنى الاصيل للكلمة والمعنى الذي أفادته التعدية فيكون المراد من العبارة : إني رسول من رب العالمين حقيق وجدير بأن لا أقول على الله الا الحق وحرىص على ذلك فلن أخلّ به . وما قيل من أنه من باب قلب الحقيقة الى المجاز أو من باب الاغراق في وصف موسى نفسه بالصدق حتى جعل قول الحق كأنه يسمى ليكون هو قائله والقائم به ولا يرضى أن ينطق به غيره - فلا يخلو من تكلف وان قال الزمخشري في الاخير انه هو الاوجه الادخل في نكتة القرآن

وقرأ نافع ( حقيق عليّ أن لا أقول على الله الا الحق ) أي واجب وحق علي أن لا أخبر عنه تعالى الا بما هو حق وصدق لما أعلم من عز جلاله وعظيم شأنه - كما قال الحافظ بن كثير . اذا علم هذا فنقول في تفسير الآيات  
 بلغ موسى ( ص ) فرعون انه رسول من رب العالمين كلمهم - أي سيدم

ومالكهم ومدبر جميع أمورهم - وانه بمقتضى هذه الرسالة لا يقول على الله الا الحق اذ لا يمكن أن يبعث الله رسولا يكذب عليه ، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، فهو حقيق بالصدق والتزام الحق في التبليغ عن ربه ومعصوم من الكذب والخطأ فيه ، وشديد الحرص عليه بما له من الكسب والاختيار - فاشتمل كلامه على عقيدة الوجدانية وهي أن للعالمين كلهم ربا واحداً ، وعقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة في التبليغ والهداية ، وقد ناقشه فرعون البحث في وجدانية الربوبية العامة لله تعالى كما هو مبين في سورة الشعراء فوصفه موسى بما يليق به تعالى ويوضح المعنى المراد في أجوبة عدة أسئلة أوردها عليه ، وقد سأله هو وهارون عن ربهما في سياق سورة طه ، وجاء فيما حكاه الله تعالى عنهما فيها ذكر البعث والجزاء . وكان قدماء المصريين يؤمنون بالبعث كما يؤمنون بالرب الاله الغيبي ولكنهم شابوا العقيدتين بنزغات الشرك وبعض الخرافات الناشئة عنه .

فعلم من هذا أن موسى قد بلغ فرعون وملائه اصول الايمان الثلاثة: التوحيد والرسالة والبعث والجزاء ، وفي كل سياق من قصة موسى المكررة في عدة سور فوائدي ذلك وفي غيره لا توجد في الاخرى . - واسبطها واوسعها بياناً هذه السورة ( الاعراف ) وطه والشعراء والقصص - وانما التكرار لجملة القصة لا التفصيل لها كما سيأتي

ثم ذكر أن الله تعالى أيده ببينة تدل على صدقه في دعواه وتبليغه عنه ورتب عليه ما هو مقصود له بالذات أو بالقصد الاول فقال حكاية عنه :

﴿ قد جئناكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني اسرائيل ﴾ أي قد جئناكم ببينة عظيمة الشأن ، ظاهرة الحججة في بيان الحق ، فتذكير البينة للتفخيم ، والتصريح بكون هذه البينة المعجزة من عند ربهم نص على أنهم صر بوبون وان فرعون ليس ربا ولا آلهما ، وعلى أنها أي البينة ليست من كسب موسى ولا بما يستقل به عليه السلام - وبني على هذا قوله فأرسل معي بني اسرائيل أي بأن تطلقهم من أسرك ، وتمتقهم من رق قهرك ، لينذهبوا معي الى دار غير ديارك ، ويمبدوا فيهاربهم وربك . وبم اجاب فرعون ؟

﴿ قال ان كنت جئت بآية ﴾ اي قال فرعون لموسى عليه السلام : ان



كنت جئت مصحوبا ومؤيدا بآية من عند من أرسلك كما تدعي — والشروط  
بارق يدل على الشك في مضمون الجملة الشرطية او الجزم بنفيها — ﴿ فاءت بها  
ان كنت من الصادقين ﴾ فاء تي بها بأن تظهرها لدي ان كنت من أهل الصدق،  
الملتزمين لقول الحق، وهذا شك آخر في صدقه، بعد الشك في مجيئه بالآية .

﴿ فالتقى عصاه فاذا هي ثعبان مبین \* ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين ﴾  
أي فلم يلبث موسى أن ألقى عصاه التي كانت بيمينه أمام فرعون فاذا هي  
ثعبان — وهو الذكر العظيم من الحيات — مبین أي ظاهر بين لا خفاء في كونه  
ثعباناً حقيقياً يسمى وينتقل من مكان الى آخر تراه الاعين من غير أن يسحرها  
ساحر فيخيل اليها أنها تسعى كما سياتي من اعمال سحرة فرعون — ونزع  
يده أي أخرجها من جيب قبضه بمد أن وضعها فيه بعد إلقاء العصا فاذا  
هي بيضاء ناصعة البياض تتلألأ للناظرين اليه وهم فرعون وملؤه أو لكل  
من ينظر، والنظارة هم الذين يجتمعون عادة لرؤية الامور الغريبة. وقد وصف الله  
تعالى بياضها في طه والنمل والقصص بأنه ( من غير سوء ) أي من غير علة كالبرص.  
وفي التفسير المأثور روايات في صفة الثعبان الذي تحولت اليه عصا موسى  
( ع . م ) وفي تأثيره لدى فرعون ما هي الا من الاسرائيليات التي لا يصح لها  
سند ولا يوثق منها بشيء ، ومنها قول وهب بن منبه ان العصا لما صارت ثعباناً  
حملت على الناس فانهمزوا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم  
بعضاً وقام فرعون منهزماً . قال ابن كثير : رواه ابن جرير والامام احمد وابن  
أبي حاتم وفيه غرابة في سياقه والله أعلم اه وقد اقتضت على هذه الرواية  
لاقول انني أرجح تضعيف عمرو بن الفلاس لوهب على توثيق الجمهور له بل  
أنا أسوأ فيه ظناً على ماروي من كثرة عبادته، ويفلب على ظني أنه كان له ضلع  
مع قومه الفرس الذين كانوا يكيّدون للاسلام وللعرب ويدسون لهم من باب  
الرواية ومن طريق التشميم فقد ذكر الامام احمد ان والده منبها فارسي أخرج  
كسرى الى اليمن فأسلم في زمن النبي ( ص ) وان ابنه وهباً كان يختلف من بعده  
الى بلاده بعد فتحها وههنا موضع الشبهة في الغرائب المروية عنه وهي كثيرة  
— ومثله عندي كعب الاحبار الاسرائيلي — كلاهما كان تابعيا كثير الرواية  
للغرائب التي لا يعرف لها أصل معقول ولا منقول ؛ وقومهما كانوا يكيّدون

للأمة الإسلامية العربية التي فتحت بلاد الفرس وأجلت اليهود من الحجاز . فقاتل الخليفة الثاني فارسي مرسل من جمعية سرية لقومه ، وقتله الخليفة الثالث كانوا مفتونين بدسائس عبدالله بن سبأ اليهودي . والى جمعية السبئيين وجمعيات الفرس ترجم جميع الفتن السياسية واكاذيب الرواية في الصدر الاول

﴿ قال الملا من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم \* يريد ان يخرجكم من ارضكم فماذا تأمرون ﴾

### ﴿ فصل في حقيقة السحر وأنواعه ﴾

كان السحر فنا من فنون قدماء المصريين يتعلمونه في مدارسهم العالية مع سائر علوم الكون ، وكان كذلك عند أقربائهم من البابليين ، وكذا الهنود وغيرهم ، ولا يزال يؤثر عن الوثنيين منهم أعمال سحرية غريبة اهتدى علماء الانكبيز وغيرهم من الافرنج الى تعليل بعضها أو كشف حقيقته ولا يزالون يجهلون تعليل بعض . والمعنى الجامع للسحر أنه أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها فتمتد عرف سبب شيء منها بطل اطلاق اسم السحر عليه ، ولذلك كان الاقوام الجاهلون يعدون آيات الرسل الكونية التي يؤيدهم الله تعالى بها من قبيل السحر ويجعلون هذا مانعا من دلائلها على صدقهم وتأييد الله تعالى لهم ، لان السحر صنعة تتلقى بالتعليم والتقرين فيمكن لكل أحد أن يكون ساحرا اذا أتيج له من تعلمه السحر . ومن المعلوم في التاريخ القديم والحديث أن السحر لا يروج الا بين الجاهلين وله المسكنة المهيبة الخيفة بين اعرق القبائل في الهمجية ، ولا يكاد يوجد في البلاد التي ينتشر فيها العلم والعرفان بل يسمى أهله بأسماء أخرى كالمشعوذين والمختالين والدجالين

وقد سبق لنا بيان حقيقة السحر في قصة هاروت وماروت من جزء التفسير الاول وفي بعض مجلدات المنار وخلاصته انه ثلاثة أنواع ( أحدها ) ما يعمل بالاسباب الطبيعية من خواص المادة المعروفة للعامل المجهولة عندهم يسحروهم بها ومنها الزئبق الذي قيل إن سحرة فرعون وضعوه في حبالهم وعصيهم كما سيأتي .

ولو شاء علماء الطبيعة والكيمياء في هذا العصر أن يجعلوا أنفسهم سحرة في بلاد  
أواسط أفريقية الهمجية وأمثالها من البلاد الجاهلة التي يروج فيها السحر العتيق لاروم  
من عجائب الكهر باء وغيرها ما يخضعونهم به لعبادتهم لو ادعوا الألوهية فيهم،  
دع دعوى النبوة أو الولاية . وقد اجتمع السحرة في بعض هذه البلاد على بعض  
السياح الغربيين ليرهبوهم بسحرم وكانوا في مكان بارد والفصل شتاء فأخذ بعض  
هؤلاء السياح قطعة من الجليد وجعلها بشكل عدسي بقدر ما يرى من قرص  
الشمس وقال لهم اني أعلم منكم بالسحر وانني أقدر به أن أجعل في يدي شمساً  
كشمس السماء ثم وجه عدسيته الى الشمس عند بزوغها واكتمال ضوءها فصارت  
بانعكاس النور فيها كالشمس لم يستطع السحرة أن يثبتوا نظرهم اليها فخصعوا له ولن  
معه وكفوا شرهم عنهم خوفاً منهم

( النوع الثاني ) الشعوذة التي مدار البراعة فيها على خفة اليد في اخفاء  
بعض الاشياء واظهار بعض، واراة بعضها بغير صورها، وغير ذلك مما هو معروف في  
هذه البلاد وغيرها من بلاد الحضارة بكثرة المكتسبين بها من الوطنيين والغرباء،  
ولم يبق أحد في هذه البلاد يسميها سحرا

( النوع الثالث ) ما مداره على تأثير الانفس ذوات الارادة القوية في الانفس  
الضعيفة ذات الامزجة العصبية القابلة للاوهام والانفعالات التي تسمى في عرف  
علماء هذا العصر بالمستيرية ، وهذا النوع هو الذي قيل ان أصحابه يستعينون على  
أعمالهم بأرواح الشياطين ، ومنهم الذين يكتبون الاوراق والطلاسمات للحب  
والبغض وغير ذلك . ومن يقول ان للحروف خواص وتأثيرات ذاتية يخرج عمل  
الاوراق والنشرات وما في معناها من السحر . ومن هذا النوع ما استحدث في  
هذا العصر من التنويم المغناطيسي واخباره مشهورة

ومما سبق لنا بيانه في هذا الباب تخطيط من قال من المتكلمين ان السحر من  
خوارق العادات الذي هو الجنس الجامع لمعجزات الانبياء وكرامات الاولياء ،  
وقاتهم أن السحر صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص القرآن وبالاختبار الذي  
لم يبق فيه خلاف بين أحد من علماء الكون في هذا العصر

واعلمنا أننا كثر في السحر بعضه صحيح وبعضه أوهام واننا نقل هنا كلام بعض كبار محققي المفسرين فيه. ومن أخصره وأفنده قول ابن فارس: هو اخراج الباطل في صورة الحق . وقال الراغب الاصفهاني في مفرداته اعراب القرآن ما نصه :

### تعريف السحر وما أخذه من اللغة

السحر (١) طرف الخلقوم والرثة وقيل انتفخ سحره وبمير سحر عظيم السحر والسحارة ( بالضم ) ما ينزع من السحر عند الذبح فيرمى به وجعل بناؤه بناء النفاية والسقاطة وقيل منه اشتق السحر وهو اصابة السحر. والسحر يقال على معان (الاول) الخداع وتخيلات لاحقيقة لها نحو ما يفعله المشعبد بصرف الابصار عما يفعله الخفة يد وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للاسماع وعلى ذلك قوله تعالى (سحروا أعين الناس واسترهبوهم) وقال ( بخيل اليه من سحروهم) وبهذا النظر سمو موسى عليه السلام ساحرا فقالوا (يا أيها الساحر ادع لنا ربك)

(والثاني) استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب اليهم كقوله تعالى (هل انبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفك أئيم) وعلى ذلك قوله تعالى (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر)

(والثالث) ما يذهب اليه الاغتمام وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع فيجعل الانسان حمارا ولا حقيقة لذلك عند المحصنين . وقد تصور من السحر تارة حسنه فقيل «ان من البيان اسحرا» وتارة دقة فوله حتى قالت الاطباء الطبيعة ساحرة وسموا الغذاء سحرا من حيث انه يندق ويلطف تأثيره. اه وقد عمد الشيخ أبو بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصاص من أئمة الحنفية في القرن الرابع بابا خاصا من تفسيره الجليل (أحكام القرآن) لبيان معنى السحر وحكم الساحر عند كلامه على قوله تعالى (واتبعوا ما تنلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) قال في أوله «الواجب ان تقدم القول في السحر لخفائه على كثير من اهل العلم فضلا عن العامة ثم نعقه بالكلام في حكمه في مقتضى الآتي في المعاني والاحكام فنقول

(١) ذكره بالفتح وفيه ثلاث لغات باوزان فلس وسبب وقفل

« إن أهل اللغة يذكرون أن أصله في اللغة لما لطف وخفي سببه والسحر عندهم بالفتح هو الغذاء الخفائه واطف مجاربه ، قال لبيد :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب  
« قيل فيه وجهان : نعال ونخدع كالسحور والمخدوع — والآخر تغذى .  
وأبي الوجهين كان فمعناه الخفاء . وقال آخر :

فإن تسألينا فبم نحن فإنا عصفير من هذا الانام المسحر  
« وهذا البيت يحتمل من المعنى ما احتمله الاول ، ويحتمل أيضا أنه أراد  
بالمسحر أنه ذو سحر . والسحر الرثة وما يتعاق بالخلقوم ، وهذا يرجع الى معنى  
الخفاء أيضا . ومنه قول عائشة : توفي رسول الله (ص) بين سحري ونحري .  
وقوله تعالى ( إنما أنت من المسحرين ) يعني من المخلوق الذي يطعم ويستقى .  
ويدل عليه قوله تعالى ( وما أنت الا بشر مثلنا ) وكتوله تعالى ( ما لهذا الرسول  
يا كل الطعام ويمشي في الأسواق ) ويحتمل أنه ذو سحر مثلنا . وإنما يذكر السحر  
في مثل هذه المواضع لضعف هذه الاجساد واطاقتها ورقتها ، وبها مع ذلك قوام  
الانسان — فمن كان بهذه الصفة فهو ضعيف محتاج — وهذا هو معنى السحرفي  
اللغة ثم نقل هذا الاسم الى كل أمر خفي سببه وتخيل على غير حقيقته ، ويجري  
مجري التمويه والخداع . ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاءله . وقد أجرى مقيدا  
فيما يمتدح ويحمد كما روي « ان من البيان لسحرا »

( وههنا ذكر الجصاص روايته لهذا الحديث وهو في الصحيح وأطال الكلام  
عليه في زهاء ورقة كبيرة ذكر في أثنائه سحر سحرة موسى لآعين الناس وتخيلهم  
ان جبالهم وعصيتهم تسعى ولم تكن تسعى ، وذكر ما قيل من حياهم في ذلك بوضع  
الزئبق فيها وتحريك النار الخفية للزئبق فكان سبب حركتها ، وسأني نقل ذلك عنه  
قريبا . ثم ذكر قصة تاريخية في أصل السحر ببابل وقفى عليها ببيان أنواعه فقال )  
كلام الجصاص في السحر وأنواعه

« واذ قد بينا أصل السحر في اللغة وحكمه عند الاطلاق والتقييد فلنقل في معناه  
في التعارف والضروب الذي يشتمل عليها هذا الاسم وما يقصد به كل فريق

من منتحليه ، والغرض الذي يجري اليه مدعوه ، فنقول : وبالله التوفيق إن ذلك ينقسم الى أنحاء مختلفة .

« (فمن سحر أهل بابل) الذين ذكرهم الله تعالى في قوله ( يعلمون الناس السحر وما أنزل على المملكين بابل هاروت وماروت ) وكانوا قوما صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويسمونها آلهة . ويعتقدون ان حوادث العالم كلها من أفعالها ، وهم معطلة لا يعترفون بالصانع الواحد المبدع للكواكب وجميع أجرام العالم ، وهم الذين بعث الله تعالى اليهم ابراهيم خاليه صلوات الله عليه فدعاهم الى الله تعالى وحاجهم بالحجاج الذي يهرم به وأقام عليهم به الحججة من حيث لم يمكنهم دفعه ، ثم ألقوه في النار فجعلها الله برداً وسلاماً . ثم أمره الله تعالى بالهجرة الى الشام . وكان أهل بابل واقليم العراق والشام ومصر والروم على هذه المقاتلة الى أيام بيوراسب الذي تسميه العرب الضحاك . وان افريدون وكان من أهل دُنباوند استجاش عليه بلاده وكاتب سائر من يطبعه وله قصص طويلة حتى أزال ملكه وأسره . وجهال العامة والنساء عندنا يزعمون ان افريدون حبس بيوراسب في جبل دنباوند العالي على الجبال وانه حي هناك مقيد ، وان السحرة يأتونه هناك فيأخذون عنده السحر ، وانه سيخرج فيغلب على الارض وانه هو الدجال الذي أخبر به النبي عليه السلام وحذرناه ، وأحسبهم أخذوا ذلك عن الجوس . وصارت مملكة إقليم بابل للفرس ، فانتقل بعض ملوكهم اليها في بعض الازمان فاستوطنوها ، ولم يكونوا عبدة أوثان ، بل كانوا موحدين مقرين بالله وحده ، الا أنهم مع ذلك يعظمون العناصر الاربعة الماء والنار والارض والهواء لما فيها من منافع الخلق ، وان بها قوام الحيوان ، وانما حدثت الجوسية فيهم بعد ذلك في زمان كشتاسب حين دعاه زرادشت فاستجاب له على شرائط يطول شرحها ، وانما غرضنا في هذا الموضوع الابانة عما كانت عليه سحرة بابل . ولما ظهرت الفرس على هذا الاقليم كانت تتدين بقتل السحرة وابدانها ولم يزل ذلك فيهم ومن دينهم بعد حدوث الجوسية فيهم وقبله الى أن زال عنهم الملك .

« وكانت علوم أهل بابل قبل ظهور الفرس عليهم الحيل والنيرنجيات وأحكام النجوم ،

وكانوا يعبدون أوثانا قد عملوها على أسماء الكواكب السبعة وجعلوا لكل واحد منها هيكلًا فيه صنمه ويتقربون إليها بضرور من الأفعال على حسب اعتقادهم من موافقة ذلك للكوكب الذي يطلبون منه بزعمهم فعل خير أو شر ، فمن أراد شيئًا من الخير والصلاح بزعمه يتقرب إليه بما يوافق المشتري من الدخن والرقى والعقد والنفث عليها ، ومن طلب شيئًا من الشر والحرب والموت والبوار لغيره تقرب بزعمه إلى زحل بما يوافق من ذلك . ومن أراد البرق والحرق والطاعون تقرب بزعمه إلى المريخ بما يوافق من ذلك من ذبح بعض الحيوانات . وجميع تلك الرقى بالنبطية تشتمل على تعظيم تلك الكواكب إلى ما يريدون من خير أو شر ومحبة و بغض فيعطيهم ماشاؤا من ذلك فيزعمون أنهم عند ذلك يفعلون ماشاؤا في غيرهم من غير مماسة ولا ملامسة سوى ماقدوه من القربات للكوكب الذي طلبوا ذلك منه . فمن العامة من يزعم أنه يقاب الإنسان حمارا أو كلبا ثم إذا شاء أعاده ، ويركب البيضة والمكينة والحابية ويطير في الهواء فيمضي من العراق إلى الهند وإلى ماشاء من البلدان ثم يرجع من أيلته

«وكانت عوامهم تعتقد ذلك لأنهم كانوا يعبدون الكواكب وكل ما دعا إلى تعظيمها اعتقدوه . وكانت السحرة تحتال في خلال ذلك بحيل تموه بها على العامة إلى اعتقاد صحته بأن يزعم أن ذلك لا ينفذ ولا ينتفع به أحد ولا يبلغ ما يريد إلا من اعتقد صحة قولهم وتصديقهم فيما يقولون

«ولم تكن ملوكهم تعترض عليهم في ذلك بل كانت السحرة عندها بالمحل الاجل لما كان لها في نفوس العامة من محل التعظيم والاجلال ، ولأن الملوك في ذلك الوقت كانت تعتقد ما تدعيه السحرة للكواكب ، إلى أن زالت تلك الممالك . ألا ترى أن الناس في زمن فرعون كانوا يتبارون بالعلم والسحر والحيل والخاريق ولذلك بعث إليهم موسى عليه السلام بالعصا والآيات التي علمت السحرة أنها ليست من السحر في شيء ، وإنما لا يقدر عليها غير الله تعالى ، فلما زالت تلك الممالك وكان من ملوكهم بعد ذلك من الموحدين يطلبونهم ويتقربون إلى الله

تعالى بقتلهم كانوا يدعون عوام الناس وجها لهم سرا كما يفعله الساعة كثير ممن يدعي ذلك مع النساء والاحداث الاغوار والجهال الحشو

« وكانوا يدعون من يعملون له ذلك الى تصديق قولهم والاعتراف بصحته. والمصدق لهم بذلك يكفر من وجوه (أحدها) التصديق بوجوب تعظيم الكواكب وتسميتها آلهة ( والثاني) اعترافه بأن الكواكب تقدر على ضره ونفعه (والثالث) ان السحرة تقدر على مثل معجزات الانبياء عليهم السلام. فبعث الله اليهم ملكين يبينان للناس حقيقة ما يدعون، و بطلان ما يدكرون، ويكشفتان لهم ما به يموهون، ويخبر انهم بمعاني تلك الرقى وانها شرك وكفر، وبجبلهم التي كانوا يتوصلون بها الى التمويه على العامة، ويظهرون لهم حقائقها، وينهونهم عن قبولها والعمل بها، بقوله ( انما نحن فتنة فلا تكفر ) فهذا أصل سحر بابل ومع ذلك فند كانوا يستعملون سائر وجوه السحر والحيل التي نذكرها ويموهون بها على العامة ويعزونها الى فعل الكواكب لئلا يبحث عنها ويسلمها لهم

« فمن ضروب السحر كثير من التخيلات التي مظهرها على خلاف حقائقها (فمنها) ما يعرفه الناس بجرىان العادة بها وظهورها ومنها ما يخفى ويلطف، ولا يعرف حقيقته ومعنى باطنه الا من تعاطى معرفة ذلك ، لان كل علم لا بد أن يشتمل على جلي وخفي وظاهر وغامض ، فالجلي منه يعرفه كل من رآه وسمعه من العقلاء والغامض الخفي لا يعرفه الا أهله ومن تعاطى معرفته وتكلف فعله بالبحث عنه وذلك نحو ما يتمخيل راكب السفينة اذا سارت في النهر فيرى ان الشط بما عليه من النخل والبنيان سائر معه ، وكما يرى القمر في مهب الشمال يسير للقيم في مهب الجنوب ، وكالدوران الدوامية فيها الشامة فيراها كاطوق المستدير في أرجائها، وكذلك يرى هذا في الرحي اذا كانت سريعة الدوران، وكالعود في طرفه الجرة اذا أداره مديره رأى تلك النار التي في طرفه كاطوق المستدير ، وكالعنبة التي يراها في قدح فيه ماء كالخوخة والاجاصة عظاما، وكالشخص الصغير يراه في الضباب عظاما جسيما، وكبخار الارض الذي يرى كقرص الشمس عند طلوعها عظاما فاذا فارقت وارتفعت صغرت ، وكما



يرى المرئي في الماء منكسراً أو معوجاً، وكبيرى الخاتم اذا قر بنه من عينك في سعة حلقة السوار. ونظائر ذلك كثيرة من الاشياء التي تتخيل على غير حقائقها فيعرفها عامة الناس «ومنها ما ياطف فلا يعرفه الا من تعاطاه وتأمله كخيط السحارة الذي يخرج مرة أحمر ومرة أصفر ومرة أسود. ومن لطيف ذلك ودقيقه ما يفعله المشعوذون من جهة الحركات واظهار التخيلات التي تخرج على غير حقائقها حتى يرى عصفورا معه أنه قد ذبحه ثم يرى طار بعد ذبحه وابانة رأسه وذلك لحفة حر كته ، والمذبوح غير الذي طار لانه يكون معه اثنان قد خبا أحدهما وأظهر الآخر ويخبأ لحفة الحركة المذبوح ويظهر الذي نظيره، ويظهر انه قد ذبح انساناً، وأنه قد بلع شيئاً معه وأدخله في جوفه ، وليس لشيء منه حقيقة

«ومن نحو ذلك ما يفعله أصحاب الحركات للصور المعمولة من صفر (١) او غيره فيري فارسين يقتتلان فيقتل أحدهما الآخر وينصرف بحبل قد أعدت لذلك ، وكفارس من صفر (١) على فرس في يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد ولا يتقدم اليه .

« وقد ذكر الكلبي ان رجلاً من الجند خرج ببعض نواحي الشام متصيداً ومعه كلب له وغلام فرأى ثعلباً فأغرى به الكلب ، فدخل الثعلب ثقباً في تل هناك ودخل الكلب خلفه فلم يخرج فأمر الغلام أن يدخل فدخل وانتظره صاحبه فلم يخرج فوقف متبنيماً للدخول ، فمر به رجل فأخبره بشأن الثعلب والكلب والغلام وان واحداً منهم لم يخرج وانه متأهب للدخول ، فأخذ الرجل بيده فأدخله الى هناك فمضيا الى مرب طويل حتى أفضى بهما الى بيت قد فتح له ضوء من موضع ينزل اليه بمرقنتين فوقه به على المرقاة الاولى حتى أضاء البيت حيناً ثم قال له : انظر ، فنظر فاذا الكلب والرجل والثعلب قتلى ، واذا في صدر البيت رجل واقف مقنع في الحديد وفي يده سيف فقال له الرجل : أترى هذا لو دخل اليه

(١) الصفر بضم الصاد وسكون القاف النجاس

هذا المدخل الف رجل لقتلهم كلهم، فقال: وكيف؟ قال: لانه قد رتب وهندم على هيئة منى وضع الانسان رجله على المرقاة الثانية للنزول تقدم الرجل المعمول في الصدر فضربه بالسيف الذي في يده، فاياك أن تنزل اليه . فقال: فكيف الحيلة في هذا؟ قال: ينبغي أن تحفر من خلفه سربا يفضي بك اليه ، فان وصلت اليه من تلك الناحية لم يتحرك . فاستأجر الجندي اجراء وصنعا حتى حفروا سربا من خلف التل فأفضوا اليه فلم يتحرك ، واذا رجل معمول من صفر أو غيره قد ألبس السلاح وأعطى السيف، نقله ، ورأى بابا آخر في ذلك البيت ففتحه فاذا هو قبر لبعض الملوك ميت على سرير هناك ، وأمثال ذلك كثيرة جدا (١) .

«ومنها الصور التي يصورها مصورو الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بين الانسان وبينها، ومن لم يتقدم له علم انها صورة لا يشك في انها انسان، وحتى تصورها ضاحكة أو باكية وحتى يفرق فيها بين الضحك من الخجل والسرور ، وضحك الشامت . «فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاطيل وخفيها، وما ذكرناه قبل من جليها. وكان سحر سحرة فرعون من هذا الضرب على النحو الذي بينا من حيلهم في العصي والحبال. والذي ذكرناه من مذاهب أهل بابل في القديم وسحرم ووجوه حيلهم بعضه سمعناه من أهل المعرفة بذلك ، و بعضه وجدناه في كتب قد نقلت حديثا من النبطية الى العربية منها كتاب في ذكر سحرم وأصنافه ووجوهه وكلها مبنية على الاصل الذي ذكرناه من قربانات الكواكب وتعظيمها وخرافات معها لا تساوي ذكرها ولا فائدة فيها

(و ضرب آخر) من السحر وهو ما يدعونه من حديث الجن والشياطين وطاعتهم لهم بالرقى والعزائم، ويتوصلون إلى ما يريدون من ذلك بتقدمة أمور ومواطاة قوم قد أعدوهم لذلك ، وعلى ذلك كان يجري أمر الكهان من العرب في الجاهلية، وكانت أكثر مخاريق الحلاج من باب المواطات ولولا ان هذا الكتاب لا يحتمل

استقصاء ذلك لذكرت منها ما يوقف على كثير من مخاريقه ومخاريق أمثاله (١) وضرر أصحاب العزائم ، وفتنتهم على الناس غير يسير ، وذلك أنهم يدخلون على الناس من باب ان الجن انما تطيعهم بالرقى التي هي أسماء الله تعالى فانهم يجيبون بذلك من شأوا ، ويخرجون الجن لمن شأوا ، فنصدقهم العامة على اغترار بما يظهرون من انقياد الجن لهم بأسماء الله تعالى التي كانت تطيع بها سليمان بن داود عليه السلام ، وانهم يخبرونهم بالحبايا وبالسرقة

« وقد كان المعتضد بالله مع جلالته وشهامته ووفور عقله اغتر بقول هؤلاء . وقد ذكره أصحاب التواريخ ، وذلك انه كان يظهر في داره التي كان يخلو فيها بنسائه وأهله شخص في يده سيف في أوقات مختلفة وأكثره وقت الظهر فاذا طلب لم يوجد ولم يقدر عليه ولم يوقف له على أثر مع كثرة التفتيش ، وقد رآه هو بعينه

(١) المواطات جمع مواطاة وهي الاتفاق بين اثنين أو أكثر على أمر. والمخاريق جمع مخراق وهي في الاصل خرق كانوا يفتلون بها ويلعبون بها بادارتها بخفة ومهارة. ومواطات الحلاج هي انه كان يتفق مع اناس من رجاله على ما يلبسون به على الناس بدعوى الكرامات وقد اكتشف ذلك في عصره كما بينه التتوخي في جامع التواريخ « نشوار المحاضرة » ومنه أن رجلا جاء بصفة مسترشد وانما هو مختبر فقال له الحلاج: تشه علي ماشئت فقال: أر يدسمك اطريا وكانوا في بعض بلاد الجبل البعيدة عن الانهار والبحر فدخل بيتا خاليا من داره وأغلق عليه بابه وعاد بعد ساعة طويلة وقد خاض وحلا الى ركبتيه ويده سمكة تضطرب وزعم أنه دعا الله فامرته أن يذهب الى البطائح قال فضيبت الى البطائح فحضت الالهواز وهذا الطين منها حتى أخذت هذه . فقال الرجل : تدعني ادخل البيت فان لم ينكشف لي حيلة فيه آمنت بك . فقال شاكك — فدخل وبعد عتاء وتنقيب اهتدى الى دار كبيرة فيها بستان عظيم فيه صنوف الفاكهة والثمار والنوار ومنها ما ليس من وقته ولكنه محفوظ بحيلة صناعية ووجد فيها خزائن مليحة فيها أنواع الاطعمة الناضجة والحوائج لما يهيا بسرعة ورأى في الدار بركة ماء مملوءة سمكا فاخذ واحدة منها وخرج ... فتبعه الحلاج فرمى بالسمكة وجهه وصدره وهرب وأقسم الحلاج ليقتلنه ان حدث احدا بذلك ولو في تخوم الارض ولم يحدث بها الرجل الا بعد قتله لعلمه بانه لو امر احد المقتولين به ان يقتله فانه يفعل .

مرارا فأهتته نفسه ودعا بالمعزمين فحضروا وأحضرهم معهم رجالا ونساء وزعموا ان فيهم  
مجانين وأصحاء ، فأمر بعض رؤسائهم بالعزيمة فعزم على رجل منهم زعم انه كان صحيحا  
فجن وتخبط وهو ينظر اليه وذكروا له ان هذا غاية الخدق بهذه الصناعة اذ اطاعته  
الجن في تخبيط الصحيح ، وانما كان ذلك من المعزم بمواطاة منه لذلك الصحيح على  
انه متى عزم عليه جنن نفسه وتخبط ، فجاز ذلك على المعتضد فقامت نفسه منه وكرهه ،  
الا انه سألهم عن امر الشخص الذي يظهر في داره فمخروقا عليه باشياء علقوا  
قلبه بها من غير تحصيل لشيء من امره ما سألهم عنه فامرهم بالانصراف وأمر لكل  
واحد منهم ممن حضر بخمسة دراهم . ثم تهور المعتضد بغاية ما أمكنه وأمر بالاستيثاق  
من سور الدار حيث لا يمكن فيه حيلة من تساق ونحوه ويطخت في أعلى السور  
خواب اثلا بمخال بالقاء المعاليق التي بمخال بها للصوم

« ثم لم يوقف لذلك الشخص على خبر الا ظهوره له الوقت بعد الوقت الى ان توفي  
المعتضد وهذه الخوابي المبطوحة على السور ، وقد رأيتها على سور اثريا التي بناها المعتضد  
فسألت صديقا لي كان قد حجب المقتدر بالله عن أمر ذلك الشخص وهل تبين أمره ؟  
فذكر لي انه لم يوقف على حقيقة هذا الامر الا في أيام المقتدر ، وان ذلك الشخص كان  
خادما أبيض يسمى ( يقق ) وكان يميل الى بعض الجوارى اللاتي في داخل  
دور الحرم ، وكان قد اتخذ لحي على ألوان مختلفة ، وكان اذا لبس بعض تلك  
اللحي لا يشك من رآه انها لحيته ، وكان يلبس في الوقت الذي يريد لحيه منها  
ويظهر في ذلك الموضع وفي يده سيف أو غيره من السلاح حيث يقع نظر المعتضد  
فاذا طلب دخل بين الشجر الذي في البستان أو في بعض تلك الممرات أو العطفات ،  
فاذا غاب عن أبصار طالبيه نزع اللحية وجعلها في كفه أو حزنه (١) ويبقى السلاح معه  
كانه بعض الخدم الطالبين للشخص ولا يرتابون به ويسألونه هل رأيت في هذه  
الناحية أحدا فانا قد رأينا صار اليها؟ فيقول ما رأيت أحدا . وكان اذا وقع مثل هذا  
الفرع في الدار خرجت الجوارى من داخل الدور الى هذا الموضع فيرى هو تلك  
(١) الحزة بالضم الحجة وهي من الازار معقده ومن السراويل ما تكون  
فيه التكة وهي معقده أيضا وفي كل منهما مخبا للدرهم ونحوها

الجارية ويخاطبها بما يريد وإنما كان غرضه مشاهدة الجارية وكلامها فلم يزل دأبه الى أيام المقتدره، ثم خرج الى البلدان وصار الى طرسوس وأقام بها الى ان مات وتحدثت الجارية بعد ذلك بحديثه ووقف على احتياله. فهذا خادم قد احتال بمثل هذه الحيلة الخفية التي لم يهتد لها أحد مع شدة عناية المعتضد به وأعيانه معرفتها والوقوف عليها ولم تكن صناعته الحيل والمخاريق فما ظنك بمن قد جعل هذا صناعة ومعايشاً؟

(وضرب آخر من السحر) وهي السعي بالنجيمة والوشاية بها (١) والبلغات والافساد والتضريب من وجوه خفية لطيفة، وذلك عام شائع في كثير من الناس وقد حكى ان امرأة أرادت افساد ما بين زوجين، فصارت إلى الزوجة فقالت لها: ان زوجك معرض وقد سحر وهو مأخوذ عنك وسأسحره لك حتى لا يريد غيرك، ولا ينظر الى سواك، ولكن لا بد أن تأخذي من شعر حلقه بالموسى ثلاث شعرات اذا نام وتعطينيها فان بها يتم الامر، فاغترت المرأة بقولها وصدقته. ثم ذهبت الى الرجل وقالت له: ان امرأتك قد علقت رجلاً، وقد عزمت على قتلك، وقد وقفت على ذلك من أمرها فأشقت عليك ولزمني نصحك فتيقظ ولا تغتر فانها عزمت على ذلك بالموسى وستعرف ذلك منها فيما في أمرها شك. فتناوم الرجل في بيته فلما ظنت امرأته انه قد نام عمدت الى موسى حاد وأهوت به لتحلق من حلقه ثلاث شعرات ففتح الرجل عينه فرآها وقد أهوت بالموسى الى حلقه فلم يشك في انها أرادت قتله فقام اليها فقتلها وقتل، وهذا كثير لا يحصى

(وضرب آخر من السحر) وهو الاحتيال في اطعامه بعض الادوية المبلدة المؤثرة في العقل والدخن المسدرة المسكرة نحو دماغ الحمار اذا طعمه انسان تبلد عقله وقلت فطنته مع ادوية كثيرة هي مذكورة في كتب الطب ويتوصلون الى ان يجعلوه في طعام حتى يأكله فيذهب فطنته ويجوز عليه اشياء مما لو كان تام الفطنة لانكرها فيقول الناس إنه مسحور (٢)

«١» بهذا فسر الاستاذ الامام النفائات في العقد من سورة النفاق  
 «٢» قد كثرت بعد عصر المؤلف العقاقير المفسدة للعقل والمبلدة للذهن ولا سيما في زماننا هذا ومنها الحشيشة المشهورة وما يتخذ منها ومن غيرها من المعاجين - والكوكابين ولكنها لا شتمها لم تعد تعد من اعمال السحر

« وحكمة كافية تبين لك ان هذا كله مخاريق وحيل لاحقية لما يدعون لها ان الساحر والمعزم لو قدرا على ما يدعيانه من النفع والضرر من الوجوه التي يدعون وأمكثهما الطيران والعلم بالغيوب واخبار البلدان النائية والحبيات والسرق والاضرار بالناس من غير الوجوه التي ذكرنا اقدروا على ازالة الممالك واستخراج الكنوز والغلبة على البلدان بقتل الملوك بحيث لا يبدأهم مكروه ولما مسهم السوء ولا تمتنعوا ممن قصدهم بمكروه ، ولا استغفوا عن الطلب لماني ايدي الناس . فاذا لم يكن كذلك وكان المدعون لذلك اسوأ الناس حالا وأكثرهم طمعا واحتياالا وتوصلا لاخذ دراهم الناس واظهرهم فقرا واملاقا علمت انهم لا يتقدرون على شيء من ذلك

« ورؤساء الحشو والجهال من العامة من أسرع الناس الى التصديق بدعاوى السحرة والمعزمين وأشدهم تكبرا على من جحداهم، ويروون في ذلك اخبارا مفتملة منخرصة يعتقدون صحتها كالحديث الذي يروون ان امرأة أتت عائشة فقالت اني ساحرة فهل لي توبة؟ فقالت وما سحرك؟ قالت سرت الى الموضع الذي فيه هاروت وماروت ببابل لطلب علم السحر فقالا لي يا امة الله لا تختاري عذاب الآخرة بامر الدنيا، فابيت، فقالا لي اذهبي فبولي على ذلك الرماد فذهبت لا بول عليه ففكرت في نفسي فقلت لا فعلت وجئت اليهما فقلت قد فعلت، فقالا ما رأيت؟ فقلت ما رأيت شيئا، فقالا ما فعلت اذهبي فبولي عليه، فذهبت وفعلت، فرأيت كان فارسا قد خرج من فرجي مقنعا بالحديد حتى صعد الى السماء ، فخبثتها فاخبرتهما فقالا ذلك ايمانك خرج عنك وقد أحسنت السحر، فقلت وما هو؟ فقالا لا تريدن شيئا فتصورينه في وهمك إلا كان. فصورت في نفسي حبا من حنطة فاذا أنا بالحب، فقلت له انزرع فانزرع وخرج من ساعته سنبلا فقالت له انطحن وانخبز الى آخر الامر حتى صار خبزا، واني كنت لأصور في نفسي شيئا الا كان. فقالت لها عائشة ليست لك توبة

« فيروي القصص والمحدثون الجهال مثل هذا للعامة فنصدقه ونستعيده ونسأله ان يحدثها بحديث ساحرة ابن هبيرة فيقول لها ان ابن هبيرة أخذ « تفسير القرآن الحكيم » « ٨ » « الجزء التاسع »

ساحرة فاقرت له بالسحر فدعا الفقه فسأهم عن حكمها فقالوا القتل ، فقال ابن هبيرة است أقنأها الا تغريقا قال فأخذ رحي البزر فشدّها في رجلها وقذفها في الفرات فقالت فوق الماء مع الحجر تنحدر مع الماء فخافوا ان تفوتهم فقال ابن هبيرة من يمسكها وله كذا وكذا فرغب رجل من السحرة كان حاضرا فيما بذله فقال اعطوني قدح زجاج فيه ماء فجوّه به فقعده على القدح ومضى الى الحجر فشق الحجر بالقدح فتنقطع الحجر قطعة قطعة فغرقت الساحرة — فيصدقونه، ومن صدق هذا فليس يعرف النبوة ولا يأمن ان تكون معجزات الانبياء عليهم السلام من هذا النوع وانهم كانوا سحرة وقال الله تعالى ( ولا يفلح الساحر حيث أتى ) « وقد أجازوا من فعل الساحر ما هو أظلم من هذا وأفظع ، وذلك أنهم زعموا ان النبي عليه السلام سحر وان السحر عمل فيه حتى قال فيه « انه يخيل الي اني أقول الشيء ، وأفعله ، ولم أقله ولم أفعله » وان امرأة يهودية سحرته في جف طلعة ومشط ومشاقة (١) حتى أتاه جبريل عليه السلام فأخبره أنها سحرته في جف طلعة وهو تحت راعوفة البئر (٢) فاستخرج وزال عن النبي عليه السلام ذلك العارض . وقد قال الله تعالى مكذبا للكفار فيما ادعوه من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال جل من قائل ( وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا ) ومثل هذه الاخبار من وضع الملحدين تلعبا بالحشو والطعام ، واستجرارا لهم الى القول بانطال معجزات الانبياء عليهم السلام ، والقدح فيها ، وانه لا فرق بين معجزات الانبياء وفعل السحرة وان جميعه من نوع واحد . والسجب ممن يجمع بين تصديق الانبياء عليهم السلام واثبات معجزاتهم ، وبين اتصديق بمثل هذا من فعل السحرة مع قوله تعالى ( ولا يفلح الساحر حيث أتى ) فصدق هؤلاء من كذبه الله وأخبر ببطان دعواه واتحاله . وجائز أن تكون المرأة اليهودية بجعلها فعلت ذلك ظنا

١ « جف الطامع بضم الجيم هو الوعاء الذي يخرج منه طامع النخل ، والمشاقة من الكتان معروفة وفي اكثر الروايات مشاطة وهي بالضم الشعر الذي يسقط من الشعر عند تسريحه بالمشط والمراد ان المشط والمشاطة وضعاف في جف طلعة وصفت عند الشيخين بانها طلعة ذكر اي من النخل « ٢ » راعوفة البئر الحجر الثابت الذي يقف عليه المستقي من البئر

منها بأن ذلك يعمل في الاجساد وقصدت به النبي عليه السلام فأطلع الله نبيه على موضع سرها ، وأظهر جهلها فيما ارتكبت وظنت ليكون ذلك من دلائل نبوته ، لان ذلك ضره ، وخاط عليه أمره ، ولم يقل كل الرواة انه اختلط عليه أمره وإنما هذا اللفظ زيد في الحديث ولا أصل له (١)

«والفرق بين معجزات الانبياء وبين ما ذكرنا من وجوه التخبيبات ، ان معجزات الانبياء عليهم السلام هي على حقائقها ، وبواطنها كظواهرها ، وكلما تأملتها، ازددت بصيرة في صحتها ، ولو جهد الخلق كلهم على مضاهاتها ومقابلتها بأمثالها ظهر عجزهم . ومخاريق السحرة وتخيلاتهم إنما هي ضرب من الحيلة والتلطف لاظهار أمور لا حقيقة لها، وما يظهر منها على غير حقيقتها، يعرف ذلك بالتأمل والبحث ومتى شاء أن يتعلم ذلك بلغ فيه مبلغ غيره ، وبأني يمثل ما ظهره سواء « اه هذا جل ما قاله ابو بكر الجصاص في معنى السحر وحقيقته وعقده بآبا في ذكر قول الفقهاء فيه وما تضمنته الآية من حكمه وما يجري على مدعي ذلك من العقوبات ومنها القتل كفرأ في بعض أنواعه المنتظمة للشرك والمستلزمة للريب

١ «انكر الجصاص الحديث المروي في ذلك - وكذلك الاستاذ الامام - لما رضته للقرآن وما فيه من الشبهة على عصمة النبي «ص» حتى في امر التبليغ مع انه مروي في الصحيحين لان من علامة الحديث الموضوع مخالفته للقطبي من القرآن وغيره ، ومثل هذا انكار النووي لما روي عن ابن مسعود «رض» من انكار كون المعوذتين من القرآن مع صحة سنده . والجمهور يؤولون في هذا وذلك ويعرهم ان المقلدين يسلمون لهم كل تأويل ولو متكلفا وينسون ان اعداء الاسلام ومستقلي الفكر من غيرهم لا يقبلون التأويل المتكلف الذي لا يطمئن له القلب ، والظاهر ان الجصاص لم يطلع على روايات الشيخين في مسأله كاطلاع النووي على جميع الروايات في مسأله . وفيهما ان الذي سحر النبي «ص» هو اميد بن الاعصم اليهودي لا امرأة، ومذهب الأشعرية أن للسحر تأثيرا حقيقيا وليس كله حيلة ومنه انه أثر في جسم النبي «ص» وخياله دون عقله وروحه فكان تخيل اليه أنه أنى نساءه ولم يكن اتاهن ولم يتجاوز هذا الحد ، وقال الاستاذ الامام ان هذا تأثير في النفس ومداركها ورسول الله اجل واعظم من ذلك فنتسه أركى الانفس وازكاها واقواها فلا يمكن ان تؤثر فيها نفس خبيثة فاسدة



في معجزات الرسل . وان كثيراً من العلماء يثبتون ما نكره من تأثير الجن واستخدام بعض الناس لهم . ومن العجيب أنه لا يزال في هذا العصر من يتوسل إلى الاستعانة بالجن على بعض الاعمال السحرية بما هو كفر قطما كربط بعض القرآن على السوءتين كما علمت من بعض المخبرين لهؤلاء الدجالين الذين يعيشون بكتابة العزائم والحجب للحب والبغض والحبل وغير ذلك والمفاسد في ذلك كبيرة جدا وقد ذكرنا بعضها في تفسير ( ٧ : ٢٦ ) إنه براكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ) فراجع ( في ص ٣٦٧ - ٣٧١ من المجلد الثامن تفسير )

### ( عود الى تفسير الآيات )

لما أظهر موسى عليه السلام آية الله تعالى في محاسن فرعون ( قال الملا من قوم فرعون ) أي أشرف قومه واركان الدولة منهم : ( ان هذا لساحر عليم ) أي راسخ في العلم - كما تدل عليه صيغة عليم ( يريد ان يخرجكم من ارضكم ) أي قد وجه ارادته لسلب ملككم منكم وإخراجكم من ارضكم بسحره بأن يستميل به الشعب المصري فيتبعه فينتزع منكم الملك ويستبد به دونكم ، وبلي ذلك اخراج الملك وعظاء رجاله من البلاد لثلا يناوؤه لاستعادة الملك منه ، كما فعل متغلبة الترك في هذه الايام بعد إسقاط الدولة العثمانية فانهم أخرجوا جميع افراد الاسرة السلطانية من البلاد التركية التي بقيت لهم . وفي معنى هذا القول من فرعون ورجال دولته ما حكى الله تعالى عنهم من مراجعتهم لموسى واخيه في سورة يونس ( ١٠ : ٧٨ ) قالوا اجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض ؟ وما نحن لكما بمؤمنين )

وما قال الملا من قوم فرعون هذا القول الاتبعاً لقوله هو الذي حكاه تعالى عنه في سورة الشعراء ( قال للملا حوله إن هذا لساحر عليم \* يريد أن يخرجكم من ارضكم بسحره فماذا تأمرون ) أي رددوا قوله وصاريلقيه بعضهم الى بعض كدأب الناس في نقل كلام ملوكهم ورؤسائهم وتردبده إظهاراً للموافقة عليه ، وتعميماً لتبليغه . وإنما لم يصرحوا بكلمة « بسحره » كما صرح هو لانهم كانوا دونه خوفاً وانزعاجاً ، وأقل منه حرصاً على الطعن في دعوة موسى ،

ولكن ذكرها السحرة في تناجيهم مع فرعون وهأجدر بذكرها في كتابها  
الله تعالى عنهم بقوله من سورة طه ( فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى \*  
قالوا ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا  
بطريقتكم المثلى \* فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفا وقد افلح اليوم من استعلى )

والامر في قول فرعون لهم وقول بعضهم لبعض ( فاذا تأمرون ) ليس  
هو المقابل للنهي بل هو بمعنى الادلاء بالرأي في الشورى قال الزمخشري في  
الاساس: وتأمر القوم وائتمروا، مثل تشاوروا واشتوروا . وعرفني بمعنى اشر  
علي . قال بعض فتاكهم .

الم تر اني لا اقول لصاحب اذا قال مرني: أنت ماشئت فافعل  
ولكنني افري له فأويحه بزلأ تنجيه من الشك فيصل  
وقال في مادة ( بزل ) ومن المجاز بزل الامر والرأي : استحكم . وامر  
بازل . وتقول خطب بازل ، لا يكفيه الا رأي قارح ، وإنه لدو بزلأ ، أي ذو  
صريحة محكمة ، وهو نهاض بزلأ اي بخطة عظيمة . قال

إني اذا شغلت قوما فروجهم رجب المسالك نهاض بزلأ  
( أقول ) ومعنى بيتي الفاتك أن صاحبه اذا استشاره فقال له امرني - أي  
أشر علي - لا يقول له افعل ما تشاء اعراضا عن نصحه أو عجزا عنه ، بل يفري  
أي يقطع له الرأي المحكم بخطة بزلأ أي قوية محكمة تخرجه من الشك والتردد  
وتكون فيصلا أي فاصلة بين الخطأ والصواب . والبزلأ وبزول الامر والرأي  
مأخوذ من بزول ناب البعير وهو أن ينشق ويخرج عند دخوله في السنة التاسعة  
فهو بازل ولذلك أطلقوا لقب البازل على الرجل القوي المحكم التجربة  
﴿ قالوا أرجه <sup>(١)</sup> واخاه وارسل في المدائن حاشرين ﴾ اي قال الملا لفرعون

(١) في هذه الكلمة عدة قراءات لفظية محضة سببها اختلاف لهجات العرب  
في اثبات الهمزة وحذفها تخفيفا وقد بينها السيد الألويسي في روح البيان مع تعميلاتها فقال :  
وأصل أرجه أرجئه بهمزة ساكنة وهاء مضمومة دون واو ثم حذف الهمزة  
وسكنت الهاء لتشبيهه المنفصل بالمتصل وجعل أرجه كابل ( كذا ) في اسكان وسطه  
وبذلك قرأ ابو عمرو وابو بكر ويعقوب على انه من أرجأت وكذلك قراءة ابن كثير  
وهشام وابن عامر أرجئوه بهمزة ساكنة وهاء متصلة بواو الاشباع وقرأ نافع في  
رواية ورش واسماعيل والكسائي أرجئيه بهاء مكسورة بعدها ياء من أرجيت =

حين استشارهم بقوله « فماذا تأمرون ؟ : ارجه اي ارجيه و اخر امره  
وامر اخيه ولا تفصل فيه بادي الرأي وأرسل في مدائن ملكك رجالا او  
جماعات من الشرطة والجند حاشرين اي جامعين سائقين للسحرة منها -  
فالحشر الجهم والسوق - وانما يوجد السحرة في المدائن الجامعة الآهله بدور  
العلم والصناعة ، فان ترسلهم ﴿ يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ بفنون السحر ماهر  
فيها وهم يكشفون لك كنهه ما جاء به موسى فلا يفتتن به أحد .  
قرأ الجمهور ( ساحر ) بصيغة اسم الفاعل ، وحمزة والكسائي هنا وفي  
يونس (سحار) بصيغة المبالغة له وجاء ذلك بالامالة وعدمها - وبها قرأ الجميع  
في الشعراء . ورسمهما في المصحف الامام واحده هكذا (سحر) ليحتمل القراءتين  
ووجههما ان فرعون لما طاب كل ساحر علم في مدائن البلاد خص بالذكر المهرة  
المتمرنين في السحر المكثرين منه - او ان بعض مائه طلب هؤلاء فقط لانهم  
اجدر باتيان موسى بمثل ما جاء به من الامر العظيم كما حكى الله تعالى عن  
فرعون في سورة طه ( قال اجئنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك يا موسى  
فلنأتينك بسحر مثله ) وطلب آخرون حشر جميع السحرة الراسخين في العلم  
لعله يوجد عند بعض المقتصدین او اقلين من السحر ما لا يوجد عند المكثرين  
منه - فبينت القراءتان كل ما قيل مع الایجاز البليغ .

= وفي رواية قالون ان ارجه بحذف الياء لئلا كثفاء عنها بالكسرة وقرأ ابن عامر برواية  
ابن ذكوان ارجئه بالهمزة وكسر الهاء وقد ذكر بعضهم ان ضم الهاء وكسرها والهمز  
وعنده لغتان مشهورتان وهل هما مدتان او الياء بدل من الهمزة كتوضأت وتوضيت؟  
قولان . وطمن في القراءة على رواية ابن ذكوان فقال الحوفي انها ليست بحيدة وقال  
الفارسي ان ضم الهاء مع الهمزة لا يجوز غيره وكسرها غلط لان الهاء لا تكسر الا  
بعد ياء ساكنة او كسرة واجيب كما قال الشهاب عنه بوجهين احدهما ان الهمزة  
ساكنة والحرف الساكن حاجز غير حصين فكأن الهاء وليت الجهم المكسورة  
فلذا كسرت والثاني ان الهمزة عرضة للتغيير كثيرا بالحذف وابدالها ياء اذا سكنت  
بعد كسرة فكأنها وايت ياء ساكنة فلذا كسرت، واورد على ذلك ابو شامة ان  
الهمزة تعد حاجزا وان الهمزة لو كانت ياء كان المختار الضم نظراً لاصلها وليس بشيء  
بعد ان قالوا ان القراءة متواترة وما ذكر لغة ثابتة عن العرب اه

(١١٢) وَجَاءَ السَّحْرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ  
 (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ أَعْيُنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يُوسَىٰ إِنَّمَا أَنَا  
 تُلْقِي وَإِنَّمَا أَن نَكُونُ نَحْنُ الْمُلْكَيْنِ (١١٥) قَالَ أَتَقْوُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا  
 سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين ﴾ اي  
 وجاء فرعون السحرة الذين حشرهم له اعوانه وشرطته ولم يذكر الكتاب  
 الحكيم ولا الرسول المعصوم عددهم اذ لا فائدة منه وكل ما روي فيهم من أنهم  
 عشرات الالوف فهو من الاسرائيليات التي لا اصل لها عندنا ولا في التوراة التي  
 بين ايديهم . فلما جاؤا قالوا لفرعون ان لنا لاجرا وجزاء عظيما يكافيء ما  
 يطلب منا من العمل العظيم ان كنا نحن الغالبين لموسى . ذكر قولهم هنا بأسلوب  
 الاستئناف البياني كأنه جواب سائل : ماذا قالوا؟ وجاء في سورة الشعراء بصيغة  
 الشرط والجزاء ( فلما جاء السحرة فرعون قالوا ) وهو تفتن في العبارة . قرأ ابن  
 كثير وناقض وحقق عن حاصم ( ان لنا لاجرا ) بهمزة واحدة قيل انه على  
 الاخبار الدال على ايجاب الاجر وكونه لا بد منه . وقيل انه على حذف همزة  
 الاستفهام الذي يكثر في كلام العرب ، وهو المتبار والمتخار ليوافق قراءة ابن حاصر  
 باثباتها هنا وهو ما اتفقوا عليه في سورة الشعراء

﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ أي قال فرعون مجيباً لهم الى ما طلبوا  
 نعم إن لكم لاجراً عظيماً وإنكم مع ذلك لاجر المادي او المادي من المقربين من جنابنا  
 السامي ، فيجتمع لكم المال والجاه وذلك منتهى نعيم الدنيا ومجدها . أ كدلهم نيل  
 ما طلبوه منه وما زادهم عليه تأكيداً بعد تأكيد لاهتمامه بهذا الامر وخوفه من  
 عاقبته ، فانه لو قال لهم نعم ولم يزد عليها لافاد إجابة طلبهم ، ولو قال في منحة  
 القربي : وتكونون من المقربين ؛ لكفى . ولكنه عبر عنها بالجملة الاسمية المؤكدة  
 بلون وبتحلية الخبر باللام وبمطف التلقين أي عطف « وإنكم لمن المقربين » على

الجملة المقدرة التي دل عليها حرف الايجاب «نعم» وهي «ان لكم لاجراً» فما عطف عليها الا وقد قدر اعادتها . وفي سورة الشعراء زيادة «إذن» أي وانكم في هذه الحالة وهي كونكم أنتم الغالبين دون موسى لمن المقربين وحذفها من هذه السورة دليل على إنه قالها مرة دون اخرى فأفاد أنه كرر لهم الاجابة والوعد وذلك تأكيد آخر

﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ استئناف بياني كمنظائره أي قال السحرة لموسى عليه السلام بعد أن وعدهم فرعون ما وعدهم: إما أن تلقي ما عندك أولاً، وإما أن نكون نحن الملقين لما عندنا من دونك. أما تخييرهم إياه فلثقتهم بأنفسهم، واعتدادهم بسحرتهم، وإرهابه باله، وإظهار أعدم المبالاة به، مع العلم بأن المتأخر يكون البصر بما تقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى شوط خصمه، وما قيل من ان علة التخيير مراعاة الادب لا وجه له البتة، بل مقامهم بحضرة ملكهم الذي يدعي الالهية والربوبية فيهم وما طلبوه منه وما وعدهم إياه - كله يقتضي ان يحتقر واخصمه لان يتأدبوا معه كما يتأدب اهل الصناعة الواحدة بعضهم مع بعض اذا تلاقوا المباراة وهو ما وجه الزمخشري به التعليل، وما قاله البيضاوي وغيره من ان علة إظهار التجلد فضعيف اذ لم يروا من موسى شيئاً بأعينهم يقتضيه وانما سمعوا انه القى عصاه فصرخ فرعون فصارت ثعباناً فاستعدوا لمقابلته بمصي وحبال كثيرة يخيل اليه والى كل ناظر انها ثعابين تسعى فيبطلون سحره بسحر مثله كما قال ملكهم ( فلنأتينك بسحر مثله )

وذهب الزمخشري ومن تبعه الى ان هذا التعبير عن إلقاءهم يدل على رغبتهم في البدء بما ينبيء عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل « نحن » وتوكيد الضمير المستتر به . وفي سورة طه ( اما ان تلقي واما ان نكون اول من القى ) وفيه من التوكيد ما يدل على الرغبة في الاولوية التي صرحوا بذكرها هنا . فلا فرق بين التعبيرين في المعنى فلا بأس حينئذ بجعل الاختلاف اللفظي في الحكاية عنهم لمراعاة الفواصل ، وقد اختلف فيه على اقوال ثلثها وهو الصحيح المعتمد انه جائز وواقف فيما لا يخل بأداء المعنى، ولا ينافي البلاغة العليا ، فكيف اذا كان مزيد تفنن قد يصل الى حد الاعجاز فيها، وذلك ان تأدية دقائق المعاني مكررة بألفاظ مختلفة في منتهى العسر وكثيراً

ما يكون متعذراً ، فلو لم يؤكد الضمير المتصل ههنا بالضمير المنفصل «نحن» لما افاد معنى الرغبة في اولية الالقاء المصرح به في سورة طه ، وبذلك علم ان مراعاة الفاصلتين في الموضعين هو الذي وحد بينهما بجعل كل منهما دالاً على رغبة السحرة في التقدم والاولية ، فأى خطيب او كاتب يقدر على افادة هذا المعنى بأسلوبين مختلفين في اللفظ من غير تصريح به ، واي مترجم تركي او افرنجي يفقه هذا ويؤديه في ترجمته للقرآن ؟

﴿ قال ألقوا ﴾ وفي سورة طه ( قال بل القوا ) وهو ادل على رغبته عليه السلام في سبقهم للالقاء . ولعله نطق اولاً بما فيه الاضراب فقال بل القوا انتم من دوني ثم اعاد كلمة القوا وحدها لتأكيد رغبته والايذان بعدم مبالاته . وفي سورتي يونس والشعراء ( قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون ) فأظهر اسم موسى الذي أضمره هنا وفي سورة طه لانه جواب لخطابهم اياه باسمه بالتخبير ، فالمراد فيها مقام الاضمار حتماً . واما اظهاره في سورتي يونس والشعراء فسببه انه ليس فيهما ذكر لنداء السحرة اياه وتخييرهم له فأول آية يونس ( فلما جاء السحرة قال لهم موسى القوا ) وقبلها طلب فرعون للسحرة فلو لم يصرح باسم موسى لكان المتبادر ان الذي امرهم بالالقاء هو فرعون حسب قاعدة عود الضمير الى اقرب مذكور ، وكذلك آية الشعراء جاءت بعد ذكر طلب فرعون للسحرة ومجيئهم وسؤالهم اياه الاجر إن كانوا هم الغالبين واجابته إياهم ، فهي أولى من آية يونس بما ذكر . واما زيادة ( ما انتم ملقون ) فانها فائدة نافذة ذات شأن تدل على عدم مبالاته بما يلقون مهما عظم امره وكان مجهولاً عنده ، وهي لا تنافي عدم ذكرها في آية الاعراف فيجمع بينهما

وقد قيل كيف أمرهم موسى عليه السلام بالقاء ما عندهم وهو من السحر المنكر؟ وأجيب بأنه لم يأمر بفعل السحر ابتداءً وإنما أمر بأن يتقدموه فيما جاؤا لاجله ولا بد لهم منه، و اراد التوسل به الى إظهار بطلان السحر لا اثباته، والى بناء ثبوت الحق على بطلانه، ولم يكن ثم وسيلة لابطاله الا ذلك، وقد صرح به فيما حكاه تعالى عنه في سورة يونس (قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبيطه، ان الله لا يصلح عمل المفسدين) ويحق الله الحق بكلماته ولو كره الجرمون) ومثله توسل ابراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا وآلهما الى اظهار حقيقة التوحيد لعبد الكواكب من

« تفسير القرآن الحكيم » « ٩ » « الجزء التاسع »

قومه لما رأى كلام من الكوكب والقمر والشمس بارزاً فقال « هذا ربي » ثم تعقبه بما يدل على كونه لا يصحح أن يكون ربا واسماعه إلا ثم بعد ابطال ربوبيتها كلها حقيقة التوحيد بقوله (اني وجهت وجهي الذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ أي فلما ألقوا ما ألقوا من حبالهم وعصيهم كما في سورتي الشعراء وطه سحروا أعين الناس الحاضرين ومنهم موسى عليه السلام ففي سورة طه (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) واسترهبوهم أي اوقعوا في قلوبهم الرعب والخوف كما قال تعالى ( فأوجس في نفسه خيفة موسى \* قلنا لا تخف انك أنت الاعلى ) واصل الاسترهاب محاولة الارهاب وطلب وقوعه بأسبابه، وقد قصدوا ذلك فحصل. وجاءوا بسحر عظيم أي مظهره كبير، وتأثيره في أعين الناس عظيم، قال الحافظ ابن كثير: أي خيلوا الى الابصار ان ما فعلوه له حقيقة في الخارج ولم يكن الا مجرد صنعة وخيال. ثم ذكر عن ابن عباس « رض » انهم القوا حبالا غلاظا وخبثا طوالا « قال » فأقبلت يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى . ثم ذكر عن ابن اسحق ان السحرة كانوا خمسة عشر ائف ساحر وان الحيات التي اظهروها بخيال سحرهم كانت كأمثال الجبال قد ملأت الوادي - وعن السدي ان السحرة كانوا بضعا وثلاثين ائفا ، وعن القاسم بن أبي بزة ٧٠ ائفا . وذكر غيره ما هو اعظم من ذلك من المبالغة والتحويل ولا يصح شيء من ذلك في خبر مرفوع وانما هي من الاسرائيليات الباطلة المروية عن اليهود كما تقدم، على انه ليس في توراتهم منها شيء وانما جاء في الفصل السابع من سفر الخروج منها ان فرعون دعا الحكماء والسحرة « ففعل عرافو مصر أيضا بسحرهم كذلك : طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين ولكن عصاهارون ابتلعت عصيهم » وقد ذكر بعض المفسرين سر صناعتهم في ذلك بما اراه استنباطا علميا لا نقلا تاريخيا . قال الامام الجصاص في احكام القرآن: قال الله تعالى (سحروا اعين الناس) يعني موهوا عليهم حتى ظنوا ان حبالهم وعصيهم تسعى ، وقال ( يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ) فأخبر ان ما ظنوه سميا منها لم يكن سميا وانما كان تخيلا . وقد قيل إنها كانت عصيا مجوفة قد ملئت زئبقا وكذلك الجبال كانت معمولة من آدم ( أي جلد ) محشوة زئبقا ، وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابا وجعلوا أزواجا ملؤها نارا فلما طرحت عليه وحمي الزئبق حركها

لان من شأن الزئبق اذا اصابته النار أن يطهر ، فأخبر الله ان ذلك كان مموها على غير حقيقته ، والعرب تقول لضرب من الحلي مسحورا اي مموه على من رآه مسحور به اه فعلى هذا يكون مسحورهم لاعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية اذا صح خبرها ، ومجتملى أن يكون بحيلة أخرى كاطلاق الحجره أرت في الاعين فجعلتها تبصر ذلك أو بجمل العصي والحبال على صورة الحيات وتحريكها بحركات خفية سريعة لاتدركها ابصار الناظرين ، وكانت هذه الاعمال من الضناعات وتسمى السيمياء

(١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ ألقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ

مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨)

فَقَلْبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صُغُرِينَ (١١٩) وَالْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ

(١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ ألقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي أوحينا اليه بأن ألق عصاك فقد جاء وقتها وانقلاها كما أمر فاذا هي تلقف ما يأتون به من الافك . ذكر هنا وفي سورة طه امره تعالى لموسى باللقاء وفي سورة الشعراء أنه فعل اللقاء الذي أمر به ولم يذكر الامر فحذف من كل سورة ما ثبت مقابله في الاخرى وهو من قبيل الاحتباك في السور والايجاز المؤدي للمعاني المتعددة بأخصر عبارة . قرأ حفص تلقف بالتخفيف من الثلاثي والباقون بالتشديد وأصله تتلقف وهو يدل على لقف شيء بعد شيء

ما معنى لقف العصا الافك ؟ الافك بالكسر اسم لما يؤفك أي يصرف ويجول عن شيء الى غيره ويستعمل في التلبيس والشرو وقلب الحقائق ، وبالفتح مصدر افك « بالفتح كجلس وضرب » ويقال افك بالكسر « كتب » قال في الاساس : افكه عن رأيه صرفه ، وفلان مأفوك عن الخير . وقال الراغب الافك كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه ومنه قيل للرياح العادة عن المهاب مؤتكفة قال تعالى ( وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ) وقال تعالى ( والمؤتكفة أهوى ) وقوله تعالى ( قائلهم الله انى يؤفكون ) أي يصرفون عن الحق في الاعتقاد الى الباطل ، وعن الصدق في



المقال الى الكذب ، وعن الجميل في الفعل الى القبيح . ومنه قوله تعالى (يؤفك عنه من افك \* انى يؤفكون) وقوله : أجيئنا لتأفكنا عن آلهتنا ) فاستعملوا الافك في ذلك لما اعتقدوا ان ذلك صرف عن الحق الى الباطل — فاستعمل ذلك في الكذب لما قلنا اه ويعلم منه ومن سائر استعمال المادة في القرآن وغيره ان الافك يكون بالقول ومنه الكذب وما يؤدي المراد من الكذب كالايهام والتدليس والتجوزات والكنائيات والمعارض التي توهم السامع أو القاريء لها ما يخالف الحق ، وقد يكون بالفعل كعمل سحرة فرعون

واما لقف الشيء وتلقفه بالتشديد فهو تناوله بحذق وسرعة كما قال الشاعر

كرة حذفت بصوالجة فتلقفها رجل رجل

قال الراغب لقفت الشيء القفه «أي من باب علم» وتلقفته تناولته بالحذق سواء في ذلك تناوله بالتم أو اليد قال ( فاذا هي تلقف ما يأفكون ) اه ومن مجازه تلقف العلم أي تلقيه بسرعة وحذق . وما في قوله تعالى « ما يأفكون » إما موصولة واما مصدرية وعلى الاول يتخرج ما نقل عن ابن عباس وقتادة والحسن والسدي من كون عصا موسى عليه السلام التقت حبال السحرة وعصيتهم واسترطنها أي ابتلعتهما فهو مما يحتمله اللفظ، والراجح انه مأخوذ عن اليهود لما علمت أنفا من نص سفر الخروج فيه . وينافيه كونها مصدرية إذ المعنى عليه انها تناوات عملهم هذا فأنت عليه بما أظهرت من بطلانه وحقيقة الامر في نفسه بسرعة، فان كان إفكهم عبارة عن تأثير أحدثوه في الاعين فلقفها إياه عبارة عن ازالته وابطاله ورؤية الحبال والعصي على حقيقتها — وان كان تحريكها لها بحركات خفية سريعة فكذلك — وان كان قد حصل بعملها مجوفة محشوة بالزئبق وتحريكه إياها بفعل الحرارة سواء كانت ناراً أعدت لها والشمس حين اصابتها فلقفها لذلك يجوز ان يكون بعمل من الحية اخرجت به الزئبق من الحبال والعصي فانكشفت به الحيلة. قال الشيخ محي الدين بن العربي ما معناه أو محصله على ما نتذكر ان إبطاها لسحر السحرة انه ترتب على القائها ان رأى الناس تلك الحبال والعصي على أصلها ولو ابتلعتهما لبقى الامر ملتبسا على الناس اذ قصاراه ان كلا من السحرة وموسى قد اظهر امرا غريبا ولكن احد الغريبين كان أقوى من الآخر فأخفاه على وجه غير معلوم ولا مفهوم وهذا لا ينافي كونهما من جنس واحد . ولكن زوال غشاوة السحر وتخيله حتى رأى الناس ان الحبال والعصي التي القاها

السحرة ليست الا حبالا وعصيا لا تسمى ولا تتحرك، وان عصا موسى لم تزل حية نسمى - هو الذي ما ز الحق من الباطل ، وعرفت به الآية الالهية ، والحيلة الصناعية . وكل ما في الامر ان عصا موسى ازلت هذا التخيل بسرعة وهو معنى اللطف ولكن لا نعلم بم كان لها هذا التأثير لانها آية الالهية حقيقة لا امر صناعي حتى نعرف صفته وحقيقته .

وقوله تعالى ﴿ فوقه الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ اظهر في هذا المعنى منه في ابتلاع العصا للحبال والعصي اذا فسرت الفاظه بما فيها الحقيقية فالذي بطل كان عملا مملوه، وكيدا كادوه، وليس شيئا ماديا اوجدوه، كما علم من سورة طه وسورة يونس ، أي فثبت الحق وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخيل وذهب تأثيره

﴿ فقلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ اي فقلب فرعون وملؤه في ذلك المجمع العظيم الذي كان في عيد لهم ويوم زينة من مواسمهم ضربه موسى موعدا لهم بسؤالهم كما بين في سورة طه (قال موعدهم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى) لتكون الفضيحة ظاهرة مبينة لجاهل الناس ، ولم يقل فقلبهم موسى لان ذلك لم يكن بكسبه وصنعه - وانقلبوا أي عادوا من ذلك المجمع صاغرين اذله، بما رزئوا به من الخذلان والخيبة ، أو صاروا صاغرين . وانما خص هذا بفرعون وملئه وكان المتبادر ان يكون للسحرة اولا وبالذات وفرعون بالتبم أو للجميم علي سواء ، لانه تعالى بين ما كان من عاقبة السحرة بقوله

﴿ وألقي السحرة ساجدين ﴾ فسر في الكشاف بقوله : وخرؤا سجدا كأنما ألقاهم ملق لشدة خروورهم ، وقيل لم يتما لكوا بما رأوا فكأنهم ألقوا اه. والمراد ان ظهور بطلان سحرهم وادراكهم خثاة لحقيقة آية موسى «ع . م» وعلمهم بأنها من عند الله تعالى لا صنع فيها لمخلوق قد ملأت عقولهم يقينا وقلوبهم ايمانا فكان هذا اليقين في الايمان البرهاني الكامل، والوجداني الحاكم على الاعضاء والجوارح، هو الذي ألقاهم على وجوههم سجدا لله رب العالمين، الذي بيده ملكوت الخلق أجمعين ، ولم يبق في انفسهم ادنى مكان لفرعون وعظمته الدنيوية الزائلة؛ ولا سيما وقد ظهر لهم صفاره أمام هذه الآية . وفي آية سورة طه ( فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى ) فالفاء

تدل على التعقيب ومثلها في سورة الشعراء  
 ( فان قيل ) ولم قال هنا ( وألقي ) ولم يقل « فألقي » ليدل على التعقيب  
 أيضاً ( فالجواب ) ان ألقى هنا عطف على قوله تعالى ( فقلبوا ) فهو يشاركه  
 بما تعيده فاؤه من معنى التعقيب وكونه مثله أثراً لبطلان سحر السحرة  
 ووقوع الحق بثبوت آية موسى ( ع . م ) ولوعطف عليه بالفاء لدل على كون  
 السجود أثراً للغلب والصفار لا لظهور الحق وبطلان كيد السحر ، وحينئذ  
 يكون منافياً لما في سورتي طه والشعراء

﴿ قالوا آمنا برب العالمين \* رب موسى وهارون ﴾ الجملة إما بيان  
 مستأنف وإما حال من السحرة أي حال كونهم قائلين في سجودهم آمنا ...  
 ومثله في سورة الشعراء

( فان قيل ) ولم لم يذكر في سورة طه إيمانهم برب العالمين ؟ ولم أخربها  
 اسم موسى وقدم اسم هارون ؟ ( فالجواب ) عنهما أن سبب ذلك مراعاة فواصل  
 السور بما لا يعارض غيره مما ورد في غيرها ، ولا سيما وقد نزل قبلها ، فالإيمان  
 برب هارون وموسى هو الايمان برب العالمين لانهما قالوا لفرعون ( إننا رسول  
 رب العالمين ) وقد بينا مراراً أن القرآن ليس كتاب تاريخ تدون فيه القصص  
 بحكايتها كلها كما وقعت ويذكر كل ما قيل فيها بنصه أو بترجمته الحرفية -  
 وإنما هو كتاب هداية وموعظة ، فهو يذكر من القصص ما يثبت به الايمان ،  
 ويتزكى الوجدان ، وتحصل العبرة ، وتؤثر الموعظة ، ولا بد في ذلك  
 من تكرار المعاني مع التفتن في الاسلوب والتنويع في نظم الكلام وفواصل  
 الآي ، وتوزيع الفوائد وتفريقها ، بحيث يوجد في كل قصة ما لا يوجد في غيرها

( ١٢٢ ) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ إِنَّ هَذَا

لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمْوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

( ١٢٣ ) لَا قَطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلفِ ثُمَّ لَا صَالِبِينَكُمْ

أَجْمَعِينَ ( ١٢٤ ) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ( ١٢٥ ) وَمَا تَنْقُمُ

مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا  
وَتَوَفَّأْنَا مُسْلِمِينَ

بعد ما كان من إيمان السحرة كان أول ما يخطر في البال، ويتوجه إليه السؤال،  
ما فعل فرعون وما قال؟ وهالك البيان ﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن  
لكم؟ ﴾ قرأ حفص آمنتم بصيغة الخبر ويحتمل فيه تقدير همزة الاستفهام فهو  
قياسي يعتمد في فهمه على صفة الاداء وجرس الصوت فيه . وبذلك يوافق  
سائر القراء في المعنى فهو عندهم استفهام إنكاري توبيخي أثبت همزته حمزة  
والكسائي وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب ، وروي في اثباتها تحقيق  
الهمزتين بالنطق بهما وتحقيق الاولى وتسهيل الثانية بين بين ، وفري  
بذلك في أمثالها . والمعنى أآمنتم بموسى أو برب موسى وهارون قبل أن  
أأذن لكم وأمركم بذلك؟ وفي سورة طه ( قال آمنتم له ) والضمير فيه  
لموسى قطعاً لأن تعدية الايمان باللام تضمنين يفيد معنى الاتباع والخضوع  
المعنى : و أآمنتم به متبعين له إذطانا لرسالته قبل أن آذن لكم؟ ولذلك  
يتمين استعمال هذا التضمنين في الايمان بالرسول والاتباع لهم كقوله تعالى  
حكاية عن فرعون ( أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون؟ ) وقد  
اقتبس المعري هذا الاستدلال في قوله

أعباد المسيح يخاف صحبي ونحن عبيد من خلق المسيح

ومثله قوله تعالى في سورة الشعراء حكاية عن قوم نوح عليه السلام ( أنؤمن  
لك واتبعك الازذلون؟ ) وقوله حكاية عن كفار قريش ( وقالوا لن نؤمن لك  
حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ) وليس منه قوله تعالى حكاية عن اخوة يوسف  
( وما أنت بمؤمن لنا ) بل هذه لام التقوية أي وما أنت بمصدق لنا . وقد بين  
فرعون هالة إيمانهم بما ظنوه أو أراد أن يعتمده قومه فيهم فقال مواصلاً تهديده  
﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لنخرجوا منها أهلها ﴾ أي ان هذا  
الصنيع الذي صنعتموه انتم وموسى وهارون بالتواطؤ والاتفاق ليس الا  
مكراً مكرتموه في المدينة بما أظهرتم من المعارضة والرغبة في الغلب عليه مع  
إسرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته ، زاد في سورة طه ( إنه لكبيركم الذي

علمكم السحر) فأجمعتم أيديكم لنا في هذه المدينة لاجل أن تخرجوا منها أهلها المصريين بسحركم — وهو ما كان أنهم به موسى وحده — ويكون لكم فيها مع بني إسرائيل ما هو لنا الآن من الملك والكبرياء كما حكاه تعالى عن فرعون ومائه في سورة يونس — ﴿فسوف تعلمون﴾ ما يحل بكم من العذاب، جزاء

على هذا المكر والخداع ، وبين ذلك بقوله : ﴿لا قطع من أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لاصلبنكم أجمعين﴾ أي أقدم لافعلن كذا وكذا في عقابكم والتنكيل بكم وهو قطع الأيدي والأرجل من خلاف كأن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس ، ثم لاصلبن كل واحد منكم وهو على هذه الحالة المشوهة لتكونوا عبرة لمن تحذنه نفسه بالكيد لنا ، أو بالخروج عن سلطتنا ، والترفع عن الخضوع لعظمتنا . وقد تقدم الكلام على هذه الالفاظ في العقاب الذي هدده البغاة من سورة المائدة . ومن المعقول ما قاله بعض المفسرين من كون أنهم فرعون للسحرة بالمكر والكيد له وللمصريين ، وبتواطئهم مع موسى للدلالة منهم لبني إسرائيل — إنما كان تمويهاً على قومه المصريين لئلا يتبعوا السحرة في الأيمان ، ويقع ما خافه وقدره وأنهم به موسى عليه السلام ، فهو على عتوه على الخلق ، وعلوه في الأرض ، قد خاف عاقبة ايمان الشعب ، وافتقر على ادعائه الربوبية الى إيهامهم بأنه لا ينتقم من السحرة إلا بحياضهم ، ودفاعاً عنهم ، واستبقاء لاستقلالهم في وطنهم ، ومحافظتهم على دينهم وكذلك يفعل كل ملك وكل رئيس مستبد في شعب يخاف أن ينتقض عليه باجتماع كلمته على زعيم آخر بدعوة دينية أو سياسية ، وما من شعب عرف نفسه وحقوقه وتعارف بعض أفراده وتعاونوا على صون هذه الحقوق ، إلا وتمنر استبداد الأفراد فيهم وإن كانوا ملوكاً جبارين

﴿باحث لغوية بيانية فيما اختلف فيه التعبير من قصة موسى في السور المتعددة﴾

ومن مباحث المقابلة والتنظير بين سياق هذه السورة في القصة وسباق غيرها أنه زاد في سورة الشعراء اللام في حرف التسويف فقال : ( فلسوف تعلمون ) ولم يذكر هذا التسويف في سورة طه . قال الاسكافي في هذه اللام إنها تدل على تقريب ما خوفهم به حتى كأنه حاضر موجود (قال) : «واللام للحال والجمع بينها وبين سوف التي للاستقبال إنما هو تحقيق الفعل وادناؤه

من الوقوع كما قال تعالى ( وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة ) فجمع بين اللام وبين يوم القيامة على ما قاله تعالى ( وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب ) وقد بينا أن سورة الشعراء أكثر اقتصاصاً لآحوال موسى عليه السلام في بعثه وابتداء أمره وانتهاء حاله مع عدوه فجمعت لفظ الوعيد المبهم مع اللفظ المقرب له المحقق وقوعه — الى اللفظ المفصح بمعناه ، ثم وقع الاقتصار في السورة التي لم يقصد بها من اقتصاص الحال ما ذكر في سورة الشعراء على نقص ما في موضع البسط والشرح وهو التمريض بالوعيد مع الافصاح به ( قال ) « فأما في سورة طه فإنه اقتصر فيها على التصريح بما أوعدهم به وزك « فسوف تعلمون » وقال ( فلاقطعن أيديكم ... ) الا أنه جاء بدل هذه الكلمة ما يعادلها ، ويقارب ما جاء في سورة الشعراء التي هي مثلها في اقتصاص آحواله من ابتدائها الى حين انتهائها ، وهو قوله بعده ( وتعلمن أيننا أشد عذابا وأبقى ) فاللام والنون في « لتعلمن » لادناء الفعل وتوكيده كما أتى باللام في قوله ( فسوف تعلمون ) لادناء الفعل وتقريبه ، فقد تجاوز ما في السورتين المقصود فيهما الى اقتصاص الحالين من إعلاء الحق وإزهاق الباطل « اه أقول من المعلوم أن هذه اللام لام الابتداء وأن فائدتها الاولى المتفق عليها توكيد مضمون الجملة وقد سكت الاسكافي عن التعليل بها على ظهورها وعدم خفاء شيء من شواهداها واقتصر على توجيه ما ذكروا لهذه اللام من معنى الحال اذ قالوا ان الفائدة الثانية لها تخليص معنى المضارع للحال ، نقله ابن هشام في المعنى وقال إن ابن مالك اعترضه بقوله تعالى ( وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة ) ويقول يعقوب عليه السلام فيما حكاه الله عنه ( إني ليحزنني أن تذهبوا به ) فان الذهاب كان مستقبلا فلو كان الحزن حالا لزم تقدم الفعل في الوجود على فاعله مم أنه أثره ( قال ) والجواب عن الاول ان الحكم في ذلك اليوم واقع لا محالة فنزل منزلة الحاضر المشاهد — وان التقدير في الثاني

فصد أن تذهبوا به واقتصد حال اه

وأنت ترى أن تمبير الاسكافي في هذه الفائدة أوسم من التمبير الذي ذكره ابن هشام وغيره وأبعد عن الأشكال فقد قال هو إن معنى الحال فيها عبارة عن تحقيق الفعل وادنائه من الوقوع . وهو يصدق بجمل المضارع للحال حقيقة أو بجمل معنى الاستقبال فيه قريبا جدا حتى كأنه حال ، ولا يرد على هذا ما « تفسير القرآن الحكيم » « ١٠ » « الجزء التاسع »

يرد على قولهم: تخليص معنى المضارع للحال . وجوابهم عن الآيتين لا يظهر في تعبيرهم كما يظهر في تعبيره هو بغير تكلف ما .

ثم انه لا بد في صدق التعبير بقوله ( فلسوف ) من كون فرعون ذكر في وعيدهم المستقبل أنه قريب وأنه قطعي لا مرد له، سواء قاله على سبيل الايضاح أو على سبيل الاستدراك . ورب جملة أو جملة طويلة تؤدي في القرآن بجملة قصيرة أو كلمة أو حرف في كلمة كاللام هنا ، وهذا من دقائق إيجاز القرآن وهو ضرب من ضروب إعجازه اللفظية في غير الاسلوب والنظم ، وكلها دون إعجازه في بياض حقائق الشرع والعلم، فكيف يمكن لبشر أن يؤدي هذه الدقائق بالترجمة ومثله في هذا ما سبق وما يأتي من تنمة هذه المباحث

( ومنها ) — أي مباحث المقابلة والتنظير بين السور — أنه قال هنا ( ثم لاصليبنكم ) وقال في طه والشعراء ( ولا صليبنكم ) ولا تعارض بين العاطفين فان العطف بالواو مطلق يصدق بالتمقيب الذي تدل عليه الفاء وبالترخي الذي تدل عليه ثم وليس مقيداً بأحدهما، وغايته أنه أفاد بتم معنى خاصا وهو ما تدل عليه من التراخي في الزمن أو الرتبة وكلاهما جائز هنا فإنه بعد أن أفاد بقوله ( فلسوف ) وقوله ( فلاقطمن ) ان الوعيد سينفذ حالا في المجلس بقطع الايدي والارجل من خلاف — أفاد بقوله ( ثم لاصليبنكم ) ان التصليب نوع آخر ومرتبة ثانية من التنكيل بهم، وأرسيتأخر عن التقطيع في الزمن بأن يظلوا بعده مطر وحين على الارض إهانة لهم ثم يعلقون على جذوع النخل، ويجوز الجمع بينهما. وكون التصليب في جذوع النخل فائدة أخرى زادها في سورة طه وتخصيصها بها مناسب لنظمها ولعلك تدرك ذلك بالدوق كما تدرك به التفرقة بين بحور الشعر. أوردنا هذا البحث الفني وأمثاله من هذه القصة على اجتنابنا للاصطلاحات الفنية والعلمية في الغالب لثلاثة أسباب

( ١ ) إن هذه المسائل مما يقع فيه الاشتباه ولم نر لها بيانا في التفاسير

المتداولة حتى التي تمتاز بالعناية بمتلها

( ٢ ) بيان ما فيهما من الدقة في تحديد المعاني، وغرائب الایجاز، والاتفاق

في مظنة الاختلاف، وهو المعهود في كل موضوع طويل يعبر عنه بعبارات مختلفة ( ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ) اذ ليس في استطاعة بشر أن يحكي قصة كقصة موسى بعبارات مختلفة بمثل هذا التحديد للمعاني مع

سلامتها كلها من التعارض والتناقض وغيرها من أنواع الاختلاف وان كتب ذلك كتابة وقابل بعضه ببعض منقحاله ومصححا، فكيف اذا كان رتجل الكلام ارتجالا في أوقات مختلفة كما كان النبي (ص) يتلو القرآن كالمرنجل له، وانما كان يلقيه فيؤديه كما تلقاه فيعجل به خائفا أن ينسى منه شيئا حتى لقن فيه نباً عصمته من نسيان شيء منه، وانه تعالى كفل حفظه (سنقرئك فلا تنسى) لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه \* ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ) وتلك ضروب من اعجازه اللفظي ، ولضروب اعجازه المعنوي اكبر (٣) إثبات عجز البشر عن ترجمة القرآن بلغة أخرى تؤدي معانيه كلها، واذا كان من المتعذر أداؤها بمثلها من لغتها ، فترجمتها بلغة أخرى أولى .

وقد تصدى بعض المفرورين في هذه الايام لترجمته باللغة التركية الفقيرة الملققة من عدة لغات لاجل أن يستعين بهذه الترجمة الملاحدة من زعماء الترك على ما يبتغون من سل الشعب التركي من الاسلام بأن يجعله على الاستغناء بهذه الترجمة عن كتاب الله المنزل من عند الله تعالى (بلسان عربي عيبين) كما ثبت في عدة آيات فان الخدع هذا الشعب المسلم بهذا سهل على هؤلاء الملاحدة أن يحولوا بينه وبين السنة النبوية العربية أيضا لانها في المرتبة الثانية ، ثم أن يحولوا بينه وبين آثار السحابة والنابعين فانها في المرتبة الثالثة . ثم أن يحولوا بينه وبين ما كتبه أئمة العلماء في التفسير وشرح الحديث وما استنبط منهما في أمور الدين من العقائد والآداب وأحكام العبادات والمعاملات ، وبعد هذا يتحكمون في تفسير هذه الترجمة له بما شاؤوا، ويوردون الشبهات على الاسلام المشوهة المأخوذ من ترجمتهم القابلة لذلك — وحينئذ يتم لهم ما يريدون من جعل الترك أمة لادينية. ولكن لن يتم لهم ذلك ان شاء الله تعالى، فالشعب التركي راسخ في الاسلام، ومتى عرف كيد هؤلاء الملاحدة المضلين فانه ينبذهم نبذ النواة.

\*

#### تتمة تفسير الآيات

وههنا يرد سؤال : ما ذا كان من أمر السحرة عند ما سمعوا هذا التهديد والوعيد؟ وبم أجابوا ذلك الجبار العتيد؟ وجوابه هنا ﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ يجوز أن يكونوا قد عنوا بقولهم هذا أنفسهم وحدها وأرادوا



أنهم لا يباليون ما يكون من قضائه فيهم وقتله لهم لأنهم راجعون الى ربهم، راجون مغفرته ورحمته بهم، وحينئذ يكون تعجيل قتلهم سببا لقرب لقائه، والتمتع بحسن جزائه. ويجوز أن يكونوا قد عنوا أنفسهم وفرعون جميعاً وأرادوا اننا واياك سننقلب الى ربنا، فليس قتلنا فما أنت بخالد بعدنا، وسيحكى عز وجل بعدله بينك وبيننا، وفيه تعريض بكذبه في دعوي الربوبية، وتصريح بإيثار ما عند الله تعالى على ما عنده من الشهوات الدنيوية، وفي سورة الشعراء ( قالوا لاضير انا الى ربنا منقلبون \* انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ) وهو يؤيد المعنى الاول ولا ينافي الثاني لانه يشمل الاول

﴿ وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ قال الراغب : نقتم الشيء ونقمته (أي من بابي فرح وضرب) اذا أنكرته اما باللسان واما بالعقوبة قال تعالى (وما تقموا الا أن أغناكم الله \* وما تقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله \* هل تنقمون منا ) الآية والنقمة العقوبة قال ( فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ) الخ وتفسيره هذا لنقم أدق وأشمل من قول الزمخشري في الاساس : ونقمت كذا — انكرته وعبته. فانه لم يذكر الا القولي منه وقد استشهد له بقوله تعالى وما ( وما تقموا منهم الا أن يؤمنوا ) وهو في اصحاب الاخدود وكان النقم منهم بالفعل لا بالقول ، فسبحان من لا ينسى ولا يغفل . وما ذكره السحرة من نقم فرعون منهم كان بالقول وهو الاستنكار التوبيخي لا بماهم والتهمة فيه والوعيد عليه . والظاهر انه نفذ الوعيد بالانتقام بالفعل واستنبط بعض المفسرين من قوله تعالى لموسى وهارون ( أنما ومن اتبعكما العالبون ) ان فرعون لم يقدر على تنفيذ الوعيد فيهم . وأجيب عن هذا بأن المراد الغلبة بالحجة والبرهان وفي عاقبة الامر ونهايته والا لم يقتل أحدهم اتباع الرسل عليهم السلام ، وهو صريح قوله تعالى في أول هذه القصة الذي ذكرنا أنه بيان لنتيجتها ووجه العبرة فيها ( فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ) يعني فرعون وملاه ، ويؤيده ما ورد في معناه من الآيات الكثيرة كقوله تعالى حكاية عن شعيب في قصته التي مرت في هذه السورة أيضا ( وانظر كيف كان عاقبة المفسدين ) وقوله قبله في قصة لوط منها ( فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ) وقوله تعالى في مكذبي الرسل عامة بعد ذكر تكذيب قوم خاتم الرسل «ص»

( كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ) ويجوز أن يراد بمن اتبع موسى وهارون قومها خاصة وعم الذين بشرهم موسى بأن العاقبة لهم بعد وعيد فرعون لهم عقب خبير السحرة وهو ما تراه في الآية الثانية بعد هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها . وهذه العاقبة قد بينها الله تعالى بقوله في سورة القصص ( فأخذناه - يعني فرعون - وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين )

وقد ختم تعالى ما قصه هنا من كلام السحرة بهذا الدعاء فنذكره تالين داعين ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ أي ربنا هب لنا صبراً واسماً تقيضه وتفرغه علينا افرأنا بتثبيتك إيانا على الايمان وتأيدنا بروحك فيه كما يفرغ الماء من القرب، حتى لا يبقى في قلوبنا شيئاً من خوف غيرك ، ولا من الرجاء فيما سوى فضلك وتوالتك . وتوفنا اليك حال كوننا مسلمين لك مذعنين لامرك ونهيك مسلمين لقضائك، غير مفتونين بتهديد فرعون، وغير مطيعين له في قول ولا فعل . جمعوا بدعائهم هذا بين كمال الايمان والاسلام

يدل على ما قررناه من المبالغة في طلب كمال الصبر - تنكيهه والتعبير عن ايتائه بالافراغ وهو صب الماء الكثير من الدلو ونحوه وأما تصويرنا لحصول ذلك بقوة الايمان فأخذ من العقل والتجارب ان الصبر من صفات النفس وهو عبارة عن قوة فيها على احتمال الآلام والمكاره بغير تبرم ولا حرج يحملها على ما لا ينبغي من ترك الحق أو اجتراح الباطل ، ولا شيء كالايمان بالله والخوف منه والرجاء فيه يقوي هذه الصفة في النفس ، وما أخذه من النقل آيات كقوله تعالى في بيان المؤمنين الذين عملوا الصالحات فوجبت لهم الجنة ( ٢٩ : ٢٩ ) (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ) وقوله فيهم ( وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ) ومما يناسب المقام قوله ( فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين )

ولدينا من نقول التاريخ القديم والحديث ما يؤيد ذلك وقد صرح الذين كتبوا أخبار الحروب الاخيرة بعلمها وفلسفتها أن المؤمنين بالله وباليوم الآخر من جيم الملل أعظم شجاعة وأشد صبراً على مشاق الحرب من غيرهم، ولذلك يحرص أوسم الناس على استن الخلق، وأشد هم عناية بفنون الحرب، - كالشعب الالمانى - بالمحافظة على الدين في جيشهم . وللبرنس بسمارك مؤسس وحدتهم ووزيرهم الاعظم بل أكبر ساسة أوربة في عصره كلمة في هذا المعنى أثبتناها في المجلد

الاول من المنار من ترجمة الاستاذ الامام رحمه الله تعالى عن كتاب (وقائع بسمارك ومذكراته) التي نشرها كاتم سره مسيو بوش بعد موته نكتفي منه هنا بقوله « جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة فقال لاصحابه : كما تنتشر هذه البقعة في النسيج شيئا فشيئا كذلك ينفذ الشعوب باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في أعماق قلوب الشعب ، ولو لم يكن هنالك أمل في الجزاء والمكافأة ، أي في الدنيا ) ذلك لما استكن في الضمائر من بقايا الايمان - ذلك لما يشعر به كل أحد من أن واحدا مهيمنا يراه وهو يجالد ويموت وان لم يكن قائده يراه

فقال بعض المرتابين أنظن سعادتك ان العساكر يلاحظون في أعمالهم تلك الملاحظة؟ فأجابه البرنس: ليس هذامن قبيل الملاحظات، وانما هو شعور ووجدان، هو نوادر تسبق الفكر ، هو ميل في النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها، ولو لاحظوا لفقدوا ذلك الميل وأضلوا ذلك الوجدان ، هل تعلمون اني لا أفهم كيف يمش قوم وكيف يمكن لهم أن يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات، أو كيف يحملون غيرهم على أداء ما يجب عليه - ان يكن لهم ايمان بدين جاء به وحي سماوي ، واعتقاد باله يجب الخير ، وحاكم ينتهي اليه الفصل في الاعمال في حياة بعد هذه الحياة؟»

ثم أطال في ذلك بأسلوب آخر صرح فيه بأنه لولا عقيدته الدينية لما خدم سلطانه وعاهله (الامبراطور) ساعة من الزمان الخ ما قاله فيراجم في محله<sup>(١)</sup>

(١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأَمِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرُكَ وَآلِهَتِكَ؟ قَالَ سَنُنَقِّتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ سَتَعْبُدُونَ بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ

بَعْدِ مَا جِئْتَنَا . قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي  
الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

خاف ملا فرعون عاقبة تركه لموسى حراً مطلقاً في مصر فكلموه في ذلك  
وقد أخبرنا الله تعالى بما قالوه له وما أجابهم به وما كان من تأثير جوابه في  
موسى وقومه من نصحه لهم وما دار بين موسى وبينهم في ذلك فقال

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ اتُّذِرُ مَوْسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيَفْسُدُوا فِي الْآرِضِ  
وَيَذُرُوا آلِهَتَكُمْ ؟ ﴾ اي قالوا له أترك موسى وقومه أحراراً آمنين لتكون  
طاعتهم ان يفسدوا قومك عليك في أرض مصر بادخالهم في دينهم ، أوجعلهم  
تحت سلطانهم ورياستهم ، ويتركك مع آلهتك كالشيء اللقا ، فيظهر للمصريين  
عجزك وعجزها ، وقد رأيت ما كان من أمر إيمان السحرة - إذ الظاهر من السياق  
أن هذا القول كان بعد قصة السحرة - وسيأتي ما فيه . وجمهور المفسرين  
على المراد بتركه وآلهته عدم عبادته وعبادتها ، وقرأ ابن عباس ( وإلهتك )  
أي عبادتك . ومن المعلوم من التاريخ المستمد من العاديات المستخرجة من  
أرض مصر انه كان للمصريين آلهة كثيرة منها الشمس والسمها في لغتهم ( رع )  
وهو متضمن في لقب فرعون فهو عندهم سليل الشمس وابنها ، وسننقل  
بعد جوابه لهم أثراً يدل على ذلك ويذكر فيه بعض هذه الآلهة

﴿ قَالَ سَنَقْتَل أَبْنَاءَ هَٰؤُلَاءِ النَّاصِيَةِ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ أي قال مجيباً للملأ سنقتل  
أبناء قومه تقتيلاً ما تناسلوا - فتعبيره بالتقتيل يدل على التكثير والتدريج  
- ونستحيي نساءهم أحياء كما كنا نفعل من قبل ولادته حتى ينقرضوا .  
﴿ وانا فوقهم قاهرون ﴾ وانا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان قاهرون لهم  
كما كنا من قبل فلا يستطيعون افساداً في ارضنا ، ولا خروجاً من حظيرة  
تعبيدنا . وفي سورة المؤمن ( وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه :  
إني أخاف ان يبدل دينكم أو ان يظهر في الارض الفساد ) وهو يدل على انه  
كان لديه من يدافع عن موسى ممن آمن به سرا ومن كان يحبه وان لم يؤمن  
به فقد قال تعالى له ( وألقيت عليك محبة مني ) وفي نصريح بما كان له في أنفس

المصريين من المحبة والاحترام . وقد حكى الله تعالى لنا دفاع واحد من آمن به فقال ( وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم . إن الله لا يهدي من هو مسرف مرتاب ) والمرجع عند المتأخرين من المؤرخين الواقفين على العاديات المصرية ان فرعون موسى هو الملك ( منفتاح ) وكان يلقب بسليل الاله ( رع ) وقد جاء في آخر الاثر المصري الوحيد الذي ذكر فيه بنو اسرائيل ( وهو المعروف برقم ٣٤٠٢٥ المحفوظ في متحف مصر ) ان مصر هي السليمة الوحيدة المعبود ( رع ) منذ وجود الآلهة وان « منفتاح » سليله ايضا وهو الجالس على سدة المعبود « شو » وان الاله « رع » التفت الى مصر فولد « منفتاح » ملك مصر وشيء له ان يكون مناظلا عنها فتختم له الولاية ولا يرفع أحد من البدو رأسه فخصم له القبروانيون والحيدون والكنمانيون وعسقلان وجزال وبنهم وفيه : وانفك الاسرائيليون فلا يزرهم وأصبحت فلسطين خلية لمصر<sup>(١)</sup> والاراضي كلها مضومة في حفظه ، وكل اسم وعفه « اضعفه واذله » الصيدن القب ( منفتاح ) سليل الشمس معطي المعيشة كل نهار مثل الشمس اه<sup>(٢)</sup> وما ذكر لابنابي ادعاه الانفراد بالالوهية والربوبية العليا بعد . وقوله : فلا يزرهم هو بمعنى قولنا انقطع دابرهم يستعمل في الحقيقة وفي المجاز من باب المبالغة او بالنظر الى المآل ومن البدهي أن يخاف بنو اسرائيل هذا الوعيد وان يطمأنهم موسى

عليه السلام وهو ما بينه تعالى بقوله ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ، ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ أي اطلبوا معونة الله تعالى وتأيدته لكم على ما سمعتم من الوعيد واصبروا ولا تجزعوا ، فان سأتم لماذا والى متى ؟ أقل لكم ان الارض - جنسها أو الارض التي وعدكم بكم اياها وهي فلسطين - لله تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء يورثها من يشاء من عباده لالفرعون فهي بحسب سنته تعالى دول والعاقبة الحسنة التي ينتهي

( ١ ) الخلية التي لا زوج لها وهذا كناية عن كون فلسطين تحت كفالة مصر وتصرف فرعونها ويؤيده ما يجبيء بعد فليحفظ

( ٢ ) تراجع ترجمه هذا الاثر في ص ٣٨٧ م ١٨ من المنار

اليها التنازع بين الامم للمتقين أي الذين يتقون الله بمراعاة سننه في أسباب ارض الارض كالاتحاد وجمع الكلمة ، والاعتصام بالحق ، وإقامة العدل ، والصبر على المكاره ، والاستعانة بالله ولا سيما عند الشدائد؛ ونحو ذلك مما هدى اليه وحيه وإيدته التجارب . ومراده عليه السلام ان العاقبة ستكون لكم بارث الارض ولكن بشرط أن تكونوا من المتقين له تعالى باقامة شرعه ، والسير على سننه في نظام خلقه ، وليس الامر كما تتوهمون ويتوهم فرعون وقومه من بقاء القوي على قوته والضعيف على ضعفه ، او ان الآلهة الباطلة ضمنت لفرعون بقاء ملكه ، على عظمته وجبروته وظلمه

ماذا كان من تأثير وصية موسى عليه السلام لقومه؟ وهل فهموها وقدروها

قدرها؟ وبم اجابوه؟ ﴿ قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ يعنون أنهم لم يستفيدوا من إرساله لانقاذهم من ظلم فرعون شيئاً فهو يؤذيم ويظلمهم بعد إرساله كما كان يؤذيمهم من قبله أو أشد - وهذا لا ينافي مع قوله في الآية الخامسة من سفر الخروج من التوراة قوله ان موسى وهارون قد أتيا من فرعون لإطلاق بني اسرائيل لكي يعبدوا ربهم ويمجدوا له في البرية ويذبحوا له ، قال لها لماذا تعطلان الشعب عن أعمالهم من فرعون في ذلك اليوم مسخري الشعب ومدبره أن يتصوروا من أعمالهم الذين كانوا يعطونه إياه ليعمل به اللبن الطوبى لهم الذي كانوا يقرضونه من فرعون وكانوا يكافوه جميع الذين من البلاد ولا يفتخرون من عند الذين يقرضونهم شيئاً ففتقر الشعب في جميع ارض مصر ليعبدهم فجاءه الله من الذين يقرضونهم عن كل المقدرات المفروض عليهم من اللبن وانسخرون يلحون عليهم : أكلوا قريضة كل يوم كما كانت عند ما كنتم تعطون التبن ، فجاء مدبرو بني اسرائيل الذين كانوا عليهم المسخرون لهم من قبل فرعون واستغاثوا فرعون نفسه قائلاً (١٥) لماذا تصنع لعبيدك هكذا؟ (١٦) انه لا يعطى لعبيدك تبن وهم يقولون لنا اعملوا لنا ، وها ان عبيدك يُضربون وشعبك يعاملون كذنبيين (١٧) قال انما انتم مترفون ولذلك تقولون نمضي ونذبح للرب (١٨) والآن فامضوا اعملوا ، وتبن لا يعطى لكم ، ومقدار اللبن تقدمونه (١٩) فرأى مدبرو بني اسرائيل نفوسهم في شقاء اذ قيل لا تنقصوا

﴿ الجذامة بالضم ما بقي من الزرع في الارض بعد الحصد

من لبنكم شيئاً بل فريضة كل يوم في يومها ( ٢٠ ) وصادفوا موسى وهارون  
وهما واقفان للقائم عند خروجهم من عند فرعون ( ٢١ ) فقالوا لها ينظر الرب  
وبحكم عليكما كما افسدتما أمرنا عند فرعون وعند عبیده وجعلتما في أيديهم  
سيفاً ليقتلونا « انتهى المراد منه

﴿ قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون ﴾  
اي قال موسى عليه السلام ان المرجو من فضل ربكم ان يهلك عدوكم الذي سخركم  
وآذاكم بظلمه ويجعلكم خلفاء في الارض التي وعدكم إياها، وبمنعكم فرعون من  
الخروج اليها، فينظر سبحانه كيف تعملون بعد استخلافه اياكم فيها : هل  
تشكرون النعمة أم تكفرون ؟ وهل تصلحون في الارض أم تفسدونها ؟  
ليجازيكم في الدنيا والآخرة بما تعملون

وقد عبر بمسى ولم يقطع بالوعد لئلا يتكلموا ويتركوا ما يجب من العمل  
او لئلا يكذبوه لضعف أنفسهم بما طال عليهم من النذل والاستخذاء لفرعون  
وقومه واستعظامهم لملكه وقوته وفي التوراة ما يؤيد هذا وما قبله

جاء في آخر الفصل الخامس من سفر الخروج بعد ما نقلناه آنفاً نصه :  
( ٢٢ ) فرجع موسى الى الرب وقال يا رب لماذا ابتليت هؤلاء الشعب لماذا بعثتني  
( ٢٣ ) فاني منذ دخلت على فرعون لآتكم باسمك أساء الى هؤلاء الشعب  
وانت لم تنقذ شعبك «

وفي اول الفصل السادس منه ( ١ ) فقال الرب لموسى : الآن ترى ما أصنم  
بفرعون انه بيد قديرة سيطلقهم ويبد قديرة سيطردهم من أرضه « — واعلمه  
بأنه اعطى ابراهيم واسحق عهداً بأن يمطيهم ارض كنعان وانه سمع أنين  
اسرائيل الذين استعبدهم المصريون فذكر عهدده — ثم قال ( ٦ ) لذلك قل لبني اسرائيل  
أنا الرب لاخر جنكم من تحت ائقال المصريين واخلصكم من عبوديتهم وافديكم  
بذراع مبسوطة واحكام عظيمة ( ٧ ) واتخذكم لي شعباً وأكون لكم آلهاً وتعملون  
انني انا الرب آلهكم المخرج لكم من تحت ائقال المصريين ( ٨ ) وسأدخلكم  
الارض التي رفعت يدي مقسماً ان أعطيها لابراهيم واسحق ويعقوب فأعطيها  
لكم ميراثاً أنا الرب ( ٩ ) فكلم موسى بذلك بنى اسرائيل فلم يسمعوا لموسى  
لغيب ارواحهم وعبوديتهم الشاقة « اه المراد منه ، وهو من ترجمة اليسوعيين

كالذي قبله . ويليه عودة موسى الى فرعون ومطالبته باخراج بني اسرائيل وامتناعه واظهار الرب الآيات له واحدة بعد اخرى كما يأتي مجمل في الآيات التالية (فان قيل) ظاهر ترتيب الآيات هنا يفيد ان هذه المراجعة بين فرعون وملئه من جهة وبين موسى وبني اسرائيل من جهة اخرى وقعت بعد قصة السحرة ، وسياق التوراة صريح في وقوعها قبلها وبعد تبليغ اصل الدعوة - فهل يجب ان نقول ان ظاهر السياق هنا غير مراد وهو معطوف بالواو التي لا تدل على الترتيب - أعني قوله ( وقال الملا من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ) الخ ليوافق التوراة وتم به الحججة على رسالة نبينا (ص) من هذا الوجه وهو أنه كان أميا لا اطلاع له على التوراة ولا غيرها من كتب أهل الكتاب ولا غيرهم وانه لم يعلمه الا بوحى الله اليه ؟ كما قال له تعالى عقب قصة نوح ( ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ) وما في معناه من قصة موسى في سورة القصص ؟ ( قلنا ) انه لا مانع من هذا الجعم ولا تتوقف الحججة عليه ، فان القرآن مشتمل على حجج كثيرة من هذا النوع ومن غيره تدل على كونه وحيا من الله تعالى لا يقدر على مثله محمد الامي (ص) ولا غيره من القارئ الكاتبين ايضا وهو على كونه كما قال مصدقا لكون تلك الكتب من عند الله تعالى اي في الاصل قد قال ايضا ان أهل التوراة او تو انصيبا منها ونسوا حظا ونصيبا آخر وانهم حرفوا بعض ما عندهم منها ، وانه هو اي القرآن مهيمن عليها ، فما قرء منها فهو الذي لا شك فيه ، وما صححه بايراده مخالفا لما عندهم فهو الصحيح سواء كان بايراده إياه مخالفا لما فيها من بعض الوجوه ككون موسى هو الذي أتى العصا فاذا هي حية واذا هي تلقف ما يأفكون لا هارون كما في التوراة ، أو دلت قواعده أو نصوصه على امتناعه كما جاء في اول الفصل الثامن من سفر الخروج من ان الرب جعل موسى إله فرعون ويكون اخوه هارون نبيه !! فأصول القرآن وكذا في التوراة - تتمم أن يكون إله غير الله عز وجل . وقد ثبت في توارخ أهل الكتاب وغيرهم أن التوراة التي كتبها ميسى عليه السلام قد فقدت وأن عزرا الكاتب هو الذي كتب الاسفار المقدسة بعد السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد وهو الذي استبدل الحروف الكلدانية بالعبرانية ، على ان ما كتبه عزرا قد فقد ايضا ولكن جميع نسخ التوراة الموجودة في العالم مستمدة مما



كتبه وفيها تحريف كثير لا يمكن أن يكون من الأصل وبسببونه مشكلات يتكلفون الاجوبة عنها وقد بينا نموذجا منها من قبل ومنها ان الفصل الاخير من سفر التثنية وهو الاخير من التوراة قد ذكر فيه وفاة موسى عليه السلام وانه لم يمت بعده نبي مثله والمرجح عندهم ان يشوع هو الذي كتبه على أن فيه ذكر يشوع.. ومما يوضح معجزة القرآن فيما أنكر به عن التوراة ويؤكد كدها خطأ المفسرين الكثيرين من المتكلمين بنسبنا خبر نبي تفسير بعضه وتعيين المراد منه لعدم اطلاعهم على ما عند الله من الكتاب ومنها ومن سائر كتبهم المقدسة وغيرها من التواريخ وانه ذوات المخرجة من آثار قديماء المصريين والبابليين وانما كان ما يدور عن نبي اسرائيل من سمع به ممن يسمونه من غيرهم وما كل من اسلم منهم بحقيقة سليم ، ونحو صدق النبي . ثم ما أخذوه من كتب تاريخية غير موثوق بها ، فكان أكثر ما كتبوه في التفسير منها مشوهها له وحجة لاهن الكتاب علينا — فاذا كان من غير حان عنا لنا في اخبار اهل الكتاب بعد انتشار العالم في الاسلام فكيف حال أهل مكة عند ظهوره ولم يكن فيها كتاب يقرأ ولا أحد يقرأ ويكتب شيئا من سنة نهر من التجار كانوا ممن يقال فيهم اليوم « يفكرون الخط » فأي من كان أبدا عنهم عن ذلك وهو محمد بن عبد الله (ص) ان يعرف هذه لفائق المفصلة السائلة من الشوائب التي لا يصدقها العقل أولا تتفق مع توحيد الانبياء وفضائلهم لو لا ما انزل عليه من الوحي الالهي ؟

(١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ

لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا إِنَّا هَذِهِ ، وَإِنْ

أُصِيبَتْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ . أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ

اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

هذه الآيات تفصيل لمقدمات الهلاك الموعود به فيما قبلها وإنجاز وعد الله

تعالى لبني اسرائيل بالاستخلاف في الارض

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾

صدرت الجملة بالقسم الدالة عليه لانه لتأكيد مضمونها وتعظيم شأنه وكيف لا

وهو من أظهر آياته سبحانه على تأييد رسوله وقدرته على الادالة للمظلومين المستضعفين من الأقوياء الظالمين . وقد كثر استعمال مادة «الأخذ» في المذاب وما في معناه كقوله تعالى ( وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد \* فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر \* فأخذناه أخذاً وببلا ) يعني فرعون موسى ( فأخذهم أخذة رابية ) وآل فرعون قومه كما أطلقه المفسرون ، أو خاصته وأعوانه في أمور الدلالة وهم الملا من قومه الذين كثر ذكركم في قصته ووجهه أنهم هم المذنبون الممانسون بأرسي وانما وقوع العذاب على غيرهم بالتبع لهم لانهم كانوا موافقين ومقرين لهم على ظلمهم وقد قال تعالى ( واتقوا فئنة لا نصيبين الذين ظلموا منكم خاصة ) وهذه سنة من سنن الاجتماع العامة وسباني توجيه القول الاول

وأصل اللغة أن آل الرجل أهل بيته وأقاربه الذين يضافون الى اسمه ، وهو لا يضاف الا الى اعلام شرفاء قومه وهم وكبرائهم فآل نبياء وآل انبياء وآل رؤساء ثم أطلق على أهل الاختصاص بهم او جميع أقباعهم . ومن هنا قال بعض العلماء ان آل النبي (ص) يطلق على جميع أقباعه وان هذا هو المراد بالصلاة على آل النبي في الشهد وغيره . قال الراغب : الآل قول مأثور عن الأهل ويصغر على اهليل إلا أنه خص بالاضافة الى اعلام الناطقين دون النكريات ودون الأزمنة والامكنة يقال آل فلان ولا يقال آل رجل ولا الزمان كذا أو مرضع كذا ولا يقال آل الخياط بل يضاف الى الاشرف الافضل يقال آل الله وآل السلطان ، والاهل يضاف الى الكل يقال أهل الله وأهل الخياط كما يقال أهل زمن كذا وبلد كذا . وقيل هو في الاصل اسم الشخص ويصغر أو ياء ويستعمل فيمن يختص بالانسان اختصاصاً ذاتياً إما بقرابة قريبة أو بموالاتة فان عز وجل ( وآل ابراهيم وآل عمران ) وقال : ( أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ) قيل وآل النبي عليه الصلاة والسلام أقاربه وقيل المختصون به من حيث العلم وذلك أن أهل الدين ضربان ضرب منخصص بالعلم المتقن والعمل المحكم فيقال لهم آل النبي وأمته وضرب يختصون بالعلم<sup>(١)</sup> على سبيل التقليد ويقال لهم أمة محمد عليه الصلاة والسلام ولا يقال لهم آل ، فكل آل للنبي أمة له وليس كل أمة له آل . وقيل لجعفر الصادق رضي الله

(١) كذا في النسخة المطبوعة وأهل الصواب بالعمل فان التقليد لا يسمى علماً

عنه: الناس يقولون المسلمون كلهم آل النبي عليه الصلاة والسلام، فقال كذبوا وصدقوا، فقبل ما معنى ذلك؟ فقال كذبوا في ان الامة كافةهم آل وصدقوا في أنهم إذا قاموا بشرائط شريعته آل. وقوله تعالى (رجل مؤمن من آل فرعون) أي من المختصين به وبشريعته وجعله منهم من حيث النسب أو المسكن أو من حيث تقدير القوم أنه على شريعتهم اهـ

بعد هذا نقول إن «آل فرعون» أطلق في القرآن على أهل بيته خاصة في موضع واحد لا يجتمل غيرهم وفي موضع آخر محتمل لغيرهم فالاول قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) والثاني قوله (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) وأطلق كثيراً بمعنى مائة وخاصة أتباعه أو جملتهم كقوله (وأغرقنا آل فرعون) \* أدخلوا آل فرعون أشد العذاب \* وإذ نجيناكم من آل فرعون \* وحق بال فرعون سوء العذاب \* ولقد جاء آل فرعون النذر) كذلك كثر ذكر ملاء فرعون في إرسال موسى اليهم وما دار بين فرعون وبينه وهم أشرف قومه ورجال دولته كما تقدم ولولا أن ورد ذكر قومه في بعض الآيات لحملنا الال في الآية التي نحن بصدد تفسيرها وفي أمثالها عليهم دون سائر قومه فقد قال تعالى في أول قصة موسى من سورة الشعراء (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين \* قوم فرعون ألا يتقون) وقال في سورة الدخان (ولقد فتنا قبهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم) الخ ومن الواضح أن طامة قوم فرعون ينالهم من عذاب الاخذ بالسنين ونقص الثمرات ما لا ينال فرعون وأهل بيته وخاصة مائة فالمراد باله قومه وهم أهل مصر في عهده، وهم مؤخذون بظلمه وطفغيانه لان قوته المالية والجندية منهم، وقد خلقهم الله أحراراً وكرمهم بالعقل والقطرة التي تكره الظلم والطفغيان بالفريزة فكان حقا عليهم أن لا يقبلوا الاستعباده لهم وجملهم آل لطفغيانه وإرضاء كبريائه وشهواته ولا سيما بعد بعثة موسى ووصول دعوته اليهم وروايتهم لما ايده الله به من الايات وأما السنون فهي جمع سنة وهي بمعنى الحول ولكن أكثر ما تستعمل في الحول الذي فيه الجذب كما قال الراغب وغيره أي الا اذا ذكرت في مقام العدد والاحصاء. والاخذ بالسنين صريح في ارادة العقاب بالجذب والضيق ويؤيده نقص الثمرات، وهل يدخل نقص الثمرات في عموم المراد من السنين أم هي خاصة بنقص الغلال التي عليها مدار الاقوات دون الفاكة التي لا

نكفي للقوت وان كان منها النخيل والاعناب ؛ وجهان . وتقص الثمرات نص  
على شدة الضيق في كل حال ، وهذا إجمال يفسره قوله تعالى ( فأرسلنا عليهم  
الطوفان ) وما هو بعيد

وجملة معنى الآية أنه تعالى أخذ آل فرعون بالجذب وضيق المعيشة لعلمهم  
بند كرون ضعفهم أمام قوة الله وعجز ملكهم الجبار المتغطرس وعجز آلهتهم  
ولعلمهم اذا تذكروا اعتبروا وانعظوا فرجعوا عن ظلمهم لبني اسرائيل وأجابوا  
دعوة موسى عليه السلام ، فان الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب وتهذب  
الطباع وتوجه الانفس الى مرضاة رب العالمين والتضرع له دون غيره من  
المعبودات التي اتخذت في الاصل وسائل اليه وشفعاء عنده ، ثم صار ينسى  
في وقت الرخاء لانه غيب لا يرى وتذكر هي لانها مشاهدة مجانية لعابديها  
بل هي أو اكثر هادونهم لو كانوا يعقلون ، فاذا بلغ الشرك من الناس ان ينسوا الله تعالى  
حتى في أوقات الشدائد فذلك هو الضلال البعيد

كذلك كان دأب آل فرعون بعد إنذار موسى إياهم ﴿ فاذا جاءتهم الحسنة ﴾  
من خصب ورخاء وهو العالب ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ دون غيرنا ونحن المستحقون لها  
بما لنا من التفوق على الناس ﴿ وان أصبح سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ أي  
وان اتفق ان أصابتهم سيئة أي حالة أسوءهم كجذب أو جائحة أو مصيبة أخرى  
في الابدان أو الارزاق تشاءوا بموسى ومن معه من الانصار كأخيه هارون  
أو جميع قومه ويرون أنهم انما أصيبوا بشؤمه وشؤمهم ، ويففلون عن سيئات  
أنفسهم وظلمهم لقوم موسى لان هذا عندهم من الحقوق ، كما هو شأن الافرنج  
في ظلمهم لمن يستضعفونهم من أهل الشرق

أصل يطبروا يتطبروا فأدغمت التاء في الطاء وسبب استعمال التطير بمعنى  
التشاؤم أن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير حتى انها  
تزجرها اذا لم تمر من تلقاء نفسها فاذا طارت من جهة اليمين تيمنت أي رجت  
وقوع اليمين والبركة والخير — واذا طارت من جهة الشمال تشاءمت وتوقعت  
الشر والمصيبة ، ويسمى الطائر الاول السانح والآخر البارح ، ثم إنهم هموا  
الشؤم طيراً وطائراً والتشاؤم تطيراً ، ولذلك قال تعالى في رد خرافتهم

﴿ ألا إنما طائروم عند الله ولكن ا كثرتم لا يعلمون ﴾ ابتداء الرد عليهم

بأداة الافتتاح « ألا » للتهيؤ به إذ المراد بها توجيه ذهن القارئ لما يلقى بعدها حتى لا يفوته شيء منه ، أي الاذيعوا ان الشؤم الذي نسبوه الى موسى وعدوه من آثار وجودهم هو عند الله تعالى لا عند موسى ومن معه ، فهو تعالى قد جعل لكل شيء ذرا من حسنة وسيئة بمعنى انه وضع لنظام الكون سننا تكون فيها المسببات على قدر الاسباب ، ولكل منها حكم ، فبمقتضى هذه السنن والاعتدالات التي انزلها عليهم ، وهو امتحان واختبار لهم بما يسوءهم ، ليتوبوا ويرجعوا عن ظلمهم وبغيتهم على نبي اسرائيل وطفليانهم وامرائهم في كل امورهم ، ولكن اكثرهم لا يعلمون حكم التصرف الرباني في الخلق ولا اسباب الخير والشر الصورية ولا المنوية وكون كل شيء في هذا الكون بمشيئته تعالى وتدبيره

وفي الآية من نكت البلاغة انه خبر عن مجيء الحسنة باذا الدالة على تحقق الوقوع وعرفها لا فائدة انها الاصل الثابت الغالب بغلبة رحمة الله وفضله على سخطه وعقابه ، وعبر باصابة السيئة بان تهي اداة الشك - اي إن شرطها إما مشكوك في وقوعه وإما منزل منزلة المشكوك فيه لندرته أو لسبب آخر - ونكر السيئة لا فائدة ان وقوعها قابل وخالف للاصل الغالب . واقاد بالتعبير ان القوم لم يتوبوا بالحسنات وك بالسيئات ، وان الحسنة على عظمتها وكثرتها ما زادتهم إلا غرورا بجهلهم ، وتعديا في ظنهم ، وإصرارا على بغيتهم ، وان السيئة لم تقدم عظة ولا عبرة ولم تحدث لهم توبة ، وهك تفصيل ذلك

(١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ

لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ

وَالنَّفَّاثَاتِ وَالذَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا

قَوْمًا مُّجْرِبِينَ

قلنا ان القوم لم يتوبوا بالحسنات ولا بالسيئات . ولم يدعوا لما ايداه به تعالى موسى من الايات ، بل اصرروا بعد ايمان كبار السحرة على عد آيتي موسى من السحر ﴿ وقالوا مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فأنحن لك بمؤمنين ﴾

«مها» اسم شرط يدل على العموم ، والمعنى إنك إن تجئنا بكل نوع من أنواع الآيات التي تستدل بها على حقيقة دعوتك لاجل ان تسحرنا بها اي تصرفنا بها بدقة ولطف في التأثير عما نحن عليه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك في خدمتنا وضرب اللبن لمبايننا — فما نحن لك بمصدقين ، ولا لرسالتك بمتبعين

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ اي فأرسلنا عليهم هذه المصائب والنكبات حال كونها آيات بينات على صدق رسالة عبدنا موسى بأن توعدهم بها قبل وقوع كل واحدة منها تفصيلاً لا إجمالاً، لتكون دلالتها على صدقه واضحة لا تختمل التأويل بأنها وقعت بأسباب لها لا دخل لرسالته فيها — فاستكبروا عن الإيمان به استكباراً، مع اعتقاد صحة رسالته وصدق دعوته باطناء، وكانوا قوماً راسخين في الاجرام والذنوب مصرين عليها فلا يهون عليهم تركها

جاء في سورة الاسراء — أو بني اسرائيل — أن الله تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات وقد عد هنا منها خمساً وهي مذكورة في التوراة على غير هذا الترتيب وهو غير مراد وعطف بعضها على بعض بالواو لا يقتضيه :

فأما الطوفان فمعناه في اللغة ما طاف بالشيء وغشيه وغلب في طوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض وكذا كل ما ينزل من السماء بكثرة تغشي الأرض. قال ابن كثير اختلفوا في معناه فمن ابن عباس في روايات كثيرة : الامطار المفارقة المتلفة للزرع والثمار وبه قال الضحاك بن مزاحم ، وعن ابن عباس رواية أخرى هو كثرة الموت وكذا قال عطاء ، وقال مجاهد الطوفان الماء والطاعون على كل حال، وقال ابن جرير : حدثنا ابن هشام الرفاعي حدثنا يحيى بن هيمان حدثنا المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن ميناء عن عائشة ( رض ) قالت قال رسول الله ( ص ) « الطوفان الموت » وكذا رواه ابن مردويه من حديث يحيى بن هيمان به وهو حديث غريب . وقال ابن عباس في رواية أخرى هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ ( فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ) اه أقول أما حديث عائشة المرفوع فهو ضعيف لا يثبت بمثله قول مخالف للمبتدأ من اللغة — فيحيى بن هيمان الذي انفرد به هو السكوني المعجلي كان « تفسير المرآن الحكيم » « ١٢ » « الجزء التاسع »

من العباد ضعفه الامام احمد وقال حدث عن الثوري بعجائب وقال غيره :  
 إنه كان صدوقا لا يتعمد الكذب ولكنه كثير الخطأ والنسيان وقد أصيب  
 بالهالج فتغير حفظه وهذا هو الصواب . والمنهال بن خليفة المعجلي الكوفي  
 الذي روى عنه ضعفه ابن معين وغيرهما وقال البخاري حديثه منكر وقال ابن  
 حبان كان ينفرد بالمنابر عن المشاهير فلا يجوز الاحتجاج به . وهذا طعن مبین  
 السبب فهو مقدم على توثيق الزار له وكذلك الحجاج وهو ابن ارة الكوفي  
 القاضي مداس ضعيف لا يحتج به ، وأولى الآثار بالقبول قول ابن عباس  
 الاول الموافق للمتبادر من اللغة اي طوفان المطر، وما عدا ذلك فمن الاسرائيليات  
 واولاها بالقبول ما لا يخالف القرآن من اسفار التوراة نفسها وهو ما نقله عنها :  
 جاء في الفصل التاسع من سفر الخروج : ( ١٣ ) ثم قال الرب لموسى بكر  
 في الغداة وقف بين يدي فرعون وقل له : كذا قال الرب اله العبرانيين اطلق  
 شعبي ليعبدوني ( ١٤ ) فاني في هذه المرة منزل جميع ضرباتي على قلبك وعلى  
 عبيدك وشعبك لكي تعلم انه ليس مثلي في جميع الارض ( ١٥ ) وأنا الآن  
 امد يدي وأضربك أنت وشعبك بالوباء فتضمحل من الارض \* ( ١٦ ) غير  
 اني لهذا ابقيك لكي أريك قوتي ولكي تجرب اسمي في جميع الارض ( ١٧ ) وأنت  
 لم تزل مقاوماً لشعبي ( ١٨ ) ها أنا ذا ممطر في مثل هذا الوقت من غد برداً  
 عظيماً جداً لم يكن مثله في مصر منذ يوم أسست الى الآن » ثم ذكر وقوع  
 البرد مع نار من السماء ووصف عظمته وشموه لجميع بلاد مصر وان فرعون  
 طلب موسى وهارون واعترف لهما بخطئهم وطلب منها أن يشفعا الى الرب  
 ليكف هذه النكبة عن مصر ووعدهما بطلاق بني اسرائيل وقال في ختام ذلك

\* ( هذا نص ترجمة اليسوعيين التي نقلها وصححها الشيخ ابراهيم اليازجي  
 وهي مخالفة في المعنى لترجمة الامريكان ونصها : « ١٥ فانه الآن لو كنت امد  
 يدي وأضربك وشعبك بالوباء لكنت تباد من الارض » فالأولى جازمت  
 بالضرب بالوباء والثانية علمته بلو الدالة على عدم وقوعه والمتبادر أنها هي الصحيحة  
 المعنى فتأمل ولا تظن أن الترجمة التي صححها اليازجي خالية من الخطأ اللغوي كما  
 يظن الغالون فيه وأقرب غلط في هذا السياق أول الجملة ١٨ ها أنا .. فها التنبؤية  
 تدخل على ضمير الرفع المخبر عنه باسم الإشارة فيقال ها أنا ذا ( وقد تكتب  
 هاء نداء اختصاراً ) - وها أتم أولاء . وهذا الغلط قد تكرر فيها كثيراً وله أمثال

(٣٣) فخرج موسى من المدينة من ارض فرعون وبسط يديه الى الرب فكفت الرعود والبرد ولم يمد النظر يهطان على الارض « له ولم يذكر المطر عند الوعيد بل ذكر هنا عند كف السكبة

وأما الجراد فهو معروف وقد ذكر في التوراة بعد الطوفان ففيها بعدما تقدم أن فرعون قسا قلبه فلم يصدق بنى اسرائيل فأخبر الرب موسى كافي الفصل العاشر بأنه قسى قلبه وقلوب عباده ليهيم آياه ولكي يقص موسى على ابنه وإن ابنه اكذبا) ما فعل بالمصريين وأمره بأن يندره بارسال الجراد عليهم فيأكل ما سلم من النبات والشجر فلم يحسه البرد وبملا بيوته وبيوت عبيده وسائر بيوت المصريين ففعل - فرضي فرعون أن يذهب الرجال من بني اسرائيل ليعبدوا ربهم دون النساء والاولاد والمواشي - فد موسى عصاه بأمر الرب على أرض مصر فأرسل الرب ريحا شرقية سافقت الجراد على أرض مصر (١٥) فغطى جميع وجه الارض حتى أظلمت الارض وأكل جميع عشبها وجميع ما تركه البرد من ثمر الشجر حتى لم يبق شيء من الخضرة في الشجر ولا في عشب الصحراء في جميع أرض مصر « وفيه أن فرعون استدعى موسى وهارون واعترف لهما بخطئته وطلب منهما الصفح والشفاعة الى الرب المهتما أن يرفع عنه هذه التهلكة ففعلا فأرسل الله ريحا غربية فحملت الجراد كله فألقته في بحر القلزم

وأما القمل بضم القاف وأشدريد المبهم المفتوحة فمن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحنطة وعنه أنه الدبني وهو الجراد الصغير الذي لا أجنحة له وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعن الحسن وسعيد بن جبيرة انه دواب سود صفار ، وعن ابن جرير انها دابة تشبه القمل تأكل الابل ، ونقل عن بعض علماء الامة البصريين ان القمل عند العرب الحنزان واحدها حمنانه وهي صفار القردان - ذكر هذا كله ابن كثير . وجزم الراغب بأن القمل صفار الذباب وهو موافق لما في التوراة ففيها ان البموض والذبان كان من الضربات العشر التي ضرب الرب بها فرعون وقومه ليرسلوا بني اسرائيل مع موسى في الفصل الثامن من سفر الخروج أن موسى انذر فرعون ان الذبان سيدخل بيوتاه وبيوت عبيده وسائر قومه فيفسدها ولا يدخل في بيوت بني اسرائيل المقيمين في ارض جاسان وان ذلك وقع وفسدت الارض من تأثير الذبان .



وأما الضفادع فهي المعروفة لا خلاف فيها وفي أول الفصل الثامن من سفر الخروج ( ١ ) وقال الرب لموسى ادخل على فرعون وقل له كذا قال الرب أطلق شعبي ليعبدوني ( ٢ ) وان أبيت أن تطلقهم فما أنا (ذا) ضارب جميع تخومك بالضفادع ( ٣ ) فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتنتشر في بيتك وفي مخدع فراشك وعلى سريرك وفي بيوت عبيدك وشعبك وفي تماثيلك ومعاجنك الخ وكذلك كان ولكن فيها أن السحرة فعلوا مثل ذلك وأصعدوا الضفادع ، وان فرعون طلب من موسى أن يشفع له عند ربه برفع الضفادع فأجابه الى ذلك قال ( ١٣ ) ففعل الرب كما قال موسى وماتت الضفادع من البيوت (٤) والاقبية والحقول (١٤) فجمعوها أكواماً وأنتنت الارض منها »

وأما الدم ففسره زيد بن أسلم بالرعاف وأكثر أهل التفسير المأثور أنه دم كان في مياه المصريين وهو موافق لما جاء في التوراة وهو فيها أول الضربات العشر التي أنزلها الله على فرعون وقومه بعد انقلاب العصا ثعباناً ففي الفصل السابع من سفر الخروج أن الرب أمر موسى أن ينذر فرعون ذلك ففعل (١٩) ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين وأنهارهم وخلصهم ومناقهم وسائر مجامع مياههم فتصير دماً ويكون دم في جميع أرض مصر وفي الخشب وفي الحجارة » وفيه أن موسى وهارون — فعلا ذلك وان سمك النهر مات وأنتن النهر فلم يستطع المصريون أن يشربوا منه ، وفيه أن سحرة مصر فعلوا مثل ذلك ( ٢٤ ) وان الدم دام سبعة أيام

هذه الخمس جملة ما ذكره القرآن من الآيات التي أيد بها عبده ورسوله موسى عليه السلام وليس فيها شيء من المبالغات التي في التوراة فلا هو ينفقها ولا يؤيدها، ومقتضى أصول الاسلام الوقف فيها الا ما دل دليل من القرآن على ثبته كما تقدم . وفيها أن من تلك الآيات أو الضربات (البعوض) وذلك أن هارون ضرب بأمر الرب تراب الارض «فكان البعوض على الناس والبهائم ، وكل تراب الارض (؟) صار بعوضاً في جميع أرض مصر » ( كذا في ١ : ١٧ خر ) وفيها أن السحرة فعلوا مثل ذلك !! ( ومنها الوباء ) وقع على دواب المصريين وأنعامهم فانت كلها من دون مواشي الاسرائيليين فانه لم يمت منها شيء (ومنها البثور والقروح المنتفخة) أصابت الناس والبهائم — ومن أين جاءت البهائم بعد

أن ماتت بأسرها؟ ( ومنها الظلام ) غشي جميع المصريين ثلاثة أيام كان  
الاسرائيليون فيها يتمتعون بالنور وخدم ( ومنها إمانة جميع أبكار الناس  
والبهائم ) وهي الضربة العاشرة ففيها « وقال موسى كذا قال الرب إني  
نحو نصف الليل اجتاز في وسط مصر فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر  
فرعون الجالس على عرشه الى بكر الأمة التي وراء الرحي وجميع أبكار البهائم  
(من أين جاءت بعد ان ماتت منذ ايام؟) ويكون صراخ عظيم في جميع أرض  
مصر لم يكن مثله ولن يكون مثله ( ١١ : ٤ - ٦ خر )

( ١٣٣ ) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ  
بِمَا عٰهَدَ عِنْدَكَ اَنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ  
بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى آجَلٍ هُمْ بِلِغْوِهِ  
إِذَاهُمْ يَنْكُرُونَ ( ١٣٥ ) فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا  
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غٰفِلِينَ

بعد بيان تلك الايات ذكر ما كان من تأثيرها وتأويلها معطوفا عليها فقال عز وجل

﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك : لئن  
كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل ﴾ قال في الاساس :  
الرجز الرعد اذا تداوك صوته كارتجاج الرجز . . والبحر يرتجز بأذيه أي موجه  
... فإذ الرجز تدل في أصل اللغة على الاضطراب كما قال الراغب وهو يكون  
في النفس كما يكون في الاجسام ومنه قوله تعالى في وصف الماء الذي أنزله  
على المسلمين في بدر ( ويذهب عنكم رجز الشيطان ) أي وسوسته لهم بأن  
يأخذهم العطش فلا يستطيعون الصبر على القتال وقيل غير ذلك . وقد يكون  
في الصوت ومنه الرجز في الشعر سمي بما كان لهم من اضطراب الصوت في  
إنشاده ، وقد سمي عذاب قوم لوط رجزاً بقوله تعالى في سورة المنكبوت  
(إننا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ) وفي

سورتي سبأ والحاثية انذار للكافرين بعذاب من رجز أليم . وفسر الرجز هنا بالعذاب وروى عن قتادة وفيه حديث مرفوع عن عائشة عند ابن مردويه ، وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المراد به الطاعون . وكانهما أخذاه من حديث أسامة بن زيد مرفوعاً « الطاعون رجز أرسل على بني اسرائيل — أو على من كان قبلكم — فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » رواه مسلم عنه بهذا اللفظ وألفاظ أخرى بمعناه منها « الطاعون آية الرجز ابتلى الله به عز وجل أناساً من عباده » الخ وفي رواية له « هو عذاب أو رجز أرسله الله على طائفة من بني اسرائيل أو ناس كانوا قبلكم » الخ وأوله في بعضها « ان هذا الطاعون » الخ ورواه احمد والنسائي ومصنفو التفسير المأثور عنه وعن سعيد بن مالك وخزيمة بن ثابت ووجهه في اللغة أن الطاعون من الأريثة التي تضرب لها القلوب لشدة فتكها وذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى من سورة البقرة ( وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية — الى قوله — فأزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ) وهو يصدق بطائفة من بني اسرائيل وقد نزل الطاعون بهم كغيرهم مراراً ولا يوجد حديث مرفوع يدل على أن الطاعون هو المراد بالرجز في الآية التي تفسرها وضربة القروح المذكورة في التوراة يجوز أن تكون هي الطاعون ، وموت الأبقار يحتمل أن يكون بالطاعون أيضاً

والمبتادر من عبارة الآية أن المراد من الرجز جنسه وهو كل عذاب تضرب له القلوب أو يضرب له الناس في شؤونهم ومعايشهم وهو يشمل كل نقمة وجائحة أنزلها الله تعالى على قوم فرعون كالحس المبينة في هذا السياق وفي التوراة أن فرعون كان يقول لموسى عند نزول كل منها ادع لنا ربك واشفهم لنا عنده أن يرفع عنا هذه ، ويعده بأن يرسل معه بني اسرائيل ليعبدوا ربهم وينجوا له ثم ينكت ، فإذا أريد بالرجز افراده وافق التوراة في ان فرعون وملائه كانوا يطلبون من موسى عند كل فرد منها ان يدعو ربه بكشفها عنهم ، ولفظ « لما » لا ينم من ذلك كما صرح به المفسرون الذين قالوا بهذا ، وان اريد به جملة ومجموع افراده او فرد آخر غير ما تقدم فالمبتادر ان يكون طاب كشفه قد وقع مرة واحدة ، والاول اظهر ويرجح التعبير عن نكشهم بصيغة

المضارع ( ينكثون ) فانه يدل على الاستمرار

ومعنى النظم الكريم : ولما وقع على فرعون وقومه ذلك العذاب المذكور في الآية السابقة فاضطربوا اضطراب الارشية في البئر البعيدة القعر، رخصوا حبة الحمر فوقعوا في حيص بيص — وهو ما يدل عليه تسمية ذلك العذاب بالرجز — قالوا عند نزول كل نوع منه بهم: يا موسى ادع لنا ربك واسأله بما عهد عندك من امر إرسالك إلينا لا نقاذ قومك ليعبدوه وحده — فالنبوة والرسالة عهد من الرب تعالى لمن اختصه بذلك يدل عليه قوله تعالى لإبراهيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم (إني جاعلك للناس إماماً ، قال ومن ذريتي ، قال لا ينال عهدي الظالمين ) — او ادعه بالذي عهد به اليك ان تدعوه به فيعطيك الآيات ويستجيب لك الدعاء — ان يكشف عنا هذا الرجز ، ونحن نعلم لك انك كشفتنا عنا لنؤمنن لك وانرسان معك بنى اسرائيل قال تعالى :

﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز الى اجل بالغوه اذا هم ينكثون ﴾ اي فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة الى اجل هم بالغوه ومنتهون اليه في كل مرة منها — وهو عود الحال الى ما كانت عليه — او في مجموعها وهو الفرق الذي هلكوا فيه — اذا هم ينكثون عهدهم وينكثون في قسمهم في كل مرة . اي فاجأوا بالنكث ، وبادروا الى الخنث ، بلا روية ولا ريث . واصل النكث في اللغة تقض ما غزل او ما قتل من الحبال ليمود انكاثا وطاقات من الخيوط كما كان . والانكاث ما تقض من الغزل ليغزل ثانية ( ولا تكونوا كالتى تقضت غزلها من بعد قوة انكاثا )

﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ اي فانتقمنا منهم عند بلوغ الاجل المضروب لهم بأن اغرقناهم في اليم — وهو البحر في اللغة المصرية الموافقة للعربية في الالوف من مفرداتها<sup>(١)</sup> وهو يطلق على النيل وغيره — والفاء الداخلة على انتقمنا تفسيرية كقوله تعالى : او نادى نوح ربه فقال . . . ) وعلل هذا الانتقام كما علل امثاله بأنهم كذبوا بآيات الله وتكرر هذا اللفظ في قصص الانبياء من هذه السورة اكثر من غيرها وان لم (١) قد اكتشف هذه الموافقة علامة العاديات المصرية صديقتنا احمد باشا كمال الاثري المصري صاحب المعجم الكبير للغة المبروغايفية ( رحمه الله تعالى ) ومنه يعلم ان أصل اللغتين واحد وان أصل الامتين واحد

يؤت بعضهم غير آية واحدة فان تكذيب الواحدة كتكذيب الكثير ويقتضيه بانحاد العلة، كما أن تكذيب احد الرسل كتكذيب الجميع اذا كان بعد ظهور آيته ، وقيام الحججة على دعوته . وكذلك تكرر في القرآن كون النغلة على الحق ودلائله من صفات الكفار . واما جمع الآيات هنا فلانها متعددة . واما عطف الانتقام بالفاء فليس تمليلاً آخر وانما هو تعقيب على كونه وقع بعد التكذيب بتلك الآيات كلها ، والمعنى انهم كانوا يظهرون الايمان عند كل آية من آيات العذاب ثم يكذبون حتى اذا انقضى الاجل المضروب لهم انتقمنا منهم بسبب انهم كذبوا بها كلها وكانوا غافلين مما تقتضيه وتسنلزمه من عذاب الدنيا والآخرة ، إذ كانت في نظراً اكثرهم من قبيل السحر والصناعة ، وكانوا قد بلفوا فيها الغاية ، ولذلك كانوا يكابرون انفسهم في كل آية ، ويحاولون ان يأتي سحرهم وعلماؤهم بمثلها، ويحملون عجزهم على تفوق موسى عليهم فيها، ويعدون اسناده كل شيء الى ربه من قبيل اسنادهم الامور الى آلهتهم الباطلة بحسب التقاليد التي لم يكن حكماؤهم يؤمنون بها ، وانما يحافظون عليها لاجل خضوع عامة الشعب لها، وأمامن ظهرت لهم دلالة آيات موسى على الحق فمنهم من آمن جهراً ككبار السحرة ومن آمن فكنتم إيمانه كالذي عارض فرعون وملاه في قتل موسى بالحجة والبرهان - كما في سورة غافر وذكرناه في هذا السياق - ومنهم من جحد بها لمحض العلو والكبرياء ، كفرعون وأكابر الوزراء والرؤساء

ومن العبرة في مجازة الحكومة الفرعونية للعموم على خرافاتهم أن حكومات هذا العصر توافق العامة على كل ما يعدونه من الدين وان لم يكن منه كما تفعل الحكومة المصرية في بعض الاحتفالات الموسمية المبتدعة في الاسلام كالموالد بالتبع لجمهور الشعب من كبار علمائه الى أجهل عوامه وهي مشتملة على كثير من المعاصي المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة التي يعد مستحلتها مرتداً عن الاسلام باتفاق المذاهب ، والجمهور غافلون عن ضرر هذه البدع التي جعلت من قبيل شعائر الاسلام بالاحتفال بها وشد الرحال اليها ، واتفاق الاموال العظيمة في سبيلها، وتعطيل كبرى شعائر الاسلام وهي الصلاة وابطال دروس العلوم الدينية من المساجد التي تقام فيها لاجلها، كالمسجد الاحمدي في طنطا والمسجد الابراهيمى في دسوق . وان اكبر ضررها تشويه الاسلام في نظر العقلاء من اولي العلوم الاستقلالية حتى كثر فيهم المرتدون عنه ، وصد غير المسلمين عن

الاسلام لان القاعدة التي يجري عليها عرف الامم أن دين كل قوم ما هم عليه من التعبدات والشعائر ، وقد تكرر منا اقناع بعض مستقلي الفكر من غير المسلمين بحقية دين الاسلام المقرر في القرآن الحكيم والسنة السنينة ونزعه عن هذه البدع فاقتنعوا بأن ما قررناه لهم حق ولم يقنعوا بأنه دين الاسلام الذي عليه المسلمون، وقد سبق ان نقلت عن رجل من فضلاء الانكليز منهم انه قال لي ان كان الاسلام ما ذكرت فأنا مسلم . وكان نعوم بك شقير المؤرخ السوري يقول لي اكتب عقيدتك وأنا أمضي عليها بخطي انها عقيدتي

(١٣٦) وَأَدْرَأْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ  
وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ  
بِمَا صَبَرُوا وَأَوْدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ

لما ذكر تعالى عاقبة تلك الآيات وتأويلها في المصريين عطف عليه بيان عاقبتها وتأويلها في بني اسرائيل بهذه الآية الجامعة البليغة فقال عز وجل :

﴿ وَأَدْرَأْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ تمسدد في القرآن التعبير عن استخلاف الله قوما في أرض قوم بالارث أي وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون في مصر بما تقدم بيانه جيم الارض التي باركنا فيها بالخصب والخير الكثير مشارفها من حدود الشام ومغاربها من حدود مصر ، تحقيقا لوعدنا (وريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين \* ونمكن لهم في الارض وزرع فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون )

روي عن الحسن البصري وقتادة أنهما قالا في تفسير ( مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها : هي أرض الشام ، وعن زيد بن أسلم قال : هي قري الشام ، وعن عبد الله بن شوذب : فلسطين ، وعن كعب الاحبار قال ان الله بارك في الشام من الفرات الى العريش . ويؤيد هذه الروايات قوله تعالى في ابراهيم عليه الصلاة والسلام (ونجيناه ولو طأ الى الارض التي باركنا فيها للعالمين) وقوله تعالى ( ولسليمان الريح تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها ) وقوله « تفسير القرآن الحكيم » « ١٣ » « الجزء التاسع »

عز وجل ( سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله )

وروي عن الليث بن سعد أنها أرض مصر التي كان فيها بنو إسرائيل وأطلق بعض المفسرين القول بأنها أرض مصر وفلسطين جميعاً. وربما يتراءى أن ارادة أرض مصر هي الظاهر المتبادر من قوله تعالى في قوم فرعون من سورة الشعراء (٢٦ : ٥٧) فأخرجناهم من جنات وعيون ٥٨ وكنوز ومقام كريم ٥٩ كذلك - وأورثناها بني إسرائيل) وقوله فيهم من سورة الدخان (٤٤ : ٢٤) كم تركوا من جنات وعيون ٢٥ وزروع ومقام كريم ٢٦ ونعمة كانوا فيها فاكهين ٨٧ كذلك وأورثناها قوما آخرين . لأن فرعون خرج بمن معه من الملا والجند من مصر وتركوا ما كانوا فيه من النعيم، إلى الفرق المؤدي إلى الجحيم، ولكن هذا الوصف أظهر في بلاد الشام ذات الجنات الكثيرة، والعيون الجارية، ومعنى اخراج المصريين منها ازالة سيادتهم وسلطانهم عنها فقد كانت بلاد فلسطين وحرمانهم من التفكك بنعيمها، إلى الشام تابعة لمصر، وكان من عادة فراعنة مصر كغيرهم من الامم المستعمرة أن يقيموا في البلاد التي يستولون عليها حكماً و جنوداً ثلاثين سنة عليهم، وأن يسكنها كثيرون منهم يتمتمون بنجراتها . وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى ( عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ) جملة من الاثر المصري القديم الوحيد الذي وجد فيه ذكر لبني اسرائيل تنطق بأن هذه البلاد كانت تابعة لمصر على أنه وجد في بعض التواريخ القديمة ما يدل على صحة ما قاله بعض منسرينا من أن موسى استولى على مصر وتمتع هو وقومه بالسيادة فيها طائفة من الزمن نذكره للاعتبار به وان كان صدق الآيات غير مقصور على صحة مضمونه وهو ما جاء في حاشية لاحد مباحث الدكتور محمد توفيق صدقي ( رحمه الله تعالى ) في كتب العهد الجديد وعقائد النصرانية ، وهذا نصه ( كما في ص ٤٦ ، و ٤٤٧ من مجلد المنار السادس عشر ) :

« جاء في كتاب (الاصول البشرية) صفحة ٨٨ المؤلفه لينج أن يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير نقل عن ( مانيشو ) هذه الرواية المصرية القديمة التي ملخصها « أن موسى بعد أن هزم فرعون مصر - الذي فر إلى بلاد الحبشة - حكم مصر ١٣ سنة وبعد ذلك عاد اليه فرعون هو وابنه ومعهما جيش عظيم فقهروه وأخرجوه منها إلى بلاد الشام » وجاء في قاموس الكتاب المقدس

لبوست مجلد ١ ص ٤١٠ أن هيرودوتس المؤرخ اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد قال « إن ابن سيسوسترس ضرب بالعمى مائة عشر سنين لأنه رمى رجمه في النهر وقد ارتفعت أمواجه وقت فيضه بسبب نوء شديد الى علو غير اعتيادي » اه ويقول المؤرخون ان ابن سيسوسترس هذا ( وهو منفتح الثاني ) هو فرعون الخروج ويتخذون هذه العبارة اشارة الى غرقه في زمن موسى . ولكن يرى القاريء منها أنها لو كانت اشارة الى الفرق لكان الفرق في النيل <sup>(١)</sup> ومن الرواية الاولى يعلم أن موسى حكم بمذرعون ٣ سنة في مصر . وهاتان الروايتان هما من أقدم الروايات المصرية وأصحها وربما كانتا الوحيدتين في هذه المسألة ، ولعل المصريين استغاثوا بمملكة الحبشة فأرسلت اليهم جيشا فأوحى الله الى موسى بالخروج حينئذ من مصر وتركها لاهلها ، وعليه يجوز أن المصريين كتموا خبر غرق ملكهم واستبدلوا به دعوى تقهره الى الحبشة وقالوا إنه هو الذي عاد بعد ذلك وأخرج موسى بالقوة سترأخزيهم وخذلانهم وارضاء ملوكهم وأسر ( جمع اسرة بالضم ) هؤلاء الملوك وربما أنه لولا عظم هذه الحادثة وشهرتها بينهم لانكروها بالمرءة « ومن ذلك تعلم أن الخروج لم يكن عقب غرق المصريين مباشرة كما يفهم من التوراة ولم يكن السبب فيه هذه الحادثة التي غرق فيها فرعون وجيشه بل كان بعد ذلك ببعض سنين

« ويرى المطلع على القرآن الشريف أن هاتين الروايتين صادقتان في مسألة غرق فرعون في النيل ومسألة حكم موسى في مصر ١٣ سنة . وأما الفرق في النيل فيفهم من قول القرآن مثلاً في سورة طه ( اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم ) ثم قوله في آخر هذه القصة ( فأتبعهم رعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ) فالمتبادر من ذلك أن فرعون غرق في نفس اليم الذي ألقى فيه موسى وهو النيل ، ومثل ذلك أيضاً ما جاء في سورة القصص وهو قوله ( فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ) ثم قوله فيها بعد ( فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم )

( ١ ) ويجوز أن تكون عبارة هيرودتس : رمى رجمه في البحر ثم ترجمت بالنهر لأن النهر الكبير يسمى بحراً ككل ماء كثير مستبحر



« وأما مه أمة حكم موسى في مصر والتمتع بها هو وقومه مدة من الزمن بعد الفرق فهو أيضا المتبادر من نحو قوله تعالى ( فأراد أي فرعون ان يستفزهم من الارض فأغرقناه - الى قوله - وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الارض ) وقوله ( فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بني اسرائيل ) ويجوز أن الشريعة أعطيت لموسى في الطور قبل تركه حكم مصر « وفي زمن موسى أعطى الله بني اسرائيل - بدلا عن مصر التي أمرهم بتركها - الممالك التي في شرق الاردن كما في كتبهم وفي زمن يشوع أعطاهم كل أرض كنعان الا بعض أجزاء منها ( يش ١٣ : ١ ) وهذه الارض التي أعطيت لهم هي من أخصب أراضي العالم وأحسنها وهي المسماة عندهم بأرض الموعد لانهم كانوا وعدوا بها من قبل

« فأني لمحمد صلى الله عليه وسلم علم ما بيناه من ذلك التاريخ وهو أجنبي عنه وعن قومه ومغاير للتوراة ومخالف لما يعتقده جيم اليهود والنصارى من قديم الزمان ولكنه موافق لا قدم الروايات المصرية وأصحها التي لا يعرفها - حتى الآن - الا واسعو الاطلاع من محققى المؤرخين ؟

« وأما مانيتشو ( Manetho ) المذكور هنا الذي وافقت روايته ما جاء في القرآن الشريف فكان كاهنا لمعيد من أقدم المعابد وأشهرها ، وقد كتب تاريخ مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس في القرن الثالث قبل المسيح وكان من أدق مؤرخي القدماء وأصدقهم وقد أخذ بأوثق المصادر وأصحها في كتابة تاريخه ، الا أن هذا التاريخ فقددم ما فقد في حريق مكتبة الاسكندرية ولم يبق منه سوى مقتطفات في بعض الكتب القديمة اليونانية وقد أيد أكثر هذه المقتطفات ما اكتشفت حديثا من الآثار المصرية والمكتوبات العتيقة مع أن آباء المصريين كيو سيبيوس حرفوا كعادتهم كثيرا مما نقلوه منها لتطابق نصوص العهد القديم كما ذكره العلامة لينج في كتابه « الاصول البشرية » ص ١١ منه » اه

﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ﴾ تمام الشيء وصوله الى آخر حده ، وكلمة الله وعده لبني اسرائيل باهلاك عدوهم واستخلافهم في الارض . وفي مجاز الاساس : وتم على امر مضى عليه وتم على امرك ، وتم

الى مقصدك . والمعنى نفذت كلمة الله ومضت على بني اسرائيل تامة كاملة بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه إذ كان وعد الله تعالى إياهم بما وعدهم مقرونا بأمرهم بالصبر والاستعانة به والتقوى له كما أمرهم نبيهم عليه السلام تبليغا عنه تعالى راجع ( وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ) — الآية — من هذا السياق . واذ كان قد تم وعد الله تعالى لهم بذلك ثم سلبهم الله تلك الارض بظلمهم لانفسهم وللناس فلم يبق من مقتضى الوعدان يعودوا اليها مرة أخرى لانه قد تم ونفذ صدقا وعدلا .

﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ التدمير ادخال الهلاك على السالم والخراب على العامر ، والعرش رفم المباني والسقائف للنبات والشجر المتسلق كعراش العنب ومنه عرش الملك . والمراد بما كان يصنع فرعون وقومه أولا وبالذات ماله تعلق بظلم بني اسرائيل والكيد لموسى عليه السلام ، فالال كالمباني التي كانوا يبنونها للمصريين أو يصنعون اللبن لها ومنها الصرح الذي أمر هامان ببنائه له ليرقى به الى السماء فيطلع الى إله موسى ، والثاني كالكيد السحرية والصناعية التي كان يصنعها السحرة لابطال آياته أو التشكيك فيها كما قال تعالى ( انما صنعوا كيد ساحر \* وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الاسباب - أسباب السموات - فاطلم الى إله موسى وإني لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب ) والتباب بمعنى الدمار

وأما اسباب هذا التدمير لتلك الصنم والعرش فأولها الآيات التي أيد الله تعالى بها موسى عليه السلام من الطوفان والجراد وغيرهما - وتسمى في التوراة الضربات وفيها من المبالغة في ضررها وتخريبها ما أشرنا اليه وذكرنا بعضه - وبليها انجاء بني اسرائيل وحرمان فرعون وقومه من استعبادهم في أعمالهم، وثالثها هلاك من غرق من قوم فرعون وحرمان البلاد وسائر الامة من ثمرات أعمالهم في العمران - هذا هو المعروف منها ، وما ظلمهم الله تعالى بذلك ولكنهم ظلموا انفسهم فقد انذرهم موسى عليه السلام كل ذلك ليتقوا سوء عاقبته فكذبوا بالآيات ، وأصرروا على الجحود والاعنات والمعبرة في هذه الآيات من وجهين ( الاول ) ان يتفكر تالي القرآن في

تأثير الايمان والوحي في موسى وهارون عليهما السلام إذ تصديا لاعظم ملك في أعظم دولة في الارض قاهرة لقومها ومعبدة لهم في خدمتها منذ قرون كثيرة فدعواهم الى الرجوع عن الكفر والظلم والظغيان وتعبيد بني اسرائيل وأنذراه وهدداه، ومازالا يكافئانه بالحجج والايات البيّنات حتى أظفرها الله تعالى به وأنقذا قومها من ظلمه وظلم قومه

فجدير بالمومنين بالله تعالى ورسله من المسلمين ان ينتقلوا من التفكير في هذا الى التفكير في وعد الله تعالى للمؤمنين بالنصر كما وعد المرسلين اذا هم قاموا بما امرهم تعالى به على ألسنتهم - وان لا يستعظموا في هذه السبيل قوة الدول الظالمة لهم ، فان قوة الحق التي نصرها الله تعالى برجل او رجلين على اعظم الدول لا تغلب اذا نصرناها ونحن مئات الملايين والله تعالى يقول ( ان تنصروا الله ينصركم - ويقول - وكان حقا علينا نصر المؤمنين )

﴿ الوجه الثاني ﴾ إنه تجدد عندنا في هذا الزمان أمر عظيم يتعلق بهذه الارض المباركة المقدسة وهو محاولة اليهود انتزاعها من أيدي أهلها العرب وتنازع الفريقين في التعارض والترجيح بين وعد الله لكل منهما بهذه الارض وما أمجزه لكل منهما، ومن المستحق لها في هذا العصر، فليتأمل المعتبر في وعد الله تعالى بها لبني اسرائيل من ذرية ابراهيم ثم وعده بها وبغيرها للعرب من ذريته على لسان خاتم الرسل صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، وآلهم الصالحين المصلحين . ولعننته وخزيه على الفاسدين المفسدين المصريين . فقد انجز الله تعالى وعده للفريقين عند ما كانوا متقين ، وأخطأ كل فريق منهم في عصر رسولهم فأدبهم الله تعالى بما هو منصوص في الكتاب المبين :

أراد بنو اسرائيل الذين أخرجهم موسى من مصر أن تكون لهم تلك الارض ، بغير عمل منهم ولا سعي ، فامتنعوا من قتال من فيها من الجبارين وقالوا لموسى ( اذهب انت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ) فخرمها الله تعالى عليهم اربعين سنة يتيهون في الارض - كما عرض الغرور لبعض بني اسماعيل في عصر الرسول الاعظم بما كان من نصر الله تعالى لهم في غزوة بدر مع قلة العدد والمدد والازاد، وظنوا انهم ينصرون كما وعدوا، وان قصروا فيما أمروا، فلما اصابوا بما اصابوا به في غزوة أحد تمجبوا واستفهموا، فأجابهم الله تعالى بما عملوا به اب وعده المطلق في قوله ( كتب الله لاغلبن انا ورسلي ) وقوله

## الاعراف : س ٦ منازعة اليهود للعرب في الارض المقدسة ١٣

( وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ) مقيد بما في الآيات الاخرى كقوله ( ان تنصروا الله ينصركم \* ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم ) أجابهم بقوله ( أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ) الى آخر ما فصلنا في تفسيرها مع سياقها من الجزء الرابع .

نعم ان الله تعالى أنجز وعده الاول لابراهيم صلوات الله وسلامه عليه يجعل هذه الارض لدريته فجعلها أولاً للمتقين من آل اسحق ، ثم نزعها منهم بظلمهم وفسادهم في الارض مرة بعد أخرى . ثم أعطاها للمتقين من آل اسماعيل ، ثم انتزع السلطان عليها منهم أيضاً بظلمهم لانفسهم ، وتجدد التنازع في رقبتها بين الفريقين - بنى اسرائيل وبنى اسماعيل - باغراء الانكليز الذين استولوا عليها وأوقعوا الشقاق بين الفريقين فيها ، وهم أحذق الخلق ، في ضرب الشعوب بعضها ببعض ، وستكون العاقبة للمتقين ، بحسب سنة الله في البشر أجمعين . فلا يفترون قومنا بالآوهام ، ولا يتكلمون على المتجرين بالاقوام ، ولا يتخذون بعدد بشقاشق الكلام ، ولا ينوطن الزعامة بأصحاب الانساب ، التفاقدين للعلم والاستقامة وسائر الاسباب ، ولا سبوا من ثبنت موالاتهم لاعداء البلاد وسالبي استقلالها ، وواضعي الخطة الشيطانية لانتزاع رقبتها من أهلها ، والقضاء عليهم بالانقراض منها ، بتعذر الحياة عليهم فيها ، لا بالابعاد القسري عنها ، بأن يكون شأنهم في هذا كسكان امريكا قبل استثمار الانكليز وغيرهم لها ، ولا منجاة لعرب فلسطين من هذا الحظر العظيم الآتي من قبل شعبين إثنين هما أشد شعوب الارض قوة وثروة ودهاء وكيدا وعلماً وصبراً وجلداً الا بأنحادهم مع سائر الشعوب والقبائل العربية على الاستبسال والاستقتال في الدفاع الحقيقي عن امتهم وبلادهم - ومع سائر الشعوب الاسلامية في الدفاع المعنوي عن الارض المقدسة والحرمين الشريفين اللذين لا استقلال لهما ولا أمن عليهما ، مع إحاطة هذه القوة الاجنبية بهما ، ولكنهم لم يخطوا خطوة واحدة في طريق الوحدة العربية ، بل خطوا خطوتين واسعتين في سبيل الشقاق والتفرق بين الامارات المسلحة في الجزيرة العربية تقروا بهما اكبر الشعوب الاسلامية منهم

( الاولى ) موالة صاحب الحجاز الذي أطان الانكليز على فتح بلادهم ثم كان هو واولاده مثبته لاقدامهم فيما جاورها ، وحائلا بينهم وبين سائرها ، بأن أقروه على انتحاله لنفسه ملك البلاد العربية وعلى سعيه لاختضاع تلك الامارات

لحكمه بالانكال على قوة الغاصب الاجنبية ؛ فالولا وجود أحداً وولاده (عبدالله) في شرق الاردن من قبل الدولة الانكليزية الغاصبة لفلسطين والمنزعة للسيادة العربية منها لا يمكن ان يتحد عربها مع عرب نجد الاقوياء على إنقاذها . وكذا أهل العراق الذين سمي الانكيز ولده ( فيصلا ) ملكا عليهم . بل لولا افتتانه هو بما فتنوه به من تسميته ملكا للعرب وخليفة على المسلمين ، لما ثبتت في بلاد العرب قدم للمستعمرين .

(والثانية) مبايعة جمهور كبير منهم له بالخلافة التي يترتب عليها — لو صحت كما يدعي ويدعون له — انه يجب على تلك الامارات شرعا أن تخضع لحكمه والاوجب قتالها واخضاعها بالقوة ، وهل كان في مقدورهم سعي الى شقاق وتفرق شر من هذا ؟ على أنهم كانوا متحدين فانقسموا وصاروا أحزابا متنازعة ، فذسأله تعالى تغيير الحال بخير منها وحسن العاقبة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

(١٣٧) وَجُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ ، فَأَلْوَا يُمُوسَى أَجْمَلُ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنْ هُوَ إِلَّا وَتُتَبَّرُ مَا هُمْ فِيهِ وَبُطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغْوَيْتَنِي اللَّهُ أَنْفَعِكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ بِقِسْفِ أَيْدِيهِمْ وَأَنْهَارٍ مِنْ أَيْدِيهِمْ يُسَاقُونَ فِيهَا وَلَهُمْ فِيهَا رِجَالٌ لَمْ تَحْزَبُوا فِيهَا وَيَحْمِلُونَ فِيهَا كِسْفَ الْحَبْلِ وَالْحَبْلِ يُغْشَوْنَ مِنَ السَّمَاءِ رِجَالًا مَعْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ كَافِرِينَ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

### ﴿ قصة موسى مع بني اسرائيل ﴾

هذه الآيات وما بعدها شروع في قصة موسى عليه السلام مع قومه بني اسرائيل معطوفة على قصته مع فرعون وقومه على اكل وجوه العبرة مع السلامة من لغو القصص والتاريخ . قال عز وجل

﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ﴾ جاز الشيء وجاوزه وتجاوزه عداه وانتقل عنه . والعكوف على الشيء الاقبال عليه وملازمته على سبيل التعميم ومنه العكوف والاعتكاف في المسجد وهو ملازمته لاجل العبادة . قرأ حمزة والكسائي يعكفون بكسر الكاف من باب جلس بجلس والباقون بضمها من باب قعد يقعد . والاصنام جمع صنم وهو ما يصنم من الخشب أو الحجر أو المعدن مثالا لشيء حقيقي أو خيالي أو مذكرا به ليعظم تعظيم العبادة ، واتخذ بعض العرب في الجاهلية صنما من عجوة التمر فعبدوه ثم جاءوا فأكلوه . والفرق بينه وبين التثال ان هذا لا بد أن يكون مثالا لشيء - وأنه قد يكون للعبادة وحينئذ يسمى صنما وقد يكون للزينة كالذي تراه على جدران بعض القصور المشيدة أو ابوابها أو في حدائقها ، وقد يكون للتعظيم والتعظيم غير الديني كالتماثيل التي تنصب لبعض الملوك وكبار علماء الدنيا أو القواد والوعاظ لالتدبير بتأريخهم واعمالهم للاقتداء بهم ، ويكثر هذا في بلاد الافرنج وقد نشأ في بعض بلاد الشرق كصر فنصبت حكومتها تماثيل لبعض امراء بيت الملك الحاضر وغيرهم من رجالهم . والفرق بين هذا التعظيم السياسي أو العلمي وبين تعظيم العبادة أن الغرض من الاول اما رفعة شأن الدولة وتمكين سلطانها في انفس الامة بمشاهدة صور ملوكها وكبراء رجالها وتماثيلهم وهو قصد سياسي صحيح عند اهلها - واما يعث شعور حب العلم والافتداء بالعلماء والادباء والرهبان الذين تقوى ائمتهم حتى أن يوجد في المستعمرات من يكون مثلهم أو خيرا منهم - هو قصد اجتماعي صحيح عند علماء التربية وأما تعظيم العبادة فالغرض منه التقرب من المعبود وطلب ثوابه بدوم ضرر أو جلب منفعة من طريق الغيب لا بالكسب والتعاون عليه من طريق الأسباب العامة . فتعظيم الشيء الذي بمتقد أن له سلطة غيبية أو تعظيم ما يذكر به من صورة أو تثال أو قبر أو ثوب أو غير ذلك من آثاره لاجل التقرب اليه وقصد الانتفاع به في الامور التي لا تنال بالاسباب العامة - وهي ما لا يطلب إلا من الله تعالى - لاجل التقرب الى الله تعالى مجاهه - كل ذلك عبادة ظاهرة ، فان قصد المعظم لذلك الشيء أو لما يذكر به الانتفاع به نفسه عما ذكر من التعظيم بالتقرب كالتدبير والاستغاثة أو بالفعل كالطواف بتمشله أو قبره وتقبيله والتعرج بارسه - كانت العبادة خالصة

له من دون الله، وان قصد التقرب به الى الله تعالى ليحمله بحاجه على اعطائه ما يريد كانت العبادة له والله تعالى بالاشتراك. وهذا من مظاهر الشرك الجلي التي لا يخرجها تغيير التسمية عن كونها كفرة أو شركا

( استطراد فقهى )

حظر الشرع الاسلامي نصب التماثيل لانها إما شرك أو ذريعة له أو تشبه بأهله وهي على هذا الترتيب في التدلي فأغلبها أو لها وأخفها ثالثها. وللتشبه درجات في الحظر أشدها ما كان في أمور الدين فانه قد يكون كفراً، وأهونها ما كان في العادات وأمور الدنيا فنجنب منه ما لنا غنى عنه وما كان نافعاً غير ضار بنفسه لاناخذة بقصد التشبه فقط لانه لا يكون الا من تعظيم المتشبه لغير أهل ملته وهو يتضمن أو يستلزم احتقارها أو احتقار هو والشعور بأنهم دونهم. وأما اقتباس العلم والحكمة والفنون والصناعات النافعة لاجل منفعتها بقدرها فليس من التشبه ولا من تفضيل المقتبس منهم على أهل ملته لان هذه الامور ليست من أمور الدين ولا اقتبست لاجل التعظيم بل لفائدتها، وقد تكون هذه الفائدة مما تعز به ملة المقتبس المستفيد وأهلها . ومن ذلك أخذ النبي (ص) عمل الخندق عن الفرس اذ أخبره سلمان (رض) عنهم بذلك وقد يكون هذا الاخذ واجبا شرعا ومنه أخذنا لفنون الحرب وصناعاتها وآلاتها عن الافرنج اذ اتقنوها قبلنا، فهو فرض نهائية بلا نزاع فالامة الحية تقتبس كل شىء نافع يفذي حياتها ويزيدها قوة وعزة، وتنتفي في ذلك كل ما فيه ضعف لها في مقوماتها أو مشخصاتها ولا سيما اذا كان فيه تفضيل لخصومها أو غيرهم عليها، وقد فطن اليابان لهذه القاعدة فحافظوا على شؤنهم الملية والقومية عند اقتباسهم لعلوم الفرنجة وقنونها فصاروا مثلهم في ثلث قرن . وغفل عنه الترك والمصريون فأضاعوا من ملكهم .

وليس في نصب التماثيل فائدة ومنفعة ذات بال لا تحصل بغيرها تبيح للمسلمين تقليد الوثنيين والنصارى فيها ولو في جعلها لغير رجال الدين بعدا عن شبهة عبادتها، ومن ذا الذي يأمن هذا وقد عبدت قبور الاولياء وأئمة آل البيت كما عبد غلاة الشيعة من الباطنية أشخاصا منهم احياء وامواتا، ونرى الشيعة المعتدلين الذين استباحوا نصب التماثيل غير الدينية قد اتخذ بعضهم في هذه الايام تمثالا لامير المؤمنين علي كرم الله وجهه في بلاد إيران كما نقلت صحف الاخبار عنهم. وأما الصور فلها فوائد في الحرب وحفظ الامن وتحقيق معاني اللغة وكثير من العلوم ولا سيما

الطب والتشريح . . . فلا يحظر منها ما ليس عبادة ولا تشبها بعبدة الأصنام  
بدليل ما ثبت في السنة الصحيحة من أمر النبي (ص) هتك القرام (الستار) الذي  
نصبته (عائشه) في حجرتها إذ كان على هيئة الصور والتماثيل المعبودة فلما  
جعلت منه وسادة كان صلى الله عليه وسلم يستعملها وفيها الصور إذ كان الاتكاء  
والنوم عليها امتها نالا تعظيما ولا يشبه التعظيم الوثني وقد حققنا هذا البحث  
ببيان ما ورد فيه من الأحاديث والآثار وأقوال العلماء في فتاوي المنار مراراً  
عود الى تفسير الآية

معنى النظم الكريم : « وجاوزنا بني إسرائيل البحر » أنهم تجاوزوه  
بعنايته سبحانه وتأييده أيام بفتح البحر، وتيسير الأمر، حتى كأنه كان معهم  
بذاته تجاوزه مصاحبهم، أو المعنى أننا أيدناهم ببعض ملائكتنا، فجاوزهم البحر  
بأمرنا، فمن الممهور في اللغة أن ينسب إلى الملوك ورؤساء القواد ما ينفذه  
بعض اتباعهم بأمرهم، وما يقع مجاههم وقوة سلطانهم، ويجوز الجمع بين المعنيين.  
ففرق البحر بهم كان بعناية الله وقدرته. وفي آخر الفصل الثالث عشر من سفر  
الخروج ذكر خبر ارتحال بني إسرائيل وقال « ٢٠ » وكان الرب يسير امامهم  
نهاراً في عمود من غمام ليهدى الطريق وليلا في عمود من نار ليضيء لهم ليسيروا  
نهاراً وليلاً ( ٢١ ) لم يبرح عمود الغمام نهاراً وعمود النار ليلا من أمام الشعب  
ثم جاء في الفصل الرابع عشر منه بعد ذكر إتياع فرعون ومن معه بني إسرائيل  
« ١٩ » فانتقل ملاك الله السائر امام عسكر بني إسرائيل فصار وراءهم وانتقل  
عمود الغمام من امامهم فوقف وراءهم ( ٢٠ ) ودخل بين عسكر المصريين  
وعسكر إسرائيل، فكان من هنا غماماً مظلماً، وكان من هناك ينير الليل،  
فلم يقترب أحد من الفريقين طول الليل «

وهذا بعض ما جاء في التوراة مما يصح أن يكون تفسيراً لقوله تعالى في القرآن  
« وجاوزنا بني إسرائيل البحر » فالباء هنا للمصاحبة كقولك سافرت به ووجئت  
به، واسناد المسير في عمود الغمام إلى الرب مجازي كقوله تعالى (هل ينظرون  
إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) « فأتوا » عقب تجاوزهم إياه  
ودخولهم في بلاد العرب من البر الآسيوي « على قوم يمكنون على أصنام  
لهم » يعبدونها، فإذا كان من شأنهم إذا رأواهم يعبدون غير الله تعالى كالمصريين  
الذين اتقدم الله تعالى منهم، وأراهم آياته على وحدانيته فيهم؟ هل استهجنوا



شركهم وانكاره كما هو الواجب عليهم والمعتول ممن رأى ماراً وامن سوء مصير  
 المشركين ، وحين عاقبة المؤمنون الذين ظلموا انهم لم ينكروه بالسننتهم ولا قلوبهم ، بل  
 « قالوا يا موسى اجعل لهم آلهة لهم آلهة » حينئذ انهم الى ما ألفوا في مصر من عبادة  
 آلهة المصريين وتماثيلها والصابيا وقبورها ، فعلم بهذا الطلب انهم لم يكونوا فهموا  
 التوحيد الذي جاء به موسى كما فهمه من آمن من سحرة المصريين ، لان السحرة  
 كانوا امن العلماء فاسكنهم التميز بين آيات الله تعالى التي لا يقدر عليها غيره وبين  
 السحر الذي هو من صناعات البشر واعوامهم ، واما هؤلاء الاسرائيليون فكانوا من  
 العامة الجاهلين الذين لم يدركوا حقيقة التوحيد بل بالآيات الدالة عليه ولذلك  
 ظن فرعون وتميذه لهم لانهم فهم حقيقة التوحيد بالآيات الدالة عليه ولذلك  
 ظن انهم بمنزلة القوم لا يفهمون ، فالتوحيد المحض الخالص من شوائب الشرك  
 والوثنية هو غاية ما يرتقي اليه عرفان البشر ، وهو المراد من قوله تعالى ( وما خلقت  
 الجن والانس الا ليعبدون ) على القول بأن اللام للغاية ، وهو لا يقتضي  
 حصوله لكل فرد منهم ، ولو عقل جميع بني اسرائيل كنه التوحيد لما وقع من  
 تبرهم بالتكالب وتمردهم على موسى عليه السلام ما قصه الله تعالى علينا في كتابه ،  
 وفي التوراة التي لديهم من الزيادة عليه والتفصيل له ما هو من مواطن العجب ،  
 وقد ابتلاهم الله تعالى ورباهم بالحسنات والسيئات ، وحرم الارض المقدسة  
 عليهم اربعين سنة يتيمون في الارض ، حتى انقرض ذلك الجيل الذي نشأ في حجر  
 الوثنية ، وشب أو اكتمل اوشاخ في ذل العبودية الفرعونية . وقد رأينا نموذجاً  
 لذلك في طوائف من امتنا ولدوا في عهد الظلم ، وشبوا في حجر النفاق والفسق ،  
 فسندحت لاعلمهم بشؤون الاجتماع وال عمران فرص متعددة كان يرجى أن  
 يحرروا فيها أنفسهم من رقها السياسي ويستقلوا بأمهم ، فأضاعوها واحدة بعد  
 اخرى ، وكان هذا من عبر التاريخ التي تثبت أن فلاح الامم باخلاقها وعقائدها ،  
 وأن العلم الناقص شر من الجهل المطلق ، وأن العلم الصحيح في الرجل أو الشعب الفاسد  
 الاخلاق كالسيف في يد المجنون ربما جنى به على صديقه أو على نفسه وربما نصر به عدوه  
 ولم يبين لنا كتاب الله تعالى ولا رسوله ( ص ) شيئاً من امر القوم الذين  
 أتى عليهم بنو اسرائيل عقب خروجهم من مصر الى ارض العرب والظاهر انهم  
 من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر : روي عن قتادة انهم من عرب  
 لخم وعن أبي عمران الجوني لخم وجذام . وعن ابن جرير أن اصنامهم كانت

تخالفون بقر من نحاس ، فثما كان عجز السامري غير مسمومة من تلك البقرة فذلك كان أول شأن العجل لتكون لله عليهم حسنة فيذبحهم معهم بمذالك (قول) ولم يكن ابن جريج يعلم أن قدماء المصريين كانوا يعبدون عجلا اسمه ( أيبس ) وكان بنو اسرائيل يعبدونه معهم كغيره من معبوداتهم ، ورون تماثيله منصوبة في معابدهم ، وان السامري لم يصمم لهم العجل بعد ذلك الا لما كان من الفهم لعبادته ، وتأثر اعصابهم بما ورثوا من مظاهر روعته ، ولذلك قال تعالى فيهم ( واشربوا في قلوبهم العجل يكفرهم ) بل زاد عجز السامري وقد علل اشراجهم اياه في قلوبهم بما كان من كفرهم في ابي الوراثة المتغلغلة في النفس بطول الزمان وتعاقب الاجيال ، فذلك الذي يطول تأثيره في الأعقاب والانسال ؛ ألمزار ما استحدثه بعض المبتدعين في الاسلام وفلدهم فيه بعض الملوك من المنسوبين الى السنة . من شهيد قهورة ، وكثيرها بالمهاجم والستور ، وبناء القباب فوقها ، واتخاذها مساجد يصل اليها اولادهم ، وايقاد السرج والشموع عليها ، انه قد جعل لها مكانة دينية كبيرة في قلوب عامة المسلمين ، حتى صارت عندهم من شعائر الدين ، بحيث يعدون من روى لهم الاحاديث الصحيحة في لعن الله ورسوله لمن يفعل ذلك مبتدعا فيه أو مارقا منه ، ويميزونه في بعض البلاد بقلب « وهابي » اذ كانت طائفة من الحنابلة في بلاد العرب سميت الوهابية قد عمدوا الى ازالة هذه المنكرات بأيديهم ، لما لم يؤثر في ازالها انكار علماء السنة المصلحين لها بالسنتهم وأقلامهم ، عملا بقوله ( ص ) « من رأى منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك اضعف الايمان » يعني الانكار بالقلب وحده ، ولومع المعجز مما فوفه . والحديث رواه احمد ومسلم واصحاب السنن الاربعة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

اذا علمنا هذا الشأن من شؤون الضعف البشري فلا نعجب أن روى عن بعض حديثي العهد من الصحابة بالاسلام ، مثل ما طلب بنو اسرائيل من موسى عليه السلام ، بما كان من تأثير مظاهر الوثنية في قلوبهم : روى احمد والنسائي واكثر مصنفي التفسير المأثور عن أبي واقد الليثي قال خرجنا مع رسول الله (ص) قبل حنين فررنا بسدرة فقلت يا رسول الله اجعل له هذه ذات انواط كما للكفار ذات انواط ، فقال « الله اكبر ، هذا كما قالت بنو اسرائيل لموسى ( اجعل لنا الها كما لهم آلهة ) انكم تكونون سنن من قبلكم » وروى نحوه ابن حاتم وابن مردويه والطبراني

عن كثير بن عبد الله بن عوف عن أبيه عن جده مرفوعاً ذكر أن المكان الذي طلبوا فيه ذلك بين حنين والطائف . والمعبرة في هذا أن المسلمين الآن ذوات انواط في بلاد كثيرة كشجرة « ست المنصورة » وشجرة الحنفي بمصر ، ونحو من ذلك ما اتخذوه من القبور والأشجار والأحجار والآبار يمكنون عليها ، ويطوفون حولها ، ويقبلونها ويتمرغون باعتبارها ، ويتمسحون بها خاضعين ضارعين ، خاشعين داعين ، راجين شفاء الأدواء ، والانتقام من الأعداء ، والغنى والثراء ، وحبل العقيم ، ورد الضالة ، وغير ذلك من النعم وكشف الضر ، خلافاً لنصوص كتاب الله عز وجل . ولكنهم لا يعلمون أنها تسمى في اللغة العربية آلهة وأن جل ما يأتونه عندها يسمى عبادة ، وأنه شرك جلي لا يغفر ، ولا فرق بينه وبين شرك عرب الجاهلية وأمثالهم إلا الاختلاف في التسمية ، فأولئك كانوا يسمون الأشياء باسمائها لأنهم أهل اللغة ، وهؤلاء تحاموا إطلاق لفظ الآله والمعبود والعبادة في هذا المقام ، واستباحوا غيرها من الألفاظ كالآولياء والشفعاء والوسيلة والتوسل وهي مشتركة أيضاً ولكنها استعملت في الاسلام بغير المعاني التي كانت تستعمل بها في الجاهلية ، كأن الله تعبد الناس بإطلاق الألفاظ دون حقائق المعاني . وحقيقة معنى العبادة في اللغة العربية وكذا في غيرها من اللغات يشمل كل قول أو عمل يوجه إلى معظم يرجى نفعه أو يخشى ضرره وحده . وهذا توحيدله - أو يرجى ويخاف بالتأثير عند الله تعالى - وهذا هو الشرك - بشرط أن يكون هذا الرجاء فيه أو الخوف منه لامر غيبي خارج عن الأمور الكسبية والأسباب الدنيوية ، وقد سبق شرح هذا آنفاً وقبله مراراً ، ويظن أهل العلم بكتب الفقه والكلام الذين لم يطلعوا على ملل الوثنيين أنهم يعبدون الأصنام وغيرها من المخلوقات التي يتبركون بها لذاتها وأنهم يعتقدون أنها تضر وتنعم بقدرتها وإرادتها ، والصحيح أنهم يتوسلون بها إلى الخالق كما حكى الله تعالى عن متركي قريش وغيرهم ، وقد سمعت هذا من بعض علمائهم في الهند .

ماذا كان جواب موسى عليه السلام ﴿ قال إنكم قوم تجهلون ﴾ وصفهم بالجهل المطلق غير متعلق بشيء وهو على طريقتنا وطريقة ابن جرير والخصاف يشمل كل ما يصلح له من الجهل الذي هو فقد العلم والجهل الذي هو سفه النفس وطيش العقل ، وأهمه المناسب لمقام جهل التوحيد وما يجب من أفراد الرب

تعالى بالعبادة من غير واسطة ، ولا التقييم بمظهر من مظهر يقو به به معه ، ولا سيما مظهر الاصنام والتماثيل لبعض المخلوقات التي اغتر الجاهلون من قبل بنفعها أو الخوف من ضررها ، فالاول كالنكواب والنيل والعجل (أبيس والثاني كالثعبان - ثم جهل ما كرم الله تعالى به لبشر فجعلهم أهلام فرقه ودعائه ومناجاته كفاحا بغير واسطة يقربهم اليه فانه اقرب اليهم من جبل الوريد ، وهو الاحد الصمد الذي يتوجه اليه ويقصد وحده ولذلك قال اماما الموحدين ، ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والتسليم رأني وجهت وجهي الذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين )

وهذا النوع من الجهل هو الذي قال الله تعالى فيه ( ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ) واسناد الجهل الى القوم ابلغ من اسناده الى ضمير الخطابين لانه حكم على جماعتهم ، بما هو كالمحقق المعروف من حالهم ، الذي هو علة لمقالمهم ، يدخل فيه الذين سألوه ذلك منهم دخولا اوليا

وبعد أن ذكرهم بسوء حالهم من جهلهم وسفاهة انفسهم بين لهم فساد ما طلبوه في نفسه عسى أن تستمد عقولهم لفهمه واستمانة قبحه فقال بأسلوب

الاستئناف المفيد للتعميل والدليل ﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ التبار والتبر الهلاك والتتبير الاهلاك والتدمير يقال تبر الشيء من بابي تعب ونصر وتبره - بالتشديد : اهلكه ودمره . أي ان هؤلاء القوم الذين يكفون على هذه الاصنام مقضي على ما هم فيه بالتبار ، بما سيظهر من التوحيد الحق في هذه الديار ، وباطل ما كانوا يعملون من الاصنام ، وعبادة غير الله ذي الجلال والاکرام ، أي هالك وزائل لا بقاء له ، فانما بقاء الباطل في ترك الحق له أو بعده عنه ، وهذا يتضمن البشارة منه عليه السلام بزوال الوثنية من تلك الارض وكذلك كان

قال البغوي في تفسيره ان طلب بني اسرائيل للآلهة لم يكن عن شك منهم بوحدانية الله تعالى وانما كان غرضهم إلهام يعظمونه ويتقربون بتعظيمه الى الله تعالى وظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة وكان ذلك جهلهم كما آذنت به الآيات

وقال الرازي : اعلم أن من المستحيل أن يقول العاقل لموسى ( اجعل لنا إلهام كما لهم آلهة ) وخالفاً مدبراً ، لان الذي يحصل بجعل موسى وتدييره لا يمكن أن يكون خالقاً للعالم ومدبراً له ، ومن شك في ذلك لم يكن كامل العقل ،

والاقرب انهم طلبوا من موسى أن يعين لهم اصناما وتماثيل يتقربون بعبادتها الى الله تعالى ، وهذا القول هو الذي حكاه الله تعالى عن عبدة الاوثان حيث قالوا (مانعبدكم الايقربونا الى الله زلفى ) اذا عرفت هذا فلنقائل أن يقول: لم كان هذا القول كفرا ؟ فنقول اجم كل الانبياء عليهم السلام على أن عبادة غير الله تعالى كفر سواء اعتقد في ذلك الغير كونه الها للعالم أو اعتقدوا فيه ان عبادته تقربهم الى الله تعالى ... لان العبادة نهاية التعظيم ، ونهاية التعظيم لا تليق الا بمن يصدر عنه نهاية الانعام والاكرام .

ثم قال بعد أن حزم بأن هذا القول صدر عن بعضهم لا كلهم وانه كان فيهم من يترفع عنه مانعه : ثم إنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام انه أجابهم فقال : ( انكم قوم تجهلون ) وتقرر هذا الجهل ما ذكر من أن العبادة هي غاية التعظيم فلا تليق الا بمن يصدر عنه غاية الانعام وهي بخلق الجسم والحياة والشهوة والقدرة والعقل وخلق الاشياء المنتعم بها ، والقادر على هذه الاشياء ليس الا الله تعالى فوجب أن لا تليق العبادة الا به . ( فان قالوا ) اذا كان مرادهم بعبادة تلك الاصنام التقرب بها الى تعظيم الله تعالى فما الوجه في قبح هذه العبادة ؟ ( قلنا ) فعلى هذا الوجه لم يتخذوها آلهة أصلا وانما جعلوها كالتبلة ، وذلك ينافي قولهم ( اجعل لنا الها كما لهم آلهة ) اهـ

أقول من العجب أن يقع امام المنظر في علم العقائد على طريقة الفلسفة والكلام في مثل هذا الخطأ في استلثه واجوبته والتناقض في كلامه ، ومنشأ هذا الخطأ الغفلة عن مدلول الفاظ القرآن في اللغة العربية واستعمالها بلوازم معناها العرفية كلفظ «الاله» فان معناه في اللغة المعبود مطلقا لا خالق ولا المدير لامر العالم كله ولا بعضه ، ولم يكن أحد من العرب الذين سموا اصنامهم وغيرها من معبوداتهم آلهة يعتقد أن آلات أو العزى أو هبل خالق شيئا من العالم أو يدبر امرا من اموره ، وانما تدبير امور العالم يدخل في معنى لفظ الرب ، والشواهد على هذا في القرآن كثيرة نطقه بأنهم كانوا يمتقدون ويقولون ان خالق السموات والارض ومدير امورها هو الله تعالى وإن آلهتهم ليس لها من امر الخلق والتدبير شيء ، وإن شرئهم لأجل التقرب اليه تعالى وابتغاء الشفاعة عنده بعبادة ما عبدوه ، ولذلك كانوا يقولون في طوافهم : لبيك لا شريك لك ،

الاشريكاً هو لك ، تملكه ، ما ملك ، ولذلك يحج نقرآب عليهم في مواضع بأن غير الخالق المدبر لا يصح أن يكون الهاً بعد مطلقاً ، وهو معنى قول بعض المحققين انه محتج بما يمترون به من توحيد الربوبية ، على ما ينكرون من توحيد الالهية ، واذ كنا بيننا هذا مراراً بالشواهد فكنتفي بهذا التذير هنا ثم ان عبارة طلاب الاصنام من بني اسرائيل لم تقدر اليها بنصها في لغتهم فنبحت فيها أخطأ ام صواب وانما حكاه الله تعالى لنا بلغة كتابه فعناها اصحيح قطعاً فان الاله في هذه اللغة هو المعبود بالذات او بالواسطة وان كان مصنوعاً وانما جعلهم موسى يطلب عبادة احد مع الله لا بتسعيه ماطلاً وامنه صنعه إلهاً فانه هو سمي المعبود المصنوع إلهاً ايضاً في قوله للسامري الذي حكاه الله عنه في سورة طه ( وانظر الى الهك التي ظلت عليه عاكفة لتجرقه ) الآية وانما كان عجل السامري من صنعه - وان جميع من عبدوا الاصنام من قبلهم ومن بعدهم كانت اصنامهم مجعولة مصنوعة متخذة من هذه الخبثات كالحجر والخشب والمعدن . أنسي امام النظر وصاحب التفسير الكبير ما حكاه الله تعالى من تسمية قوم ابراهيم لاصنامهم بالآلهة ؟ أم لمسي ما حكاه الله من حجته عليهم بقوله ( قال أتعبدون ما تعبدون ، والله خلقكم وما تعملون ) ومن حاجته إياهم بقوله ( واتل عليهم نبأ ابراهيم ، اذ قال لآبيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد أصناماً فنظّل لها عاقبين ، قال هل نسمعونكم اذ ندعون ؟ أو ينفقونكم أو يشرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون \* ( سورة الشراء ٢٦ : ٦٩ - ٧٠ )

وجملة القول أن هذا القول الذي قاله الرازي من ظهر هنرايه فكثيرة بطلانا وسببه امتلاء دماغه عفا المنعنه بمظريات الكلام وجدل الاصطلاحات الحادثة وغفلته عن معنى الاله في أصل اللغة وعن آيات القرآن المشيرة فيه ، ومنها قوله تعالى ﴿ قال اغير الله ابيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾ أي قال لهم موسى أطلب لكم معبوداً غير الله رب العالمين وخالق السموات والارض وكل شيء والحال انه فضلكم على العالمين بما جدد فيكم من التوحيد وهداية الدين ، على ملة ابراهيم وسنة المرسلين ، ؟ فاذا تبغون من عبادة غيره معه أو من دونه ؟ والاستمهام في الآية للانكار المشرب معنى التمجيد ، وانما هو انكار ابتغاء اله غير الله المستحق وحده للعبادة لانكار تسمية المعبود المصنوع الهاً . وأبني ينصب مفعولين بزمسه كقوله تعالى ( يبنونكم التثنية )

« تفسير القرآن الحكيم » « ١٥ » « الجزء التاسع »

بدأ موسى عليه السلام جوبه لثمة وثبات جهاهم برهم وبأنفسهم، وثني  
ببيان فساد ما طلبوه وتونه عرضة للتبارك وبالاطلاق في نفسه على كل  
حال ، فلا الطالب على علم وعتل فيما طالب ، ولا المطلوب مما يصح أن يطلب ،  
( ضعف الطالب والمطلوب ) فهذا ملخص معنى الآية السابقة

ثم انتقل في هذه الآية الى المطلوب منه جعل الاله لهم - وهو هو  
عليه السلام - والمطلوب لاجله هذا الجعل - وهو الله تعالى - وموسى  
على الحق والله تعالى هو الحق والذي يحق الحق ، وبين هذين الحقيز ودينك  
الباطلين غاية المباينة فذلك كان هذا جوابا مستقلا مباينا لما قبله بحيث لا ينبغي  
أن يعطف عليه علما ، ولا أن يعد معه عدا ، ولهذا أعاد فيه كلمة « قال »  
كما سنبينه . وقد قدم فيه ذكر الاعم الافضل المقصود بالذات من هذين الحقين  
فقال ( أغير الله ) فغير الله أعم الالفاظ الدالة على المحذات فهو يشمل اخس  
المخلوقات واعجزها عن النعم والضر كالاصنام ، ويشمل أفضلها وأكملها كالملائكة  
والنبيين عليهم السلام ، ليثبت أنه لا يوجد مخلوق يستحق العبادة مع الله  
تعالى وان علاقده ، وعظم أمره ، وان محبيلهم بما طلبوا الا لان المطلوب  
كالاصنام خسيس وباطل في نفسه ، وعرضة للتبارك فلا فائدة فيه لغيره ،  
- لا لهذا فقط - بل لان العبادة لا يصح أن تكون لغير الله تعالى البتة ،  
مهما يكن غيره مكرما عنده ، ومفضلا على كثير من خلقه ، على أن  
طلب عبادة الاخس ، دليل على منتهى الخسة والجهل ، اذ لا شبهة توهم قدرته  
على الاثابة أو التقريب من الله عز وجل ، كشبهة من عبدوا الملائكة وبعض  
النبيين والصالحين ، زاعمين أنهم بكرامتهم عند الله يقربون اليه من قصره إيمانه  
وعمله ان يتقرب اليه بنفسه ، مع إصراره على خبثه ورجسه ، جاهلين ان الله  
تعالى امر المشركين والفاسقين ، ان يتوبوا اي يرجعوا اليه لا الى غيره من  
عباده المكرمين ، وان يدعو وحده كدعائهم مخاصين له الدين ، وان يخصوه  
مثلهم بالعبادة والاستمارة وذلك ما قرضه علينا في صلاتنا بقوله ( إياك  
نعبد وإياك نستعين )

وبعد ان قدم المقصود بالذات من الانكار وهو جعل غير الله الها ذار من  
أرادوا ان يكون الواسطة في هذا الجعل ، الذي دعا اليه ذلك الجهل ، وهو  
نفسه عليه السلام بقوله ( أبغيتكم إلهاً ) ليعلمهم أن طلب هذا الامر الإسر

والشيء الابد والمنكر العظيم منه عليه السلام بقية، وبمعنى رسالته،  
وبما رأوه من جهاده لفرعون وقومه، من غير حول ولا قوة له في شخص  
اخيه ولا في شخصه، بل بالتمكّل على حول اللدوقوته، ولولا ارادة انكار  
الامر بن معا: طلب آله مع ان، وكونه بجواه عليه السلام - اقال: اغبر  
الله تبغون الها . كقولهم تعالى (أفغيردين الله يبغون )

ثم ايد هذا الانكار بما يعرفون من آيات الله تعالى فيهم، وهو تفضيلهم  
على اهل زمانهم، فقد كان ارقى الناس في ذلك العصر فرعون وقومه بما اوتوا من  
العلم والفرة والحضارة وسمة الملك ومن السيادة على بعض الشعوب، وقد فضل الله بني  
اسرائيل عليهم، برسالة موسى وهارون منهم، وتجديد ملة ابراهيم فيهم، وابتنائها  
من الآيات ما تقدم بيانه وأثره في السياق الذي قبل هذا، وقيل ان المراد تفضيلهم  
على العالمين مطلقا بآثار الانبياء والمرسلين منهم، والاول اظهر، لانه عليه السلام  
احتج عليهم بما عرفوا في بعد ان يرد به تفضيلهم على القرون الاولى واقوام رسلمهم  
وعلى من سباني بعدهم، وحال كل منهما مجهول عنده وعندهم، فقد سأل فرعون  
موسى عن القرون الاولى فقال (علم اعند ربي) والقرون الآخرة بذلك أولى .  
وانت اذا قلت لغني أو عالم انك اغني أو أعلم الناس، أو الملك: انك أقوى الملوك، أو في  
شعب انه ارقى الشعوب - فان أحدا لا يفهم من مثل هذا تفضيل من ذكر على غير  
أهل زمانهم، ولا سباني يأتي بعدهم، وأعمل الحضارة في زماننا يمتقدون أن  
الاجيال الآتية سيكونون خيراً من هذا الجيل، وكان موسى يعلم أن هداية  
الدين، سترتني الى أن تكمل برسالة خاتم النبيين، ولكنه اوتي هذا العلم بما اوحاه الله  
اليه في التوراة ولم يكن نزل منها شيء عند طلب بني اسرائيل منه ما ذكر

والدليل على أن المراد بتفضيلهم على العالمين ما ذكرنا انه عطف عليه أعظم

مظاهره الحديثة العهد بقوله ﴿ راذ أنجيناكم من آل فرعون يسوءونكم سوء  
العذاب يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾  
قرأ ابن غامر ( واذ نجاكم ) على أنه من مقول موسى عليه السلام قطعاً والباقون  
( أنجيناكم ) وذروا فيه احتمالين ( احدهما ) وهو الاظهر والمتبادر أن يكون  
مسنداً الى الله تعالى منها الكلام موسى ومبيناً المراد منه على طريقة الالتفات  
عن الحكاية منه . ولهذا الالتفات لغايات في التنازل وفي كلام بلغاء العرب، ومنه  
قوله تعالى في قصة موسى من سورة طه الذي جعل لكم الارض مهدياً وسلك



لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى الخ فأول الآية من قول موسى في جواب فرعون وقوله «فاخرجنا» التفتت عن الحكاية وانتقال إلى كلامه تعالى عن نفسه، مخاطباً به من أنزل إليهم هذا الوحي من خلقه، تنبيهاً لهم بتلويح الكلام، وبما في مخاطبة الرب لهم كمنافحة من التأنيب الخاص إلى كونه هو المسدي لهذا الأعمام. واقتصر بعض المفسرين على أن المخاطب بهذه القراءة من كان من بني إسرائيل في زمن النبي ص وأفادت قراءة ابن عامر أن موسى قالها لقومه في ذلك الوقت، وأفادت قراءة الآخرين أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) ذكرها قوم موسى في زمنه كما تقدم في سورة البقرة وهذه فائدة ألجم بين القراءتين وهي من اعجاز إيجاز القرآن

الثاني) أن قراءة الالتفات من جملة الحكاية عن موسى (ع. م) اسند الأبحاث فيها إلى الله تعالى مع حذف القول لتعلم به من القرينة أو بدونها أو إلى نفسه وحده أو مع أخيه للإشارة إلى جملة تعالى هذا الأبحاث بسبب رسالتهم وتأنيده تعالى لهما بتلك الآيات

والمعنى واذا زروا إذا نجحتم الله تعالى بفضله - أو إذا نجحناكم برسالة تعالى إيانا لأجل ذلك وعا أيدنا به من الآيات - من آل فرعون حال نوبهم يسومونكم سوء العذاب يجعلكم عبيداً مسخرين لخدمتهم كالبهائم فلا يعدونكم منهم، وخص بالذكر من هذا العذاب شر أنواعه بقوله: يقتلون ما يولد لكم من الذكور - ويستبقون نساءكم بترك الأناث لكم لتزادوا ضعفاً بكثيرهن - وهذا يدل على بعض من كل. وفي ذلك العذاب والنجاة منه بفضل الرب الواحد عليهم وتمضي له أياكم على أولئك العالمين في الأرض وعلى غيرهم سكان البلاد المقدسة التي ستزونها ببلاء عظيم أي اختبار لكم من ربكم المنهرد بتريبنتكم، وتدبير أموركم ليس وراءه بلاء واختبار، فإن أجدر الناس بالاعتبار والاستفادة من أحداث الزمان، من يعطي النعمة بعد النعمة، وأحق الناس بمعرفة وحدانية الله تعالى وإخلاص العبادة له من يرى من آياته في نفسه وفي الآفاق ما يوقن به أنه لا يمكن أن يكون لغيره شركة فيه أي فكيف تطلبون بعد هذا كله ممن رأيت هذه الآيات على يده وليس لها فيها أقل تأثير أن يجعل لكم إلهاً من أخس المخلوقات يجعلونه واسطة بينكم وبين الله تعالى وهو قد فضلكم عليها وعلى عابديها ومن هم أرقى منهم ؟

وقد ظهر الشهاب الحسيني أن نون تفضيلهم على ما لم يكن إلا بدعوة

التوحيد المؤيدة بتلك الآيات ، فزعم أن الاحتجاج به خطابي ، لا برهاني ، واعتذر عن عدم احتجاج مومى ببرهان التمام بأنهم من الموماء ، وهو لا ينكر أن تلك المعجزات من البراهين القطعية ، وأن اختلاف المتكلمون في دلالتها هل هي عقلية أو وضعية ، . . . وغفل أيضا عن كون برهان التمام إنما يحتج به على المشركين في الربوبية دون العبادة فقط . وقد تعقبه في هذا الالوسى فقال : وفي إقامة برهان التمام على الوثنية القائلين ( ما لعبدهم الا ليقربونا لى الله زلفى ) والمجيبين اذا سئلوا : من خلق السموات والارض؟ بخلقهم الله خفاء ، والظاهر اقامته على الثنوية كما لا يخفى اه ووجهه أن الثنوية يقولون بوجود ربين الهين اشتركا في خالق العالم وتديير أمره أحدهما رب النور والخير ، والثاني رب الظلمة والشر ، ويحتج عليهم بأنه لو كان في العالم خالقان مديران أو أكثر لامتنع ان يوجد فيه نظام يصلح به امره اذا فرض جواز وجوده ، لان تعدد المديرين لامر الشيء كتعدد الخالقين يقتضى تعدد العلم والارادة والقدرة التي يكون بها التديير ، والخلق والتقدير ، وتعددتها يقتضى التغير والاختلاف فيها والا فلا تعدد ، وهذا الاختلاف يقتضى التعارض في منعلقاتها بأن يتعلق بعضها بغير ما يتعلق به الآخر من ضد ونقيض ، وأي فساد في النظام وموجب للاختلال أشد من هذا ، وانما قلنا اذا جاز وجوده لان الاشارة الى البرهان في قوله تعالى ( لو كان فيهما آلهة الا الله لغسدتا ) قد نبى على أن السموات والارض موجودتان والنظام فيهما مشاهد بالابصار والبصائر ، وكما يمتنع استقامة النظام وصالح التديير الصادر عن علوم وارادات رقدر مختلفة متعارضة ، كذلك يمتنع صدور الكون نفسه عنها بالاولى

وفي الآية التي قبل الاخيرة من نكت البلاغة انه أعيد لفظ « قال » في أولها لما أشرنا اليه من ان هذا جواب مسنقل لا يشترك مع ما قبله فيعطف عليه ، ولا هو معه من قبيل سرد الصفات أو الاعداد التي يطلب فيها الفصل ، اي كقوله تعالى ( التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون ) الخ وفولهم : الاول كذا - الثاني هذا الخ فلم يبق الا اعادة « قال » لامتناع الفصل والوصل كليهما بدونها ، وأن تكون « قال » مفصولة لامعطوفة لا فائدة هنا الاستقلال في الجواب ، اذ لافرق بين عطف القول وعطف الجملة الاستفهامية بدونه في ان كلا منهما يقتضى الاشتراك بين المعطوف والمعطوف عليه كما

حققه عبد القاهر في دلائل الأعجاز

ولما كان كل من له ذوق في أساليب هذه اللغة يشعر بان البدء بهذا الاستفهام هنا بدون «قال» غير مستمدب ولا مستساغ وان لم يعرف سبب هذا ونكته - بحث طلاب نكت البلاغة في التفسير عن نكته هذه الاعداد فامح بعضهم ما قرراه ولم يتبينه واضحا ليبيته: قال الالوسي: قيل هذا هو الجواب وما قبله تمهيد له ولعله لذلك اعيد لفظ قال اه فنقل هذه النكته بصيغة التريض «قيل» اذ كانت اخفى عنده منها عند صاحبها الذي قال: ولعله... فلم يحزم - ثم نقل عن أبي السمود قوله في هذا الجواب: هو شروع في بيان شؤون الله تعالى الموجبة لتخصيص العبادة به سبحانه بعد بيان أن ما طلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه اسلا، لكونه هالكا باطلا اصلا، ولذلك وسط بينهما «قال» مع كون كل منهما كلام موسى عليه السلام اه: ثم نقل تعليلا آخر للشهاب وهو: اعيد لفظ قال مع اتحاد ما بين الفائلين (١) لان هذا دليل خطابي بتفضليهم على العالمين ولم يستدل بالتمام العقلي لانهم عوام انتهى وأقول إن العنارة الاولى أصح وأسلم من هذين القولين المعترضين على أنهما مبنيان على لمح مالمح صاحبها اذ لو سلم للاول أن الآية في بيان شؤون الله الح وللثاني أنها دليل خطابي لا رهاني ما كان هذا ولا ذاك مقتضيا لاعادة فعل القول لذاته وانما العبرة بموقفه وامتناع كل من فصله بدون القول ووصله بالمعطف على ما قبله كما علم مما بيده والحمد لله الصواب، وقد بينا بطلان قول الشهاب آنفا، وضمف قول أبي السمود لا يحتاج الى بيان.

(١٤١) وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِمَشْرِقِمْ مِيقَاتُ رَبِّهِ

أَرْبَعِينَ لَيْلَةً. وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى بِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ. قَالَ إِنَّ تَرْنِي وَلَئِنِ أَنْظُرَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرْنِي. فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا. فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ رَأَى أَوَّلُ

الاعراف . س وحي الشريعة وواعده الرب وميقانه لموسى ١١٩

الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ مُوسَى إِنِّي أُعْطِيْتِكَ عَلَى النَّاسِ بَرَسَلَتِي  
وَيَكَلِّمِي فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي  
الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ  
وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ

هذه الآيات نزلت في بيان بدء وحي الشريعة لموسى عليه السلام وقد  
بدء الوحي المطلق اليه في جانب الطور الايمن من سيناء منصرفه من مدين الى  
مصر ، وانما المذكور هنا بدء وحي كتاب التوراة بعد أن أنجى الله قومه بني  
امرائيل من العبودية وجعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يشرعه  
الله لها من العبادات وأحكام المعاملات ، والامة المستعبدة للاجنبي لا تقدر  
على ذلك ، ألم تر أن جميع أحكام الممالك الدنيوية من شريعتنا المطهرة واكثر  
أحكام العبادات لم تشرع الا بعد الهجرة ؟ وأن الصلاة التي هي عبادة بدنية  
لما شرعت في مكة كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي هو ومن آمن به  
في البيوت سرّاً اتقاء أذى المشركين الذين كانوا يمنعونهم من الصلاة في المسجد  
الحرام وقد صلى فيه النبي (ص) مرة فجاء المشركون بسلا جزور - أي كرش  
بغير نقرته - فوضعه عليه وهو ساجد فلم يستطع رفع رأسه حتى جاءت  
ابنته السيدة فاطمة عليها السلام فألقته عن ظهره ، وهم ابوجهل مرة ان يجلس  
عليه وهو ساجد فكفه الله عنه ؟

قال تعالى ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه  
أربعين ليلة ﴾ هذا السياق معطوف على السياق الذي قبله المبدوء بقوله تعالى  
(وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) الآيات . قرأ ابو عمرو ويعقوب ( واعدنا )  
من الوعد والباقون ( واعدنا ) من المواعدة فقيل إنها هنا بمعنى الوعد وقيل  
إن فيها معنى صيغة المتعاطل باعتبار أن الله تعالى ضرب لموسى عليه السلام  
موعداً لمكلمته وإعطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة فقبل ذلك ثم صعد  
جبل سيناء في أول الموعد وهبط في آخره ، وفرق بين الاتساق على الشيء  
بين اثنين أو أكثر كالتلاني في مكان معين أو زمان معين وبين الوعد به من واحد

لاَ آخِرَ لاَ يَطْلُبُ مِنْهُ شَيْءٌ لِأَجْلِ الْوَفَاءِ كَقَوْلِكَ لاَ آخِرَ سَأَدْعُو اللهَ لَكَ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ مِثْلًا - فهذا وعد محض وذلك يحتمل الأمرين باعتبارين كعبارة الآية . والميقات أخص من الوقت فهو الوقت الذي قرر فيه عمل من الأعمال كواقيت الحج . وفي سورة البقرة ( واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ) وهو إجمال لما فصل هنا من قبل لأن الاعراف مكية والبقرة مدنية فهي متأخرة عنها في النزول والمراد بالليلة ما يشمل الليل والنهار في عرف العرب عند الاطلاق

روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في تفسير الآية أن موسى قال لقومه : ان ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه وأخلف هارون فيكم ، فلما وصل موسى الى ربه زاده الله عشرة فكانت فتنتهم في العشر التي زاده الله - وذكر قصة عجل السامري - وروى الثاني عن أبي العالية في قوله ( وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ) يعني ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة فكث على الطور أربعين ليلة وأنزل عليه التوراة في الألواح فقربه الرب نجيا وكلمه وسمم صريف القلم ، وبلغنا أنه لم يحدث في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور ، وفي معنى هذا روايات أخرى صريحة في أن هذا الزمن ضرب لمناجاة موسى ربه في الجبل مقطوعا فيه عن بني اسرائيل ، وهو الحق الموافق لما ورد في هذه السورة وغيرها من قصة السامري وعبادة العجل في غيبة موسى ومنه قولهم هارون ( ان نبرح عليه عا كفيين حتى يرحم الينا موسى ) وأخرج الديلمي عن ابن عباس رفته « لما أتى موسى ربه وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين يوما وقد صام ليلهن ونهـ ارهن فكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم فتناول من نبات الارض فمضغه فقال له ربه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بما كان قال : أي رب ، كرهت أن أكلمك الا وفي طيب الريح ، قال : أو ما علمت يا موسى ان فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك ؟ اذهب فسم عشرة أيام ثم اتني . ففعل موسى الذي أمره ربه » وهذا الحديث ضعيف السند ومتمنه معارض بما أشرنا اليه من آيات قصة السامري ومن الروايات التي بمعناها . ويستدل الصوفية بهذه الرواية على أيام خلوتهم التي يصومون ايامها

« ١٥ » استحسن علماء الرسم ان يكتب هارون بدون ألف واستحسننا نحن وكثير من الكتاب كتابته بالألف على الاصل كالحارث لأن أكثر الناس لا يعلمون الرسم او لا يلقنون مثل هذا الاصطلاح فيخطئون فيها •

الأربعون لا يقطرون إلا على حبات من الزبيب المذكور في الأحاديث الصحيحة من النهي عن التوصل في الصيام ، والأولى أن يستأنس بالروايات الصحيحة للتفرغ لذرائع ومناجاته بالصلاة أربعين يوماً وليلة فيجعل مقصداً لا وسيلة وهذا ما ورد في توراة الحاضرة في المسألة من سفر الخروج ( ١٢ : ٢٤ ) وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيكم لوحى الحجارة والشريعة ولوصية التي كتبتها لتعليمهم ١٣ فقام موسى ويشوع خادمه وصعد موسى إلى جبل الله ١٤ وأما الشيوخ فقال لهم : اجلسوا ههنا ، وهوذا هارون وجور معكم ، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما ١٥ فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل ١٦ وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام وفي اليوم السابع دعي موسى من وسط السحاب ١٧ وكان منظر مجد الرب كمنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني إسرائيل ؛ ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل ، وكان موسى في الجبل أربعين يوماً وأربعين ليلة . اه وفي الفصل الرابع والثلاثين منه ما نصه أيضاً ( ٣٤ : ٢٧ ) وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات قطعت عهداً معك ومع إسرائيل ٢٨ وكان هناك عند الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء ، فكتب على اللوحين كلمات العهد (الكلمات العشر) اه

وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصالح ولا تقبم سبيل المفسدين يعني أن موسى لما أراد الذهاب لملاقات ربه استخلف عليهم أخاه الكبير هارون عليهما السانم للحكم بينهم والأصالح فيهم ، إذ كانت الرياسة فيهم لموسى وكان هارون وزيره ونصيره ومساعدته كما سأل ربه بقوله ( واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ، أشد به ازري ، وأشركني في أمري ) وأوصاه بالأصالح فيهم وفيما بينهم ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين في الأرض . والافساد أنواع بعضها جلي وبعضها خفي ومن كل منهما وسيلة ومقصد ، فمنها الحرام البين ومنها الذرائع المشتبهات التي يختلف فيها الاجتهاد ، وبأخذ النبي فيها بالاحتياط ، واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم في أعمالهم ، ومساعدتهم عليها ، ومعاشرتهم والإقامة معهم في حال اقترافها ، ولو بعد المعجز عن أرجاعهم عنها ، ومن ذلك ما يجوز وقوعه من الأنبياء عليهم السلام فيصح « تفسير القرآن الحكيم » « ١٦ » « الجزء التاسع »

نهيهم عنه تحذيرا من وقوعهم فيه بضرب من الاجتهاد كالذي وقع الاختلاف فيه بين موسى وهارون عليهما السلام في قصة عجل السامري الذي حكاها تعالى عنه في سورة طه بقوله ( قال يا هارون : ما منعك اذ رأيتهم ضلوا الا تتبعهم ؟ أف عصيت أمري ؟ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ، إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولي ) فالرسالة كانت لموسى بالاصالة ولهارون بالتبعية ليكون وزيراً لا رئيساً ، وموسى هو الذي أعطى الشريعة ( التوراة ) وكان هارون مساعدا له على تنفيذها في بني اسرائيل كما كان مساعدا له على تبليغ فرعون الدعوة واتقاد بني اسرائيل .

وقد روى الشيخان وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص ( رض ) ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي كرم الله وجهه « أما ترى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » وذلك أنه استخلفه على المدينة في غزوة تبوك قبل خروجه فقال يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان ؟ فقال . وفي رواية لاحد أن عليا ( رض ) قال : رضيت رضيت . وإنما قال في النساء والصبيان لأنه لم يتخلف عن الخروج مع النبي ( ص ) الى تبوك غير النساء والصبيان ، من في حكمهم من ضعيف ومريض لا من استأذن من المنافقين

قال القاضي عياض في شرحه لمسلم : هذا الحديث مما تعلق به الروافض والامامية وسائر فرق الشيعة في ان الخلافة كانت حقا لعلي وأنه اوصى له بها . قال ثم اختلف هؤلاء فكفرت الروافض سائر الصحابة في تقديمهم غيره وزاد بعضهم فكفر عليا لأنه لم يقم بطلب حقه . وهؤلاء اسخف مذهباً وافسد عقلا من ان يرد عليهم الخ ما قال وقد ذرت هذا من قوله لا ذكر القاريء بأن هذين الفريقين لم يقولوا ما قالوا عن اعتقاد بل كانوا من جمعيات الجوس والسبأين الذين ينفون الفتنة لا بطلان الاسلام وازالة ملك العرب بالشقاق الديني . وإما الاستخلاف فقد كان النبي ( ص ) يستخاف على المدينة بعض الصحابة كلما خرج الى غزوة ولم يكن يختار افضلهم لذلك ، وفي الحديث من المنقبة لعلي ما هو فوق استخلافه وهو جملة اخا للنبي ( ص ) ولا يتضمن ذلك استخلافه بعده ( ص ) لان هارون مات قبل موسى عليهما السلام قطما

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب أرني أنظر اليك ﴾ أي ولما جاء موسى للميقات الذي وقتناه له للكلام وإعطاء الشريعة وكلمه ربه

الاعراف. ص ٧ عدم اطفاء هذا الخلق رؤبة الرب ومنع موسى فيها ١٢٣

عز وجل من وراء حجاب بغير واسطة الملك (١) استشرفت نفسه الزكية العالية للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية فقال : رب أرني ذاتك المقدسة بأن تجعل لي من القوة على حمل مجليك ما أقدر به على النظر اليك ورؤيتك وكمال المعرفة بك بالقدر الممكن أي دون ما هو فوق امكان المخلوقين من الادراك والاحاطة المنفى بقوله تعالى ( لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير ) فراجع تفسير هذه الآية من سورة الانعام ( ص ٦٥١ — ٦٥٢ م ٧ تفسير )

﴿ قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ﴾ أي إنك لا تراني الآن ، ولا فيما تستقبل من الزمان ، ثم استدرك تبارك وتعالى على ذلك بما يدل على تأميل النبي ، وتخفيف عن موسى شدة وطأة الرد ، باعلامه ما لم يكن يعلم من سنته ، وهو انه لا يقوى شيء في هذا الكون على رؤيته كما قال (ص) في حديث ابي موسى عند مسلم «حجابه النور لو كشفه لا حرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » فقال : ولكن انظر الى الجبل فاني سأنجلي له فان ثبت لدى التجلي وبقي مستقراً في مكانه فسوف تراني ، لمشاركتك له في مادة هذا العالم الغائي ، واذا كان الجبل في قوته ورسوخه لا يثبت ولا يستقر لهذا التجلي لعدم استعداد مادته لقوة تجلي خالقه وخالق كل شيء فاعلم أنك لن تراني ايضاً وانت مشارك له في كونك مخلوقاً من هذه المادة وخاضعاً للسنن الربانية في قوتها وضعف استعدادها ( وخلق الانسان ضعيفاً ) وقبولها للفناء

روى عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال : لما سمع الكلام طعم في الرؤية وروى أبو الشيخ عن ابن عباس قال حين قال موسى لربه تبارك وتعالى ( أرني أنظر اليك قال ) له يا موسى انك ( لن تراني ) قال يقول ليس تراني لا يكون ذلك أبداً ، يا موسى انه لن يراني أحد فيحيا ، قال موسى رب أن أراك ثم أموت أحب الي من ان لا أراك ثم احيا . فقال الله يا موسى ( انظر الى الجبل ) العظيم الطويل الشديد ( فان استقر مكانه ) يقول فان ثبت مكانه لم يتضعف ولم ينهد لبعض ما يرى من عظمي ( فسوف تراني ) انت لضعفك وذلتك ، وان الجبل تضعف وانهد بقوته وشدة وعظمه فأنت اضعف واذل اه

﴿ فلما نجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخرّ موسى صعقاً ﴾ يقال جلا الشيء

(١) راجع تفسير ( منهم من كلم الله ) في أول الجزء الثالث دن تفسيرنا وتفسير « وكلم الله موسى تكليماً » في ص ٦٧١ ج ٦ منه



والامر وانجلي وتجلي بنفسه او بفسده وجاهه فتجلي — اذا انكشف وظهور  
ووضح بعد خفاء في نفسه ذاتي أو اضاف أو خفاء على محله وطايبه ، وكون  
ذلك التجلي والظهور بالذات وبغير الذات من صفة أو فعل يزول به اللبس  
والخفاء ، وفي صيغة التجلي ما ليس في صيغة الجلاء والانهجاء من معنى  
التدريج والكثرة النوعية او الشخصية قال تعالى ( والليل اذا يغشى ، والنهار  
اذا تجلى ) فالليل يغشى النهار ويستتره ثم يتجلى النهار ويظهر بالتدريج وفي  
الاحاديث ان للرب تعالى تجليات مختلفة كما سيأتي .

والدك الدق او ضرب منه . قال في الاساس : دككته دقته ، ودك  
الركية كبسها ، وجل أدك وناقة دكاء : لا سنام لها ، وانك السنام : افترش  
على الظهر ونزلنا بدكداك : رمل متلبد بالارض اه واقول ان الفرق بين  
الدق والدك كما يؤخذ من الاستعمال العام الموروث عن العرب ان الدق ما  
يخبط به الشيء ليتفتت ويكون اجزاء دقيقة ومنه الدقيق . وكان القمح في  
عصور البداوة الاولى يدق بالحجارة فيكون دقيقا ثم اعتدوا الى الارحية  
التي تسحقه وتطحنه . واما الدك فهو الهدم والخبط الذي يكون به الشيء  
المدكوك ملبد أو مستويا ، يقال ارض مدكوك وطريق مدكوك ، ودك الحفرة  
والركية ( اي البئر غير المطوية ) دفنها وطمها ، ولا تزال سلائل العرب تستعمل  
هذه المادة بهذا المعنى ويسمون ما يوضع في الحفرة او الركبة من الحصى والحصباء  
لاجل تسويتها « الدكة » . قرا حمزة والكسائي ( جله دكاء ) بالمد والتشديد  
غير منون اي ارضا مستوية كالناقة التي لا سنام لها والجمهور ( جعله دكا )  
بالمصدر اي مدكوكا دكا . ومثله في السد من سورة الكهف

والخروور والخر السقوط من علو والانلاب على الارض ، ومنه ( يخرون  
الاذقان سجدا ) والضمق بكسر العين صفة من الضمق وهو ما يركه زمن تأثر  
زول الصاعقة من موت أو إغماء ثم توسد فيه باطلاقه على ما يشبه ذلك . قال  
الفيومي في المصباح : ضمع صمعا من باب تعب : مات ، ضمع غشي عليه  
لصوت سمعه ، والضمقة الاولى النفخة ، والصاعقة النازلة من الرعد ، والجمع  
صواعق ، ولا تصيب شيئا الا دكته وأحرقته اه

وأحسن ماورد في التفسير المأثور لهذه الآية مطابقتين للغة ما رواه ابن جرير  
وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الرؤية عن ابن عباس ( فلما تجلى ربه للجبل )

قال : لما تجلى منه لا قدر انحصر (جمله دكا) قال ترابا ( وخر موسى صعقا )  
قال مفسراً عليه أنه ومدرو هـ بن المنذر عن عكرمة أنه - أي الجبل - كان حجرا  
أصم فلما تجلى له صار قلا ترابا دكا من الدكاوات - أي مستويا بالارض . ولولا ذلك  
لجاز أن يقال إن صيرورته ترابا وان كان بمعنى الدكاء والمدكوك لا ينافي  
استقرار الجبل مكانه وقد ورد في بعض الآثار والاحاديث المرفوعة أيضا أنه  
ساخ أي غاص في الارض ، وهو يتفق مع المعنى الاول ؛ أي أنه رج بالتجلى  
رجا ، يست بما حجارتها بساء وساخ في الارض كله أو بعضه في اثناء ذلك حتى  
صار كما قال بعضهم ريرة دكاء كالرمل المتلبد .

والمنى ولما تجلى له للجبل اقل التجلى وادناه انهد وهبط من شدته وعظمته  
وصار كالارض المدكوكية او النفاقة الدكاء - وسقط موسى على وجهه مغشيا عليه  
كن اخذته الصاعقة والتجلى انما كان للجبل دونه فكيف لو كان له ؟

وقد روي في تفسير هذه الآيات من الاخبار والآثار الواهية والموضوعة  
غرائب وعجائب اكثرها من الاسرائيليات . أمثل المرفوع منها ما روي من طريق  
حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك ( رض ) قال : قرأ رسول الله صلى  
الله عليه وسلم ( قلما تجلى ربه للجبل جملة دكا ) قال : ووضع الابهام قريبا من  
طرف خنصره « فساخ الجبل » وفي لفظ زيادة ( وخر موسى صعقا ) فقال  
حميد الطويل لثابت : ما تريد الى هذا ؟ فضرب صدره أي صدر حميد وقال  
من أنت يا حميد ؟ وما أنت يا حميد ؟ بحدثنى أنس بن مالك عن رسول الله ص  
وتقول أنت ما تريد الى هذا ؟ رواه أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه  
وأبناء جرير والمنذري وأبي حاتم وعدي في الكامل وأبو الشيخ والحاكم  
وصححه وابن مردويه والبيهقي في الروية وقد انفرد به عند مصححيه حماد  
ابن سلمة وهو من رجال مسلم الا أنه قد تغير حفظه في آخر عمره كما هو معلوم  
وله طريقان آخران عند داود بن المحبر وابن مردويه لا يصحان كما قال  
الحافظ ابن كثير . والمراد من التثنية بالابهام والخنصر ان ذلك اقل التجلي  
وأدناه ، وسيأتي من الصحيح ما يؤيد معناه

ومن أنكر هذه الروايات وأوهاها ما روي عن أنس مرفوعا « لما تجلى  
الله للجهنم طارت لمضمتها ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة ... »  
وذكر أسماء قال الحافظ ابن كثير وهذا حديث غريب بل منكر . أقول ولا يدخل

من ألقاظ الآيات ولا معناها في شيء

﴿ فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ أي ( فلما أفاق ) موسى من غشيه والتعبير بالافتاقة يدل على صحة تفسير ابن عباس والجمهور للصعق بالغشي وإطلاق تفسير فتادة له بالموت وقال به بعض شذاذ الصوفية وادعوا انه رأى ربه فمات ، أو مات ثم رأى ربه ، ولو مات لقال تعالى « فلما بعث » الخ كما قال في السبعين الذين اختارهم من قومه وذهبوا معه الى الجبل وطلبوا منه ان يرهم الله جهرة فأخذتهم الصاعقة فانه قال « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » كما في سورة البقرة ، وسيأتي خبرهم في هذه القصة من هذه السورة - ( قال سبحانك ) أي تنزيهك وتقديساً عملاً لا ينبغي في شأنك مما سالتك او من لوازمه - أو كما حكى تعالى عن نوح عليه السلام « أن أسألك ما ليس لي به علم » واكثر مفسري أهل السنة يجعلون وجه التنزيه والتوبة انه سأل الرؤية بغير إذن من الله تعالى وفي العلم انما يصح عندهم بمعنى ان مسأله غير ممكن أو غير واقف في هذه الحياة الدنيا ، لانه غير ممكن في نفسه وغير واقف البتة ولا في الآخرة . ومعنى التوبة الرجوع والمراد هنا الرجوع عما طلب ، الى الوقوف مع الرب تعالى عند منتهى حدود الادب . قال مجاهد ( تبت إليك ) أن أسألك الرؤية ( وأنا أول المؤمنين ) قال ابن عباس ومجاهد : أي من بني اسرائيل ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس : وأنا أول المؤمنين انه لا يراك احد ، ذكرها الحافظ ابن كثير وقال : وكذا قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول انا اول من آمن بك انه لا يراك احد من خلقك الى يوم القيامة . قال : وهذا قول حسن له انجاء . وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره ههنا أثراً طويلاً فيه غرائب وعجائب عن محمد بن اسحق بن يسار وكأه تلقاه من الاسرائيليات والله اعلم اه خلاصة معنى الآية ان موسى عليه السلام لما نال فضيلة تكليم الله تعالى له بدون واسطة فسمع ما لم يكن يسمع قبل ذلك وهو من الغيب الذي لا شبه له ولا نظير في هذا العالم طلب من الرب تبارك وتعالى ان يمنحه شرف رؤيته وهو يعلم حتماً انه تعالى ليس كمثل شيء في ذاته ولا في صفاته التي منها كلامه عز وجل فكما انه سمع كلاماً ليس كمثل كلام بتخصيص رباني - استشرف لرؤية ذات ليس كمثلها شيء من الدوات ، كما فهم من ترتيب السؤال على التكليم ، فلم يكن عقل موسى - وهو في الدروة العليا من العقول البشرية بدليل العقل

والنقل — ما لعله من هذا الطلب ، ولم يكن دينه وعلمه بالله تعالى وهما في الدروة العليا ايضاً ما نعين له منه . ولكن الله تعالى قال له ( لن تراني ) ولكي يخفف عليه ألم الرد وهو كليه الذي قال له في اول المهد بالوحي اليه ( واصطنعتك لنفسي ) اراه بعينيه ومجموع ادراكه من تجليه للجبل بما لا يعلمه سواه ان الملائم من جهته هو لا من جانب الجود الرباني ، فزده الله وسبحه وتاب اليه من هذا الطلب ، فبشره الله تعالى بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه اي دوز رؤيته ، وامره بأن يأخذ ما اعطاه ، ويكون من الشاكرين له ،

﴿ قال يا موسى اي اصطفيتك على الناس رسالاتي وبكلامي ﴾ الاصطفاء اختيار صفوة شئء وصفوه اي خالصه الذي لا شائبة فيه، ومنه الصني من الغنيمه وهو ما يصطفيه الامام أو القائد الاكبر منها وبختاره لنفسه كاختيار النبي ( ص ) السيف المعروف بندي فقار من غنائم غزوة بدر . وتمدية الاصطفاء هنا بعلي لتضمنه معنى التفضيل، فلمنى إلي اصطفيتك مفضلاً إليك على الناس من اهل زمانك بالرسالة . قرأ ابن بشر وناقم « برسالاتي » والباقون رسالاتي، فافرادها بمعنى الاسم من الارسال وجمعها باعتبار تعدد ما رسل به من العقائد والمبادئ والاحكام السياسية والحربية والمدنية والشخصية، وقيل بتعدد اسفار التوراه وهو ضعيف لان التوراة ما أوحاه من الشريعة الى موسى وهو موضوع رسالته وتسمية الاسفار الخمسة بالتوراة اصطلاحية وقد يطلقونها على جميع كتب انبياء بني اسرائيل قبل عيسى عليهم السلام — واصطفيتك بكلامي أي بتشكيمي لك بعد وحي الالهام من غير توسط ملك وان كان من وراء حجاب، وهو ما طلب رفعه لتحصيل الرؤية مع الكلام ، ووحى الله تعالى ثلاثة انواع بينها بقوله ( وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً او من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم ) فهذا النوع الاوسط هو الاعلى وقد اعطي لموسى عليه السلام بعد النوع الاول وقيل بالعكس، وقد بينا ما فيه من وجه الخصوصية في تفسير قوله تعالى ( وكلم الله موسى تكليماً ) من سورة البقرة

﴿ نخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ أي نخذ ما اعطيتك من الشريعة «التوراة» وكن من الراسخين في الشكر لنعني بها عليك وعلى قومك، وذلك

باقامتها بقوة وعزيمة والعمل بها، وكذلك الأمر في غير ذلك من جملتها متعالي الشان يدل على صومته، كما ان صيغة الصفة منه تدل على التحمّل منه والرسوخ فيه

### فصل

﴿ في اختلاف المسلمين في الرؤية وكلام الرب تعالي وتحقيق الحق فيهما ﴾

كان جماعة الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون هذه الآيات، وامثالها ولا يرون فيها اشكالا وهم اعلم العرب بلغة القرآن وهراد الله تعالي من آياته فيه لتأقيهم اياها من الرسول المنزلة عايه المأمور فيها بديانها للناس، ثم انتشر الاسلام ودخل فيه من الاعاجم من كانوا على ادیان مختلفة برصاوا يتلقون لغته بالتلقين ويقتبسونها بمعاشرة العرب الخلفين ثم بالتعاليم التي، ثم صارت السلائل العربية كذلك. ثم حدثت في الجميع الاصطلاحات العلمية والفنية لما وضعوا من العلوم الشرعية كأصول العقائد والفقه والحديث واللغوية كالنحو والصرف والبيان ولما ترجموا من كتب دلول الارائن وما زادوا فيها من الرياضيات والعقليات والوجدانيات وسائر سنن المرجودات، فامتزجت هذه الاصطلاحات بلغة القرآن والحديث فصارت آلات لفهمهما، وسببا للخطأ في تعيين بعض المراد منها

ثم حدث ما هو ادعى الى الخطأ في الفهم وهو عصبية المذهب القديم التي فرقت بين المسلمين، على ما جاء في التفريق والتفريق من العرعيد الشديد، فسار كل منتم الى شيعة وحزب لا ينظر في المصائب والسنة الا بالمعيار المعبر عنه بمذهب الحزب، وان كان من أهل النظر والاستدلال، والمذهبي الاجتهاد والاستقلال، والبداهة قاضية بالتضاد بين التقييد بالمذهب، والاستقلال الصحيح المسمى عندهم بالاجتهاد المطلق.

وهناك سبب آخر وهو حشر الاسرائيليات والرويات الموضوعية الزوهمية في تفسير القرآن وكتب السنة وقاصرا الاكثرين عن تمحيصها، والتخيير بين حقها وباطلها، حتى ان بعض الاسرائيليات قد اشتبهت بالاحاديث المرفرة كما بينه بعض نقاد الحفاظ ومنهم ابن كثير في تفسيره

فبهذه الاسباب أبطلوا مزية نكتاب الله وخاصيته في رفع الخلاف والتفرق  
المفسدين لأمم الأمة والامة اتباعا لسنة من قبلهم وهم لا يشعرون، لانهم جعلوه هو  
موضع الخلاف أيضا، قال تعالى ( ٢ : ٢١٣ ) كان الناس أمة واحدة فبعث الله  
النبيين ، بشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما  
اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم بغيا  
بينهم ) الآية . وقال تعالى ( وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما  
جاءهم البينة ) وقال تعالى ( فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان  
كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا )

فأرد الى كتاب الله وما بينه من سنة رسوله لازالة التنازع وحسم الخلاف  
تفاديا من التفرق والتفرق المنافي لوحدة الدين يتوقف على جعل الكتاب وبيان  
الرسول له فوق التنازع واختلف المذاهب والشيم ، والا كان الدواء عين الداء  
( فان قيل إن القرآن ليس موضوع اختلاف بين الشيم والاحزاب المختلفين  
في المذاهب الاسلامية ، فهم مجمعون على أن من رد شيئا منه كان مرتدا عن  
الاسلام — ان كان قد عد من أهله — وإنما الاختلاف في فهمه ، وأما السنة  
فاختلفوا في رواية بعضها وفي فهم بعض ، ومن صح عنده منها شيء يتعلق  
بأمر الدين وجب الاخذ به في كل مذهب من المذاهب التي يعتد باسلام  
اهلها . والاختلاف في فهم ما كان غير قطعي الدلالة ضروري لا يتناول مثل  
قوله تعالى ( ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات  
وأولئك لهم عذاب عظيم )

ونجيب عن هذا - أولا - بأنهم انما كانوا كذلك في كل ذلك قبل الفتن وعصبية  
المذاهب وأما بعدها فقد صرح بعض كبار فقهاء الحنفية بأن الاصل عندهم في كل  
حكم كلام اصحابهم فان وجدوا آية تخالفه (!!) التمسوا لها ناسخا فان لم يجدوا  
أوتوها، وان وجدوا حديثا يخالفه (!!) بحثوا في اسناده فان وجدوا فيه مطعنا  
نبذوه والأفعال في التفصي منه ما يفعلون في التفضي من القرآن (!!) وقد جرى  
على ذلك أهل كل مذهب الا أفراد من كبار النظار خالفوا المذهب في بعض المسائل  
الكلامية والاصولية بالدليل ، وبعض كبار المحدثين رجحوا بعض الاحاديث  
الصحيحة الصريحة على المذهب ، وان شئت فراجع بعض الشواهد على ردم

لها في « كتاب الموقعير » المحقق ابن القيم و - ثانيا - « ان الله تعالى بكفهم أن لا يجمعوا ما ليس قطعي الدلالة سببا للتفرق والتعادي وتأليف الاحزاب والشيع التي يلحق أتباع كل منها فهم رجل أو رجال يسمونه مذهبهم ويتعاملون معه الرد على مخالفهم وتفسيرهم أو تكفيرهم ، وبهذا كان الاختلاف ضارا ومفسدا على المسلمين ومن كان قبلهم من أهل المثل أمور دينهم ودنياهم ، وهو المراد بقوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ( ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء ) الآية ولولاه لما كان أولئك العلماء الاعلام من المعتزلة والاشعرية يتنازرون باللقاب ، ويتبارون بالسباب ، ويتهاجون بالاشعار ، كقول الزمخشري المعتزلي بعد تفسيره لآية الاعراف التي نحن بصدد تفسيرها : ثم تعجب من المتسمين بالاسلام ، المتسمين بأهل السنة والجماعة ، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهبا ؟ ولا يفرقك تسترهم بالبلكفة ، فانه من منصوبات أشياخهم - يعني بالبلكفة قوتهم انه تعالى يرى بلا كيف أي إن رؤيته ليست كرؤية أهل الدنيا بعضهم لبعض فيما يلزمها من كون المرئي جسما كثيرا نحيط به أشعة البصر - ثم قال والقوله قال بعض العدلية فيهم :

وجماعة سموها هوام سنة جماعة حمر لعمرى مونة

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شتم الورى فتستروا بالبلكفة

يعني بالعدلية جماعة المعتزلة فانهم سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد فانظر الى جملة اثبات الرؤية الثابتة في الاحاديث المتفق على صحتها منافيا للاتسام بالاسلام والتسمي بأهل السنة ، وهو يعلم أنهم يتفوق التشبيه في الرؤية بالتصريح كما ينفيه هو ، فلو لا تعصب المذهب لما أزمهم اياه بدلالة اللزوم الضعيفة التي قالوا فيها «لازم المذهب ليس بمذهب» قيل مطلقا وقيل فيما لم يدل الدليل على التزام صاحب المذهب له ، وأما ما صرح بنفيه فلاوجه لاسناده اليه الامة ، ومن نسبه اليه وذمه به كان ظلوما جهولا

ولو أن الزمخشري وشاعر العدلية لم يفولا ما قالوا من الطعن والهجو في أهل السنة بأن انتهى الزمخشري في تأويل أحاديث الرؤية بما أولها به من كون الرؤية فيها عبارة عن كمال المعرفة الجلية لما جوزيات ذلك بمثل ذنبهما أو أكثر كما قال أحمد بن المنير الاسكندري في (الاتصاف) حاشيته على الكشاف :

وجماعة ذهبوا برؤية ربهم حقا ووعد الله ما لن يخفنه

وتلقبوا عدلية قلنا أجل عدلوا بهم فسيبهم سنة  
وتلقبوا الناجين كلا إنهم إن لم يكفروا في لظى فملى شفاه  
وللشيخ تاج الدين السبكي صاحب جمع الطوائف وغيره مثل هذا الشعر  
المحزن ، والهاديء بالشر أظلم ، وهؤلاء الذين هجوا عدلية المعتزلة مثل ما  
هجأ به شاعرهم أهل السنة كافة هم من الأشعرية الذين يقولون مثلهم بالتأويل ،  
ويشتمون على إخوانهم من الحنابلة وغيرهم من السلفيين في بعض مسائل التفويض ،  
كالنصوص في علو الله تعالى خلقه ، واستوائه على عرشه ، التي اتبعوا فيها  
اجماع السلف أو جمهورهم الأعظم في أمرها كما جاءت مع تنزيه الرب تعالى  
عن مشاهمة الخلق والتجيز والحد والحلول ، لأن أصل عقيدتهم أنه تعالى مبين  
خلقهم بذاته وصفاته ( ليس كمثل شيء ) بل أول الامام أحمد بن حنبل نفسه  
نصوص المعية كقوله تعالى ( وعر معكم أينما كنتم ) فخصه بالعلم  
فألحق الواقع أن المختلفين في فهم النصوص من المسلمين الصادقين يؤمنون  
بها ويعظمونها ولكن غلب على قوم ترجيح جانب التنزيه حتى انتهى ببعضهم  
الى التعميط ، وجعل صفات الرب تعالى سلمية بضروب من التأويل ، وغلب  
على قوم جانب الاخذ بالظاهر في ذلك حتى وقع بعضهم في التشبيه فعلا ، كأن  
الكتاب والسنة خلو من الحجاز والكناية في ذلك مع العلم بأن ما عدا اسم الجلالة  
من ألفاظ اللغة قد وضع قبل نزول القرآن للتعبير به عن المخلوقات وشؤونها ،  
فالفرقان أرادنا تعظيم الرب تعالى وسد ذريعة القول في ذاته وصفاته بغير  
الحق الذي يرضيه ، هؤلاء خافوا التعميط ورد شيء من النصوص أو تحكم الأهواء  
في تأويلها — وأولئك خافوا الوقوع في تشبيه الرب سبحانه بخلقهم ، وسد ذريعة ما  
يهدى تقصا في حقه ، فالتية كانت حسنة من الحائمين كما قال شيخنا الشيخ حسين  
الجسر الطرامسي رحمه الله تعالى في درسه عند قراءة شرح السنوسية والجوهرية  
ولكن الذين ضلوا بالتأويل والتعميط كثيرون حتى خرجت به عدة فرق  
من الملة بعضهم باطنا وظاهرا وبعضهم باطنا ظاهرا كالباطنية الذين تركوا أركان  
الاسلام ، من صلاة وزكاة وحج وصيام ، زاعمين أن لها معاني غير ما عمل  
به النبي (ص) وأصحابه وأجمع عليه المسلمون ، وكفلاة الصوفية الذين ذهبوا  
في التأويل الى ما وراء طور العقل والنقل وأساليب اللغة ، فادعوا أنهم يرون  
الله تعالى عيانا في جميع الصور ، وينلقون عنه كالأنبياء ، وأن فيهم من هم



أفضل من الانبياء وأعلم بالله تعالى ، ومنهم من ادعى رفع التكليف عن بلغ مقاماتهم في المعرفة ، بل منهم من غلا في وحدة الوجود الى ادعاء الربوبية للبشر والبقر ، والحجر والمدر ، وما يستحي أو يتنزه قلم المتدين الاديب عن ذكره — والى عدم التفرقة بين موحد ومشارك ، ومؤمن وكافر ، ورؤاقر وعادل وجائر ، وطيب وخبيث ، ولا بين نافع وضار ، وظهور ورجس . ويستبدلون على عقائدهم أو مزاعمهم بالآيات والاحاديث ، بضروب من التأويل ، وقد قال بعضهم :

عقد الخلائق في الاله عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ولم يقم من فرقة نأخذ بظواهر نصوص الكتاب والسنة من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا تشبيه ولا تمثيل ، في مثل هذا الضلال البعيد ، فهو لاء الظاهرية ومن يسمونهم غلاة الحنابلة من أقوى المسلمين ايمانا ، واصحهم اسلاما ، وما رموا به من التشبيه والتمثيل الذي نقاه النص والعقل ظلم سببه التعصب المذهبي فاذا كانوا يثبتون للرب تعالى كل ما أثبتته لنفسه في كتابه ، وأثبتته له رسوله فيما صح من حديثه ، حتى فيما يفوضون كنهه اليه تعالى للاعتراف بأن عقولهم لا تحيط به ، فهل يعقل أن يثبتوا له ما نقاه عن نفسه بقوله (ليس كمثل شيء) وهو مما يعقلونه ولا يعقلون ضده ؟ كلا ان تمصب أصحاب النظريات الكلامية من المعتزلة ومن يقرب منهم من متأولة الاشعرية هم الذين افتأنوا عليهم بما ألزمهم إياه مما نقوه من لوازم ما صح في الكتاب والسنة من علوه تعالى على خلقه واستوائه على عرشه ، وكونه ينزل الى سماء الدنيا ويحب ويبغض ويضحك الخ مع استصحاب نص التنزيه ، فهم لا يرون فرقا بينها وبين كونه يسمع ويبصر ويتكلم ، وكذا يعلم ويريد ويشاء ويقدر ، فكل ذلك مما يطلق على الخلق والخلق مع انتفاء التشبيه ، وإنما ذنبهم عندهم أنهم لا يستعملون نظريات فكارهم في التحكم بتأويل هذه النصوص ، ولم يكلف الله تعالى أحدا من خلقه هذه النظريات الفلسفية الكلامية ، وإنما كلفهم الايمان بجميع ما جاءهم به رسوله (ص وأصل الدين الذي بعث الله تعالى بها جميع رسله الى خلقه هو أن يعبدوا الله تعالى وحده ولا يشركوا به شيء من خلقه ، وأن يعبدوه بما شرعه لهم دون غيره ، اذ ليس لغيره أن يشرع شيئا من الدين بدون اذنه . فالله تعالى قد شرع

الدين لجميع أفراد الأمة ، وهذه الفلسفة الكلامية من دقائق النظريات الفكرية التي انهمروا بالغرض عليها أفراد معاصرون من أذكياء الأمم فتفرقوا فيها واختلفوا الآن التفرق والاختلاف من لوازمها البينة ، فمصوا الله تعالى في نهيه عن التفرق والاختلاف في الدين ، فكيف يقول عاقل ان جميع المؤمنين قد كفوه ، واد كانت صحة الذين تفرقوا عليها ، فكيف عدد المؤمنين في الأمة كلها ؟ ، اذا كان الحق فيها واحدا كما هو لولن فكيف عدد أهل الحق منهم ؟ وكيف السبيل لدى كل من احتكر الحق فيها لنفسه الى مقين اسواد الاعظم من الأمة ما يراه بحيث لا يقبل سواده ؟ فان كان هو أصل الدين الذي لا يقبل الله غيره ففهم لدين متعذر على أئمة الأمة ،

وأما ما كان عليه السلف الصالح في صدر الأمة فكان سهلا ويسيرا كما وصف الله ورسوله هذا الدين وهذه الأمة ، كان جميع المسلمين في الصدر الاول يصفون الله تعالى بجميم ما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله من غير تشبيه له بأحد من خلقه ، ومن غير هذه الفلسفة الكلامية التي لم يشرعها الله تعالى ولا أنزل بها من سلطان ، ولذلك استنكر جميع أئمة السلف علم الكلام وعدوه بدعة سيئة ، ومن خاض فيه بعد ذلك من أتباعهم فلانهم ظنوا انه يتوقف عليه ابطال البدع وازالة الشبهات المشككة في الدين لآلذاته ، وأرادوا به ازالة الخلاف فرادهم خلافا واقترافا ، حتى صاروا أكثرهم يزعم ان العقائد الصحيحة لا تعرف الا به ، ويحصرها كل فريق في مذهبه ، ولا سلامة للمسلمين في دينهم وديناهم الا الرجوع في الدين الخوض الى ما كان عليه السلف وفي أمور الدنيا الى ما أثبتته العلم والتجارب في عتبات عصره ، وان يندبروا جميع الأسباب ويكتب التي كانت مثار الخلاف والتفرق وراعيهم ، ولا يجعلوا قول عالم من علماءهم ولا فهمه سببا للتمادي والتفرق بينهم ، بل يمدوا كل ما ليس قطعيا من كتاب ربهم وسنة رسولهم واجتماع مسلمهم من الاجتهاد الذي يعذر به من قام دليله عنده ومن وثق به ولا يكون حجة على غيره . وقد قاسلنا لتقول في هذا في مجلتنا (المنار) مرارا فبهذا يزول خبر اختلاف المذاهب في الاصول والفروع ، ويتراجع الجميع الى وحدة الدين وأخرى الاسلام ، فيدالوا من سعادة الدنيا ثم الآخرة ما شرع الله لهم لدين لاجله

بمدهذا التمهيد نقول ان مسألة الكلام الالهي كمسألة الرؤية فيما اختلف فيه

من تأويل وتفويض، اجتناباً من قوم للتعميل ومن آخرين للتشبيه، وإنما الفرق بينهما ان آيات الكلام والتكليم لله تعالى صريح في القرآن المحيد في آيات متعددة لا تعارض بينها، وأما رؤية الرب تعالى فربما قيل بادي الرأي إن آيات النبي فيها أصرح من آيات الاثبات كقوله تعالى (إن تراني) وقوله تعالى (لا تدركه الابصار) فهما أصرح دلالة على النبي من دلالة قوله تعالى (وجوه يومئذ ناظرة، المر بها ناظرة) على الاثبات فان استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير في القرآن وكلام العرب كقوله (ما ينظرون إلا صيحة واحدة - هل ينظرون إلا تأويله - هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) وثبت انه استعمل بهذا المعنى متمدياً بالي ولذلك جعل بعضهم وجه الدلالة فيه على المعنى الآخر - وهو توجيه الباصرة الى ما تراد رؤيته - انه اسند الى الوجوه وليس فيها ما يصحح اسناد النظر اليها إلا العيون الباصرة، وهو في الدقة كما ترى، ولذلك اختلف في فهمها العلماء قبل هذه المذاهب، فقد روى عبد بن حميد عن مجاهد تفسير (ناظرة) بقوله: تنتظر الثواب. قال الحافظ ابن حجر: سنده الى مجاهد صحيح، والجمهور يرون فهم مجاهد غير صحيح ولكن المعزلة والخوارج والشيعة يرونه صحيحاً، وفي الفريقين من أساطين علماء اللغة ما يسوغ لك أن تقول لكنه كقوله ليس صريحاً، وليس قطعي الدلالة بحيث يعد حجة على جميع المكلفين، ويمتنع جعل تأويله عذراً للمخالفين، وقد كان النبي (ص) يعذر اصحابه في اختلاف فهمهم للنصوص، ويقرهم على ما كان للاجتهاد فيه وجه وجيه، كأخذ بعضهم بظاهر نهيهم عن صلاة العصر إلا في بني قريظة اذ ذهب بهم اليهم، وأخذ الآخريين بقواه وهو عدم التخاف، فصلى هؤلاء في الطريق وادركوا معه بني قريظة في الموعد، ولم يصل اولئك العصر إلا فيها. وكافهم بعضهم تحريم الحجر والميسر من آية البقرة التي رجحت اثمها على منافعتها فتركوها، ولم يتركها من لم يفهم ذلك وهم الاكثرون إلا بعد نزول النص القطعي باجتنابها

فاذا تخضنا اسباب الخلاف من جهة النصوص وحدها وجدنا لكل من النفاة للرؤية والمثبتين لها ما يصح أن يكون له عذراً عند الآخر بمن جريمة التفرقة في الدين وجعل اهله احزاباً وشيعاً متعادية غير مبالية بما ورد فيه من الوعيد الذي كاد يجعله كالكفر، مادام كل منهم يعلم أن الآخر يؤمن بان جميع ما جاء

به الرسول ( ص ) من الدين حق ، وان الخلف محصور في اختلاف الفهم ، وما كفر بعض علماء السلف بعض منكري الرؤية وغلاة التأويل لصفات الله تعالى وغيرها من النصوص إلا لاعتقادهم أنهم زنادقة لبسوا لباس الاسلام للافساد ، وبث دعوة الاحاد ، والتجربة على رد نصوص القرآن والسنة التي تلقاها الصدر الاول بالقبول ، او تحريفها بالتأويل عما فهموه او عما ثبت عندهم بالعمل . اذ كانوا قد علموا أن بعض اليهود كعبد الله بن مسأ وبشر المريسي وبعض المجوس ومن سلاثلهم جهنم بن صفوان قد بشوا في المسلمين دعوة الكفر او البدع الداعية الى النفاق ، او المنفضية الى الشقاق ، فالامام احمد كفر منكري الرؤية من هؤلاء لاعتقاده فيما يرى انها صادرة عن زندقة ، لا لان هذا الانكار نفسه زندقة ، بحيث يرتد المسلم المؤمن بالنصوص كلها بقلبه ولسانه وعمله اذ فهم أن آيات نبي الرؤية هو الاصل المحكم الذي يرد اليه ماورد من الآيات والاحاديث في اثباتها ، اذ الاول هو الموافق للعقل والنقل وهو التنزيه ، دون الآخر المستلزم عنده للتشبيه ، الواجب تأويله للجعم بين النصوص لا لرد شيء منها .

وأهل السنة يعذرون كل المتأول وكذا الجاحدين ليس بجماع عليه معلوما من الدين بالضرورة فلا يكفرونه بمخالفته للظواهر ، ولا يمدون البدعة من هذا القبيل مسقطه للعدالة في الرواية ، قالوا إلا اذا كان صاحبها داعية ، لان الدعوة الى أمر ديني لم يؤثر عن الصدر الاول احداث لفتنة وتفريق بين الموحدين كسألة خلق القرآن ، فما القول في الدعوة الى ما أثر عن الصدر الاول خلافه كالرؤية ؟ ثم ما القول في الدعوة الى مخالفة النصوص القطعية التي لا تحتمل التأويل لغة ولا شرعا ومخالفة ما اجمع عليه المسلمون وهو معلوم من الدين بالضرورة كدعوى الباطنية المعلومة ، ومثلها دعوى المسيحية القاديانية الهندية ، التي يلقب أهلها بالاحمدية ، أن رئيس نحلتهم ميرزا غلام احمد القادياني هو المسيح المبشر بعودته الى الدنيا في بعض الاحاديث ، وانه كان يوحى اليه ، ونسخت قرضية الجهاد على لسانه فصار من الواجب على المسلمين عندهم أن يستمسوا الاجانب المستعبدين لهم ، السالبيين لاستقلالهم ، المبطلين لشرعهم ، ولا يجوز لشعب اسلامي عندهم أن يدافع بالقتال عن ملته ووطنه ، وإنما جعل القادياني هذا من اصول دينه خدمة للانكلز ، ولا يزال الباب مفتوحا عند أتباعه لمثل هذا بزعمهم أن وحي النبوة متصل في خلفائه وأتباعه ، فالقول بهذا خروج من ملة الاسلام ، لا تنفع معه صلاة ولا زكاة ولا

حجج ولا صيام . وما أفضى الى هذا الاستدلال الخبير انما يتوسم في باب التأويل ،  
 ( فان قيل ) إن كلا من مثبتى رؤية الرب تعالى في الآخرة ونفيها قد ادعى  
 بعضهم أن النصوص التي يستدل بها على نفيها قطعية ، حتى إن الثاني جعل  
 نصوص الاثبات دالة على النفي ، والمثبت جعل نصوص النفي دالة على الاثبات ،  
 كقول بعض النفاة ان قوله تعالى ( الى ربها ناظرة ) يفيد الحصر بتقديم الجار  
 والمجرور على المتماق أي تنظر الى ربها وحده دون سواه كقوله : ألا الى الله  
 تصير الامور — وأن الى ربك المنتهى أي لا الى سواه . ولما كان عدم نظرها  
 الى غير ربها ممنوع عقلا ونقلًا وجب حمل النظر على معناه الآخر وهو الانتظار  
 بمعنى انها لا تنتظر الخير من غيره ( راجع الكشف )

ويقابل هذا من بعض أهل الاثبات الاستدلال بقوله تعالى ( لا تدركه  
 الابصار ) على رؤيته تعالى من حيث إن الإدراك معناه الاحاطة ، وإدراك  
 الابصار إنما احاطتها بالمرئي ، فنفي الإدراك يستلزم اثبات رؤية الإدراك فيها ،  
 فدأبه قال لا تدركه الابصار التي تراه وهو يدرك الابصار التي يراها ويحيط  
 بها . ونظيره قوله تعالى ( يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما )  
 أي هو يحيط بهم علما لانه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ( والله من وراءهم  
 محيط ) وهم لا يحيطون به علما لان إحاطة المحاط به بالمحيط محال ، وهو يستلزم اثبات  
 أصل العلم به لا نفيه كآية نفي ادراك الابصار : وكل منها جار على قاعدة معروفة  
 في اللغة وهي أن نفي المقيد يقصد به الى المقيد وان نفي وصف خاص لمعنى عام  
 يستلزم إثبات ذلك العام كقولك : فلان لا يدرك . فانه اثبات لتلك نفي للشبه .

هذا توجيه لهذا الاستدلال فتح الله تعالى به علينا وقدر رأينا للشيخ تقي  
 الدين تيمية توجيهها آخر ما خصه أن الله تعالى ذكر هذه الآية في مقام المدح  
 وانما يكون المدح بالوصف الكونية لا بالعدم المحض ، وما تمدح تعالى باسم  
 سلبي أو عدمي الا اذا تضمن معنى ثبويا كنفي السنن في اليوم المتضمن الكمال القومية  
 ونفي الموت المنضم الكمال الحياة ، ونفي الشرك والظهور المنضم الكمال الربوبية  
 والالهية ، ونفي الشفاعة عنده إلا باذنه المنضم الكمال توحيده وغناه عن  
 خلقه ، ونفي المثل المنضم الكمال ذاته وصفاته . . . قال وكذلك نفي ادراك  
 الابصار ايس معناه انه لا يرى بحال لان هذا يشار به فيه لعدم المحض والرب  
 جل جلاله بتعالى أن يتمدح بما يشار به فيه لعدم المحض ، فالمعنى اذا أنه يرى

ولا يدرك ولا يحاط به -- كما نأثره -- فقولته ( لا تدرك الا بصار ) يدل على غاية عظمه وانه أكبر من كل شيء ، وانه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به ، \* فان الادراك هو الاحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية . ثم استدل على هذا المعنى لغة بما استغني عن ذكره بما أوردناه في تفسير هذه الآية من سورة الانعام فقد حققنا المعنى اللغوي للادراك وألما بما مسألة الخلاف في الرؤية ووعدنا بتفصيل الكلام فيها عند تفسير آية الاعراف التي نحن في صدد تفسيرها الآن

( وجوابنا ) عما ذكر ان هذه الدقائق القنوية مما يخفى على اكثر علماء اللغة -- ولذا أهل السليقة ايضاً -- ولذلك اختلفوا في معناها فذيف يقال في شيء منها انه نص قطعي لا يحتمل التأويل ؟

وغرضنا من هذا التطويل ببيان حجج كل فريق اقناع أهل البصيرة في الدين ، والاخلاص في جمع كلمة المسلمين ، من المستقلين في الفهم ، والراسخين في العلم ، حتى المولودين في مهور المذهب ، والناشئين في حجور الاحزاب والشيم ، أن يجتهدوا في التوفيق والتأليف ، ومنع جعل هذه المسألة وأمثالها من أسباب التفريق ، فضلا عن جمعها من أسباب التكفير أو النفيق ، وليعذرنا من يرانا نخالف فيه أو مذهبه في ترجيحنا للمأثور عن جمهور السلف الصالح فيها وفي جميع أمور الدين ، ثم ليعذرنا اخواننا السلفيون في تقريب مذهب السلف الى العقول التي لا يرجى أن تهتدي به وتأخذة بالقبول الا باثباته بما ألفت من طرق الاستدلال ، وايضاحه بما يقربه اليها من ضرب الامثال ، وقد سبق لنا تحقيق هذين الأمرين معا بفتوى نشرت في ص ٢٨٢ - ٢٨٨ من المجلد التاسع عشر من المنار ، فيحسن ان تضاف الى هذا البحث ، وان يلخص الموضوع في قضايا معدودة تكون اضبط له واجمعه لما يحتاج اليه المسلمون منه في دنياهم وآخرتهم ، وان كان فيه تكرار فان التكرار في ايضاح الحقائق ضروري واننا نقدم بين يدي ذلك قضايا جامعة في المسألة وما ورد فيها من الاحاديث الصحيحة ، واقوال السلف والخلف فيها

\* ( تعليلنا هنا لعدم ادراكه تعالى باحاطته بكل شيء اظهر وابعد عن الابهام من تعليل شيخ الاسلام اياه بعظمته سبحانه ، واظهر منه تعليل آية الاعراف نفسها اياه بلطفه تعالى وكل منهما صحيح ولكل منهما موقع - راجع ص ٥٦ ج ٧ تفسير الجزء التاسع »

### قضايا جامعة في مسألة الرؤية

(١) ان اثبات رؤية الرب تعالى في الدار الآخرة بخلافه لهذه الدار في شؤونها وشؤون أهليها وسائر شئ تعالى فيهما بالقيود التي قيدها بها المثبتون لها من تزييمه تعالى عن مشابهة خلقه — ليس من الحالات العقلية المثبتة بالضرورة والا لما وقع فيها خلاف البتة ، ولا بالبراهين العقلية التي تنتهي الى الضرورة والا لارتفع خلاف فيها بين حذاق النظر عند وصول البرهان الى هذا الحد، ولم يقع هذا ولا ذلك

(٢) ان الآيات القرآنية فيها ليست نصوصاً قطعية للدلالة في الاثبات وحده ولا في النفي وحده ، ولا لما وقع الخلاف فيها البتة ، وقد وقع هذا الخلاف فيها بين قليل من السلف وكثير من الخلف ، ففهم عائشة لآية الانعام ومجاهد لآية القيامة بخلاف رأي جمهور اهل السنة . — فعلم انها غير قطعية الدلالة بحيث لا تحتمل الا أحد الوجهين ، فهي اذ ظنية والترجيح فيها بين مآظهم الاثبات وما ظاهره النفي محل الاجتهاد ، ولا شك في أن كلا من المنبتين والنفاه يعتقد صحة ترجيحه نظراً واستدلالاً ، او ابتغاءاً وتقليداً . فالمسألة بينهما مشتركة الالزام ، فلا وجه لطعن احد منهما في دس الآخر ولا في عدمه بها

(٣) ان في الاحاديث الصحيحة من التصريح في اثبات الرؤية ما لا يمكن المرء فيه ولكن المراد من هذه الرؤية غير قطعي ، وفيها ما قد يدل على عدم الرؤية ، فيأتي فيها الخلاف بين السلف والخلف حتى من المنسويين منهم الى السنة كالاشعرية بين التفويض والتأويل ، لانها بحسب اصطلاحهم من النصوص الموهمة للتشبيه ، وقد قال صاحب جوهره التوحيد من الاشعرية :

وكل من أوهم التشبيهاً أو ته أو فوض ورؤم تزيها

(٤) ان جمهور السلف والخلف والحائلة وأدبر أهل الحديث يفوضون في جملة النصوص الواردة في صفات الله تعالى وشؤونه وأفعاله بمعنى أنهم يرونها كما جاءت من غير تحكم في تأويل يخرجهم عن ظواهر معانيها ويزهون سبحانه عن مشابهة خلقه فيما أطلق عليهم من مثل تلك الالفاظ الدالة على تلك الصفات والشؤون والأفعال ، وان جمهور الخلف من سائر الفرق يتأولون ما عدا صفات المعاني كالعلم والقدرة والآرادة حتى الاشعرية من أهل السنة وإنما تراهم أقرب الى السلف في المسائل الكبرى التي اختلفوا فيها مع المعتزلة كالكلام

الإلهي ورؤية الرب سبحانه وتعالى . وقد شتم بعضهم على الخدابة بأشد ما يشنعون به على المعتزلة . ولستهم لاتفاقهم على كون أحمد بن حنبل من كبار أئمة السنة يسألونه ممن يشنعون عليهم من أتباعه سبلاً ويبرؤونه من أقوالهم فرطاً وأصلاً ( ٥ ) ان من أصبح تشوهد على ما ذكرنا في هذه القضايا العامة مارواه الشيخان عن مسروق عن عائشة واللفظ لمسلم قالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية - قالت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً (ص) رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية - قال مسروق : وكنت متكئاً جلست فقلت يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل الله عز وجل ( ولقد رآه بالأفق المبين \* ولقد رآه زلّة أخرى ) فقالت أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول (ص) فقال « إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلقه الله عليها الا هاتين المرتين : رأيتُه منبطاً من السماء ساداً أعظم خلقه ما يرى السماء الى الارض » فقالت أولم تسمع أن الله يقول ( لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير ) أولم تسمع أن الله يقول ( وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء إنه علي حكيم ) ؟ قالت : ومن زعم أن محمداً (ص) نتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول ( يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالتي ) قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون فقد أعظم على الله الفرية والله يقول ( قل لا أعلم من في السموات والارض الغيب الا الله ) فمأشئة وهي من أفصح قريش تستدل بنفي الادراك على نفي الرؤية مع ما علم من الفرق بينهما ، واستدل على نفيها أيضاً بقوله تعالى ( وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب ) وقد حملوا هذا وذاك على نفي الرؤية في هذه الحياة الدنيا ، ولكن ادراك الابصار للرب سبحانه محال في الآخرة كالدنيا ، والتعليل الصحيح لمثبتي الرؤية في الآخرة دون الدنيا أن البشر لا يقوى خلقه الدنيوي المعد للقاء ولا يطيق رؤية الرب تعالى كما تقدم ، يقويه بعض «شواهد الاخرى ، وفيه بحث ذكرناه في الفتوي

( ٦ ) ومنها مارواه مسلم من حديث أبي موسى ارض قال : قام فيما رسول الله (ص) بخمس كلمات فقال ( ١ ) ان الله عز وجل لا يشم ولا يذم ولا يذم له أن ينام ( ٢ ) يخفض انقسط ورفعه ( ٣ ) يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار ،



وعمل النهار قبل عمل الليل (٤) حجاب النور - وفي رواية النار (٥) لو كشفه لاحرقت سبجات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه «<sup>(١)</sup> والمعنى أن النور العظيم هو الحجاب الذي يحول بينه وبين خلقه وهو بقوته وعظمته ملتهب كالنار، ولذلك رأى موسى عليه الصلاة والسلام عند ابتداء الوحي ناراً في شجرة توجه همه كاه اليها فنودي بالوحي ورأها، وفي التوراة ان الجبل كان في وقت تكليم الرب لموسى عليه السلام وإيتائه الألواح مغطى بالسحاب « وكان منظر مجد الرب كمنار آكلة على راس الجبل أمام عيون بني إسرائيل » (خروج ٢٤ : ١٧)

ورأى النبي الخاتم الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج نوراً من غير نار وربما كان هذا أعلى ولكنه كان حجاباً دون الرؤية أيضاً فقد سأله أبو ذر (رض) هل رأيت ربك؟ فقال «نور أنى أراه» وفي رواية أخرى «رأيت نوراً» ومسناها معاً رأيت نوراً من معنى من رؤيته لانه تعالى نور وأنه لذلك لا يرى، وهذا يتلافى ويتفق مع قوله «حجاب النور» ولذلك جعلنا أحاديث النور شاهداً واحداً في موضوعنا. وهي تدل على عدم رؤية ذات الله عز وجل وامتاعها كما تتمتع رؤية شيء نكون الشمس دونه حجاباً له فمن ذا الذي تنفذ اشعة نور بصره من نور الشمس ونارها الى ما وراءها فتبصره؟ وما هذه الشمس التي يراها على بعد قدره علماء الهيئة الفلكية بأكثر من تسعين مليون ميل وسائر الشموس الكثيرة التي يرونها بالمنظار المقربة للإبعاد والتي لا يرونها الا بعض ما أفاضه تعالى من النور على خلقه وهو نور السموات والارض وسبجات نور وجهه أعظم وأقوى، وأجل وأعلى، فلا تذكر معها أوار الشموس الا من باب ضرب امثل الذي ورد (ولله المثل الاعلى)

وقوله (ص) «لو كشفه لاحرقت سبجات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه» يدل على أن رؤية ذاته عز وجل رؤية إدراك مما يتم على جميع

(١) قول أبي موسى (رض) قام فينا بخمس كلمات معناه انه قام بهم مرة أو ليلة يعلمهم فيها هذه الكلمات الخمس ويشرح لهم معانيها . والقسط كما في نهاية ابن الأثير ميزان أعمال العباد المرتفعة اليه أو أرزاقهم النازلة من عنده اي يرفع درجات اعمال بعض العاملين وهم المالحون المصلحون ويخفض درجات آخرين وهم اضدادهم - او يزيد وينقص في الارزاق كالوزان الذي يزن لكل مشتر يقدر ماله بالكلام تشييل. وسبجات وجهه نوره وبهاؤه وجلاله، قاله النووي

الخلق حتى الملائكة في الملا الاعلى لا في الدنيا فقط ، لان الوجه يعبر به عن الذات وفسروا وجه الله بذاته وان كان في أصل اللغة ما يواجه به الشخص غيره وفيه معارفه أي ما يعرف به ويمتاز عن غيره . ومعنى الجملة أنه تعالى لو كشف عن وجهه حجاب النور المخلوق الذي هو منتهى ما يصل اليه كل البشر عند ارتقاؤهم الى أعلى درجات المعرفة والعلم به عز وجل ، ونجلي سبحانه للخلق كافة بدون هذا النور الذي يججبهم عنه ؛ لا حرفت سبحانه ما انتهى اليه بصره منهم ، أي لا حرقتهم كماهم فان بصره تعالى محيط بكل موجود في العالم كله من سمائه وأرضه ، وهو ضرب مثل خلاصته أن آخر ما يصل اليه العلم هو اكتشاف الحجاب الاخير الذي هو الفاصل بين المخلوق والخالق وهو النور الذي هو مبدأ التكوين ، ومصدر التطور والتلون

قال الله تعالى ( مالك لا ترجون لله وقاراً ؛ وقد خلقكم أطواراً ) وخلق الناس وكذا سائر المخلوقات أطواراً قد فصل في علوم سنن الله في التكوين ، ففي خلق الانسان من ذكر وأنثى أطوار ، وفي خلقه قبل ذلك من سلالة من طين أطوار ، وفي التكوين الاول للارض التي خلق منها أطوار ، وهي بعد المادة التي خالق منها السموات والارض المشار اليها بقوله ( أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناها وجعلنا من الماء كل شيء حي ) وقوله ( ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قلنا ائتينا طائعين ) الخ ، الظاهر ان هذه المادة المعبر عنها أو المشبهة بالدخان في هذه الآية هي المشبهة بالغيام للدخان في قوله تعالى ( هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ) فهذا كلام عن إعادة الخلق يوم القيامة وهي النشأة الاخرى ، وذلك كلام في بدئه وهي النشأة الاولى ، وقد قال تعالى ( ألم تروا كيف بدأ الله الخلق ثم الله ينهي النشأة الآخرة ) وقال ( كما بدأنا أول خلق نعيده )

اذا تذكرت هذا فاعلم أن كل ما يشغل الانسان عن معرفة الله تعالى ومرافقته من أطوار الخلق وشؤونه فهو حجاب له عنه فالحجب بين العبد والرب كثيرة وطولى لمن آمن وعرف أن له ربا وأن هذه المخلوقات حجب دونه ، وانه فوقها بائن منها لا يشبهه ولا يشبهها ، فانها حينئذ قد تكون من وسائل معرفته وشكره ومحبته ، ولا تكون حجباً الا دون ادراك كنهه وحقيقته ؛ وان من الناس من

تكون حجبا له دون الايمان والمعرفة وسأني الفرق بين الفريقين في شاهد آخر .  
 وقد روى الطبراني في الاوسط من حديث أنس (رض) مرفوعا « سألت جبريل  
 هل ترى ربك فقال اني يبني وبننه سبعين حجبا من نور لو رأيت أدناها لاحتقرت »  
 ورواه عنه سميريه بالنظر سبعين الف حجاب من نور ونار » وفي النهاية لابن  
 الاثير أن جبريل عليه السلام قال « لله دون العرش سبعون حجبا لو دنونا  
 من أحدها لاحرقنا سبحات وجه ربنا » وهذه الروايات صحيحة المعنى وان  
 كانت ضعيفة الاسناد لما يؤيدها من الصحيح . وعماء الهيئة الغالبة يرون بما  
 ا (تشقوه بمناظر المذكرة عيانا ان أكثر هذه المجوم التي تراها أو ما عدا  
 الاراري والآخرة منها كلها شموس منها ما هو أعظم من شمس عالمنا هذا وأبعد  
 منه بسنين لشيرة من سنى صيرالنور الذي يقطر به زهاء مائة مليون ميل في أقل من  
 عشر دقائق ، والنصوص تدل على أنها كاهادون العرش

(٧) ومنها ما رواه الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري مرفوعا  
 « جنتان من فضة آيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آيتهما وما فيهما ،  
 وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه في جنة  
 عدن » قلوا ان الرداء هنا بمعنى الحجاب الذي ذار آتيا وقد جعلوه من باب  
 الاستعارة ولا اشكال في التعبير وانما الحديث صريح في عدم رؤية الذات  
 بدون حجاب . وقال الحافظ ابن حجر في شرحه من المتح نقلا عن الكرماني  
 بعد عدة من المشابهات : ظاهره يقتضي أن رؤية الله غير واقعة واجاب ( اي  
 الكرماني ) بأن مفهومه بيان قرب النظر اذ رداء الكبرياء لا يكون مانعا من  
 الرؤية فعبّر عن زوال المانع عن الابصار بازالة الرداء - وحاصله ان رداء الكبرياء  
 مانع عن الرؤية فكأن في الكلام حذف تقديره بعد قوله « الا رداء الكبرياء »  
 فانه بمن عليهم رفته . . الخ ماقاله - وفيه من التكلف ما لا ينبغي لحفاظ السنة  
 الاعتداده وهم ينكرون على الجهمية والمعتزلة مثله وما هو امثل منه من أويلانهم  
 ثم ان الحافظ ابن حجر اعتمد في تأويل الحديث جعل رداء الكبرياء  
 هنا عين الحجاب في حديث صهيب الذي أخرجه مسلم بعد حديث ابي موسى  
 وهذا كانه رد تفسيره به - ورواه الترمذي والنسائي وغيرهما ايضا وهو قوله  
 صلى الله عليه وسلم « اذا دخل اهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل : تريدون  
 شيئا از يدكم ؟ فيقولون ألم بيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟

قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر الحريم عز وجل»  
وفي رواية زيادة : ثم تلا ( للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ) وفيه أن أهل الجنة  
هؤلاء لم يكونوا يعلمون أنه سبحانه يرى بدون حجاب و دروخته في الموقف  
وإملاقته كانت مع الحجاب هذه الملائكة في الجنة عند سؤالهم عما يصلون من  
زيادة التميم

ولقائل أن يقول أيضاً : إننا إذا قطعنا بأن المراد بهذا الحجاب رداء الكبرياء  
المذكور في الحديث الذي قبله وأنه كان المانع من النظر فلا يمكننا أن نقول  
نه هو حجاب النور المانع من الرؤية في الأحاديث الأخرى ، والنظر غير  
الرؤية ، فيمكن أن يقال إن رداء الكبرياء الذي كان مانعاً من النظر يكشف  
فيقيم النظر فيرى المظنون الذي رآه النبي (ص) وأحبر أنه كان المانع  
من رؤية الذات . وسيأتي تحرير هذا البحث

(٨) - ومنها ماورد في تجليته سبحانه في الصور واقواها وأصحبها حديثاً في  
هريرة وأبي سعيد الخدري (رض) الطويلين في الصحيحين وغيرهما وحمل الشاهد  
فيه أن ناساً قالوا يا رسول الله هل ترى ربنا يوم القيامة ؟ قال «هل تصارون  
في رؤية القمر ليلة البدر ؟» قالوا لا يا رسول الله قال فانكم ترونه كذلك . فجمع  
أهل الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه . فيتبع من كان يعبد  
الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت  
الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله تعالى في صورة غير  
صورته التي يعرفون فيقول : أنا ربكم . فيقولون نعم وباللهم ، هذا مكانه  
حتى يأتيهم ربنا ، فادعوا ربنا عرفناه . فيأتهم الله تعالى في صورته التي يعرفون  
فيقول أنا ربهم ، فيقولون أنت ربنا ، فيسبغوناه «أهل المراد منه ويلسه ذكر  
الصراط والجواز عليه والنار والحساب الخ وهذا لفظ مسلم عن أبي هريرة ، وفي  
لفظ البخاري «هل تصارون في الشمس أسدوتهم سحاب ؟» ذكر بعدها القمر  
وفي حديث أبي سعيد أشبهه رؤية الرب تعالى برؤية الشمس في الظهيرة  
والقمر ليلة البدر أيضاً أي في كونه لا مضارعة فيه ولا في التواضع عليه -- لا أشبهه  
المرئي بالمرئي -- وفيه ذكر من عبد العزيز والمسيح ودخول كل من عبد  
غير الله النار ويقول (ص) بعده «حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى  
من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورته من التي رأوه

فيها قال : فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا : يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا اليهم ولم نصاحبهم ، فيقول : أنا ربكم . فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً - مرتين أو ثلاثاً - حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب . فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون نعم ، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه الا اذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رؤسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فقال أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا « الحديث وفيه ألفاظ أخرى في الصورة ، ستأتي في آخر الكلام عليه

وهذا لفظ مسلم أيضاً ويخالفه لفظ البخاري في بعض التعبير ورواها غيرها بألفاظ توافق كلامهما وتخالفه بتعبير أو زيادة أو نقصان والمعنى العام واحد ، فن أمثلة اختلاف اللفظ رواية « فيكشف عن ساقه » وهي لا تعارض رواية « فيكشف عن ساق » الموافقة للفظ القرآن ( يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون ) ولكن تنكير الساق واسناد كشفه الى المفعول اوسم مجالا للتأويل من اضافته الى الرب تعالى واسناده كشفه اليه فهو كالتشهير عن الساعد مثلاً في كلام العرب للجد والاهتمام وشدة الخطب ، وسبب الاول أن من يريد الفرار من شيء يخوف يكشف عن ساقه ليسهل عليه العدو المريع فلا يتعثر بثوبه وسبب الثاني أن من يريد أن يعمل عملاً باتقان ومرعة يشر عن ذراعيه حتى لا يعوقه كاه ، وفي مجاز الاساس قامت الحرب على ساقها ، وكشف الامر عن ساقه . قال :

عجبت من نفسي ومن اشفاقها ومن طراذي الطير عن أرزاقها

في سنة قد كشفت عن ساقها هـ

أقول نخرج بعضهم عبارة الحديث على هذا الاستعمال بمعنى أن أمر امتحان الله تعالى للناس والتزييل بين المؤمنين والمنافقين ينتهي الى آخر حده بتيسيره جلت حكيمته السجود للمؤمنين دون المنافقين . وذهب بعضهم الى أن لفظ الساق ورد بمعنى الذات والذفس واستشهدوا له بقول أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه في حرب الشراف لا بد من قتالهم ولو تلفت ساقى . قالوا أي نفسي وعليه يصح أن يكون كشف الساق في الآية والحديث عبارة عن كشف

الحجاب ونحوه عليه ما رواه عبد بن حميد عن الربيع بن أنس في تفسير (يوم يكشف عن ساق) قال : عن الغصاء فيقع من كان آمن به في الحياة الدنيا فيسجدون له . ويدعى الآخرون الى السجود فلا يستطيعون لانهم لم يكونوا آمنوا به في الحياة الدنيا ولا يبصرونه . والاول أقرب الى أساليب اللغة وعليه ابن عباس وجمهور مفسري الساق ، قال ابن عباس فيما روي عنه من طرق ( يوم يكشف عن ساق ) عن شدة الامر وجده ، هي أشد ساعة تكون يوم القيامة ، حتى يكشف الله الامر وتبدل الاعمال . وقال : هو الامر الشديد المفطم من الهول يوم القيامة . وسئل عن كرمه عن الآية فقال : ان العرب كانوا اذا اشتد القتال فيهم والحرب وعظم الامر فيهم قالوا لشدة ذلك : قد كشفت الحرب عن ساق ، فذكر الله شدة ذلك اليوم بما يعرفون . وهذا من التفسير الجلي ، لامن التأويل الخفي للمعنى الاصولي ، وأما تأويله بالمعنى اللغوي أي ما يؤول اليه ويتحقق به في الآخرة فلا يعلمه البشر الا اذا وصلوا اليه . وقد بين البيضاوي أصلاً آخر لكشف الساق نتجه به رواية عبد بن حميد في جملة بمعنى كشف الحجاب فذكر مع عبارته في المعنى الآخر الذي عليه الجمهور لحسن بيانه له وهما قوله في تفسير (يوم يكشف عن ساق) : يوم يشتد الامر ويعظم الخطب . وكشف الساق مثل في ذلك وأصله تشهير الخدراة عن سوقهن في الحرب قال حاتم :

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا  
أو يوم يكشف عن اصن الأمر وحقيقته بحيث يصير عياناً ، مستعار من

ساق الشجر وساق الانسان ، وتمكيره للتحويل او التعظيم اه

ومن ألفاظ الحديث التي اضطرب فيها العلماء مسألة الايمان في الصور المختلفة وانكار المؤمنين له في بعضها ومعرفة في بعض فاختلجوا في تفسيرها وتأويلها فمنهم من أبعد النجدة ومنهم من قارب ، قال بعض المؤولين المراد باتيانها تعالى رؤيته - أقول ولكن الايمان كالرؤية في ايها التشبيه فلم يخص دونها بالتأويل ؟ وقال بعضهم يأتي ملك بأمره لامتحانهم ، ولكن جاء في بعض النصوص الجرم بين ايمان الرب وايمان الملك فيمتنع أن يفسر الاول بالثاني كقوله تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائمة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) وقوله (وجاء ربك والملك صفماً صفماً) على وجهه . فخالفة ظاهر

الحديث للهرب من اسناد الاتيان الى الرب لا حاجة اليه مع هذا - فالاولى قول جمهور السلف إنه اتيان بليق به لا كاتيان الخلق وقد اختلفوا في معنى الصورة وأولوها أيضا، والظاهر أنها عبارة عما يقم به التجلي من حجاب ومنه رداء الكبرياء الذي سبق الكلام فيه ، وقد ورد لفظ الصورة في عدة روايات في الصحيحين لحديثي أبي هريرة وأبي سعيد (منها) كما تقدم من حديث أبي سعيد « أنهما رب العالمين سبحانه في أدنى صورة من التي رأوه فيها » ( ومنها ) « فياتهم الله في غير الصورة التي يعرفون » ( ومنها ) « في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة » ( ومنها ) « ثم يبتدي الله لنا في صورة غير صورته التي رأيناها فيها أول مرة » وفي رواية هشام بن سعد « ثم نرفع رؤوسنا ونعد عاد لنا في صورته التي رأيناها فيها أول مرة فيقول : انار بكم . فنقول نعم انت ربنا » وفي رواية الاعمش عن ابي صالح عن ابي هريرة عند ابن منده « فيتمثل لهم ربهم »

ذكر النووي في شرحه الحديث ابي هريرة من صحيح مسلم مذهب السلف في امثال هذه الالفاظ والصفات وهو الايمان بها وحملها على ما يليق بجلال الله تعالى وعظمته مع التنزيه كما تقدم ، ثم مذهب جمهور المتكلمين القائلين بالتأويل ومنه انه يجيئهم ملك في صورة ينكرونها لما فيها من صفة الحدث ولا تشبه صفات الاله ليمتحنهم « فاذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة : أنا ربكم - رأوا عليه من علامات الخلق ما ينكرونه ويعلمون أنه ليس ربهم فيستميذون بالله منه » وقال في شرح « فياتهم الله في صورته التي يعرفون » : المراد بالصورة هنا الصفة ومعناه فيتجلى الله سبحانه وتعالى لهم على الصفة التي يعلمونها ويعرفونها بها وانما عرفوه بصفته وان لم تكن تقدمت لهم رؤيته له سبحانه وتعالى لانه يرونه لا يشبه شيئا من مخلوقاته فيعلمون أنه ربهم فيقولون أنت ربنا . وانما عبر بالصورة عن الصفة لمشابتها إياها ولجانسة الكلام فانه تقدم ذكر الصورة اه وذاكر الحافظ في الفتح تأويلات اخرى عن القرطبي والقاضي أبي بكر بن العربي من المالكية وابن الجوزي من الحنابلة بقرب مما اعتده النووي وغرضنا من هذه النقول بيان أن أهل السنة قد أولوا ببعض أحاديث الرواية كما أولت المعتزلة والخوارج والشيعة فلا مقتضي للتعادي والتفرق في الدين لاجل التأويل ، وبعض هذه التأويلات اعرق في التكلم من بعض ، وما ساغ

في بعض الروايات لا يسوغ في البعض الآخر . وإذا كان الغرض من التاويل تقريب المعاني الى الاذهان حتى لا يبقى مجال واسع للتشكيك في النصوص فان الواقفين على علوم هذا العصر وفتونه قد يحتاجون الى ما لم يكن يحتاج اليه من قبلهم ، وقد بينا في مسألة الرؤية ما اشتدت اليه الحاجة في فتوى المنار التي أشرنا اليها في هذا البحث ، في مسألة الكلام الالهي مفسرنا به الآيات التي سبقت فيه وسنزيد ذلك ما نأنا هنا ، وسنذكر الفتوى بنصها

(٩) اختلف العلماء في رؤية النبي (ص) لربه ليلة المعراج بين اثبات ونفي ووقف ، واختلف المثبتون في الرؤية هل هي بعين البصر أم بعين القلب والبصرة ؟ كما اختلفوا في المعراج نفسه هل كان بقظة أم مناما أم مشاهدة روحية بين اليقظة والنوم لاختلاف الروايات عن الصحابة والتابعين (رض) فيها ولما ورد في الاحاديث المتعارضة في المسألة عاماً وخاصاً . والتحقيق أنه قد وردت أحاديث مرفوعة صحيحة في النفي دون الاثبات كحديث « نور أني أراه » المتقدم في النفي الخاص به (ص) وكحديث « واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا » رواه مسلم وكذا ابن خزيمة عن أبي امامة وعبادة بن الصامت أما الصحابة فاشتهر الاثبات عن ابن عباس منهم وروي عن أنس أيضا وأخذ به بعض التابعين وقلة بعض المحدثين والمتكلمين الذين لا يدققون في تمحيص روايات الفضائل والمناقب واشتهر المنع عن عائشة والرواية عنها فيه أصح وأصرح ، وتقدم ما رواه الشيخان عن مسروق عنها فيه ، وفي بعض رواياته ان مسروقاً لما سأله هل رأى محمد ربه قالت له : لقد فف شعري مما قلت . وروي النفي عن آخرين من الصحابة منهم ابن مسعود وابو هريرة وغيرهما وأما المحدثون الذين عنوا بالتعادل والترجيح الجهم بين الروايات فمنهم من نظر فيها لاثبات ما سبق الى اعتقاده ومالت اليه نفسه كالحافظ ابن خزيمة وتبعه النووي فرجحا رواية ابن عباس على رواية عائشة التي هي اصح سنداً وا أقوى دليلاً بحجة انها لم تنف الرؤية بحديث مرفوع ولو كان معها لذكرته وانما اعتمدت على الاستنباط فتأولت آية (لا تدركه الابصار) وآية (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً) الخ وقد غفلوا عما لم يجبال من حديثها في الصحيحين وقولها لمسروق لما احتج عليها بدلالة آية سورة الحجم على رؤيته «ص» لربه انها اول من سأله «ص» عن هذه الآية وتقدم لفظها في رواية الصحيحين ؛



وفيه رواية أخرى اصرح في المراد وهي ما أخرجه ابن مردويه باسناد مسلم  
قالت : أنا اول من سأل رسول الله «ص» عن هذا فقلت يا رسول الله هل  
رايت ربك ؟ فقال « لا ، إنما رايت جبريل منتهظا » الخ

ومنهم من نظر في الروايات لأجل التخصيص وتحقيق الحق فيها كشيخ  
الاسلام ابن تيمية والحافظ ابن حجر فينبغي ان الروايات عن ابن عباس  
بعضها مطلق وبعضها مقيد بالرؤية القلبية لا البصرية فاذا حكمت فيها فاعده  
حمل المطلق على المقيد زال التعارض بينها وبين حديث عائشة وما في معناه

قال الحافظ في شرح البخاري : جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة  
وأخرى مقيدة فيجب حمل مطلقها على مقيدها ، فمن ذلك ما أخرجه النسائي  
بسند صحيح وصححه الحاكم من طريق عكرمة عنه : أتعجبون أن تكون  
اخلة لبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد . وأخرجه ابن خزيمة بلفظ :  
ان الله اصطفى ابراهيم باخلة الخ وأخرج ابن اسحاق من طريق عبد الله بن  
أبي سلمة ان ابن عمر ارسل الى ابن عباس : هل رأى محمد ربه ؟ فأرسل اليه  
أن نعم ( وسنها ) ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس « رض »  
في قوله تعالى ( ما كذب الفؤاد ما رأى - ولقد رآه نزلة أخرى ) قال رأى  
ربه بفؤاده مرتين ، وله من طريق عطاء عنه قال رآه بقلبه . وأصرح منه  
ما أخرجه ابن مردويه عنه من طريق عطاء أيضا قال : لم يره رسول الله «ص»  
بعينه إنما رآه بقلبه اه ملخصا ، وقد روى الترمذي عن الشعبي ان ابن عباس  
«رض» سمع حديث قسمة الكلام والرؤية بين موسى ومحمد «ص» من  
كعب الاحبار في عرفة !!

فعلم مما تقدم ان ما روي عن ابن عباس من الاثبات هو الذي يصح فيه  
( ما قبل خطأ في نهي عائشة ! انه استنباط منه لم يكن عنده حديث مرفوع  
فيه ، وانه على ما صح عنه من تقييده بالرؤية القلبية معارض مرجوح بما صح من  
تفسير النبي (ص) لا آتي سورة النجم وهو انهما في رؤيته (ص) لجبريل صورته  
التي خلقه الله عليها ، على ان رواية عكرمة عنه لا يبعد ان تكون مما سمعه من  
كعب الاحبار الذي قال فيه معاوية ان كنا لنسئو عليه الكذب كماي صحيح  
البخاري ، ورواية ابن اسحاق لا يعتد بها في هذا المقام فانه مدلس وهو ثقة في  
المغازي لابي الحديث - فالاثبات المطلق عنه مرجوح رواية كما هو مرجوح دراية

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية إن ابن عباس « رض » لم يقل أنه (ص) رأى ربه بعيني رأسه يقظة ومن حكى عنه ذلك فقد وهم وهذه نصوصه موجودة ليس فيها شيء من ذلك . وقال : ما نقل عن الإمام أحمد من اثبات رؤية النبي « ص » لربه إنما يعنى رؤية المنام فإنه سئل عن ذلك فقال نعم رآه فان رؤيا الانبياء حق . ولم يقل انه رآه بعيني رأسه . وقال بعد ذكر ما تقدم عن ابن عباس : ولفظ الامام أحمد كما عظم ابن عباس ، وأهل السنة متفقون على ان الله تعالى لا يراه أحد بعينه في الدنيا لانه لا يرى غيره ولم يقم النزاع الا في نبينا « ص » خاصة مع ان الاحاديث المرفوعة ليس في شيء منها انه رآه وانما روي ذلك باسناد موضوع باتفاق أهل الحديث اه

فتوى المنار المشار اليها آنفا (من ص ٢٨٢ م ١٩)

﴿ التحقيق في مسألة رؤية الرب سبحانه وتعالى ﴾

إن من أصول العقائد القطعية المعلومة من الدين بالضرورة أن نعيم الآخرة قسمان روحاني وجسماني لان البشر لا تنال حقيقة نعيمهم في الآخرة بل يقعون بشرا أولي أرواح وأجساد، ولكن الروحانية تكون هي الغالبة على أهل الجنة ، فيكون النعيم الروحاني عندهم أعلى من النعيم الجسماني . ومن الثابت بالاختبار والتجارب أن الماء الراسخين والحكام الربانيين - والفلاسفة الماديون (١) والرؤساء السباسبين - كلهم يفضلون لذات العقلية الروحية والحياة المعنوية ، على اللذات المادية الجسدية ، فترى أحدهم يزهد في أطيب الطعام ، وكؤوس المدام .

(١) أي وكذا والفلاسفة الماديون . وهو استعمال يمد بلاغا اذا كان لما رفع خصوصية في السياق ككون الماديين هنا مظنة لمخالفة الروحانيين . ومنه قوله تعالى في سورة المائدة (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابغون) الخ ويقابل هذا الاستعمال في نصب ما هو في مقام الرفع ما نصب على الاختصاص او المدح والذم وهو اكثر في الاستعمال ومنه قوله تعالى : لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة ) الخ والغرضان المتضمان لتغيير النسق في مثل الآيتين من مقاصد بلاغة اللغة فيجب ان يكونا قياسيين وان كان النقل في الاول قليلا لعدم فطنة رواة اللغة له

ويتجافى جنبه عن مضجعه ، ذاهلاً عن حقوق حابسته ، تلهذاً بجمل مشكلات لمساائل  
 واكتشاف أسرار الكون ، أو بالفتى في عمق السيادة ، وما تقتضيه أعباء الرياسة ،  
 ألا وان أعنى العلوم العقلية والمعارف الروحية في هذه الدنيا هو معرفة الله سبحانه  
 وتعالى والعلم بمظاهر أسمائه وصفاته في خلقه والوقوف على سننه وأسراره فيما ،  
 وكشف الحجب عما أودع فيها من الجمال والجلال ، وفي النظام الذي قامت به  
 من آيات الكمال ، التي هي مجلى صفات بارئها وهو منتهى الجمال والجلال والكمال ،  
 عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال

وما زال أصحاب لهمم النالية من العلماء والحكام يستلون بما ظهر لهم من  
 تلك السنن والآيات على كمال بديعها ومدتها ومصرفها ، وانقطع عيون عقولهم  
 الى كيفية صدور الوجود الممكن احداثاً ، (وهو مجموع هذه عوامل العلوية  
 والسفلية) عن الوجود الازلي لواجب ، ويهتمون بارتقاء الاسباب الموصول الى  
 معرفة أول موجود ممكن منها ، وكيف ابتدأت سلسلة الاسباب بعد ذلك بتحول  
 البسائط وتولد بعضها من بعض ، قبل وجود هذه المركبات المعروفة من السماء  
 والارض ، طمعا في معرفة حقيقة ذلك الوجود الاعلى ، على عجزهم عن إدراك  
 كنه أدنى هذه الموجبات السفلى ، وقد اختلف الحكماء في امكان وصول العلم  
 البشري ، الى حقيقة الوجود الاول الازلي ، وكيفية صدور الموجودات الممكنة عنه ،  
 فقال بعضهم بامكان ذلك وتوقع حصوله في يوم من الايام ، وقال آخرون بأنه  
 فوق استعداد الانام

والحق في ذلك ما هدانا اليه دين الله الحق ، وهو أن ادراك ابصار الخلق له  
 سبحانه وتعالى وإحاطة علمهم به من المحال الذي لا مظمع فيه (لا تدركه الابصار  
 وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا  
 يحيطون به علماً) ولكن العجز عن الادراك والاحاطة ، لا يستلزم العجز عما دون  
 ذلك من العلم والمعرفة ، التي ترتقي الى الدرجة التي عبر عنها بالتجلي والرؤية ،  
 فان كانت ظواهر الآيات في ذلك متعارضة ، فالاحاديث والآثار الصحيحة  
 المبينة له جلية واضحة ، وانما وقع الراء بين المتكلمين والمتفلسفين وبين علماء الآثار

الاعراف . س ٧ الخلاف بين المتكلمين وأهل السنة في رؤية الرب تعالى ١٥١

في كلمة «الرؤية» فأثبتها أهل الاثر للدلالة ظواهر القرآن ونصوص الاحاديث عليها ، ومنعوا قياس رؤية الباري تعالى على رؤية المخلوقات ، بدعوى استازامها التحيز والحدود وغير ذلك من صفات الاجسام ، وقلوا اننا لا نبحث في كيفية ذاته ولا صفاته تعالى ، قائداً نجزم بأن له علماً وقدرة وسمعاً وبصراً ، ولكن علمه ليس ناشئاً كعلمنا عن انطباع صور المعلومات في النفس ، ولا مكتسباً بالحواس أو الفكر ، وكذلك قدرته وسائر صفاته ، فنحن نجتمع بين الايمان بالنصوص في أسماء الله وصفاته وأفعاله وسائر شؤونه ، وبين تزييمه عملاً لا يليق به من مشابهة خلقه ، الممنوعة بدلائل النقل والعقل ، كما قال عز وجل ( ليس كمثل شيء وهو السميع البصير )

ونفاها ( بعض ) أهل الكلام والفلسفة بناء على قياس الخالق سبحانه وتعالى على المخلوق ودعوى منافية الرؤية للتزييم ، الذي هو أصل العقيدة وركنها الركين . ولكنهم لا يستطيعون انكار الحقيقة التي أثبتتها أهل السنة والجماعة اذا عبر عنها بغير لفظ الرؤية ، كأن يقال إن أعلى تزييم أهل الجنة لقاء الله تعالى بتجليه عليهم تجلياً يحصل لهم به أعلى ما استعدت له أنفسهم وأرواحهم من المعرفة ، وان عظم عقاب لاهل النار حجبتهم عن ربهم وحرمانهم من هذا التحلي والعرفان ، الخاص بدار الكرامة والرضوان . فانهم لا يعتنون بتأويل مثل قوله تعالى في المتئين ( تحيتهم يوم يلقونه سلام ) وقوله في الكافرين ( كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ) كما يعتنون بتأويل قوله ( وحوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ) بأن النظر معناه الانتظار ورجاء ، وما رده بعضهم على بعض في الآية يطلب من الكشاف والبيضاوي وحواشيها وسائر كتب التفسير ومن كتب الكلام وشروح الاحاديث ( )

وكم بين حذاق الجدال تنازع وما بين عشاق الجمال تنازع  
ومن غرائب جدلهم أن كلا منهم يستدل على مذهبه بطلب موسى عليه  
السلام رؤية ربه وقوله تعالى ( لن تراني . . ) الآية . فأهل السنة يستمدلون

( \* ) قد عدنا فيينا آفا لباب الخلاف ، واهم دلائل الفريقين مع الانصاف

على جواز الرؤية بسؤال الكلام المأثور بعدم أنكر النبي تعالى عليه هذا السؤال كما أنكر على نوح عليه السلام سؤاله لها ولداً لا فر بها ، على أنه من أهل الدين وعده بنجاتهم — وبتعلق الرؤية على جازز وهو استقرار الجبل ، والمعزلة يستدلون بالآية على عدم الرؤية بعدم اجابة الكلام اليها وتليقها على ما علم الله أنه لا يكون

وإذا كانت الآيات التي استدل بها كل فريق ليست نصاً قاطعاً في مذهبه ففي الاحاديث المتفق عليها ما هو نص قاطع لا يحتمل التأويل في الرؤية وتشبيهها برؤية البدر والشمس في الجلاء والظهور وكونها لا مضارة فيها ولا تضام ولا ازدحام . وفي كتاب التوحيد من صحيح البخاري أحد عشر حديثاً في ذلك ، وجمع ابن القيم في ( حادي الأرواح ) ما ورد في ذلك من الاحاديث فكان ثلاثين حديثاً . قال الحافظ ابن حجر عند اشارته الى ذلك : وأكثرها جيد . وزاد ابن القيم ما ورد عن الصحابة والتابعين وأئمة علماء الامصار في ذلك وحماهم اياه على ظاهره مع تنزيه الله تعالى عن تشابه الخاومات ، ولكن بعض مشبهي الرؤية من أهل السنة اختلفوا في معامها فكان بعض مآقوله تأريلاً أبعد من تأويل المنكرين قال الحافظ في الكلام على تفسير ( وجوه يومئذ ناظرة الى ربها ناظرة ) من شرح كتاب التوحيد من البخاري ما نصه : واختلف من أثبت الرؤية في معناها فقال قوم بحصل للرائي العلم بالله تعالى برؤية العين كما في غيره من المرئيات وهو على وفق قوله في حديث الباب « كما ترون القمر » ألا انه منزه عن الجهة والكيفية وذلك أمر زائد على العلم . وقال بعضهم : ان المراد بالرؤية العلم ، وعبر عنها بعضهم بأنها حصول حالة في الانسان نسبتها الى ذاته لمخصوصة نسبة الابصار الى المرئيات . وقال بعضهم : رؤية المؤمن لله نوع ككشف وعلم الا أنه أتم وأوضح من العلم ، وهذا أقرب الى الصواب من الاول اهـ

ثم ذكر ما تعقب به من قال ان المراد بالرؤية العلم . وإنما لفي القول لاخير انه أقرب الى الصواب لما فيه من الفريض وعدم التعميد ، وهذا المعنى هو الذي قال به الغزالي وأوضحه في كتاب المحبة من الاحياء بما يعهد من قرأ الاحياء من بيانه وفصاحته

هذا وان احصاء ما ورد في هذا الباب مما استدل به على الرؤية اثباتا ونفيان  
الآيات والاحاديث ومرد كلام المثبتين والنفاة وبيان الراجح منه والمرجوح  
يستغرق عدة اجزاء من المنار، ولن برضى ذلك منا أكثر القراء (١) رجلة القول في  
المسألة ان الآيات القرآنية ليس فيها نص قاطع لا يحتمل التأويل، ولكن بعض الاحاديث  
الصحيحة والحسنة صريحة في ذلك لا تحتمل التأويل، والمرفوع منها مروى عن  
أكثر من عشرين صحابيا دع الموقوف والآثار، ولم يرد في معارضتها شيء. أصرح  
من حديث عائشة المتفق عليه عن مسروق قال قلت لعائشة (رض) يا أمنا هل  
رأى محمد (ص) ربه ليلة المعراج؟ فقالت: لقد قف شعري مما قالت: أين أنت  
من ثلاث من حدثتكم فقد كذب،: من حدثك أن محمداً (ص) رأى ربه  
فقد كذب، وفي رواية: فقد أعظم على الله الفرية. ثم قرأت (لاتدركه الابصار  
وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير) وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو  
من وراء حجاب) ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت (وما تدري  
نفس ماذا تكسب غدا) ومن حدثك أنه (أي أن النبي (ص) كنتم شيئا من  
الدين فقد كذب، ثم قرأت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) —  
الآية — ولكن رأى جبريل في صورته مرتين . ١٥

وقد ذكر النووي في شرح مسلم أن عائشة لم تنف وقوع الرؤية بحديث مرفوع  
ولو كان معها لذكرته وانما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية وقد  
خالفها غيرها من الصحابة الخ وذكر الحافظ في الفتح انه قال ذلك تبعا لابن خزيمة  
ذاهلا عما ورد في صحيح مسلم الذي شرحه، وذكر ان في حديث مسروق عنده  
زيادة عما ذكرناه من لفظ البخاري وهي: — قال مسروق وكنتم متكئا فجلس  
وقالت ألم يقل الله ( ولقد رآه نزلة أخرى ) فقالت أنا أول هذه الامة سأل رسول  
الله (ص) عن ذلك فقال « إنما هو جبريل » الخ

فعلم من هذا ان عائشة تنفي دلالة سورة النجم على رؤية النبي (ص) لربه  
بالحديث المرفوع وتنفي جواز الرؤية مطلقا أو في هذه الحياة الدنيا بالاستدلال بقوله

(١) قد اوردنا في المباحث المتعلقة بها آتفا اصح ما ورد واقوى ما فيه  
« تفسير القرآن الحكيم » « ٢٠ » « الجزء التاسع »

تعالى ( لا تدركه الابصار ) وقوله ( وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ) ويعارض هذا الاستدلال انه ليس نصافي النبي حتى يرجح على الاحاديث الصريحة في الرؤية وقد قال بها بعض علماء الصحابة . وقال بعض العلماء ان عائشة ليست أعلم عندنا من ابن عباس الذي أثبت الرؤية للنبي ليلة المعراج . وفي هذا القول بحث فان ابن عباس استنبط اثبات الرؤية في الدنيا من الآيات وقد انفرد بذلك دون سائر الصحابة . وأما من روي عنهم إثبات لرؤية في الآخرة فليس فيهم أحد يقال انه أعلم من عائشة الا والدهما الصديق وعلى المرتضى وزيد ابن ثابت وقد يذكر في طبقتهم منهم العبادلة . ولكن الحديث عن أبي بكر وزيد ابن ثابت في هذا الباب ضعيف وعن علي موضوع حتى ان ما روي عنها نفسها فيه أقوى سندا . ويقول النفاة لو رأى النبي ( ص ) ربه ليلة المعراج لما خفي نبأ ذلك عن عائشة مع ما علم من حرصها على العلم ، وسؤالها اياه عن آية النجم ؟ وقد يقول النفاة أيضا : لو كانت الرؤية في الآخرة عقيدة يطالب المسلمون بالإيمان بها لما جهلتها عائشة . ولكن هذا القول لا ينهض لمعارضة اثبات المثبتين لها بالا حاديث الصريحة ، وانما قصاراه ان يعد دليلا على أن المسألة من أمور الآخرة التي كان يذكرها النبي ( ص ) أحيانا لبعض الخواص اذا يضر العامة جهلها ، فلم يقصد أن تكون عقيدة يدعى اليها مع التوحيد .

وأحسن ما يجاب به عن استنباط عائشة وأقواله عند المثبتين أن يقال إنها تريد به نفي الرؤية في الدنيا كما قال بذلك الجمهور ولا تقاس شؤون البشر في الآخرة على شؤونهم في الدنيا لان لذلك عالم سنا ونوم ليس يخالف سنان هذا العالم ونوم ابيه حتى في الامور المادية كالاكل والشرب والمأكل والمشروب فمما الخنة غير آسن فلا يتغير كما الدنيا بما يخاطه أو يجارره في مقره أوجوه ، وخرها ليس فيها غول يغتال العقل ولا يصد عوز عنها ولا يتزفون ، ولينها لا يعتربه فساد ، ولا تخاطه حنة ( ميكروبات ) أمراض ، وكذلك فاكهتها وثماتها هي على كونها أعلى وأشهى مما في الدنيا لا تمس . قال ابن عباس : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة الا الاسماء . وكذلك أمزجة أهلها ، هي أصح وأسلم من امزجة أهل الدنيا حتى إنهم يأكلون

ويشربون فيكون هضمهم ناتبخر ورشح العرق ، مفر الحديث الصحيح أنه جشا، ورشح لها ريح المسك . ولا عجب في ذلك فإن علماء العصر الذين يظنون أن في كوكب المريخ أحياء عقلاء كالبشر يجزؤون بأنهم لا بد أن يكونوا أكبر من أجسامنا وأمرع من الخيل العادية في حركتهم العادية، هذا وعالم المريخ لا يعرف فيه من الحياة الروحانية العالية مثل ما ورد في حياة الجنة ، ولكن ما ذكره علماء العصر في شأنه يقرب تصور ما ورد في صفة الآخرة من الأذهان المتقدمة بالمألوفات، فإن بعض الناس إنما ينكرون أخبار الآخرة لأنها مخالفة لما جمدوا عليه من المألوفات ، ولو أنهم أخبروا بما اكتشف من أمرار الكون في هذا العصر كخبر اص الأهرباء والراديوم قبل أن يصير مشهودا مقطوعا به لما صدقوه قال الله عز وجل في بيان جزاء المؤمنين القائمين بأعمال الإيمان حق القيام ( فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ) ووضح ذلك رسوله ( ص ) في حديث قدسي رواه الشيخان في صحيحهما عن أبي هريرة قال ( ص ) « قال الله عز وجل : أعددت لصلحاء ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وروى أهل الكتاب مثل هذا عن سيدنا عيسى (ص) فإذا ثبت لنا أن كل ما ورد في دار الكرامة أعلى وأسمى مما في الدنيا حتى الأجسام وصفات الناس وغرائزهم وأنه لا يشارك ما في الدنيا إلا بالاسم ، الذي عبر عنه به ضرورة تقريب تلك المعاني الغيبية من الفهم ، فهل يصح بعد ذلك ان نمدل على أعلى ما هنالك من الشؤون الإلهية المعنوية فنشبهه بشؤون الدنيا؟ فنجدل تجلي الرب سبحانه وتعالى لأولئك العباد المكرمين الذين رقام وكلام وأهلام لكامل معرفته تحيزا ومشابهة للخلق؟ ونجدل ما يحصل لهم من ذلك التجلي من العلم لا كمال والمعرفة العليا التي تستغرق أرواحهم وجميع مشاعرهم الظاهرة والباطنة إدراكا لكنه الرب عز وجل واحاطة علمه—تعالى عن ذلك—ثم نعدر أنفسنا على هذا الجهل بأن ذلك قدسي رؤية ومعاينة ولا بد أن تكون الرؤية هنالك كرويةتنا التي نهداها هنا ؟

سبحان الله ! أيكون كل ما هنالك من أعيان المخلوقات وصفاتها وأحوالها



مخالفا لما له اسمه منها هنا الا ما يتعلق بشأن الخلق عز وجل فهو الذي يجب أن يكون مشابها لشؤون الخلقين بعضهم مع بعض ؟ أهذا هو المذهب الذي يدعي أصحابه اتباع المعقول ، ويستخرون من أهل السنة بزعمهم أنهم جمدوا على بعض أحاديث الآحاد من المنقول ؟ وهم الذين قد جمدوا على ما دون ذلك من الالفاظ العربية التي استعملت في صفات الباري تعالى وشؤونه وأخبار عالم الغيب فترام بصرفونها عن معانيها وبطلون مدلولاتها المقصودة لتوهم أنها لا تكون صحيحة الا اذا كانت مدلولاتها في عالم الغيب كدلولاتها في هذا العالم من كل وجه . ثم تحكموا فأثبتوا بعض صفات الباري تعالى بدون تأويل كالعلم والقدرة والارادة، وهذا عين التشبيه ، وأولوا أكثرها كالكلام والرحمة والمحبة والغضب والرضاء والعلو والوجه واليد الخ وهذا عين التعطيل — وأهل السنة يثبتون له تعالى كل ما أثبتته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ( ص ) وينزهونه فيه كله عن مشابهة خلقه ولا يرون فرقا بين العلم والرحمة والكلام فكأبها من صفات الكمال الثابتة له مع التنزيه — فعلمه ليس كعلم البشر متزعا من صور المعلومات بالحس أو الفكر — وكلامه ليس كيفية عرضية يحصل بتموج الهواء بتأثير الصوت الذي يخرج من الفم — وكذلك سائر صفاته وشؤونه تعالى ، فتجليه لخواص خلقه في دار كرامته ليس كظهور بعضهم لبعض ، وما يحصل لهم من رؤيته ومعرفة وسماع كلامه لا يشابه ما يكون من بعضهم لبعض

وإذا كنا قد عرفنا بالمشاهدة في عالم الحس أن إيقاد مصباح زيت الزيتون أو زيت البستروك لا يشبه إيقاد مصباح الكهرباء بوجه من الوجوه ولا يشترط في الثاني ما يشترط في الاول — ونجزم بأن هذا الفرق لا يمكن أن يتصوره من لم يعرف الكهرباء البتة — فيجب علينا أن لا نستغرب ما هو أبعد من هذا الفرق بين عالم الغيب والشهادة في اختلاف الكيفية الحقيقية واحدة كالرؤية . ومن كان له حظ من معرفة الله تعالى في الدنيا لا يحتاج الى الامثال ، وحسب المحروم منها أن ينتفع بالامثال ، ( وتلك الامثال نضر بها للناس وما يعقلها الا العالمون )

( انتهت الفتوى )

( خلاصة وتنمة تزيد المسألة وضوحا ، ومذهب السلف ثبوتا )

(١) الرؤية ليست من أصول الايمان القطعية

قد علم مما تقدم أنه ليس في الرؤية البصرية نص أصولي ولا لغوي متواتر قطعي الرواية والدلالة يجمعها من العقائد المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة، وليست مما كان يدعى اليه في تبليغ الدين مع التوحيد والرسالة بحيث يكون من يجهلها أو ينكرها كافرا، وإنما هي من غريب العلم الاعلى الذي يستنبطه من القرآن كبار المعارفين، وربما كان فتنة لمن دونهم - وكذلك كان - حتى إن كبار النظار وعلماء البيان قد اختلفوا في كل من الآيات الثلاث الواردة فيها: في سور الانعام والاعراف والقيامة، فجعلها بعضهم مثبتة وبعضهم نافية، والقاعدة في دين الرحمة والشرعية السمحة أن الحجة لا تقوم على جميع المكلفين إلا فيما كان قطعي الدلالة لفة، وانهم يمدرون باختلاف الافهام في غيره كما علم من واقعة تحريم الخمر والميسر فان آية البقرة تدل على التحريم مقتضى القاعدة المعروفة عند الفقهاء وهي تحريم ما تغلب المفسدة فيه على المصلحة ويرجع الضرر فيه على النفع، وقد نطقت الآية بهذا الترجيح في الخمر والميسر (ولإنهما أكبر من نفعهما) وهو ما فهمه بعض خواص الصحابة فتركوهما. ولم يكف جميع المسلمين تركهما إلا بعد نزول آية المائدة التي هي نص قطعي لا يحتمل التأويل إذ نطقت بأنهما رجس من عمل للشيطان وصرحت بالامر باجتنابه وهو أبلغ من الامر بالترك وما من مسألة ذكرت في القرآن بنص غير قطعي الدلالة إلا وقف تعالى حكمة في عدم القطع بها، وقديين حكما العلماء حكمة ذلك في الخمر والميسر بأن شدة افتتان الناس بهما كانت تقتضي أن يشق على الناس تركهما دفعة واحدة حتى يتعذر على بعض المؤمنين من ضفاف الايمان تركهما ويتعسر على بعض، وينفر غير المسلمين من الاسلام، فكان من حكمة الرب ورحمته جل جلاله أن يحرمهما بالتدرج ولا سيما الخمر فانه أنزل آية تقتضي ترك الخمر في عامة النهار وناشئة الليل وهي قوله ( لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ) فراجع تفسيرها البليغ في سورة النساء - وآية يفهم منها دقبق العلم قوي الايمان التحريم فيتركها في كل وقت وهي آية سورة البقرة ثم صرح بمد ذلك بمنين بالاجتناب على سبيل القطع لولا غملة العلماء الذين طمن بعضهم في علم المخالف له في مسألة الرؤية وفي

دينه عن هذه الحكمة وتلك القاعدة لعذر كل منهم الآخر ولم يجدوا الخلاف فيها عصبية مذهبية ، ولعلم المثبتون لها منهم أن الله تعالى لو أراد أن تكون عقيدة عامة وركنا من أركان الايمان لبين ذلك في آية صريحة لا تحتمل التأويل ناطقة بأنه يرى بالابصار عيانا بلا كيف ولا إحاطة ولا تمثيل ولقال النبي (ص) حين عرف الايمان في حديث جبريل بعد قوله « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » : وان المؤمنين يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم عيانا بلا كيف ولا تشبيه — ولا امر بتلقين هذا الشكل من يدخل في الاسلام ولتواتر عنه وعن أصحابه الجري على ذلك حتى يكون معلوماً من الدين بالضرورة ، واذا لما وقع فيه خلاف ، ولما استنكرت عائشة سؤال مسروق إياها عن رؤية النبي (ص) لربه حتى قف شعرها من استعظام ذلك ، ولو كانت تعتقد أن الرؤية تكون في الآخرة لجميع المؤمنين لما استنكرت واستكبرت حصولها للنبي (ص) في الدنيا امتيازاً له لان روحه فيها أقوى من أرواح سائر المؤمنين في الآخرة فيطبق ما لا يطبقه غيره حتى موسى عليه السلام ، ولقاست هذا الامتياز على الناس بامتيازهم — عليه صلوات الله — عليهم بالوحي ورؤية الملائكة وغير الملائكة من عالم الغيب ، على انه (ص) كان ليلة المعراج في ذلك العالم لا في عالم الارض

فالحكمة الظاهرة لعدم النص القطعي في القرآن على المسألة أنها مما تتحيز فيه العقول وربما كانت مما يدخل في عموم ما رواه مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن مسعود « ما أنت بمحدث قوما حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » وعموم ما ذكره البخاري في كتاب العلم عن علي كرم الله وجهه . « حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله » - وروياً مرفوعين ولكن إسنادين ضيعين - والمراد بالمعرفة في الثاني ما يقابل المنكر وما لا يعقل لا ما يقابل الجهل إذ يكون من تحصيل الحاصل وقد زاد فيه آدم ابن أبي اياس وأبو نعيم في المستخرج : ودعوا ما ينكرون . ذكره الحافظ في الفتح واستشهد له بأثر ابن مسعود المذكور آنفاً ، واستدل به على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة وفسر ما لا ينكرون بما لا يشق عليهم فهمه . ولا يسلم قوله هذا على إطلاقه فانه يجب استثناء ما في القرآن منه إذ لا يجوز كتمانها عن أحد ، على أنه كله من قبيل آيات الرؤية ، ليس فيها مثار للفتنة ، مع عقيدة التنزيه ونفي المهائلة ،

وقاعدة التفويض التي جرى عليها السلف - فهذا هو الذي محول دون اتباع المتشابه إلا لمن في قلبه زيغ كما نص في آية المحكم والمتشابه من أول سورة آل عمران. وهذا يؤيد قولنا إن الإمام أحمد لم يكفر منكري الرؤية إلا لأنه كان يعتقد أن الحامل لهم على الإنكار هو الزيغ والزندقة

ثم قال الحافظ: ومن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها لخروج على السلطان ومالك في أحاديث الصفات وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرايين وإن المراد (أي بالثاني) ما يقع من الفتن (١) ونحوه عن حذيفة وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة المرنيين لأنه أخذها وسيلة إلى ما كان يعتمد منه من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي. وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة وظاهره في الأصل غير مراد فالإسك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره بمطوب والله اعلم اهـ (٢)

(١) أي حديث جرابي العلم اللذين حفظهما عن النبي (ص) فبث أحدهما ولو بث الآخر لقطع بعلومه

(٢) حاشية: ومن ذلك ما ذكره بعض علماء الشام لجمال باشا السفاك من جزاء البغاة الخارجين على إمام المسلمين وجماعتهم فأخذ حجة لدى العامة على صلب من صلبهم بغير حق من ثايفي البلاد، ولم يكن هو منفذا لأمر سلطانه الذي لم يكن من أئمة الحق بل لم يكن له من السلطة شيء إذ جمال باشا وجمعيته كانوا عم الخارجين عليه وكذلك كان يفعل أمير مكة حسين منذ سمي ملكا في الحجاز: يقطع الأيدي والأرجل ممن يخالف سياسته ولو بذنب معتاد أو بغير ذنب شرعي حتى روي أن رجلا فر من سجنه الذي هو أقمح مظاهر الظلم والقسوة فأمر بقطع يده ورجله من خلاف وإن رجلا آخر أنكر في حرم المدينة المنورة أطراء الخطيب له في الخطبة بما هو كذب وزور فأمر به بقطع وصلب ووضع على صدره لوح كتب فيه (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف) الآية وكان هذا قبل جهرة بدعوى الخلافة، فلو قرء العالم الإسلامي على هذه الدعوى بإجازة تلك البيعة الباطلة من بعض أولي العصبية =

( اقول ) هذه مسألة كبيرة من مسائل الاجتهاد تدخل في باب التعارض والترجيح من الاصول ، اعني التعارض بين ما اوجب الله تعالى من بيان العلم واظهار الشرع وما حرم من السكتان في قوله ( ليبيننه للناس ولا يكتمونه ) وبين ما حرم من الظلم والفساد والفتنة وما وجب من سد ذرائعها مما هو مجم عليه ، ولم أر لاحد من العلماء تحقيقاً لهذا البحث وليس هذا محله

( ٥ ) الرؤية في العمل النومي

قد ثبت بالتجربة المكررة والرؤية البصرية أن بعض الناس يفعلون في حال النوم المعطل لجسيم الحواس اعمالاً دقيقة كالقراءة والكتابة وتركيب الادوية ، بسرعة ومهارة . يجزون عن مثلها في اليقظة ، وقد كان يخرج أحدهم من منزله ثم يعود اليه وهو مغمض العينين وقد يفتحهما ولا يزي بهما إلا ما توجهت ارادته اليه كعض الصيادلة الذي راقبه طبيب عرف حاله فرآه يقرأ وصفات الاطباء ويركب ما جاء فيها فألقى اليه فيها وصفة دواء سام يقتل شاربه في الحال فقرأها واعاد التأمل فيها وقال : لا شك أن هذا

= الجاهلية العمية وفالي أي حد كان يتهوك ويتقحم في جرأته على تحريف كتاب الله تعالى واستحلال دماء المسلمين به ؛ وانما نزلت الآية تهديداً للبغيظة الخارجين على امام المسلمين وجماعتهم - بقطع الطرق وتهديد الامن العام ونهب الاموال وقتل الانفس لا على أفراد المعصاة وان اقترفوا أكبر الكبائر كالقتل والسرقه وقد منم الله عقاب البغيظة بذلك اذا نابوا قبل القدرة عليهم وخير الامام فيهم اذا ظهر عليهم بالقوة فقال : انما جزاؤهم كذا أي اذا كانت المصلحة فيه ولم يقل فيهم كما قال في السارق والسارقة ( فاقطعوا أيديهما ) وفي الزاني والزانية ( فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة )

(١) طرقه الامام الشاطبي في (الباب الثامن) من كتاب الاعتصام في الفرق بين البدع والمصالح المرسله والاستحسان ) ومما ذكره من الوقائم في بعض فروعه ان بعض كبار العلماء افتوا بعض الملوك بوجوب صيام شهرين متتابعين في كفارة الواقع في نهار رمضان دون العتق لان الصيام يزجرهم عن افساد صيامهم دون العتق ، وان مالكا افتى الرشيد بصيام ثلاثة ايام في كفارة اليمين ويراجع تفصيله في ( ص ٥٤٨ ج ٣ منه )

غلط اوسبق قلم من الطبيب فأنا لا أرتبه ، وألقاها وراقب بعضهم رجلا آخر كان يخبر أن نقوده تسرق من صندوقه لحديدي في كل ليلة فبات عنده فراة قد قام من فراشه بعد استغراقه في النوم وفتح صندوقه وأخذ منه بعض النقود وخرج بها فتمعه حتى جاء مكانا خرابا فتسلق جدارا من جدره المتداعية ومشى عليه بسرعة ثم نزل في داخله وحفر في الارض حفرة ووضع فيها ما حمله من النقود وعاد فتسلق الجدار ومر عليه مسرعا والمراقب ينظر اليه ولا يستطيع أن يفعل فعلة وعاد الى منزله وأوى الى فراشه فلما استيقظ في النهار عدا الدرهم وأخبر الرجل الذي بات عنده ليكشف له حال من يسرق صندوقه عما نقص منها فحدثه هذا بما رآه فمجب وأنكره فدعها الى المكان فلم يستطع الرجل أن يتسلق الجدار ويمشي عليه ، مسرعا في فعل وهو نائم ولديهما تكلما ذلك وتريثا فيه حتى وصلا الى مكان طمر النقود ويحشا عنها فوجداهما في عدة مواضع . ورؤي بعض علمان أسرتنا مرارا يقوم من النوم ويخرج لحاجته ثم يعود وهو نائم ودخل المطبخ مرة فنظف بعض الأتية فيه وعاد الى فراشه وهو نائم وربما كانت هذه الحالة مؤيدة للذهب من قال ان اللسان تفسين أو روحين تفارقه إحداهما في حال النوم فقط وتفارقه الثنتان مآ بالموت ، ويقرب هذا من قوله تعالى ( الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى )

### ( ٣ ) الرؤيا والاحلام

الرؤيا النومية والاحلام منها خواطر تتمثل واقعة في حال النوم وسببها اشتغال الفكر بها أو أسباب تعرض للنائم فيتحيلها بنفسها أو ما يشبهها واقعا وهي أضغاث الاحلام ، ومنها الرؤيا الصادقة ( رؤيا ملك مصر التي أولها له يوسف عليه السلام وأمثالها كثير وقع معنا ومع غيرنا وثبت بالتواتر كنبوتنا لا يحتمل التأويل بالرغم من أنوف المكابرين وقد بيده من قبل بالنجارب القطعية وأعلاه وأكلاه رؤيا الانبياء التي هي من مبادي الوحي ، وقد وقع النبي ( ص ) رؤية الرب تعالى في المنام كما روي عن ان عباس وأمس وطن بعضهم أنه أرادها الميقظة وقد تقدم ذكر ذلك في هذه المباحث ، ووقم ذلك لغيره أيضا

### ( ٤ ) الرؤية في النوم المغناطيسي

النوم المغناطيسي قد اشتهر ونثر وهو يحصل بالتنويم صناعي يستعان عليه « تفسير القرآن الحكيم » « ٢١ » « الجزء التاسع »

بقوة ارادة بعض الناس وتأثيرهم في أنفسهم من ينومونه أو ببعض الاعمال التي لا محل لبسطها هنا . والنائم به يغيب ادراكه وشعوره عن كل شيء ما عدا منومه فان نفسه تكون رهن تصرفه فاذا امره بشيء خضع لارادته بقدر ما في نفسه من الاستعداد لذلك وقد ثبت بالتجارب الكثيرة أن المنوم يسأل النائم عن أشياء غائبة أو مستورة ما هي وأين هي ؟ فعند سؤاله إياه عنها تتوجه نفسه إليها فيراها ويخبره عنها فيصدق

فهذه ثلاثة أضرب أو أنواع من الرؤية للشئ لا عمل للعين فيها إلا أن العرب خصت ما يرى في النوم باسم الرؤيا . بالالف . وما يرقم في البقطة باسم الرؤية ، ولم تفرق بينهما في الافعال ، ولعلمها لو عرفت النوع الاول والثالث مما ذكرنا هنا لسمته رؤيا أيضاً ،

روى احمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عباس (رض) في قوله تعالى ( وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ) قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله (ص) ليلة أسري به الى بيت المقدس وليست رؤيا منام . نقول ولكن الله تعالى سماها « رؤيا » لا رؤية . والتحقيق المختار أن الاسراء والمعراج كانا في حالة روحية قوي فيها سلطان الروح على سنن الله في الجسد فصار خفيفاً لطيفاً كالأجسام التي تتمثل فيها الملائكة للانبياء (ع م) وتمثل فيها الروح للسيدة مريم (ع م) لا بالروح فقط كما قيل ولا في المنم كما في رواية شريك في كتاب التوحيد من صحيح البخاري وهو يتفق مع قول من قالوا إنما بالروح والجسد إذ إطلاقهم لا ينافي هذا القيد . وان قيل ان الجسد الذي حلته روحه الشريفة ليلتئذ غير جسده المعتاد ليناسب العالم الذي دخل فيه . فكيف ولا مانع من كونه هو بعينه اثرت فيه الروح فلطفته وجعلته كالآثير في لطفه وقوته في هذا العالم الدنيوي ، وبقي السلطان للروح ، جبريل الذي تمثل للنبي (ص) بصورة دحية ولمريم بصورة شاب جميل الصورة هو جبريل الذي رآه النبي (ص) بصورته سادا الافق الأعلى وقال تعالى فيهما ( فأوحى الى عبده ما أوحى ) بوضع هذا ما يأتي

(هـ) تشكل الملائكة والجن ورؤيتهم في هذه الحالة

قد ثبت عن أفضل البشر وأصدقهم من أنبياء الله وبعض أوليائه أنهم كانوا يرون الملائكة والجن في صور لطيفة أو كشيعة وثبت تمثلهم لهم بنص

القرآن وغيره من كتب الوحي .

وقد صحح أن النبي (ص) لم ير جبريل ملك الوحي في صورته التي خلقه الله تعالى عليها إلا مرتين ، وقد علم بالقطع أنه رآه في الصور التي كان يتشكل فيها مراراً بعد بالمئين أو أكثر ، وليست محصورة في عدد نزوله بآيات القرآن وسوره ، وقد كان من تلك الصور صورة دحية الكلبي رضي الله عنه ، ومنها صورة الرجل الغريب الذي سأل النبي (عليهما السلام) عن الإسلام والايمان الخ وهذا النوع من الصور الكثيفة رآه فيه من حضر مجيئه من الصحابة (ص) ومنها صور لطيفة لم يكن يراه فيه غير النبي (ص) وقرله في حديث الوحي الذي رواه الشيخان : « وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول » يشمل النوعين ، وورد أنه (ص) مثلات له الجنة والنار في عرض الحائط فرآهما ولم يرها غيره ، ومعنى هذا ان الله تعالى أراه مثلالهما وهذا غير تمثّل الملك له بارادته وعمله

وقد رأى (ص) غير جبريل من الملائكة ورأى بعض الشياطين أيضاً متمثلة في صور ، وكان يعبر عن ذلك بالرؤية . فثبت بهذا أن الرؤية للنفس لا تقتضي رؤية حقيقته في الواقع ونفس الامر وان كان مخلوقاً له جنس ينقسم الى أنواع تحتها أصناف ، وشخص لها أمثال فاذا كان المخلوق يرى مخلوقاً مثله رؤية لا يدرك بها كنهه ولا يحيط بحقيقته ولا يشاركه فيها كل من له عينان مثله - وهذا مما يؤمن به المعتزلة والشيعة والاباضية كغيرهم - فهل يستنكر أن تكون رؤية الرب الذي ليس كمثل شيء بلا كيف ولا مثال وعلى غير المجهود في رؤية بعضنا لبعض كما استنكر هؤلاء الذين قال شاعرهم :

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شمع الورى فتستروا بالبلسكه

أم يصح مع هذا أن يصرّ بعض أهل السنة على تقييد رؤيته تعالى بالابصار وأعين الرءوس واستنكار تسميتها رؤية روحية مع الاتفاق بينهم على أن الإدراك مجسيم أنواعه للنفس لا للجسد، كما ترى توضيحه في المسألة التالية (٦) الكشف وكون الإدراك للنفس

ان العلم والإدراك في الحقيقة لاروح وان الحواس والدماع آلات حسية للعلم ببعض الحسابات بحسب ما بين هذه الحياة الدنيا وقد ثبت بما تقدم



من الشواهد أن النبي (ص) كان يرى من وراءه كما يرى من أمامه وهي رؤية روحية غير مقيدة ببصر العينين ولا بالمقابلة. وثبت نحو من هذا لبعض المكاشفين بالروايات التي وصلت إلى درجة التواتر، ومن هذه المكاشفة ما يقع في حال الصحة بقوة توجيه الإرادة إلى الشيء أو فجائياً بغير قصد، كما وقع لمؤلف هذا النفس في صغره فقد رأى جدته لأمه وهو مضطجع مسجى في بستان لها تشي في الطريق جائيه إليه حتى إذا ماراً ما قد وصلت إلى مدخل البستان من الطريق العام ناداها فأجابته، وبعد أن يكون هذا تخيل صادف الواقع، وله أمثال ونظائر لولاها لتعين القول بذلك — وقد وقع لنا منه مع بعض الناس ما كنا نحمله على المصادفة لئلا يقيسوا عليه دجل المحتملين ولئلا نقيم في الغرور، ولكن مجموع ما نقله اثقات منه لا يجهل التأويل. ومنه ما يقع في النفس بغير رؤية ولا تخيل وإن كان فيما من شأنه أن يرى، وليس مما نحن فيه.

وقد وقع في أحوال مرضية كالمريض الذي كان يعالجه الطبيب شبلي شميل بمصر وكان يخبر بأشياء غائبة وبأهـور قبل وقوعها فيصدق بالضبط الدقيق، ومن الأول أنه أخبر بأن قريباً له قد خرج من داره بالاسكندرية يريد السفر إلى مصر لزيارته ثم أخبر أنه رأى قد وصل إلى محطة الاسكندرية ودخل القطار وبعد مضي ثلاث ساعات وكسور أخبر أنه نزل من القطار في محطة القاهرة وخرج منها وركب مركبة لتجعله إلى الدار التي هو فيها، ثم أخبر أنه وصل إلى الدار — وإذا به قد دخل. وكان الطبيب شبلي ينكر مثل هذا وينكر وجود أرواح مستقلة بالوجود تلبس الاجساد وتفرقها مدركة بالذات، أي غير مقيدة في ادراكها بوجودها في الجسد واكتسابها العلم من حواسه وعصب دماغه، وقد صار بعد هذه الواقعة التي كتبها بقلمه، وسمعتها من فمه، يشبه دماغ الانسان بالآلة الكهربية للتغراف اللاسكي التي تتلقف من كهرباء الجو ما يرسله هذا التغراف من أخبار السفن أو البلاد البعيدة، ولكن كان من أخبار مريضه به أنه سيرعف أنفه في ساعة كذا من نهار غد ويخرج من دمه ما يبلغ وزنه كذا - فكان كما قال، وهذا اخبار عن الشيء قبل وقوعه لا يتناول التشبيه الذي ذكره، وهو من الغيب الاضافي الذي خاق الله الارواح كلها مستعدة لادراكه قبل وقوعه لو لا ما يشغلها عنه من مدارك الحواس والمقول وهموم الحياة — لا من الغيب الحقيقي الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وقد فصلنا

القول في الفرق بينهما في تفسير سورة الانعام (١)  
(٧) أنواع المدركات وعناصر الكون وأحوالها

إن مدركات البشر الحسية والعقلية لا تتعلق في حال هذه الحياة الدنيا بكل ما في هذا الكون من أنواع الموجودات بل هناك حجج من الوحي والعقل والعلم تدل على ضد ذلك - أما الوحي فقد ثبت فيه أن العالم قسمان أو أن الكون قسمان : عالم الغيب وعالم الشهادة -

وأما العقل فن أحكامه أن عدم العلم بالشيء لا يقتضي عدم وجوده وان من الجائز أن يكون في الكون موجودات كثيرة لا ندركها ولا نشعر بها حواسنا ومشاعرنا لعدم استعدادها لإدراكها البتة كما أن بعضها لا يدرك ما يدرك الآخر من الهيئات والألوان والطعوم والروائح مثلاً - وإما لضعف الحاسة فينا عن إدراك ما هو من متعلقها لمقد بعض شروط إدراكه، وقد دل العقل على أن الوجود الممكن الذي نعرفه في الجملة يدل على الوجود الواجب الذي لم ندركه بحواسنا ولم تدرك كنهه عقولنا، بل دل على وجود آخر من الممكنات وهو ما يسميه علماء الكون بالآثير

وأما العلم - علم التجربة والبحث العملي في الوجود - فقد أثبت وجود أحياء كثيرة الأنواع ذات تأثير عظيم في حياة الأحياء من نغم وضر تزي بالمرأيا المكبرة دون البصر المجرد وان فيه مواد أخرى لطيفة هي من أصول عناصره التي لم يتم تكوينه إلا بها، وهي لا تدرك بالحواس ولا بالعقل باديء بدء وانما عرفت بأسمان التحليل والتركيب وآلاتها واستخدمت لكثير من المنافع واضرار، وهي كالعناصر التي يتركب منها الماء والهواء

وقد ثبت بالتجارب العملية ما صار العلم به قطعياً يدخل في باب الحسيات من أن الجسم الجامد يتحول بالحرارة إلى مائم كما يكون الجليد والثلج ماء، وان المائم يتحول بها إلى بخار وهو ما نشاهده كالدخان اللطيف يخرج من الماء عند تسخينه ومن كل مائم فيه ماء، وان هذا البخار المائي وغيره يتحول بشدة الحرارة إلى مادة لا تری كالهواء ويسمونها غازاً، وان الأجسام الجامدة كالذهب والقصدير والمائمة كالماء والغازية كالهواء منها البسيط ومنها المركب، وان

البسائط التي تتألف منها المركبات محدودة تعد بالعشرات وصار في قدرة البشر أن يخلطوا المركب ويفرقوا بسائطه بعضها من بعض بصناعة الكيمياء وآلاتها ، وأن يحولوا الجوامد من صفتها فيجعلوها غازات ، وأن يجمعوا من الغازات ومن السائلات جوامد ، وهم يتخذون منها أغذية وأدوية ومعموماته بل استخراجوا من ماء البحر الملح ذهابا ليريزا

هذه الاعمال التي صارت من صنائم البشر تقرب من العقل والعلم ما صح عن الرسل المعصومين من أن الملائكة وغيرهم من الجن يتشككون في صور كيفية ترى بالابصار وبصور لا ترى بالابصار . أي أن الله تعالى أعطى أرواحهم قوة يتصرفون بها في مادة الكون وفي أنفسهم بأعظم من تصرف علماء الكيمياء في نفسه ، ولكنه من جنسه ، فقد أعطى الله تعالى الواحد منهم قدرة على تأليف جسم لروحه من هذه المادة اذا شاء ، وحله وتفريقه متى شاء ، وقد وضعنا هذا التقريب من قبل وغرضنا من التذكير به هنا ايضاح مسألة تجلي الرب سبحانه تعالى في الصور أو من وراء الحجب وكون رؤيته لا تقتضي تشبيهه بخلقه كإزيم من لم يعلموا من انواع الادراك والمدرجات الخلوقة ما يقتضي تشبيه بعضها ببعض وقد قال تعالى ( ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا )

#### (٨) مذاهب الصوفية في الرؤية

الصوفية فرقة من فرق المسلمين المختلفين في الاصول وهم لا يقلدون اماما واحدا في الفروع بل منهم المجتهدون فيها ومنهم المقلدون لاهل المذاهب المشهورة ويكثر فيهم الشافعية كما أن اكثر المعتزلة والمرجئة من الحنفية . وقد غفل من لم يعد منهم من الفرق الثلاث والسبعين . وانما الكلام فيمن يسمون صوفية الحقائق ، وهم اقرب الى الفلاسفة الروحانيين الاشرقيين والى قدماء الشيعة منهم الى أهل السنة والاثار وجمهورهم يجولون الصحابة ولا سيما الخلفاء الراشدين وعلماء السلف ولا سيما العباد منهم . ومنهم المعتدلون واهل الحديث كشيخ الاسلام ابي اسحاق الهروي صاحب منازل السائرين ، ومنهم الغلاة الذين حرق بعضهم من الاسلام بنزغات الباطنية وزينهم ومغلاة الرفض من الاسماعيلية الى البهائية وزعماءهم من الفرس ، ومنهم البكتاشية وقد راجت دعوتهم في بلاد اترك والالبان ويقال لهم صوفية الاخلاق واهل السنة منهم يقولون في الرؤية ما يقوله سائر

أهل السنة وكذا المعتدلون من أهل الحنائق فترى أبا حامد الفزالي من علمائهم قد فسر الرؤية بما ينطبق على مذهب الأشعري . وشأن سائر مقلداتهم كشأن سائر المقلدين للمذاهب الأخرى

وأما صوفية الحنائق المستقلون فجمهور أهل الوحدة منهم يدخلونها في مسائل الوحدة ، ففلاة وحدة الوجود ليس عندهم إلا وجود واحد له مظاهر ومجالي فهم يثبتون الرؤية بهذا الاعتبار والأفراطي والمرئي واحد عندهم ، يعنون أن الرب عين العبد والمبدع عين الرب فأنه تعالى يرى نفسه بما يتجلى فيه من صور عبوده وأما شاء من خلقه ، وهذا تناقض وهذا ما يديهي البطلان ، وحبنا ما ننشره في المار من ابطاله وتناقضه لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وأما اصحاب وحدة الشهود منهم فذهبهم أن الرب تعالى يتجلى لعبده المؤمن في الدنيا تجلياً غير كامل وفي الآخرة تجلياً كاملاً ، فيفنى العبد بهذا التجلي عن نفسه وعن كل ما سوى ربه فلا يرى غيره ، وهو يراه بكل روح المدركة لا بعينية فقط ومن كلام ابن الفارض فيه « إذا ما بدت ليلى فكلني أعين » فإن الرؤية بالآلة الباصرة إنما تكون للأرواح المحبوسة في هياكل الاجساد المقيدة بسنن الله فيها كما تقدم آنفاً ، فهي كالمحبوس في سجن له نوافذ وكرى قليلة يرى منها بعض ما يحاذيها دون غيره مما وراء السجن وهم يثبتون تجليه تعالى في الصور المختلفة ولا يرون ذلك محالاً يجب تأويله بل يبقون الأحاديث في ذلك على ظاهرها كجمهور السلف ولكل من هؤلاء وأولئك أقوال وشواهد مشتركة يشتهر معها بعضهم ببعض فيعسر التزويل بينهم ، ومنها استشهادهم بالحديث القدسي الذي أخرجه البخاري في صحيحه فانتقد عليه لعله في سنده وذكره « النووي في الأربعين ومحل الشاهد منه « ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » ومعناه الذي يتفق مع ألوه اللذة وقواعد الشرع : كنت متملق سمعه وبصره وسائر جوارحه أي فلا توجه ارادته هذه الجوارح إلا إلى ما يعلم أنه يرضي ربه ولا ينسى مراقبته في أعمالها ، وكل من القائلين بوحدة الوجود ووحدة الشهود يستدل به على مذهبه . ومن شعرهم في ذلك :

( ١ ) رواه عن خالد بن مخلد الكوفي وهو من شيوخه وقد وثقه بعضهم وقال أحمد له مناكير وقال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به .

اطارته طرفا رآها به فكان البصير بها طرفها  
والشيخ محي الدين بن عربي كلام في كل ما سبق ذكره من الآيات والاحاديث  
على طريقتهم في الوحدة في الباب الحادي واربعائة من الفتوحات المكية وهو:  
كلمة لابن عربي في الرؤبة

قال الله عز وجل (لا تدركه الابصار) وقال عز وجل لموسى عليه السلام  
(ان تراني) وكل مرئي لا يرى الرائي اذا رآه منه الا قدر منزلته ورتبته  
فأراه وما رأى الا نفسه ولولا ذلك ما تفاضت الرؤبة في الرائي إذ لو كان  
هو المرئي ما اختلفوا الكن لما كان هو مجلي رؤيتهم أنفسهم لذلك وصفوه  
أنه يتجلى وانه يرى ولكن شغل الرائي برؤيته نفسه في مجلي الحق حجبه  
عن رؤبة الحق فلذلك لو لم تبد المرئي صورته أو صورة أكون من الا كوان  
ربما كان يراه فما حجبتنا عنه إلا أنفسنا فلو زلنا عما رأينا لانه ما كان يبقى  
ثم بزوالنا من يراه؟ وان نحن لم نزل فما نرى الا أنفسنا فيه وصورنا وقدرنا  
ومنزلتنا فعمل كل حال ما رأينا، وقد توهم فمقول قد رأينا ونصدق كما انه  
لو قلنا رأينا الانسان صدقنا في ان نقول رأينا من مضى من الناس ومن  
بقي ومن في زماننا من كونهم اسانا لا من حيث شخصية كل اسان، ولما كان  
العالم أجمعه وآحاده على صورة حق ورأينا الحق فقد رأينا وصدقنا، وان نظرنا  
الى عين التمييز في عين عين لم نصدق واما قوله صلى الله عليه وسلم في حديث  
الذجال ودعواه انه اله فعهد اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أحدنا لا  
لا يرى ربه حتى يموت لان الغطاء لا ينكشف عن البصر الا بالموت والبصر  
من العبد هوية الحق فعينك غطاء على بصر الحق فيبصر الحق ادرك الحق ورآه  
لأنت، فان الله (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير)  
ولا أطف من هوية تكون عين بصر العبد وبصر العبد لا يدرك الله، وليس  
في القوة أن يفصل بين البصرين، والخبير علم الذوق فهو العليم خبيرة انه بصر  
العبد في بصر العبد وكذا هو الامر في نفسه وان كان حيا فقد استوى الميت والحي  
في كون الحق تما الى بصرهما وما عندهما شيء، فان الله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، إذ  
(ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) هو وقد تكلم على الآية في مواضع أخرى وعلى جميع  
الاحاديث الواردة في المسألة وكلامه متعارض بمضه يتناول بتكاف او بدون تكاف

﴿ ٨ - كدّة في النور والحجب والتجلى في الصور ﴾

قال المحقق ابن القيم في (مدارج السالكين ، شرح منازل السائرين) للهروي في الكلام على الدرجة الثانية من منزلة (الاحظ) مانصه « ونور الكشف عندم هو مبدأ الشهود وهو نور تجلي معاني الاسماء الحسنى على القلب فتضيء به ظلمة القلب، ويرتقم به حجاب الكشف، ولا تلتفت الى غير هذا فنزل قدم بمد ثبوتها ، فانك تجد في كلام بعضهم « تجلي الذات يقتضي كذا وكذا ، وتجلي الصفات يقتضي كذا وكذا ، وتجلي الافعال يقتضي كذا وكذا » والقوم عنيتهم بالالفاظ فيتوهم المتوهم انهم يريدون تجلي حقيقة الذات والصفات والافعال للعيان ، فيقيم من يقيم منهم في الشطحات والطامات؛ والصادقون العارفون براء من ذلك ، وانما يشيرون الى كمال المعرفة وارتقاع حجب الغفلة والشك والاعراض ، واستيلاء سلطان المعرفة على القلب بمحو شهود السوى بالكلية ، فلا يشهد القلب سوى معروفه ، وينظرون هذا بطولع الشمس فانها اذا طلعت انطمس نور الكواكب ولم تعدم الكواكب وانما غطى عليها نور الشمس فلم يظهر لها وجود وهي موجودة في أماكنها ، هكذا نور المعرفة اذا استولى على القلب وقوي سلطانها وزالت الموانع والحجب عن القلب . ولا ينكر هذا إلا من ليس من أهله ، ولا يعتقد أن الذات المقدسة والاصناف رزت وتجلت للعبد كما تجلى سبحانه للطور وكما يتجلى يوم القيامة للناس الا غالط فاقد للعلم ، وكثيراً ما يقيم الغلط من التجاوز من نور العبادات والريضة والذکر الى نور الذات والصفات . فان العبادة الصحيحة والريضة الشرعية والذکر المتواطيء عليه القلب واللسان يوجب نوراً على قدر قوته وضعفه ، وربما قوي ذلك النور حتى يشاهد بالعيان فيغلط فيه ضعيف العلم والتمييز بين خصائص الربوبية ومقتضيات العبودية فيظنه نور الذات ، وهيهات ؛ ثم هيهات ؛ نور الذات لا يقوم له شيء . ولو كشف سبحانه وتعالى الحجاب عنه لتدكدك العالم كله بما تدكدك الجبل وساخ لما ظهر له القدر اليمير من التجلي « وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « ان الله سبحانه لا ينام ولا يذنب له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لاحرق سبجات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » فالاسلام له نور والايمان له نور أقوى منه والاحسان له نور « تفسير القرآن الحكيم » « ٢٢ » « الجزء التاسع »

أقوى منهما ، (١) فاذا اجتمع الاسلام والايمان والاحسان وزالت الحجب الشاغلة عن الله امتلا القلب والجوارح بذلك النور، لا بالنور الذي هو صفة الرب تعالى فان صفاته لا تحل في شيء من مخلوقاته . كما أن مخلوقاته لا تحل فيه فالخالق بائن عن المخلوق بذاته وصفاته فلا اتحاد ولا حلول ولا مزجة . تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا . اه  
اقول هذا التصوف الموافق للكتاب والسنة لا تصوف ابن عربي والفرق بين نفي كل منهما للحلول ان هذا يقول ان الخلق والخالق شيء واحد والشيء لا يحل في نفسه والآخر يقول ان النسبة بينهما المباشرة التامة . وهذا التوحيد هو الحق الذي كان عليه السلف الصالح ( رض )

وقال المحقق ابن القيم ( رح ) في فوائد الذكر من الكلم الطيب وهو :

« ان الذكر نور الذاكر في الدنيا ، ونور له في قبره ، ونور له في معاده يسمى بين يديه على الصراط <sup>(٢)</sup> في استمارة القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى قال تعالى ( أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ) فالاول هو المؤمن الذي استنار بالايمان بالله ومحبه ومعرفة وذكره . والآخر هو الغافل عن الله تعالى المعرض عن ذكره ومحبه . والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح في النور . والشقاء كل الشقاء في فواته . ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يبالي في سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله في لحمه وعظامه وعصبه وشعره وبشره وسمعه وبصره ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه حتى يقول « واجعلني نوراً » فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور في ذراته الظاهرة والباطنة ، وأن يجعله محيطاً به من جميع جهاته ، وأن يجعل ذاته وجملته نوراً ، فدين الله تعالى عز وجل نور ، وكتابه نور ، ورسوله نور ، وداره التي أعدها لاوليائه نور يتلالا ، وهو تبارك وتعالى نور السموات والارض ومن أسمائه النور ، وأشرقت الظلمات لنور وجهه ، وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يوم الطائف « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات

« ١ » إنما كان نور الاحسان اقوى لانه عبارة عن الاحسان في الاسلام والايمان

فهو السكال فيهما عملا واعتقادا

« ٢ » كذا والظاهر ان ههنا حذفاً قبل قوله « في استنارة

وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك ، أو ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ؛ ولا حول ولا قوة الا بك » وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات من وجهه . وفي بعض ألفاظ هذا الاثر : نور السموات من نور وجهه ، ذكر عثمان الدارمي وقد قال تعالى ( وأشرقت الارض بنور ربها ) فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده وأشرقت بنوره الارض وليس اشراقها لشمس ولا قر فان الشمس تكور ، والقمر يخسف ويذهب نورها ، وحجابه تبارك وتعالى النور . قال أبو موسى : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : « ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع اليه عمل الليل قبل النهار ، ويصل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » ثم قرأ ( أن بورك من في النار ومن حولها ) فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى اليه بصره « ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل وكشف من الحجاب شيئاً يسيراً سماخ الجبل في الارض وتذكرك ولم يقم لربه تبارك وتعالى . وهذا معنى قول ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى ( لا تدركه الابصار ) قال ذلك الله عز وجل اذا تجلى بنوره لم يقم له شيء . وهذا من بديع فهمه رضي الله عنه ودقيق فطنته ، كيف وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يمله الله التأويل ، فأرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالابصار عياناً ، ولكن يستحيل إدراك الابصار له ، وان رآه فالادراك أمر وراء الرؤية ، وهذه الشمس والله المثل الاعلى تراها ولا تدركها كما هي عليه ولا قريباً من ذلك ، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية وأورد عليه ( لا تدركه الابصار ) فقال أأست ترى السماء ؟ قال بلى قال أفترىها ؟ قال لا . قال فالله تعالى أعظم وأجل « اهـ <sup>(١)</sup>

« ١ » كان أهل النظر المشتملون بالفلسفة اليونانية يتأولون جميع الآيات والاحاديث الواردة في صفات الرب تعالى وينكرون على علماء الاثر الاخذ بطواهرها مع التنزيه والتفويض حتى ان الاشعرية الذين أرادوا أن يكونوا وسطاً بين غلاة النظائر من الجهمية وغيرهم وبين أهل الحديث كالحناابلة قدبالغ بعضهم في التأويل



قد أشار هذا العالم المحقق بهذه الجملة الوجيزة من كلامه الطويل في موضوعها الى جملة ماورد « في النور » من لصوص الكتاب والسنة فقد سمي الله تعالى نفسه نوراً وورد النور في اسمائه الحسنى الماثورة وأسند النور الى اسم الذات في قوله ( الله نور السموات والارض ) وأسند رسوله الى وجهه تعالى بقوله « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات » ومثله في آثار اخرى والجمهور يفترون الوجه بالذات . وهذا نوع من استعمال النور غير إضافته اليه تعالى في قوله ( وأشرقت الارض بنور ربها ) وقوله ( يريدون ليظننوا لنور الله بالفواهم ) على أن نوره في الأخيرة كتابه ووحيه وكلامه الذي هو من صفاته ، والمراد به في الاظهر ما فيه آيات الهداية فهو كقوله ( إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ) ومثله اطلاق اسم النور على النبي (ص) في قوله ( قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ) على وجهه . وورد مثل هذا في كتب العهد الجديد عند النصارى مروياً عن المسيح عليه السلام كقول يوحنا في رسالته الاولى ١ : ٥ : وهذه هي البشري التي سمعناها منه ونبشركم بها : أن الله نور وليس فيه ظلمة البتة ، وأطلق النور على المسيح نفسه في مواضع من انجيلي لوقا ويوحنا ومن المعلوم أن النور حمي ومعنوي فالاول يرى بالبصر ويرى به البصر سائر المبصرات ، والثاني يدرك بالبصيرة وتدرك به البصيرة الحق والخير

حتى صار الخلاف بينهم وبين غلاة النظر لفظياً . والباحث لهم على ذلك محاولة تطبيق النصوص على نظريات الفكر التي عدوا الكثير منها قطعياً وايس قطعياً ونحمد الله تعالى ان العلوم الكونية قد تقضت في هذا العصر أكثر تلك النظريات الفلسفية اليونانية وقربت نصوص الكتاب والسنة من الافهام ، ومما ثبت بها اخيراً ان هذه الكهربائية التي رأى البشر كثيراً من عجائبها هي الاصل في تكوين مادة العالم كله وأطوارها ، وهي نور أو مصدر النور والحركة التي يحدنها النور أو محدثه وإذا كان الخالق الباري المنزه عن نقص المخلوقات التي لا يكمل شيء منها الا به قد حجب عنها بالنور ، فلك أن تفهم أن الكهرباء وما جعلها الله أصلاً له من تكوين العالم المادي هي الحجاب المانع من رؤية الرب تعالى فيه وان انكشاف هذا الحجاب لا يكون الا في الجنة ، وان انكشافه هو الذي يوصل أهلها الى أعلى واكمل درجات المعرفة به تعالى وهي الرؤية بغير كيف ولا ادراك ، وقد نصر العلم مذهب السلف ، على تأويلات الخلف ، والله الحمد

والصلاح. وكذلك نور الآخرة قسمان حسي ومعنوي، وأما نور الله تعالى الذي هو صفة من صفاته قد أضيف إلى وجه وأسند إلى ذاته فهو فوق هذا وذلك لا يعرف كنهه سواه عز وجل ، وهو غير النور الذي هو حجاب المالم من رؤية ذاته وإدراك كنهه ، ولا يكبرن عليك أيها الإنسان الممجب بنفسك هذا العجز عن ادراك نور الله عز وجل فإن هذا النور الحسي الذي تراه بعينيك لا تدرك حقيقته ولم يدركها أحد من أبناء جنسك إلى الآن ، ولم يستطع أحد أن يضع له تعريفاً يحدد هذه الحقيقة . ولم يكن المتقدمون يعرفون منه إلا ما برؤونه من نار الأرض ونيرات السماء، ثم عرف المتأخرون هذه الكهرباء والراديوم فدخل بذلك العلم والعمل في طور جديد إذا قيل أنه فوق طور العقل والفلسفة والعلم التي انتهى إليها البشر قبله لم يكن هذا القول مبالغاً ، وقد كانت الصوفية تقول إن وراء مدارك عقول البشر علوماً صحيحة منطبقة على حقائق خارجية لا محض نظريات فكرية، فيقول مدعو الفلسفة والمنطق إن هذه خرافات خيالية، قال ابن الفارض:

فم وراء العقل علم يديق عن مدارك غايات العلوم الصحيحة

فأي عقل كان يتصور أنه يمكن لشخص واحد أن يوقد مالا بحصى من المصابيح في دار أو مدينة كبيرة في طرفة عين وأن يطفئها في طرفة عين؟ وأن هذه المصابيح توقد بلا زيت ولا نار ، وإنما تشتعل بتحريك هنة صغيرة بعيدة عنها ولكنها متصلة بها بسلك دقيق، وأي عقل كان يتصور أن البشر يتخاطبون ويسمع بعضهم كلام بعض على بعد الوف من الأميال؟ وهذا بعض خواص هذه الكهرباء نعم إن علماء المسلمين قرروا أن أمثال هذه الأمور من الممكنات لا المستحيلات، فورود نظائرها في أخبار الآخرة لا يقتضي أن في الدين شيئاً يردده العقل الصحيح بالبرهان ، ولكن جماهير الكفار بالرسل لم تستطع عقولهم تصورهما ولا التصديق بها - بل رأى ضعفاء العقل والعلم من المسلمين أنفسهم يظنون فيما نقلناه آنفاً من كتاب الوابل الصيب أنه من المشكلات التي لا تنفق معهما إلا بضرب من التأويل - لاجل هذا علقنا عليه الحاشية الوجيزة المثبتة معه هنا عند طبع الكتاب في (مجموعة الحديث النجدية) ليعلموا أن منتهى ما وصل إليه علماء الكون يؤيد مذهب السلف فيها وفي أمثالها ، ويبطل قاعدة المناوئة في جمل نظريات أفكارهم وألوفات عقولهم وقضايا مدلولاتهم الكلامية القليلة

أصلاً ترجم إليه نصوص الكتاب والسنة ولو بالتأويل ، وقد علمنا أن بعض الذين اطلعوا على هذه الحاشية في جمرة الحديث لم يفهموها فاضطربوا فيها ولهم المنذر فانها على غرابة موضوعها وجيزة لم توضح المقام لامثالهم كما كان يجب ، ولكن لها فيما سبق من المسائل والمباحث في رؤية الرب تعالى نظائر تعني من استحضرها من الايضاح ولا بأس مع ذلك من زيادة فيه وان تخل من تكرار لبعض القضايا تقدم أن البشر لم يصلوا الى الاحاطة بكنهه شيء من حقائق هذه المخلوقات وإنما يعرفون منها ظواهرها وبعض خواصها وسنن الخالق فيها ، فهم أولى بالمعجز من ادراك حقيقة الخالق وصفاته وأفعاله ، وإنما عرفوه سبحانه وعرفوا صفاته وأفعاله بآياته الكونية في خلقه ، وآياته الكلامية المنزلة على رسوله ، ففي كل شيء له آيات تدل على وحدانيته وعلمه ومشيبته وقدرته وحكمته ورحمته ، فهو تعالى ظاهر في كل شيء بدلالته عليه وباطن في كل شيء بحجب عبده به عنه ان اشتغال العبد بشؤون الخلق بحجبه عن معرفة ربه وعن مراقبته وعن عبادته وعن شكره اذا هو اشتغل بها لذاتها وماله من اللذة والمنفعة العاجلة فيها ، كما أنها تكون آيات ودلائل لمعرفة ووسائل لمراقبته وبواعث لعبادته وذكره وشكره اذا هو انظر فيها بهذه النية ، وان تجليه سبحانه للبراري في الآخرة يكون بقدر هذا - - كما أن حجب الفجار عنه يكون بقدر مقابله الذي ذكر قبله ( جزاء وفاقا ) فسمعة العلم بالكون وسننه ونظامه ومنافعه قد تكون من أسباب سمعة المعرفة بالله والكمال الذي يقرب منه ، وقد تكون من أسباب الجهل بالله والبعد عنه ، ولو كان هؤلاء العلماء الذين عرفوا في هذا العصر أضعاف ما نقل عن الاولين من أسرار هذا العالم قد نظروا فيه بتور الله واهتدوا في مباحثهم مهداية وحيه لوصلوا الى درجة عالية من الكمال - على أن ارتقاءهم في الاسباب ونجاحهم المتصل في كشف أسرار العالم لا بد أن ينتهي بهم الى المعرفة الصحيحة والعبودية الكاملة التي بينها الرب سبحانه في آخر كتبه للبشر على لسان خاتم رسله لهم كما أرشد اليه في قوله ( سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد \* ألا انهم في مرية من لقاء ربهم ألا انه بكل شيء محيط )

ذلك بأنهم سيجدون في حقائق العلوم التي يهتدون اليها باتصال انجاسهم

وتتابعها مصداقا لهذا الكتاب فيما أخبر عنه من عالم الغيب ولقاء الله تعالى وكل ما كفر به المقيدون بنظريات عقولهم القاصرة وعلومهم الناقصة ، كالأرواح والملائكة والجن وتمثلهما في الصور المختلفة ، وتجلي الرب سبحانه لمعباده بقدر استعداد أنفسهم وارتقاء أرواحهم من وراء الحجب التي كانت تحجبهم عنه .  
وإن فيما وصلوا إليه من العلم اليوم ما يقرب ذلك من المدارك وقد بينا بعض الأمثلة له في هذه المباحث وغيرها

وإن من أعظم ما يشغل هؤلاء الباحثون في هذا العالم مسألة بدء الخلق كيف كان ومن أي شيء كان ، وقد سبق لهم أن جزموا بأن هذه الأجرام السماوية في ملكوت الله من السموات والأرض قد كانت مادة واحدة سديمية تشبه الدخان فانفتقت وانفصل بعضها من بعض فكانت أجراما متعددة - وقد جاء محمد النبي الأمي ( ص ) بما هو صريح في ذلك قبيل علمهم به بقرون وأجيال كثيرة كما بيناه في موضعه

ثم اهتموا في هذا الجيل إلى أن أصل تلك المادة التي انفترقت عنها ما ذكر المؤلف من عشرات العناصر قد كان مصدرها هذه الكهرباء التي دخلت بها علوم البشر وأعمالهم في طور غريب عجيب ولا تزال عجائبها كل يوم في ازدياد والمسألة التي أشرنا إليها في الحاشية التي علقناها على عبارة ابن القيم في النور هي ما ذكره أخيراً من أن للكهربائية دقائق - أو ذرات أو ذريرات أو جواهر فردة - مستقلة بنفسها سمورها ( الألكترونات ) ورجعوا أنها هي قوام كل جواهر المادة التي يتألف منها بناء العالم العلوي والسفلي وأن اهتزاز هذه الذرات أو الجواهر الفردة هو سبب طيف النور ، وأن له اهتزازات مختلفة وأنها هي منشأ تغير العناصر الطبيعية والكيميائية . وقد بينا من قبل أن هؤلاء العلماء قرروا القول من قبل بأن حركة المادة هي سبب جميع التغيرات والتطورات في هذا العالم إذ هي منشأ النور والحرارة التي قلنا إنها تحول الجوامد إلى مائعات والمائعات إلى غازات ، فالظاهر من كل ما تقدم أن الكهرباء هي الأصل لكل الكائنات التي تقدر مساحتها بحسب بعض النظريات العلمية بمئة وخمسين مليون سنة من سنى النور ، وهو يقطع في الثانية ١٨٦٣٣٠ ميلا في أقرب تقدير وأحدثه في الدقيقة ٨٠٠ ر ١٧٩ ر ٧ في الساعة ٧٨٨٨٠٠ ر ٤٣

أي أربعائة وثلاثين مليون ميل وسبعمائة وثمانية وثمانين ألف ميل ، فكم  
 يتعام في اليوم ثم كم يكون في السنة ؟ ( وما أوتيتم من العلم الا قليلا )  
 ان ما ظهر من أسرار القوة الكهربية الى الآن يقرب من العقل ان  
 تكون بإرادة الله تعالى وحكمته كما قالوا منشأ التكوين والتطور في عالم الامكان  
 بسرعة حركتها وكونها مصدر النور ، فارتباط اجزاء العالم بها وانتظامه بسنن  
 الله تعالى فيها معقول ، وأما تولد العناصر منها وتجمعها وصيرورتها سديما كالدخان  
 أو الغمام أو بخار الماء فهو طور ثان متأخر عن تولد بعض عناصر المادة من  
 بعض وارتقاء ذلك في سلسلة الاسباب المتقدمة الى جواهر الكهربية الفردية  
 فاذا فرضنا ان الكهرباء اول ما خلق الله تعالى من المادة فانها تكون آخر  
 حجاب مادي مما حال بين الماديين وبين معرفته تعالى في الدنيا وبحول بينهم  
 وبين رؤيته في الآخرة ، فاذا انكشف هذا الحجاب وانتهى بالايمان في الدنيا  
 فانه ينتهي بالرؤية في الآخرة التي هي أكل المعرفة

ولكن الحجب كثيرة كما تقدم وكون الكهرباء اول ما خلق الله تعالى  
 من المادة لم يبلغ درجة العلم القطعي الآن ، فهي باعترافهم مركبة ، ومنقسمة  
 الى موجبة وسالبة ، وآثارها من إثارة الحركة توليد النور وغير ذلك انما  
 تكون باقتران الزوجين الموجب والسالب فيجوز أن يكون ذلك بأمر الله  
 تعالى ابتداء كما يجوز أن يكون بسبب مادي آخر أو بسبب روعي سابق عليها  
 في الخلق فيكون هو الحجاب الاخير الذي لا يبقى بعد انكشافه إن هو  
 انكشف الا معرفة الخالق ورؤيته كفاحا بدون حجاب البتة - فهذا ما أشرت  
 اليه في تلك الحاشية من التقريب بين ماورد من التجلي الالهي في الحجب ومن  
 وراء الحجب ، ولكن كان من السهو جعلنا اياها على اجمالها وابهامها في مجموعة  
 الحديث النجدية واكثر قرائها لا إمام لهم بشيء من هذه العلوم ولا الاصطلاحات  
 التي يستغنون عنها في هذا المقام بقوة ايمانهم واعتصامهم فيه بهدي السلف وتكرر  
 التنبيه فيها على أننا إنما نذكر أمثال هذه المسائل في المنار وفي تفسيره لتقريب معاني  
 النصوص من عقول المطلعين على هذه العلوم من أبناء هذا العصر المفتونين بها ،  
 فاذا رأى هؤلاء أن أبعد ماورد في المكتتاب والسنة عن مألوف البشر من اخبار عالم  
 الغيب يتفق مع أحدث ماقرره العلم المبني على التجارب والبحث العملي فالمرجو

أن يكون أجنب لهم الى الايمان، وهذا يكثر يوماً بعد يوم، ومنه ما صار حقائق واقعة ومنه ما قرب منها حتى وردت الانبياء في هذه الايام بالاهتداء الى ضرب من العلاج بالكهربائية يعيد الى الشيوخ قوة الشباب وانضارته وذلك يقرب كون أهل الجنة شباباً لا يهرمون وسنقرب مسألة الرؤية بأوضح مثال في بحث الكلام الالهي وقد صرحنا مراراً بأن كل ما نورد من تقريب وتأليف بين العلم والدين، ومن تفسير أو تأويل لرد شبهات الزائغين، فأننا لا نخرج به عن قاعدتنا في المعتقد المعتمد عندنا في جميع امور الدين من العقائد والعبادات والمضائل وهو ما كان عليه أهل الصدر الاول من سلفنا الصالح

وقد سبق لنا بحث مثلنا هذا على قاعدتنا هذه في تفسير قوله تعالى ( ٢ : ٢٠٩ هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ) من جزء التفسير الثاني بعضه لنا وبعضه للاستاذ الامام فيراجم في ص ٢٦٧-٢٦٦ ( تنبيه ) ان ادخال مباحث علوم الكون في التفسير هو من أهم اركانها والعمل بهدي القرآن فيه فهو مملوء بذكر آيات الله في خلق السموات والارض وما بينهما وما فيهما، وكان سلفنا من مفسري السلف والخلف يذكرون ما يعلمون من امرار الخالق وكذا ما يتلقونه عن اهل الكتاب حتى الذين لا يوثق بعلمهم ولا روايتهم وهو مما ينتقد عليهم

### « الكلمة الجامعة الخاتمة في مسألة الرؤية »

خلاصة الخلاصة أن رؤية العباد لهم في الآخرة حق وأنها أعلى وأكمل النعيم الروحاني الذي يرتقي اليه البشر في دار الكرامة والرضوان، وأنها أحق ما يصدق عليه قوله تعالى في كتابه الجيد ( فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة اعين ) وقوله في الحديث القدسي الذي رواه عنه رسوله ( ص ) « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وأن هذا وذاك مما يدل على مذهب السلف الذي عبر بعضهم عنه بأوجز عبارة اتفق عليها جميعهم « وهي أنها رؤية بلا كيف » ويؤيد ذلك اضطراب جميع أصناف العلماء في النصوص الواردة في نفيها وإثباتها سواء منهم أهل اللغة واساطين البيان، ونظار الفلسفة وعلم الكلام، ورواة الاحاديث والآثار،

« تفسير القرآن الحكيم » « ٢٣ » « الجزء التاسع »

ومراضو الصوفية وأولو الكشف والالهام ، فلم تتفق طائفة من هؤلاء على قول فصل قطعي تقنع به بقية الطوائف بدليلها اللغوي أو الاصولي أو العقلي أو فهم النص النقلية أو تسليم إلهامها الكشفي، ولكن من نظر في جميع ما قالوه نظر استقلال وانصاف يحزم بأن ما كان عليه عامة السلف من إثبات كل ما صح به النقل وتفويض تأويله الذي يكون عليه في الآخرة إلى الله عز وجل وهو الحق الذي يطمئن به القلب ويؤيده العلم والمقل فهو الاسلم والاحكام والاعلم والله يعلم وأنتم لا تعلمون

### ﴿ خلاصة القول في مسألة الكلام الالهي ﴾

اضطرب المتكلمون في الكلام الالهي كما اضطربوا في مسألة رؤيته تعالى واستوائه على عرشه وغيرهما من صفاته وشؤونه فذهب الذين بنوا قواعد عقائدهم على اقتضاء التنزيه للتأويل الى أن الكلام من صفات الافعال كالخلق والرزق ( بالمعنى المصدرى ) ولهذا قالوا إن القرآن مخلوق ، والحق الذي كان عليه السلف الصالح أن كلام الله تعالى صفة من صفاته لذاتية كالعالم وهو مثله لا يقتضي التشبيه اذ من المعلوم بدليلي النقل والمقل أن الخالق لا يشبه المخلوق كما تقدم شرحه في مسألة الرؤية فلا نعیده والمهد به قريب ، وانما نكتب شيئاً تقرب به المسألة من الافهام ، بمد تفنيد تقاليد علم الكلام ، فان اكثر متكلمي الاشعرية قد عقدها تعقيداً شديداً بما حاولوا به التوفيق بين نصوص أئمة السنة ونظريات العقل بقولهم إن الكلام نفسي ولفظي فالاول صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ، والثاني عبارة عن ذلك المعنى القائم بالذات تؤدي باللفظ الذي يحصل بالصوت والحروف التي تكتب بالقلم ، وكل من الحروف والاصوات والالفاظ التي تكيفها الاصوات حادثة مخلوقة . قالوا وانما منم السلف من التصريح بذلك وانكروا على من قالوا ان القرآن مخلوق لان القرآن يسمى كلام الله بمعنى دلالة على صفة الله القديمة ولهذا الاشتراك يخشى ان يفضي القول بخلق كلمات القرآن المملوطة والمكتوبة الى القول بأن كلام الله تعالى الذي هو صفة القديمة مخلوق

وهذه فلسفة مردودة مخالفة لمذهب السلف كما مثلها من تأويل سائر الصفات، وهي غير معقولة المعنى أيضاً فان القرآن لا مدلول له لامعاني مفرداته وجمله وهذه المعاني منها القديم وهي معاني اسماء الله تعالى وصفاته وسائر حادثة

الاعراف : ص ٧ رجوع الجويني الى مذهب السلف في الصفات ١٧٩

وقد ورد فيه ذكر « كلام الله » في مواضع لامدلول لها لا ما يسمونه هم الكلام اللفظي - كقوله تعالى ( وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ) فالمراد بكلام الله القرآن قطعا اذ لا يمكن ان يقال انهم يسمعون صفة الله تعالى القائمة بذاته ، وقوله في اليهود ( وقد كانت فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ) يعني التوراة وقوله في المخلفين من الاعراب ( يريدون ان يبدلوا كلام الله ) يعني وعده في القرآن فيما سبق في السورة ، اذ لا يمكن ان يقال ان هؤلاء يبدلون واوئك يحرفون صفة لله تعالى وقد اغتر بهذه الفلسفة الكلامية الجماهير الكثيرون لصدورها عن بعض كبار النظار ، الذين ملأت شهرتهم الاقطار ، فاعجب الباحثون منهم بها ، وقد هم الاكثرون فيها ، ورجم عنها أساطين المذهب بعد تحميمها ومقابلتها باقوال السلف المؤيدة بالنصوص . فاكثر المتكلمين المستقنين المخلصين رجعوا الى مذهب السلف في أواخر أعمارهم ، ولكن بقي عامة الاشعرية متبعين لما قرروه لهم من قبل ذلك في كتبهم ، كدأب الجماعات في كل ما يتخذونه مذهبا لهم ، على أن الرجوع كان في الاغلب بالتدرج والمزج بين التفويض والتأويل ، فلم يشمر به الا الافراد من أهل الدليل

وقد اعجبني من كلام هؤلاء النظار المنيبين قول الامام ابي محمد عبد الله الجويني والد إمام الحرمين في رسالة له في نصيحة المسلمين عند رجوعه الى مذهب السلف في هذه المسألة واخوانها التي يتأولها اصحابه الاشاعرة لتصريحه ورده على شيوخه قال : (١)

« انني كنت برهة من الدهر متحيرا في ثلاث مسائل : مسألة الصفات ومسألة الفوقية ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد ، وكنت متحيرا في الاقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جيم ذلك من تأويل الصفات وتحريفها ، أو امرارها والوقوف فيها ، أو اثباتها بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل فأجد النصوص في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ناطقة منبئة بحقائق هذه الصفات ، وكذلك في اثبات العلو والفوقية ، وكذلك في الحرف والصوت . ثم أجد المتأخرين من المتكلمين (١) طبعت هذه الرسالة في مجموعة الرسائل (النيرية) هذه الايام فرأينا عبارتها اجملية

مؤيدة لما اجملناه في بحث الرؤية فاحببنا نقلها احسن بيانها واحترام الجمهور لصاحبها



في كتهم منهم من يؤول الاستواء بالقهر والاستيلاء، ويؤول النزول بنزول الامر، ويؤول اليدين بالقدرتين أو النعمتين، ويؤول القدم بقدم صدق عند ربهم، وأمثال ذلك. ثم أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله تعالى معنى قائماً بالذات بلا حرف ولا صوت ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم

«ومن ذهب الى هذه الاقوال أو بعضها قوم لهم في صدري منزلة مثل طائفة من فقهاء الاشعرية الشافعيين لاني على مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه عرفت فرائض ديني وأحكامه فأجد مثل هؤلاء الشيوخ الاجلة يذهبون الى مثل هذه الاقوال وهم شيوخي ولي فيهم الاعتقاد التام لفضلهم وعلمهم، ثم انني مع ذلك أجد في قلبي من هذه التأويلات حزازات لا يطمئن قلبي اليها، وأجد الكدر والظلمة منها، وأجد ضيق الصدر وعدم الشراحة مقروناً بها، فكنت كالمتحير المضطرب في تحيره، المتململ من قلبه في تقلبه وتغيره

« وكنت أخاف من إطلاق القول باثبات العلو والاستواء والنزول مخافة الحصر والتشبيه ومع ذلك فاذا طالعت للنصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أجدها نصوصاً تشير الى حقائق هذه المعاني وأجد الرسول صلى الله عليه وسلم قد صرح بها مخبراً عن ربه واصفاً له بها، وأعلم بالاضطرار أنه صلى الله عليه وسلم كان يحضر في مجامع الشريف العالم والجاهل والذكي والبليد والاعرابي الجاني ثم لا أجد شيئاً يعقب تلك النصوص التي كان يصف ربه بها لانصا ولا ظاهراً مما يصرفها عن حقائقها ويؤولها كما نأولها هؤلاء مشايخي الفقهاء المتكلمين، مثل تأويلهم الاستيلاء بالاستواء، ونزول الامر للنزول وغير ذلك، ولم أجد عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يحذر الناس من الايمان بما يظهر من كلامه في صفته لربه من الفوقية واليدين وغيرها، ولم ينقل عنه مقالة تدل على أن لهذه الصفات معاني اخر باطنة غير ما يظهر من مدلولها»

بعد هذا شرع الامام الجويني في إيراد النصوص من الكتاب العزيز والاحاديث النبوية في مسألة علو الرب تعالى وهي معروفة ولبعض حفاظ السنة فيها مصنفات خاصة كابن قدامة والذهبي وكتابهما مطبوعان عندنا. ثم قال في المسألة من وجهة النظر العملية «ومن عرف هيئة العالم ومركزه من علم الهيئة وأنه ليس له إلا جهتا العلو والسفل ثم اعتقد بينونة خالقه عن العالم فن لوازم البيئونة

أن يكون فوقه لأن جميع جهات العالم فوق وليس السفلى إلا المركز وهو الوسط  
ثم انه وضع هذه المسألة في آخر الرسالة وقال قبل ذلك وبعد بيان مسألة  
صفة العلو :

(فصل) إذا علمنا ذلك واعتقدناه تخلصنا من شبه التأويل وعمادة التمطيل ،  
وحاقة التشبيه والتمثيل ، واثبتنا علو ربنا سبحانه وفوقيته واستواءه على عرشه كما  
يليق بجلاله وعظمته ، والحق واضح في ذلك والصدور تشرح له ، فإن التحريف  
تأباه العقول الصحيحة مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره ، والوقوف في  
ذلك جهل وعي مع كون الرب تعالى وصف لنا نفسه بهذه الصفات لتعرفه  
بها ، فوقوقنا عن اثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه في تعريفنا إياها ، فما وصف  
لنا نفسه بها إلا لثبوت ما وصف به نفسه لنا ولا نقف في ذلك (١) وكذلك التشبيه  
والتمثيل حاقة وجهالة . فمن وفقه الله تعالى للاثبات بلا تحريف ولا تكليف ولا  
وقوف فقد وقع على الأمر المطلوب منه إن شاء الله تعالى

(فصل) والذي شرح الله صدرى في حال هؤلاء الشيوخ الذين أولوا  
الاستواء بالاستيلاء والنزول بنزول الأمر واليدى بالنعمتين والقدرتين هو  
علمي بأنهم ما فهموا في صفات الرب تعالى إلا ما يليق بالخلوقين فما فهموا عن الله  
استواء يليق به ولا نزول يليق به ولا يدين يليق بعظمته بلا تكليف ولا تشبيه  
فلذلك حرفوا الكلم عن مواضعه وعطلوا ما وصف الله تعالى نفسه به ، ونذكر بيان  
ذلك إن شاء الله تعالى

ولا ريب أنا نحن وإياهم متفقون على إثبات صفات الحياة والسمع والبصر  
والعلم والقدرة والارادة والكلام لله ونحن قطعاً لا نعقل من الماية إلا هذا  
العرض الذي يقوم بأجسامنا وكذلك لا نعقل من السمع والبصر إلا أعراضاً  
تقوم بجوارحنا فكما أنهم يقولون حياته ليست بعرض وعلمه كذلك وبصره

(١) في كلام الجويني هذا أوضح تنفيذ لمنع بعض المتكلمين من تلقين العامة  
الآيات والاحاديث الواردة في صفاته تعالى كما اقترحوه على شيخ الإسلام ابن  
تيمية بما كان لهم من المكانة عند الحكومة المصرية في زمنه . بيد الجويني الذي يعدونه  
هو وولده امام الحرمين من شيوخهم وانتمهم

كذلك هي صفات كما يليق به لا كما يليق بنا فكذلك نقول نحن حياته معلومة  
وايست مكيفة وعلمه معلوم وايس مكيفا وكذلك سمعه وبصره معلومان وايس  
جميع ذلك اعراضا بل هو كما يليق به

«ومثل ذلك بعينه، فرقينه واستواؤه وزوله ففوقيته معلومة أعني ثابتة كثبوت  
حقيقة السمع وحقيقة البصر فانها معلومان ولا يكيفان ، كذلك فوقيته معلومة ثابتة  
غير مكيفة كما يليق به، واستواؤه على عرشه معلوم غير مكيف بحركة أو انتقال  
يليق بالخلق بل كما يليق بعظمته وجلاله - صفاته معلومة من حيث الجملة والثبوت،  
غير معقولة من حيث التكيف والتحديد، فيكون المؤمن بها بصرا من وجه أعني  
من وجه، مبصرا من حيث الاثبات والوجود، أعني من حيث التكيف والتحديد،  
وبهذا يحصل الجمع بين الاثبات لما وصف الله تعالى نفسه به وبين نفي التحريف  
والتشبيه والوقوف، وذلك هو مراد الرب تعالى منا في ابراز صفاته لنا لتعرفه بها  
وأنؤمن بحقيقتها، وننفي عنها التشبيه، ولا نعلمها بالتحريف والتأويل، ولا فرق بين  
الاستواء والسمع ولا بين النزول والبصر، الكل ورد في النص

«فان قالوا لنا في الاستواء شئتم، نقول لهم في السمع شئتم، ووصفتم ربكم  
بالعرض، فان قالوا لا عرض بل كما يليق به، قلنا في الاستواء والفوقية لا حصر بل  
كما يليق به، فجميع ما يلزمونا به في الاستواء والنزول والبد والوجه والتقدم والضحك  
والتعجب من التشبيه نلزمهم به في الحياة والسمع والبصر والعلم، فكما لا يجعلونها  
اعراضا كذلك نحن لا نجعلها جوارح، ولا ما يوصف به المخلوق، ولبس من  
الانصاف أن يفهموا في الاستواء والنزول والوجه واليد صفات المخلوقين فيحتاجوا  
الى التأويل والتحريف

«فان فهموا في هذه الصفات ذلك فليزعمهم أن يفهموا في الصفات السبع (١) صفات  
المخلوقين من الاعراض فما يلزمونا في تلك الصفات من التشبيه والجسمية نلزمهم  
به في هذه الصفات من العرضية، وما ينزعمون ربهم به في الصفات السبع وينفون عنه  
(١) يعني الحياة والعلم والارادة والقدرة والسمع والبصر والكلام وهي التي  
يسمونها صفات المعاني و يجعلون مدار معرفة الله عليها

عوارض الجسم فيها فكذلك نحن نعمل في تلك الصفات التي ينسوانا فيها الى التشبيه سواء بسواء. ومن أنصف عرف مقلنا واعتقده وقبل نصيحتنا ودان لله باثبات جميع صفاته هذه وتلك ونفى عن جميعها التشبيه والتعطيل والتأويل والوقوف وهذا مراد الله تعالى منا في ذلك لان هذه الصفات وتلك جاءت في موضع واحد وهو الكتاب والسنة فاذا أثبتنا تلك بلا تأويل وحرفنا هذه وأرأاها كنا كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض. وفي هذا بلاغ وكفاية ان شاء الله تعالى

(فصل) واذا ظهر هذا وبان انجات الثلاث المسائل بأمرها وهي مسألة الصفات من النزول واليد والوجه وأمثالها ومسألة العلو والاستواء ومسألة الحرف والصوت : أما مسألة العلو فقد قيل فيها ما فتحه الله تعالى وأما مسألة الصفات فتساق مساق مسألة العلو ولا نفهم منها ما نفهم من صفات المخلوقين بل يوصف الرب تعالى بها كما يليق بجلاله وعظمته، فينزل كما يليق بجلاله وبمظننه، ويدها كما يليق بجلاله وعظمته، ووجهه الكريم كما يليق بجلاله وعظمته، فكيف ننكر الوجه الكريم ونحرف وقد قل صلى الله عليه وسلم في دعائه « أسألك للذة النظر الى وجهك » واذا ثبتت صفة الوجه بهذا الحديث وبغير من الآيات والنصوص فكذلك صفة اليدين والضعف والتعجب ولا يفهم من جميع ذلك الا ما يليق بالله عز وجل وبمظننه لا ما يليق بالمخلوقات من الاعضاء والجوارح تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

(ثم قال) وأما مسألة الحرف والصوت فتساق هذا المساق فان الله تعالى قد تكلم بالقرآن المجيد وبجميع حروفه فقل تعالى ( الم ) وقال ( المص ) وقال ( ق ) والقرآن المجيد ) وكذلك جاء في الحديث « فينادي يوم القيامة بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب » وفي الحديث « لا أقول الم حرف، ولكن الف حرف، لام حرف ميم حرف » فهو لا ما فهموا من كلام الله تعالى الا ما فهموه من كلام المخلوقين فقالوا ان قلنا بالحروف فان ذلك يؤدي الى القول بالجوارح واللاهوات<sup>(١)</sup> وكذلك اذا

« ١ » اللهوات جمع لهواة وهي النعمة المشرفة على الخلق في اقصى النعم : ويجمع ايضا على لهي ولهات :

قلنا بالصوت أدى ذلك الى الحلق والخنجرة ، عملوا في هذا من التخبط كما عملوا فيما تقدم من الصفات

«والتحقيق هو أن الله تعالى قد تكلم بالحروف كما يليق بجلاله وعظمته فانه قادر والقادر لا يحتاج الى جوارح ولا الى لهوات، وكذلك له صوت كما يليق به يسمع ولا يفتقر ذلك الصوت المقدس الى الحلق والخنجرة : كلام الله تعالى كما يليق به وصوته كما يليق به ، ولا تنفي الحرف والصوت عن كلامه سبحانه لافتقارهما منا الى الجوارح واللهوات فأنهما من جناب الحق تعالى لا يفتقران الى ذلك. وهذا ينشرح الصدر له ويستريح الانسان به من التعسف والتكاف بقوله: هذا عبارة عن ذلك

«فان قيل فهذا الذي يقرأه القاري، هو عين قراءة الله تعالى وعين تكلمه هو؟ قلنا لا بل القاري، يؤدي كلام الله تعالى والكلام انما ينسب الى من قاله مبتدئاً لا الى من قاله مؤدياً مبلغاً، ولفظ القاري، في غير القرآن مخلوق وفي القرآن لا يتميز اللفظ المؤدي عن الكلام المؤدى عنه، ولهذا منع الساف عن قول لفظي بالقرآن مخلوق لانه لا يتميز كما منعوا عن قول لفظي بالقرآن غير مخلوق فان لفظ العبد في غير التلاوة مخلوق وفي التلاوة مسكوت عنه كيلا يؤدي الكلام في ذلك الى القول بخلق القرآن وما أمر السلف بالسكوت عنه يجب السكوت عنه والله الموفق اه (يقول مؤلف هذا التفسير) ان لدينا في تقريب صفة الكلام من الافهام قولاً آخر وهو ان جميع ما ثبت في النصوص من صفات الله تعالى وشؤونها فالتعبير عنه مستعار مما وضعه الناس في اللغة لانفسهم فنفهم بهذه المراد من تلك بقدر الطاقة البشرية ونعرف بدليلي العقل والنقل الفرق بينهما وأن النسبة بينهما المباينة في الحقيقة . وقد عبر أبو حامد الغزالي عن ذلك تعبيراً بليغاً في قوله من كتاب الشكر من الاحياء :

« ان لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع ، وتلك الصفة أعلى وأحل من أن تسمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنهه جلاله وحسوس حقيقتها فلم تكن لها في العالم عبارة لعلوا شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن ان يمتد طرف فهمهم الى مبادي اشراقها ،

فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفايش عن نور الشمس لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفايش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها الى أن يستمروا من عالم المتناسقين باللغات عبادة تفهم من مبادي حقائقها شيئاً ضعيفاً جداً فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا : لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع « ثم ذكر المشيئة والمحبة والكراهة والرضا والغضب فلم يفرق بين ما يسمونه صفات المعاني وما يسمونه صفات الأفعال التي يتأولها أصحابه الأشعرية تحكما منهم

ونحن نعلم من أنفسنا أن لنا كلاماً هو صفة من صفاتنا وشأن من شؤوننا تتعلق بما يتعلق به علمنا ولكن تعلق العلم عبارة عن انكشاف المعلومات للنفس وتعلق الكلام عبارة عن كشفها وتصويرها بما يدل عليها في النفس أو لمن يزيد كشفها له : تقول حدثتني نفسي بكذا ، وقلت في نفسي كذا ، وفي حديث عمر يوم السقيفة : وكنت زورت في نفسي مقالة - يعنى هيأت في نفسي كلاماً لأقوله . وقال الشاعر :

عندي حديث أريد اليوم أذكره وأنت تعلم دون الناس فخواه  
وأما أداء الكلام لمن يزيد اعلامه ببعض ما تعلم فله طرق أهمها تعبير اللسان وبليته تعبير القلم والاول غريزة في النطق خاصة بالبشر بمقتضاها تواضعوا على الانفاظ الدالة على معاني المعلومات فاستمرت بقدر اتساع دائرة علومهم ، والثاني صناعة هدام الله تعالى اليها بشعورهم بالحاجة الى ايصال معلوماتهم الى البعيد عنهم الذي لا يسمع كلامهم اللساني والى حفظها لمن يجيء بعدهم ، وقد استحدثوا في هذا العصر آلة لخطاب البعيد باللسان سموها (التلفون) وسميناها (المسرة) بكسر الميم وتشديد الراء (١) توصل الكلام من دار الى دار ومن بلد أو قطر الى آخر بأسلاك كهربائية تصل بين آلات المتخاطبين وقد استغنوا أخيراً عن هذه الاسلاك في بعض المواضع . واستحدثوا آلة لحفظ الاصوات الكلامية وغيرها واحادتها عند الحاجة ولو بعد موت صاحبها سموها (الفونوغراف) وكان استحدثوا قبل ذلك آلة لنقل الكلام من مكان الى مكان في البلد الواحد وفي البلاد

(١) أخذنا من قول القاموس : المسرة بكسر الميم الآلة يسار بها كالتومار

والاقطار المختلفة بأسلاك كهربائية موصلة بين الآلات لمؤدية للكلام والقابلة له بما هو من قبيل الخط لا الصوت وهي الآلة المعروفة بالتلغراف فكل من هذا وذلك اداء للكلام الذي يقوم في نفس صاحبه ويريد ايصاله الى غيره وكل منها يسمى كلامه حقيقة كما يعلم من استعمال العرب الخلف والخصرمين والموالدين الذين تلقوا عنهما ومن بعدهم ، واللاخطل الشاعر المشهور في دولة بني أمية بيت من الشعر تداوله المتكلمون واستشهدوا به على الكلام النفسي والكلام اللفظي يفهم منه ان الاول عنده هو حقيقة مدلول الكلمة وان الثاني مجاز مرسل وهو :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا  
وايس هذا بحجة لغوية على ما ذكر وقصارى الاحتجاج بشعر الشاعر ان استعماله الذي يستعمله صحيح في اللغة في مفرداته وتركيبه ، وذلك لا يقتضي أن يكون رأيه فيه صحيحا ، ولا أن يكون كل ما يقوله حقا في الواقع ولا في اعتقاده ولا سيما اذا كان شعرا ، فاستعمال العرب لمادة الكلام تدل على ان اللفظ المركب الدال بالوضع على المعاني كلام حقيقة ، وقد قال الزخشي في حقيقة الاساس من هذه المادة : سمعته يتكلم بكذا ، وكلمته وكالمته ، وكانا متصارمين فصارا يتكلمان ، وموسى كلم الله . ونطق بكلمة فصيحة وبكلمات فصاح وبكلم اه

فلكلام الانسان صفة أو ملكة في نفسه يناجهاها ويصور فيها ما ينظمه أو يقدره ويصوره ليخاطب به غيره ، وصفة أو ملكة في لسانه ، وصفة أو صورة فيما يرسمه بقلمه على الورق ، وصورة أخرى فيما يجرك به آلة التلغراف السلكي أو غير السلكي مخاطبا لبعض الناس في بعض البلاد ، وصورة أخرى في الهواء تحدث عند النطق به زمنا قصيرا وقيل انه أطول مما يظن ، وصورة أخرى فيما ينقشه المكرو فون في لوح آلة الفونوغراف تكون محفوظة فيه الى ان تعيده الآلة كما أتت فيها صوتا مؤلفا من الالفاظ الدالة على المعاني ،

وكلام كل أحد ما ينشئه في نفسه ويؤديه الى غيره بطريقة من الطرق التي ذكرناها ، وينقل عن قبيل من البشر أنهم قد يؤدرون بعض كلامهم الذي في أنفسهم الى بعض المستعدين بقوة توجيه الإرادة وأنهم قد يطلعون على بعض

ما يجوز في أنفس غيرهم من الكلام ، فمن لم يصدق هذا عنهم فليعد لاعتبار به من ضرب المثل . ومهما تكن الوسيلة التي وصل بها علم المنشيء للكلام الى غيره فان غيره بصير مثله في تصويره في نفسه وفي تصويره لغيره بالوسائل المشار اليها آنفا . مثال ذلك قول لبيد ( رض )

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

تألف نظم هذا البيت في نفس لبيد يقتضى الصنعة والغريزة التي بها يصور الانسان ما في علمه لنفسه واغيره ، وسمعه الناس من لسانه فنقلوه عنه بالسنتهم ثم باقلامهم ، ولا يزال بعضهم يرويه عن بعض ويمكنهم في هذا العصر أن يتناقلوه بالتلفون والتاغراف ، ولكنه في أي صورة ظهر وبأية وسيلة نقل هو من كلام لبيد قاله منذ أربعة عشر قرنا وليس كلام أحد ممن ينشده اليوم بلسانه أو يرقه بقلمه أو يؤديه الى غيره بالتاغراف أو غيره

اذا تذكرت هذا كله في كلام الانسان المخلوق على ضمه ونقصه ، وأن الكلام من صفات الكلام التي اثبتها الله تعالى لنفسه — وتذكرت مع هذا كمال الخفاق وتغزه عن مشابهة خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله — وأنه كلفك الايمان بوجوده وباتصافه بجميع ما عرف به نفسه من غير تعطيل ولا تشبيه — فأني عثرة بعثر بها عقلاك اذا آمنت بأن الله تعالى كلاما هو صفة من صفاته الثابتة له أزلا وأبدا لانها مرآة علمه الازلي الابددي ، وانه باع بعض رساله من الملائكة ماشاء من كلامه ليوحوه الى رساله من البشر ليبلغوه لآلهمم كما خاطب موسى باشاء منه ، وان هذا الكلام واحد على اختلاف وسائل تبليغه وحفظه ، فقيامه بذات الله تعالى غير مثله في نفس جبريل ، وفي نفس موسى حين سمعه من وراء حجاب ، وأداء جبريل إياه ونزوله به على قلب محمد صلى الله عليه وآله وعلى من قبله من الرسل (عم) غير أداء الله تعالى إياه الى جبريل ، وقيامه في نفس الملك غير قيامه في نفس البشر كما أن قيامه في الهواء عند التلفظ به غير قيامه في لوح الفونوغراف ، وكلاهما غير قيامه في الصحف وكونه على اختلاف صورته وطرق ادائه واحدا في كونه كلام الله القديم الازلي كما قلنا في بيت لبيد من كون انشادنا له وكتابتنا إياه اليوم



لا ينافي كونه كلام ابيد القديم النسبي غير الازلي - وكلام الله القديم الازلي حقيقة أولى ( والله المثل الاعلى ) فلا حاجة تدعو العقل الى وصفه بأنه مخلوق أو حادث لان المخلوقين المحدثين يتناقضونه بالسنتيم وأقلامهم وسائر آلائهم المحدثه ولا الى التفصي من القول بأنه ذو حروف مرتبة ولا بان تلقيه يسمى سمعا كقوله تعالى ( حتى يسمع كلام الله )

اذا جعلت هذا البيان وسيلة لفهم ماورد في الكتاب والسنة من اثبات الكلام لله تعالى وكون ماوحاه الى رسله عليهم الصلاة والسلام من كلامه تعالى مع اجتناب التعطيل والتشبيه جميعا وفقا لسلف الصالح ، ومع التقريب بالمثال المناسب لحال هذا العصر في لومه وقنونه، فلك بعد هذا أن تجعله مثالا يقرب من عقلك معنى تجلى الرب سبحانه في الصور الخنيفة والحجب على تنزهه عن مشابهة تلك الصور والحجب

قد علمت أن للكلام حقيقة ذلك - مع أمن اللبس - أن تقول صورة هي مظهر العلم في النفس ومبدأ اظهار ماشاء العالم المتكلم أن يظهره من علمه لغيره - وأن له صوراً اخرى في أنفوس من ألقى اليهم شيء منه على اختلاف أحوال أنفسهم من ملكية وبشرية، وصوراً اخرى في الهواء وفي الحط على الكاغد وفي النقش على ألواح الفونغراف . وهذه الصور على ما بينها من التباين التام مظاهر لحقيقة واحدة هي ما أراد العالم المتكلم اظهاره من علمه بكلامه كبيت لبيد الشاعر - وكقوله تعالى قل هو الله أحد • الله الصمد • لم يلد • ولم يولد • ولم يكن له كفوا أحد • فن تلقى هذه السورة من لسان القاري ، أو من الصورة التي كتبت بها السورة بحروف من الحط الكوفي أو النسخي أو الفارسي أو غيرها علم بها من كلام الله عين ما علمه جبريل وهو موسى ومحمد وغيرهم من الرسل في التلقي عن الله تعالى بلا وساطة أو التلقي عن جبريل عليهم السلام . وهو عين كلام الله تعالى الفائم بنفسه من حيث أنه هو المظهر لمعاني هذه السورة من علمه ومن حيث أنه لا عمل

ولا كسب لاحد من المبالغين لهاني تأليف عبارتها لاجبريل ولا محمد عليها السلام  
ولا الصحابة الذين بلغوها ثلثا بعين قول لا ركتابة، ولا يقتضي هذا تأويل الكلام الالهي  
ولا تعطيله ولا حشرته، ولا تشبيهه بكلام خلقه. كما ان علمه تعالى لا يشبه علم خلقه، ولا  
يقتضي أيضا ان نكون قد أدركنا كنه هذه الصفة بفهمنا لما بلغنا تعالى اياه من علمه  
بها، كما أن اطلاقه إيانا على ما علمه في الازل وفيما لا يزال من كونه أحد اصمد الم يلد  
ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد - لا يقتضي ادراك كنه علمه بذلك. بل نحن لم ندرك  
كنه كلامنا في أنفسنا ولا في الهواء ولا في غيره مما ذكر آنفا .

كذلك نقول ان ما ثبت في الصحاح من تجلي الرب تعالى في الصور المختلفة  
وتعرفه لمن شاء ببعضها دون بعض لا يقتضي حدوده ولا مشابهته للصور ولا الحجاب  
والنو ولا غيره من خلقه ولا ادراك كنهه عز وجل . ومعرفة المؤمنين له ببعضها دون  
بعض كمعرفة بعضهم لكلامه بتبليغ اللسان دون الكتابة أو بالكتابة دون اللسان،  
وكل ذلك كمال له وإنما النقص ما تخيله نفاة الرؤية والصفات من جعل الخالق تعالى  
معنى سلبيا

### ﴿ تنمة السياق في الرؤية والكلام ﴾

أخبرنا الله تعالى في الآيات السابقة بأنه منع موسى رؤيته يعني في الدنيا  
وبشره بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالته وبكلامه ، ثم أخبرنا فيها بما أتاه يومئذ

بالاجمال فقال ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء ﴾  
أي اننا أعطيناها ألواحا كتبنا له فيها من كل نوع من أنواع الهداية موعظة من  
شأنها أن تؤثر في القلوب ترغيبا وترهيبا . وتفصيلا لكل نوع من اصول التشريع  
وهي اصول العقائد والآداب وأحكام الحلال والحرام، وتفصيلا لذكرها ممدودة  
مقصولا بعضها من بعض . واسناد الكتابة اليه تعالى إما على معنى أن ذلك  
كان بقدرته تعالى وصنعه لا كسب لاحد فيه ، وإما على معنى أنها كتبت بأمره  
ووحيه سواء كان الكاتب لها موسى أو الملك (عليهما السلام) قال بعض  
المفسرين إن الألواح كانت مشتملة على التوراة وقال بعضهم بل كانت قبل التوراة

والراجح أنها كانت أول ما أنزله من وحي التثنية فكانت أصل التوراة الأجماعية وكانت سائر الاحكام التفصيلية من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والمعقوبات تنزل عليه ويخاطبه الرب تعالى بها في أوقات الحاجة اليها كالقرآن . واختلفوا في عدد الألواح ف قيل كانت عشرة وقيل سبعة وقيل اثنين ، قال الزجاج يجوز أن يقال في اللغة لوحين ألواح . وهذا كل ما يصح أن يذكر من خلافهم فيها وأما تلك الروايات الكثيرة في جوهرها ومقدارها وطولها وعرضها وكتابتها وما كتب فيها فكما من الاسرائيليات الباطلة التي بثها في المسلمين أمثال كعب الاحبار ووهب بن منبه فأغتر بها بعض الصحابة والتابعين انصحت الروايات عنهم وقد تلخص السيوطي منها في الدر المنثور ثلاث عشرة رقعة - أي ست صفحات - واسمات من القلم الكبير ، وليس منها شيء يصح أن يسمى درة وان كان منها أن الألواح من الياقوت أو من الزمرد أو من الزبرجد كما أن منها أنها من الحجر ومن الخشب ، وقد اعجبني من الحافظ ابن كثير أنه لم يذكر من تلك الروايات شيئاً على سعة اطلاعه ، وقد تبع في هذا عمدة في التفسير ابن جرير رحمه الله تعالى ولكن ذكر بعضها الالوسي من المتأخرين تبعاً لغيره كرواية الطبراني والبيهقي في الدلائل عن محمد بن يزيد الثقفي قال : اصطحب قيس بن خرشة وكعب الاحبار حتى اذا بلغا صفيين وقف كعب ثم نظر ساعة ثم قال : ليهراقن بهذه البقعة من دماء المسلمين شيء لا يهراق ببقعة من الارض مثله . فقال قيس : ما يدريك ؟ فان هذا من الغيب الذي استأثر الله به ، فقال كعب مامن الارض شبر إلا مكتوب في التوراة التي أنزل الله على موسى ما يكون عليه وما يخرج منه الى يوم القيامة . واستدل به الالوسي على أن قوله تعالى ( من كل شيء ) على أوسع ما يحمله اللفظ من العموم وأنا أظن أن هذا القول موضوع على كعب وان كنت اخالف الجمهور في مسألة تمديله ، وتأول الالوسي له هذا القول الظاهر بطلانه بالبداية بقوله : ولعل ذلك من باب الرمز كما ندعيه في القرآن اه

وما ذكرت هذا إلا للتعجب من فتنة هذه الروايات الباطلة الى أي حد وأي زمن وصل تأثيرها السيء حتى ان هذا النقادة قد اغتر بمثل هذا منها وتأويله بما هو باطل مثله ، فانه لم يصح عن أحد من أئمة المسلمين الذين يعتمد عليهم بكتاب الله تعالى انه ليس في العالم أو في الارض شبر الا وقد كتب فيه ( أي القرآن ) ما يقع فيه وما يخرج منه ، وإنما قال مثل هذا بعض المجازفين

والخياليين من الصوفية على انه من الكشف الذي يدعونه ، راجع تفسير  
( ما فرطنا في الكتاب من شيء ) في ص ٣٩٤ - ج ٧ تفسير

هذا واما ماورد في التوراة الحاضرة في شأن الألواح فانه ماجاء في سفر  
الخروج من ( ٢٣ : ١٤ ) وقال الرب لموسى اصعد الى الجبل وكن هناك فاعطيك  
لوجي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعلمهم الكلمات العشر ) وجاء في  
وصف اللوحين منه ( ٣٢ : ١٥ ) ثم انثنى موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة  
في يده : لوحان مكتوبان على جانبيهما ، من هنا ومن هناك كانا مكتوبين ١٦  
واللوحان هما صنعة الله والكتابة هي كتابة الله منقوشة على اللوحين ) وفيه أن  
موسى رمى باللوحين من يديه عندما رأى العجل الذي عبده قومه في أيام مناجاته  
له تعالى ، وفي أول الفصل ٣٤ : ١ ثم قال الرب لموسى انحت لك لوجي حجر  
كالاولين فاكتب عليهما الكلام الذي كان على الحجرين الاولين اللذين كسرتهما  
... - ٤ فنحت لوجي حجر كالاولين وبكر موسى في الغداة وصعد الى جبل  
سيناء كما أمره الرب وأخذ في يده لوجي الحجر ) ويليه أن الرب هبط في الغمام  
ووقف عنده هناك ومر قدامه ووعدته ووصاه وأمره بأوامر ونهاه عن امور  
ويلى ذلك ( ٢٧ ) وقال الرب لموسى اكتب لك هذا الكلام لأنى بحسبه عقدت عهدا  
معك ومع بنى اسرائيل ٢٨ وأقام هناك عند الرب اربعين يوما واربعين ليلة  
لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلام العهد الكلمات العشر )  
وهنا يحتمل أن يرجع ضمير « فكتب » الرب تعالى وأن يرجع الى موسى ،  
ولولم يرد ما تقدم عن ( ٣٢ : ١٦ ) لكان هذا متعينا بقرينه قول الرب له قبله  
اكتب لك هذا الكلام ، وله نظائر . وأما الوصايا العشر فقد نقلنا نصها في تفسير  
( ٦ : ١٥٤ ) ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن ) من سورة الانعام  
عقب وصايا القرآن التي هي أجمع واكمل منها ( ص ٢٠٢ ج ٨ تفسير )

ومن هذا الذي نقلناه هنا يعلم ما في تلك الاسرائيليات التي أوردتها السيوطى  
في التفسير المأثور من المخالفة للتوراة ، إذ من المعلوم أن ما كان من التحريف  
اللفظى في التوراة من نقص وزيادة وغلط قد كان قبل الاسلام ، ولم يكن بعده  
الا التحريف المعنوي - فما في تلك الروايات من تعيين جوهر الألواح ومساحتها  
وكتابتها وما كتب فيها من وصف امة محمد ( ص ) وغيره مما يخالف هذه التوراة

١٩٢ أمر موسى بأخذ الشريعة بقوة وقوته بأحسنها التفسير

فهو باطل أراد به واضعوه أن يذكر المسلمون في تفسير القرآن وغيره من كتبهم ما يصد لليهود وغيرهم عن الإسلام بأن دعوتهم مبنية على الكفر واليهتان ، ولم يذكر أولئك الذين كانوا يكتبون كل ما يسمعون شيئاً من هذا الكيد والمكر اليهودي ، ونحمد الله أنه لم يروح منه على جهالة فقد أحدث الأتقياء

وأما قوله تعالى ﴿ خذها بقوة ﴾ فهو مقول قول مقدر لأنه أمر لموسى والخطاب قبله للنبي الخاتم عليهما الصلاة والسلام - والمعنى كتبنا له في الألواح ما ذكر وقتنا له خذها بقوة أو وقتنا له هذمه سالتنا أو وصايانا وأصول شريعتنا وكلياتها فخذها بقوة أي حال كونك ملتزماً بحج وعزيمة وحزم ، أو أخذاً بقوة وعزم ، وذلك أن المراد بها تكونين شعباً جديداً بتربية جديدة شديدة مخالفة كل المخالفة لما نشأ عليه من الفل والعبودية لغير عون وقوم مع الأئمة ما كانوا عليه من الشرك والوثنية ومناسدها ، فإذا لم يكن المتولي زبياً هؤلاء القوم والمرشد لهم صاحب عزيمة قوية وبأس شديد وعزم ثابت فإنه يعجز عن سياستهم وزيوتهم ، ويفشل في تنفيذ أمر الله فيهم

﴿ وأمر قومك بأخذوا بأحسنها ﴾ قيل إن (أحسن) هنا بمعنى ذي الحسن التام الكامل وليس فيه معنى تفضيل شيء على آخر ، وهو ما يعبرون عنه بقولهم : اسم التفضيل على غيره - أي واء أمر قومك بالاستسكان والاعتصام بهذه المواضع والأحكام النعمة في الألواح التي هي كاملة الحسن . وقيل إنه على الأفضل فيه من تفضيل بعض المضاف إليه على بعض ومنه الحقيقي والاعتباري والاضافي ، فأصول العقائد من الإيمان بالله تعالى وتوحيده وتنزيهه أفضل وأشرف من الأحكام العملية ، ولكن لا يصح أن يراد هنا ، قيل إلا إذا اريد بالأخذ الشروع والابتداء - والأوامر أفضل من النواهي ويصح أن تراد في مثل الأمر بعبادة الله وحده والنهي عن اتخاذ الصور والتماثيل وكلاهما من الوصايا التي كتبت في الألواح وذلك أن الإخلاص لله تعالى في العبادة أمر وجودي يتحلى به العقل وتتركى به النفس ، وترك اتخاذ الصور والتماثيل أمر سلبي محض إذا لم يكن أثراً للإخلاص في العبادة وسد للذريعة فلا قيمة له فإنه لم يبه عنه إلا لأنه من ذرائع الشرك ، وإلا فقد يتركه المرء لعدم الداعية وإن كان مشركاً . والقرض أفضل من النقل ، ولكن ليس في الوصايا العشر نوافل ، ويقال مثله في قولهم

والعزيمة أفضل من الرخصة ومثل هذا التعبير قوله تعالى ( واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ) والمجال فيه أوسع فإن القرآن أحسن ما أنزله الله تعالى أو خقه على السنة رسوله بكامله تعالى الدين به وبغير ذلك من مزاياه ، والخطاب فيه لامة الدعوة أي للناس كافة لأنه ، مطوف على قوله ( وأنذروا إلى ربكم وأسمعوا له ) ثم ان فيما أنزله فيه العزيمة والرخصة وفيه من الندب ما هو أفضل من مقابله كالصدقة بالدين بدل انظار المعسر به وهو واجب وكالمفوي في مقابلة القصاص

وقوله تعالى ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ من حكاية خطابه لقوم موسى بالنجم له اذ وجه الامر فيما قبله اليه واليه ، فهو داخل في مقول القول الذي خوطب به نبينا (ص) من قصتهم ، والجملة استئناف لبيان طاقبة الذين فسقوا عن امر الله وجحدوا بآياته فلم يأخذوا بأحسنها ، كأنه يقول ان لم تأخذوا ما آتيناكم بقوة وتبعوا احسنه كنتم فاسقين عن امر ربكم فيحل بكم ما حل بالفاسقين من قوم فرعون الذين انجاكم الله منهم وانصرم عليهم وسيرىكم ما حل بهم بعدكم من الغرق ، أو الفاسقين من سكان البلاد المقدسة والمباركة التي وعدكم إياها وسينصرم عليهم بطاعتكم له وأخذكم ميثاقه بقوة

قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها : أي سترون طاقبة من خالف امرى وخرج عن طاعتي كيف يصير الى الهلاك والدمار والتمباب . وقال ابن جرير وإنما قال ( سأريكم دار الفاسقين ) كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غداً ما يصير اليه حال من خالفني - على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره . ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري . وقيل معناه سأريكم دار الفاسقين أي من أهل الشام واعطيتكم إياها ، وقيل منازل قوم فرعون . والاول أولى والله أعلم لان هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبنى اسرائيل قبل دخولهم التيه ، والله أعلم اه ومنه باحث رسم المصحف الامام أن كلمة ( سأريكم ) زيد فيها واو قبل الراء لا تشتبه بسأراكم اذ كانوا يرسمونها بالياء غير منقوطة فالمراد بها ضبط الكلمة كالضمة والله أعلم

والعبرة التي يجب أن يتذكرها ويتدبرها كل قارئ هذه الآية من وجوه ( أحدها ) أن الكتاب الالهي يجب أخذه بقوة إرادة وجد عزيمة لتنفيذ ما هدى اليه من الاصلاح وتكوين الامة تكويناً جديداً صالحاً ، ويتأكد ذلك في الرسول

المباغلة والداعي اليه والمفدله بقوة وعمله، ليكون لغومه فيه اسوة حسنة .  
 وتلك سنة الله تعالى في سائر الانقلابات والتجديدات الاجتماعية والسياسية وان لم  
 تكن بهدائه الدين ، وتدين أحوج الى القوة والعزيمة لانه اصلاح ناطعروا الى طن  
 جميعا، وقد أمر الله تعالى نبي اسرائيل بما أمر به رسولهم (ص) من أخذ الكتاب  
 او ميثاق الكتاب بقوة أمر أمتمرونا بتهديتهم وتخويفهم من وقوع جبل الطور  
 بهم، كما تقدم في سورة البقرة ( ٢ : ٣٣ و ٩٣ ) وسيأتي مثله في هذه السورة  
 ( الاعراف ) وقد اخذ سلفنا القرآن بقوة فسادوا به جميع الامم التي كان لها  
 من القوى المدنية والحربية والنظامية والمالية والصناعية ما ليس لهم ، وإنما سادوا  
 بالعمل بهدايته كما أراد الله تعالى - لا بالتغنى بقراءته في المحافل ، ولا بالنبرك  
 المحض بالمصاحف ، كما يفعل منلدة الخلف الطالح ، إن من يأخذ القرآن  
 بقوة يكون القرآن حجة له فيسعد به في الدنيا والآخرة ، ومن لا يأخذه بقوة  
 يكون حجة عليه فيشقى بالاعراض عنه وهجر هدايته في الدنيا والآخرة  
 ( يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين \* الذين ينقضون  
 عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله أن يوصل ويفسدون في  
 الارض اولئك هم الخاسرون )

( ثانيها ) أن سبب تخويف نبي اسرائيل عند تبليغهم الميثاق الالهي  
 بوقوع الجبل بهم وأمرهم في تلك الحال أن يأخذوه بقوة هي أن أحكام التوراة  
 التي أخذ عليهم الميثاق بأخذها بقوة شاقة حرجة ، وحكمة ما فيها من الشدة  
 والحرج أن القوم كانوا مستضعفين مستذلين باستعباد المصريين لهم منذ أجيال  
 كثيرة وكان القوم أو الاقوام الذين وعدوا بأن يغلبوهم على بلادهم جبارين  
 اولي قوة واولي بأس شديد ، وكان من سنة الله تعالى في البشر أن تترى أفرادهم  
 وشعوبهم بالشدة والارتياض بالصبر ، والجهاد بالمال والنفوس ، ولهذا أمر الله  
 تعالى موسى عليه السلام أن يسير بيني اسرائيل في طريق التيه وهو الجنوبي  
 من برية سيناء دون الطرق الشمالي تقرب من مدن فلسطين اذ لم يكن لهم طاقة  
 بقتال جباري الكنعانيين وقتئذ فكتب الله تعالى عليهم التيه أربع سنين تلك  
 في أثناءها الذين استذلهم المصريون ونشأ من صغارهم ومواليدهم جيل جديد  
 يربي في حجر الشرع الجديد ، والتيه الشديد ، كما بيناه في تفسير سورة

لمائدة (ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ج ٦ تفسير)

(ثالثها) أن الاسرائيليين قد عظم ملكهم باقامة شريعتهم بقوة حتى اذا غلب الغرور على العمل وظنوا ان الله تعالى ينصرهم ويؤيدهم لنسبهم ولقبهم وهو « شعب الله » فسقوا وظلموا ، فانزل الله بهم البلاء، وساط عليهم البابليين الاقوياء، فنلوا عرشهم وتبروا ملكهم ، ثم تابوا الى رشدهم ، فرحمهم الله واعاد لهم بعض ملكهم وعزمهم ، ثم ظلموا وافسدوا فساط عليهم النصارى فزفوهم كل ممزق ، فظلوا عدة قرون متكئين على المسيح الموعود ليميد لهم ملكهم بخوارق المعاديات ، ثم ربهم الشدائد ونورهم العلم المصري فظفقتوا يستعدون لاستعادة هذا الملك بكل ما في الامكان من الاسباب وفي مقدمتها المال والنظام والكيد والدهاء مع المحفة على التقاليد الدينية في ذلك حتى انتهى بهم السعي الى استخدام الدولة البريطانية بما فصلناه في بيان العبرة في قوله تعالى (١٢٦) وأدرئنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها ) من هذه السورة (ص ٩٧ ج ٩)

(رابعها) ان المسلمين الذين اتبعوا سننهم وسنن النصارى شبرا بشبر وذراعاً بذراع في الضردون انقم كما فصلناه في غير هذا الموضع قد اغتروا بدينهم كما اغتروا ، واتكوا على لقب « الاسلام » ، ولقب « أمة خاتم الرسل » عليه السلاة والسلام ، ولاكتهم لما يثوبوا الى رشدهم ، لان الذين سلبوا ملكهم وعزمهم يسوسوهم شدة مربية كافية ، بل اجتهدوا في افساد عقائدهم واخلاقهم ، وايقاع الشقاق والتفريق فيما بينهم ، بل افسدوا كذلك من لم يستولوا على ملكهم منهم ، بتوليهم التربية والتعليم لكثيرين منهم ، كانوا على ما يريدون من ثل عروشهم والسيادة عليهم بالتدريج كالتمايز والمصريين كما فصلناه في ، واضع اخرى (١) ولا يزال هؤلاء المتفرنجون المحربون يجدون في قتل هذه الامة وهم يظنون أنهم يجدون ، ويفسدون عابها أمرها ويحسبون أنهم يصاحون ، (ألا إنهم هم افسدون ولاكن لا يشعرون )

(١٤٥) مَا ضَرَفُ مِنْ آيَةِ الدِّينِ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ

(١) أقرها مقالة «ماضي الأزهر وحاضره ومستقبله» في ج ٩ من المنام ٢٥



بغير الحق وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا  
سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغيِّ يَتَّخِذُوهُ  
سَبِيلًا . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)  
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ  
يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

انتهى بالآية التي قبل هاتين الآيتين فصل من فصول قصة موسى عليه السلام  
وهاتان الآيتان اسئلتان مرتب على جملة ما تقدمه منها بين الله فيه لخاتم رسوله في  
الاولى منهما سنته في ضلال البشر بعد مجيء البينات في كل زمان ويدخل فيه  
قوم فرعون من الغابرين دخولا اوليا وينطبق على رؤساء كفار قريش المعاندين  
له (ص) من الحاضرين وبين في الثانية جزاءهم على تكذيبهم وكفرهم ، قال :  
﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ﴾ هذا بيان  
لسنته تعالى في تكذيب البشر لدعاة الحق والخير من الرسل وورثتهم وسببه  
الاول التكبر فان من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على  
الحق والهدى لاجل اتباعه فهم يكونون دائما من المكذبين بالآيات الدالة على  
عليها الغافلين عنها وتلك حال الملوك والرؤساء والزعماء الضالين كفرعون وملائته  
وإنما ذكرت هذه السنة العامة من أخلاق البشر بصيغة المستقبل لعلام النبي (ص)  
بأن الطاغين المتكبرين من مشيخة قومه لن ينظروا في آيات القرآن الدالة على  
صدقه (ص) في دعوى الرسالة من وجوه كثيرة بينها مرارا ، والدالة على  
وحدانية الله تعالى بما أقامته عليها من البراهين الكثيرة ولا في غيرها  
مما أبدته ويؤيده به من آياته الكونية لتكبرهم في الارض بالباطل فوجهة نظرم  
تنحصر في تفضيل أنفسهم عليه (ص) بأنهم سادة قريش وكبرائها واغنياؤها  
واقوياؤها فلا يليق بهم أن يتبعوا من هو دونهم سنا وقوة وثروة وعصبية ،  
والمعنى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق من قومك أيها  
الرسول ومن غيرهم في كل زمان ومكان كما صرفت فرعون وملائته عن آياتي

التي آتيتها رسولي موسى

— والتكبر صيغة تكلف او تكثر من الكبر الذي هو غمط الحق بعدم الخضوع له واحتقار الناس، فهو شأن من يرى انه أكبر من أن يخضع لحق، أو يساوي نفسه بشخص، والاصل الغالب في التكبر ان يكون بغير الحق وقد يتصور أن يتكلف الانسان اعلاء نفسه على غيره أو اكثاره من الاستعلاء عليه بحق كالترفع عن المبطلين واهانة الجبارين واحتقار المحاربين. فقوله تعالى ( بغير الحق ) يكون على هذا صلة للتكبر وهو قيد له، وإلا كان بياناً للواقع. أو المعنى انهم يتكبرون حالة كونهم متلبسين بغير الحق أي متفهمين في الباطل فأمثال هؤلاء لا قيمة للحق في نفسه عندهم فهم لا يطلبونه ولا يبحثون عنه وقد تظهر لهم آياته ويجحدونها وهم بها موقنون، كما قال تعالى في آلهة فرعون ( وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ) وقال في طغاة قريش ( فاهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون )

﴿ وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ هذا إما عطف على جملة ( سأصرف .. ) أي سأصرفهم عن آياتي المنزلة والكونية فينصرفون وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها — وأما عطف على ( يتكبرون ) فيكون هو وما بعده بياناً لصفات المتكبرين وأحوالهم وأولها أنهم ان يروا كل آية من الآيات التي تدل على الحق وتثبت وجوده لا يؤمنوا بها فان كثرة الآيات بتعدد أنواعها وأفرادها إنما تفيد من كان طالباً للحق ولكنه جاهل أو شك أو سبى الفهم فاذا خفيت عليه دلالة بعضها فقد تظهر له دلالة غيره، وفي هذا اعلام للنبي « ص » بأن الذين يقترحون عليه الآيات من قومه إنما يقصدون التمجيز، لا استبانة الحق بالدليل، فهم ان اجيبوا الى طلبهم لا يؤمنون، ولهذا نظائر تقدم بعضها في سورة الانعام مفصلاً تفصيلاً

﴿ وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ﴾ الرشد الصلاح والالتزام تقامة وضده النقي وهو الفساد، وفيه ثلاث لغات ضم أوله وسكون ثانيه وبه قرأ الجمهور هنا - وفتحهما وبها قرأ حمزة والكسائي - والرشاد وقد وردت في سورة المؤمن حكاية عن فرعون ( وما أهديكم الا سبيل الرشاد ) ومثلها السقم والسقم والسقام - والمعنى ان من صفة هؤلاء الذين مروا على الضلال

واستمرؤا صرعى الغي والفساد، ان ينقروا من الهدى والرشاد ، فان رأى احدهم سبيله واضحة جلية لا يختار لنفسه جعلها سبيلا له يائسها وتفضيلها على هو عليه ، وما كل أحد يصل الى هذه الدرجة من الغي لان من الناس من يسلك سبيل الغي على جهل فاذا علم بما تنتهي به اليه من الفساد ورأى انفسه مخرجا منها تركها ، واختار سبيل الرشاد عليها

﴿ وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ﴾ وهذه الحالة شر مما قبلها فان هذه إيجابية وتلك سلبية ، وبينهما حال اخرى وهى حال من ليس فيه من نور البصيرة وزكاه النفس ما يحمله على سلوك سبيل الرشاد اذا رآه اضعف همته ، ولكنه يكره الغي والفساد اذ لم يصل من اعتلال الفطرة وظلمة البصيرة الى تفضيله على الرشاد وايقار سبيله واختيارها لنفسه اذا رآها بحيث لا يصرقه عن الفساد الا جهل سبيله أو المعجز عن سلوكها

فن اجتمعت له هذه الاحوال أو الصفات فهو الذي أضلناه على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فلم تبق له سبيل من أسباب الحق والرشاد يسلكها ، وقد علل ذلك سبحانه بقوله

﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ يعنى ان الله تعالى لم يخلقهم مطبوعين على شيء مما ذكر طبعا، ولم يجبرهم ويكرههم عليه اكراما ، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته الدالة على الحق ، والصدود عن سبيله الموصلة الى الرشاد ، وكانوا غافلين عنها دون أهوائهم لا يعطونها حقها من النظر والتأمل والتفكير والتدبر ، لاشتغالهم عن ذلك بأهوائهم ، وعصبيتهم لانفسهم ولا بأهم ، وبذلك قطعوا على أنفسهم طريق الهدى . فالغفلة هنا هى الغفلة المطبوعة المانعة من أسباب العلم والعمق ، لا أى نوع من أنواع الغفلة ، بل هى المبينة في قوله تعالى من أواخر هذه السورة ( واقف ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون )

الغافلون من هؤلاء الغافلين عن آيات الله تعالى وما تهدي اليه من معرفته والاستعداد للحياة الاخرى الباقية هم الذين يقول انه تعالى في وصفهم ( اولئك فى ضلال بعيد ) ويقول ( قد ضلوا ضلالا بعيدا ) اذ كان لهم من الانهاك فيما هم فيه والغرور به واحتقار ما سواه ما يصددهم عن توجيه عقولهم الى غيره ،

ومنهم متفرحة المسلمون المخرفيين في هذا العصر يحتقرون هداية الدين الروحية وما لها من التأثير العظيم في تهذيب النفس وجمالها على الخير وصدها عن الشرور من الفواحش والمنكرات ، وإنما غرهم وأصلهم أنهم في عصر وصل فيه الغربيون إلى غاية بعيدة من الفنون والصناعات ، بأنهم يرون أن من عاش في هذا العصر يجب أن يكون مثلهم عبداً لشهواته ، ومقتضى ذلك أنه كان الأفضل لبني إسرائيل أن لا يتبعوا موسى عليه السلام لأنه لم يكن عنده من زينة الدنيا وقوتها وصناعاتها وفنونها ما كان عند فرعون وقومه ، (فاعتبروا يا أولي الأبصار).

ثم قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الآيات في الآية التي قبل هذه بمعنى الدلائل والبيانات من براهين عقلية ، نظرية كانت أو علمية أو كونية ، كآياته تعالى في النفس والآفاق ، ومنها معجزات الانبياء عليهم السلام وأظهرها وأقواها القرآن العظيم ، من حيث هو دال على صدق النبي الأمي في دعوى الرسالة من وجوه كثيرة تقدم بيانها - وأما الآيات المذكورة في هذه الآية فالظاهر المتبادر أنها الآيات المنزلة من حيث اشتمالها على الهداية والاصلاح بتزكية النفس من خرافات الشرك وفساد الاخلاق ومنكرات الاعمال . واللقاء مصدر لقي الشيء أو الشخص ولاقاه كالملاقة اذا صادقه أو قابله أو انتهى اليه يقال لقي زيداً ولاقاه ولقي خيراً أو شراً ( لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً ) \* ومن يلق خيراً يحمد الناس أمره \* ولقي جزاءه . قال الراغب وملاقاته الله عز وجل عبارة عن القيامة وعن المصير اليه قال ( واعلموا انكم ملاقوه \* وقال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله )

والمعنى والذين كذبوا بآياتنا المنزلة بالحق واهدى على رسلنا فلم يؤمنوا لهم ولا اهتدوا بها ، وكذبوا بلقاء الآخرة وما يكون فيها من الجزاء على الاعمال - على الخبر بالثواب وعلى الشر بالعقاب فاتبعوا أهواءهم - لا يجزون هنالك إلا ما كان من تأثير أعمالهم النفسية والبدنية مما أو النفسية فقط أكثر الواجبات في أرواحهم وأنفسهم من حق وخير زكاتها وأصلحها أو من باطل وشر دسائها رأسداها - إن الله لا يظلم اناس في الجزاء مثقال ذرة وإنما مضت سفته بجعل الجزاء في الآخرة أثراً للعمل مرتباً عليه ترتب المسبب على السبب كأنه هو نفسه وقد شرحنا هذا المعنى مراراً « تراجم كلمة جزاء في فهارس التفسير »

(١٤٧) وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا  
لَهُ خُورٌ. أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا؟ اتَّخَذُوهُ  
وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا  
قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لِنَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ

### ﴿ قصة اتخاذ بني اسرائيل للمعجل ﴾

في أثناء مناجاة موسى عليه السلام لربه عز وجل في جبل الطور اتخذ قومه من بني اسرائيل عجلا مصوغا من الذهب والفضة وعبدوه من دون الله تعالى لما كانت رسوخ في قلوبهم من نخامة مظاهر الوثنية الفرعونية في مصر ، وقد ذكرت هذه القصة هنا معطوفة على ما قبلها من خبر المناجاة والوحي الشريعة لما بين السياقين من العلاقة والاشتراك في الزمن . قال تعالى

﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ﴾ الحلي بالضم والتشديد جمع حلي بالفتح والتخفيف فهو كشيءٍ جمعاً لثدي . وهذا الحلي استعاره نساء بني اسرائيل من نساء المصريين قبل خروجهم من مصر فلكوه باذن الله تعالى ، والمعجل ولد البقرة سواء كانت من العراب أو الجواميس فهو كالحوار لولد الناقة والمهر لولد الفرس والحمل لولد الشاة والجدي لولد العنز الخ . والجسد الجثة وبدن الانسان حقيقة ويطلق على غيره مجازا والاجر كالذهب والزعفران والدم الجاف وقال في لسان العرب : الجسد جسم الانسان ولا يقال لغيره من الاجسام المغتذية ، ولا يقال لغير الانسان جسداً من خالق الارض . والجسد البدن تقول منه تجسد كما تقول من الجسم تجسم ابن سيده : وقد يقال للملائكة والجن جسد غيره : وكل خالق لا يأكل ولا يشرب من نحو الملائكة والجن مما يعقل فهو جسد . وكان عجل بني اسرائيل جسداً يصيح لا يأكل ولا يشرب ، وكذا طبيعة الجن ، قال عز وجل ( فاخرج لهم عجلا جسداً له خوار ) « جسداً » بدل من عجل لان المعجل هنا هو الجسد ، وان شئت حماته على الحذف أي ذا جسد ، وقوله ( له خوار ) يجوز أن تكون الهاء واجمة الى المعجل وأن

تكون راجعة الى الجسد ، وجمه أجساد . وقال بعضهم في قوله ( عجلا جسداً ) قال أحر من ذهب . وقال أبو اسحق في تفسير الآية : الجسد هو الذي لا يعقل ولا يعيز إنما معنى الجسد معنى الجثة فقط ، وقال في قوله ( وما جعلناهم جسداً لايأكلون الطعام ) قال جسد واحد يعني على جماعة ، قال ومعناه وما جعلناهم ذوي أجساد الا ليأكلوا الطعام وذلك أنهم قالوا ( ما لهذا الرسول يأكل الطعام ) فأعلموا أن الرسل أجمعين يأكلون الطعام وأنهم يموتون. المبرد وثعلب : العرب اذا جاءت بين كلامين بمجحدين كان الكلام إخباراً ( قالوا ) ومعنى الآية إنما جعلناهم جسداً لايأكلوا ( قالوا ) ومثله في الكلام : ما سمعت منك وما أقبل منك معناه إنما سمعت منك لا قبل منك ( قالوا ) وان كان المجحد في أول الكلام كان الكلام مجحوداً جحداً حقيقياً ( قالوا ) وهو كقولك : ما زيد بخارج . قال الازهري : جعل اللبث قول الله عز وجل ( وما جعلناهم جسداً لايأكلون الطعام ) كالملائكة ( قال ) وهو غلط ومعناه الاخبار كما قال النحويون أي جعلناهم جسداً لايأكلوا الطعام ( قال ) وهذا يدل على أن ذوي الاجساد يأكلون الطعام وان الملائكة روحانيون لايأكلون الطعام وليسوا جسداً فان ذوي الاجساد يأكلون الطعام . اهـ وقولهم معناه الاخبار أي الاثبات

والخوار صوت البقر وهو يضم أوله كأمثاله من أسماء الاصوات : رغاء الابل وثغاء الغنم ويمار المعز وهواء الهر ونباح الكلب الخ

وعلم من القصة في سورة طه ان السامري هو الذي أخذ منهم ما حملوه من أوزار زينة قوم فرعون فألقاها في النار فصاغ لهم منها عجلا أي تمثالاً له صورة المعجل وبدنه وصوته وإنما نسب ذلك هنا اليهم لانه عمل برأي جمهور الذين طلبوا أن يكون لهم الهة ، قال الحافظ ابن كثير : وقد اختلف المفسرون في ذلك المعجل هل صار لحماً ودماً له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة ؟ على قولين والله أعلم اهـ روي القول الاول عن قتادة وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك انه خار خورة واحدة ولم ين . فمن قال انه حات فيه الحياة علوه بأن السامري رأي جبريل حين جاوز بيبي اسرائيل البحر وفي رواية عند نزوله على موسى ( عليهم السلام ) راكباً فرساً ماوطيء بها أرضاً الاحات فيها الحياة واخضر النباتات فأخذ من أثرها قبضة فنبذها في جوف

تمثال المعجل فصار حيا له خوار وفسروا بهذا ما حكاه الله تعالى عنه في سورة طه وسيأتي بيانه في تفسيرها ، ولكن قال بعض هؤلاء ان خواره كان بتأثير دخول الريح في جوفه وخروجها من فيه كقول الآخزين الذين قالوا انه لم يكن حيا ، والروايات في حياته لا يصح منها شيء ، ولذلك وقف الحافظ ابن كثير فلم يرجح أحد القولين على الآخر ، وفي تفسير القصة من سورة طه روايات كثيرة من خرافات الامرائيليات ، فيها ضروب من الكذب والضلالات ، سنعود اليها في تفسير سورة طه ان شاء الله وقدر لنا الحياة .

قال تعالى في بيان ضلالتهم ، وتقريرهم على جهالتهم ، ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم

ولا يهديهم سبيلا؟ ﴾ أي ألم يروا أنه فاقد لما يعرف به الاله الحق ، وخاصة ماله من حق العبادة على الخلق ، بما يكلم به من يختاره منهم لرسالته ، ويعلمه ما يجب أن يعرفوه من صفاته وسبيل عبادته ، كما يكلم رب العالمين رسوله موسى عليه السلام ، ويهديه سبيل الشريعة التي تنزكي بها أنفسهم ، وتقوم بها مصالحهم ، فعلم بهذا أن من شأن الرب الاله الحق أن يكون متكلماً ، وأن يكلم عباده ويهديهم سبيل الرشاد باختصاصه من شاء منهم واعداده لسماع كلامه ، وتلقي وحيه وتبليغ أحكامه ، وفي سورة طه ( أفلا يرون أن لا يرجم اليهم قولا ، ولا يملك لهم ضررا ولا نفعا ) فالمراد بالقول هداية الوحي ، والمعنى انه ليس له من صفات الرب الاله هداية الارشاد التي مرجعها صفة الكلام ، ولا الضر والنفع اللذين هما متعلق صفتي القدرة والارادة . ثم قال تعالى

﴿ اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ أي اتخذوه وهم يرون انه لا يكلمهم بما فيه صلاحهم ، ولا يهديهم لما فيه رشادهم ، ولا يملك دفع الضر عنهم ، ولا اسداء النعم اليهم ، أي انهم لم يتخذوه عن دليل ولا شبهة دليل ، بل عن تقليد لما رأوا عليه المصريين من عبادة المعجل « أبيس » من قبل ، ولما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعد ، وكانوا ظالمين لانفسهم بهذا الاتخاذ الجهلي الذي يضرهم ولا ينفعهم بشيء .

﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ يقال : سقط في يده وأسقط في يده - بضم اولهما على البناء للمفعول - وكذا بفتح أول الثلاثي على قلة في اللغة

الأعراف س ٧ معنى سقط في أيديهم ونكتة تقديم الندم على سببه ٢٠٣

وشذوذ في القراءة - أي ندم، ويقولون فلان مسقوط في يده وساقط في يده أي نادم كما في الأساس ولكنه فسره في الكشاف بشدة الندم والحسرة وجعله من باب الكناية وفي اللسان : وسقط في يد الرجل - زل وأخطأ وقيل ندم ، قال الزجاج يقال للرجل النادم على ما فعل الحسرة على ما فرط منه : قد سقط في يده وأسقط . . . وفي التنزيل العزيز ( ولما سقط في أيديهم ) قال القاسمي : ضربوا با كفهم على أكفهم من الندم ، فان صح ذلك فهو إذا من السقوط ، وقد قرئ « سقط في أيديهم » كأنه أضمر الندم أي سقط الندم في أيديهم كما تقول لمن يحصل على شيء وان كان مما لا يكون في اليد : قد حصل في يده من هذا مكروه ، فشبّه ما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين اه زاد الواحدى في تفسيره : وخصت اليد لان مباشرة الامور بها كقوله تعالى ( ذلك بما قدمت يداك ) أو لان الندم يظهر أثره بعد حصوله في القلب في اليد كعضها والضرب بها على اختها ونحو ذلك فقد قال سبحانه في النادم ( فاصبح يقلب كفيه \* ويوم بعض الظالم على يديه ) وفي تاج العروس : وفي العباب هذا نظم لم يسم قبل القرآن ولا عرفته العرب ، والاصل فيه نزول الشيء من أعلى الى أسفل ووقوعه على الارض ثم اتم فيه فصيل للخطأ من الكلام سقط لانهم شبهوه بما لا يحتاج اليه فيسقط ، وذكر اليد لان الندم يحدث في القلب وأثره يظهر في اليد كقوله تعالى ( فاصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ) ، ولان اليد هي الجارحة العظمى فرمما يسند اليها ما لم تباشره كقوله تعالى ( ذلك بما قدمت يداك ) اه

والمعنى أنهم لما اشتد ندمهم وحسرتهم على ما فعلوا ﴿ ورأوا أنهم قد ضلوا ﴾ أي وعلموا أنهم قد ضلوا بعبادة العجل أو تبين لهم ضلالتهم به وتحقق بما قاله وفعله

موسى حتى كأنهم رأوه رأي العين ﴿ قالوا لنن لم يرحمنا ربنا وينذر لنا ﴾ أي أقسموا إنه لا يسمعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة ربهم التي وسعت كل شيء ، قائلين لنن لم يرحمنا

بقبول أو بتنا والتجاوز عن جريمتنا ﴿ لنكونن من الخاسرين ﴾ اسعادة الدنيا وهي الحرية والاستقلال في أرض الموعد ولسعادة الآخرة وهي دار الكرامة والرضوان وقد بحث بعض الفواصين على نكتة البلاغة في تقديم الندم في الذكر على تبين الضلالة مع أن المعروف في العادة أن يندم الانسان على ما علم من ذنبه فقال القطب الشيرازي ما معناه موضحاً ان الانتقال من الجزم بان هذا الشيء



أو الأمر حق إلى استبانة الجزم بضده أو نقيضه لا يكون دفعة واحدة في الأغلب بل الأغلب أنه ينتقل من الجزم بصحته أو حقيقته إلى الشك فيها ثم إلى الظن بالضد أو النقيض ثم إلى الجزم به ثم إلى تبينه واليقين فيه الذي يعبر عنه بالرؤية ، والقوم كانوا جازمين بأن ما فعلوه صواب ، والندم عليه ربما وقع لهم في حال الشك فيه فيكون تبين الضلال متأخراً عن الندم اهـ

وأقول جاء في سياق القصة المفصل من سورة طه أنه لما أنكر عليهم هارون عليه السلام عبادة العجل وذكركم بتوحيد الربوبية الدال على وجوب توحيد العبادة للرب وحده ( قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجم الينا موسى ) فلما رجم موسى وأنب هارون عليه السلام ( قال ) فيما قاله له ( يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعني أفعميت أمري ) لك ( اخلقني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ) ؟ فعند تصریح موسى بأنهم ضلوا ، ورؤيتهم ما كان من غضبه والقائه بالالواح حتى تكسرت وأخذه برأس أخيه هارون ولحيته وجره إليه ندموا على ما فعلوا ، فإن كان هذا الندم عن تقليد وطاعة لموسى لاعتلم يقيني بأن صلهم ضلال فالراجح أن يكون العلم القطعي المعبر عنه بقوله ( ورأوا أنهم قد ضلوا ) قد حصل بعد تحريق موسى للعجل ونسفه في اليوم .

فإن كان من قواعد النحو أن المطف بالواو لا يقتضي الترتيب ، فمن قواعد علم المعاني أن ما لا يجب الترتيب فيه بزمان ولا رتبة أن يقدم في سرده وفي نسقه الام ، فإن لم يكن تقديم الندم هنا لسبقه في الزمن فالظاهر أنه للمبالغة في استعمارهم استحقاق العقاب كأنه يقول أنهم على ندمهم وتوبتهم التي من شأنها محو الذنب وترك العقاب وعلى كونهم صاروا على علم يقيني ببطلان عبادة العجل ووجوب تخصيص الرب بالعبادة - قالوا ذلك القول الدال على أن مجموع الامرين لا يكفي لاستحقاق المغفرة إلا برحمة الله تعالى ، ومن المعلوم ان العلم بالضلال وحده لا يقتضي العفو والمغفرة إلا اذا ترتب عليه العمل بمقتضاه وهو التوبة والرجوع الى الله تعالى بالامل فان الذين ضلوا على علم ولم يتوبوا أشد الناس عقابا - فعلم بذلك أن تقديم الندم أهم من تقديم العلم بالضلال ، وهذا من فضل الله الذي لم يره لاحد ، وقد علم منه وجه تقديم ذكر الرحمة على ذكر المغفرة وهو أنها سببها ، فان التوبة ومعرفة الحق لا يكفيان للمغفرة بدونها ، ولا غرو فقد ورد في الصحيحين عن أبي

هزيمة قال سمعت رسول الله (ص) يقول « لن يدخل أحداً عمله الجنة »  
 قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة  
 فسدوا وقاربوا » الخ الحديث ، وفي مسلم من حديث جابر « لا يدخل أحداً  
 منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار . ولا أنا إلا برحمة من الله » وأمثلة الأجوبة  
 في الجمع بين الحديث وبين الآيات الكثيرة الصريحة في دخول الجنة بالعمل ان  
 ذلك بفضل الله ورحمته فان عمل أي عامل لا يستحق عليه لذاته ذلك النعم  
 الكامل الدائم ، بل لا يفي عمل أحد ببعض نعم الله تعالى عليه في الدنيا . وأما  
 قولهم إن دخول الجنة بالرحمة واقتسامها بالأعمال فهو لا يدفع التعارض بين  
 الآيات والحديث فان منها ( ١٦ : ٣٣ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ) ( ١ )

( ١٤٩ ) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِأَسْمَاءَ  
 خَافْتُمْهُنِّي مِنْ بَعْدِي أَعْجَبْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ  
 بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ . قَالَ : ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي  
 وَكَادُوا يَقْتُلُونِي ، فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْمَعْنِي مَعَ الْقَوْمِ  
 الظَّالِمِينَ ( ١٥٠ ) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ  
 وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

« ١ » وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقوله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحد منكم  
 الجنة بعمله » لا يناقض قوله تعالى ( جزاء بما كنتم تعملون ) فان المتن في نفي بقاء المقابلة  
 والمعاوضة كما يقال : بهت هذا بهذا ، وما أثبت أثبت بقاء السبب فالعمل لا يقابل  
 الجزاء وان كان سبباً للجزاء ، ولهذا من ظن انه قام بما يجب عليه وانه لا يحتاج الى مغفرة  
 الرب تعالى وعفوه فهو ضال كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال  
 « لن يدخل أحداً الجنة بعمله - قالوا ولا انت يا رسول الله قال - ولا أنا إلا ان يتغمدني  
 الله برحمته وفضل » وروي « بعفوته » ومن هذا أيضاً الحديث الذي في السنن  
 عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ان الله لو عذب أهل سماواته وأهل ارضه لعذبهم  
 غير ظالم لهم . ولو رحمهم لكانت رحمتهم خيراً من أعمالهم » الحديث

﴿ ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا ﴾ ذكر في أول مادة أسف من لسان العرب ان الاسف شدة الحزن والغضب . والا كثرون لا يشترطون شدتهما قال في المصباح : أسف أسفا من باب تعب حزن وتاهف فهو أسف مثل تعب ، وأسف مثل غضب وزنا ومعنى ، ويعدى بالهمزة فيقال آسفته . وقال الراغب : الاسف الحزن والغضب معا ، وقد يقال لكل منهما على الانفراد ، وحقيقته ثوران دم الغاب شهوة الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا ، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا ، ولذلك سئل ابن عباس عن الحزن والغضب ؟ فقال مخرجهما واحد واللفظ مختلف فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظا وغضبا ، ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره (١) حزنا وجزعا . وبهذا النظر قال الشاعر : \* فحزز كل أخي حزن أخو الغضب \*

ثم ذكر ان الاسف في الآية التي نفسرها هو الغضبان فهو اذا مترادف ، وقد فاتته هنا ما نهى عن تحقيقه لدلوات الالفاظ وما أظن أن ما نقله عن ابن عباس يصح فان ما ذكر من المقابلة بين الغضب والحزن إنما يظهر بين الغضب والحقد ، وإنما الحزن ألم النفس بفقد ما تحب من مال أو أهل أو ولد . وليس من شهوة الانتقام في شيء . ومن شواهد استعمال الاسف بمعنى الحزن قوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام (وقال يا أسفى على يوسف) ومن شواهد استعماله بمعنى الغضب قوله تعالى ( فلما آسفونا انتقمنا منهم ) ولا يوصف تعالى بالحزن ولا يسند اليه . وغضبه سبحانه ليس كغضب البشر ألما في النفس ، ولا أثرا غليان دم القلب ، تعالى عن هذه الانفعالات والآلام البشرية ، وإنما هو صفة تليق به هي سبب العقاب . والجمع بين الغضبان والاسف في صفة موسى عليه السلام يدل على ان الاسف بمعنى الحزين

والمعنى أنه لما رجع موسى من الطور الى قومه غضبان على أخيه هارون اذ رأى أنه ضعف في سياسته لهم ، ولم يكن ذا عزيمة في خلافته فيهم ، حزينا على ما وقع

«١» كذا والمعنى يقتضي أن يقال : أخفاه - أو - أسره

منهم من كفر الشرك، واغضب الله عز وجل ﴿ قال يتسما خلفتموني من بعدي ﴾ أي يتس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة الرب تعالى من بعد ما كان من شأني معكم ان اقتنكم التوحيد وكففتكم عن الشرك وبيدت لكم فساده وبطلانه وسوء عاقبة أمره حين رأيتم القوم الذين يعكفون على أصنام لهم من تماثيل البقر - فكان الواجب عليكم أن تخلفوني باقتفاء سيرتي ولكنكم خلفتموني بضدها اذ صنعتم لكم صنما كأصنام أولئك القوم أو كأحد أصنام المصريين فعبدوه بعضهم، ولم يردعكم عن ذلك سائرهم - فالتوبيخ عام، وفيه تعرض خاص بهارون عليه السلام لانه جعله خليفته فيهم كما تقدم

﴿ أعجلتم أمر ربكم ؟ ﴾ قال في لسان العرب : وعجله سبقه ، وأعجله استعجله . وفي التنزيل العزيز ( أعجلتم أمر ربكم ) أي استبقتم قال الفراء : تقول عجلت الشيء أي سبقته وأعجلته استعجلته اه رقل في الكشاف : يقال عجل عن الامر اذا تركه غير تام ، ونقيضه تم عليه ، وأعجله عنه غيره ، ويضمن معنى سبق فيعدي تعديته فيقال عجلت الامر . والمعنى أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى لحافظين لمده وما وصاكم به ، فبينتم الامر على ان الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع اليكم فحدثتم أنفسكم بموتى فغيرتم كما غيرت الامم بعد أنبيائهم . وروي أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال ( هذا إلهكم وإله موسى ) : إن موسى ان يرجع وانه قد مات اه وقال ابن كثير وقوله ( أعجلتم أمر ربكم ) أي استعجلتم مجيئي اليكم وهو مقدر من الله تعالى اه وقد نقل الالوسي كلام الكشاف من غير عزو كمادة أكثر المؤلفين بعد سلف الامة ثم قال . وذهب يعقوب الى أن السابق معنى حقيقي اه من غير تضمين . والامر واحد الاوامر ، وعن الحسن : ان المعنى أعجلتم وعد ربكم الذي وعدكم من الاربعةين ؟ فالامر عليه واحد الامور اه والمراد بالاربعةين ما بينه من أنها الليالي التي واعد موسى ربه كما تقدم

ثم قال ﴿ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه ﴾ أي وطرح الألواح من يده ليأخذ برأس أخيه مما كان من شدة غضبه لله تعالى وأسفه لما فعل قومه

من الشرك به ولما ظن من تقصير اخيه وأخذ بشر رأس أخيه يجره اليه بذؤابته ، اذ كان الواجب عليه في اجتهاد موسى أن يردعهم ويكفهم عن عبادة العجل إن قدر كما فعل هو بتحريره وإلقائه في اليم - وأن يتبعه الى جبل الطور إن لم يقدر كما حكى الله تعالى عنه في سورة طه ( قال : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبني ؟ أفمصيت أمرى ؟ ) والاجتهاد بمختلف باختلاف أحوال المجتهدين فالقوي الشديد الغضب للحق بالحق كموسى عليه السلام ، يشعر بما لا يشعر به من يغاب عليه الحلم واين العربةكة كهارون عليه السلام . وقد بحث بعض المفسرين في إلقاء الألواح وما روي من تكسر بعضها هل يتضمن تقصيرا في تعظيم كلام الله تعالى ؟ وكيف يمكن أن يقع مثل ذلك من الرسول المصوم ولو في حال الغضب الشديد ؟ بل توهم بعضهم انه يتضمن في نفسه نوع إهانة الألواح فوجب بيان المخرج منه . والخيار عندنا في الجواب عن هذه الاوهام أن إلقاء الألواح لا يقتضي إهانة لها ، كما ان إلقاء العصا لإقامة الحججة على السحرة لا يتضمن مثل ذلك ، فالإلقاء في نفسه لا يقتضي ذلك لغة ولا عادة وإنما يقع ما يقع من مثل ذلك بقصد وهو ممنوع هنا قطعا - وان كان الغضب مظنة له ، فعلم بما ان ما أطل به بعضهم لا طائل تحته ولا حاجة اليه

وما ذا كان جواب هارون عليه السلام ؟ قال : ابن أمّ إن القوم استنصه فنوني

وكادوا يقتلونني ﴿ قرأ ابن عامر وحزمة والكسائي وأبو بكر عن عاصم هنا وفي سورة طه ( ابن أم ) بكسر الميم على حذف ياء المتكلم للتخفيف وهي تطرح في المنادى المضاف ، وقرأها الباقون بالفتح وعلاوها بزيادة التخفيف وبالتشبيه بخمسة عشر ، وقرئ في الشواذ « ابن أمي » بإثبات الياء على الاصل . قال في الكشاف : قيل كان أخاه لاييه وأمه فان صح فانما أضافه الى الام إشارة الى أنهما من بطن واحد ، وذلك أدعى الى العطف والرقة وأعظم للحق الواجب ، ولأنها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها ، ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقه اه وهو حسن الا قوله فاعتد بنسبها فان الذب لا يتوقف على الايمان . واسم أمهما ( يوكابد ) بنت لاوي كما في التوراة عندهم

والمعنى يا ابن أمي لا تعجل بمؤاخذتي وتعنبي فني لم آل جهدا في الانكار على القوم والنصح لهم ولكنهم استضعفوني فلم يعرفوا النصح ولم يمثلوا أمرى،

بل قاربوا أن يقتلوني ﴿ فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ أى فلا تفعل بي من المعاتبة والاهانة ما يشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين لانفسهم بعبادة العجل بأن تلزمني بهم في قرن من الغضب والمؤاخذة فلست منهم في شيء . والظاهر انه يعنى بالاعداء والظالمين فريقا واحدا وهم الذين عبدوا العجل فأنكر عليهم فوجدوا عليه وكادوا يقتلونه ، وهذا دليل على أنه كان دون موسى في قوة الارادة وشدة العزيمة ، وهو ما اتفق عليه علماءنا وعلماء أهل الكتاب وماذا كان من أثر هذا الاستعطاف في قلب موسى عليه السلام

﴿ قال : رب اغفر لي ولاخي ﴾ أي اغفر لي ما أغلظت عليه به من قول وفعل ، واغفر له ما عساه قصر فيه من مؤاخذة القوم ، لما توقعه من الايذاء حتى القتل ،

﴿ وأدخلنا في رحمتك ﴾ التي وسعت كل شيء ، بجعلها شاملة لنا وجعلنا مغمورين فيها .

وهو أبلغ من « وارحمنا » ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ وهذا ثناء ، يدل على مزيد الثقة في الرجاء ، ولدعاء في جملة أقوى في استعجاب هارون من الاعتذار له ، وأدل على تخيب أمل الأعداء في شيء مما يثير حفيظة الشماتة ، قال الزنجشري في تعليقه : ليرضي أخاه ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تنم لهم شماتهم ، واستغفر لنفسه مما فرط منه الى أخيه ، ولاخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة ، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمة ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة اه

\*\*\*

برأ القرآن المجيد هارون عليه السلام من جريمة أنخاذ العجل ومن التقصير في الانكار على متعذبه وعابديه من قومه ، وهذا من أهم المواضع التي هيمن بها على كتب الانبياء التي في أيدي أهل الكتاب فصحيح أغلاط محرفيها ، وهو يحشو التراب في أفواه الطاعنين فيه وفيمن جاء به ( برأها الله تعالى ) بزعمهم أنه أخذ عن التوراة ما فيه من أخبار موسى وغيره من انبياء بني اسرائيل ، فانه « تفسير القرآن الحكيم » « ٢٧ » « الجزء التاسع »

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله كان أميا لم يقرأ ولم يطلع على شيء من تلك الكتب ولم يكن في بلده من يعرف من تلك الكتب شيئا ، وقد كان يقرأ على أعدى المعاندين له من قومه مثل قوته تعالى ( وما كنت تنلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطون ) وقوله ( تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ) ولو كان يعلم أركانها يعلمون شيئا من تلك الكتب الكاذبة في هذا أو تلك الجاحدون والمعاندون وقد تقدم الاحتجاج بهذا ، والغرض هنا إقامة حجة أخرى وهي أنها لو كان (ص) نقل عن التوراة لوافتها في كل ما نقله وهو قد خالفها في مواضع بما جعله منزله جل جلاله مهيمننا ورقيا عايبها ، ومصححا لاهم ما وقع من التحريف فيها ، ومنه تبرئة هارون وغيره من الرسل عليهم السلام من الذنوب والجرائم التي عزيت إليهم فيها فجعلتهم قدوة سيئة كجمل هارون عليه السلام هو الصانع للعجل كما هو مفصل في الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج قال :

« (١) ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لان هذا موسى الرجل الذي اصعدنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه (٢) فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنياتكم وبناتكم وأتوني بها (٣) فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي كانت في آذانهم وأتوا بها إلى هارون (٤) فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالازميل وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التي اصعدتك من أرض مصر (٥) فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه ونادى هارون وقال : غدا عبد للرب (٦) فبكروا في الذن واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب الأكل والشرب ثم قاموا للعب (٧) فقال الرب لموسى : اذهب انزل لانه قد فسد شعبك الذي اصعدته من أرض مصر (٨) زاغوا سريعا عن الطريق الذي اوصيتهم به صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التي اصعدتك من أرض مصر »  
وبعد هذا ذكر أن الرب قال لموسى ان هذا الشعب صلب الرقبة وان غضبه

اشتد عليهم ليفنيهم ، وان موسى استرحه أن لا يفعل ولا يشمت بهم المصريين وذكره وعده سبحانه لإبراهيم واسحق ويعقوب بتكثير نسلهم ، ثم ذكر مسألة عودة موسى الى قومه وما فعل ثم قال

« ١٩ وكان عند ما اقترب الى المحلة انه أبصر العجل والرقص فحمر غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرها في أسفل الجبل ٢٠ ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء وسقى بني اسرائيل ٢١ وقال موسى لهارون ماذا صنم بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة ٢٢ فقال هارون لا يحم غضب سيدي على ، أنت تعرف الشعب انه في شر ٢٣ فقالوا لي اصنم لنا آلهة تسير امامنا » الخ

ثم ذكر طلب موسى من الرب أن يغفر لقومه وامر الرب اياهم بأن يقتل كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه - وان بني لاوي فعلوا ذلك فقتل منهم في ذلك اليوم نحو من ثلاثة آلاف رجل . وقد تقدم ذكر هذه المسألة في سورة البقرة

( ١٥١ ) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ  
وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا  
السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا  
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿ ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ﴾ في هذه الآية وجران أحدها أنها كلام مستأنف لبيان ما استحققه القوم من الجزاء على اتخاذ العجل فتمى به على ما كان من شأن موسى مع هارون عليها السلام في أمرهم ، لان من سمع ذلك أو قرأه تستشرف نفسه لمعرفة هذا - فهو إذا بما أوحاه الله تعالى يومئذ الى موسى ( ع م ) والمراد بالغضب الالهي فيه ما اشترطه تعالى في قبول توبتهم من قتل أنفسهم وكان ذلك بعد عودة موسى الى مناجاته في الجبل ، والذلة ما يشعر به من هوانهم على الناس وظاههم عند لقاء كل أحد أنه يتذكر برؤيتهم ما كان منهم فيحتقرهم ، وقال بعضهم ان هذه الذلة خاصة بالسامري وهي



ماحكم به عليه من القطيعة واجتناب الناس بقول موسى له ( اذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس ) أي: لأمس أحدا ولا يعسني أحد ،

﴿ وكذلك نجزي المقتربن ﴾ أي ومثل هذا الجزاء في الدنيا نجزي المقتربن على الله تعالى في أزمنة الانبياء أو في كل زمان إذا فضحوا بظهور افتراءاتهم كما فضح هؤلاء ، وجعله بعض مفسري السلف خاصا باقتراء البدع ، قال الحسن البصري ان ذل البدعة على أكتافهم وان هاجت بهم البنغال وطققت بهم البراذين ، وهكذا روى أيوب عن أبي قلابة أنه قرأ هذه الآية ( وكذلك نجزي المقتربن ) وقال هي والله لكل مقرر الى يوم القيامة ، وقال سفيان ابن عيينة كل صاحب بدعة ذليل . نقل ذلك ابن كثير في تفسيره ، وهو مشروط بكون افتراء الابتداع في أزمنة الرسل عليهم السلام على ما قيدناه به لان الله تعالى كهل لهم النصر ، أو في دار الاسلام والعدل التي تقام فيها السنة ، وأما البدعة في دار الكفر أو دار الظلم والبدع والفسق والظلم فهي كظلة من الدخان أو قزعة من السحاب تحدث في حندس ليلة مطبقة السحاب ، حالكة الالهاب ، لا تكاد تظهر ، فيكون لأصحابها احتقار يذكر ، والوجه الثاني ان هذا كلام ممترض في القصة خاطب الله به خاتم رسله لانذار اليهود المجاورين له في المدينة ماسيكون من سوء عاقبتهم في افتراءهم على الله وعداوتهم لرسوله ، وانكارهم ما في كتبهم من البشارة به ، ووصفهم بانخاذ العجل لشبههم بهم وكونهم خلفا لهم في افتراء كل منهما على الله في عهد ظهور حجته على لسان رسوله . كما غيرهم في آيات أخرى بقتل النبيين بغير الحق وغير ذلك من جرائم سلفهم . وروي هذا الوجه عن عطية العوفي قال المراد سينال أولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين كانوا على عهد رسول الله ( ص ) وأريد بالغضب والذلة ما أصاب بني النضير وقريظة من القتل والجلد أو ما أصابهم من ذلك ومن ضرب الجزية عليهم اه وتوجيهنا أظهر . قال الزمخشري ويجوز ان يتعلق « في الحياة الدنيا » بالذلة وحدها ويراد سينالهم غضب في الآخرة وذلة في الحياة الدنيا ( وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأوا بغضب من الله ) اه وأقول ان لم يكن هذا هو المراد فعذاب الآخرة مقدر في الكلام دل عليه ذكر الدنيا ، على ما علم من اطراده بنصوص أخرى .

﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ هذه الآية في حكم من تاب وقبلت توبته فدل على ان ما سبقها هو

حكم من لم يتب أو من لم تقبل توبته والمعنى ان الذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي ثم تابوا ورجعوا من بعدها الى الله تعالى بأن رجع الكافر عن كفره وتركه وآمن بالله ورسوله، ورجع المعاصي عن عصيانه وأخلص الايمان وزكاه بالعمل بموجبه ان ربك أيها الرسول من بعد تلك الجرائم، - أو من بعدما ذكر من التوبة والايمان الصحيح الباعث على العمل الصالح، لغفور لهم أي استور عليهم، محاء لما كان منهم ورحيم بهم أي منعم عليهم بالجنة، هكذا صور المعنى في الكشاف ثم قال وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم، عظم جنايتهم اولاً ثم اردفها تعظيم رحمة يعلم ان الذنوب وان جلت وعظمت فان عفوه وكرمه أعظم وأجل، ولكن لا بد من حفظ الشريطة وهي وجوب التوبة والانابة، وما وراءه طمع فارغ، وأشعبية باردة لا يلتفت اليها حازم اه

وأقول إن طمع أكثر الفساق بالمغفرة قد ذهبت بجرمة الامر والنهي من قلوبهم حتى استحل كثير منهم المحرمات، وكانوا شراباً لمن قالوا لن تمسنا النار لا أيام معدودات) وما طمعتهم بشمرة ايمان، بل امانى حرق وجدل على أطراف اللسان، قال (ص) « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني » رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن شداد ابن أوس بسند صحيح

(١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِأَرْبِهِمْ يُرْهَبُونَ

ثم قص تعالى علينا ما كان من أمر موسى بعد غضبه فقال :

﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ السكوت في أصل اللغة ترك الكلام فهو هنا مجاز تشبيه أو تمثيل مبنى على تصوير الغضب بشخص ذي قوة ورياسة يأمر وينهى فيطاع قال الزمخشري : هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجر برأس أخيك اليك - فترك النطق بذلك وقطم الاغراء، ( قال ) ولم يستحسن هذه الكلمة كل ذي ضمير سليم وذوق صحيح الا لذلك ولانه من قبيل شعب البلاغة، والا فمما لقرائة معاوية بن قرة

« ولما سكن عن موسى الغضب » ( وهي من الشواذ ) لا تجدد للنفس عندها شيئاً من تلك الهزلة ، وطرفاً من تلك الروعة ؟ اهـ  
 والمعنى انه لما سكن غضب موسى باعتذار أخيه ولجأ الى رحمة الله وفضله يدعو ربه بان يغفر لهما عاد الى الالواح التي القاها فاخذها، وفي نسختها - أي ما نسخ وكتب منها فهي من النسخ كالخطبة من الخطاب - هدى وارشاد من الخالق سبحانه للذين يرهبون ربهم ويخشون عقابه بالفعل أو بالاستعداد - أو يرهبون ما يغضب ربهم من الشرك والمعاصي

( ١٥٤ ) وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِثْبَانِي أَهْلَكْتُمَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنِّي إِذْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتِكَ تُخِذُ بِهِا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ( ١٥٥ ) وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا نَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ( ١٥٦ ) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ﴾ الاختيار صيغة تكلف من مادة الخير كالاتقاء من النقي (بالكسر) وحقيقته دهن العظام ومجازه لباب كل شيء والاصطفاء من الصفو - والانتخاب من النخب وأصله انتزاع الصقر وغيره من الجوارح قلب الطائر ثم صار يقال لكل من انتزع لب الشيء وخياره: نخبه وانتخبه وتطلق النخبة (بالضم مع سكون الخاء وفتحها) على الجيد المختار من كل شيء كما أطلقوا النخب والنخب والمنتخب على الجبان الذي لا فؤاد له والافين الذي لا رأي له ، كأنه انتزع فؤاده وعقله بالفعل . والكلام معطوف على ما قبله، والمعنى: وانتخب موسى سبعين رجلا من خيار قومه للميقات الذي وقته الله تعالى له ودعاهم للذهاب معه الى حيث يناجي ربه من جبل الطور، فالاختيار يكون من فاعل مختار وشيء مختار منه فيتمددى للثاني بمن وكان نكته حذف «من» الاشارة الى كون أوئك السبعين خيار قومه كلهم لا طائفة منهم (١)

﴿ فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ أي فلما أخذتهم رجفة الجبل وصعقوا قال موسى يارب اني أتمنى لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معي الى هذا المكان فاهلكتهم واهلكتني معهم حتى لا أقع في حرج شديد مع بني اسرائيل فيقولوا قد ذهبت بخيارنا لاهلاكهم - أي واذا لم تفعل من قبل فأسألك برحمتك أن لاتفعل الآن - وهذا مفهوم التني فقد أراد موسى ولا يبعد أن يكون قد نطق به اذا كانت لغته لاتدل عليه كلفتة او كان من إيجاز القرآن الاكتفاء بذكر التني الدال عليه. واختلف المفسرون هل كان هذا بعد أن أفاق موسى من صعقة تجلي ربه للجبل عقب سؤاله الرؤية اذ كان من معه من شيوخ بني اسرائيل ينتظرونه في مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة كما تقدم ؟ أو كان بعد عبادة العجل ذهبوا للاعتذار وتأكيد التوبة

(١) والنحويون يعدون مثل هذا الحذف لحرف الجر وايصال الفعل بالمفعول ونصبه مباشرة سماعيا لا قياسيا على كثرته ومنه قول الفرزدق :

منا الذي اختير الرجال ساحة وجودا اذا هب الرياح الزعازع

وقول الآخر

فقلت له اخترها قلوضا سمينة ونابا علابا مثل نابك في الحيا

اي اختر من الابل ناقة قلوضا اي طويلة القوائم وهي اول ما يركب، ونابا وهي المسنة

وطلب الرحمة - وكما اختلفوا في هذا اختلفوا في سبب أخذ الرجفة إياهم هل كان طلبهم رؤية الله تعالى جهرية كما تقدم في سورة البقرة أو سببها آخر : قال الحافظ ابن كثير قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً فاختار سبعين رجلاً فوفد بهم ليدعوا ربهم وكان فيما دعوا الله أن قالوا : اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً من قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا . فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة قال موسى رب لو شئت أهلكتهم - - الآية . وقال السدي ان الله تعالى أمر موسى أن يأتيه في اناس من بني اسرائيل يعتذرون اليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا ان تؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرية فانك قد كلمته فأرنا فأخذتهم الصاعقة فأتوا فقام موسى يبكي ويقول يارب ماذا أقول لبني اسرائيل اذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ (رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياي) وقال محمد بن اسحق اخبر موسى من بني اسرائيل سبعين رجلاً الخير فالخير وقال انطلقوا الى الله فتوبوا اليه مما صنعتم وأسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم الى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا باذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه يا موسى اطلب لنا نسمة كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الليل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى اذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر اليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى اذا دخلوا في الغمام وقموا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى بأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ اليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل اليهم فقالوا لموسى (ان تؤمن لك حتى نرى الله جهرية) فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فالتقت أرواحهم فأتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب اليه ويقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياي) قد سفهوا أمك من ورائي من بني اسرائيل اه

أقول كل ما نقل عن مفسري المأثور في هذه المسألة وامثالها مأخوذ عن الاسرائيليات غير الموثوق بها إذ ليس فيه شيء مرفوع الى النبي (ص) وانما يرجح من بعدهم

بعض أقوالهم على بعض بكوائه أقرب إلى ظاهر نظم الآيات وأسااليبها وتناسبها من غيره . وأما التوراة التي في أيدي أهل الكتاب فقد ذكرت خبر السبعين من شيوخ بني إسرائيل في سياق مناخاة موسى عليه السلام لربه كما تقدم وقد نقلنا المهم منها في ذلك ومجموع عباراتها مضطربة ففيها أن السبعين مع موسى وهارون وزاداب وإيهور « رأوا الله إسرائيل وتحت رجله شبه صفة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النشابة ولكنه لم يمد يده إلى أشرف بني إسرائيل فرأوا الله وأكروا وشربوا » ( خروج ٢٤ : ١٠ و ١١ ) وفيها أن الرب قال لموسى اذ طاب منه رؤية مجده « لا تقدر أن ترى وجهي لأن الانسان لا يراني ويعيش » ثم ذكر له أنه أمر الرب يضعه في ثقب صخرة ويستتره بيده حتى يجتاز - أي الرب - قل « ثم ارفع يدي فتتظار ورائي وأما وجهي فلا يرى » ( خروج ٢٣ : ١٨ - ٢٢ )

وفي سفر العدد وقائم ذكر فيها غضب الرب على بني إسرائيل لتمردهم وعنادهم وانهم اتلا وبين منهم لموسى وهارون بحب لرياسة وانترفع عليهم وزعمهم أنهم كلام مقدسون والرب في وسطهم وفيه ان الرب اهلك منهم خلقا كثيرا وكان موسى يستغيثه ليرفع الهلاك عنهم ويرحمهم ولا أذكر أن في شيء منها ذكر عدد السبعين ولكن في بعضها ذكر شيوخ إسرائيل وفي بعضها ذكر عدد ٢٥٠ رجلا وذلك في الفصل ١٦ من سفر العدد وهناك بعضه

(٢٠) وكلم الرب موسى وهارون قائلا (٢١) افترا من بين هذه الجماعة فاني افنيهم في لحظة (٢٢) نخرا على وجهيهما وقال اللهم اله ارواح جسيم البشر هل يخطيء رجل واحد فتسخط على كل الجماعة (٢٣) فكلم الرب موسى قائلا (٢٤) اطعموا من حوالي مسكن قورح ودانان وايرام (٢٥) فقام موسى وذهب الى دانان وايرام وذهب وراه شيوخ إسرائيل (٢٦) فكلم الجماعة قائلا اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ولا تسموا شيئا مما لهم لئلا تملكوا بجميم خطاياهم (٢٧) فطعموا من حوالي مسكن قورح ودانان وايرام وخرج دانان وايرام ووقفا في باب خيمتيهما مع نسائهما وبنيتهما واطفالهما (٢٨) فقال موسى بهذا تملكون أن الرب قد ارسلني لاعمل كل هذه الاعمال وانها ليست من نفسي (٢٩) ان مات هؤلاء كوت كل انسان واصابتهم مصيبة كل انسان فليس الرب قد ارسلني (٣٠) ولكن ان ابتدع الرب بدعة « تفسير القرآن الحكيم » (٢٨٥) « الجزء التاسع »

وفتحت الارض فاها وابتلعتمهم وكل ما لهم فهبطوا احياء الى الهاوية تعلمون  
 أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب «٣١» فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام  
 انشقت الارض التي تحتهم «٣٢» وفتحت الارض فاها وابتلعتمهم ويوتهم  
 وكل من كان لقورح مع كل الاموال «٣٣» فنزلوا هم وكل من كان لهم احياء  
 الى الهاوية وانطبقت عليهم الارض فبادوا من بين الجماعة «٣٤» وكل اسرائيل  
 الذين حولهم هربوا من صوتهم لانهم قالوا لعل الارض تبتلعنا «٣٥» وخرجت  
 نار من عند الرب واكملت المئين والحسين رجلا الذين قربوا البخور» اه المراد  
 منه ومبدأ هذه القصة في اول الفصل ١٦ وفي آخره انه أخذهم الوباء اذ لم يتوبوا  
 وما في سورة البقرة من ذكر مسألة عبادة العجل وذكر مسألة طلب بني  
 اسرائيل لرؤية الله جهرة وأخذ الصاعقة إياهم يدل على أن هذه الواقعة غير الاولى  
 ونقلنا هنالك عن الاستاذ الامام اختيار استقلال كل منهما دون الاخرى  
 وقوله انها مذكورة في كتبهم فان كان يعنى ما نقلنا انما عن سفر العدد او ما في  
 معناه وهو مما لم يذكر فيه عدد السبعين فلمعله يريد ان ما ذكر في القرآن مختصر  
 بقدر العبارة كسنته وان السبعين هم الذين اهلكوا اولاً وان لم يذكر الكاتب  
 عددهم ثم هلك غيرهم فكان الجسيم ٢٥٠

فان كانت الآية تشير الى هذه القصة فقول موسى ﴿أهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾  
 اشارة الى قورح وجماعته من اللاويين المغرورين المتمردين ، وهل هم الذين  
 طلبوا من موسى رؤية الله تعالى جهرة لغرورهم بأنفسهم ام غيرهم ؟ وان كانت  
 في عابدي العجل فهي دليل على ان عقلاء بني اسرائيل واصحاب الروية منهم  
 لم يعبدوه وانما عبده السفهاء وهم الاكثرون

﴿ان هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ «ان»  
 نافية والفتنة الاختبار والامتحان مطلقاً وبالامور الشاقة والباء في «بها»  
 للسببية، أي ماتلك الفعلة التي كانت سبباً لاخذ الرجفة إياهم إلا محنتك وابتلاؤك  
 الذي جعلته سبباً لظهور استعداد الناس وما طويت عليه سرائرهم من ضلال  
 وهداية ، وما يستحقون عليه من عقوبة ومثوبة ، وسنتك في جريان مشيئتك  
 في خلقك بالعدل والحق ، والنظام الحكيم في الخلق ، تضل بمقتضاها من تشاء من  
 عبادك ولست بظالم لهم في تقديرك ، وتهدي من تشاء ولست بحجاب لهم في

توفيقك ، بل أمر مشيئتك دائر بين العدل والفضل ، ولك الخلق والامر ،

﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ أي أنت المتولي لامورنا ،  
والقائم علينا بما تكتسب نفوسنا. فاغفر لنا ما تترتب عليه المؤاخذه والعقاب من  
مخالفة سنتك ، او التقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك وعبادتك ، بأن تستر  
ذلك علينا ، وتجمله بعفوك كأنه لم يصدر عنا ، وارحمنا برحمتك الخاصة ، فوق  
ما شملت به الخلق كلهم من رحمتك العامة ، وأنت خير الغافرين حلما وكرما  
وجودا ، فلا يتعاطمك ذنب ، ولا يعارض غفرانك ما يمرض غفران سواك  
من عجز أو ضعف أو هوى نفس - وما ذكر في المغفرة يدل على اعتبار مثله  
في الرحمة لدلالته عليه - أي وأنت خير الراحين رحمة وأوسعهم فيها فضلا  
واحسانا ، فان رحمة جميع الراحين من خلقك ، نفحة مفاضة على قلوبهم من  
رحمتك ، حذف ذكر الرحمة استغناء عنه بذكر المغفرة فان ترتيب التذليل في الشاء عليه  
تعالى على طلب مغفرته ورحمته معا ، يقتضي أن يكون هذا الشاء بهما معا ، فاكتفى  
بذكر الاولى لدالاتها على الثانية قطعا ، فهو من الایجاز المسمى في علم البديع  
بالاكتفاء ، وقد غفل عن هذا من قال من المفسرين انه اكتفى بذكر المغفرة لانها  
الاهم ، ولم لم يكتب بذكر الرحمة لانها أهم ، ولانها قد تستلزم المغفرة دون  
العكس ، فان معنى المغفرة سلب وهو عدم المؤاخذه على الذنب ، والرحمة فوق  
ذلك فهي احسان الى المذنب لا يستحقه الا بعد المغفرة ولذلك يقدم ذكر المغفرة  
على ذكر الرحمة ، لان التخيلية كما يقولون مقدمة على التحلية ، فلا يليق خلص  
الحلل النفيسة ، إلا على الابدان النظيفه ، وقد قال موسى عليه السلام في دعائه  
لنفسه ولاخيه ارب اغفر لي ولاخي وادخلنا في رحمتك ) الآية ، وقال نوح مند توبته  
من سؤاله النجاة لولده الكافر ( وإلا تغفر لي وترحمي أكن من الخاسرين ) وعلمنا  
تعالى من دعائه في خاتمة سورة البقرة ( واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ) ولما  
ذكر اسم الله ( الغفور ) في كتابه العزيز الا مقرونا باسمه ( الرحيم ) ومن غير  
الاكثر قرنه بالشكور وبالرحيم وبالودود ويقرب معناهن من معنى الرحيم ،  
وورد قرنه بالعفو وبالعزيز لاقتضاء المقام ذلك

ودعاء موسى عليه السلام هنا لنفسه مع قومه بضير الجعم قد اقتضاه مقام  
المنجاة والمعرفة الكاملة ، ومن كان أعرف بالله وأكل استحضارا لمعلمته ، كان



أشد شعوراً بالحاجة الى مغفرتة ورحمتة ، وان كان ما يستغفر منه تقصيراً صغيراً بالنسبة الى ذنوب العاطلين ، وان ظهر الأمر من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فان كان هذا الدعاة عقب طب الرؤية ، فوجه طلبه للمغفرة والرحمة لنفسه أظهر ، لان طلبه ذلك كان ذنباً له ، صرح بالتوبة منه ، وان كان عقب طلب السبعين رؤية الله سبحانه فبالأمر أظهر ، لان الذنب مشترك ، وان كان على اثر حادثة عبادة العجل ، فقد علمه ان كان من شدته فيها على أخيه هارون عليهما السلام ، وان طلب لكل من نفسه وأخيه المغفرة على الانفراد ، والرحمة بالاشتراك ، وان كان عقب تمرد بني اسرائيل الذي عاقبهم الله تعالى عليه باهلاك بعضهم وتهديدهم بالاستئصال ، فادخال نفسه معهم من باب الاستعطف ، اذ لم ينقل عنه فيه شيء مما يعد من ذنوب الانبياء عليهم السلام

﴿ تخطئة من اتهم الكليم عليه السلام ، بالجرأة على ربه في هذا المقام ﴾

كنت في أول العهد بطالبي للعلم في طرابلس الشام اسمع بعض العلماء والادباء ينقلون عن بعض الصوفية أن موسى عليه السلام لم يقل لربه عز وجل ( ان هي إلا فتنتك ) إلا وقد كان في مقام الانس والادلال ، الذي يطلق اللسان بمثل هذا المقال ، وان هذا خير جواب مما قيل من أن هذا القول جرأة عظيمة تاب منها عليه السلام . وقال الاكوسي في تفسير الآية : والقول بأن اقدامه عليه السلام على أن يقول ( ان هي إلا فتنتك ) جرأة عظيمة فطلب من الله غفرانها والتجاوز عنها — مما ياباه السوق ، عند أرباب الذوق ، ولا أظن ان الله تعالى عد ذلك ذنباً منه ، ليستغفره عنه ، وفي نداءه السابق ما يؤيد ذلك اهـ

وأقول لا مجال للقول بالجرأة ولا بالادلال ، وما كان هذا بالذي يخظر للعربي الفصح ببال ، ولا للعالم الدقيق بمعاني المفردات وأساليب المقال ، وسببه كلمة « الفتنة » فقد اشتهر من عهد بعيد فيما أظن أن معناها غراء الشربين الداس وأراهم يتناقضون استعمال قوله تعالى ( وانفتنة أشد من القتل ) بهذا المعنى ، وله أصل في استعمال العرب فانها تطلق على الحرب ويوصف الشيطان بانفتان . ولكن هذا وذاك من المعاني الفرعية لهذه المادة وانما معناها الاصلي الذي تقرعها وأمثالهما واضدان هما منه الامتحان والاختبار ولا سيما الشاق الذي يظهر به جيد الشيء أو الشخص من رديئه ، كعرض الذهب على النار : لتصفية الغش

من النضار ، ومثله القمصة بل كل ما ادخل النار يسمى مفتونا كما يقال دينار أو درهم مفتون ، ويسمى حجر الصائغ الممتانة ، وقد ورد تسمية للملكين اللذين يمتحنان الناس عقب الموت بفتاوي القبر ، وفسروا فتنة الملمات وفتنة القبر بسؤال الملكين ، وقال تعالى ( إنما أموالكم وأولادكم فتنة ) أي اختبار لكم يبين بهما قدر وقوفكم عند الحق والتزامكم الكسب الحلال ، وقال تعالى ( ونبلونكم بالشر والخير فتنة )

وجملة القول أن الفتن والفتون مصدرى فتن معناهما الابتلاء للاختبار وظهور حقيقة حال المفتونين أو اتصفتهم وتمحيصهم ، ومن الاول قوله تعالى لموسى في هذه الواقعة التي نحن بصدد تفسيرها على قول بعضهم ( إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ) فقوله عليه السلام لربه ( ان هي الا فتنتك ) مأخوذ من قول ربه له ( انا قد فتنا قومك ) فلا جرأة فيها ولا ادلال ، دع ما يرد هذه الدعوى من منافاتها لموقف التوبة والاستغفار — ومن الثاني قوله تعالى له في قصته من سورة طه ( وفتناك فتونا ) أي صفيناك من الشوائب حتى صرت أهلا لاصطناعنا ورسالتنا . وتقدم تحقيق هذا اللفظ من قبل

﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ أي وأثبت وأوجب لنا برحمتك وفضلك حياة حسنة في هذه الدنيا من العافية وبسط الرزق، وعز الاستقلال والملك، والترفيق للطاعة، ومثوبة حسنة في الآخرة بدخول جنتك ونيل رضوانك ، فهو كقوله تعالى فيما علمنا من دعائه ( ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ) فان ثمرة دين الله على السنة جميع رسلة سعادة الدارين: الدنيا والآخرة ﴿ انا هدنا اليك ﴾ في لسان العرب : هاد يهود هوذا ( اي من باب قال ) وتهود تاب ورجع الى الحق فهو هائد ، وقوم هود — مثل حائك رحوك وبازل وبزل — قال أعرابي \* إني امرؤ من مدحه هائد \* وفي التنزيل ( إنا هدنا اليك أي تبنا اليك وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم . قال ابن سيده : عاد بالي لان فيه معنى رجعتنا . ابن الأعرابي : هاد — اذا رجعت من خير الى شر او من شر الى خير ، وداه اذا عقل ، ويهود اسم القبيلة قال :

اولئك اولى من يهود بمدحة اذا انت يوما قلتها لم تؤنب  
وقيل انما هذه القبيلة يهود فمررت بقاب الدال دالا اهما خصا والمعنى انا تبنا

اليك مما فرط من سفهائنا من طلب الالهة وعبادة العجل ، وتقصير خيارنا في الانكار عليهم - أو من طلب رؤيتك - أو من تمرد المفرورين على شريعتك ، وكفر نعمتك - تبنا ورجعنا اليك في جماعتنا مستغفرين مسترحمين كما فعل أبونا آدم اذ تاب اليك من معصيته فتبت عليه وهديته واجتبيته ، فكانت تلك سنتك في ولده - يدل على هذا المعنى فصل قوله « اناهدنا اليك » فانه في مقام التعليل والاستدلال على استحقاق التائب المنيب بالقول والفعل والاعتقاد للمغفرة وقد كان مما حكاه الله تعالى من وحيه الى موسى في سورة طه ( واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ) وبماذا أجابه الله تعالى ؟

﴿ قال عذابي اصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ أي قد كان من سبق رحمتي غضبي أن أجعل عذابي خاصا اصيب به من اشاء من الكفار والمصاة المجرمين وأما رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين ، فهي من صفاتي القديمة الازلية التي قام بها أمر العالم منذ خلقته ، والعذاب ليس من صفاتي بل من أفعالي المرتبة على صفة العدل ، ولهذا عبر عن التعذيب بالفعل المضارع وعن تعلق الرحمة بالفعل الماضي . وهذه الرحمة هي العامة المبدولة لكل مخلوق ولولاها هلك كل كافر وطاغية عقب كفره وجوره ، (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وهنالك رحمة خاصة يوجبها ويكتبها تعالى لبعض المؤمنين المحسنين ويبدل ما شاء منها لمن شاء بغير كتابة منه ، وما كتابته إلا فضل منه ورحمة ، وأما العذاب فلم يرد في الكتاب ولا في خبر المعصوم ان الله تعالى كتبه على نفسه ، ولكن أثبته وتوعد به فكان لا بد من وقوعه ، ولانه من متعلقات صفتي العدل والحكمة ، وقد أفرط قوم في النظر الى عموم الرحمة وغفلوا عن النظر في مقتضى العدل والحكمة ، والوعيد على الكفر والمعصية ، فذهب بعضهم الى عدم تعذيب احد من المؤمنين ، وآخرون الى عدم تعذيب أحد من العالمين ، ومن هؤلاء بعض غلاة التصوف الذين زعموا أن العذاب صوري لا حقيقي وانه مشتق من العذوبة وان في جهنم من هم أحب الى الله تعالى من كثير من أهل الجنة - جعلهم الله منهم - وأفرط آخرون في النظر الى مقتضى الحكمة فاجبوا عليه تعالى تعذيب العصاة بارتكاب الكبائر لا الكفار فقط ، ولولا أن صار هذا وذلك مذهباً سهلاً جمع كلمة الفريقين على الاخذ

بظواهر نصوص القرآن ، في كل صفة من صفات الرحمن ، ولما قال مثل الزمخشري من جهابذة البيان ، في تفسير قوله تعالى ( عذابي اصيب به من أشاء ) أي من وجب عليّ في الحكمة تعذيبه ولم يكن في العفو عنه مسامح لانه مفسدة انتهى فقد فسر من إ شاء تعالى تعذيبه بمن وجب عليه تعذيبه ، وجماعته يقولون ان هذا وجوب عقلي لا يدخل في الامكان - واه ولا تتعلق القدرة بخلافه ، وهذا المعنى ينافي المشيئة مناقاة قطعية فكيف تفسر به ؟ ياليت الزمخشري لم ينتحل مذهبا ولم ينظر في خلاف المذاهب ، واذ السكّن كشافه حجة على جميع أصحابها ومرجعا لهم في تحرير معاني نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف اذ كان من أدق علماء هذه اللغة فهما واحسنهم بيانا لما فهم ، ومسألة الوجوب على الله تعالى نظرية فكرية لا لغوية ، والجمع بين الحكمة والرحمة لا يقتضي أن يجب على الله تعالى شيء لذاته ، وليس في النصوص ما يدل على هذا الوجوب إلا أن يوجهه تعالى بمشيئته ، بمعنى كتابته وجعله أمراً مقضيا ، وليس في إيجابه على نفسه بمشيئته ما في إيجاب عقول خلقه عليه من معنى استعلاء غيره عليه تعالى - أو من إيهام كونه عز وجل محكوما بما ينافي سلطانه الاختياري الذي هو فوق كل سلطان ، بل لا سلطان سواه ، وإنما سلطان غيره به ومنه ؛ فلو لم يكن في اختلاف التعبير الا مراعاة الادب لكفى

﴿ فساكتها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الخ أي واذ كان الامر كذلك فساكتب رحمتي كتبه خاصة واثبتها بمشيئتي اثباتا لا يحول دونه شيء للذين يتقون الكفر والمعاصي والتمرد على رسولهم ، ويؤتون الصدقة المفروضة التي تنزكي بها أنفسهم ، وغيرها من أركان الدين ، وخص الزكاة بالذكر دون الصلاة وما دونها من الطاعات لان فتنة حب المال تقتضي بنظر العقل والاختبار بالفعل أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين لغيرها من الفرائض . وفيه اشارة المشددة حب اليهود للدينيا وافتتانهم بجمع المال ومنع بذله في سبيل الله ، وقوله تعالى (والذين هم بآياتنا يؤمنون ) معناه وساكتبها كتبه خاصة للذين يصدقون بجمع آياتنا التي تدل على توحيدنا وصدق رسلنا تصديق إذعان ، مبني على العلم والايقان ، دون التقليد لآباء وعصبيات الافوام ، ونكتة إعادة الموصول (الذين) مع الضمير (هم) إما جعل الموصول الاول عاما لقومه

الذين دعا لهم، من استمروا على التزام التقوى واداء الزكاة منهم وجعل الثاني خاصا بمن يدركون بعثة خاتم الرسل عليه السلام ويتبعونه كما يعلم مما بعده - وإما لبيان الفصل بين مفهوم الاسلام ومفهوم الايمان والتمريض بأن الذين طلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة والذين عبدوا العجل والذين قالوا (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) لم يكونوا مؤمنين بآيات الله العامة ولا الخاصة التي جاء بها نبيهم اذ لم يكونوا يعقلونها بل كانوا متبعين له لا تفذهم من ظلم المصريين - وبيان ان كتابة الرحمة الخاصة انما تكون لمن جمعوا بين الاسلام وهو اتباع الرسل بالفعل، والايمان الصحيح بالآيات الالهية المفيدة لليقين المانع من العودة الى الشرك بمثل عبادة العجل والمقتضى لاتباع من يأتي من الرسل بمثل هذه الآيات، وفي هذا توطئة لما بيده، فهو بيان لصفة من يكتب تعالى لهم الرحمة على الاطلاق، ويدخل فيهم موسى عليه السلام ومن يصدق عليهم ما ذكر من قومه وذلك يفيد استجابة دعائه بشرطه، وبيده بيان أحق الامم بهذه الرحمة ذكر على سبيل الاستطراد المقصود بالذات على سنة القرآن، في الانتقال من قصص الرسل الى أمة خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، وهو قوله عز وجل

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الامي﴾ فصل الاسم الموصول هنا لانه بيان مسبقاً لف الموصول الاخير أو الموصولين الذين قبله معاً، وهم الذين يتقون ويؤتون الزكاة، والذين يؤمنون بالآيات، ولو وصله فقال (والذين يتبعون الرسول النبي الامي) الخ لكان غائراً لهما في الماصدق لا في المفهوم بأن يراد بالاخير من يدركون بعثة الرسول النبي الامي ويتبعونه بالفعل في زمنه وبعده زمنه، ويراد بمن قبلهم من يصدق عليهم معنى صلة الموصولين في زمن موسى وما بعده الى زمن محمد عليهما السلام. ومعنى الفصل على الوجه الاخير اتحاد الموصولات الثلاثة في المفهوم والماصدق جميعاً. والمعنى: ان كتابة الرحمة كتبة خاصة هي المتصفين بما دات عليه صلوات الموصولات الثلاثة وانما هم الذين يتبعون الرسول الموصوف بأنه النبي الامي نسبة الى الام، والمراد به الذي لا يقرأ ولا يكتب، وكان أهل الكتاب يسمون العرب بالاميين، والله كان لقباً لأهل المجاز ومن جاورهم دون أهل اليمن. لكن ظاهر قوله تعالى في الخونة من اليهود (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين

سبيل) العدم وليس إخص فيه رسول فهو زعموا الذي بعث في الأميين رسولا منهم) ولم ينقل ان الله تعالى بعث نبيا أميا غير نبيتنا (ص) فهو وصف خاص لا يشارك محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فيه احد من النبيين ، والامية آية من أكبر آيات نبوته فانه جاء بعد النبوة بأعلى العلوم النافذة وهي ما يصلح ما فسد من عقائد البشر خذلقهم رأدهم وأصاحم وأحاطهم وعمل بها فكان لها من التأثير في العالم ما لم يكن ولن يكون الغيرة من خلق الله ، وتكريف الرسول والنبي المرصوف بالامة ككلاهما فلهذا كان يتم مما سنبينه من بشارات الانبياء بنينا صلى الله عليه وسلم ، والرسول في اصطلاح الشرع أخص من النبي فكل رسول نبي وما كل نبي رسول ، ولذلك جعل بعض المفسرين نكته تقديم الرسول على النبي هنا كونه اعم وأشرف أو أنهم ذكرا ما يشتمها اللغوي كقوله (وكان رسولا نبيا) وما اشرفنا إليه من نكته التقديم أظهور ، وهو أن النبي الامي وصف مميز للرسول الذي يجب على كل أحد اتيانه حتى بعث ، وان الرسول هو المعروف الذي نزل فيه (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول صدق لما معكم لتؤمنن به ولتعصرن) - صلح آيته المعروفة في سورة آل عمران (١)

والنبي في اللغة (فصيل) من مادة النبا بمعنى الخبر المهم الدائم الشأن او بمعنى الارتفاع وعلو الشأن والاول أظرف وأكثر الدرب لانه لم يهزمه الا أهل مكة وليكن النبي (من) انكر على رجل قل له يا نبي الله. وأما في الاصطلاح فالنبي من أوحى الله إليه وأنباه بما لم يكن يعلم بكسبه من خبر أو حكم يعلم به علما ضروريا انه من الله عز وجل ، والرسول نبي أمره الله تعالى بتبليغ شرع ودعوة دين وبقامته بالعمل ، ولا يشترط في الوحي اليه ان يكون كتابا يقرأ وينشر ، ولا شرعا جديدا يعمل به ويحكم بين الناس - بل قد يكون تابعا لشرع غيره كالهلال من بني اسرائيل كانوا متبعين لشرعة التوراة عملا وحكما بين الناس كما قال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكمكم به النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) الآية

«١» تراجع ص ٣٥١ ج ٣ من التفسير

« الجزء التاسع »

« ٢٩٩ »

« تفسير القرآن الحكيم »

وقد يكون ناسخا لبعضه كما نسخ عيسى عليه السلام بعض أحكام التوراة وافر أكثرها كما يدل على ذلك مثل قوله تعالى حكاية لما خاطب به بني إسرائيل (وهو صدقا لما بين يدي من التوراة ولا حل لكم بعض الذي حرم عليكم) وسيرته المأثورة عن الأنبياء الأربعة وغيرهم تدل على ذلك ففيها أنه ما جاء لينقض الناموس (أي التوراة) وإنما جاء ليتمم، وأنه أحل لهم بعض ما حرم عليهم حتى ما دل عليه عموم ترك العمل يوم السبت فخصه بمنير العمل الصالح من أمور الدنيا بل نرى فرق النصارى الرسميين بعد تكوين نظام الكنيسة قد تركوا ما عدا الوصايا العشر من شريعة التوراة واستبدلوا يوم الأحد بيوم السبت فيما حرمت الوصايا من العمل فيه وخالف الاكثرون وصية النهي عن اتخاذ الصور والتماثيل ولكن لا يستطيعون أن يأتوا بدليل على هذا من قول المسيح ولا من فعله، وجملة القول أن الرسول أخص في عرف شرعنا من النبي، فكل رسول نبي ولا عكس، وإذا أطلق الرسول بالمعنى الذي يعبر به الملائكة كان من هذا الوجه أعم من النبي لأن الله اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس، ولم يجعل فيهم أنبياء. فنبينا (ص) نبي رسول، وجبريل عليه السلام رسول غير نبي، وآدم عليه السلام نبي غير رسول كأكثر أنبياء بني إسرائيل، وهذا على قول المحققين في نص حديث الشفاعة في الصحيحين وغيرها الناطق بأن نوحا أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وقد تقدم في الكلام على عدد الرسل من تفسير سورة الانعام جواز تسميته رسولا في عرف بعض أهل الكلام، وانهم لهذا العرف عدوه من الرسل الذين تجب معرفة رسالتهم وأول هؤلاء، حديث الشفاعة تأويلات تجدها هناك (١) وصف الله الرسول الذي أوجب اتباعه على كل من أدركه من بني إسرائيل وغيرهم بصفات ونعوت (أولها) (أنه هو النبي الأمي الكامل)

(ثانيها) - قوله تعالى - ﴿الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل﴾ ومعناه الذي يجد الذين يتبعونه من بني إسرائيل صفته و نعمته مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل، وإنما ذكر الإنجيل والسابق في قوم موسى لأن المخاطب به

بالبات بنو اسرائيل ، ومما هو مأثور عن المسيح عليه السلام في هذه الانجيل :  
لم ابعث الا الى خراف اسرائيل الضالة . ولا يعارضه ما رواه عنه من امره  
تلاميذه ان يكرزوا بالانجيل في الخليقة كلها اذ يجمع بينهما ان يراد بالخليقة ما كانوا  
يسمونه ( اليهودية ) والعبارة الاولى نص بصيغة الحصر لا تحتمل التأويل . وقال  
أبو السعود ( الذي يجدونه مكتوبا ) باسمه ونعوته الشريفة بحيث لا يشكون أنه  
هو ولذلك عدل عن أن يقال يحدون نعمته او وصفه مكتوبا عندهم ، والظرف  
( عندهم ) لزيادة التقرير وأن شأنه عليه السلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم اهـ وسيأتي  
بيان ذلك في فصل خاص

ثالثها ورابعها — قوله — ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ يحتمل  
أنه استثناف لبيان أهم ما يحتاجون اليه عند بعثته — ويحتمل أنه تفسير لما كتب.  
والمعروف ما تعرف العقول السليمة حسنه وترتاح القلوب الطاهرة له لنتفه وموافقته  
للغطرة والمصلحة بحيث لا يستطيع العاقل المنصف السليم الغطرة أن يردده أو يعترض  
عليه اذا ورد الشرع به . والمنكر ما تنكره العقول السليمة وتنفر منه القلوب وتأباه  
على الوجه المذكور أيضا . وأما تفسير المعروف بما أمرت به الشريعة والمنكر بما  
نهت عنه فهو من قبيل تفسير الماء بالماء . وكون ما قلناه مثبت مسألة التحسين والتقييح  
العقائين وفاقا المعتزلة وخلافا للاشعرية مردود اطلاقه بأننا انما نوافق كلا منهما  
من وجه ونخالفه من وجه اتباعا لظواهر الكتاب والسنة وفهم السلف لها فلا ننكر  
إدراك العقول لحسن الاشياء مطلقا ولا نقيدهم بالتشريع بعقولنا ولا نوجب على الله شيئا من  
عند أنفسنا بل نقول انه لا سلطان لشيء عليه فهو الذي يوجب على نفسه ما شاء  
ان شاء كما كتب على نفسه الرحمة لمن شاء وان من الشرع ما لم نعرفه العقول حسنه  
قبل شرعه ، وان كل ما شرعه تعالى بطاع بلا شرط ولا قيد .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذا الامر والنهي مانصه : هذه صفة الرسول  
(ص) في الكتب المتقدمة ، وهكذا كانت حاله عليه السلام لا يأمر الا بخير ولا  
ينهى الا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود اذا سمعت الله يقول ( يا أيها الذين  
آمنوا ) فارعها سمعك فانه خير تؤمر به او شر تنهى عنه . ومن أهم ذلك وأعظمه



ما بعثه الله به من الامر بعبادته ورحمته لا يشرك له بشي من عبادة ما سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال (ر) ولقد بعثنا في كل امة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال الامام حمد — وذكر سنده الى أبي حميد وابي اسيد (رض) أن رسول الله (ص) قال « إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم وتلين له اشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأننا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه اشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد ، فأننا أبعدم منه » رواه احمد (رض) باسناد جيد ولم يخرج له أحد من اصحاب الكتب

خامسها وسادسها — قوله تعالى ﴿و يحل لهم الطيبات وبمحرم عليهم الخبائث﴾ الطيب ما استطيبه الاذواق من الاطعمة وتستفيد منه التغذية النافعة ، ومن الاموال ما أخذ بحق وتراض في المعاملة . والحديث من الاطعمة ما أعجبه الطباع السليمة وتستغذره ذرقا كالميتة والدم المسفوح ، أو تصد عنه العقول الراجعة لضرره في البدن كالخنزير الذي تتولد من اكله الدودة الوحيدة . أو لضرره في الدين كالذي يذبح للتقرب به الى غير الله تعالى على سبيل العبادة ، أي لا ما يذبح لتكريم الضيفان ، من صغير وكبير أو امير او سلطان . والذي يحرم ذبحه او اكله لتشريع باطل لم يأذن به الله فالبحيرة والسائبة ولولة الخامي . والحديث من الاموال ما يؤخذ بغير حق كالربا ، والرشوة والغلول والسرقة والخبائة والغصب والسحت . وقد كان الله تعالى حرم على بني اسرائيل بعض الطيبات عقوبة لهم كما قال (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) الآية . وتقدم تفسيرها في سورة النساء . وحدثوا هم على أنفسهم طيبات أخرى لم يحرمها الله تعالى عليهم ، وأحلوا لانفسهم أكل أموال غير الاسرائيليين بالباطل كما حكى الله تعالى عنهم بعد ذكر استحلال بعضهم أكل ما يأثمهم عليه العرب (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) وتقدم تفسيرها في سورة آل عمران

(سابعها) — قوله تعالى ﴿ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم﴾ الاصر الثقل الذي بأصر صاحبه أي يحبسه من الحراك لنقله ، وهو مثل الثقل

تكليفهم وصعوبته نحو شرط قتل الأخرى في حجة قوتهم . وكذلك الاغلال مثل لما كان في شرائهم من الأشياء الشدة ، قالوا لمخشي . وذكر الثاني عدة أمثلة من شدة أحكام التوراة . وقال ابن كثير : أي أنه جاء بالنيسر والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعثت الخفيفة السمحة » وقال (ص) لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن « بشروا ولا تقفروا ، ويسروا ولا تعسروا ، وتطوعا ولا تخلفا » والحديث رواه الشيخان وغيرهما حاصل ما تقدم أن بني إسرائيل كانوا فيما أخذوا به من الشدة في أحكام التوراة من العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات كالذي بحمل أقالا يثبط منها وهو مع ذلك موثق بالأسل والاغلال في عنقه ويديه ورجليه . وقد بينا في مواضع أخرى حكمة أخذ بني إسرائيل بالشدة في الأحكام وأن المسيح عليه السلام خفف عنهم بعض التخفيف في الأمور المادية وشدد عليهم في الأحكام الروحانية لما كان من إفراطهم في الأولى وتفريطهم في الأخرى ، وكل هذا وذلك قد جعله الله تعالى تربية موقوتة لبعض عباد الله ليكمل استعدادهم للشريعة الوسطى الدالة السمحة الرحمة التي يبعث بها خاتم الرسل الذي أوجب اتباعه على كل من أدركه من الرسل وأقوامهم

﴿ قال الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ يطلق التعزيز في اللغة الرد والضرب والمنع والتأديب والتعظيم . وقال الراغب : التعزير النصرة مع التظيم . وروي عن ابن عباس : عزروه عظموه وتوقروه . ولكن رد في سورة الفتح ( لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ) والأقرب إلى فقه اللغة ما حققه المخشي في الكتابات هنا قال ( وعزروه ) ومنعه حتى لا يقوى عليه عدوه ، وأصل المنع ، ومنه التعزير للضرب دون الحد ، لأنه منع عن معارضة القبيح ألا ترى إلى تسميته الحد ، والحد هو المنع اهوجاء في لسان العرب بعد نقل الأقوال ، وجهه من قبيل الاضداد : والعز والنصر بالسيف ، وعززه عزاء ، وعززه ( تعزيرا ) أعانه وقواه ونصره ، قال الله تعالى ( لتعزروه وتوقروه ) وقال تعالى ( وعزروه ) جاء في التفسير .

لتنصروه بالسيف ومن نصر النبي (ص) بالسيف فقد نصر الله عز وجل ، وعززتهم  
عظمته ، وقبيل : نصرتموهم قلب إبراهيم بن السري : وهذا هو الحق والله  
تعالى أعلم — وذلك أن العزير في اللغة الرد والمنع ، وتأويل عزرت فلانا أي  
أدبته إنما تأويله فعلت به ما يردعه عن القبيح ، كما إذا نكلت به تأويله فعلت  
به ما يجب أن ينكح معه عن المعاودة . فتأويل عزرتهم نصرتموهم بأن تردوا  
عنهم أعداءهم ، ولو كان التعزير هو التوقير لكان الأجود في اللغة الاستغناء به  
والنصرة إذا وجبت فالتعظيم داخل فيها ، لان نصرة الانبياء هي المدافعة عنهم  
والذب عن دينهم وتعظيمهم وتوقيرهم اه المراد منه

والمعنى إن الذين آمنوا — أي يؤمنون — بالرسول النبي الامي عند مبعثه أي  
من قوم موسى ومن كل قوم — فانه لم يقل فالذين آمنوا به منهم بل أطلق —  
ويعزرونه بأن يمنعه ويحموه من كل من يعاديه مع التعظيم والاجلال ، لا كما  
يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشمئزاز ، ونصروه باللسان والسنان ، واتبعوا  
النور الاعظم الذي أنزل مع رسالته وهو القرآن ، أولئك هم المفلحون ، أي  
الفائزون بالرحمة العظمى والرضوان ، دون سواهم من أهل كل زمان ومكان .  
فمنهم الفائزون بدون ما يفوز به هؤلاء ، كاتباع سائر الانبياء ، ومنهم الخائبون  
المخذولون ، أولئك حزب الشيطان إلا إن حزب الشيطان هم الخاسرون

### ﴿ فصل في بيان بشارات التوراة والانجيل وغيرهما ﴾

بنبيينا صلى الله عليه وآله وسلم

اعلم انه قد سبق لنا ذكر بشارات كتب انبياء بنى اسرائيل بنبيينا (ص) في  
مواضع من هذا التفسير بعضها بالاجمال وبعضها بشي من التفصيل وفي مواضع  
من المنار كما يعلم من قهارسهما ، ونريد هنا ان نفصل القول في ذلك تفصيلا كافيا  
لانه هو المكان المناسب له أم المناسبة ، فنقول

كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يتقنا قلوبن خبر بعثته (ص) فيما بينهم  
ويذكرون البشارات به من كتبهم حتى اذا ما بعثته الله تعالى بالهدى ودين الحق آمن  
به كثيرون وكان علماءهم يصرحون بذلك كعبدالله بن سلام وأصحابه من علماء

اليهود وتيم الداري من علماء النصارى وغيرهم من الذين أسلموا في عصر النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ورضي عنهم، والروايات في هذه كثيرة، ومن أعجبها قصة سلمان الفارسي (رض) وأما الذين أبوا واستكبروا فكانوا يكتبون البشارات به في كتبهم ويؤلون ما بقي منها لمن اطلع عليه ويكتبونه ممن لم يطلع عليه، وقد أربى المتأخرون ولا سيما الافرنج منهم على المتقدمين في المكابرة والتأويل والتضليل لذلك وضع العلامة المحقق الشيخ رحمه الله الهندي هذه المسألة في كتابه ( اظهار الحق ) بأمر جعلها مقدمات لبشارات تلك الكتب به (ص) فرأينا ان نقبسها بنصها ، قال رحمه الله تعالى في سياق مسالك الاستدلال على نبوته «ص» مانصه :

### ( المسالك السادس )

أخبار الانبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه السلام ، ولما كان القسيسون يغلطون العوام في هذا الباب تغليظا عظيما استحسنت أن أقدم على نقل تلك الاخبار أمورا ثمانية تفيد الناظر بصيرة

### ( الامر الاول )

إن الانبياء الاسرائيلية مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليهم السلام أخبروا عن الحوادث الآتية ، كحذنة بخت نصر ، وقورش والاسكندر وخلفائه ، وحوادث أرض أدوم ومصر ونيينوى وبابل ، ويعد كل البعد أن لا يجبر أحد منهم عن خروج محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان وقت ظهوره كأصغر البقول ، ثم صار شجرة عظيمة تناوى طيور السماء في أغصانها ، فيكسر الجبابرة والاكاسرة ، وبلغ دينه شرقا وغربا وغلب الاديان ، وامتد دهره بحيث مضى على ظهوره مدة الف ومائتين وثمانين الى هذا الحين ، ويمتد إن شاء الله الى آخر بقاء الدنيا . وظهر في أمته ألوف ألوف من العلماء الربانيين ، والحكام المتقين ، والاولياء ذوي الكرامات والمجاهدات ، والسلطين العظام . وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث ، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونيينوى وغيرها ، فكيف يجوز العقل السليم انهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة وتركوا الاخبار عن هذه الحادثة العظيمة

( لامر الثاني )

إن النبي المقدم اذا أخبر عن النبي المتأخر لا يشترط في اخباره أن يخبر  
 بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الغلانية ، في السنة الغلانية ، في البلد الغلاني ،  
 وتكون صفته كيت وكيت ، بل يكون هذا الاخبار في غالب الاوقات مجملا عند  
 العوام ، وأما عند الخواص فقد يصير جليا بواسطة القرائن ، وقد يبقى خفيا عليهم  
 أيضا لا يعرفون مصدقه لا بعد ادعاء النبي اللاحق ان النبي المتقدم أخبرني  
 وظهور مصدق ادعائه بالمجزات ، وعملات النبوة ، وبمصادق الادعاء ، وظهور  
 صدقه يصير جليا عندهم بلا ريب ، ولذا يكفون كما عاتب المسيح عليه السلام  
 علماء اليهود بقوله ( ٥٢ ) ول لكم أيها الاموسيون لانكم أخذتم مفتاح المعرفة مادخاتم  
 أنتم والداخلون منتهوهم ) كما هو موضح به في الباب الحادي عشر من انجيل لوقا  
 وعلى مذاق المسيحيين قد بقي خفيا على الانبياء فضلا عن العلماء ، بل قد يبقى  
 خفيا على النبي المخبر عنه على زعمهم في الباب الاول من انجيل يوحنا هكذا ١٩  
 ( وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من ارشليم كهنة ولاويين يسألوه  
 من أنت ؟ ) ٢٠ ( فاعترف ولم ينكر ، واقر إني لست أنا المسيح ) ٢١ ( فسألوه اذا  
 ماذا أنت ايليا ؟ فقال : أنا لست ايليا ، فسألوه أنت النبي ؟ فأجاب : لا ) ٢٢  
 ( فقالوا له : من أنت لتعطي جوابا للذين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟ ) ٢٣  
 ( قال : أنا صوت صاخر في البرية قوموا طريق الرب ، كما قال أشعيا النبي ) ٢٤  
 ( وكان المرسلون من الفريسيين ) ٢٥ ( فسألوه فقالوا له : فما بالك تعتمد ان كنت  
 لست المسيح ولا ايليا ولا النبي ؟ )

والالف واللام في لفظ النبي الواقع في الآية ٢١ و ٢٥ للعهد ، والمراد انبي  
 اليهود الذي أخبر عنه موسى عليه السلام في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء ( ١ )  
 على ما صرح به العلماء المسيحية ، قالكم في اللاويون كانوا من علماء اليهود وواقفين  
 على كتبهم ، وعرفوا أيضا ان يحيى عليه السلام نبي ، لكنهم شكوا في انه المسيح  
 ( ١ ) هو سفر تثنية الاشتراع وهو الخامس والاخير من اسفار التوراة ويعبر  
 عنه صاحب الحق بسفر الاستثناء اخذاً من بعض التراجم

عليه السلام أو ايليا عليه السلام أو النبي المهود الذي أخبر عنه موسى عليه السلام ، فظهر منه ان علامات هؤلاء الانبياء الثلاثة لم تكن مصرحة في كتبهم بحيث لا يبقى الاشتباه للخواص (١) فضلا عن العوام ، فلذلك سألوا أولا : أنت المسيح ؟ فبعدهما أنكري بحبي عليه السلام عن (٢) كونه مسيحا ، سألوه : أنت ايليا ؟ فبعدهما أنكروا عن (٣) كونه ايليا أيضا سألوه أنت النبي أي (المهود) ؟ ولو كانت العلامات مصرحة لما كان للشك محل ، بل ظاهر منه ان بحبي عليه السلام لم يعرف نفسه انه ايليا حتى أنكروا فقال : لست أنا ، وقد شهد عيسى انه ايليا في الباب الحادي عشر من انجيل متى قول (؟) عيسى عليه السلام في حق بحبي عليه السلام هكذا ١٤ ( وان أردتم أن تقبلوا فهذا هو ايليا المزعم أن يأتي ) وفي الباب السابع عشر من انجيل متى هكذا ١٠ ( وسأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة : إن ايليا ينبغي أن يأتي أولا ) ١١ ( فأجاب يسوع وقال لهم : إن ايليا يأتي أولا ويرد كل شيء ) ١٢ ( وليكني أقول لكم : إن ايليا قد جاء ولم يعرفوه ، بل عملوا به كل ما أرادوا ، كذلك ابن الانسان أيضا سوف يتألم منهم ) ١٣ ( حينئذ فهم التلاميذ انه قال لهم عن يوحنا المعمدان ) وظهر من العبارة الاخيرة أن علماء اليهود لم يعرفوه بأنه ايليا وفعلوا به ما فعلوا ، وان الحوار بين أيضا لم يعرفوه بأنه ايليا ، مع انهم كانوا انبياء في زعم المسيحيين وأعظم رتبة من موسى عليه السلام ، وكانوا اعتمدوا من بحبي عليه السلام ورأوه مرارا ، وكان مجيئه ضروريا قبل إلهم ومسيحهم — وفي الآية ٣٣ من الباب الاول من انجيل يوحنا قول بحبي هكذا ( وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لاعمد بالماء ذلك قل لي : الذي ترى الروح نازلا ومستقرا عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس ) ومعنى قوله ( وأنا لم أكن أعرفه ) على زعم القيسيين أنا لم أكن أعرفه معرفة جيدة بأنه المسيح الموعود به ، فلم أن بحبي عليه السلام ما كان يعرف عيسى عليه السلام معرفة يقينية بأنه المسيح الموعود به الى ثلاثين سنة مالم ينزل الروح القدس ، اهل كون ولادة المسيح من العذراء لم يكن من

(١) كذا والمراد بحيث لا تبقى فيها اشتباه على الخواص بل كانت مجملة لا تخلو من الخفاء والاشتباه (٢) كلمة عن زائدة اذ يقال انكر الشيء لا أنكروا عنه  
« تفسير القرآن الحكيم » « ٣٠ » « الجزء التاسع »

العلامات المختصة بالمسيح ، والا فكيف يصح هذا ؟ لكنني أقطع النظر عن هذا وأقول : إن يحيى أشرف الانبياء الاسرائيلية بشهادة عيسى عليه السلام ، كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من إنجيل متى ، وإن عيسى عليه السلام إلهه وربّه علي زعم المسيحيين ، وكان مجيئه ضروريا قبل المسيح ، وكان كونه ايليا يقينيا ، فإذا لم يعرف هذا النبي الا اشرف نفسه الى آخر العمر ، ولم يعرف إلهه وربّه الى المدة المذكورة ، وكذا لم يعرف الحواريون الذين هم أفضل من موسى وسائر الانبياء الاسرائيلية مدة حياة يحيى انه ايليا فماذا رتبة العلماء والعوام عندهم في معرفة النبي اللاحق بخبر النبي المتقدم عنه وترددهم فيه ؟ وقيافا رئيس السكنة كان نبيا على شهادة يوحنا ، كما هو مصرح به في الآية الحادية والخسين من الباب الحادي عشر من إنجيله ، وهو أفتى بقتل عيسى عليه السلام وكفره واهانة ، كما هو مصرح به في الباب السابع والعشرين من إنجيل متى . ولو كانت علامات المسيح في كتبهم مصرحة بحيث لا يبقى الاشتباه (فيها) على أحد ما كان مجمل لهذا النبي المفتي بقتل إلهه وبكفره أن يفتي بقتله وكفره

ونقل متى ولوقا في الباب الثالث ومرقس ويوحنا في الباب الاول من أنجيلهم خبر اشعيا في حق يحيى عليهما السلام ، وأقر يحيى عليه السلام بأن هذا الخبر في حقه على ماصرح به يوحنا ، وهذا الخبر في الآية الثالثة من الباب الاربعين من كتاب اشعيا هكذا ( صوت المنادي في البرية سهلوا طريق الرب اصاحوا في البوادي سبيلا لاهنا ) ولم يذكر فيه شيء من الحالات المختصة بيحيى عليه السلام لا من صفاته ، ولا من زمان خروجه ، ولا مكان خروجه ، بحيث لا يبقى الاشتباه ، ولو لم يكن ادعاء يحيى عليه السلام بأن هذا الخبر في حقه وكذا ادعاء مؤانني العهد الجديد لما ظهر هذا للعلماء المسيحية وخواصهم فضلا عن العوام لان وصف النداء في البرية بعم أكثر الانبياء الاسرائيلية الذين جاؤا من بعد اشعيا عليه السلام ، بل يصدق على عيسى عليه السلام أيضا ، لانه كان ينادي مثل نداء يحيى عليه السلام: توبوا لانه قد اقترب ملكوت السماء وسيظهر لك في ( الامر السادس ) حال الاخبار التي نقاها الانجيليون في حق عيسى عليه السلام

عن الانبياء المتقدمين عليهم السلام . ولا ندعي ان الانبياء الذين اخبروا عن محمد صلى الله عليه وسلم كان اخبار كل منهم بصفته منفصلاً بحيث لا يكون فيه مجال التأويل المعاند قال الامام الفخر الرازي في ذيل تفسير قوله تعالى ( ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعملون ) : واعلم أن الاظهر في الباء في قوله ( بالباطل ) انها باء الاستعانة كالتي في قولك كتبت بالقلم . والمعنى ( لا تلبسوا الحق ) بسبب الشبهات التي توردونها على السامعين . وذلك لان النصوص الواردة في التوراة والانجيل في أمر محمد عليه السلام كانت نصوصاً خفية تحتاج في معرفتها الى الاستدلال ، ثم أنهم كانوا يجادلون فيها ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بسبب القاء الشبهات ، انتهى كلامه بلفظه

وقال المحقق عبد الحكيم السبائكوتي في حاشيته على البيضاوي : هذا فصل يحتاج الى مزيد شرح ، وهو انه يجب أن يتصور ان كل نبي آتى بلفظة معرضة وبإشارة مدرجة ، لا يعرفها الا الراسخون في العلم ، وذلك لحكمة إلهية . وقد قال العلماء : ما انفك كتاب منزل من السماء من تضمن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لكن بإشارات ، ولو كان منجلياً للعوام لما عوتب علماءهم في كتابه . ثم ازداد ذلك غموضاً بنقله من لسان الى لسان من العبراني إلى السرياني ، ومن السرياني الى العربي . وقد ذكرت محصلة ألفاظ من التوراة والانجيل اذا اعتبرتها وجدتها دالة على صحة نبوته عليه السلام ، بتعريض هو عند الراسخين في العلم جلي ، وعند العامة خفي . انتهى كلامه بلفظه

### ( الامر الثالث )

ادعاء أن أهل الكتاب ما كانوا ينتظرون نبياً آخر غير المسيح وإيليا ادعاء باطل لا أصل له ، بل كانوا منتظرين لغيرها أيضاً لما علمت في الامر الثاني أن علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى عليه السلام أولاً أنت المسيح ؟ ولما أنكر سألوه : أنت إيليا ؟ ولما أنكر سألوه : أنت النبي ؟ أي النبي المهود الذي أخبر به موسى ، فعلم ان هذا النبي كان منتظراً مثل المسيح وإيليا ، وكان مشهوراً بحيث ما كان محتاجاً الى ذكر الاسم ، بل الإشارة اليه كانت



كافية . وفي الباب السابع من انجيل يوحنا بعد نقل قول عيسى عليه السلام هكذا ٤٠ ( فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا : هذا بالحقيقة هو النبي ) ٤١ ( وآخرون قالوا : هذا هو المسيح ) وظهر من الكلام أيضا أن النبي المهود عنهم كان غير المسيح ، ولذلك قابلوه بالمسيح

﴿ الامر الرابع ﴾

ادعاء ان المسيح خاتم النبيين ولا نبي بعده باطل لما عرفت في الامر الثالث انهم كانوا منتظرين للنبي المهود الآخر الذي يكون غير المسيح وايضا عليهم السلام ، ولما لم يثبت بالبرهان مجيئه قبل المسيح فهو بعده ولانهم يعترفون بنبوة الحواريين وبواس ، بل بنبوة غيرهم أيضا . وفي الباب الحادي عشر من كتاب الاعمال هكذا ٢٧ ( وفي تلك الايام انحدر الانبياء من اورشليم الى انطاكية ) ٢٨ ( وقام واحد منهم اسمه اغابوس وأشار بالروح أن جوعا عظيما كان عتيدا أن يصير على جميع المسكونة الذي صار في أيام كلوديوس قيصر ) فهؤلاء كلهم كانوا أنبياء على تصريح انجيلهم . وأخبر واحد منهم اسمه اغابوس عن وقوع الجذب العظيم . وفي الباب الحادي والعشرين من الكتاب المذكور هكذا ١٠ ( وبينما نحن مقيمون أياما كثيرة انحدر من اليهودية نبي اسمه اغابوس ) ١١ ( فجاء الينا وأخذ منطقة بواس وربط يدي نفسه ورجليه وقال : هذا يقوله الروح اقدس الرجل الذي له هذه المنطقة ، هكذا سيربطه اليهود في اورشليم ويسلمونه الى أيدي الامم ) وفي هذه العبارة أيضا تصريح بكون اغابوس نبيا ، وقد يتمسكون لاثبات هذا الادعاء بقول المسيح المنقول في الآية الخامسة عشرة من الباب السابع من انجيل متى هكذا ( احترزوا من الانبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة ) والتمسك به عجيب لأن المسيح عليه السلام أمر بالاحترام من الانبياء الكذبة لا الانبياء الصدقة أيضا ، ولذلك قيد بالكذبة ثم لو قال : احترزوا من كل نبي يجيء بعدي ، لكان بحسب الظاهر وجه للتمسك وان كان واجب التأويل عندهم لثبوت نبوة الاشخاص المذكورين . وقد ظهر الانبياء الكذبة الكثيرون في الطبقة الاولى بعد صعوده ، كما يظهر من الرسائل

الموجودة في العهد الجديد في الباب الحادي عشر من الرسالة الثانية الى أهل  
 قورنثوس هكذا ١٢ ( ولكن ما أفعله سأفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة  
 كي يوجدوا كما نحن أيضا فيما يفتخرون به ) ١٣ ( لان مثل هؤلاء رسل كذبة  
 فعلة ما كرون ، مغيرون شكهم الى شبه رسل المسيح ) فمقدسهم ينادي بأعلى  
 نداء ان الرسل الكذبة الغدارين ظهوروا في عهده ، وقد تشبهوا برسل المسيح .  
 وقال آدم كلارك المفسر في شرح هذا المقام : هؤلاء الاشخاص كانوا  
 يدعون كذبا أنهم رسل المسيح ، وما كانوا رسل المسيح في نفس الامر ، وكانوا  
 يعظون ويجهدون ، لكن مقصودهم ما كان الا جاب المنفعة ) وفي الباب الرابع  
 من الرسالة الاولى ايوحنا هكذا ( أيها الاحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا  
 الارواح هل هي من الله ؟ لان الانبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا الى العالم )  
 فظاهر من العبارتين أن الانبياء الكذبة قد ظهوروا في عهد الحواريين . وفي الباب  
 الثامن من كتاب الاعمال هكذا ٩ ( وكان قبلا في المدينة رجل اسمه سيمون  
 يستعمل السحر ويدهش شعب السامرة قائلا أنه شيء عظيم ) ١٠ ( وكان الجميع  
 يتبعونه من الصغير الى الكبير قائلين : هذا هو قوة الله العظيمة ) وفي الباب الثالث  
 عشر من الكتاب المذكور هكذا ( ولما اجتازا الجزيرة الى باقوس وجدا رجلا  
 ساحراً نيبا كذابا يهوديا اسمه باريشوع ) وكذا سيظهر الدجالون الكذابون يدعي  
 كل منهم أنه المسيح ، كما أخبر عيسى عليه السلام ( وقال : لا يضلكم أحد فان  
 كثيرين سيأتون باسمي قائلين : أنا هو المسيح ويضلون كثيرين ) كما هو مصرح  
 في الباب الرابع والعشرين من انجيل متى . فمقصود المسيح عليه السلام التحذير  
 من هؤلاء الانبياء الكذبة والمسحاء الكذبة ، لامن الانبياء الصادقين أيضا ،  
 ولذلك قال بعد القول المذكور في الباب السابع ( من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون  
 من الشوك عنبا أو من الحسك تينا ) ومحمد صلى الله عليه وسلم من الانبياء الصادقين  
 كما تدل عليه ثماره على ما عرفت في المسالك المنقمة ، ولا اعتبار لمطاعن المنكرين  
 كما ستعرف في الفصل الثاني ، ولان كل شخص يعلم ان اليهود ينكرون عيسى بن  
 مريم عليه السلام ويكذبونه ، وليس عندهم رجل أشرف منه من ابتداء العالم الى

زمان خروجه ، وكذا ألوف من الحكماء والعلماء الذين هم من أبناء صنف القيسيين وكانوا مسيحيين ثم خرجوا عن هذه الملة لاستقباحهم إياها ينكرونه ويستهزؤن به وبلمته وأنفوا رسائل كثيرة لاثبات آرائهم واشتهرت هذه الرسائل في أكتاف العالم ويزيد متبعوهم كل يوم في ديار أوربا . فكما ان إنكار اليهود وهؤلاء الحكماء والعلماء في حق عيسى عليه السلام غير مقبول عندنا ، فكذا إنكار اهل التثليث في حق محمد صلى الله عليه وسلم غير مقبول عندنا

### ( الأمر الخامس )

الاخبارات (١) التي نقلها المسيحيون في حق عيسى عليه السلام لا تصدق عليه على تفاسير اليهود وتأويلاتهم ، وذلك هم ينكرونه أشد الإنكار ، والعلماء المسيحية لا يلتفتون في هذا الباب الى تفاسيرهم وتأويلاتهم ، ويفسرونها ويؤولونها بحيث تصدق في زعمهم على عيسى عليه السلام ( ونقل هنا عبارة عن ميزان الحق بهذا المعنى ثم قال ) كما ان تأويلات اليهود في الآيات المذكورة مردودة غير صحيحة ، وغير لائقة عند المسيحيين ، كذلك تأويلات المسيحيين في الاخبارات التي هي في حق محمد صلى الله عليه وسلم مردودة غير مقبولة عندنا . وسترى ان الاخبارات التي نقلها في حق محمد صلى الله عليه وسلم أظهر صدقها من الاخبارات التي نقلها الانجيليون في حق عيسى عليه السلام فلا بأس علينا ان نلتفت الى تأويلاتهم الفاسدة ، وكما ان اليهود ادعوا في حق بعض الاخبارات التي هي في حق عيسى عليه السلام على زعم المسيحيين انها في حق مسيحيهم المنتظر ، أو في حق غيره ، أو ليست في حق أحد . والمسيحيون يدعون انها في حق عيسى عليه السلام ولا يبالون بمخالفتهم ، فكذا نحن لانبالي بمخالفة المسيحيين في حق بعض الاخبارات التي هي في حق محمد صلى الله عليه وسلم لوقالوا إنها في حق عيسى عليه السلام . وسترى أيضا ان صدقها في حق محمد صلى الله عليه وسلم اليق من صدقها في حق عيسى عليه السلام فادعونا أحق من ادعائهم

## ﴿ الامر السادس ﴾

مؤلفو العهد الجديد باعتماد المسيحيين ذور إلهام . وقد نقلوا الاخبارات في حق عيسى عليه السلام ، فيكون هذا النقل على زعمهم بالالهام ، فأذكر نبذاً منها بطريق الأنموذج ليقبس المخاطب حال هذه الاخبارات بالاخبارات التي أنقلها في هذا المسلك في حق محمد صلى الله عليه وسلم ، وان سلك أحد من القسيسين مسلك الاعتساف وتصدى لتأويل الاخبارات التي أنقلها في هذا المسلك يجب عليه أن يوجه أولاً الاخبارات التي نقلها مؤلفو العهد الجديد في حق عيسى عليه السلام ليظهر المنصف اللبيب حال الاخبارات التي نقلها الجانبان وبقابلهما باعتبار القوة والضعف ، وان غمض النظر عن توجيه الاخبارات العيسوية التي نقلها المؤلفون المذكورون وأول الاخبارات الحمديّة التي أنقلها في هذا المسلك يكون محمولاً على عجزه ونعصبه ، لانك قد علمت في الامر الثاني والخامس أن المعاند له مجال واسع للتأويل في أمثال هذه الاخبارات ، وانما اكتفيت على نبذ (١) مما نقله مؤلفو العهد الجديد ، لانه اذا ظهر ان البعض منها غلط بيقينا ، والبعض منها محرف ، والبعض منها لا يصدق على عيسى عليه السلام الا بالادعاء البحث والتحكم الصرف ، ظهر ان حال الاخبارات الاخر التي نقلها المسيحيون الذين ليسوا ذوي إلهام ووحى يكون أسوأ فلا حاجة الى نقلها

﴿ الخبر الاول ﴾ ماهو المنقول في الباب الاول من إنجيل متى ؟ وقد عرفت في بيان الغلط الحسين في الفصل الثالث من الباب الاول أنه غلط (٢) على أن كون

١ يقال اکتفی بالشئ ولوکنه ضمته معنی اقتصر فعدها بعلى ، والتضمين سماعي عندهم  
٢ - هذا نص الغلط الحسين الذي أشار اليه : في الباب الاول من انجيل متى ( وهذا كله اسكى يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل وهو ذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا ) والمراد بالنبي عند علمائهم اشعيا عليه السلام حيث قال في الاية الرابعة عشر من الباب السابع من كتابه هكذا ( لأجل هذا يمطيمكم الرب عينه علامةها العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعى اسمه عمانوئيل ) وأقول هو غلط لوجوه. الاول ان اللفظ الذي ترجمه الانجيلي و مترجم كتاب اشعيا «العذراء»

مريم عذراء وقت الحبل غير مسلم عند اليهود والمنكرين ، ولا يتم عليهم حجة لانها قبل ولادة عيسى عليه السلام كانت في نكاح يوسف النجار على تصریح الانجيل . واليهود المعاصرون لعيسى عليه السلام يقولون : انه ولد يوسف النجار كما هو مصرح به في الآية ٥٥ من الباب ١٣ من انجيل متى ، والآية ٤٥ من الباب الاول والآية ٤٢ من الباب السادس من انجيل يوحنا ، والى الآن يقولون هكذا ، بل أشنع منه . والعلامة الاخرى المختصة بعيسى عليه السلام غير مذكورة في هذا الخبر

هو عامة مؤنث علم والهاء فيه للتأنيث ومعناه عند علماء اليهود المرأة الشابة سواء كانت عذراء او غير عذراء ويقولون ان هذا اللفظ وقع في الباب الثلاثين من سفر الامثال ومعناه ههنا المرأة الشابة التي زوجت وفسر هذا اللفظ في كلام اشعيا بالمرأة الشابة في التراجم اليونانية الثلاثة اعنى ترجمة ايكوثلا . و ترجمة تيهودوشن . و ترجمة سميكس . وهذه التراجم الثلاثة عندهم قديمة يقولون ان الاولى ترجمت سنة ١٣٩ والثانية سنة ١٧٥ والثالثة سنة ٢٠٠ وكانت معتبرة عند القدماء من المسيحيين سيما ترجمة تيهودوشن فعلى تفسير علماء اليهود والتراجم الثلاثة فساد كلام متى ظاهر الخ

الثاني - ماسمى احد عيسى عليه السلام بممانوئيل لا ابوه ولا امه بل سمياه يسوع وكان الملك قال لابيه في الرؤيا وتدعو اسمه يسوع كما هو مصرح في انجيل متى وكان جبريل قال لاه : ستجلبين وتلدن ابنا وتسمينه يسوع كما هو مصرح في انجيل لوقا . ولم يدع عيسى عليه السلام في حين من الاحيان ان اسمى عمونائيل

الثالث - ان القصة التي وقع فيها هذا القول تأتي ان يكون مصداق هذا القول عيسى عليه السلام لانها هكذا : ان راصين ملك ارام وفاقاح ملك اسرائيل جاء الى اورشليم لمحاربة احاز بن يونان ملك يهوذا فخاف خوفا شديدا من اتفاقهما فأوحى الله الى اشعيا أن يقول لتسليمة احاز : لا تخف فانهما لا يقدران عليك وستزول ساطنتهما . وبين علامة خراب ملكهم بان امرأة شابة تحبل وتلد ابنا وتصير ارض هذين الملكين خرابة قبل ان يمزه هذا الابن الخير عن الشمر . وقد ثبت ان ارض فاقاح قد خربت في مدة احدى وعشرين سنة من هذا الخبر فلا بد ان يتولد «\*» هذا الابن قبل هذه المدة وتخرب قبل نمزه وعيسى عليه السلام تولد بعد سنة ٧٢١ من خرابها . الخ ا هـ ص ١٠٧ من اظهار الحق فكيف تكون بشارة اشعيا منطبقة على المسيح وقصتها ما سمعت

\* يستعمل المؤلف تولدو يتولد بمعنى ولدو يولد . والوجه هنا ان يقال : فلا بد ان يكون هذا الابن قد ولد قبل هذه المدة

﴿ الخبر الثاني ﴾ ما هو المنقول في الآية السادسة من الباب الثاني من انجيل متى ، وهو اشارة الى الآية الثانية من الباب الخامس من كتاب ميخا . ولا تطابق عبارة متى عبارة ميخا ، فاحداها محرفة (٢) وقد عرفت في الشاهد الثالث والعشرين من المقصد الاول من الباب الثاني أن محققهم اخناروا تحريف عبارة ميخا، لكن ادعوا ان هذا لاجل المحافظة على الانجيل فقط (هو) عند الخالف باطل

﴿ الخبر الثالث ﴾ ما هو المنقول في الآية الخامسة عشرة من الباب المذكور من انجيل متى (٣)

﴿ الخبر الرابع ﴾ ما هو المنقول في الآية ١٧ و ١٨ من الباب المذكور (٤ و ٥)

٢- هذانص عبارة متى (٦ : ٢) وانت يا بيت لحم يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لان منك يخرج مدير برعى شعبي اسرائيل . وهذانص نبوة ميخا « ٥ : ٢ اما انت يا بيت لحم افراته وانت صغيرة ان تكوني بين الوف يهوذا فنك يخرج الذي يكون متسلطا على اسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ ايام الازل .

٣- نص متى هكذا ١٥ : ٢ « وكان هناك الى وفاة هيرودس لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصدر دعوت ابني » والمراد بالنبي القائل هو شع عليه السلام و اشار الانجيلي الى ١١ : ١ من كتابه وهو « لما كان اسرائيل غلاما احببته ومن مصر دعوت ابني » هكذا في ترجمة الامير كان الاخير المطبوعة سنة ١٨٧٠ وكان نص الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا كما قال الشيخ رحمة الله : ان اسرائيل منذ كان طفلا انا احببته ومن مصر دعوت اولاده . قال الشيخ رحمة الله في الشاهد ١٥ من شواهد اغلاط هذه الكتب : فهذه الآية في بيان الاحسان الذي فعله الله في عهد موسى عليه السلام بين اسرائيل ، وحرف الانجيلي صيغة الجمع « اولاده » بالمفرد « ابني » وضمير الغائب بالتكلم فقال ما قال ، وحرف لا تبعه مترجم العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ ايضا لكن لا تخفى خيانتة على من طالع هذا الباب لانه وقع في حق المدعويين بهذه الآية كما دعوا ولوا وجوههم وذبحوا البعالم وقر بوا للاصنام . ولا تصدق هذه الامور على عيسى عليه السلام بل لا تصدق على اليهود الذين كانوا معاصريه ولا على الذين كانوا قبل ميلاده الى خمسمائة سنة لان اليهود كانوا بوا من عبادة الاوثان توبة جيدة قبل ميلاده بخمسمائة وستة وثلاثين سنة بعدما اطلقوا من اسر يابل ثم لم يحوموا حولها بعد تلك التوبة كما هو مصرح في التوراة اه ص ١٠٨ ج ١ اظهار الحق

٥٤ - في الباب الثاني من انجيل متى هكذا ١٧ حينئذ تم ما قيل بأرميا النبي القائل ١٨ صوت سمع في الرامة : نوح وبكاء وعويل كثير را حيل تبكي على اولادها ولا تريد

« تفسير القرآن الحكيم » « ٣١ » « الجزء التاسع »

(الخبر الخامس) ما هو المنقول في الآية الثالثة والعشرين من الباب المذكور؟ وهذه لاخبار ثلاثة غلط (٦) كما عرفت في الفصل الثالث من الباب الاول (الخبر السادس) الآية التاسعة من الباب السابع والعشرين من انجيل متى (٧) وقد عرفت في الشاهد التاسع والعشرين من المقصد الثاني من الباب الثاني انه غلط على ان هذا الحبل يوجد في الباب الحادي عشر من كتاب زكريا ولا مناسبة له بالقصة التي نقلها متى لان زكريا عليه السلام بعد ما ذكر اسمي عصوين ورعي قطيع (فانه) يقول هكذا- ترجمة عربية سنة ١٨٤٤-١٢) وقالت لهم ان حسن في أعينكم فهاتوا أجري والا فكنموا. فوزنوا أثلاثين من الفضة (١٣) وقال لي الرب ألقها الى صناع التماثيل ثمنا كريما ثموني به فأخذت الثلاثين من الفضة ان تمعزي لانهم ليسوا بموجودين . وهذا ايضا غلط وتحرى من الانجيلي لان هذا المضمون وقع في الآية الخامسة عشرة من الباب الحادي والثلاثين من كتاب ارميا ومن طالع الآيات التي قبلها وبعدها علم ان هذا المضمون ليس في حادثة هيرود بل في حادثة يختصر التي وقعت في عهد ارميا فتتل فيها الوفاء من بني اسرائيل واسر اوف منهم واجلوا الى بابل ولما كان فيهم كثير من آل راحيل ايضا تألم روحها في عالم البرزخ فوعده الله انه يرجع اولادها من ارض العدو الى تخومهم اه ص ١٠٩ ج ١ منه

٦- الآية ٢٣ من الباب الثاني من انجيل متى هكذا « واني وسكن في مدينة يقال لها ناصرة لكي يتم ما قيل بالانبياء انه سيدعي الناصريا » وهذا ايضا غلط ولا يوجد في كتاب من كتب الانبياء وينكر اليهود هذا الخبر اشدا لانكار وعندهم هذا زور وهتان بل يعتقدون انه لم يقم نبي من الجليل فضلا عن ناصرة كما هو مصرح في الآية ٥٢ من الباب السابع من انجيل يوحنا ولعلماء المسيحية «ههنا» اعتذارات ضعيفة غير قابلة للاعتناء اه ص ١٠٩ و ١١٠ منه

٧- الآية ٩ من الباب ٢٧ من انجيل متى هكذا . وحينئذ كل قول النبي ارميا حيث قال « فقبضوا الدراهم الثلاثين ثمني واثنان الذي ثمنه بنو اسرائيل . ولفظ ارميا غلط من الاغلاط المشهورة في انجيل متى لان هذا لا يوجد في كتاب ارميا ولا يوجد هذا المضمون في كتاب آخر من كتب العهد العتيق ايضا بهذا اللفاظ نعم توجد في الآية ١٣ من الباب ١١ من كتاب زكريا عبارة تناسب هذه العبارة التي نقلها متى لكن بين العبارتين فرق كثير يمنع ان يحكم ان متى نقل عن هذا الكتاب ومع قطع النظر عن هذا الفرق لا علاقة لعبارة كتاب زكريا عليه السلام بهذا الحادثة التي نقلها متى منها . وفي هذا الموضوع اقوال مضطربة لعلماء المسيحيين سلفا وخلفا الح اه ص ١٨٥ منه

وألقبتها في بيت الرب إلى صنّاع النماثيل ( فظاهر كلام زكريا أنه بيان حال لاخبار عن الحادثة الآتية ، وأن يكون آخذ الدراهم من الصالحين مثل زكريا عليه السلام لا من الكافرين مثل يهوذا

( الخبر السابع ) ما نقله مقدسهم بواس في الآية السادسة من الباب الاول من الرسالة العبرانية (٨) وقد عرفت حاله في الفصل الثالث أنه غلط لا يصدق على عيسى عليه السلام

( والخبر الثامن ) الآية الخامسة والثلاثون من الباب الثالث عشر من انجيل متى هكذا ( لكي يتم ما قيل بالنبي القائل سأفتح بأمثال في وأنطق بمكتوبات منذ تأسيس العالم ) وهو اشارة الى الآية الثانية من الزبور الثامن والسبعين ، لكنه ادعاء محض ونحكم بحت ، لان عبارة هذا الزبور هكذا ٢ ( أفتح بالامثال في وأنطق بالذي كان قديما ) ٣ ( كل ماسمعناه وعرفناه وآباؤنا أخبرونا ) ٤ ( ولم يخفوه عن أولادهم الى الجيل الآخر إذ يخبرون بتساويح الرب وقواته وعجائبه التي صنع ) ٥ ( إذ أقام الشهادة في يعقوب ووضع الناموس في اسرائيل كل الذي أوصى آباؤنا ليعرفوا به أبناءهم ) ٦ ( لكي ما يعلم الجيل الآخر بينهم المولودين ) ٧ ( فيقومون أيضا ويخبرون به أبناءهم ) ٨ ( لكي يجعلوا اتكالمهم على الله ، ولا يفسدوا أعمال الله وبتمسوا وصاياه ) ٩ ( لئلا يكونوا مثل آباؤهم الجيل الاعرج المتمرد الذي لم يستقم قلبه ولا آمنت بالله ووجه ) وهذه الآيات صريحة في أن داود عليه السلام يريد نفسه ، والداعبر عن نفسه

بصيغة المتكلم وبروي الحالات التي سمعها من الآباء ليبلغها الى الابناء على حسب عهد الله لتبقى الرواية محفوظة . وبين من الآية العاشرة الى الخامسة والستين حال انعامات الله والمعجزات الموسوية ، وشرارة بني اسرائيل وما لحقهم بسببها ثم قال ٦٦ ( واستيقظ الرب كالنائم مثل الجبار المفيق من الحجر ) ٦٧ ( فضرب أعداءه في الورا ، وجعلهم عاراً الى الدهر ) ٦٨ ( وأبند محملة يوسف

٨ . الآية ٦ من الباب الاول من الرسالة العبرانية هكذا : وأيضاً متى ادخل البكر الى العالم يقول وتسجد له كل ملائكة الله . ولم نعر على عبارة المؤلف في تغليظها



ولم يختر سبط أفرام ٦٩ بل اختار سبط يهوذا الجبل صهيون الذي أحب ٧٠  
 وبني مثل وحيد القرن قدسه وأسس في الأرض الى الابد ٧١ واختار داود  
 عبده وأخذه من مراعي الغنم ٧٢ ومن خلف المرضعات أخذه ليرعى بعقوب  
 عبده وامرائيل ميراثه ٧٣ فرعاهم بدعة قلبه وبفهم يديه أهداهم )

وهذه الآيات الاخيرة أيضا دالة صراحة على أن هذا الزبور في حق داود

عليه السلام فلا علاقة لهذا بعيسى عليه السلام

( الخبر التاسع ) في الباب الرابع من انجيل متى هكذا ١٤ ( لكي يتم  
 ما قيل باشعيا النبي الفائل ١٥ أرض زبولون وأرض نفتاليم طريق البحر  
 عبر الاردن جليل الامم ١٦ الشعب الجالس في ظلمة أبصر نوراً عظيماً .  
 والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور ) وهو اشارة الى الآية  
 الاولى والثانية من الباب التاسع من كتاب أشعيا وعبارته هكذا (١- في الزمان  
 الاول استخفت أرض زبولون وأرض نفتالي ، وفي الآخر تنقلت طريق البحر  
 عبر الاردن جليل الامم ٢ الشعب السالك في الظلمة رأى نوراً عظيماً .  
 الساكنون في بلاد ظلال الموت أشرق عليهم نور ) وفرق ما بين العبارتين  
 فاحدهما محرفة ، ومع قطع النظر عن هذا لادلالة الكلام أشعيا على ظهور شخص  
 بل الظاهر أن أشعيا عليه السلام يخبر ان حال سكان أرض زبولون ونفتالي كان  
 سقيماً في سالف الزمان ثم صار حسناً ، كما تدل عليه صيغ الماضي أعني : استخفت ،  
 وتنقلت ، ورأى ، وأشرق ، وان عداننا عن الظاهر وحملناها على المجاز بمعنى المستقبل  
 وقتلنا إن رؤية النور واشراقه عليهم عبارة عن مرور الصلحاء بأرضهم ، فادعاء  
 ان مصداق هذا الخبر عيسى عليه السلام فقط تحكم صرف ، لان كثيراً من  
 الاولياء والصلحاء مر بتلك الأرض ولا سيما أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأولياء  
 أمته أيضا الذين زالت ظلمة الكفر والتثليث من هذه الديار الديار بسببهم ،  
 وظهر نور التوحيد وتصديق المسيح كما ينبغي . واكتفى خوفاً من التطويل على (؟)  
 هذا القدر . ونقلت الاخبار الاخر أيضا في ( إزالة الأوهام ) وغيره من مؤلفاتي  
 وبينت وجوه ضعفها

( الامر السابع )

ان أهل الكتاب سلفا وخلفا عادتهم جارئة بأنهم يترجمون غالبا الاسماء في ترجمهم ويوردون بدلها معانيها ، وهذا خبط عظيم ومنشأ للفساد ، وانهم يزيدون تارة شيئا بطريق التفسير في الكلام الذي هو كلام الله في زعمهم ولا يشيرون الى الامتياز ، وهذان الامران بمنزلة الامور العادية عندهم . ومن تأمل في تراجمهم المتداولة بالسنة مختلفة وجد شواهد تلك الامور كثيرة ، وأنا أورد أيضا بطريق الاموذج بعضا منها

١ - في الآية الرابعة عشر من الباب السادس عشر من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا (لذلك دعت اسم تلك البيرير الحى الناظرني) فترجموا اسم البير الذي كان في العبراني بالعربي ٢ - وفي الآية الرابعة عشر من الباب الثاني والعشرين من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ (هكذا سمى ابراهيم اسم الموضع مكان يرحم الله زائره) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ (دعا ابراهيم اسم ذلك الموضع الرب يري) فترجم المترجم الاول الاسم العبراني بمكان يرحم الله زائره ، والمترجم الثاني بالرب يري (\*)

٣ - وفي الآية العشرين من الباب الحادي والثلاثين من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا ( فكنتم بعقوب أمره عن حميه ) وفي ترجمة اردو ( الترجمة الاوردية ) المطبوعة سنة ١٨٢٥ لفظ لابان موضع حميه فوضع مترجمو العربية لفظ الحى موضع الاسم

٤- وفي الآية العاشرة من الباب التاسع والاربعين من سفر التكوين في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ ( فلا يزول القضييب من يهوذا والمدبر

وفي ترجمة الاميركانيين الاخيرة رجعوا الى الاصل العبراني « يهوه برأه » بسكون الهاء فيها واثبات الهزة في برأه . ولكن قالوا في تمة الآية « حتى انه يقال اليوم : في جبل الرب يري » وترجمة الجزويت بالعربية في الموضوعين

من فخذة حتى يجيء الذي له الكل و اياه تنتظر الامم ) فقوله ( الذي له الكل )  
 ترجمة لفظ « شيلوه » وهذه الترجمة موافقة للترجمة اليونانية ، وفي الترجمة العربية  
 المطبوعة سنة ١٨١١ ( فلا يزول القضيبي من بهوذا والرسم من تحت أمره الى  
 أن يجيء الذي هو له واليه يجتمع الشعوب ) وهذا المترجم ترجم لفظ شيلوه  
 ( بالذي هو له ) وهذه الترجمة موافقة للترجمة السريانية . وترجم هذا اللفظ  
 محققهم المشهور ايكارك بعاقبته . وفي ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨٢٥ وقع لفظ  
 شيلا ، وفي الترجمة اللاتينية واتكيت ( الذي سيرسل ) فالمترجمون ترجموا  
 لفظ شيلوه بما ظهر وترجح عندهم ، وهذا اللفظ كان بمنزلة الاسم للشخص المبشر به  
 ٥ - وفي الآية الرابعة عشرة من الباب الثالث من سفر الخروج في الترجمة  
 العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ ( فقال الله لموسى : أهيه أشراهيه ) وفي  
 الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ ( قال له الازلي الذي لا يزال ) فافظ أهيه  
 أشراهيه كان بمنزلة اسم الذات ، فترجمه المترجم الثاني بالازلي الذي لا يزال  
 ٦ - وفي الآية الحادية عشرة من الباب الثامن من سفر الخروج في الترجمة  
 العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا ( تبقئ في النهر فقط ) وفي  
 الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا ( تبقئ في النيل فقط )  
 ٧ - وفي الآية الخامسة عشرة من الباب السابع عشر من سفر الخروج في  
 الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٢٥ وسنة ١٨٤٤ هكذا ( فابتئ موسى مذبحا  
 ودعا اسمه الرب عظمتي ) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ ( وبني مذبحا  
 وسماه الله علمي ) وترجمة اردو موافقة لهذه الاخيرة فأقول مع قطع النظر عن  
 الاختلاف ان المترجمين ترجموا الاسم العبراني ( ٥ )

٨ - وفي الآية الثالثة والعشرين من الباب الثلاثين من سفر الخروج في  
 الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ ( من مبيعة فائقة ) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة  
 ١٨١١ ( من المسك الخالص ) وبين المبيعة والمسك فرق ما ففسروا الاسم العبراني

\* الاصل العبراني « يهوه نسي » وهو الذي اعتمد في الترجمة الاميركانية الاخيرة ،  
 ونص ترجمة الجزويت « وبني موسى مذبحا وسماه الرب رايتي » ورايتي بمعنى علمي

بما ترجح عندهم ( هـ )

٩ - وفي الآية الخامسة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء ( اى  
الثنية ) في الترجمتين المذكورتين هناك ( فمات هناك موسى عبد الرب ) وفي الترجمة  
العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هـ كذا ( فمات هناك موسى رسول الله ) فهؤلاء المترجمون  
لو بدلوا في البشارات المحمدية لفظ رسول الله بلفظ آخر فلا استبعاد منهم

﴿ تركنا الشاهدين ١٠ و ١١ للاختصار ﴾

١٢ - وفي الآية الرابعة عشر من الباب الحادي عشر من انجيل متى في  
الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ سنة ١٨٤٤ هـ كذا ( فان اردتم ان تقبلوه  
فهو ايليا المزمع ان ياتي ) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ ( فان اردتم  
ان تقبلوه فهذا هو المزمع بالاتيان ) فالمترجم الاخير بدل لفظ ايليا بهذا . فأمثال  
هؤلاء لو بدلوا اسما من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم في البشارة فلا عجب

١٣ - وفي الآية الاولى من الباب الرابع من انجيل يوحنا في الترجمة العربية  
المطبوعة سنة ١٨١١ سنة ١٨٣١ سنة ١٨٤٤ هـ كذا ( لما علم يسوع ) وفي الترجمة  
العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ سنة ١٨٦٠ ( لما علم الرب ) فبدل المترجم الاخير ان  
لفظ يسوع الذي كان علم عيسى عليه السلام بالرب الذي هو من الالفاظ التعظيمية ،  
فلو بدلوا اسما من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم بالالفاظ التحقيرية لاجل عاداتهم  
وعنادهم فلا عجب ( هـ )

وهذه الشواهد تدل على ترجمة الاسماء وايراد لفظ آخر بدلها

١ - في الباب السابع والعشرين من انجيل متى هكذا ( ونحو الساعة التاسعة  
صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا ابلي ابلي لماذا شبقنتني ؟ أي الهي الهي لماذا تركتني )  
وفي الباب الخامس عشر من انجيل مرقس هكذا ( وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع  
بصوت عظيم قائلا الوى الوى لماذا شبقنتني ، الذي تفسره الهي الهي لماذا تركتني )

\* - وفي ترجمة الجزويت « من أنخر الاطياب من المر القاطر » الخ

\* - بمثل هذا بينما انه لا غرابة في ورد وداسم نبينا « ص » في انجيل برنابا بلفظ محمد

فانه ترجمة لاسم الفارقليط كما سيبيجي .

فلفظ: أي الهي الهي لماذا تركتني ، في انجيل متى ، وكذا لفظ: الذي تفسيره الهي الهي لماذا تركتني في انجيل مرقس ، ليسا من كلام الشخص المصلوب يقينا ، بل الحقا بكلامه ٢ - في الآية السابعة عشرة من الباب الثالث من انجيل مرقس هكذا ( لقبها بيوان رجس أي ابني الرعد ) فلفظ أي ابني الرعد ليس من كلام عيسى عليه السلام ، بل هو الحافي

٣ - في الآية الحادية والاربعين من الباب الخامس من انجيل مرقس هكذا ( وقال لها طايثا قومي ، الذي تفسيره يا صبية لك أقول قومي ) فهذا التفسير الحافي ليس من كلام عيسى عليه السلام

٤ - في الآية الرابعة والثلاثين من الباب السابع من انجيل مرقس في الترجمة المطبوعة سنة ١٨١٦ ( ونظر الى السماء وتأوه وقال : افثا يعني انفتح ) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ ( ونظر الى السماء وتهدو وقال : افثا ، الذي هو انفتح ) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا ( ونظر الى السماء وتهدو وقال له : انفتح الذي هو انفتح ) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا ( ورفع نظره نحو السماء وأن وقال له : افثا أي انفتح ) ومن هذه العبارات وان لم يعلم صحة اللفظ العبراني أهو افثا أو افثا أو انفتح لاجل اختلاف التراجم التي منشأ اختلافها عدم صحة ألفاظ أصولها ، لكنه يعلم يقينا ان لفظ أي انفتح أو الذي هو انفتح الحافي ليس من كلام عيسى عليه السلام وهذه الاقوال المسيحية الاربعة التي نقلتها من الشاهد الاول الى ههنا تدل على ان المسيح عليه السلام كان يتكلم باللسان العبراني الذي كان لسان قومه ، وما كان يتكلم باليوناني ، وهو قريب القياس أيضا لأنه كان عبرانيا ابن عبرانية نشأ في قومه العبرانيين فنقل أقواله في هذه الاناجيل في اليوناني نقل بالمعنى ، وهذا أمر آخر زائد على كون أقواله مروية برواية الآحاد

٥ - في الآية الثامنة والثلاثين من الباب الاول من انجيل يوحنا هكذا ( فقالا له : ربي ، الذي تفسيره يا معلم ) فقوله: الذي تفسيره يا معلم - الحافي ليس من كلامهما ٦ - في الآية الحادية والاربعين من الباب المذكور في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٤٤ ( قد وجدنا ماسيا الذي تأويله المسيح ) وفي الترجمة الفارسية

المطبوعة سنة ١٨١٦ ( ما مسيح را كه ترجمه آن كرسطوس ميباشمد يافتم) وترجمة  
أوردوالمطبوعة سنة ١٨١٤ يوافقى الفارسية فيعلم من الترجمتين العربيتين ان اللفظ الذي  
قاله اندراوس هو مسيا وان المسيح ترجمته، ومن الترجمة الفارسية وارديو (أي الترجمة  
الاوردية) ان لفظ الاصل هو المسيح وكرسطوس ترجمته، ويعلم من ترجمة اردو  
المطبوعة سنة ١٨٣٩ ان لفظ الاصل خرسنه، وان المسيح ترجمته. فلا يعلم من كلامهم  
أي لفظ كان الاصل ؟ أمسيا أم المسيح أم خرسنه ؟ وهذه الالفاظ وان كان  
معناها واحدا لكن لاشك ان الذي قاله اندراوس هو واحد من هذه الثلاثة يقينا ،  
واذا ذكر اللفظ والتفسير فلا بد من ذكر لفظ الاصل أولا، ثم من ذكر تفسيره، لكنني أقطع  
النظر عن هذا وأقول: إن التفسير المشكوك فيه أيا ما كان إلحاقى ليس من كلام اندراوس  
٧ - في الآية الثانية والاربعين من الباب الاول من انجيل يوحنا قول

عيسى عليه السلام في حق بطرس الحواري في الترجمة العربية المطبوعة سنة  
١٨١١ هكذا ( أنت تدعى ببطرس الذي تأويله الصخرة ) وفي الترجمة العربية  
المطبوعة سنة ١٨١٦ ( ستسمى أنت بالصفى المفسر بطرس) وفي الترجمة الفارسية  
المطبوعة سنة ١٨١٦ ( ترا بكيفاس كه ترجمه آن سنك است تداخواهند كرد )  
أمطر الله حجارة على تحقيقهم وتصحيحهم لا يميز المفسر من كلامهم عن المفسر،  
لكنني أقطع النظر عن هذا وأقول: إن التفسير ليس من كلام المسيح عليه السلام،  
بل هو إلحاقى، واذا كان حال تراجعهم وحال تحقيقهم في لقب إلههم ولقب خليفته  
كأعلمت فكيف نرجو منهم صحة بقاء لفظ محمد وأحمد أو لقب من ألقابه صلى الله عليه وسلم  
( ثم قال بعد ايراد شواهد أخرى مانصه ) :

فاذا كانت خصلة أهل الدين والديانة ما عرفت فما ظنك بغير أهل الديانة؟  
بل الحق ان التحريف القصدى بالتبديل بالزيادة والنقصان من خصالهم كلهم  
أجمعين ، فبعض الاخبار التي نقلها العلماء الاسلاف من أهل الاسلام ، مثل  
الامام القرطبي وغيره اذا لم يجدها موافقة في بعض الالفاظ للتراجم المشهورة الآن  
فسببه غالبا هذا التغيير ، لان هؤلاء العلماء من أهل الاسلام نقلوا عن الترجمة  
العربية التي كانت رائجة في عهدهم ، وبعد زمانهم وقع الاصلاح في تلك الترجمة  
« تفسير القرآن الحكيم » « ٣٢ » « الجزء التاسع »

وبحتمل أن يكون ذلك السبب اختلاف التراجم امكن الاول هو المعتمد لاننا نرى ان هذه العادة جارية الى الآن في تراجمهم ورسائلهم، ألا ترى الى ميزان الحق الخ  
( الامر الثامن )

إن بولس وان كان عند أهل التثليث في رتبة الحواريين ولكنه غير مقبول عندنا ولا نعدّه من المؤمنين الصادقين ، بل من المنافقين الكذابين ومعلمي الزور والرسل الخداعين الذين ظهروا بالكثرة بعد عروج المسيح كما عرفت في الامر الرابع. وهو خرب الدين المسيحي ؛ وأباح كل محرم لمعتقديه . وكان في ابتداء الامر مؤذيا للطبقة الاولى من المسيحيين جهرا ولكنه لما رأى هذا الايذاء الجهري لا ينفع نفعا معتداً به دخل على سبيل النفاق في هذه الملة وادعى رسالة المسيح وأظهر الزهد الظاهري ففعل في هذا الحجاب ما فعل وقبله أهل التثليث لأجل زهده الظاهري ولأجل افراغ ذمتهم من جميع التكاليف الشرعية كما قبل أناس كثيرون من المسيحيين في القرن الثاني منتش الذي كان زاهداً مرتاضاً وادعى أبي هو الفار قليط الموعود به فقبلوه لأجل زهده ورياضته كما سبجى ذكره في البشارة الثامنة عشر وردّه المحققون من علماء الاسلام سلفنا وخلفنا

قال الامام القرطبي رحمه الله في كتابه في حق بولس هذا مجيباً لبعض القسيسين في بحث مسألة الصوم هكذا : « قلنا ذلك - أي بولس - هو الذي أفسد عليكم أديانكم، وأعمى بصائرهم وأذهانهم، ذلك هو الذي غير دين المسيح الصحيح، الذي لم تسمعوا له بخبر ، ولا وقفت منه على أثر ، هو الذي صرفكم عن القبلة، وحال لكم كل محرم كان في الملة، واذلك كثرت أحكامه عندهم وتداولتموها بينكم » انتهى كلامه بلفظه .

وقال صاحب ( تخرجيل من حرف الانجيل ) في الباب التاسع من كتابه في بيان فضائح النصارى في حق بولس هذا هكذا « وقد سلمهم بولس هذا من الدين بلطيف خداعه اذ رأى عقولهم قابلة لكل ما يلقي اليهسا وقد طمس هذا الخبيث رسوم التوراة » انتهى كلامه بلفظه وهكذا أقوال علماءنا الآخرين . فكلامه عندنا مردود ورسائله المنضمة بالعهد المتيق كلها واجبة الرد ولا نشترى

قوله بحجة خردل فلا انقل عن اقواله في هذا المسلك شيئاً ولا يكون قوله حجة علينا  
واذ عرفت هذه الامور الثمانية أقول ان الاخبار الواقعة في حق محمد  
صلى الله عليه وسلم توجد كثيرة الى الآن ايضا مع وقوع التحريفات في هذه  
الكتب ومن عرف اولاً طريق اخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر على  
ما عرفت في الامر الثاني ثم نظر ثانياً بنظر الانصاف الى هذه الاخبار وقابلها  
بالاخبار التي نقلها الأنجيليون في حق عيسى عليه السلام - وقد عرفت نبداً  
منها في الامر السادس - جزم بأن الاخبار المحمدية في غاية القوة . وانقل في هذا  
المسلك عن الكتب المعتبرة عند علماء بروتستانت ثمانى عشرة بشارة

### ( البشارة الاولى )

في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء ( التثنية ) هكذا ( ١٧ ) فقال الرب  
لي نعم جميع ما قالوا ١٨ وسوف اقيم لهم نبياً مثلك من بين اخوتهم واجعل  
كلامي في فمهم ويكلمهم بكل شيء . أمره به ١٩ ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به  
باسمي فانا اكون المنتقم من ذلك ٢٠ فاما النبي الذي يجئ بالكبرياء ويتكلم  
في اسمي ما لم أمره بأنه يقوله ام باسم آلهة غيري فليقتل ٢١ فان اجبت وقلت  
في قلبك كيف استطيت ان اميز الكلام الذي لم يتكلم به الرب ٢٢ فهذه تكون  
لك آية ان ما قاله ذلك النبي في اسم الرب ولم يحدث فارب لم يكن تكلم به بل  
ذلك النبي صورته في معظم نفسه ولذلك لا تخشاه )

وهذه البشارة ليست بشارة يوشع عليه السلام كما يزعم الآن احبار اليهود  
ولا بشارة بعيسى عليه السلام كما زعم علماء بروتستانت بل هي بشارة بمحمد صلى  
الله عليه وسلم لعشرة أوجه

( الوجه الاول ) قد عرفت في الامر الثالث أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه  
السلام كانوا ينتظرون نبياً آخر مبشراً به في هذا الباب وكان هذا المبشر به عندهم  
غير المسيح فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى عليهما السلام  
( والوجه الثاني ) انه وقع في هذه البشارة لفظ مثلك ويوشع وعيسى عليهما



السلام لا يصح ان يكونا مثل موسى عليه السلام أما أولا فلأنهما من بني اسرائيل ولا يجوز ان يقوم أحد من بني اسرائيل مثل موسى كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء (الثنية) وهي هكذا ( ١٠ ) ولم يتم بعد ذلك نبي في اسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه الخ وأما ثانيا فلأنه لا مماثلة بين يوشع وبين موسى عليهما السلام لان موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواهي ويوشع ليس كذلك بل هو متبع لشريعته، وكذا لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى عليهما السلام لان عيسى عليه السلام كان إلهاً ورباً على زعم النصارى وموسى عليه السلام كان عبداً له وأن عيسى عليه السلام على زعمهم صار ملعوناً لشفاة الخلق كما صرح به بولس في الباب الثالث من رسالته الى أهل غلاطية وموسى عليه السلام ماضى ملعوناً لشفاة الخلق وأن عيسى عليه السلام دخل الحجيم بعد موته كما هو مصرح به في عقائد أهل التثليث وموسى عليه السلام ما دخل الحجيم وان عيسى عليه السلام صلب على زعم النصارى ليكون كفارة لامته وموسى عليه السلام ماضى كفارة لامته بالصلب وأن شريعة موسى مشتملة على الحدود والتعزيرات وأحكام الغسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات بخلاف شريعة عيسى عليه السلام فانها فارغة عنها على ما يشهد به هذا الانجيل المتداول بينهم وان موسى عليه السلام كان رئيساً مطاعاً في قومه نفاذا لأوامره ونواهي وعيسى عليه السلام لم يكن كذلك ( الوجه الثالث ) انه وقع في هذه البشارة لفظ من بين اخوتهم ولا شك ان الاسباط الاثني عشر كانوا موجودين في ذلك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده فلو كان المقصود أن النبي المبشر به منهم لقال منهم لا من بين اخوتهم لان الاستعمال الحقيقي لهذا اللفظ ان لا يكون المبشر به له علاقة الصلابة والبطنية ببني اسرائيل كما جاء لفظ الاخوة بهذا الاستعمال الحقيقي في وعد الله هاجر في حق اسمعيل عليه السلام في الآية الثانية عشر من الباب السادس عشر من سفر التكوين وعبارتها في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا (وقبله جميع اخوته بنصب المضارب) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هكذا

(بحضرة جميع اخوته يسكن) وجاء هذا الاسم في الاية الثامنة عشرة من الباب الخامس والعشرين من سفر التكوين في حق اسمعيل في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هـ كذا (منتهى اخوته جميعهم سكن) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ هـ كذا (اقام بحضرة جميع اخوته) والمراد بالاخوة ههنا بنو عيسو واسحاق وغيرهم من ابناء ابراهيم عليه السلام. وفي الاية الرابعة عشرة من الباب العشرين من سفر العدد هـ كذا (ثم أرسل موسى رسلا من قادم الى ملك الروم قائلا: هـ كذا يقول أخوك اسراييل انك قد علمت كل البلاء الذي أصابنا) وفي الباب الثاني من سفر (التثنية) هـ كذا (٢) وقال لي الرب ٤ ثم أوص الشعب انكم ستجوزون في تخوم اخوتكم بني عيسو الذين في ساعير وسيخسونكم ٨ فلما جزنا اخوتنا بني عيسو الذين يسكنون ساعير الخ) والمراد باخوة بني اسراييل بنو عيسو، ولا شك ان استعمال لفظ اخوة بني اسراييل في بعض منهم كما جاء في بعض المواضع من التوراة استعمال مجازي ولا تترك الحقيقة ولا يصار الى المجاز ما لم يمنع من الحمل على المعنى الحقيقي مانع قوي ويوشع وعيسى عليهما السلام كانا من بني اسراييل فلا تصدق هذه البشارة عليهما (الوجه الرابع) أنه قد وقع في هذه البشارة لفظ سوف أقيم، ويوشع عليه السلام كان حاضراً عند موسى عليه السلام داخل في بني اسراييل نبيا في ذلك الوقت، فكيف يصدق عليه هذا اللفظ

(الوجه الخامس) أنه وقع في هذه البشارة لفظ: اجعل كلامي في فم، وهو اشارة الى أن ذلك النبي ينزل عليه الكتاب، والى أنه يكون أميا حافظا للكلام، وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام لانتماء كلا الامرين فيه

(الوجه السادس) أنه وقع في هذه البشارة: ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به فأنا أكون المنتقم منه. فهذا الامر لما ذكر لتعظيم هذا النبي المبشر به فلا بد أن يمتاز ذلك المبشر به بهذا الامر عن غيره من الانبياء فلا يجوز أن يراد بالانتقام من المنكر العذاب الاخروي الكائن في جهنم أو المحن والعقوبات الدنيوية التي تلحق المنكرين من الغيب، لان هذا الانتقام لا يخص بانكار

نبي دون نبي بل يعم الجميع ، فحينئذ يراد بالانتقام الانتقام التشريعي . فظاهر منه ان هذا النبي يكون مأموراً من جانب الله بالانتقام من منكره فلا يصدق على عيسى عليه السلام ، لان شريعته خالية عن أحكام الحدود والقصاص والتعزير والجهاد ( الوجه السابع ) في الباب الثالث من كتاب الاعمال في الترجمة العربية

المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا ( ١٩ فتوبوا وارجعوا كي تمحي خطاياكم ٢٠ حتى اذا تأتي أزمنة الراحة من قدام وجه الرب ويرسل المنادي به لكم وهو يسوع المسيح ٢١ الذي إياه ينبغي للسماء أن تقبله الى الزمان الذي يسترد فيه كل شيء تكلم به الله على أفواه أنبيائه القديسين منذ الدهر ٢٢ ان موسى قال : ان الرب إلهكم يقيم لكم نبيا من اخواتكم مثلي له تسمعون في كل ما يكلمكم به ١٣ ويكون كل نفس لا تسمع ذلك النبي تهلك من الشعب ) وفي الترجمة الفارسية . . . . .

( حذفنا النص الفارسي استغناء عنه بما يذكره من مضمونه وهو قوله : )

فهذه العبارة سيما بحسب التراجم الفارسية تدل صراحة على ان هذا النبي غير المسيح عليه السلام ، وان المسيح لا بد أن تقبله السماء الى زمان ظهور هذا النبي ، ومن ترك التعصب الباطل من المسيحيين — ونأمل في عبارة بطرس ظهر له ان هذا القول من بطرس يكفي لابطال ادعاء علماء بروتستانت ان هذه البشارة في حق عيسى عليه السلام

وهذه الوجوه السبعة التي ذكرتها تصدق في حق محمد صلى الله عليه وسلم أكل صدق لانه غير المسيح عليه السلام ، ويماثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة (١) كونه عبداً لله ورسوله (٢) كونه ذا والدين (٣) كونه ذا نكاح وأولاد (٤) كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية (٥) كونه مأموراً بالجهاد (٦) اشتراط الطهارة وقت العبادة في شريعته (٧) وجوب الغسل للجانب والحائض والنفساء في شريعته (٨) اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز فيها (٩) حرمة غير المذبوح وقرايين الاوثان فيها (١٠) كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية (١١) أمره بحمد الزنا (١٢) تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص (١٣) كونه قادراً على تنفيذها (١٤) تحريم الربا (١٥) أمره بانكار من

يدعو الى غير الله (١٦) أمره بالتوحيد الخالص (١٧) أمره الامة بأن يقولوا له عبد الله ورسوله لا ابن الله أو الله ، والعياذ بالله (١٨) موته على الفراش (١٩) كونه مدفونا كمومي (٢٠) عدم كونه مأمونا لاجل أمته

وهكذا أمور أخر تظهر اذا توكل في شربتهما ، ولذلك قال الله تعالى في كلامه المجيد ( إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا ) وكان من اخوة بني اسرائيل لانه من بني اسماعيل وأنزل عليه الكتاب ، وكان أميا جعل كلام الله في فمه وكان ينطق بالوحي كما قال الله تعالى ( وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى ) وكان مأموراً بالجهاد وقد انتقم الله لاجله من صنابير قريش والا كاسرة والقباصرة وغيرهم ، وظهر قبل نزول المسيح من السماء ، وكان للسماء أن تقبل المسيح عليه السلام الى ظهوره ليرد كل شيء الى أصله ، ويمحق الشرك والتثليث وعبادة الاوثان ، ولا يرتاب أحد من كثرة أهل التثليث في هذا الزمان الأخير ، لان هذا الصادق المصدوق قد أخبرنا على أتم تفصيل وأكمل وجه بحيث لا يبقى ريب ما بكثرتهم وقت قرب ظهور المهدي رضي الله عنه ، وهذا الوقت قريب ان شاء الله ، وسيظهر الامام ويظهر الحق عن قريب ويكون للدين كله الله ، جعلنا الله من أنصاره وخدامه آمين

( الوجه الثامن ) انه صرح في هذه البشارة بأن النبي الذي ينسب الى الله مالم يأمره يقتل فلو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم نبيا حقا لكان قتل ، وقد قال الله في القرآن المجيد أيضاً ( ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين \* م لقطعنا منه الوتين ) وما قتل ، بل قال الله في حقه ( والله يعصمك من الناس ) وأوفى وعده ولم يقدر على قتله أحد حتى اتى الرقيق الاعلى صلى الله عليه وسلم ، وعيسى عليه السلام قتل وصاب على زعم أهل الكتاب . فلو كانت هذه البشارة في حقه لزم أن يكون نبيا كاذبا كما يزعمه اليهود ، والعياذ بالله

( الوجه التاسع ) ان الله بين علامة النبي الكاذب ( وهي ) ان اخباره عن الغيب المستقبل لا يخرج صادقا ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أخبر عن الامور الكثيرة

المستقبلة كما علمت في المسالك الاول وظهر صدقه فيها (١) فيكون نبيا صادقا لا كاذبا (الوجه العاشر) ان علماء اليهود سلموا كونه مبشرا به في التوراة لكن بعضهم أسلم وبعضهم بقي في الكفر - كما أن قياقا وكان رئيس الكهنة ونبيا على زعم يوحنا عرف أن عيسى هو المسيح الموعود به ولم يؤمن بل أنفى بكفره وقتله كما صرح به يوحنا في الباب الحادي عشر والثامن عشر من انجيله - كاروي من حديث مخبر بق أنه كان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته وغابت عليه الفة دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم (غزوة) أحد ، وكان يوم السبت فقال : يا معشر اليهود والله انكم لتعلمون ان نصر محمد عليكم لحق. قالوا : فان اليوم يوم السبت؟ قال : لا سبت. ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأحد ، وكان يوم السبت ، وعهد الى من ورائه من قومه: ان قتلت هذا اليوم فمالي لمحمد يصنع فيه ما أراه الله تعالى، فقاتل حتى قتل ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مخبر بق خير يهودي » وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله ، فعامة صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منها - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدارس (١) فقال « أخرجوا إلي أعلمكم » فقالوا: عبد الله ابن صوريا فخلا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فنأشده بدينه وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم من المن والسلوى وظلهم من الغمام « أنعم أي رسول الله » ؟ قال : اللهم نعم ، وان اليهود يعرفون ما أعرف ، وان صفتك وامتك لمبين في التوراة ولكن حسدوك قال « فما بمنك أنت » ؟ قال : أكره خلاف قومي عسى أن

« ١ » ظهر صدق بعضها في زمنه كانه صار على المشركين ودخوله المسجد الحرام مع المؤمنين ، آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين وغاب الروم للفرس ، وبعضها لا صحابه كفتح مصر وبلاد كسرى وقبصر ، وقتل الفئة الباغية لعمار ، ولا يزال يظهر الكثير منها عصرا بعد عصر ومن أغربها قوله « ص » « صنفان من اهل النار لم أرهما بعد : رجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، رؤسهن كأسنة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ربهن » الحديث رواه احمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعا . والسياط المذكرة هي الكرايبج والرءوس التي كأسنة البخت هي التي يوضع عليها البرانيط وأشباهها (١) المدارس المدارس أي المعلم

يتبعوك ويسلموا فأسلم — وعن صفية بنت حيي رضي الله عنها: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل قباء غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر ابن أخطب مغلسين فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس ، فأتيا كالمين كسلانين ساقطين يمشان الهويئاء فمششت إليهما فما التفت إلي أحد منهما مع ما بهما من الهم فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي : أهو هو ؟ ( أي المبشر به في التوراة ) قال : نعم والله ، قال : أثبتته ونعرفه ؟ قال : نعم قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت أبداً . — فلك عشرة كاملة

( فان قيل ) ان أخوة بني اسرائيل لا تنحصر في بني اسماعيل لان بني عيسو وبني أبناء قطورا زوجة ابراهيم عليهما السلام من اخوتهم أيضا ( قات ) نعم هؤلاء أيضا من اخوة بني اسرائيل لكنهم لم يظهر أحد منهم يكون موصوفا بالامور المذكورة ، ولم يكن وعد الله في حقهم أيضا بخلاف بني اسماعيل فانهم كان وعد الله في حقهم لابراهيم ولهاجر عليهما السلام مع أنه لا يصح أن يكون مصداق هذا الخبر بني عيسو على ما هو مقتضى دعاء اسحق عليه السلام المصروح به في الباب السابع والعشرين من سفر التكوين .

ولعلماء بروتستنت اعتراضان بقلم صاحب الميزان في كتابه المسمى بحل الاشكال في جواب الاستفسار ( الاول ) انه وقع في الآية ١٥ من الباب ١٨ من سفر الاستثناء ( التثنية ) هكذا ( فان الرب الهك يقيم من بينك من بين اخوتك ) الخ ، فلفظ من بينك يدل دلالة ظاهرة على أن هذا النبي يكون من بني اسرائيل لا من بني اسماعيل ( والثاني ) ان عيسى عليه السلام نسب هذه البشارة الى نفسه فقال في الآية ٤٦ من الباب الخامس من انجيل يوحنا : ان موسى كتب في حقي ( أقول ) آية ( التثنية ) على وفق التراجم الفارسية وتراجم اردو هكذا ( فان الرب الهك يقيم من بينك من بين اخوتك نبيا مثلي فاسمع منه ) والتيسر أيضا نقلها هكذا . والجواب ان اللفظ المذكور لا ينافي مقصودنا لان محمداً عليه السلام لما هاجر الى المدينة وبها تكامل أمره قد كان حوله بلاد اليهود كخيبر وبني قينقاع والنضير وغيرهم فقد قام من بينهم ، ولانه اذا كان من اخوتهم فقد قام من بينهم ، ولان قوله « تفسير القرآن الحكيم » « ٣٣٥ » « الجزء التاسع »

من بين اخوتك بدل من قوله من بينك بدل احتمال على رأي ابن الحاجب ومتبنيه القائلين بكفاية علاقة الملابس غير الكلية والجزئية في تحقق هذا البدل نحو جاءني زيد اخوه ، وجاءني زيد غلامه ، وبدل اضراب على رأي ابن مالك ، والمبدل منه على كلا التقديرين غير مقصود ، وبدل على كونه غير مقصود ان موسى عليه السلام لما أعاد هذا الوعد من كلام الله في الآية الثامنة عشرة لم يوجد فيه لفظ من بينك ، ونقل بطرس الحواري أيضا هذا القول ولم يوجد فيه هذا اللفظ كما علمت في الوجه السابع ، وكذا نقله استفانوس أيضا ولم يوجد في نقله أيضا هذا اللفظ كما صرح به في الباب السابع من كتاب الاعمال وعبارته هكذا ( هذا هو موسى الذي قال لبني اسرائيل نبيا مثلي سيقم لكم الرب إلهكم من اخوتكم له تسعون ) فسقطه في هذه المواضع دليل على كونه غير مقصود فاحتمال البدل قوي جدا ،

وقال صاحب الاستفسار: إن لفظ من بينك إلحاقى زيد تحريفا وبدل عليه ثلاثة أمور (الاول) ان المخاطبين في هذا الموضوع كانوا بني اسرائيل كلهم لا البعض فقوله : من بينك خطاب لجميع القوم فصار لفظ من اخوتك لغوا محضاً لا معنى له ، لكن لفظ من اخوتك جاء في الموضوع الآخر أيضا فيكون صحيحاً ، ولفظ من بينك إلحاقيا زيد تحريفاً ( الثاني ) ان موسى عليه السلام لما نقل كلام الله لاثبات قوله لم يوجد فيه هذا اللفظ ولا يجوز أن يكون ما نقل موسى مخالفا لما قاله الله ( والثالث ) ان الحواريين كما نقلوا هذا الكلام لم يوجد فيه لفظ من بينك . وان قلتم ان المحرف اذا حرف فلم لم يحرف الكلام كله ؟ ( قلت ) نحن نرى في محاكم العدالة دائما ان القبالات المحرفة يثبت تحريف الالفاظ المحرفة فيها من مواضع أخرى منها غالباً (١) وان شهود الزور يؤخذ ببعض بياناتهم . فالوجه الوجيه على ازعادة الله جارية بأنه لا يهدي كيد الخائنين وبأنه يظهر خيانة خائن الدين بمقتضى رحمته ، فبمقتضى هذه العادة يصدر عن الخائن شيء ما يظهر به خيانته ، على أنه لا توجد ملة يكون أهلها كلهم خائنين . فالخائنون الذين حرفوا كتب العهدين كان لهم لحاظ ما (٢) من جانب بعض المتدينين فلذلك ما بدلوا الكل انتهى

«١» لعل معنى القبالات الوثائق والمستندات ومعنى الجملة أنها على وجود التحريف فيها يمتنع ببعض عباراتها على اثبات التحريف فيها « وكذا على غيره »  
«٢» لعله اراد ان يقول : كان عليهم عيون ورقباء

أقول هذا الجواب بالنسبة الى عادة أهل الكتاب كما عرفت في الامر السابع . وأقول في الجواب عن الاعتراض الثاني ان آية الانجيل هكذا ( لانكم لو كنتم تصدقون موسى ان كنتم تصدقونني لانه هو كتب عني ) وليس فيها تصريح بأن موسى عليه السلام كتب في حقه في الموضع الفلاني بل المفهوم منه ان موسى كتب في حقه ( مطلقا ) وهذا يصدق اذا وجد في موضع من التوراة إشارة اليه ، ونحن نسلم هذا الامر كما ستعرف في ذيل بيان البشارة الثالثة لكننا ننكر أن يكون قوله إشارة الى هذه البشارة لوجوه التي عرفتها ، وقد ادعى هذا المعترض في الفصل الثالث من الباب الثاني من الميزان ان الآية الخامسة عشرة من الباب الثالث من سفر التكوين إشارة اليه ، فهذا القدر يكفي لتصحيح قول عيسى عليه السلام ، نعم لو قال عيسى عليه السلام ان موسى عليه السلام ما أشار في أسفاره الخمسة الى نبي من الانبياء الا الي ابي ابي كان لهذا التوهم مجال في هذه الحال

### ( البشارة الثانية )

الآية ٢١ من الباب ٣٢ من سفر الاستثناء ( التثنية ) هكذا ( هم أغاروني بغير إله وأغضبوني بعبوداتهم الباطلة وأنا أيضا أغيرهم بغير شعب وبشعب جاهل أغضبهم ) والمراد بشعب جاهل العرب لانهم كانوا في غاية الجهل والضلال وما كان عندهم علم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية ، وما كانوا يعرفون سوى عبادة الاوثان والاصنام ، وكانوا محقرين عند اليهود لكونهم من هاجر الجارية . فمقصود الآية ان بني اسرائيل أغاروني بعبادة المعبودات الباطلة فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرين وجاهلون . فأوفى بما وعد ، فبعث من العرب النبي صلى الله عليه وسلم فهدهم الى الصراط المستقيم كما قال الله تعالى في سورة الجمعة ( هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل اني ضلال مبين ) وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين كما يفهم من ظاهر كلام مقدسهم بواس في الباب العاشر من الرسالة الرومية لان اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثمانمائة سنة كانوا فائزين على أهل العالم كلهم في العلوم والفنون ، وكان منهم جميع



الحكام المشهورين مثل سقراط وبقراط وفيدثاغورس وأفلاطون وأرسطاطاليس وارشמידس وبليناس وأقليدس وجالينوس وغيرهم الذين كانوا أئمة الالهيات والرياضيات والطبيعات وفروعها قبل عيسى عليه السلام ، وكان اليونانيون في عهده على غاية درجة الكمال في فنونهم ، وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها ، وعلى سائر كتب العهد المتيق أيضاً بواسطة ترجمة سبتوجنت التي ظهرت باللسان اليوناني قبل المسيح بمقدار مائتين وست وثمانين سنة ، لكنهم ما كانوا معتقدين الملة الموسوية ، وكانوا منفحصين عن الأشياء الحكمية الجديدة كما قال مقدسهم هذا في الباب الاول من الرسالة الاولى الى أهل قورنثوس هكذا ( ٢٢ ) لان اليهود يسألون آية واليونانيين يطلبون حكمة ٢٣ واكتننا نحن نركز بالمسيح مصلو باليهود عنرة ولليونانيين جهالة) فلا يجوز أن يكون المراد بالشعب الجاهل اليونانيين ، فكلام مقدسهم في الرسالة الرومية إما مؤول أو مردود — وقد عرفت في الامر الثامن ان قوله ساقط عن الاعتبار عندنا

### ( البشارة الثالثة )

في الباب الثالث والثلاثين ( ٥ من سفر (الثنية) في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م كذا ( ٢ ) وقال جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير (١) واستعان من جبل فاران ومعه ألوف الاطهار في يمينه سنة من نار (٢) فمجيئته من سيناء اعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام واشراقه من ساعير اعطاؤه الانجيل لعيسى عليه السلام واستعلانه من جبل فاران انزاله القرآن ، لان فاران جبل من جبال مكة ، فقد جاء في بيان حال اسماعيل عليه السلام من سفر التكوين ( ٢١ : ٢٠ ) وكان الله معه ونما وسكن في البرية وصار شابا يرعى بالسهم ٢١ وسكن بريبة فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر ) ولا شك ان اسماعيل عليه السلام

(\* هذا الباب هو الاخير من سفر التنية وفي الآية الاولى منه ان هذه البشارة قالها موسى قبل موته مباركا بها بنى اسرائيل «١» في التراجم الاخير سعي بالكسر والمراد بها واحد وفيها زيادة وآتي من «٢» المراد بالسنة الشريعة . وترجمة الجزويت «عن يمينه قبسي شريعة لهم» ربوات القدس وليس فيها الوفاء الاطهار

كانت سكناء بمكة ، ولا يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضا ، فانتشرت في هذه المواضع ، لأن الله لو خلق نارا في موضع لا يقال جاء الله من ذلك الموضع الا اذا اتبع تلك الواقعة وحي نزل في ذلك الموضع أو عقوبة أو ما أشبه ذلك . وقد اعترفوا بأن الوحي اتبع تلك ( النار التي رآها موسى ) في طور سيناء فكذا لا بد أن يكون في ساعير وفاران

### ( البشارة الرابعة )

في الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين وعد الله في حق اسماعيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا ( وعلى اسماعيل أستجيب لك ، هوذا أباركه وأكبره وأكثره جدا فسلبد اثني عشر رئيسا واجعله لشعب كبير ) قوله اجعله لشعب كبير يشير الى محمد صلى الله عليه وسلم لانهم يكن في ولد اسماعيل من كان لشعب كبير غيره . وقد قال الله تعالى حاكيا دعاء إبراهيم واسماعيل في حقهم عليهم السلام في كلامه المجيد أيضا ( ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم )

وقال الامام القرطبي في الفصل الاول من القسم الثاني من كتابه : وقد نطقن بعض النبهاء ممن نشأ على لسان اليهود وقرأ بعض كتبهم فقال : يخرج مما ذكر من عبارة التوراة في موضعين اسم محمد صلى الله عليه وسلم بالعدد على ما يستعمله اليهود فيما بينهم ( الاول ) قوله جدا جدا بتلك اللفظة «بامداد» وعدد هذه الحروف اثنتان وتسعون ، لأن الباء اثنتان والميم أربعون والالف واحد والدال أربعة والميم الثانية أربعون والالف واحد والدال أربعة ، وكذلك الميم من محمد أربعون والحاء ثمانية والميم أربعون والدال أربعة (١)

(والثاني) قوله لشعب كبير بتلك اللفظة «اعوي غدول» فاللام عندهم ثلاثون والعين ثلاثة - لأنه عندهم في مقام الجيم ، إذ ليس في لغتهم جيم ولا صاد - والواو «١» يؤيد هذا ما روينا عن اخبار اليهود الجاورين للمدينة في زمن البعثة من ظنهم أن الحروف المقطعة في أوائل بعض السور لبيان أجل الأمة الإسلامية

سنة والياء عشرة والغين أيضا ثلاثة والدال أربعة والواو ستة واللام ثلاثون فجموع هذه أيضا اثنان وتسمون ، انتهى كلامه بتلخيص ما

وعبد السلام كان من أخصاب اليهود ثم أسلم في عهد السلطان المرحوم بايزيد خان ، وصنف رسالة صغيرة سماها بالرسالة الهادية فقال فيها « ان أكثر أداة أخصاب اليهود بحرف الجمل الكبير ، وهو حرف أبجد ، فان أخصاب اليهود حين بنى سليمان النبي عليه السلام بيت المقدس اجتمعوا وقالوا : يبقى هذا البناء أربعائة وعشرة سنين ، ثم يعرض له الخراب ، لانهم حسبوا لفظة « بزأت » ثم قال : « واعترضوا على هذا الدليل بأن الباء في بمادما ليست نفس الكلمة بل هي أداة وحرف جيء به للصلة فلو أخرج منه لاحتاج اسم محمد الى باء ثانية ويقال : بمادما ( قلنا ) من المشهور عندنا اذا اجتمع الباءن ( إحداهما ) أداة ( والآخر ) من نفس الكلمة تحذف الاداة وتبقى التي هي من نفس الكلمة ، وهذا شائع عندهم في مواضع غير معدودة فلا حاجة الى إيرادها » انتهى كلامه بلفظه أقول : قد صرح العلماء بأن من أممائه صلى الله عليه وسلم مادما كما في شفاء القاضي عياض

( البشارة الخامسة )

جاء في ترجمات سنة ١٧٢٢ سنة ١٨٣١ سنة ١٨٤٤ العبرية من سفر التكوين ( ٤٩ : ١٠ ) فلا يزول القضيبي من يهوذا والمدير من فخذة حتى يجيء الذي له الشكل واياه تنتظر الامم ) وفي ترجمة سنة ١٨١١ ( فلا يزول القضيبي من يهوذا والراسم من تحت أمره الى أن يجيء الذي هو له واليه تجتمع الشعوب ) والفظ الذي له الشكل أو الذي هو له ترجمة لفظ « شيلوه » وفي ترجمة هذا اللفظ اختلاف كثير فيما بينهم كما عرفت في الامر السابع أيضا . وقال عبد السلام في الرسالة الهادية هكذا ( لا يزول الحاكم من يهوذا والراسم من بين رجليه حتى يجيء الذي له واليه تجتمع الشعوب ) وفي هذه الآية دلالة على مجيء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد تمام حكم موسى وعيسى ، لان المراد من الحاكم هو موسى ، لانه بعد يعقوب ماجاء صاحب شريعة الى زمان موسى الا موسى ، والمراد من الراسم هو عيسى لانه بعد موسى الى زمان عيسى ماجاء صاحب شريعة الا عيسى ، وبعدهما ماجاء صاحب شريعة

الإمام محمد . فعلم ان المراد من قول يعقوب في آخر الايام هو نبينا محمد عليه السلام  
لانه في آخر الزمان بعد مضي حكم الحاكم والرابع ما جاء الا سيدنا محمد عليه السلام  
ويدل عليه أيضا قوله حتى يجيء الذي له أي الحكم بدلالة مساق الآية وسبقها  
وأما قوله ( واليه تجتمع الشعوب ) فهي علامة صريحة ودلالة واضحة على ان المراد  
منها هو سيدنا (محمد) لانه ما اجتمع الشعوب الا اليه ، وأما لم يذكر الزبور لانه  
لا أحكام فيه ، وداود النبي تابع لموسى ، والمراد من خبر يعقوب هو صاحب  
الاحكام ، انتهى كلامه بلفظه

أقول : إنما أراد من الحاكم موسى عليه السلام لان شريعته جبرية انتقامية ،  
ومن الرابع عيسى عليه السلام لان شريعته ليست بجبرية ولا انتقامية . وان  
أريد من القضاة السلطنة الدنيوية ، ومن المدبر الحاكم الدنيوي - كما يفهم من  
رسائل القسيسين من فرقة بروتستنت ومن بعض تراجمهم - فلا يصح أن يراد  
بشيلوه مسيح اليهود كما هو مزعومهم ، ولا عيسى عليه السلام كما هو مزعوم  
النصارى ( أما الاول ) فظاهر لان السلطنة الدنيوية والحاكم الدنيوي زالا من  
آل يهوذا من مدة هي أزيد من أني سنة من عهد بخت نصر ، ولم يسمع الى  
الآن حسيس مسيح اليهود ( وأما الثاني ) فلائهما زالا من آل يهوذا أيضا قبل ظهور  
عيسى عليه السلام بمقدار ستائة سنة من عهد بخت نصر ، وهو أجلي بني يهوذا  
الى بابل ، وكانوا في الجلاء ثلاثا وستين سنة لا سبعين كما يقول بعض علماء  
بروتستنت تغليطا للعوام - كما عرفت في الفصل الثالث من الباب الاول - ثم  
وقع عليهم في عهد انتيوكس ما وقع فانه عزل أونياس حبر اليهود وباع منصبه لآخيه  
ياسون بثمائة وستين وزنة ذهب يقدمها له خراجا كل سنة ، ثم عزله وباع ذلك  
لآخيه مينالاوس بستائة وستين وزنة ، ثم شاع خبر موته فطلب ياسون أن يسترد  
لنفسه الكهنوت ، ودخل أورشليم بألوف من الجنود فقتل كل من كان يظنه  
عدوا له - وهذا الخبر كان كاذبا - فهجم أنتيوكس على أورشليم وامتلكتها  
ثانية في سنة ١٧٠ قبل ميلاد المسيح وقتل من أهلها أربعين ألفا ، وباع مثل ذلك  
عبيدا . وفي الفصل العشرين من الجزء الثاني من مرشد الطالبين في بيان

الجدول التاريخي في الصفحة ٤٨١ من النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٢ من الميلاد (انه نهب اورشليم وقتل ثمانين ألفاً) انتهى . وسلب ما كان في الهيكل من الامتعة النفيسة التي كانت قيمتها ثمانمائة وزنة ذهب ، وقرب خنزيرة وقوداً على المذبح للاهانة ، ثم رجع الى انطاكية وأقام فيلبس أحد الاراذل حاكماً على اليهودية — وفي رحلته الرابعة الى مصر أرسل أبولونيوس بعشرين ألفاً من جنوده وأمرهم أن يخربوا اورشليم ويقتلوا كل من فيها من الرجال ويسبوا النساء والصبيان فانطلقوا الى هناك ، وبينما كان الناس في المدينة مجتمعين للصلاة يوم السبت هجموا عليهم على غفلة ، فقتلوا الكل الا من أفلت الى الجبال أو اختفى في المغاور ونهبوا أموال المدينة وأحرقوها ، وهدموا أسوارها وخربوا منازلها ، ثم ابتنوا لهم من بسائط ذلك المدم قامنة حصينة على جبل اكرا ، وكانت العساكر تشرف منها على جميع نواحي الهيكل ، ومن دنا منهم يقتلونه ، ثم أرسل انتيوكس اثنايوس ليعلم اليهود طقوس عبادة الاصنام اليونانية ، ويقتل كل من لا يمثل ذلك الامر ، فجاء اثنايوس الى اورشليم ، وساعده على ذلك بعض اليهود الكافرين ، وأبطل الذبيحة اليومية ، ونسخ كل طاعة المدين اليهودي عموماً وخصوصاً ، وأحرق كل ما وجد من نسخ كتب العهد العتيق بالفحص التام ، وكرس الهيكل المشتري ، ونصب صورة ذلك على مذبح اليهود ، وأهلك كل من وجد مخالف أمر أنتيوكس ، ونجا مئائتين الكاهن مع أبنائه الخمسة في هذه الداهية وفرروا الى وطنهم مودين في سبط دان ، فانتقم من هؤلاء الكفار انتقاماً ما قدروا عليه على استنطاقه كما هو مصرح به في التواريخ ، فكيف يصدق هذا الخبر على عيسى عليه السلام ؟

وان قالوا ان المراد بيفاء السلطنة والحكومة امتياز القوم كما يقول بعضهم الآن ( قلنا ) هذا الامر كان باقياً الى ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانوا في أقطار العرب ذوي حمون وأملاك غير مطيعين لاحد ، مثل يهود خيبر وغيرهم كما تشهد به التواريخ ، وبعد ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ضربت عليهم القلة المسكنة ، وصاروا في كل اقليم مطيعين للغير — فالليق أن يكون المراد بشيلوه النبي صلى الله عليه وسلم لامسيح اليهود ولا عيسى عليه السلام

## ( البشارة السادسة )

الزبور الخامس والاربعون هكذا (١) — فاض قلمي كلمة صالحة أنا أقول أعمالى  
 الملك ٢ لساني قلم كاتب سريع الكتابة ٣ بهي في الحسن أفضل من بني البشر  
 ٤ انسكت النعمة على شفيعك لذلك باركك الله الى الدهر ٤ تقلد سيفك  
 على فخذك أيها القوي بحسنك وجمالك ٥ استله وانجح واملك من أجل الحق  
 والدة والصدق وتهديك بالعجب يمينك ٦ نبلك مسنونة أيها القوي في قلب  
 أعداء الملك، الشعوب تحتك يستقون ٧ كرسيتك يا الله الى دهر الدهرين، عصا  
 الاستقامة عصا ملكك ٨ أحببت البر وأبغضت الاثم لذلك مسحك الله إلهك  
 بدهن الفرح أفضل من أصحابك ٩ المر والميعة والسايخة من ثيابك، من منازلك  
 الشريفة العاج التي أهبجتك ١٠ بنات الملوك في كرامتك ، قامت الملائكة من عن  
 يمينك مشتملة بثوب مذهب موسى ١١ اسمي يا بنت وانظري وأنصتي  
 بأذنيك وانسي شعبك وبنات أبيك ١٢ فيشتهي الملك حسنك لأنه هو الرب  
 إلهك وله تسجدين ١٣ بنات صور يأتينك بالهدايا ، لوجهك يصلي كل أغنياء  
 الشعب ١٤ كل مجد ابنة الملك من داخل مشتملة بلباس الذهب الموشى ١٥  
 يبلغن الى الملك عذارى في أثرها قريباتها اليك يقدمن ١٦ يبلغن بفرح  
 وابتهاج يدخلن الى هيكل الملك ١٧ ويكون بنوك عوضا من آباءك وتقيمهم  
 رؤساء على سائر الارض ١٨ سأذكر اسمك في كل جبل وجبل من أجل ذلك  
 تعترف لك الشعوب الى الدهر والى دهر الدهرين )

من المسلم عند أهل الكتاب أن داود عليه السلام يبشر في هذا  
 الزبور بنبي يكون ظهوره بعد زمانه ، ولم يظهر الى هذا الحين عند اليهود نبي يكون  
 موصوفا بالصفات المذكورة في هذا الزبور ، ويدعي علماء بروستنت أن هذا النبي  
 عيسى عليه السلام ، ويدعي أهل الاسلام سلفاً وخلفاً أن هذا النبي محمد صلى  
 الله عليه وسلم

فأقول : انه ذكر في هذا الزبور من صفات النبي المبشر به هذه الصفات :  
 « تفسير القرآن الحكيم » (٣٤) « الجزء التاسع »

١- كونه حسناً ٢ كونه أفضل البشر ٣ كون البعثة منسكبة على شفثيه ٤ كونه مباركا الى (آخر) الدهر ٥ كونه منقلد أبا السيف ٦ كونه قويا ٧ كونه ذا حق ودعة وصدق ٨ كون هداية يمينه بالمعجب ٩ كون نبله مسنونة ١٠ سقوط الشعب تحته ١١ كونه محبا للبر ومبغضاً للآثم ١٢ خدمة بنات الملوك إياه ١٣ إتيان الهدايا اليه ١٤ انقياد كل أغنياء الشعب له ١٥ كون أبنائه رؤساء الارض بدل آبائهم ١٦ كون اسمه المذكوراً جيلاً بعد جيل ١٧ مدح الشعوب إياه الى دهر الدهارين

وهذه الاوصاف كلها توجد في محمد صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه  
أما الاول فلأن أبا هريرة رضي الله عنه قال : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كأن الشمس تجري في وجهه ، واذا ضحك يتلألأ في الجدار — وعن أم معبد رضي الله عنها قالت : في بعض ما وصفته به : أجمل الناس من بعيد ، وأحلام وأحسنهم من قريب  
وأما الثاني فلأن الله تعالى قال في كلامه المحكم ( تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ) الآية . وقال أهل التفسير : أراد بقوله ( ورفع بعضهم درجات ) محمداً صلى الله عليه وسلم أي رفاه على سائر الانبياء من وجوه متعددة ، وقد أشبع الكلام في تفسير هذه الآية الامام الهمام الفخر الرازي في تفسيره الكبير ، وقال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » أي لا أقول ذلك فخراً لنفسي بل تجديتاً بنعمة ربي

وأما الثالث فقير محتاج الى البيان حتى أقر بفصاحته الموافق والمخالف وقال الرواة في وصف كلامه : أنه كان أصدق الناس لهجة ، فكان من الفصاحة بالمحل الافضل والموضع الاكمل

وأما الرابع فلأن الله قال ( إن الله وملائكته يصلون على النبي ) وألوف ألوف من الناس يصلون عليه في الصلوات الخمس ( وغيرها )

وأما الخامس فظاهر ، وقد قل هو بنفسه « أنا رسول الله بالسيف »

وأما السادس : فكانت قوته الجسمانية على السكال كما ثبت ان ركاة خلا برسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض شباب مكة قبل أن يسلم فقال « ياركاة

ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك اليه ؟ فقال : لو أعلم والله ما تقول حقاً لا تبعثك فقال « رأيت إن صرعتك أنعلم أن ما أقول حق » قال : نعم ، فلما بطش به صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أضجعه لا يملك من أمره شيئاً ، ثم قال : يا محمد عد فصرعه أيضاً فقال : يا محمد إن ذا لعجب ! فقال صلى الله عليه وسلم « وأعجب من ذلك إن شئت اريكه إن اتقيت الله وتبعته أمرني » قال : ما هو ؟ قال « أدعوك لك هذه الشجرة » فدعاها فأقبلت حتى وقفت بين يديه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال لها « ارجعي مكانيك » فرجع ركاة الى قومه فقال : يا بني عبد مناف ما رأيت أسحر منه ثم أخبرهم بما رأى . وركاة هذا كان من الاقوياء والمصارعين المشهورين (١)

وأما شجاعته فقد قال ابن عمر رضي الله عنهما : ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال علي كرم الله وجهه : وانا كنا اذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منه . واقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأماً

وأما السابع : فلان الامانة والصدق من الصفات الجليلة له صلى الله عليه وسلم كما قال النضر بن الحارث لقريش : قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قاتم انه ساحر ، لا والله ما هو بساحر — وسأل هرقل عن حال النبي صلى الله عليه وسلم أبا سفيان فقال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا

وأما الثامن : فلانه رمى يوم بدر ، وكذا يوم حنين وجوه الكفار بقبضة

(١) قال الحافظ في الاصابة قال ابن حبان في اسناد خيره وفي المصارعة نظر : يشير الى الحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي من رواية أبي الحسن العسقلاني عن جعفر بن محمد بن ركاة عن أبيه ... الحديث قال الترمذي غريب وليس اسناده بقائماً أقول ورواه البيهقي من طريق ابن اسحق عن أبيه وعن ركاة وأخرجه هرو وأبو نعيم عن أبي امامة مطولاً وفيه زيادة مجيء الشجرة ، وان ركاة لم يكن بصرعه احد



تراب فلم يبق مشرك الا شغل بعينه ، فانهزموا وتمكن المسلمون منهم قتلا وأمرأ  
فأمثال هذه من عجيب هداية بعينه

وأما التاسع : فلان كون اولاد إسماعيل أصحاب النبل في سالف الزمان ،  
غير محتاج الى البيان ، وكان هذا الامر مرغوباً له ، وكان يقول « ستفتح عليكم  
الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلمو بأسمه » ويقول « ارموا بني اسماعيل  
فان أبائكم كان رامياً » ويقول عليه السلام « من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا »  
وأما العاشر : فلان الناس دخلوا أفواجا أفواجا في دين الله في مدة حياته  
وأما الحادي عشر : فمشهور يعترف به المعاندون أيضاً كما عرفت في المسلك الثاني  
وأما الثاني عشر : فقد صارت بنات الملوك والامراء خادمة للمسلمين في  
الطبقة الاولى ، ومنها شهر بانو بنت يزدجرد كسرى فارس كانت تحت الامام  
الهمام الحسين رضي الله عنه

وأما الثالث عشر والرابع عشر : فلان النجاشي ملك الحبشة ومنذر بن  
ساوى ملك البحرين وملك عمان انقادوا وأسلموا ، وهرقل قيصر الروم أرسل  
اليه بهدية ، والمقوقس ملك القبط أرسل اليه ثلاث جوار وغلاماً أسود وبغلة  
شبهاء وحماراً أشهب وفرساً وثياباً وغيرها

وأما الخامس عشر : فقد وصل من أبناء الامام الحسن رضي الله عنه الى  
الخلافة وألوف في أقاليم مختلفة من الحجاز واليمن ومصر والمغرب والشام وقارس  
والهند وغيرها ، وفازوا بالسلطنة والامارة العالية ، والى الآن أيضاً في ديار الحجاز  
واليمن وفي غيرها توجد الامراء والحكام من نسله صلى الله عليه وسلم ،  
وسيقدر ان شاء الله المهدي رضي الله عنه من نسله ، ويكون خليفة الله في الارض  
ويكون الدين كله لله في عهده الشريف

وأما السادس عشر والسابع عشر : فلانه ينادي ألوف ألوف جيلا بعد جيل  
في الاوقات الخمسة بصوت رفيع في أقاليم مختلفة : أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد  
أن محمداً رسول الله ، ويصلي عليه في الاوقات المذكورة غير المحصورين من  
المصليين ، والقراء يحفظون منشوره ، والمفسرون يفسرون معاني فرقانه ، والوعاظ

يبلغون وعظه ، والعلماء والسلاطين يصلون الى خدمته ، ويسلمون عليه من وراء الباب ويسحون وجوههم بتراب روضته وبرجون شفاعة  
ولا يصدق هذا الخبر في حق عيسى عليه السلام كما يدعيه علماء بروتستانت ادعاء باطلا ، لانهم يشيرون الى الخبر المندرج في الباب الثالث والخمسين من كتاب اشعيا في حق عيسى عليه السلام ، وهذا نصه : ليس له منظر وجمال ، ورأيناه ولم يكن له منظر واشتهيناه مهاناً ، وآخر الرجال رجل الاوجاع مخترأ بالامراض ، وكانت مكتوماً وجهه ومزدولا ولم نحسبه ونحن حسبناه كأبرص ومضروباً من الله ومخضوعاً ، والرب شاء أن يسحقه (١)

وهذه الاوصاف ضد الاوصاف التي في الزبور المذكور فلا يصدق عليه كونه حسناً ولا كونه قوياً ، وكذا لا يصدق عليه كونه متقلداً بالسيف ، ولا كونه نبه مسنونة ، ولا انقياد الاغنياء له ، ولا إرسالهم اليه الهدايا ، بل هم على زعم النصارى أخذوه وأهانوه واستهزؤا به وضر به بالسياط ثم صلبوه ، وما كان له زوجة ولا ابن ، فلا يصدق دخول بنات الملوك في بيته ، ولا كون أبنائه بدل آبائه رؤساء الارض (فائدة) ترجمة الآية الثامنة التي نقلتها مطابقة لترجمة الفارسية للزبور التي كانت عندي ، ولترجم اردو للزبور وموافقة لنقل مقدسهم بولس لانه نقل هذه الآية في الباب الاول من رسالته العبرانية هكذا ترجمة عربية سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ (أحببت البر وأبغضت الاثم لذلك مسحك الله إلهك بدهن الفرح أفضل من أصحابك) والترجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وترجم اردو المطبوعة سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤١ مطابقة لترجم العربية ، فالترجمة التي تكون مخالفة لما نقلت تكون غير صحيحة ، ويكفي لردّها إلزاماً كلام مقدسهم ، وقد عرفت في مقدمة الباب الرابع إن إطلاق لفظ الاله والرب وأمثالها جاء على العوام فضلاً عن الخواص . والآية السادسة من من الزبور الثاني والثمانين هكذا (أنا قلت انكم آلهة وبنو العلي كلكم) فلا برد

(١) ان ترجمة الاميركان الاخيرة وترجمة الجزويت تخالف هذه الترجمة في بعض العبارات كما هو شأنهم في جميع الترجمات ولذلك وضع صاحب اظهار الحق التنبيه الآتي

ما قال صاحب مفتاح الاسرار انه وقع في الآية المذكورة هكذا ( أحببت البر وأبغضت الشر من أجل ذلك يا الله مسح إهلك بدهن البهجة أفضل من رفائقك) ولا يقال لشخص غير المسيح يا الله مسح إهلك الخ ، لانا لانسلم أولا صحة ترجمته لكونها مخالفة لكلام مقدسهم ( واثاباً ) لو قطعنا النظر عن عدم صحتها أقول ادعاؤه صريح البطلان لان لفظ الله ههنا بالمعنى المجازي لا الحقيقي ، ويدل عليه قوله إهلك ، لان الاله الحقيقي لا اله له ، فاذا كان بالمعنى المجازي يصدق في حق محمد صلى الله عليه وسلم كما يصدق في حق عيسى عليه السلام (١) ( قد حذفنا من هنا ٦ بشارات من ٧-١٢ للاختصار )

### ( البشارة الثالثة عشرة )

في الباب الثالث من انجيل متى هكذا (١) وفي تلك الايام جاء يوحنا المعمدان يكرز في بركة اليهودية ٢ قائلا : توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات) وفي الباب الرابع من انجيل متى هكذا (١٢) ولما سمع يسوع ان يوحنا أسلم انصرف الى الجليل ... ١٧ من ذلك الزمن ابتداء يسوع يكرز ويقول : توبوا لانه قد اقترب ملكوت السموات ... ٢٣ وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ( الخ وفي الباب السادس من انجيل متى في بيان الصلاة التي علمها عيسى عليه السلام تلاميذه هكذا ( ١٠ - ليأت ملكوتك ) ولما أرسل الحواريين الى البلاد الاسرائيلية للدعوة والوعظ وصام بوصايا منها هذه الوصية أيضاً ( وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين : انه قد اقترب ملكوت السموات ) كما هو مصرح به في الباب العاشر من انجيل متى ، ووقع في الباب التاسع من انجيل لوقا هكذا (١) ودعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم قوة وسلطاناً على جميع الشياطين وشفاء أمراض ٢ وأرسلهم ليكرزوا بملكوت الله وشفوا المرضى ) وفي الباب العاشر من انجيل لوقا هكذا ( ١ ) وبعد ذلك عين الرب سبعين آخرين أيضاً وأرسلهم ( الخ ( فقال لهم ) الخ ( ٨ ) وأية مدينة دخاتموها وقبلوكم فكلوا مما يقدم « ١ » اي من جهة العبارة فيبقى ما تقدم من المرجحات لارادة محمد « ص »

لكم ٩ واشفوا المرضى الذين فيها وقولوا لهم : قد اقترب منكم ملكوت الله ١٠ وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى شوارعها وقولوا ١١ حتى الغبار الذي لصق بنا من مدينتكم نفضه لكم ، ولكن اعلوا هذا أنه قد اقترب منكم ملكوت الله ) — فظهر ان كلا من يحيى وعيسى والحواريين والتلاميذ السبعين بشر بملكوت السموات ، وبشر عيسى عليه السلام بالاغناظ التي بشر بها يحيى عليه السلام ، فعلم ان هذا الملكوت كما لم يظهر في عهد يحيى عليه السلام فكذلك لم يظهر في عهد عيسى عليه السلام ، ولا في عهد الحواريين والسبعين ، بل كل منهم مبشر به ومخبر عن فضله ومترج لحيثه ، فلا يكون المراد بملكوت السموات طريقة النجاة التي ظهرت بشريعة عيسى عليه السلام ، والا لما قال عيسى عليه السلام والحواريون والسبعون : ان ملكوت السموات قد اقترب ، ولما علم التلاميذ ان يقولوا في الصلاة : وليأت ملكوتك ، لان هذه الطريقة قد ظهرت بعد ادعاء عيسى عليه السلام النبوة بشريعته ، فهو عبارة عن طريقة النجاة التي ظهرت بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو لا كما كانوا يبشرون بهذه الطريقة الجليلة ، واغناظ ملكوت السموات بحسب الظاهر يدل على ان هذا الملكوت يكون في صورة السلطنة لا في صورة المسكنة ، وان المحاربة والجدال فيه مع المخالفين يكونان لاجله ، وان مبنى قوانينه لا بد أن يكون كتابا سماويا ، وكل من هذه الامور يصدق على الشريعة المحمدية

وقول علماء المسيحية : ان المراد بهذا الملكوت شيوخ الملة المسيحية في جميع العالم واحاطتها بكل الدنيا بعد نزول عيسى عليه السلام . فتأويل ضعيف خلاف الظاهر ، ويرده التمثيلات المنقولة عن عيسى عليه السلام في الباب الثالث عشر من انجيل متى مثلا قال : ( ٢٤ يشبه ملكوت السموات انسانا زرع زراعا جيدا في حقله ... ) ثم قال : ( ٣١ يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها انسان وزرعها في حقله ... ) ثم قال ( ٣٣ يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع ) فشبه ملكوت السموات بانسان زارع لا يبنو الزراعة وحصادها ، وكذلك شبه بحبة خردل لا بصيرورتها شجرة

عظيمة ، وشبهه بجميرة لا باختر جميع الدقيق . وكذا يرد هذا التأويل قول عيسى عليه السلام بعد بيان التمثيل المنقول في الباب الحادي والعشرين من انجيل متى هكذا (٣) : لذلك أقول لكم : ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لامة تعمل أعماله) فان هذا القول يدل على ان المراد بملكوت السموات طريقة النجاة نفسها لاشيوعها في جميع العالم واحاطتها بكل العالم والا لامعنى لنزل الشيوخ والاحاطة من قوم واعطائهما لقوم آخرين . فالحق ان المراد بهذا الملكوت هي المملكة التي أخبر عنها دانيال عليه السلام في الباب الثاني من كتابه (١) فصداق هذا الملكوت وتلك المملكة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والله أعلم وعلمه أتم

### ( البشارة الرابعة عشر )

في الباب الثالث عشر من انجيل متى هكذا ( ٣١ ) قدم لهم مثلا آخر قائلا يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها انسان وزرعها في حقله ٣٢ وهي أصغر جميع البذور ، ولكن متى نمت فهي أكبر البقول وتصير شجرة حتى ان طيور السماء تأتي وتأوي في أغصانها ) فملكوت السماء طريقة النجاة التي ظهرت بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم لانه نشأ في قوم كانوا حقراء عند العالم لكونهم من أهل البوادي غالباً ، وغير واقفين على العلوم والصناعات ، محرومين من اللذات الجسمانية ، والتكلفات الدنيوية ، ولا سيما عند اليهود لكونهم من أولاد هاجر ، فبعث الله منهم محمداً صلى الله عليه وسلم فكانت شريعته في ابتداء الامر بمنزلة حبة خردل ، أصغر الشرائع بحسب الظاهر ، لكنها لعمومها نمت في مدة قليلة وصارت أكبرها وأحاطت شرقاً وغرباً حتى ان الذين لم يكونوا مطيعين لشريعة من الشرائع تشبثوا بذيل شريعته

### ( البشارة الخامسة عشر )

في الباب العشرين من انجيل متى هكذا ١ ( فان ملكوت السموات يشبه رجلاً رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فعملة لكرمه ) ٢ ( فانفق مع العملة

١٥ » قد بينها المؤلف في البشارة الرابعة عشرة وهي مما حذفناه للاختصار

على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه ٣ ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياما في السوق بطالين ٤ فقال لهم : اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فأعطيتكم ما يحق لكم فمضوا ٥ وخرج أيضا نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك ٦ ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياما بطالين فقال لهم : لماذا وقفتم هنا كل النهار بطالين ٧ قالوا له : لأنه لم يستأجرنا أحد. قال لهم : اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم ٨ فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله : ادع الفعلة واعطهم الاجرة مبتدأ من الآخرين إلى الأولين ٩ فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة وأخذوا دينارا دينارا ١٠ فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضا دينارا دينارا ١١ وفيما هم يأخذون تذكروا على رب البيت ١٢ قائلين : هؤلاء الآخرون عملوا ساعة وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر ١٣ فأجاب وقال لواحد منهم : يا صاحب ما ظلمتك أما اتفقت معي على دينار؟ ١٤ فخذ الذي لك واذهب فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك ١٥ أو ما يحل لي أن أقبل ما أريد بمالي أم عينك شريرة لاني أنا صالح ١٦ هكذا يكون الآخرون أولين ، والأولون آخرين ، لان كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون) اهـ فالآخرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم يقدمون في الاجر وهم الآخرون الأولون كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « نحن الآخرون السابقون » (١) وقال « إن الجنة حرمت على الانبياء كلهم حتى أدخلها ، وحرمت على الامم حتى تدخلها أمتي »

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما وفي رواية زيادة « بيدانهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناها من بعدهم » الخ وقال صلى الله عليه وسلم « مثلكم ومثل اهل الكتابين كمثل رجل استأجر أجرا فقال من يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط قيراط فعملت اليهود ، ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط فعملت النصارى ، ثم قال من يعمل لي من العصر إلى ان تغيب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ فانتم هم ، فغضبت اليهود والنصارى فقالوا مالنا اكثر عملا وأقل عطاء ؟ قال هل نقصتكم من حقكم ( وفي رواية هل ظلمتكم من حقكم شيئا ) قالوا لا . قال « فذلك فضلي أوتيته من أشاء » رواه البخاري من حديث ابن عمر

﴿ البشارة السادسة عشر ﴾

في الباب الحادي والعشرين من انجيل متى هكذا ( ٣٢ ) اسمعوا مثلاً آخر  
 كان انسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه سياج وحفر فيه معصرة وبني برجاً  
 وصله الى كرامين وسافر ٣٤ ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبده الى  
 الكرامين وسافر ليأخذ أثماره ٣٥ فأخذ الكرامون عبده وجلدوا بعضاً وقتلوا  
 بعضاً ورجعوا بعضاً ٣٦ ثم أرسل أيضاً عبداً آخرين أكثر من الاولين ففعلوا  
 بهم كذلك ( ٣٧ ) فأخيراً أرسل اليهم ابنه قائلاً : يا بنون ابني ٣٨ وأم الكرامون  
 فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم : هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه ٣٩  
 فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه ٤٠ فني جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك  
 الكرامين ؟ ٤١ قالوا له أولئك الاردياء يهلكهم هلاكاً ردياً ويسلم الكرم الى  
 كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها ٤٢ قال لهم يسوع : أما قرأتم قط في  
 الكتب : الحجر الذي رفضه البنائون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب ؟ كان  
 هذا وهو عجيب في أعيننا ٤٣ لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى  
 لامة تعمل أثماره ٤٤ ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه  
 يسحقه ٤٥ ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم )  
 أقول : إن رب بيت كناية عن الله ، والكرم كناية عن الشريعة ، واحاطته  
 بسياج ، وحفر المعصرة فيه ، وبناء البرج ، كتابات عن المحرمات والمباحات والامور  
 والنواهي ، وان الكرامين الطائعين كناية عن اليهود ، كما فهم رؤساء الكهنة  
 والفريسيون انه تكلم عليهم ، والعبيد المرسلين كناية عن الانبياء عليهم السلام  
 والابن كناية عن عيسى عليه السلام - وقد عرفت في الباب الرابع أنه لا بأس  
 باطلاق هذا اللفظ عليه ، وقد قتله اليهود أيضاً في زعمهم ، والحجر الذي رفضه  
 البنائون كناية عن محمد صلى الله عليه وسلم ، والامة التي تعمل أثماره كناية عن  
 أمته صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو الحجر الذي كل من سقط عليه ترضض ،  
 وكل من سقط هو عليه سحقه .

الاعراف س ٧ المسيح حجر الزاوية في بشارة داود أم محمد عليهم السلام ٢٧٥

وما ادعاه علماء المسيحية بزعمهم : ان هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام

فقير صحيح لوجوه

( الاول ) ان داود عليه السلام قال في الزبور المائة والثامن عشر هكذا ٢٢

( الحجر الذي رذله البناؤون هو صار للزاوية ٢٣ من قبل الرب كانت هذه وهي

عجيبة في أعيننا ) فلو كان هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام ، وهو من

اليهود من آل يهوذا من آل داود عليه السلام . فأني عجب في أعين اليهود عموماً

اكون عيسى عليه السلام رأس الزاوية ولا سيما في عين داود عليه السلام ، خصوصاً

لان مزعوم المسيحيين ان داود عليه السلام بعظم عيسى عليه السلام في زمانه

تفظوا بليفاً ويعتقد الالهية في حقه ، بخلاف آل اسماعيل ، فان اليهود كانوا

يحقرن اولاد اسماعيل غاية التحقير فكان كون أحد منهم رأساً للزاوية عجيباً في أعينهم

( والثاني ) انه وقع في وصف هذا الحجر كل من سقط على هذا الحجر ترضض ،

وكل من سقط هو عليه سحقه . ولا يصدق هذا الوصف على عيسى عليه السلام

لانه قال : ( وان سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا ادينه ، لاني لم آت لادين

العالم بل لاخلص العالم ) كما هو في الباب الثاني عشر من انجيل يوحنا . وصدقه

على محمد صلى الله عليه وسلم غير محتاج الى البيان ، لانه كان مأموراً بذيبيته (١) الفجار

الاشرار فان سقطوا عليه ترضضوا ، وان سقط هو عليهم سحقتهم

( الثالث ) قال النبي صلى الله عليه وسلم « مثلي ومثل الانبياء كمثل قصر

احسن بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف بها النظار يمتعجبون من حسن بنيانه

الا موضع تلك اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل » (٢) ولما ثبتت نبوته بالادلة

الاخرى ، كما ذكرت نبذاً منها في المسالك السابقة فلا بأس بأن استدل في هذه

البشارة بقوله أيضاً

( والرابع ) ان المتبادر من كلام المسيح ان هذا الحجر غير الابن

(١) لو قال بتاديب او كبح او زجر الفجار لكان أظهر « ٢ » الحديث رواه

الشيخان عن جابر وأبي هريرة قال الثاني « ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل

بني بيتاً ( وفي رواية بنيانا ) فاحسنه وأجمله الاموضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون

به ويمعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فانا اللبنة وأنا خاتم النبيين »



(البشارة السابعة عشر)

في الباب الثاني من المشاهدات هكذا (٢٦) ومن يغلب ويحفظ اعماله الى النهاية فسأعطيه سلطانا على الامم ٢٧ فيرعام بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف كما اخذت ايضا من عند ابي ٢٨ واعطيه كوكب الصبح ٢٩ من له اذن فليسمع ما يقول الروح بالكايس ) فهذا الغالب الذي أعطي سلطانا على الامم ويرعام بقضيب من حديد هو محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال الله في حقه ( وينصرك الله نصراً عزيزاً ) وقد سماه سطيف الكاهن صاحب الهراة — روي انه ليلة ولادته صلى الله عليه وسلم انشق ايوان كسرى انوشروان ، وسقط منه اربع عشرة شرفة ، وخذت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغارت بحيرة سارة بحيث صارت يابسة . ورأى الموبدان في نومه ان ابلا صامبا تقود خيلا عربا فتقطعت دجلة وانتشرت في بلادها ، فخاف كسرى من حدوث هذه الامور ، راسل عبد المسيح الى سطيف الكاهن الذي كان في الشام ، ولما وصل عبد المسيح اليه وجدته في سكرات الموت فذكر هذه الامور عنده ؟ فأجاب سطيف : اذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخذت نار فارس ، فليست بابل للفارس مقاما ، ولا الشام لسطيف مناما ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ماهوات آت اه ثم مات سطيف من ساعته ، ورجع عبد المسيح فأخبر انوشروان بما قال سطيف ، قال كسرى : الى أن يملك أربعة عشر ملكا كانت أمور وأمور ، فملك منهم عشرة في أربع سنين ، وملك الباقون الى خلافة عثمان رضي الله عنه فهلك آخرهم يزديجرد في خلافته . والهراة بكسر الهاء العاص الضخمة ، وكوكب الصبح عبارة عن القرآن ، قال الله في سورة النساء ( وأنزلنا اليكم نورا مبينا ) وقال في سورة التغابن ( فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا )

قال صاحب صولة الضيغم بعد نقل هذه البشارة : قلت للتيسين وبت ووايم عند المناظرة : إن صاحب هذا القضييب من حديد محمد صلى الله عليه وسلم

فاضطربا بسماع هذا الامر وقالوا : إن عيسى عليه السلام حكم بهذا الكنيسة ثباتها فلا بد أن يكون ظهور مثل هذا الشخص هناك ، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) مازح هناك ، قلت : هذه الكنيسة في أية ناحية كانت ؟ فرجعا الى كتب اللغة وقالوا : كانت في أرض الروم قريبة من استانبول ، قلت : راح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في خلافة الفاروق الاعظم عمر رضي الله عنه الى هذه البلاد وفتحوها وبعد الصحابة رضي الله عنهم كان المسلمون أيضا متسلطين عليها في أكثر الاوقات ثم تسلط عليها سلاطين آل عثمان أدام الله سلطنتهم من مدة مديدة ، وهم متسلطون الى هذا الحين . فهذا الخبر صريح في حق محمد صلى الله عليه وسلم انتهى كلامه . قلت : إن الفاضل عباس علي الجاهوي الهندي صنف أولا كتابا كبيرا في الرد على أهل التثايلت سماه ( صولة الضيغم على أعداء ابن مریم ) ثم نظر هو رحمه الله وبت ووليم القسيسين في بلد كانفور من بلاد الهند وألزمها ثم اختصر كتابه وسمى المختصر ( خلاصة صولة الضيغم ) ومناظرته كانت قبل أن أنظر صاحب ميزان الحق في أكبر آباد بمقدار اثنين وعشرين سنة

### ( البشارة الثامنة عشرة )

هذه البشارة واقعة في آخر أبواب انجيل يوحنا وانا انقلها عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ و سنة ١٨٣١ و سنة ١٨٤٤ في بلدة لندن فاقول : في الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا هكذا ( ١٥ ) ان كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ١٦ وانا أطاب من الاب فيعطيك فارقليط آخر ليثبت معكم الى الابد ١٧ روح الحق الذي ان يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه وانتم تعرفونه لأنه مقيم عندهم وهو ثابت فيكم ٢٦ والفارقليط روح القدس الذي يرسله الاب باسمي هو يعلمكم كل شيء ، وهو يذكركم كل ماقلت له لكم ٣٠ والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى اذا كان تؤمنون ) وفي الباب الخامس عشر من انجيل يوحنا هكذا ( ٢٦ ) فاما اذا جاء الفارقليط الذي أرسله أنا اليكم من الاب روح الحق الذي من الاب ينبثق فهو يشهد لاجلي ٢٧ وانتم تشهدون لانكم معي من الابداء ) وفي الباب السادس عشر من انجيل يوحنا هكذا ( ٧ ) لكني أقول لكم الحق انه خير لكم أن

انطلق لاني ان لم انطلق لم ياتكم الفارقايط فلما ان انطلقت أرسلته اليكم ٨ فاذا جاء ذلك يوضح العالم على خطية وعلى بر وعلى حكم (٩) أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بي ١٠ وأما على البر ، فلأنني منطلق الي الاب ، ولستم تروني بهد ١١ وأما على الحكم فان أكون (رئيس) هذا العالم قد دين ١٢ وان لي كلاما كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن ١٣ واذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق لانه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي ١٤ وهو يمجدي لانه يأخذ مما هو لي ويخبركم ١٥ جميع ما هو الاب فهو لي فن أجل هذا قلت ان مما هو لي يأخذ ويخبركم )

وأنا أقدم قبل بيان وجه الاستدلال بهذه العبارات أمر بن (الامر الاول) انك قد عرفت في الامر السابع أن أهل الكتاب سلفا وخطا عاداتهم أن يترجموا غالبا الاسماء (أي الاعلام) وأن عيسى عليه السلام كان يتكلم باللسان العبراني لا باليوناني فاذا لا يبقى شك في أن الانجيلي الرابع ترجم اسم الم بشر به باليوناني بحسب عاداتهم ثم مترجموا العربية عربوا اللفظ اليوناني بفارقليط وقد وصلت الي رسالة صغيرة بلسان اردو من رسائل القسيسين في سنة ألف ومائتين وثمان وستين من الهجرة وكانت هذه الرسائل طبعت في كلكته وكانت في تحقيق لفظ (فارقليط) وادعى مؤلفها أن مقصوده أن يذبه المسلمين على سبب وقوعهم في الغلط من لفظ فارقليط وكان ملخص كلامه أن هذا اللفظ معرب من اللفظ اليوناني « فان قلنا إن هذا اللفظ اليوناني الاصل باراكي طوس فيكون بمعنى المعزى والمعين والوكيل وان قلنا ان اللفظ الاصل بير كلو طوس يكون قريبا من معنى محمد واحمد، فن استدل من علماء الاسلام بهذه البشارة فهم أن اللفظ الاصل بير كلو طوس ومعناه قريب من معنى محمد واحمد فادعى أن عيسى عليه السلام أخبر بمحمد أو احمد لكن الصحيح انه باراكي طوس » انتهى ملخصا من كلامه

( يقول محمد رشيد مؤلف هذا التفسير ) اتني أوضح هنا ما كتبه الشيخ

رحمة الله بكلمة للدكتور محمد توفيق صدقي أورد هاني هذا المقام في كتابه  
(دين الله في كتب أنبيائه) قال رحمه الله :

هذا اللفظ (الفارقليط) يوناني ويكتب بالانكليزية هكذا (Paraclete) بارقليط أي (المعزي) ويتضمن أيضاً معنى الحاج كما قل بوست في قاموسه، وهناك لفظ آخر يكتب هكذا (Periclite) ومعناه رفيع المقام سام . جليل . مجيد . شهير . وهي كلها معانٍ تقرب من معنى محمد واحمد ومحمود ولا يخفى أن المسيح كان يتكلم بالعبرية فلا ندري ماذا كان اللفظ الذي نطق به عليه السلام؟ ولا ندري إن كانت ترجمة مؤلف هذا الانجيل له بلفظ (Paraclete) صحيحة أو خطأ؟ ولا ندري إن كان هذا اللفظ (Paraclete) هو الذي ترجم به من قبل أم لا؟ لأننا نعلم أن كثيراً من الالفاظ والعبارات وقع فيها التحريف من الكتاب سهواً أو قصداً كما اعترفوا به في جميع كتب المهديين ، (راجع الفصل الثالث) فاذا كان اللفظ الاصيلي (Periclite) بيرقليط فلا يبعد أنه تحرف عمداً أو سهواً الى (Paraclete) بارقليط حتى يبعدوه عن معنى اسم النبي صلى الله عليه وسلم، ومما يسهل عليهم ذلك تشابه أحرف هذه الكلمة في اللغة اليونانية وعلى كل حال فسواء كان هو (Paraclete) بارقليط أو (Periclite) بيرقليط ، فعنى كل منهما ينطبق على محمد صلى الله عليه وسلم فهو معز المؤمنين على عدم ايمان الكافرين ، وعلى عدم وجود الشر في هذا العالم بإيضاح أن هذه هي إرادة الله لحكمة يعلمها هو ، ومعز أيضاً المصابين والمرضى والفقراء وغيرهم بعقيدة البعث والقيامة ، وهو صلى الله عليه وسلم كان يحاج الكفار والمشركين وغيرهم) اذا كان معناها الحاج المجادل (١) كما قال بوست) وهو شهير سام جليل مجيد اذا كان اللفظ الاصيلي (بيرقليط) والعبارات الواردة في انجيل يوحنا في هذه المسألة لا تنطبق الا على محمد عليه السلام كما بين ذلك صاحب كتاب إظهار الحق ومؤلف كتاب (فتح الملك العلام في بشائر دين الاسلام) وكما أشرنا الى ذلك في

صفحة ٨٢ من هذا الكتاب اه ونعود الى سياق صاحب اظهار الحق الشيخ رحمة الله ، قال رحمه الله :

وأقول : ان التفاوت بين اللفظين يسير جدا وان الحروف اليونانية كانت متشابهة ، فتبدل بيركاوطوس بباراكلي طوس في بعض النسخ من الكتاب قريب القياس . ثم رجح أهل التثليث المذكورين هذه النسخة على النسخ الاخر ، ومن تأمل في الباب الثاني من هذا الكتاب والامر السابع من هذا المسلك السادس بنظر الانصاف اعتقد يقينا بأن مثل هذا الامر من أهل الديانة من أهل التثليث ليس بيميد بل لا يبعد أن يكون من المحسنات

(والامر الثاني) أن البعض ادعوا قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم أنهم مصاديق لفظ فارقايط مثلا متنس المسيحي الذي كان في القرن الثاني من الميلاد وكان مرناضا شديد الارتياض وأتقى أهل عهده : ادعى في قرب سنة ١٧٧ من الميلاد في آسيا الصغرى الرسالة وقال : أبي الفارقايط الذي وعد بمجيئه عيسى عليه السلام ، وتبعه اناس كثيرون في ذلك كما هو مذكور في بعض التواريخ وذكر وايم ميور حاله وحال متبعيه في القسم الثاني من الباب الثالث من تاريخه بلسان اردو المطبوع سنة ١٨٤٨ من الميلاد هكذا : ان البعض قالوا انه ادعى أنه الفارقايط يعني المعزي روح القدس ، وهو كأن اتقى (?) مرناضا شديدا (?) ولاجل ذلك قبله الناس قبولا زائداً ، انتهى كلامه .

فعلم أن انتظار الفارقايط كان في القرون الاولى المسيحية أيضاً ولذلك كان الناس يدعون أنهم مصاديقه ، وكان المسيحيون يقبلون دعاويهم — وقال صاحب اب التواريخ : إن اليهود والمسيحيين من معاصري محمد صلى الله عليه وسلم كانوا منتظرين لنبي ، فحصل لمحمد من هذا الامر نفع عظيم لانه ادعى انه هو ذلك المنتظر ، انتهى ملخص كلامه — فبعلم من كلامه أيضا أن أهل الكتاب كانوا منتظرين لخروج نبي في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الحق ، لان النجاشي ملك الحبشة لما وصل اليه كتاب محمد صلى الله عليه وسلم قال : أشهد بالله أنه لاني الذي ينظره أهل الكتاب ، وكتب الجواب وكتب في الجواب : أشهد أنك

رسول الله صادقا وصادقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك — أي جعفر بن ابي طالب — وأسلمت على يديه لله رب العالمين وهذا النجاشي كان قبل الاسلام نصرانيا وكتب المقوقس ملك القبط في جواب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم هكذا: الى محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعوا اليه وقد علمت أن نبيا قد بقي وقد كنت أظن انه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك اهو المة وتس هذا وان لم يسلم لكنه أقر في كتابه: اني قد علمت أن نبيا قد بقي . وكان نصرانيا فهذا ان الملك ما كانا يخافان في ذلك الوقت من محمد صلى الله عليه وسلم لاجل شوكته الدنياوية .

وجاء الجارود بن العلاء في قومه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال: والله لقد جئت بالحق ، ونطقت بالصدق ، ولذي بعثك بالحق نبيا لقد وجدت وصفك في الانجيل ، وبشر بك ابن البتول ، فطول التحية لك ، والشكر بان أكرمك ، لا أثر بعد عين ، ولا شك بعد يقين ، مد يدك فانا أشهد أن لا إله إلا الله وانك محمد رسول الله . ثم آمن قومه وهذا الجارود كان من علماء النصارى وقد أقر بانه قد بشر به ابن البتول أي عيسى عليه السلام ، فظهر أن المسيحيين أيضا كانوا منتظرين لخروج نبي بشر به عيسى عليه السلام

فاذا علمت ذلك فاقول إن اللفظ اليوناني الذي قاله عيسى عليه السلام مقفود واللفظ اليوناني الموجود ترجمة ، لكنني أترك البحث عن الاصل واتكلم على هذا اللفظ اليوناني فاقول: ان كان اللفظ اليوناني الاصل بير كلوطوس ، فلا ير ظاهرا وتكون بشارة المسيح في حق محمد صلى الله عليه وسلم بافظه وقريب من محمد واحد وهذا وان كان قريب القياس بالنظر الى عاداتهم لكنني أترك هذا الاحتمال لانه لا يتم عليهم الزاما وأقول ان كان اللفظ اليوناني الاصل باراكلي طوس كما يدعون فهذا لا ينافي الاستدلال أيضا لان معناه المعزي والمعين والوكيل على ما بين صاحب الرسالة أو الشافع كما يوجد في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وهذه المعاني كلها تصدق على محمد صلى الله عليه وسلم

وأنا أبين الآن أولا أن المراد بالفارقليط النبي المبشر به أعني محمدا صلى الله

عليه وسلم لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار الذي جاء ذكره في الباب الثاني من كتاب الاعمال ، واذكرنا في اشبهات علماء المسيحية وأجيب عنها فاقول : أما الاول فيدل عليه أمور

(١) إن عيسى عليه السلام قال أولا ( إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ) ثم أخبر عن الفارقليط فقصوده عليه السلام أن يعتقد السامعون بان ما يلقي عليهم بعد ضروري واجب الرعاية فلو كان الفارقليط عبارة عن الروح النازل يوم الدار لما كانت الحاجة الى هذه الفقرة لانه ما كان مضمونا أن يستبعد الحواريون نزول الروح عليهم مرة أخرى لانهم كانوا مستغيبين منه من قبل أيضا بل لا مجال الاستبعاد أيضا لانه اذا نزل على قلب أحد وحل فيه يظهر أثره لا محالة ظهورا بيانا فلا يتصور انكار المتأثر منه و ليس ظهوره عندهم في صورة يكون فيه مظنة يكون الاستبعاد (١) فهو عبارة عن النبي المبشر به فحقيقة الامر أن المسيح عليه السلام لما علم بالنجربة وبنور النبوة أن الكشـيرين من امته ينكرون النبي المبشر به عند ظهوره أكده أولا بهذه الفقرة ثم اخبر عن مجيئه

(٢) إن هذا الروح متحد بالاب مطاقا وبالأبن نظرا الى لاهوته اتحادا حقيقيا فلا يصدق في حقه ( فار قايط آخر ) بخلاف النبي المبشر به فانه يصدق هذا القول في حقه بلا تكلف

(٣) ان الوكالة والشفاعة من خواص النبوة لامن خواص هذا الروح المتحد بالله فلا يصدقان على الروح ويصدقان على النبي المبشر به بلا تكلف

(٤) ان عيسى عليه السلام قال ( هو بذكركم كل ما قلته لكم ) ولم يثبت في رسالة من رسائل العهد الجديد أن الحواريين كانوا قد نسوا ما قاله عيسى عليه السلام وهذا الروح النازل يوم الدار ذكرهم اياه

(٥) ان عيسى عليه السلام قال ( والآن قد قلت لكم قبل أن يكون ( أن يوجد ) حتى اذا كان -- اي وجد وبعث -- تؤمنون ) وهذا يدل على أن المراد

« ١ » هذه العبارة لانهم لم يذكروا فسادها وأقرب ما يفهم منها بالقرينة انه ليس ظهوره عندهم في صورة المظنة يقتضي الاستبعاد

به ليس الروح لأنك قد عرفت في الأمر الأول أنه ما كان عدم الإيمان مظنوناً منهم وقت نزوله بل لا مجال للاستبعاد أيضاً ، ولا حاجة إلى هذا القول ، وليس من شأن الحكيم العاقل أن يتكلم بكلام فضول ، فضلاً عن شأن النبي العظيم الشأن ، فلو أردنا به النبي المبشر به يكون هذا الكلام في محله ، وفي غاية الاستحسان لأجل التأكيد مرة ثانية

(٦) إن عيسى عليه السلام قال ( هو يشهد لاجلي ) وهذا الروح مشهد لاجله بين أيدي أحد لان تلاميذه الذين نزل عليهم ما كانوا محتاجين إلى الشهادة لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة قبل نزوله أيضاً فلا فائدة للشهادة بين أيديهم والمنكرون هم الذين كانوا محتاجين للشهادة فهذا الروح مشهد بين أيديهم بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم فإنه شهد لاجل المسيح عليه السلام وصدقه وبرأه عن ادعاء الألوهية الذي هو أشد أنواع الكفر والضلال وبرأ أمه عن تهمة الزنا وجاء ذكر براءتهما في القرآن في مواضع متعددة وفي الأحاديث في مواضع غير محصورة

(٧) إن عيسى عليه السلام قال وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء ( وهذه الآية في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ هكذا ) ونشهدون أنتم أيضاً لأنكم كنتم معي من الابتداء ) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا ( ونشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء ) فيوجد في هذه التراجم الثلاث لفظ أيضاً وكذا يوجد في التراجم الفارسية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٤١ وفي ترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨١٤ ترجمة لفظ أيضاً فلفظ أيضاً سقط من التراجم التي قامت عنها عبارة يوحنا سواء أوقصدا فهذا القول يدل دلالة ظاهرة على أن شهادة الحواريين غير شهادة الفارق ليط فلو كان المراد به الروح النازل يوم الدار لم توجد مغابرة بين الشهادتين لأن الروح المذكور لم يشهد شهادة مستقلة غير شهادة الحواريين بل شهادة الحواريين هي شهادته بعينها لأن هذا الروح مع كونه إلهام متحداً بالله اتحاداً حقيقياً بربا من النزول والحلول والاستقرار والشكل التي هي من عوارض الجسم والجسمانيات نزل مثل روح عاصفة وظهر في أشكال السنة متقسمة كلها من نار واستقرت على كل واحد منهم يوم الدار فكان حالهم كحال من عليه أثر الجن ، فكما أن قول الجن يكون قوله في تلك



الحالة فكذلك كانت شهادة الروح هي شهادة الحوارين فلا يصح هذا القول بخلاف ما إذا كان المراد به النبي المبشر به فان شهادته غير شهادة الحوارين

(٨) إن عيسى عليه السلام قال ان لم انطلق لم يأتكم الفارقليط فاما ان انطلقت أرسلته اليكم) فعلق مجيئه بذهابه وهذا الروح عندهم نزل على الحوارين في حضوره لما أرسلهم الى البلاد الاسرائيلية فنزوله ليس بمشروط بذهابه فلا يكون مراداً بالفارقليط بل المراد به شخص لم يستفص منه أحد من الحوارين قبل زمان صعوده وكان مجيئه موقوفاً على ذهاب عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم كان كذلك لانه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام وكان مجيئه موقوفاً على ذهاب عيسى عليه السلام لان وجود رسولين ذوي شريعتين مستقتتين في زمان واحد غير جائز بخلاف ما اذا كان الآخر متبعا للشريعة الأولى أو يكون كل من الرسل متبعا للشريعة واحدة لانه يجوز في هذه الصورة وجود اثنين أو أكثر في زمان واحد ومكان واحد كما ثبت وجودهم ما بين زمان موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام

(٩) ان عيسى عليه السلام قال ( يوبخ العالم ) فهذا القول بمنزلة النص الجلي لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه وبخ العالم سيما اليهود على عدم ايمانهم بعيسى عليه السلام تو يبخنا لا يشك فيه الا معاند بحت، وسيكون ابنه الرشيد محمد المهدي رفيقا لعيسى عليه السلام في زمان قتل الدجال الاعور ومنابيهه، بخلاف الروح النازل يوم الدار فان تو يبخه لا يصح على أصول أحد وما كان التوبيخ منصب الحوارين بعد نزوله أيضا لانهم كانوا يدعون الى الملة بالترغيب والوعظ وما قال رانكين في كتابه المسمى بدافع البهتان الذي هو بلسان اردو في رده على خلاصة ( صولة الضيغم ) إن لفظ التوبيخ لا يوجد في الانجيل ولا في ترجمة من تراجم الانجيل وهذا المستدل أورد هذا اللفظ ليصدق على محمد صدقا بينما لاجل أن محمداً صلى الله عليه وسلم وبخ وهدد كثيراً إلا أن مثل هذا التغليب ليس من شأن المؤمنين والخائفين من الله انتهى كلامه فمردود وهذا التفسير اما جاهل غلط أو مغالط ليس له ايمان ولا خوف من الله، لان هذا اللفظ يوجد في التراجم العربية المذكورة التي نقلت عنها عبارة يوحنا وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٦٧١ في رومية العظمي وعبارة الترجمة العربية

الاعراف س ٧ استمداد أمة محمد وقومه لا كمال الدين دون قوم عيسى ٢٨٥

المطبوعة في بيروت سنة ١٨٦٠ هكذا ( ومنى جاء ذلك بيكت العالم على خطية الخ  
وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ و سنة ١٨٢٥ وفي التراجم الفارسية لمطبوعة  
سنة ١٨١٦ و سنة ١٨٢٨ و سنة ١٨٤١ يوجد لفظ الا لزام. ولفظ التبيكت و الا لزام  
أبضا قريبان من التوبيخ لكن لا شكايه منه لان مثل هذا الامر من عادات علماء  
بروستنت و لذلك ترى أن مترجمي الفارسية و اردو تركوا لفظ فار قايط لشهرته  
عند المسلمين في حق محمد صلى الله عليه وسلم و مترجم ترجمة اردو و المطبوعة سنة ١٨٣٩  
فاق أسلافه هؤلاء أيضا حيث ارجع الى الروح ضمائر المؤنث ليحصل الاشتباه  
للعوام أن مصداق هذا اللفظ ( أي مدلوله ) مؤنث وليس بمذكر

(١٠) قال عيسى عليه السلام ( أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بي ) وهذا  
يدل على أن الفارقايط يكون ظهرا على منكري عيسى عليه السلام و موبخا لهم على  
عدم الايمان به و الروح النازل يوم لدار ما كان ظهرا على الناس و موبخا لهم

(١١) قال عيسى عليه السلام ( إن لي كلاما كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم  
تطبقون حمله الآن ) وهذا ينافي إرادة الروح النازل يوم لدار لانه ما زاد حكما على  
أحكام عيسى عليه السلام فانه على زعم أهل التثليث كان أمر الحوارين بعقيدة  
التثليث و بدعوة أهل العالم كله فأي أمر حصل لهم أزيد من أقواله التي قالها  
إلى زمان صعوده. نعم إنهم بعد نزول هذا الروح أسقطوا جميع أحكام التوراة التي هي  
ماعداء بعض الاحكام العشرة المذكورة في الباب العشرين من سفر الخروج و حللوا  
جميع المحرمات و هذا الامر لا يجوز في شأنه أن يقال إنهم ما كانوا يستطيعون حمله  
لأنهم استطاعوا حمل مقطوع حكم تعظيم السبت الذي هو أعظم أحكام التوراة  
و كان اليهود ينكرون كون عيسى عليه السلام مسيحا و عودا به لاجل عدم  
مراعاته هذا الحكم فقبول سقوط جميع الاحكام كان أهون عندهم ، نعم قبول  
زيادة الاحكام لاجل ضعف الايمان و ضعف القوة الى زمان صعوده كما يعترف به  
علماء بروستنت كان خارجا عن استطاعتهم فظهر أن المراد بالفارقايط نبي تزدادي  
مربعته أحكام و بثقل حملها على المكلفين "ضمفاء" وهو محمد صلى الله عليه وسلم

بالنسبة الى الشريعة العيسوية (٥)

(١٢) إن عيسى عليه السلام قال : ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، وهذا يدل على ان الفارقليط يكون بحيث يكذبه بنو اسرائيل ، فاحتاج عيسى عليه السلام أن يقرر حال صدقه فقال هذا القول ، ولا مجال لمظنة التكذيب في حق الروح النازل يوم الدار ، على ان هذا الروح عندهم عين الله ، فلا معنى لقوله : بل يتكلم بما يسمع ، فصدقاته محمد صلى الله عليه وسلم فانه كان في حقه مظنة التكذيب ، وليس هو عين الله ، وكان يتكلم بما يوحى اليه كما قال الله تعالى (وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى) وقال ( إن أتبع الا ما يوحى الي ) (١٣) ان عيسى عليه السلام قال : انه يأخذ مما هو لي ، وهذا لا يصدق على الروح لأنه عند أهل التثليث قديم وغير مخلوق ، وقادر مطلق ، ليس له كمال منتظر ، بل كل كمال من كماله حاصل له بالفعل ، فلا بد أن يكون الموعود به من الجنس الذي يكون له كمال منتظر . ولما كان هذا الكلام موهماً أن يكون هذا النبي متبعاً لشريعته دفعه بقوله فيما بعد ( جميع ما للاب فهو لي فلاجل هذا قلت مما هو لي يأخذ ) يعني ان كل شيء يحصل للفارقليط من الله فكأنه يحصل مني — كما اشهر : من كان لله كان الله له — فلاجل هذا قلت : ان مما هو لي يأخذ

وأما الثاني أعني الشبهات التي توردها علماء بروستنت فخمسة

(الشبهة الاولى) جاء في هذه العبارة تفسير الفارقليط بروح القدس ، وروح الحق ، وهما عبارتان عن الاقنوم الثالث ، فكيف يصح أن يراد بالفارقليط محمد صلى الله عليه وسلم ؟

أقول في الجواب : ان صاحب ميزان الحق يدعي في تأليفاته كون الفاظ روح الله ، وروح القدس ، وروح الحق ، وروح الصدق ، وروح فم الله ، بمعنى واحد . قال في الفصل الاول من الباب الثاني من مفتاح الاسرار في الصفحة ٥٣

(\* الاظهر المختار عندنا ان اهل عصر عيسى عليه السلام لم يكونوا يستطيعون حمل شريعة خاتم النبيين «ص» لفقد الاستعداد لها وهو استقلال الفكر والحكم والارادة التي حباها الله تعالى للامة العربية في زمن البعثة المحمدية

من النسخة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٥٠ : ان لفظ روح الله ، ولفظ روح القدس في التوراة والانجيل بمعنى واحد انتهى . فادعى ان هذين اللفظين يستعملان بمعنى واحد في العهدين — وقال في حل الاشكال ، في جواب كشف الاسرار : من له الملم ما بالتوراة والانجيل فهو يعرف ان اللفظ روح القدس وروح الحق وروح قم الله وغيرها بمعنى روح الله ، فذلك ما رأيت اثباته ضروريا انتهى فاذا عرفت هذا القول فنحن نقطع النظر عن صحة ادعائه وعدم صحته ههنا ونسلم ترادف هذه الالفاظ على زعمه ، لكننا ننكر أن استعمالها في كل موضع من مواضع العهدين بمعنى الاقنوم الثالث ، ونقول قولا مطابقا لقوله من له شعور ما يكتب العهدين يعرف ان هذه الالفاظ تستعمل في غير الاقنوم الثالث كثيرا ففي الآية الرابعة عشرة من الباب السابع والثلاثين من كتب حزقيال قول الله تعالى في خطاب ألوف من الناس الذين أحياهم بمعجزة حزقيال عليه السلام هكذا : ( فأجعل فيكم روحي ) ففي هذا القول روح الله بمعنى النفس الناطقة الانسانية لا بمعنى الاقنوم الثالث الذي هو عين الله على زعمهم — وفي الباب الرابع من الرسالة الاولى ابوحنا هكذا ترجمة عربية سنة ١٧٦٠ ( ١ أيها الاحباء لاتصدقوا كل روح بل امتحنوا الارواح هل هي من الله ؟ لأن الانبياء الكذبة كثيرون قد خرجوا الى العالم ٢ بهذا تعرفون روح الله : كل روح يعترف يسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله ... ٦ نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ، ومن ليس من الله لا يسمع لنا من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال ) وهذه الجملة الواقعة في الآية الثانية ( بهذا تعرفون روح الله ) وفي التراجم العربية الاخر سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا ( وبهذا يعرف روح الله ) وفي ترجمة سنة ١٨٢٥ ( فانكم تميزون روح الله ) ولفظ روح الله في الآية الثانية ، ولفظ روح في الآية السادسة بمعنى الواعظ الحق لا بمعنى الاقنوم الثالث . ولذلك ترجم مترجم ترجمة ارود المطبوعة سنة ١٨٤٥ لفظ كل روح بكل واعظ ، ولفظ الارواح بالواعظين في الآية الاولى ، ولفظ روح في الآية الثانية بالواعظ من جانب الله . ولفظ روح الحق في الآية السادسة بالواعظ الصادق . وترجم لفظ روح

الضلال بالواعظ المضل ، وليس المراد بروح الله وروح الحق الاقنوم الثالث الذي هو عين الله على زعمهم ، وهو ظاهر . فتفسير الفارقليط بروح القدس وروح الحق لا يضرنا لأنهما يعني الواعظ الحق ، كما ان لفظ روح الحق روح الله بهذا المعنى في الرسالة الاولى ابوحنا ، فيصح اخلاقهما على محمد صلى الله عليه وسلم بلا ريب (الشبهة الثانية) ان المحاطين بضمير «كم» الحواريون ، فلا بد أن يظهر

الفارقليط في عهدهم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يظهر في عهدهم (أقول) هذا أيضاً ليس بشيء ، لأن منشأه ان الحاضرين وقت الخطاب لا بد أن يكونوا مرادين بضمير الخطاب ، وهو ليس بضروري في كل موضع . ألا ترى أن قول عيسى عليه السلام في الآية الرابعة والستين من الباب السادس والعشرين من انجيل متى في خطاب رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع هكذا : (وأيضاً أقول لكم من الآن تبصرون ابن الانسان جالسا عن يمين القوة وآتيا على سحاب السماء) وهؤلاء المحاطون قد ماتوا ، ومضت على موتهم مدة هي أزيد من ألف وثمانمائة سنة ، وما رآه آتيا على سحاب السماء ، فكما ان المراد بالمحاطين ههنا الموجودون من قومهم وقت نزوله من السماء ، فكذلك فيما نحن فيه المراد الذين يوجدون وقت ظهور الفارقليط

(الشبهة الثالثة) إنه وقع في حق الفارقليط ان العالم لا يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه ، وهو لا يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم ، لان الناس رأوه وعرفوه أقول : هذا أيضاً ليس بشيء ، وهم أحوج الناس تأويلًا في هذا القول بالنسبة اليانا ، لان روح القدس عين الله عندهم ، والعالم يعرف الله أكثر من معرفة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا بد أن نقول : ان المراد بالمعرفة المعرفة الحقيقية الكاملة . ففي صورة التأويل لا اشتباه في صدق هذا القول على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويكون المقصود ان العالم لا يعرفه معرفة حقيقية كاملة ، وأنتم تعرفونه معرفة حقيقية كاملة . والمراد بالرؤية المعرفة ، ولذا لم يمد عيسى عليه السلام لفظ الرؤية بمد لفظ أنتم ، بل قال . وأنتم تعرفونه ، ولو حملنا الرؤية على الرؤية البصرية يكون نفي الرؤية محمولا على ما هو المراد في قول الانجيلي الاول في الباب

الثالث عشر من انجيله ، وأنقل عبارته عن الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦  
وسنة ١٨٢٥ ( ١٣ ) فلذلك أضرب لهم الامثال لانهم ينظرون ولا يبصرون ،  
ويسمعون ولا يستمعون ولا يفهمون ١٤ وقد كمل فيهم تقبلاً أشعياً حيث قال :  
انكم تستمعون سمعاً ولا تفهمون ، وتنظرون نظراً ولا تبصرون ) فلا اشكال أيضاً  
وأمثال هذين الامرين وان كانت معاني مجازية لكنها بمنزلة الحقيقة العرفية  
ووقعت في كلام عيسى عليه السلام كثير آفي الآية السابعة والعشرين من  
الباب الحادي عشر من انجيل متى هكذا ( وليس أحد يعرف الابن الا الاب  
ولا أحد يعرف الاب الا الابن ، ومن أراد الابن أن يعان له ) وفي الآية الثامنة  
والعشرين من الباب السابع من انجيل يوحنا هكذا ( الذي أرسلني حق الذي  
أنتم لستم تعرفونه ) وفي الباب الثامن من انجيل يوحنا هكذا ( ١٩ لستم تعرفوني  
أنا ولا أبي لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً ٥٥ ولستم تعرفونه أي الله الخ ) وفي  
الآية الخامسة والعشرين من الباب السابع عشر من انجيل يوحنا هكذا ( أيها  
الاب ان العالم لم يعرفك ، أما أنا فعرفتك ) وفي الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا  
هكذا ( ٧ لو كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً ، ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه  
٨ قال له : فيلبس ياسيد أرنا الاب وكفانا ٩ قال له يسوع : أنا معكم زماناً هذه  
مدته ولم تعرفني يا فيلبس الذي رأيته فقد رأي الاب ، فكيف تقول أنت أرنا  
الاب ؟ ) فالمراد بالمعرفة في هذه الاقوال المعرفة الكاملة ، وبالرؤية المعرفة ، والا  
لا تصح هذه الاقوال بيقيناً ، لان العوام من الناس كانوا يعرفون عيسى عليه السلام  
فضلاً عن رؤساء اليهود والكهنة والمشايخ والحواريين ، ورؤية الله بالبصر في هذا  
العالم ممنوعة عند أهل التثليث أيضاً

( الشبهة الرابعة ) أنه وقع في حق الفارقليط ( أنه مقيم عندكم وثابت فيكم )  
ويظهر من هذا القول ان الفارقليط كان في وقت الخطاب مقبلاً عند الحواريين  
وثابتاً فيهم ، فكيف يصدق على محمد صلى الله عليه وسلم

أقول : إن هذا القول في التراجم الاخرى هكذا في الترجمة لعربية سنة ١٨١٦  
وسنة ١٨٢٥ ( لانه مستقر معكم وسيكون فيكم ) والتراجم الفارسية المطبوعة سنة

١٨١٦ سنة و١٨٢٨ سنة و١٨٤١ سنة وترجمة اردو المطبوعة سنة ١٨١٤ سنة و١٨٣٩ سنة كلها مطابقة لهاتين الترجمتين ، وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٦٠ هكذا: ( ما كث معكم ويكون فيكم ) فظهر ان المراد بقوله ثابت فيكم الثبوت الاستقبالي يقينا فلا اعتراض به بوجه من الوجوه ، وبقي قوله : مقيم عندهم

فأقول : لا يصح حمل هذا القول على معنى هو مقيم عندهم الآن لانه لا ينافي قوله ( أنا أطلب من الاب فيعطيكُم فارقليط. آخر ) وقوله ( قد قلت لكم قبل أن يكون حتى اذا كان تؤمنون . وقوله : ان لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط. ) واذا أول نقول : انه بمعنى الاستقبال كما ان القول الذي بعده بمعنى الاستقبال ومعناه يكون مقيا عندهم في الاستقبال ، فلا خدشة في صدقه على محمد صلى الله عليه وسلم . والتعبير عن الاستقبال بالحال بل بالماضي في الامور المتيقنة كثير في العهدين - ألا ترى أن حزقيال عليه السلام أخبر أولا عن خروج يأجوج ومأجوج في الزمان المستقبل واهلاكهم حين وصولهم الى جبال اسرائيل . ثم قال في الآية الثامنة من الباب التاسع والثلاثين من كتابه هكذا ( ها هو جاء وصار يقول الرب الاله هذا هو اليوم الذي قلت عنه ) فانظروا الى قوله ها هو جاء وصار - وهذا القول في الترجمة الفارسية المطبوعة سنة ١٨٣٩ هكذا ( اينك رسيد وبقوع بيوست ) فعبّر عن الحال المستقبل بالماضي لكونه يقينا لاشك فيه ، وقد مضت مدة أزيد من الفين وأربعمائة وخمسين سنة ، ولم يظهر خروجهم - وفي الآية الخامسة والعشرين من الباب الخامس من انجيل يوحنا هكذا ( الحق الحق أقول لكم أنه تأتي ساعة ، وهي الآن حين يسمع الاموات صوت ابن الله والسامعون يحيون ) فانظروا الى قوله وهي الآن ، وقد مضت مدة أزيد من الف وثمانمائة ولم تجيء هذه الساعة ، وهي الى الآن مجهولة لا يعرف أحد متى تجيء .

( الشبهة الخامسة ) في الباب الاول من كتاب الاعمال هكذا ( ٤ ) وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم أن لا يهرحوا من اورشليم ، بل ينتظروا موعد الاب الذي سمعتموه مني ٥ لان يوحنا عمد بالماء ، وأما أنتم فستعمدون بالروح القدس ليس هذه الايام بكثير ) وهذا يدل على ان الفارقليط هو الروح النازل يوم الدار ، لان المراد بوعد الاب هو الفارقليط

أقول : الادعاء بأن المراد بموعده الاب هو الفارقليط. ادعاء محض ، بل هو غلط لثلاثة عشر وجهاً ، وقد عرفتها ، بل الحق ان الاخبار عن الفارقليط شيء والوعد بانزال الروح عليهم مرة أخرى شيء آخر . وقد وفي الله بالوعدين ، وقد عبر عن الوعد الاول بمجيء الفارقليط ، وههنا بموعده الاب ، غاية الامر أن يوحنا نقل بشارة الفارقليط ، ولم ينقلها الانجيليون الباقون — ولو قلنا نقل موعده نزول الروح الذي نزل يوم الدار ، ولم ينقله يوحنا . ولا بأس فيه فانهم قد يتفقون في نقل الاقوال الخسيسة ، كركوب عيسى عليه السلام على الحمار وقت الذهاب الى اورشليم ، اتفق على نقله الاربعة ، وقد يتخالفون في نقل الاحوال العظيمة ، ألا ترى أن لوقا انفرد بذكر احياء ابن الارملة من الاموات في نايين ، وبذكر ارسال عيسى عليه السلام سبعين تلميذاً ، وبذكر ابراء عشرة برص ، ولم يذكر هذه الحالات أحد من الانجيليين ، مع أنها من الحالات العظيمة ، وان يوحنا انفرد بذكر وليمة العرس في قانا الجليل ، وظهر من يسوع فيه معجزة تحويل الماء خمرًا وهذه المعجزة اول معجزاته ، وسبب ظهور مجده وإيمان التلاميذ به ، وبذكر ابراء السقيم في بيت صيدا في اورشليم ، وهذه أيضاً معجزة عظيمة ، والمريض كان مريضاً من ثمان وثلاثين سنة ، وبذكر قصة امرأة أخذت في زنا ، وبذكر ابراء الالكه ، وهذا أيضاً من أعظم معجزاته ، وهي مصرحة بهما في الباب التاسع وبذكر احياء العازار من بين الاموات ، ولم يذكرها أحد من الانجيليين ، مع أنها حالات عظيمة ، وهكذا حال متي ومرقس ، فانهما انفردا بذكر بعض المعجزات والحالات التي لم يذكرها غيرها . وإذ طال البحث في هذا المسلك فلنقتصر على هذا القدر من البشارات التي نقلتها عن كتبهم المعتبرة عندهم في زماننا . اهـ

### ﴿ بشارة انجيل برنابا ﴾

ذكر الشيخ رحمة الله بعد هذا أنه لم يعن بإيراد البشارات من الكتب التي بعدها أهل الكتاب غير قانونية الا بشارة انجيل برنابا ، وقد نقلها عن مقدمة ترجمة القسيس سايل الانكليزي للقرآن المجيد ، وهذه ترجمتها :

( اعلم يا برنابا أن الذنب وان كان صغيراً يجزي الله عليه لان الله غير اراض



عن الذنب ، ولما اكتسب امي وتلاميذي لاجل الدنيا سخط الله لاجل هذا الامر وأراد باقتضاء عدله أن يجزيهم في هذا العالم على هذه العقيدة غير اللائقة ليحصل لهم النجاة من عذاب جهنم ولا يكون لهم اذية هناك وأني وان كنت برياً لكن بعض الناس لما قالوا في حقي انه الله وابن الله كره الله هذا القول ، واقتضت مشيئته أن لا تضحك الشياطين يوم القيامة مني ولا يستهزؤن بي ، فاراد بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء في الدنيا بسبب موت يهوذا ، ويظن كل شخص اني صابت لكن هذه الاهانة والاستهزاء تبقيان الى أن يجيء محمد رسول الله فاذا جاء في الدنيا ينبه كل مؤمن على هذا الغلط وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس ) ترجمة كلامه

أقول هذه البشارة عظيمة وان اعترضوا بأن هذا الانجيل رده مجالس علمائنا السلف (١) أقول لا اعتبار لردهم وقبولهم كما علمت بما لا مزيد عليه في الباب الاول وهذا الانجيل من الاناجيل القديمة ويوجد ذكره في كتب القرن الثاني والثالث فعلى هذا كتب هذا الانجيل قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم بمئتي (٢) سنة ولا يقدر أحد أن يخبر بغير الالهام بمثل هذا الامر قبل وقوعه بمئتي سنة فلا بد أن يكون هذا قول عيسى عليه السلام وان قالوا إن أحداً من المسلمين حرف هذا الانجيل بعد ظهور محمد صلى الله عليه وسلم قات هذا الاحتمال بعيد جداً لان المسلمين ما التفتوا الى هذه الاناجيل الاربعة أيضاً فكيف الى انجيل برنابا ويبعد أن يؤثر تحريف أحد من المسلمين في انجيل برنابا تأثيراً تغير به النسخ الموجودة عند المسيحيين أيضاً وهم يزعمون أن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أسلموا نقلوا عن كتب المهديين البشارات المحمدية وحرفوها فعلى زعمهم أقول إن

«١» بمعنى مجامع الاساقفة «٢» ههنا غلط ظاهر لا ندري سببه فقد كان ظهور النبي «ص» في أوائل القرن السابع للمسيح فاذا كان قد ذكر انجيل برنابا في القرن الثاني يكون قبل ظهور النبي «ص» بخمسة قرون على ان برنابا كتبه في القرن الاول كما أمره المسيح عليه السلام وان لم يرد له ذكر قبل ذلك التاريخ. وأما النسخ التي وقعت في ايدي علماء اوربة فاقدما عهدا يتراوح تاريخه بين منتصف القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السادس عشر ، ولكنه لم يشتهر الا في اوائل القرن الثامن عشر

هؤلاء العلماء الكبار حرفوا على زعمهم ولم يؤثر تحريفهم في كتبهم التي كانت موجودة عندهم في مواضع هذه البشارات فكيف أثر تحريف بعض المسلمين في انجيل برنابا في النسخ التي كانت عندهم؟ فهذا الاحتمال واهضه جداً، واجب الرداء وقد ختم الشيخ (رحمة الله) رحمه الله تعالى هذه البشارات بتنبيه ذكر فيه الفارسي، بما بينه مفصلاً من اختلاف النصاري في ترجمة كتبهم والتغيير فيها زمنياً بعد زمن لئلا يظن من اطلع على ما أورده ورآه مخلفاً لتغير الترجمات التي نقل عنها أنه هو المخطي، فيما نقله، وهذا مشهور لا يستطيعون إنكاره.

بعد هذا أقول: أن الشيخ رحمه الله لم ير انجيل برنابا وإنما نقل هذه البشارة من مقدمة سايل المستشرق الانكليزي لترجمته للقرآن المجيد، وسايل هذا قد اطلع على احدى النسختين اللتين وجدتا من هذا الانجيل في أول القرن الثامن عشر، وهي النسخة الاسبانية وقد فقدت، إذ كان المتعصبون من النصاري يتلفون كل ما عثروا عليه من هذا الانجيل وغيره من الاناجيل التي تعدها الكنيسة غير قانونية. وأما النسخة الاخرى فهي باللغة الايطالية القديمة وكانت في خزانة كتب (الفاتيكان) فسرقها منها راهب اسمه (مريانو) في أواخر القرن السادس عشر، ويظن أنها هي النسخة الموجودة الآن في خزانة كتب بلاط (فيينا). وقد ترجمت هذه النسخة بالانكليزية في هذا العصر فسمينا الى ترجمتها بالعربية سنة ١٣٢٥ وطبعناها طباعاً دقيقاً في مطبعة المنار، وإنما نقل عنها هنا نص بعض بشاراته بنبينا (ص) غير البشارة التي نقلها الشيخ رحمه الله إذ هي متعددة جاء في الفصل الثاني والسبعين من هذا الانجيل ان المسيح عليه السلام أخبر الحواريين أنه سينصرف عن هذا العالم ثم قال:

(٧) فبكي حينئذ الرسل قائلين: يا معلم لما إذا تتركنا، لأن الاخرى بنا أن نموت من أن تتركنا، أجاب يسوع: لانضطرب قلوبكم ولا تخافوا (١) لأنني لست أنا الذي خلقكم، بل الله الذي خلقكم بحميتكم ١٠ أما من خصوصي فاني قد أنبت لأهلي الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص للعالم ١١

ولكن احذروا أن تغشوا لأنه سيأتي أنبياء كذبة (١) كثيرون يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي

١٢ حينئذ قال اندراوس : يا معلم اذكر لنا علامة لنعرفه

(١٣) أجاب يسوع : انه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بمدة سنين حينما يبطل إنجيلي ، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً ١٤ في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء ، يعرفه أحد مختاري الله وهو سيظهره للعالم ١٥ وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة الاصنام من العالم ١٦ واني أمر بذلك ، لانه بواسطته سيعلمن ويمجد الله ويظهر صدقي ١٧ وسينتقم من الذين سيقولون اني أكبر من انسان ١٨ الحق أقول لكم : إن القمر سيعطيه رقاداً في صباه ومتى كبر هو أخذه كفيه ١٩ فليحذر العالم أن يذبذبه لأنه سيفتك بعبد الاصنام ٢٠ فان موسى عبد الله قتل أكثر من ذلك كثيراً ، ولم يبق يشوع على المدن التي أحرقوها وقتلوا الاطفال ٢١ لأن القرحة المزمنة يستعمل لها السكي

(٢٢) وسيجي بحق أجلي من سائر الانبياء وسيوبخ من لا يحسن السلوك في العالم ٢٣ وسيجي طرباً أبراج مدينة آباطنا بعضها بعضاً ٢٤ فني شوهد سقوط عبادة الاصنام الى الارض ، واعترف بأني بشر كسائر البشر . فالحق أقول لكم : ان نبي الله حينئذ يأتي )

وجاء في الفصل السادس والتسعين من محاوره بين المسيح ورئيس كهنة اليهود : ان الكاهن سأله عن نفسه فأجاب بذكر اسمه واسم أمه ، وبأنه بشر ميت ثم قال الانجيل ما نصه :

( ٣ أجاب الكاهن : انه مكتوب في كتاب موسى ان إلهنا سيرسل لنا مسياً الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله ، وسيأتي للعالم برحمة الله ، لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق هل أنت مسيا الذي ننظره ؟ )  
(٥) أجاب يسوع : حقا ان الله وعد هكذا ولكني لست هو ، لأنه خلق

قولي وسيأتي بعدي (١)

(٦) أجاب الكاهن : اننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال انك نبي و قدوس الله ٧ لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها واسرائيل أن تفيدنا جاني الله بأية كيفية سيأتي مسيا؟

(٨) أجاب يسوع : لعن الله الذي تقف بحضرتة نفسي (٢) اني است مسيا الذي تنتظره كل قبائل الارض كما وعد الله أبانا ابراهيم (٣) قائلا : بنسلك أبارك كل قبائل الارض ٩ ولكن عند ما أخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله ١٠ فيتنجس بسبب هذا الكلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا ١١ حينئذ يرجم الله العالم ، ويرسل رسوله الذي خلق كل الاشياء لأجله ١٢ الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبيد الاصنام وعبدة الاصنام ١٣ وسيترزع من الشيطان سلطته على البشر ١٤ وسيأتي برحمة الله لخلص الذين يؤمنون به ١٥ وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا)

ثم قال في الفصل ٩٧ مانصه :

(١) ومع أني است مستحقا أن أحل سيرحذاته قدنلت نعمة ورحمة من الله لاراه (٢) فأجاب حينئذ الكاهن مع الوالي والملك قائلين لا نزعج نفسك يا يسوع قدوس الله لأن هذه الفتنة لا تحدث في زمننا مرة أخرى لاننا سنكتب الى مجلس الشيوخ الروماني المقدس باصدار أمر ملكي أن لا أحد يدعوك فيما بعد الله أو ابن الله (٤) فقال حينئذ يسوع : ان كلامكم لا يعزني لانه يأتي ظلام حيث ترجون النور • ولكن تعزني هي في مجي الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب في وسيمندينه ويم العالم بأمره لانه هكذا وعد الله أبانا ابراهيم ٦ وان ما يعزني هو أن لانهاية لدينه لان الله سيحفظه صحيحا

(١) انجيل يوحنا ١ : ١٥ « ٢ » تكرر هذا القسم في هذا الانجيل وهو بمعنى قول

نينا «ص» «والذي نفس محمد بيده» «٣» تك ٢٢ : ١٨

(٧) أجاب الكاهن : أيأتي رسل آخرون بعد مجيء رسول الله ؟  
 (٨) فأجاب يسوع : لا يأتي بعده أنبياء صادقون مرسلون من الله ٩ ولكن يأتي عدد غير من الانبياء الكذبة وهو ما يحزنني ١٠ لان الشيطان سيثيرهم بحكم الله العادل فيستترون بدعوى انجيلي

(١١) أجاب هيدروس : كيف ان مجيء هؤلاء الكافرين يكون بحكم الله العادل ؟  
 (١٢) أجاب يسوع : من العدل أن من لا يؤمن بالحق لخلاصه يؤمن بالكذب لعنته ١٣ لذلك أقول لكم : ان العالم كان يمتن الانبياء الصادقين دائماً وأحب الكاذبين كما يشاهد في أيام ميسم وأرميا (١) لان الشبيه يحب شبيهه

(١٣) فقال الكاهن حينئذ : ماذا يسمى مسيا؟ وما هي العلامة التي تعلن مجيئه ؟  
 (١٤) أجاب يسوع : ان اسم مسيا عجيب ، لان الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعهما في بهاء سماوي ١٥ قال الله : اصبر يا محمد لاني لاجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجماً غيراً من الخلائق التي أهبطها لك ، حتى ان من يباركك يكون مباركاً ، ومن يلعنك يكون ملعوناً ١٦ ومتى أرسلتك الى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة ، حتى ان السماء والارض تهنان ، ولكن ايمانك لايمن أبداً ١٧ ان اسمه المبارك محمد

(١٨) حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : يا الله أرسل لنا رسولك ، يا محمد  
 تعال سريعاً لخلاص العالم (١) اه

وأما البشارة التي نقلها الشيخ رحمة الله في إظهار الحق فهي من الفصل العشرين بعد المثني ، وليس بعده غير فصلين من هذا الانجيل ، وترجمتها قربية من الترجمة الاخيرة للانجيل كله .

### ( تنبيه )

لقد كان من مواضع ارنياي الباحثين من علماء أوربة في هذا الانجيل ذكره لحاتم النبييز (ص) باسمه العلم عند المسلمين (محمد) وقد ذهب بعضهم الى أن بعض

المسلمين قد دسوا فيه ذلك ، وقوى شبهتهم ما وجد من التعليقات العربية على حواشي النسخة الظليانية الموجودة منه الى هذا العهد

وقد فندنا هذه الشبهة في مقدمتنا لطبعة هذا الإنجيل العربية بما بيناه من استحالة صدور هذه الحواشي عن مسلم ، فانها على فساد لغتها وعجمتها مخالفة لما يعرفه كل مسلم عربياً كان أو عجمياً لأنه من أذكار الدين ككلمة سبحان الله فهي تذكر في هذه الحواشي بتقديم المضاف اليه على المضاف هكذا «الله سبحانه» وبعد أن أوردنا في المقدمة أمثلة أخرى كهذه قلنا :

« ولذلك أمثلة أخرى ، أضف اليها عدم اطلاع المسلمين في الاندلس وغيرها على هذا الإنجيل كما حققه الدكتور مرجليوث المستشرق الانكليزي مؤيداً بتحقيقه مخلو كتب المسلمين الذين ردوا على النصاري من ذكره ، وناهيك بابن حزم الاندلسي وابن تيمية المرقى فقد كانا أوسع علماء المسلمين في الغرب والشرق اطلاعاً كما يعلم من كتبهما ولم يذكر في ردهما على النصاري هذا الإنجيل

« بقى أمر يستنكره الباحثون في هذا الإنجيل بحثاً علمياً لادينا أشد الاستنكار وهو تصريحه باسم «الذي محمد» عليه الصلاة والسلام قائلين : لا يعقل أن يكون ذلك كتب قبل ظهور الاسلام ، إذ المهود في البشارات أن تكون بالكنايات والاشارات ، والعريقون في الدين لا يرون مثل ذلك مستنكراً في خبر الوحي . وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة انكليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بقلم الحيري قبل بعثة النبي (ص) وفيها يقول المسيح ( رمدشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد ) وذلك موافق لنص القرآن بالحرف ، ولكن لم ينقل عن أحد من المسلمين أنه رأى شيئاً من هذه الانجيل التي فيها هذه البشارات الصريحة ، فيظهر أن في مكتبة الفاتيكان من بقايا تلك الانجيل والكتب التي كانت ممنوعة في اقرون الاولى ما لو ظهر لأزال كل شبهة عن إنجيل برنابا وغيره

« على أنه لا يبعد أن يكون مترجم برنابا بالغة الايطالية قد ذكر اسم «محمد» ترجمة ، وان يكون قد ذكر في الاصل الذي ترجم هو عنه بلفظ يفيد معناه كلفظ

البارقليط ، ومثل هذا التساهل معهود عند المسيحيين في الترجمة كما بينه الشيخ  
رحمة الله بالشواهد الكثيرة من كتبهم في الأمر السابع من المسلك السادس من  
الباب السادس من كتابه إظهار الحق، وزاده بعد ذلك بياناً في البشارة الثامنة عشرة هـ  
وإنني أزيد مثالا على ما سبق من اختلاف ترجمة الاعلام والالقاب والصفات  
في كتب أهل الكتاب يقرب لفهم القارىء هذه المسألة وهو ما جاء في نبوة النبي  
حجبي من البشارة بنبينا صلى الله عليه وسلم قال :

### بشارة النبي حجبي بمحمد (ص)

« ٢ : ٦ هكذا قال رب الجنود : هي مرة بعد قليل فأززل السموات  
والارض والبحر واليابسة ٧ وأززل كل الامم ، ويأتي مشتهى كل لام فأملأ  
هذا البيت مجداً ، قال رب الجنود ٨ لي الفضة ولي الذهب يقول رب الجنود ٩  
مجد هذا البيت الاخير يكون أعظم من مجد الاول ، قال رب الجنود ١٠ وفي  
هذا المكان أعطي السلام ، يقول رب الجنود »

أقول قبل كل شيء : إن اسم أو لقب « مشتهى الامم » هو في الاصل  
العبراني عند اليهود « حمدوت » ومعناه الذي يحمد فهو صيغة مبالغة من الحمد كلكوت  
من الملك . فحمدوت الامم هو الذي يحمده الامم ، وهو معنى محمد ومحمود ، فالاول اسم  
فاعل من حمده بالتشديد اذا حمده كثيراً ، ومن يحمده الامم يكون محموداً جداً كثيراً  
أي محمداً . والثاني اسم مفعول من حمد الثلاثي ، ومحمود من أسماءه صلى الله عليه وآله وسلم  
فهل بعد هذا يبعد أن يكون لفظ الفارقليط اليوناني مترجماً من لفظ حمدوت  
العبراني ، ونسخ الإنجيل العبرانية التي نقلت ألفاظ المسيح عليه السلام بحروفها  
قد فقدت ولا تدري سبب فقدتها ؟ بل نحن معاشر المسلمين نهم مجامع الاساقفة  
التي تحكمت في الانجيل القديمة ، فعدت بعضها قانونياً وبعضها غير قانوني ،  
وصاروا يتأفون ما هو غير قانوني ؛ بل نحن لانعتد بتدبير القيصر قسطنطين  
الاول ولا نعتد اخلاصه فيه ، بل نعتد أن ذلك كان عملاً سياسياً منه ، وانه اخته ان  
بالمجامع على تحويل النصرانية عن صراط التوحيد الى وثنية القدماء من اليونانيين

وأسانذتهم من قدماء المصريين، الذين دأبوا بعبادة التثليث قبل المسيح بألوف من السنين . ولو بقيت نسخ تلك الانجيل لكان لأهل العلم الاستقلالي في الغرب والشرق من التحقيق فيها ما لم يكن لأوائلك الاساقفة الذين قبلوا منها ما وافق اعتقادهم وردوا ما لم يوافقهم ، كأن عقائدهم التقاليدية المتأثرة بنصرانية قسطنطين السياسية بعد ثلاث قرون خات للمسيح هي الاصل ، والانجيل المتأثرة هي الفرع، تعرض على تلك التقاليد فيقبل منها ما وافقها ويرد ما خالفها ؟ وها نحن أولاً نرى إنجيل برنابا أرقى من هذه الانجيل الاربعة في العلم الالهي والثناء على الخالق عز وجل ، وفي علوم الاخلاق والآداب والفضائل ، فان كان بعض الباحثين كاللككتور خليل سعادة الذي ترجم لنا هذا الانجيل يعلل هذا بموافقة لفاصلة ارسطو التي كانت رائجة في قرون المسيحية الاولى — فان بعض علماء أوربة الباحثين المستقلين قد طعن بمثل هذه الشبهة في شريعة موسى وفي آداب الانجيل الاربعة فقالوا : إن التوراة مستمدة من شرائع المصريين الذين نشأ موسى في حبر فرعونهم — ثم قال بعضهم : إنها مستمدة من شريعة حمورابي التي هي أصل شرائع البابليين وكانت كتابة التوراة الحاضرة بعد السبي البابلي ، وفيها ألوف من الكلمات البابلية — وقالوا : إن الآداب المسيحية مستمدة من كتب اليونان والرومان في الفلسفة العملية الاخلاق . . .

ونحن مع أهل الكتاب لا نعتد بهذه الشبهات ، ولكننا نقيم الحجة عليهم بها في مثل المقام الذي نحن فيه وأمثاله مما لا محل لبسطه هنا ثم ان بقية بشارة حجي لا تصدق على غير نبينا صلى الله عليه وسلم محمد الامم فهو الذي زلزل رب الجنود بميثته العالم ، ونصره بالجنود وبالجمجمة جهمياً ، وكان مجد دين الله به أعظم من مجده بموسى وسائر أنبياء قومه وفرضت شريعة الزكاة وخمس الغنائم تنفق في سبيل الله فكانت الفضة والذهب لله — وفي النسخة السبعينية للعهد القديم : إن الآية التاسعة من هذه البشارة « إن المجد القديم لهذا البيت أعظم من المجد الذي كان للهيكل الاول » وهذه العبارة أظهر في المراد من ترجمة النصارى التي نقلنا عنها ، وحسبنا هذا من البشارات الكثيرة ، ومن



يهدي الله فهو المهتدي ، ومن يضل فلا هادي له ، ونحمده تعالى ان جعلنا من  
أمة خاتم رسله والدعاة الى ملته وصلى الله عليه وآله وسلم تسليماً

(١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ  
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَنبَأُوا بِاللَّهِ  
وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ  
تَهْتَدُونَ

ذكرت رسالة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم في الآية التي قبل هذه من قصة  
موسى عليه السلام استطراداً بحسب نظم الكلام، ولكنها هي المقصودة بالذات من  
القصة ومن سائر قصص الرسل عليهم السلام ، ولما كان ذكرها في سياق القصة  
لدعوة أهل الكتاب إلى الاسلام وإقامة الحججة عليهم بذكره (ص) في كتبهم  
والبشارة برسالته على السنة أنبيائهم ، وبيان ما يكون لهم من الفلاح والفوز  
بالإيمان به (ص) واتباعه ناسب أن يقف على ذلك ببيان صوم بعثته (ص) ودعوة الناس  
كافة إلى الإيمان بالله تعالى وبه ، فقال عز وجل مخاطباً له صلواته وسلامه عليه :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ هذا خطاب عام لجميع البشر  
من العرب والعجم وجهه إليهم محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشمي بأمر الله تعالى ينبئهم  
به أنه رسول الله تعالى إليهم كافة، لا إلى قومه العرب خاصة كما زعمت العيسوية من  
اليهود، فهو كقوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) وقوله  
(وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أي وأنذره كل من بلغه من  
الثقلين ، فمن قال أنه يؤمن برسالته إلى العرب خاصة لا يمتد بإيمانه لأنه مكذب لهذه  
النصوص العامة القطعية بما جاء به . وما في معناها كقوله تعالى (تبارك لدى  
نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة  
للعالمين) وهو يشمل عقلاء الجن . وفي هذا المعنى أحاديث صحيحة ناطقة  
باختصاصه صلى الله عليه وسلم بالرسالة العامة كحديث جابر في الصحيحين وغيرها  
قال رسول الله (ص) « أعطيت خمسمائة عظماء يخدمون الأنبياء قبلي : نصرت بالعرب  
مسيرة شهر ، وجهات لي الأرض سجداً وطهوراً فأما رجل من أتى أدركته الصلاة

فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » وفي رواية كافة . ورواه آخرون عن غيره بألفاظ أخرى . ولما كانت الشفاعة على إطلاقها غير خاصة به (ص) ذهب الجمهور إلى أن الخاص به الشفاعة العظمى لجميع الخلق بفصل القضاء فيهم ومحاسبتهم ليعلم مستقر كل منهم ، وفي أحاديث الصحيحين وغيرهما أن أهل الموقف يرسلون الوفود إلى آدم فنوح فأبراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام يطلبون منهم الشفاعة عند الله تعالى بفصل القضاء ، فيعترف كل منهم بأن هذا ليس من شأنه ويقول « لست هناك » ويطلب النجاة لنفسه ويحيلهم على من بعده ، حتى إذا أحاطهم عيسى على محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين أجابهم إلى طلبهم وقال « أنا هنا » وفي رواية « أنا صاحبكم » فيشفع في فصل القضاء بين الخلق فتقبل شفاعته . وقيل إن المراد غير هذه الشفاعة وقيل ما يعمها وغيرها ، والروايات في الشفاعة متداخلة مضطربة ، ولسنا بصدد تحقيق القول فيها

ثم وصف الله عز وجل نفسه في هذا المقام بتوحيد الربوبية وتوحيد

الالهية وبالاحياء والامانة فقال ﴿ الذي له ملك السموات والارض لا إله

إلا هو يحيي ويميت ﴾ والمراد بملك السموات والارض التصرف والتدبير في العالم كله لما جرى عليه عرف البشر من أن السموات هي العوالم التي تعلو هذه الارض التي يمشون فيها وصاحب الملك والتصرف والتدبير فيهما هو ربهما رب العالمين ، وهو واحد ، ولو كان لغيره تصرف لتعارض مع تصرفه وفسد النظام العام ، فان وحدة النظام في جملة المخلوقات وعدم التفاوت والعارض فيها دليل على وحدة مصدرها وتدبيرها ، وإذا كان رب الخلاق واحداً وجب أن يكون هو المعبود وحده ، لا إله الا هو ، والتوحيد بقسميه : توحيد الربوبية بالايان وتوحيد الالهية بالايان والعمل أي عبادة الله وحده — هما أصل الدين وأساسه ، والركن الاول لعقائده ، وقد اقترن برسالة الرسول (ص) وهي الركن الثاني ، وأما وصفه تعالى بالاحياء والامانة وهو بعض تصرف الرب في خلقه فيتضمن عقيدة البعث بعد الموت التي هي الركن الثالث من أركان الايمان ، فقد أدمجت في دعوى الرسالة أركان الدين الثلاثة — وهو من ابجاز القرآن الغريب — وبني على ذلك الدعوة إلى الايمان على طريقة التفرير على هذا

الاصل بل الاصول ، وذلك قوله عز من قائل

﴿ فَأَمَّا نوحًا بما آتاه الله من رسوله الذي ألقى إليه الكتاب والحيمة والحكمة فآمن به ﴾ أي آمنوا بأمرها الناس من جميع الامم بالله الواحد في رسوليته وألوهيته الذي يحيى كل ما تحل الحياة في العالم ، ويميت كل ما يعرض له الموت بعد الحياة ، وهذا امر يتجدد كل يوم فتشاهدونه ومثله البعث العام بعد الموت العام وخراب هذا العالم ، وآمنوا برسوله المطلق الممتاز بانه النبي الامي الذي بعثه في الاميين (العرب) رسولاً الى الخلق أجمعين ، يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويظهرهم من خرافات الشرك والذائل والجهل والتفرق والتعادي بمصيبيات الاجناس واللغات والاطنان ليكونوا بهدايته أمة واحدة يتحقق بها الاخاء البشري العام ، وقد بشر به الانبياء الكرام عليهم السلام ، لانه انتم المكمل لما بعثوا به من هداية الاقوام ، وأميته (ص) من أعظم معجزاته ، وأية آية على صحة دعوى الرسالة أقوى وأظهر من تعليم الامي الذي لم يتعلم شيئاً لجميم الامم ، ما فيه صلاحهم وفلاحهم من العلوم والحكم ؟

﴿ الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ أي يؤمن بما يدعوكم الى الايمان به من توحيد الله تعالى وكلماته التشريعية التي أنزلها لهداية خلقه ، وهي مظهر علمه وحكمته ورحمته ، وكلماته التكوينية التي هي مظهر إرادته وقدرته وحكمته . وبعد أمرهم بالايان أمرهم بالاسلام فقال ﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ أي واتبعوه بالاذعان الفعلي لسكل ما جاءكم به من أمر الدين فعلا وتركاً ، رجاء اهتدائكم بالايان واتباعه لما فيه سعادتم في الدنيا والآخرة ، فثمرة الايمان والاسلام اهتداء صاحبها ووصوله بالفعل لسعادة الدارين كما فصلناه في غير هذا الموضع ، ودليله الفعلي في الدنيا انه ما آمن قوم بنبي الا وكانوا بعد الايمان به خيراً مما كانوا قبله من هناء المعيشة والعزة والكرامة في دنياهم ، وأظهر التواريخ وأقربها عهداً تاريخ الامة الحمديّة ، ومن العجائب أن يصل بهم الجهل بعد ذلك الى ترك هذه الهداية التي نالوا بها الملك العظيم والعز والسؤدد والغنى والحضارة ، وأعجب منه أن يزول المملول بزوال علمه وهم لا يشعرون به فيعودوا اليه ، وأعجب من هذين أن يصل بهم الجهل الى أن يمتدّد كثير منهم في هذا العصر أن هداية الاسلام التي سعدوا بها ثم شقوا بتركها هي سبب هذا الشقاء الاخير لا تركها

### فصل في معنى اتباع الرسول وموضوعه ولوازمه

قوله تعالى هنا ( واتبعوه ) أعم من قوله في الآية التي قبلها ( واتبعوا النور الذي أنزل معه ) فتلك في اتباع القرآن خاصة وهذه تشمل اتباعه صلى الله عليه وسلم فيما شرعه من الأحكام من تلقاء نفسه، على القول بأن الله تعالى أعطاه ذلك واذن له به، واتباعه في اجتهاده واستنباطه من القرآن إذا كان تشريعاً - كتشريم الجرم بين المرأة وعمتها أو خالتها كالجمع بين الاختين المنصوص في القرآن - ولا يدخل فيه اتباعه فيما كان من أمور العادات كحديث «كلوا الزيت وادهنوه فإنه طيب مبارك» رواه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة والحاكم وصححه ورواه غيرهما بالفاظ أخرى وأسانيده ضعيفة، وحديث «كلوا البلح بالتمر» الخ رواه النسائي وابن ماجه والحاكم عن عائشة وصححوه، فإن هذا من أمور العادات التي لا قرينة فيها ولا حقوق تقتضي التشريم، بخلاف حديث «كلوا الحوم الاضاحي وادخروا» رواه احمد والحاكم عن ابي سعيد وقتادة بن النعمان وسنده صحيح. فإن الاضاحي من الذسك، والاكل منها سنة فأمر المضحي به للندب، وادخارها جائز له، ولولا الامر به لظن تحريمه أو كراهته لعلاقة الاضاحي بالعيد فهي ضيافة الله تعالى للمؤمنين في أيام العيد. فالتشريم إما عبادة أمرنا بالتقرب الى الله تعالى بها وجوباً أو ندباً، وإما مفسدة نهينا عنها اتقاء لضررها في الدين تدعاء غير الله فيما ليس من الاسباب التي يتعاون عليها الناس وككل المذبوح لغير الله وتعظيم غير الله بما شرع تعظيم الله به من الذبح له والحلف باسمه - أو لضررها في العقل أو الجسم أو المال أو العرض أو المصلحة العامة - وإما حقوق مادية أو معنوية أمرنا بأدائها الى أهلها كالموارث والنفقات ومعاشرة الأزواج بالمعروف، أو أمرنا بالتزامها لضبط المعاملات كالوفاء بالعقود، وبإدخال حكم الاستحباب وحكم كراهة التنزيه في التشريم تتسم أحكامه في أمور العادات كما يعلم مما يأتي

ليس من التشريم الذي يجب فيه امتثال الامر واجتناب النهي ما لا يتعلق به حق لله تعالى ولا خلقه لاجب مصلحة ولا دفع مفسدة كالعادات والصناعات والزراعة والعلوم والفنون المبنية على التجارب والبحث وما يرد فيها من أمر ونهي يسميه العلماء ارشاداً لا تشريعاً الا ما ترنب على النهي عنه وعيد كلبس

الحريير ، وقد ظن بعض الصحابة (رض) أن انكار النبي (ص) لبعض الامور  
الدينيوية المبنيّة على التجارب للتشريع كتنقيح النخل فاستنوعوا عنه فاشاص (خرج  
ثمره شيئاً أي رديئاً أو يابساً) فراجعوه في ذلك فأخبرهم أنه قال ما قال عن  
ظن ورأي لاعن تشريع وقال لهم «أنتم أعلم بأمر دنياكم» والحديث معروف  
في صحيح مسلم وحكمته تنبيه الناس الى أن مثل هذه الامور الدينيوية  
والمعاشية كالزراعة والصناعة لا يتماق بها لذاتها تشريع خاص بل هي متروكة  
الى معارف الناس وتجاربهم

وكانوا يراجعونه أيضاً فيما يشبه عليهم أهو من رأيه (ص) واجتهاده الدينيوي أو  
بأمر من الله تعالى وان لم يكن تشريعاً كسؤاله عن الموضع الذي اختاره للنزول  
فيه يوم بدر ، قال له الحباب بن المنذر (رض) : أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا  
متقدم عنه ولا متأخر ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فلما أجابه بأنه رأي  
لاوحي وان الممول فيه على المصاحبة ومكايد الحرب أشار بغيره فوافق (ص)  
واذا اشتبه على بعض الصحابة بعض هذه المسائل فغيرهم أولى بأن يعرض  
لهم الاشتباه في كثير منها ، وكان النبي (ص) يبين لاولئك الحق فيما اشتبهوا  
فيه ، ومن ذا يبين ذلك من بعده ؟ ولولم يتخذ الناس اجتهاد العلماء من بعده  
دينا يوجبون اتباعه لكان الامر ، ولكن الخاذه ديننا قد كثرت به التكاليف ،  
ووقم المسلمون به في حرج عظيم في الازمنة التي ضعف فيها الاتباع ، فثقلت  
على الطباع ، فصاروا يتركون ما ثقل عليهم منها ، وجرأهم ذلك على ترك المشروع  
القطعي الذي لا حرج ولا عسر فيه ، ثم جرهم ذلك الى ترك بعضهم للدين كله  
ودعوة غيرهم الى ذلك ، والجاهلون من مقلدة الفقه المتشددين في إلزام الامة للتدين  
باجتهاد الفقهاء لا يشعرون بهذه العاقبة السوءى ولا يباليون إذا أشعرهم المصلحون  
مثال ما شدد به بعضهم من ذلك صبغ الشيب بالسواد هو من الامور العادية  
المتعلقة بالزينة المباحة اذ لا تعبد فيه ولا حقوق لله ولا للناس ، إلا ما قد يعرض فيه  
وفي مثله كالزني من كون فعله أو تركه صار خاصا بالكفار وفعله بعض المسلمين تشبها  
بهم أو صار بفعله مشابه لهم بحيث يعد منهم ، وفي ذلك ضرر معنوي وسياسي  
معروف عند الباحثين في سنن الاجتماع من كون المتشبه بقوم تقوى عظمتهم في  
نفسه من حيث تضعف فيها رابطة بقوه وأهل ملته ، وقد ورد في صبغ الشيب  
أخبار وآثار يدل بعضها على استحبابه عادة لعبادة ولو بالسواد ، وفهم بعض

العلماء منها استجبايه شرعا ، وفهم آخرون من بعض آخر كراهته بالسواد ، بل قال المشددون منهم بتحريمه فصار المقلد وزلمهم ينكرون على فاعله ويمدونه طاميا لله تعالى ، نخالقوا هدي لساف في المسألة وفي القاعدة العامة وهي عدم الإنكار في المسائل الاجتهادية التي وقع فيها الخلاف

فن الاخبار في المسألة ماور في الصحيح أن أبا قحافة والد أبي بكر الصديق (رض) جاء أو أتى به يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالنظام (١) بياضا فقال رسول الله (ص) «غيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد» فاستدل الشافعية بهذا الحديث على تحريم الصبغ بالسواد مع أن الحديث في واقعة عين تتعلق بامر عادي فلاهي من مسائل الحرام والحلال ولا من المسائل التي يعتبر فيها العموم كما هو مقرر في الاصول، وهي مع ذلك معارضة باطلاق الامر بصبغ الشيب الموجه للإمامة وهو قوله (ص) «ان اليهود والنصارى لا يصبغون نخالقوهم» رواه الشيخان واصحاب السنن الاربعة - وبقوله (ص) «ان احسن ماغيرتم به هذا الشيب الحناء والكتم» وظاهره تفييره بهماما والالتقال أو الكتم، ويؤيده ما صح عن أبي بكر الصديق (رض) انه كان يخبض بالحناء والكتم معا ، وقد حقق العلامة ابن الاثير أن الخضاب بهما معا يكون اسود وقال بعضهم انه اسود يضرب الى الحمرة أي ليس حالكا ، والجزم بين القولين أنه يكون شديد السواد اذا كان قويا مشبعا ويضرب الى الحمرة اذا كان خفيفا وهو اسود على كل حال وذكر بعض العلماء أن سبب امر النبي (ص) باجتنباب السواد في تغيير شيب أبي قحافة انه لم يستحسنه لشيخ بلغ من الكبر عتيا وكان شعر رأسه ولحيته كالنظام في شدة بياضه كله ، ومن رجم الى ذوق البشر العام ادرك أن السواد لا يلبق بمثله ويؤيده ما ذكره الحافظ في الفتح عن ابن شهاب الزهري انه قال : كنا نخبض بالسواد اذا كان الوجه جديدا فلما نقض الوجه والاسنان تركناه اه ولمثل هذه الخصوصيات قال الاصوليون أن وقائم الاعيان لاعموم لها

وذكر الحافظ في الفتح أيضا ان الذين أجازوا الصبغ بالسواد تمسكوا بالامر المطلق بتغييره مخالفة للإعاجم ا وقال ( وقد رخص فيه طائفة من السلف منهم سعد بن أبي وقاص وعقبة بن عامر والحسن والحسين وجريز وغير واحد (أي من الصحابة ) أقول وقد نقل النووي في شرح الحديثين من صحيح مسلم عن

«١» النظام بالفتح نبت له نور أبيض شديد البياض واحده نظام

(تفسير القرآن الحكيم) (٢٩) (الجزء التاسع)

القاضي عياض بمدجزمه هو بأن الاصح المختار عند الشافعية تحريم السواد مانصه: «وقال القاضي اختلف السلف من الصحابة والتابعين في الخضاب وفي جنسه فقال بعضهم ترك الخضاب أفضل ورووا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم في النهي عن تغيير الشيب ولأنه صلى الله عليه وسلم لم يغير شيبه، روي هذا عن عمرو بن علي وأبي آخرين رضي الله عنهم وقال آخرون الخضاب أفضل وخضب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم للاحاديث التي ذكرها مسلم وغيره، ثم اختلف هؤلاء فكان أكثرهم يخضب بالصفرة منهم ابن عمرو وأبو هريرة وآخرون وروى ذلك عن علي وخضب جماعة منهم بالحناء والكتم وبعضهم بالزعفران وخضب جماعة بالسواد روي ذلك عن عثمان والحسن والحسين أبي علي وعقبة بن عامر وابن سيرين وأبي بردة وآخرين (قال القاضي) قال الطبراني (١) الصواب أن الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم بتغيير الشيب وبالنهي عنه كلها صحيحة وليس فيها تناقض بل الامر بالتغيير لمن شيبه كشيبة أبي قحافة والنهي لمن له شمط فقط (قال) واختلف السلف في فعل الامرين بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك مع أن الامر والنهي في ذلك ليس للوجوب بالاجماع، ولهذا لم ينكر بعضهم على بعض خلافه في ذلك (قال) ولا يجوز أن يقال فيهما ناسخ ومندوخ (قال القاضي) وقال غيره هو على حالين فمن كان في موضع عادة أهله الصبغ أو ترده نخر وجهه عن العادة شهرة ومكرهه والثاني انه يختلف باختلاف نظافة الشيب فمن كانت شيبته تكون نقية أحسن منها مصبوغة فالترك أولى ومن كانت شيبته تستبشم فالصبغ أولى (قال النووي) هذا ما نقله القاضي والاصح الاوفق للسنة ما قدمناه عن مذهبنا والله أعلم اهـ

أقول إن هذا الاصرار من النووي رحمه الله تعالى على تصحيح مذهب أصحابه وجعله أوفق للسنة من غريب تعصبه لهم بعد العلم بعمل بعض عظماء الصحابة والتابعين بخلافه ومما أثر ما نقله عن القاضي وغيره في المسألة، ومنه قول الامام الطبري من أن الامر في هذه المسألة - وكذا أمثالها - ليس للوجوب والنهي ليس للتحريم لانها من أمور العادات والزينة والتجمل بين الناس، وما نقله عنه وعن غيره من كونها تختلف باختلاف السن وباختلاف المادة والاحوال بين الناس ويعتبر فيها الذوق في الزينة هو الصواب كما قال الطبري، وأي مدخل للتحريم في مثل هذا ولا محرم في الشريعة السمحة الا ما كان ضارا؟

(١) كذا في الاصل، والذي اذكره ان قائل هذا هو الامام الطبري لا الحافظ الطبراني

وقد سبق لنا تفصيل لهذه المسألة وأمثالها كمن القنطرة في فتاوى المنار، ومنه أن حديث ابن عباس عند أبي داود « يكون قوم في آخر الزمان يخضبون بالسواد كجواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة » ضعيف متنا وسنداً بل قال ابن الجوزي أنه موضوع ويؤيده أن من آيات الوضع في متنه الوعيد بالحرمان من رائحة الجنة على أمر من العادات ولا يحرم من الجنة إلا الكافر بالمعنى الاخص دع مخالفته لحديث الصحيحين ، وفي سنده عبدالكريم غير منسوب والظاهر انه ابن أبي الخارق وهو ضعيف ، فان قيل يحتمل أنه الجزري الذي روى عنه الشيخان قلنا التصحيح لا يثبت بالاحتمال ولا سيما في أمر مخالف لاصول الشرع كهذا الوعيد وان ابن حبان منع من الاحتجاج بما ينفرده عبدالكريم الجزري كهذا الحديث وما نقله القاضي عن الذين اختاروا عدم تغيير الشيب من أن النبي (ص) لم يغير شيبته غير صحيح بل ثبت في الصحيح أنه خضب رواء البخاري وغيره عن ابن عمر وأم سلمة وله باب في شمائل الترمذي فيراجم مع شروحه . وفي الاصول أن أعماله (ص) لا تدل من حيث هي على وجوب ولا نذبة شرعي وإنما تدل على الإباحة لانه لا يفعل الحرام ، وعدم فعله لعادة من عادات الناس أولى بأن لا يدل على حرمتها ولا كراهتها دينا . وقد صح انه نذبه الامة الى أن بعض أعماله في بعض العبادات لم يقصد بها التشريع كموقفه في عرفات والمزدلفة لئلا يلزموها تدينا فيكونوا قد شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله . على أن من توخى اتباعه عليه صلوات الله وسلامه في العادات حبا فيه وتذكراً لحياته الشريفة بدون أن يعتقد أن ذلك من الدين أو يؤهم الناس ذلك أو يتحمل ضرراً لا يباح التعرض له شرعاً ومن غير أن يكون سبب شهرة مذمومة شرعاً — فحدير بأن يكون اتباعه هذا من يدك كل في ايمانه من حيث انه بتحري ذلك يزيد تذكره للنبي (ص) وحببه له ، وقد انقرد من الصحابة ابن عمر (رضي الله عنهما) بتبعية أعماله وعاداته وتقلبه في سفره ولا سيما سفر حجة الوداع وتحري اتباعه في ذلك كله ولم يكن سائر الصحابة يفعلون ذلك لئلا يعده الناس تشريفاً فيكون جناية على الدين فالزيادة فيه كالتقص منه وهي تتضمن تكذيب قوله تعالى (أذات لكم دينكم) وجوب تبليغ دعوة الاسلام ورسالة محمد بلجميع البشر

ومما يدخل في أحكام رسالته (ص) للناس كافة أن الله تعالى لا يقبل ايمان أحد بلغته دعوته على وجهها الصحيح الا بالايان به واتباعه ، وأنه يجب على



أتمه أي أمة الاجابة وهم الذين اهدوا بما جاء به من الايمان والاسلام ، أن يبلغوا دعوته لجميع الناس من جميع الانم ، على الوجه الذي يحرك إلى النظر ، ويجب أن يكون القائمون بذلك منهم جماعات تتعاون عليه اذ لا يعني الافراد غناء الجماعات ، سواء أكانت الدعوة إلى أصل الايمان الاجمالي الذي هو بدء الدعوة --- أم إلى الشرائع التفصيلية والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويشمل ذلك كله قوله تعالى ( ٤ : ١٠٤ ) ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ) وقد ذكرنا في تفسيرها ما بسطه شيخنا الاستاذ الامام من كون الراجح المختار أن قوله تعالى ( ولتكن منكم أمة ) نجر يد كقول الفائل : ليكن لي منك صديق . أي لتكن صديقا لي ، وأنه يجب على جميع المسلمين أن يكونوا دعاة إلى الخير الاعظم الذي هداهم الله إليه ، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، كل على قدر حاله واستطاعته كما كان المسلمون في الصدر الاول ، وانه مع ذلك يجب أن يتألف للدعوة جماعات تعد لها عدتها وان هذا متعين على الوجه الآخر في الآية وهو جعل منكم للتبعيض الخ ( راجع ص ٢٧ - ٤٥ ج ٤ تفسير وكذا ص ٢٨ منه )

وتبليغ الدعوة إلى الاسلام على الوجه الذي تقوم به الحججة يختلف باختلاف الزمان والمكان والافراد والاقوام ، فقد كان مشركو العرب في عصر البعثة يؤمنون بأن الله تعالى هو رب العالمين وخالق الخلق ومدبر أموره وانما كانوا يشركون بعبادته غيره من الملائكة والجن والاصنام زاعمين أنهم يقربونهم إليه زانق ويشفعون لهم عنده فيقضي لهم حاجهم من جاب خير ودفع ضرر بوساطتهم ، وكانوا ينكرون البعث والحياة بعد هذه الحياة الدنيا وينكرون الرسالة والوحي من الله لبعض البشر ، فكان النبي ( ص ) يدعوهم أولا إلى التوحيد الذي هو عنوان الاسلام وباب الدخول فيه لانه الركن الاعظم ، ثم انه كان يقيم لهم الحجج والبراهين على توحيد الالهية وهو افراد الله وحده بالعبادة وعلى حقيقة الرسالة والبعث والجزاء مع دفع ما عندهم من الشبهات على ذلك كما تراء مفصلا في سورة الانعام التي هي أجمع سورة في القرآن لذلك وكذا في غيرها من السور المكية . ويبي ذلك دعوتهم إلى اصول الشريعة وقواعدها الكلية في الآداب والفضائل والحلال والحرام ثم إلى الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فكانوا يؤمنون بالله وبالوحي

والرسل والبعث والجزاء ، ولكن دخات على أكثرهم الوثنية القديمة بجميع أصولها وفروعها ولا سيما النصارى الذين أقاموا عقيدتهم على أساس التثليث المعروف عن قدماء المصريين والهنود وغيرهم من الوثنيين ، وكان اليهود يزعمون أن النبوة والرسالة محصورة في بني إسرائيل لا يمكن أن يبعث الله رسولا من غيرهم ، وكانت التوراة قد فقدت في غزو البابليين لهم . ثم كتب بعضهم لهم توراة بعد عدة قرون هي عبارة عن تاريخ ديني مشتمل على قصص الأنبياء إلى عهد موسى وهارون وعلى ما تذكر الكتاب من شريعة التوراة مع تحريف وأغلاط كثيرة ، وكان الإنجيل الذي جاء به عيسى عليه السلام من وعظ وتعليم وبشارة قد ادعاه كثيرون فظهر في العصر الأول بعده زهاء سبعين أنجيلا اختار الجمهور الذي جمع شمله الملك قسطنطين الوثني الذي تنصر سياسة أربعة منها فيها كثير من الخلاف والتعارض ، وذلك بعد المسيح بثلاثة قرون . وفشا فيهم منذ عهد هذا الملك الوثني المنتصر عبادة السيدة مريم عليها السلام وغيرها من الصالحين حتى صارت الكنائس النصرانية كلها كل الأوثان مملوءة بالصور والنماثيل المعبودة — فكانت دعوة النبي ( ص ) إياهم إلى الإسلام وحججه عليهم آتي أنزلها الله عليه في القرآن تختلف من بعض الوجوه عن دعوة المشركين الأصليين كما تراهم مبسوطا في السور الطول الرابع الأولى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة — ففي الجزء الأول من البقرة من القرآن : يوجه أكثر الكلام إلى اليهود وذكرت فيه النصارى بالعرض — وأوائل سورة آل عمران نزلت في حجاج نصارى نجران . وفي أواخر النساء كلام في أهل الكتاب أكثره في النصارى — وجل سورة المائدة في أهل الكتاب عامة والنصارى خاصة وأما هذا العصر فقد كثرت فيه الملاحدة والمعطلة ، وتجددت للكفار على اختلاف فرقهم شبهات جديدة يتوكلون فيها على مسائل من العلوم العصرية لم تكن معروفة عند الأقدمين ، وحدثت للناس آراء ومذاهب في الحياة فيها الحسن والتبجح ، والنافع والضار ، بل منها ما قد يفضي إلى فساد العالم وتقويض دعائم العمران . ومثل ذلك كله ذبوع التعامل المادية وفوضى الآداب وتدهور الأخلاق وتغلب الرذائل على الفضائل ، وقد ظهر هذا الفساد في أفضع صورة في حرب المدينة الكبرى وما ولدته من تفاقم شره .

المستعمرين وشركهم ومخائهم في الشرق ، وانتشار الباشقية وفسادها في البلاد الروسية وغيرها، وبث دعوتها في العالم - فصار من الواجب مراعاة ذلك في الدعوة الى الدين والاحتجاج له ورد الشبه التي توجب اليه . وقد ذكرت في تفسير آية سورة آل عمران المشار اليها آنفاً (أي ٤ : ١٠٤) حاجة الداعي الى الاسلام في هذا الزمان الى أحد عشر علماً منها السياسة واللغات الاقوام الذين توجه اليهم الدعوة وأشهرت هنالك الى مقالة كنت كتبتها قبل ذلك في المنار في الدعوة وطريقها وآدابها

اللغة العربية لغة الاسلام

ومما يدخل في بحث اتباع صلوات الله وسلامه عليه تعلم لغته التي هي لغة الكتاب الالهي الذي أوحاه الله تعالى اليه وأمر جميع من اتبعه ودان بدينه أن يتعبده به وان يتلوه في الصلاة وغير الصلاة مع التدبر والتأمل في معانيه، وذلك يتوقف على اتقان لغته وهي العربية . فالمسلمون يباغون الدعوة لكل قوم بلغتهم حتى اذا ما هدى الله من شاء منهم ودخل في الاسلام علموه أحكامه وانيته ، كذلك كان يفعل الخلفاء الفاتحون في خيرات القرون وما بعدها الى ان تغلبت الاعاجم على العرب وسلبوهم الملك فوقفت الدعوة الى الاسلام وضعف العلم بالعربية الى أن قضى عليها الترك وحرمتها حكوماتهم عليهم في هذا الزمان ، لتقطع كل صلة اهم بدين القرآن ، وقد فصلنا هذه المباحث في مجلة المنار تفصيلاً

ومما نشرناه في هذا الموضوع مقال في لغة الاسلام نشرناه أولاً في بعض الجرائد اليومية وفيه تصريح الامام الشافعي رضي الله عنه بوجوب تعلم اللغة العربية على جميع المسلمين في رسالته في أصول الفقه ، ذلك بأنه بين ان القرآن كله نزل بلسان العرب ايس فيه شيء ، إلا بلسانهم ثم قل ما نصح: « فان قال قائل : ما الحجية في ان كتاب الله محض بلسان العرب لا يحاطه فيه غيره؟ فالحجة فيه كتاب الله ، قال تبارك وتعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليعين لهم)

« فان قال قائل : فان الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يرسلون الى قومهم خاصة ، وان محمداً صلى الله عليه وسلم بعث الى الناس كافة ، ( قيل ) فقد يمتثل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ويكون على الناس كافة أن يتعلموا

لسانه ، أو ما يطبقونه منه . ويحتمل أن يكون بعث بالسنتهم ( ١ ) ؟ فان قال قائل : فهل من دليل على انه بعث بلسان قومه خاصة دون السنة المعجم ؟؟ قال الشافعي رحمه الله تعالى : فالدلالة على ذلك بيينة من كتاب الله عزوجل في غير موضع ، فاذا كانت السنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض ، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع ، وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز - والله تعالى أعلم - أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد ، بل كل لسان تبع لسانه وكل أهل دين قبله فعليه -م اتباع دينه ، وقد بين الله تعالى ذلك في غير آية من كتابه . قال الله عز ذكره ( وأنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ) وقال ( وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ) وقال ( وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها ) وقال تعالى ( حم والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون )

قال الشافعي رحمه الله تعالى : فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها ، ثم أكد ذلك بأن نفي عنه جل وعز كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى ( ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ) وقال ( ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ؟ أعجمي وعربي ؟ )

« قال الشافعي رحمه الله تعالى : وعرفنا قدر نعمه بما خصنا به من مكانه فقال تعالى ( لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه . . . ) الآية ، وقال ( هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم ) الآية . وكان مما عرف الله تعالى نبيه عليه السلام من انعامه ان قال ( وانه لذكر لك وتقودك ) فخص قومه بالذكر معه بكتابه وقال ( وانذر عشيرتک الاقربين ) وقال ( لتنذر أم القرى ومن حولها ) وأم الذي مكة

وهي بلده وبلد قومه ، فجعلهم في كتابه خاصة ، وأدخلهم مع المذنبين عامة ، وقضى أن يندروا بلسانهم العربي لسان قومه منهم خاصة

«فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله تعالى وينطق بالذكر فيما اقتضت عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك ، وما زاد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته ، وأنزل به آخر كتبه ، كان خيراً له ، كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها ويأتي البيت وما أمر بآيانه ويتوجه لما وجهه ، ويكون تبعاً فيما اقتضت عليه وندب إليه لا متبوعاً

«قال الشافعي رحمه الله : وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيرهم لأنه لا يعلم من إيضاح جهل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه ، وجماع معانيه وتفرقاتها : ومن علمها انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها ، فكان تذييه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين . والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه ، أو إدراك نافذة خير لا يدعها الا من سفته نفسه ، وترك موضع حفظه ، فكان يجمع مع النصيحة لهم قياماً بإيضاح حق ، وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين طاعة لله ، وطاعة الله جامعة للخير ، أهم ذيلنا هذا النقل بما نذكر هنا ملخصه ببعض تصرف وهو :

هذا ما قاله الامام الشافعي في رسالة الاصول الشهيرة المطبوعة بمصر بنصها ، ولا نحسب ان هذا مذهب له مخالفه فيه غيره من ائمة المسلمين ، كلاله اجماع لا اختلاف فيه ، وقد اشتهرت رسالته هذه في جميع اقطار الاسلام اذ كانت هي أول ما كتب في أصول الفقه ، وقد خالفه بعض المجتهدين في بعض مسائل الاصول دون هذه المسألة فلم يخالفه ولم يناقشه أحد فيها ، ولا فيما أورده من الأدلة عليها ، وأوضح الأدلة على هذا اجماع المسلمين سابقاً وخلفاً على التمسك بتلاوة القرآن العربي وأذكار الصلاة والحج وغيرهما بالعربية ، لم يشذ عن هذا سني ولا شيعي ولا أباضي ولا خارجي ولا معتزلي نعم ان المسلمين قد قصر وافي دراسة هذه اللغة بمدد ضعف الخلافة الاسلامية وتغلب الاعاجم فعمتلوا بذلك بعض ما أمرهم الله تعالى به من تدبر القرآن والعبرة والاعتماظ

بآياته وفهم عقائده وفقه أحكامه ، ولكن روي قول شاذ عن الامام أبي حنيفة رحمه الله تعالى بجواز أداء بعض أذكار الصلاة والتلاوة فيها بغير العربية لمن تعذر عليه تعلم ما يجب منهما أى من الافراد اضعف في نطقه رفقه ، وقد صح عنه أيضا أنه رجع عن هذا القول ، على انه مقيد بالضرورة الشخصية ، ولم يقل هو ولا غيره باطلاق ذلك وانه يسمع أى شعب أعجمي أن يستغني في دينه عن لغة كتابه وسنته ، والدليل على هذا أن جميع مقلديه من الاعاجم لا يزالون يقرؤن القرآن وأذكار الصلاة والحج وغيرها بالعربية وكذلك خطبة صلاة الجمعة والعيدين الا ماشئت به الحكومة التركية فأمرت الخطباء بأن يخطبوا بالتركية تمهيدا للصلاة بها الخنعة بقية الاسلام وقد باغتنا جماعة المصلين من الترك لما سمعوا خطبة الجمعة بالتركية نكروها ونفروا منها واتخذوا خطبائها سخريا لان للعربية سلطانا على أرواحهم يخشعون لها وان لم يفهموا كل عباراتها ولا فهم اعتمادوا أن يسمعوها بتعم خاص وإداء خاص لانقباه اللغة التركية كالعربية وايست عبادات الاسلام وحدها هي التي تتوقف على العربية بل معرفة أحكام المعاملات تتوقف عليها أيضا فان أحكام الشريعة بجميع أنواعها حتى المدنية والسياسية متوقفة على الاجتهاد المعبر عنه في عرف هذا العصر بالتشريع ، وقد أجمع علماء الاصول من جميع المذاهب الاسلامية على توقف الاجتهاد في الشرع واستنباط الاحكام على معرفة اللغة العربية معرفة تمكن صاحبها من فهم أحكام القرآن والسنة ، وقد وضعنا هذه المسألة وبيننا وجه الحاجة اليها في هذا العصر في كتاب ( الخلافة - أو الامامة العظمى ) فترجم فيه

وجملة القول ان إقامة دين الاسلام متوقفة على لغة كتابه المنزل، وسنة نبيه المرسل ، سواء في ذلك هدايته الروحية ، ورابطته الاجتماعية ، وحكومته المادلة المدنية ، وان المسلم لم يكونوا في عصر من العصور أحوج الى الوحدة المفروضة عليهم المتوقفة على هذه اللغة منهم في هذا العصر الذي تمزقوا فيه كل ممزق ، فأصبحوا أكلة لمهومي الاستعمار ومستعبدى الامم والشعوب ، وصدق فيهم قول النبي (ص) « يوشك أن تداعى عليكم الامم كنادعى الأكلة الى قصعتها » الحديث

### بحث ترجمة للقرآن

سيقول بعض الجاهلين لحقيقة الاسلام وكونه ديناً روحانياً مدنياً سياسياً ، وبعض أولي العصبية الجنسية الجاهلية : ان مقتضى ما ذكرت أنه لا يمكن إقامة دين الاسلام كما يجب إلا باللغة العربية ، فلماذا لا يجوز على شعوب المسلمين ما جاز على شعوب النصارى مثلاً من ترجمة كتبهم المقدسة بلغاتهم المختلفة مع بقائهم على دين النصرانية وملة المسيح عليه السلام ؟

ونقول ( أولاً ) ان المسألة عندنا مسألة نقل واتباع لا مسألة رأي ، وقد علمت أن أئمتنا مجمعون على ما ذكرنا ( وثانياً ) اننا نحن المسلمين لا نعتقد أن النصارى على ملة المسيح عليه السلام ولا يصح أن يزيد على ذلك اعتقادنا هذا في صحيفة عمومية (١) ( وثالثاً ) إن ترجمة القرآن المعجز للبشر ترجمة تؤدي معانيه تأدية تامة كما أنزلها الله تعالى ويبقى بها معجزاً وآية - متعذرة ، وقد بينا هذا بالأبواب في مجلتنا ( المنار ) ولا محل له هنا ، ( ورابعاً ) إذ افترضنا أن ترجمة الكتاب والسنة لا تخل بفهم أصول الدين وفروعه وتشرّيعه أفلا تخل بما هو موضوع هذا المقال من وجوب وحدتهم وتعارفهم وتعاونهم - وتوقف ذلك على لغة واحدة ضروري - فإذا لم تكن لغة جميع أفراد شعوبهم فلتكن بما يتقنه طوائف رجال الدين ودعاة الوحدة والاتفاق منهم ؟ بلى بلى اهـ

### ﴿ تفصيل القول في ترجمة القرآن ﴾

كتبنا في فاتحة المجلد ٢٦ من المنار مقالا في مسألة ترجمة القرآن نذكر هنا منه ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

ال : تلك آيات الكتاب المبين • إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون •  
(سورة يوف ١٢ ١١ و١٢)

« ١ » المراد بها جريدة الاهرام التي نشرنا فيها هذا المقال

وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا نصر فنافيه من الوعيد لعلمهم بتقون أو تحدث لهم  
ذكرا \* (سورة طه ٢٠ : ١١٣)

ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر  
الذين ظلموا و بشري للمحسنين \* ( الاحقاف ٢٦ : ١٢ )

واقدر بنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم بتذكرون \* قرآنا عربيا  
غير ذي عوج لعلمهم بتقون \* (سورة الزمر ٣٩ : ٢٦ و ٢٧)

حم \* تنزيل من الرحمن الرحيم \* كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم  
يعلمون \* (سورة فصات ٤١ : ١ - ٣)

حم \* والكتاب المبين \* إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلمك تعقلون \* وأنه في أم  
الكتاب لدينا اعلمى حكيم \* ( الزخرف ٤٣ : ١ - ٤ )

وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم  
الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير (سورة الشورى ٤٢ : ٧)

وأنه لتنزيل رب العالمين \* نزل به الروح الامين \* على قلبك لتكون من  
المنذرين \* بلسان عربي مبين \* وأنه انفي زبر الاولين \* ولم يكن لهم آية ان يعامه  
علماء بني اسرائيل \* ولو نزلناه على بعض الاعجميين \* فقرأه عليهم ما كانوا به  
مؤمنين (سورة الشعراء ٢٦ : ١٩٢ - ١٩٩)

قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى و بشري  
للمسلمين \* واقدر لعلم أنهم يقولون : انما يعامه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه اعجمي  
وهذا لسان عربي مبين \* (سورة النحل ١٦ : ١٠٢ و ١٠٣)

ولو جعلناه قرآنا اعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي ؟ قل هو للذين  
آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، اولئك  
ينادون من مكان بعيد \* (سورة فصات ٤١ : ٤٤)

وكذلك أنزلناه حكما عربيا ، ولئن اتبعت أهواهم بعد ما جاءك من العلم لملك  
من الله من ولي ولا واق \* (سورة الرعد ١٣ : ٣٧)

( أما بعد ) فهذه آيات محكمات هن أم الكتاب في هذا الباب ، تجاوزت جمع الفلة



الى جمع الكثرة وعدون اشارات الایجاز وحدود المساواة الى باحة لاطناب ، ينطقن  
 بنصوص صريحة لا تحتمل التأويل ، ولا تقبل التبديل ولا التحويل ، بأن الله تبارك  
 وتعالى هو الذي أنزل هذا الكتاب الذي جعله آخر كتبه ، على خاتم أنبيائه ورسوله ،  
 قرآنا عربيا ، وأنه هو الذي جعله قرآنا عربيا ، وأنه هو الذي أوحاه قرآنا عربيا ، وأنه  
 هو الذي فصل آياته قرآنا عربيا ، وإن الروح الامين ، نزل به على قلب خاتم النبيين ،  
 بلسان عربي مبين ، وأنه ضرب فيه للناس من كل مثل ، والمراد بالناس أمة الدعوة  
 من جميع الملل والنحل ، حال كونه قرآنا عربيا غير ذي عوج ، وأنه أمر خاتم رسوله  
 أن ينذر به ( أم القرى ) ومن حولها من جميع الوردى ، وأنه على إنزاله آية قرآنا  
 عربيا للانذار والذكرى ، والوعيد والبشرى ، لعلمهم بمقلون ولعلمهم بتقون او يحدث  
 لهم ذكرا ، أنزله حكما عربيا ، وأمر من أنزله عليه أن يحكم بين جميع الناس بما أراه الله  
 فيه من الحق والعدل ، الذي جعله فيه حقا مشاعا لاهو اداة فية ولا محاباة لقرابة ولا  
 فضل ، فقال ( إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أرك الله ولانكن  
 للخائفين خصيما ) اقرأ الآيات ( من سورة النساء ٤ : ١٠٤ - ١١٤ ) بطولها ،  
 وراجع سبب نزولها ، فعلم من هذه الآيات المحكمة أن القرآن هداية دينية عربية ،  
 وأنه حكومة دينية مدنية عربية ، عربية للسان ، عامة لجميع شعوب نوع لانسان ،  
 وصلوات الله وتحياته المباركة الطيبة على محمد النبي العربي الامين ، الذي جعله  
 سيد آدم وفضله على جميع النبيين والمرسلين ، باكمال دينه بلسانه وعلى لسانه وإرساله  
 لجميع العالمين ، رجعل هداية رسالته باقية الى يوم الدين ، بقوله عمته رحمة ( وما أرسلناك  
 الا رحمة للعالمين \* ٢١ : ١٠٦ ) وقوله تبارك اسمه ( تبارك الذي نزل الفرقان على  
 عبده ليكون للعالمين نذيرا \* ٢٥ : ١ ) وقوله تعالى جده ( وما أرسلناك الا كافة  
 للناس بشيرا ونذيرا ، وانكن أكثر الناس لايعلمون \* ٣٤ : ٣٨ ) وقوله جل جلاله  
 ( ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل  
 شيء عليما \* ٣٣ : ٤٠ ) وقوله عم نواله فيما أنزله عليه في حجة الوداع يوم الحج الاكبر  
 ( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عنايكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديننا \* ٥ : ٤ )  
 وقد بلغ صلوات الله وسلامه عليه دعوة قر به كما أمر ، فبدأ بأأم القرى ثم بما حولها من

جزيرة العرب وشعوب العجم ، باللسان العربي الذي قضى الله أن يوحد به ألسنة جميع الأمم ، فيجعلهم أمة واحدة بالمعتقد والعبادات والآداب والشرع واللغة ، ليكونوا بضعته إخوانا مشار بينهم للعداوات التي تفرق بين الناس بعصبية الأسباب والاقوام ولاوطان والألسنة ، فكتب (ص) كتبه إلى قيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس مصر بلغة الاسلام العربية ككتبه إلى ملوك العرب وأمرائهم ، وبلغ أصحابه ما أمر الله به أمنه من تعميم الدعوة ، وبشرهم بأن نورها سينتشر ما بين المشرق والمغرب ، فصدع الصحابة والتابعون لهم خديهم ، وجميع دول الاسلام من بعدهم ، بما أمر الله به من نشر هذا الدين بلغته ، في كلا قسمي شريعته ، عبادته وحكومته ،

فكان الاسلام ينتشر في شعوب الاعاجم من قارات الارض الثلاث ( آسيا وافريقية وأوربية ) بلغته العربية ، فيقبل الداخلون فيه على تعلم هذه اللغة بعبث العقيدة ، وضرورة إقامة الفريضة ، ولا سيما فريضة الصلاة التي هي عماد الدين ، وأعظم أركانها بعد التصريح بالشهادتين ، اللذين هما عنوان الدخول فيه ، على انهما من أعمال الصلاة أيضا ، فكان تعلم العربية من ضروريات لاسلام ، عند جميع تلك الشعوب والاقوام ، بالاجماع العلمي العملي ، التعبدي والسياسي ، لا ما كان من تقصير دولة الترك العثمانيين ، بعدم جعل العربية لغة رسمية الدواوين ، كسلفهم من السلجوقيين والبوهميين ، حتى بعد فتحهم للخلافة الاسلامية ، ورفع ألويتهم على مهد الاسلام من البلاد الحجازية ، فأكل ذلك الى التعارض والتعادي بين العصبية التركية القومية ورابطة الاسلام ، فالتفرق والتقاتل بين الترك والعرب فالغناء الخلافة العثمانية فإسقاط دولة آل عثمان ، وتأييد جمهورية تركية العصبية واتيرية والتعليم ، أوربية العادات والتقنين والتشريع ، وإبطال ما كان في الدولة من المصالح لاسلامية ، كشيخة الاسلام والاقافي والمدارس الدينية ومحاكم الشرعية وصرحوا بأن حكومتهم هذه مدنية غير دينية وأنهم فصلوا بين الدين والدولة فصلا بانا كما فعلت الشعوب لافرنجية ، على أنهم لما وضعوا قانون هذه الجمهوريتة قبل التجرد على كل ما ذكر ، وضعوا في مواده من الدين الرسمي للدولة هو الاسلام مراعاة للشعب التركي المسلم ، كما وضعوا فيه مواد أخرى تنافي الاسلام من استقلال المجلس الوطني المنتخب بالتشريع بلا قيد ولا شرط ، ومن إباحت الردة واسعة حلال ما حرم الشرع ، وظهور أثر

ذلك بالقول والفعل ، كالظن الصريح في الدين والاستهزاء به حتى في الصحف العامة  
وكباحة زنا والسكر للمسلمين والمسلمات ، وبروز النساء التركيات في معاها الفسق  
ومحافل الرقص كاسيات عاريات ، ماثلات عميلات ، الى غير ذلك من منافيات الدين ،  
ولكن هذا كله لم يرو غليل العصبية اللغوية التورانية ، ولم يذهب بحقدتها على  
الرابطة الاسلامية ، وآدابها الدينية العربية ، بل كان من كيدها لها السعي لازلها كل ما هو  
عربي من نفس الشعب التركي ولسانه ، وعقله وجدانه ، ليسهل عليهم سله من الاسلام ،  
بمعونة التربية الجديدة والتعليم العام ، بل عمدوا الى هذه الشجرة الطيبة الثابت أصلها ،  
الراسخ في أرض الحق والعدل والفضل عرقها ، الممتد في أعالي السماء فرعها ، التي تؤتي  
أكلها كل حين بأذن ربها ، عمدوا اليها الأجنثاث أصلها واقتلاع جذرها بعد ما كان من  
التعمير عودها ، وامتلاخ أملودها ، وخضد شواتها وعضد خصلتها ، بعد أن نعموا  
بضعة قرءن بشمرتها ، وإنما تلك الشجرة الطيبة هي القرآن الكريم الحكيم المجيد العربي  
المبين ، هي الزيتون المباركة الموصوفة بأنها لشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم  
تمسه نار ، فإذا مسته نار الايمان بحرارته اشتعل نورا على نور ( يهدي الله لنوره من  
يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم )

وانما أعني بقطع هذه الشجرة المباركة من أرض الشعب التركي محاولة حرمانه  
منه ، ذلك بأنهم ترجموا القرآن بالتركية لا ليفهمه الترك ، فان تفاسيره باقتهم  
كثيرة وكان من مقامد ابطال المدارس الدينية ابطال دراستها (أي اتفاسير حتى التركية)  
وحظر مدارس كتب السنة وكتب الفقه ونحوها ، لأنها مشحونة بآيات القرآن العربية ،  
وبالاحاديث النبوية العربية ، وبآثار السلف الصالح العربية ، وبالحكم والامثال  
وشواهد اللغة العربية ، وهم يريدون محو كل ما هو عربي من اللغة التركية ، ومن  
أنفس الامة التركية ، حتى انهم ألفوا جمعية خاصة لما عبروا عنه « بنظير اللغة  
التركية » من اللغة العربية ، واقترح بعضهم كتابة لغتهم بالحروف اللاتينية ، واذا  
طال أمد نفوذ الملاحدة في هذا الشعب الاسلامي الكريم فانهم سينفذون هذا  
الاقتراح قطما كما نفذوا غيره حتى استبدال قرآن تركي بلغته بعض ملاحدة التورانيين ،  
بالقرآن الذي نزل به الروح الامين ، على قلب خاتم النبيين ، بلسان عربي مبين ،

المتعبد بألفاظه العربية باجماع المسلمين ، والمعجز ببلاغته العربية لجميع العالمين ،  
وكونه حجة الله تعالى عليهم الى يوم الدين

\*\*\*

أرأيت أيها القاري، هذا الخطب العظيم ؟ أرأيت هذا البلاه المبين ؟ أرأيت  
هذه الجرأة على رب العالمين ؟ أرأيت هذه الصدمة لدين الله القويم ؟ أرأيت هذا  
الشنآن والاحتقار لاجماع المسلمين ؟ ورفض ماجروا عليه مدة ثلاثة عشر قرناً  
وانصف ؟ ثم أرأيت بعد هذا كله ما كان من تأثير ذلك في مصر أعرق بلاد الاسلام  
في الفنون العربية ، والعلوم الاسلامية ،

لقد كان من تأثير ذلك ما هو أقوى البراهين ، على فوضى العلم والدين ،  
واختلال المنطق وفساد التعليم ، والجهل الفاضح بضروريات الاسلام وشؤون  
المسلمين ، لقد كان أثر ذلك الجدال والمراء ، ونعارض الآراء والاهواء ، وتسويد  
الصحائف المنشورة ، بمثل ماشوهها به في مسألة الخلافة ، وقد كان يجب أن  
تكون مسألة القرآن أبعد عن أهواء الخلاف ، للنصوص الكثيرة الصريحة فيها ،  
وإجماع السلف والخلف بالعلم والعمل عليها ، وعدم شنوذا أصحاب المذاهب والفرق  
حتى المبتدعة عنها ، فقد كثرت الخلاف والتفرق في الدين ، وتعددت الاحزاب والشيع  
في المسلمين ، علي ماورد في النهي عن ذلك والوعيد عليه في الآيات الصريحة ،  
والاحاديث الصحيحة ، وارزد بعض الفرق عن الدين ، بضروب من  
فاسد التأويل ، وسخافات من أباطيل التحريف ، كما فعل زنادقة الباطنية وغيرهم ،  
قبل أن يقووا و يصرحوا بكفرهم ، ولم تقم فرقة تنتمي الى الاسلام بترجمة القرآن  
ولا ضلت طائفة بترجمة أذكار الصلاة والاذان ، لاجل الاستغناء بها في التعبد  
لله ، عن اللفظ المنزل من عند الله ، وانما قصارى ما وقع من الخلاف فيما حول ذلك  
من فروع المسألة ، ومن تصوير الفقهاء للوقائع النادرة ، انه اذا أسلم أعجمي مثلاً  
واردنا تعليمه الصلاة فلم يستطع لسانه أن ينطق بألفاظ الفاتحة قبل يصلي بمعانيها  
من لمة ، أم يستبدل بها بعض الاذكار العربية المأثورة موقتاً ريثما يتعلم القرآن كما  
ورد في بعض الاحاديث ، أم يصلي بترجمة الفاتحة بلغته ؟ نقل القول الاخير عن أبي

حذيفة وحده مع مخالفة جميع أصحابه له ، ونقل عنه أنه رجع عنه الى الاجماع ، وما ينقل عن أحد من المسلمين أنه عمل به على أنه لا حجة في عمل أحد ولا في قوله غير المعصوم ) فكان هذا الاجماع العام المطبق مما يؤيد حفظ الله تعالى للقرآن ، وأراد ملاحظة ترك أن يبطلوه في هذا الزمان ( يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون \* هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون \* ( سورة الصف ٦١ : ٩ و ١٠ )

### منشأ فكرة ترجمة القرآن وسببها

لقد كان ضعف الخلافة القرشية بجبل الخلفاء وترقيهم وفسادهم سبباً لتفريق المسلمين فتخاذلهم فضعفهم ، إذ كان سبباً لتأسيس عدة دول اسلامية تتنازع السلطة — واضعف اللغة العربية وترك الأعاجم لها ، فاضطراهم إلى ترجمة بعض الكتب الدينية وتدريس العربية منها بالترجمة فالشعور بالحاجة إلى ترجمة القرآن نفسه بلغاتهم لأجل فهمه بالاجمال ، ثم بالحاجة إلى ترجمته بسائر اللغات لأجل الدعوة بترجمته الى الاسلام ، ولما انفردت دولة الترك والعثمانيين دون سائر دول الاعاجم الاسلامية بجعل لغتهم رسمية لها ، ثم بادعاء منصب الخلافة لسلطانها ، اقتضى ذلك تعمد هذه الدولة لضعاف الامة العربية ولمعاداتها ، ولتفضيل لغة أبناء جنسهم ، على لغة كتاب ربهم وسنة رسولهم ، ثم لتفضيل رابطة جنسهم ولغتهم على رابطة دينهم ، ثم للاستغناء عن هذه بتلك ومن ثم صارت جامعة اللغة والقومية معارضة للجامعة الاسلامية وسبباً لمعاداتها . ثم تجدد لدعاة العصبية الجنسية التركية سبب آخر لترجمة القرآن وهو التمهيد به الى المروق من الاسلام ، ولم يفعل هذا الا الترك الذين نالوا بالاسلام دون غيره ما نالوا من العز والملك الكبير

إن ملاحظة الترك ودعاة العصبية الجنسية منهم قد بشوا في قومهم فكرة الاستغناء عن القرآن المنزل من الله تعالى باللسان العربي بترجمته باللسان التركي قبل عهد الحرية الدستورية بسنين . وقد أنكرنا هذا عليهم قولا وكتابة ، وأول من سمعنا منه هذا الرأي محمد عبيد الله افندي الذي صار بعد الدستور مبعوثاً

وأشأ في الأستانة جريدة عربية باللغة العربية لأجل خداع العرب وإضلالهم . سمعت هذا الرأي الفاسد منه في مصر ورددت عليه فيه . ثم سمعته في الأستانة من غيره أيضاً وأنكرته عليهم ، وقد ذكرته في مواضع من مجلد المنار الثالث عشر ( منها ) قولنا في ( الفتوى ٢١ ص ٣٤٣ ج ٥ م ١٣ الذي صدر في سلخ جمادى الأولى سنة ١٣٢٧ ) في سياق تحطئة محمد عبيد الله افندي في ادعائه أن الإسلام نشر بلا كراه عليه بالسيف

« ليست هذه المسألة هي التي شذ فيها وحدها هذا الرجل ، فإن له شذوذاً في مسائل أخرى دينية وتاريخية كادعائه أن نبوة النبي (ص) ما تمت ولا تتم الا بترجمة القرآن الى جميع اللغات ، وكادعائه أن غير العرب من المسلمين يمكنهم الاستغناء في دينهم عن معرفة اللغة العربية ، وعن القرآن العربي المنزل من عند الله تعالى آية للعالمين ، معجزاً للبشر على ممر السنين ، بترجمته الى التركية والفارسية وغيرها من اللغات وإن كان المترجم يترجم حسب فهمه ، فيختلف مع غيره ، فيكون لكل أهل لغة قرآن ، وإن كانت الترجمة لا يمكن أن يتحقق فيها الاعجاز كالقرآن المنزل من عند الله تعالى ، ولا يصح التعبد بتلاوتها ، ولا يتحقق فيها غير ذلك من خصائص القرآن ، وقد سبق لي مناظرة معه في هذه المسألة بمصر منذ سنين اه

ومنها — ما ذكرته في ( ج ٧ منه ص ٥٤٩ ) في سياق سهر مع طلعت بك (باشا) ناظر الداخلية بداره في الأستانة: ذكر لي فيه أن هذا الرجل سينشئ جريدة عربية لأجل التآلف بين العرب والترك ، فذكرت له أنه يخشى أن يكون تأثيرها زيادة الشقاق لما هو معروف به من كراهة العرب ، وزعمه إمكان استغناء الترك عن لغتهم وعن قرآنهم العربي بترجمته بالتركية الخ وكذلك كان ومنها — قولنا في مناجاة الله تعالى ( في ص ٤ : ٣ منه ) : اللهم إنك تعلم أن من هؤلاء ( أي المفسدين ) من يفوق سيام كيده ومكره الأمة العربية التي شرنتها وفضلتها بخاتم أنبيائك ورسلك ، وخير كتبك المنزلة هداية خلقك ، وخطبت سلفها الصالح بقولك الحق ( كنتم خير أمة أخرجت للناس ) الخ « تفسير القرآن الحكيم » « ٤١ » « الجزء التاسع »

« اللهم إنهم حسدوها أن جعلت كتابك عربياً مبيناً ، فهم يريدون ترجمته ليكون عرضة لتحرير المخزنيين ، واختلاف المتفتحين ، اللهم إنك أنزلته لتجمعهم عليه ، وهم يحاولون ترجمته لكل شعب من المسلمين ليتفرقوا فيه ، اللهم إنه حبلك المتين الذي أمرت أن نعتصم به ، ولا نتفرق عنه بقولك ( ٣ : ١٠٣ ) واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ) وهو بيناتك التي قلت فيها ( ٣ : ١٠٥ ) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات )

« اللهم إنهم يزعمون أن رسالة خاتم رسلك ما تمت الى الآن ، وأنها لا تتم إلا بترجمة القرآن ، وأنت قلت وقولك الحق ( ٥ : ٣ ) اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً )

ومنها — قولنا في آخر الفتوى ٣٢ منه ( ص ١ : ٥ ) في سياق الدعوة الى الاهتداء بالكتاب والسنة : ولا يتم هذا الاهتداء الا بالعناية باللغة العربية ، ولا شيء أضر على الاسلام في هذا العصر ممن يدعو الى ترجمة القرآن الى اللغات المختلفة ، يستغني المسلمون بالترجمة عن القرآن المنزل من عند الله تعالى بلسان عربي مبين . فالغاية من هذه المفسدة اذا وقعت ( لاسمح الله ) أن يكون الأعاجم من المسلمين عرضة لترك الدين . وسنوضح ذلك ان شاء الله تعالى اه وقد راجت دعوة ملاحدة الترك الى الاستغناء عن كتاب الله المنزل بعد قبض ملاحدة جمعية الاتحاد والترقي على أعنة الدولة العثمانية تمهيداً منهم لما نفذه أندادهم الكمايون من بعدهم من نبذ الدولة التركية لأحكام الاسلام ، وسعيها لسلب الشعب التركي منه أيضاً

وقد كان مما نشر الاتحاديون من الكتب الممهدة لهذا السبيل كتاب ( قوم جديد ) الذي انتقدناه ونشرنا ترجمة بعض مسائله في المجلد السابع عشر من المنار ( سنة ١٣٣٥ ) والمراد بكلمة قوم جديد انشاء شعب تركي غير مسلم . ومما قلناه في آخر مقال طويل منه ( ص ١٦٠ ج ٢ م ١١٢ ) عنوانه ( مفاصد المتفرنجين . في أمر الاجتماع والدين ) مانصه :

« يرى هؤلاء العاملون أنه ليس في طريقهم عقبة تحول دون بلوغ المقصد

بالسرعة التي يبغون من وراء هذا العمل الا حاجة الترك الى اللغة العربية لأجل الدين . ويرون أن هذا الدين ونعته مما يعيق تكوين أمة تركية محضة على الطراز الافرنجي الفرنسي ، فاجتهدوا في ازالة هذا المانع بمزيالين

( أحدهما ) ترجمة القرآن بالتركية ودعوة الترك الى الاستغناء عن القرآن العربي بما سموه القرآن التركي . واذا استغنوا عن القرآن يستغنون بالأولى عن غيره من كتب الحديث والتفسير والفقه وسائر العلوم والفنون العربية (الثاني) نشر الكتب والرسائل التي تجعل الجنسية التركية أعلى وأسمى في النفوس من رابطة الدين تمهيداً للثانية بالأولى . . .

(وذ كرنا من هذه الكتب كتاب قوم جديد ، وأشرنا الى بعض مفسده) ثم نشرنا نموذجاً من كتاب ( قوم جديد ) هذا في ( ص ٥٣٩ — ٥٤٤ منه ) أوله قوله في ( ص ١٤ منه ) : يجب تعطيل جميع المساجد والتكليا الموجودة في الآستانة ما عدا الجوامع التي بناها السلاطين<sup>(١)</sup> وتخصيص نفقاتها بالشؤون الحربية والعسكرية ، كما ورد في الآيات الكريمة والأعمال النبوية (؟) ويليه قوله في ص ١٥ بفرضية ترجمة القرآن

ومنه ما ذكره من صفات من سماهم ( قوم عتيق ) من تمسكهم بالصوم والأصلاة والحج والزكاة ، والعمل بكتب فقه الأئمة الأربعة التي وصفها بأنها مملوءة بالنفاق والشقاق ، وزعم أن العمل بها غير جائز — ثم قال في صفات ( قوم جديد ) مانصه : « وأما القوم الجديد فانهم لا يباليون بمثل هذه الخرافات القديمة ، بل استخرجوا من الأحكام القرآنية والحديثية الأركان الدينية الآتية (١) العقل (٢) كلمة الشهادة (٣) الأخلاق الحسنة (٤) الجهاد مالا وبدناً والحرب (٥) السعي لاعداد لوازم الحرب . . . الخ . ثم بسطنا هذه المسائل من وسائل ومناصد في المجلد التاسع عشر . وقد صدق كل ما قلناه وارتابناه من مقاصد ملاحدة الترك ما فعلته الحكومة الكمالية من الغاء الأحكام الشرعية كلها ، وجعل جميع سياستها وأحكامها حتى الشخصية مدنية أوربية ، والغاء المحاكم (١) استثنائها لانه ليس عندهم من آثار العمران التركية سواها لا لانها مساجد



الشرعية ، والأوقاف الإسلامية، والمدارس الدينية - دعوا إلغاء ما عمل باسم الدين من المبتدعات كتكايا أصحاب الطرق مقادرة المتصوفة الخ : صدقوا بالفعل كل ما قلناه من مقاصدهم ، وكان بعض المسلمين الجاهلين بحال الدولة التركية وتأثير التفرنج فيها ينكرون علينا ما نقوله عن علم وخبرة وشيرة على الاسلام ظناً منهم أنه إضعاف للدولة حامية الاسلام ، وإنما كان حرصاً على تقوية الدولة بالاسلام وتقوية الاسلام بالدولة، لأننا نعلم ما لا يعلمون من إفضاء هذه الضلالات والعصية الجنسية الى اخضاع هؤلاء المتعصبين المفتونين للاسلام والدولة معاً - وكذلك كان وقد كان بعض الترك الروسيين استغتنا في مسألة الترجمة قبل أن نعلم بهذا الغرض الفاسد فأفتيناه فيها لذاتها اذ لم يكن يخطر ببالنا ان أحداً من المسلمين يتوسل بذلك الى اخراج شعب اسلامي من الاسلام - وهذا نص السؤال والجواب:

### ﴿ فتوى المنار في حظر ترجمة القرآن ﴾

نشرت في ص ٢٦٨ - ٢٧٤ م ١١ ج ٤ منه المؤرخ ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٢٦

(س ١) من الشيخ أحسن شاء افندي احمد (من روسيا)

حضرة الاستاذ السيد محمد رشيد رضا

نرجو أن تعيروا جانب الالتفات لهذه المسألة المهمة :

ذكر الفاضل أحمد مدحت افندي من علماء الترك العثمانيين في كتابه

« بشائر صدق نبوت » ما ترجمته :

إن ترجمة القرآن مسألة مهمة عند المسلمين وجميع المباحثات التي دارت بشأن ترجمة هذا الكتاب المجيد لم ترس على نتيجة ، وذلك لوجوه (الأول) أن ترجمته بالتمام غير ممكنة لا مجازة من جبة البلاغة (والوجه الثاني) أن فيه كثيراً من الكلمات لا يوجد لها مقابل في اللغة التي يترجم اليها ، فيضطر المترجم إلى الاتيان بما يدل عليها مع شيء من التغيير . ثم اذا نقلت هذه الترجمة الى لغة أخرى يحدث فيها شيء من التغيير أيضاً وهلم جراً ، فيخشى من هذا أن يفتح طريق لتحريف القرآن وتغييره (الوجه الثالث) أن كلمات الكتب السماوية

يستخرج منها بعض إشارات وأحكام بطريق الحساب، فبذلك إذا ترجمت يد هذا الطريق، مثل ذلك أن سعدي جلبي كتب في حاشيته عن البيضاوي عند تفسير سورة الفاتحة أنه إذا أخرجت الحروف المكررة من سورة الفاتحة التي هي أول القرآن وسورة الناس التي هي آخر سورة تكون الحروف الباقية ثلاثة وعشرين قال: وفي ذلك إشارة إلى مدة سني النبوة المحمدية — فإذا ترجم القرآن لا يبقى في الترجمة مثل هذه الفوائد التي هي من جملة معجزاته انتهى «من بشرأصدق نبوت» أما أدبنا معشر الترك الروسيين، فانهم مصرون على ترجمته ويقولون: لا معنى للقول بأنه لا تجوز ترجمة القرآن إلا إيجاب بقائه غير مفهوم، فلذا يذهبون إلى وجوب ترجمته، وهو الآن يترجم في مدينة قران، وتطبع ترجمته تدريجاً، وكذلك تشبث بترجمته إلى اللسان التركي زين العابدين حاجي الباكوي أحد فدائية التتمتاز، فترجو من حضرة الاستاذ التدبر في هذه المسألة

حرره الامام الحقيق أحسن شاء أحمد

الكاتب الديني السماوي

(جواب المنار له) إن من تقصير المسلمين في نشر دينهم أن لا يبينوا معاني القرآن لأهل كل لغة بلغتهم، ولو بترجمة بعضه<sup>(١)</sup> لأجل دعوة من ليس من أهله إليه، وإرشاد من يدخل فيه عند الحاجة بقدر الحاجة. وإن من زلزال المسلمين في دينهم أن يتفرقوا إلى أمم تكون رابطة كل أمة منها جنسية نسبية أو لغوية أو قانونية، ويهجروا القرآن المنزل من الله تعالى على خاتم رساله، المعجز بأسلوبه وبلاغته وهدايته، المتعبد بتلاوته، اكتفاء بأفراد من كل جنس يترجمونه لهم بلغتهم بحسب ما يفهم المترجم

هذا الزلزال أثر من آثار جهاد أوروبا السياسي والمدني للمسلمين. زين لنا أن تتفرق وتنقسم إلى أجناس، ظلنا كل جنس منا أن في ذلك حياته، وما ذلك إلا موت للجميع. ولا نطيل في هذه المسألة هنا، ولكننا نذكر شيئاً مما يحظر في الباك من مفاصد هجر المسلمين للقرآن المنزل (بالسان عربي مبين) — استغناء

(١) بالترجمة هنا المعنوية التفسيرية لا اللفظية الحرفية

عنه بترجمة أعجمية يفنيهم عنها تفسيره بلغتهم ، مع المحافظة على نصه المتواتر ، المحفوظ من التحريف والتبديل - مع مراعاة الاختصار فنقول :

( ١ ) إن ترجمة القرآن ترجمة حرفية تطابق الأصل متعذرة كما يعلم من المسائل الآتية . والترجمة المعنوية عبارة عن فهم المترجم للقرآن ، أو فهم من عساه يعتمد هو على فهمه من المفسرين ، وحينئذ لا تكون هذه الترجمة هي القرآن ، وإنما هي فهم رجل للقرآن يخطئ ، في فهمه ويصيب ، ولا يحصل بذلك المقصود المراد من الترجمة بالمعنى الذي ننكره

( ٢ ) إن القرآن هو أساس الدين الاسلامي ، بل هو الدين كله ، إذ السنة ليست ديناً الا من حيث انها ميمنة له . فالذين يأخذون بترجمته يكون دينهم ما فهمه مترجم القرآن لهم ، لانفس القرآن المنزل من الله تعالى على رسوله محمد (ص) والاجتهاد بالقياس انما هو فرع عن النص ، والترجمة ليست نصاً من الشارع ، والاجماع عند الجمهور لا بد أن يكون له مستند والترجمة ليست مستنداً . فعلى هذا لا يسلم لمن يجعلون ترجمة القرآن قرآناً شياً من أصول الاسلام

( ٣ ) ان القرآن منع التقليد في الدين وشنع على المتقلدين فأخذ الدين من ترجمة القرآن هو تقليد لمترجمه ، فهو اذاً خروج عن هداية القرآن لا اتباع لها

( ٤ ) يلزم من هذا حرمان المقتصرين على هذه الترجمة مما وصف الله به المؤمنين في قوله ( ١٢ : ١٠٨ ) قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ) وأمثالها من الآيات التي تجعل من مزايا المسلم استعمال عقله وفهمه فيما أنزل الله (١) ( ٥ ) كما يلزم حرمانهم من هذه الصفات العالية يلزم منع الاجتهاد والاستنباط من عبارة المترجم ، لأن الاجتهاد فيها مما لا يقول به مسلم

( ٦ ) ان من يعرف لغة القرآن وما يحتاج اليه في فهمه كالسنة النبوية وتاريخ الجيل الأول الذي ظهر فيه الاسلام يكون أجوراً بالعمل بما يفهمه من القرآن

( ١ ) أعني كقوله تعالى في أول سورة الاعراف ( اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ) والمنزل اليان من ربنا هو القرآن العربي كما صرحت به الآيات . فاتباع الترجمة مخالف لكل من الامر والنهي في هذه الآية

وان أخطأ في فهمه ، لأنه بذل جهده في الاهتداء بما أنزله الله هداية له . كما يعلم ذلك من معاملة النبي (ص) لأصحابه فيما فهموه من كيفية التيمم ، إذ عذر المختلفين في فهمها والعمل بها ، ومثله معاملته لهم فيما فهموه من نهيته عن صلاة العصر الا في قريظة ، ولذلك شواهد أخرى ولا أخل مسلماً يجعل العبارة مترجم القرآن هذه المزية (٧) ان القرآن ينبوع للهداية والمعارف الاذيسة لا تخلق جدته ، ولا تقفأ

تجدد هدايته ، وتفيض للقارىء على حسب استعداده ، حكيمته ، فربما ظهر المتأخر من حكمه وأسراره ما لم يظهر لمن قبله ، تصديقاً لعموم حديث « فربُّ مبلغ أوعى من سامع » وترجمته تبطل هذه المزية ، إذ تقييد القارىء بالمعنى الذي صوره المترجم بحسب فهمه . مثال ذلك أن المترجم قد يجعل قوله تعالى (١٥ : ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح ) من المجاز بالاستعارة أي أن اتصال الرياح بالسحاب وحدوث المطر عقب ذلك يشبه تلقيح الذكر للأنثى وحدوث الولد بعد ذلك كما فهم بعض المفسرين . فاذا هو جرى على ذلك بأن فرضنا أنه لا يوجد في اللغة التي يترجم بها لفظ يقوم مقام (لواقح) العربي في احتمال حقيقته ومجازه اذا أطلق فان القارئ يتقيدون بهذا الفهم ، ويمتنع عليهم أن يفهموا من العبارة ما هي حقيقة فيه ، وهو كون الرياح لواقح بالفعل . إذ هي تحمل مادة اللقاح من ذكور الشجر الى إناثه ، فان لم ينطبق هذا المثال على القاعدة لتيسر ترجمة الآية ترجمة حرفية ، فان هناك أمثلة أخرى ، وحسبنا ان يكون هذا موضحاً . والترجمة تنف بنا عند حد من الفهم يعوزنا معه الترقى المطلوب

(٨) ذكر الغزالي في كتاب « إلهام العوام عن علم الكلام » أن ترجمة آيات الصفات الالهية غير جائزة ، واستدل على ذلك بما هو واضح جداً . وقد ذكرنا عبارته في تفسير (٣ : ٦) هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) ويبين أن الخطأ في ذلك مدرجة للكفر<sup>(١)</sup>

(٩) ذكر الغزالي في الاستدلال على ما تقدم أن من الألفاظ العربية مالا يوجد لها فارسية تطابقتها — أي ومثل الفارسية التركية وغيرها — فما الذي

يفعله المترجم في مثل هذه الألفاظ ، وهو إن شرحها بحسب فهمه ربما يوقع قارىء ترجمته في اعتقاد مالم يردده القرآن ؛

(١٠) قد ذكر في ذلك أيضاً : أن من الألفاظ العربية مالها فارسية تطابقها « لكن ما جرت عادة الفرس باستعارتها المعاني التي جرت عادة العرب باستعارتها لها » فإذا أطلق المترجم اللفظ الفارسي يكون هنا مؤدياً المعنى الحقيقي للفظ العربي . وربما كان مراد الله هو المعنى المجازي ، ومثل الفرس غيرهم من الأعاجم . وهذا المقام من منزلات الأقدام إذا كان الكلام عن الله عز وجل وصفاته وأفعاله

(١١) ذكر أيضاً في هذا المقام : أن من هذه الألفاظ ما يكون مشتركا في العربية ، ولا يكون في العجمية كذلك . فقد يختار المترجم غير المراد لله من من معني المشترك ، ولا يخفى ما فيه ، وقد مرّ نظيره آنفاً

(١٢) من المقرر عند العلماء أنه إذا ظهر دليل قطعي على امتناع ظاهر آية من آيات القرآن فإنه يجب تأويلها حتى تتفق مع ذلك الدليل . والفرق بين تأويل ألفاظ القرآن وتأويل ألفاظ ترجمته لا يخفى على عاقل لا سيما في الآيات المتشابهة والألفاظ المشتركة

(١٣) ان لنظم القرآن وأسلوبه تأثيراً خاصاً في نفس السامع لا يمكن أن ينقل بالترجمة ، وإذا فات يفوت بفوته خبير كثير ، فباطلما كان جاذباً إلى الاسلام ، حتى قال أحد فلاسفة أوروبا وهو فرنسي نسيت اسمه : ان محمداً كان يقرأ القرآن بحال مؤثرة تجذب السامع إلى الايمان به ، فكان تأثيره أشد من تأثير ما ينقل عن غيره من الانبياء من المعجزات . وحضر الدكتور فارس افندي نمر مرة الاحتفال السنوي لمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالقاهرة ، فافتتح الاحتفال تلميذ بقراءة آيات من القرآن ، فقال لي الدكتور فارس افندي ان لهذه القراءة تأثيراً عميقاً في النفس . ثم لما كتب خبر الاحتفال في جريدته (المقطم) كتب ذلك . فاذا كان لتلاوة القرآن هذا التأثير حتى في نفس غير المؤمن به ، فكيف نحرم منها المسلمين بترجمة القرآن لهم

الأعراف ص ٧ ترجمة القرآن ابطال حجته وسبب للخلاف والظعن فيه ٢٢٩

(١٤) إذا ترجم القرآن التركي والفارسي والهندي والصيني الخ ، فلا بد أن يكون بين هذه التراجم من الخلاف مثل ما بين تراجم كتب العهد العتيق والعهد الجديد عند النصارى <sup>(١)</sup> وقد رأينا ما استخرجه لهم صاحب إظهار الحق من الخلافات التي كنا نقرأها ونحمد الله تعالى ان حفظ كتابنا من مثلها ، فكيف نختارها بعد ذلك لأنفسنا؟

(١٥) ان القرآن هو الآية الكبرى على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هو الآية الباقية من آيات النبيين . وإنما يظهر كونه آية باقية محفوظة من التغيير والتبديل ، والتحريف والتصحيف ، بالنص الذي نقلناه عن جاء به من عند الله والترجمة ليست كذلك

هذا ما تراءى لنا من الوجوه المانعة من ترجمته للمسلمين ليكون لهم قرآن أعجمي بدل القرآن العربي ، وإذا كان بعض هذه الوجوه مما يمكن ادخاله في البعض - وإنما ذكر هكذا لزيادة الايضاح - فان هناك وجوها أخرى يمكن استنباطها لمن تأمل وفكر في وقت صفاء الذهن وصحة البدن ، بل منها ما تركناه مع تذكره وأما دعوى القائلين بوجوب ترجمته أن عدم جواز الترجمة يستلزم إيجاب بقاءه غير مفهوم فهي ممنوعة ، فاننا نقول إن فهمه سهل ، ولكن ليس لأحد أن يجعل فهمه حجة على غيره فكيف يجعله ديناً لشعب برمته . وإن لاهتداء المسلم الأعجمي بالقرآن درجتين - درجة دنيا خاصة بالعوام الذين لا يتيسر لهم طلب العلم فيحفظون الفاتحة وبعض السور القصيرة لأجل قراءتها في الصلاة ويترجم لهم تفسيرها ، وتقرأ امامهم في مجالس الوعظ بعض الآيات ويذكر لهم تفسيرها ، بلغتهم كما جرى عليه كثير من الأعاجم حتى ببلاد الصين - ودرجة عليا للمستغنين بالعلم وهؤلاء يجب أن يتقنوا لغته ويستقلوا بفهمه مستعينين بكلام المفسرين غير مقادين لأحد منهم

ان الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام على أيدي الصحابة الكرام قد فهموا أن للإسلام لغة خاصة به لا بد أن تكون عامة بين أهله ليفهموا كتابه الذي

(١) بل يكون الخلاف عندنا أشد لعجز جميع البشر عن ترجمة القرآن دون التوراة والانجيل

« تفسير القرآن الحكيم » « ٤٢ » « الجزء التاسع »

يدينون به ويهتدون بهديه ، ويعبدون الله بتلاوته ، ولتتحقق بينهم الوحدة المشار إليها بقوله فيه ( ٣١ : ٩٢ ) ان الله أتكم آية واحدة ) ويكونوا جديرين بأن يعتصموا به وهو جبل الله فلا يفتروا ، ولتتكلم فيهم اخوة الاسلام التي حتمها عليهم بقوله ( ٤٩ : ١٠ ) انما المؤمنون اخوة ) ولذلك انتشرت اللغة العربية في البلاد التي فتحها الصحابة بسرعة غريبة مع عدم وجود مدارس ولا كتب ولا أساندة للتعليم ، واستمرت الحال على ذلك في زمن الامويين في الشرق والغرب وفي أول مدة العباسيين حتى صارت العربية لغة الملايين من الاوربيين والبربر والقبط والروم والفرس وغيرهم في ممالك تمتد من القاموس المحيط الغربي ( الاتلانتيك ) الى بلاد الهند ، فهل كان هذا إلا خيراً عظيماً تأخت فيه شعوب كثيرة ، وتعاونت على مدينة كانت زينة للأرض ، وضياء ونوراً لأهلها ؛

ثم هنا المأمون في الشرق هفوة سياسية حركت العصبية الجنسية في الفرس فأنشؤا يترجعون الى لغتهم ويعودون الى جنسيتهم ، وجاء الاترك ففعلوا بالعصبية الجنسية ما فعلوا ، فسقط مقام الخلافة وتمزق شمل الاسلام بقوة ملوك الطوائف . ولكن لم تصل الفتنة بالناس الى ايجاد قرآن أعجمي للأعاجم وابقاء القرآن العربي المنزل خاصاً بالعرب ، بل بقي الدين والعلم عربيين وراء إمامهما الذي هو القرآن .

فالواجب على دعاة الاصلاح في الاسلام الآن أن يجتهدوا في إعادة الوحدة الاسلامية الى ما كانت عليه في الصدر الاول خير قرون الاسلام ، وأن يستعينوا على ذلك بالطرق الصناعية في التعليم ، فيجعلوا تعلم العربية اجبارياً في جميع مدارس المسلمين ، ويحيوا العلم بالاسلام بطريقة استقلالية لا يتقيدون فيها بأراء المؤلفين في القرون الماضية المخالفة لطبيعة هذا العصر في أحوالها المدنية والسياسية . ولكننا نرى بعض المفتونين منا بسياسة أوربا يعاونونها على تقطيع بقية ماترك الزمان من الروابط الاسلامية بتقوية العصبية الجنسية حتى صار بعضهم يحاول اغناء بعض شعوبهم عن القرآن المنزل ؛ ألا إنها فتنة في الأرض وفساد كبير وفي الله المسلمين شره . فهذا ما أقوله الآن في ترجمة القرآن للمسلمين دون

تفسيره ثم بلغتهم مع بقاءه إماماً لهم ، وودون ترجمته لدعوة غيرهم به إلى الإسلام مع أن المترجم بين المعنى الذي يفهمه هو . انتبهت الفتوى .  
وملخص هذه الفتوى أن ترجمة القرآن ترجمة حرفية متعذرة ويترتب عليه مفسد كثيرة فهو محظور لا يبيحه الإسلام لأنه جناية عليه وعلى أهله . ولا يجوز أن تسمى الترجمة قرآناً ولا كتاب الله ولا أن يسند شيء منها إليه تعالى فيقال قال الله كذا لأن كتاب الله وقرآنه عربي بالنص القطعي والاجماع الشرعي من سلف أهل الملة كلهم وخلفها لا الاجماع الاصوي المختلف فيه ، ولأنها ليس لها شيء من خصائص القرآن اللفظية ولا المعنوية كالأعجاز ، وهي لا بد أن تكون مخالفة له في المعنى كخالفها في اللفظ فإسنادها إليه تعالى كذب عليه وكفر بكتابه . بل أجمع المسلمون على أنه لا يجوز إبدال لفظ من ألفاظ المصحف بلفظ آخر يرادفه من اللغة العربية ككلمتي شك وريب في قوله تعالى ( ذلك الكتاب لا ريب فيه ) وأما الترجمة المعنوية التي هي عبارة عن تفسير ما يحتاج إلى تفسيره منه بلغة أخرى فغير محرم وإنما تتبع فيه المنفعة الشرعية بتدبرها

### ﴿ أقوال الفقهاء في المسألة ﴾

﴿ ترجمة القرآن وقراءته وكتابته بغير اللغة العربية ﴾ (٥)

المعول عليه عند الأئمة وسائر العلماء أنه لا يجوز كتابة القرآن ولا قراءته ولا ترجمته بغير العربية مطلقاً ، إلا فيما نقل عن أبي حنيفة وصاحبيه من جواز قراءة القرآن بالفارسية في خصوص الصلاة ، واليك بعض النصوص في ذلك :

قال شيخ الإسلام أبو الحسن المرغيناني الحنفي في التجنيس : ويمنع من كتابة القرآن بالفارسية بالاجماع ، لأنه يؤدي إلى الإخلال بحفظ القرآن ، لأننا أمرنا بحفظ اللفظ والمعنى فإنه دلالة على النبوة ، ولأنه يؤدي إلى التهاون بأمر القرآن اه وقال في معراج الدراية : من تعمد قراءة القرآن أو كتابته بالفارسية فهو

\* نقلناه هذا الفصل من رسالة الاستاذ الشيخ محمد حسنين العدوي أحد كبار علماء الأزهر



مجنون أو زنديق ، والمجنون يداوى ، والزنديق يقتل ، وروى ذلك عن أبي بكر محمد بن الفضل البخاري اهـ

وفي الدراية : ان القرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً بالاجماع ، وقد أنزل حجة على النبوة ، وعلماً على الهدى ، والهدى بمعناه ، والحجة بنظمه . وكما ان الاخلال بالمعنى يسقط حكم القراءة ، كذلك الاخلال بالنظم ، ولأن حفظ القرآن واجب في الجملة ليكون حجة على الحكيم ، ولا قراءة تجب الا في الصلاة ، فعلم أنها متعلقة بعين ما أنزل ليقع الحفظ بها اهـ

وروي عن الامام أبي حنيفة كما في الهداية وغيرها : جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة مطلقاً ، وعن الصحابين : اذا كان لا يحسن العربية ، أما اذا كان يحسنها فلا يجوز ، وتفسد صلاته اذا قرأ بغير العربية .

وروى أبو بكر الرازي : رجوع الامام الى قولها وعليه الاعتماد --- وقال الامام الزاهدي في الجامع الصغير : ان ما نقل عن أبي حنيفة وصاحبيه من أن القراءة بالفارسية تفسد الصلاة لمن قدر على العربية ، أما عند العجز فلا فساد ( محله ) اذا قرأ بالفارسية كل لفظ بما هو في معناه من غير أن يزد فيه شيئاً . أما اذا قرأ على سبيل التفسير فتفسد صلاته بالاجماع اهـ

وهو تقييد حسن ، لأنه حينئذ يكون متكلاماً بكلام غير القرآن من كلام الناس وهو مفسد للصلاة

وأصل الاختلاف في ذلك كما بدائع الصنائع وأحكام القرآن لحجة الاسلام الجصاص قونه تعالى ( فاقروا ما تيسر من القرآن ) حيث أمر بالقراءة ، والأمر للوجوب ، ولا موضع لوجوب القراءة غير الصلاة ، فوجب أن يكون المراد القراءة في الصلاة ، فذهب الصحابان الى أنه اذا قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية ، فقد قرأ ما ليس بقرآن ، فقد خرج عن عهدة الأمر ، لأن الفارسي ليس قرآناً ، والقرآن هو المنزل بلغة العرب ، قال تعالى ( إنا أنزلناه قرآناً عربياً ) وأيضاً فالقرآن هو المعجز ، والاعجاز من جهة اللفظ يزول بزوال النظم العربي ، فلا يكون الفارسي قرآناً لانعدام الاعجاز ، ولهذا لم تحرم قراءته على

الجنب والناض ، غير أنه إذا كان لا يحسن العربية ، فقد عجز عن مراعاة لفظه فيجب عليه مراعاة معناه ليكون التكليف بحسب الامكان له . والمراد مطلق المعنى ، وإلا فعنى النظم المعجز لا تؤديه الترجمة كما هو ظاهر ولا يعيننا الآن بيان وجه استدلال الامام بآية على ما ذهب اليه بعد أن صح رجوعه الى قول اصحابه

فظهر أن قول الثلاثة بجواز قراءة القرآن بغير العربية في الصلاة من لا يحسنها ليس مبناه أن الترجمة تصير قرآناً عند العجز عن أدائه بالعربية ، يفرض عليه ذلك في هذه الحالة ، بل المفروض عليه حينئذ تعلم العربي ، لأنه اقتران الأمر به في الصلاة ، وإنما هو مبني على الاكتفاء بالمعنى في حقه بعجزه ، ولأنه الميسور له من معنى القرآن الذي هو مجموع النظم والمعنى المأمور به في الصلاة . ولما كان أداء المفروض موقوفاً على النظم العربي ، وليس ذلك ميسوراً له متى بالترجمة بدلا عنه لتقوم مقامه في أداء المعنى المفروض ، مع أنها ليست قرآناً ، لأن القرآن هو كلام الله ، المنزل بلغة العرب ، والترجمة ليست كذلك - وفي الدراية : قراءة غير العربي تسمى قرآناً مجازاً . ألا ترى أنه يصح نفي القرآن عنه فيقال : ليس بقرآن وإنما هو ترجمته ، وإنما جوزناه للعجز إذا لم يحل بالمعنى ، لأنه قرآن من وجه باعتبار اشتماله على المعنى ، فلا تبيان به أولى من الترتك مطلقاً ، إذ انتكاف بحسب التوسع اهـ

وظاهر أن مسألة القراءة في الصلاة هي ، ومسألة ترجمة القرآن وقراءته بغير اللغة العربية مطلقاً شيء آخر . والكلام في الثاني دون الأول ، ولا يلزم من جواز الأول على فرض تسليمه جواز الثاني ، حتى ينسب الى الامام وصاحبيه القول بجواز ترجمة القرآن وقراءته خارج الصلاة . وكتابتها بغير اللغة العربية ، وكيف ذلك وقد أجمعت كتبهم على أن الخلاف في خصوص الصلاة . وأصله أن الأمر بالقراءة إنما هو في الصلاة دون غيرها كما أطبقوا على أنه المراد في قوله تعالى ( فاقروا ما ينسر من القرآن ) والقرآن المعروف هو اللفظ المنزل بلغة عرب خاصة وفي شرح أصول البزدوي الامام عبد العزيز بن احمد البخاري الحنفي :

وقرآن باسم النظم والمعنى جميعاً في قول عامة العلماء ، وهو الصحيح من قول أبي حنيفة ، إلا أنه لم يجعل النظم ركناً لازماً في جواز الصلاة خاصة ، وإنما هو لازم فيما سواه من الأحكام الأخرى ، كوجوب الاعتقاد ، وحرمة كتابة المصحف بالفارسية ، وحرمة المداومة والاعتیاد على القراءة بها اهـ

وقد نقل أن الامام رجع عن هذا القول في الصلاة أيضاً الى القول بعدم جواز الصلاة بالفارسية مطلقاً ، فيكون النظم ركناً لازماً عنده في كل حالة كما ذكره العلامة الأوسى في تفسيره عند قوله ( وإنه لني زبر الأواين ) بناء على عود الظهور الى القرآن باعتبار معناه . وفي رواية عنه تخصيص الجواز بالفارسية لأنها أشرف اللغات بعد العربية . وفي أخرى إنها إنما تجوز بالفارسية في الصلاة للعاجز عن العربية ، وقد صح رجوعه عن القول بجواز القراءة بغير العربية مطلقاً جمع من الثقات المحققين لضعف الاستدلال بهذه الآية عليه كما لا يخفى ، فإن الظاهر عود الضمير في الآية على القرآن بتقدير مضاف أي وإن ذكر القرآن في الكتب المتقدمة . وهذا كما يقال إن فلاناً في دفتر الأمير اهـ ملخصاً ومن هذا يعلم ما في استدلال بعضهم بقول الامام على جواز ترجمة القرآن بأي لغة خارج الصلاة وداخلها للقادر والعاجز ، لأنه على رواية التخصيص بالفارسية لا تجوز بغيرها مطلقاً ، وعلى رواية رجوعه الى قول صاحبه لا تجوز خارج الصلاة مطلقاً ، ولا للقادر في الصلاة ، وعلى رواية الثقات عنه : لا تجوز مطلقاً بغير العربية في الصلاة وغيرها للقادر والعاجز . والمعول عليه رأيه الأخير الذي صح رجوعه اليه كما هو رأي الجماعة ، فكيف يصح الاستدلال بقوله على جواز ترجمة القرآن مطلقاً ؟ اهـ ( ص ٣١ - ٣٦ )

ثم قال في فصل آخر ( ص ٣٩ )

«ومذهب الشافعية عدم جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة مطلقاً سواء كان يحسن العربية أو لا يحسنها ، وفي فتاوى شيخ الاسلام ابن حجر<sup>(١)</sup> من أئمة (١) يريد أحمد ابن حجر الهيثمي الفقيه . لم يلقب بشيخ الاسلام وإنما لقب به سميه الخافض أحمد بن حجر الهسقلاني وهو شافعي أيضاً

الشافعية - وقد سئل هل تحرم كتابة القرآن بالعجمية كقرآن العرب بقوله: قضية ما في المجموع عن الأصحاب التحريم . ووجهه بما لا يخرج عما قدمناه من إجماعه ، «وقال الامام الزركشي من أئمة الشافعية رحمه الله: الأقرب المنع من كتابة قرآن بالفارسية كما تحرم قراءته بغير لغة العرب ، وفي شرح العباب ان كتابة القرآن العظيم بالعجمي تصرف في اللفظ المعجز الذي حصل به التحدي بما لم يرد به بما يوهم عدم الاعجاز بل بالركاكة لأن الألفاظ العجمية فيها تقديم المضاف فيه على المضاف ، وذلك مما يخل بالنظم ويشوش الفهم، وقد صرحوا بأن الترتيب مناط الاعجاز. وهو ظاهر في حرمة تقديم آية على آية يعني أو كلمة على كلمة كما يحرم ذلك قراءة اه

«بل نصوا على أن في ترتيب حروف الكلمات القرآنية ومراعاة التناسب فيما بينها من الصفات من وجوه الاعجاز مالا يقدر أحد من البشر على الاتيان بمثله فضلا عما في ترتيب الكلمات والجل من اللطائف والاسرار مما لا يحوم حول بيانه لسان أو دركه جنان

«ومع اتفاقهم على عدم جواز كتابة القرآن بغير العربية اختلفوا فيما إذا كتب بغيرها : هل يحرم مسه وحمله للحائض والجنب؟ ذهب الجمهور الى الجواز لانه ليس بقرآن ونقل العلامة الشوبري عن الشافعية أن القرآن إذا كتب بغير العربية يحرم مسه وحمله للحائض والجنب إذ لا يخرج بذلك عن كونه قرآنا والالم تحرم كتابته اه ولعل المراد به أنه لم يخرج بذلك عن كونه متضمنا معنى القرآن بقدر ما تسعه أوضاع اللغة المكتوب بها وان خرج عن نظمه وأسلوبه وأعطائها حكم القرآن حملا ومسا عندهم انما هو احترام لهذا القدر وإخلاق القموش الرسم العجمي بالرسم المخطوط العربي مع مراعاة جانب المعنى في الجملة

«ولم يلاحظ مثل ذلك في التفسير مع أن نظم القرآن موجود فيه مستخلل بين سطوره لم يطرأ عليه تغيير ولا تبديل نظراً الى أن المجموع المتركب من القرآن وغيره لا يطلق عليه اسم القرآن ولا ترجمته بل يسمى تفسيراً فقط ، والغالب أن تكون ألفاظه أكثر من ألفاظ القرآن فروعياً جانبه في الحكم كدروعي في التسمية.

والكتابة بغير العربية وإن لم يكن نظم القرآن موجوداً فيها بذاته ولا هي دالة عليه  
 هيئته ولكن لوضع قسمة مكان النقص الذي عليه واقامته مقامه نزل منزله  
 «والأصل ان الرسوم الكتابية لما كانت كلها من وضع البشر لا فرق بين عربي  
 وغيره أسطيت حكماً واحداً حملاً ومسا بخلاف الألفاظ فإن نظم القرآن من وضع  
 الله تعالى وما نداد من صنع البشعة فلذلك لم ينزل غير النظم المعجز منزله قراءة  
 وتعبداً ، ونزل الرسم غير العربي منزله العربي حملاً ومسا عند هذه الطائفة  
 «ومذهب الحنابلة ان الصلاة تنسد بالقراءة بالفارسية ونحوها عند المعجز  
 وعدمه وهو يدل على منع قراءة القرآن وكتابته بغير العربية مطلقاً  
 «ومذهب المالكية انه لا تجوز قراءة القرآن وكتابته بغير العربية ولذلك  
 أوجبوا تعلم الفاتحة على من لا يحسن قراءتها في الصلاة بالعربية ان أمكن وإلا ائتم  
 بمن يحسنها فإن لم يمكن فالحتمار سقوطها وسقوط القيام لها وقيل يجب قيامه بقدر  
 ما يسير من الذكر

«إذا علمت هذا فالعول عليه عند جميع الأئمة انه لا تجوز كتابة القرآن ولا  
 قراءته بغير العربية لعاجز أو قادر لافي الصلاة ولا خارجها إلا ما تقدم عن السادة  
 الحنفية في خصوص الصلاة للعاجز عن العربية وقد علمت ما فيه وتصحيح الثقات  
 رجوع الامام عنه

«ومن ذلك تعلم ما في قول صاحب الكافي من علماء الحنفية ( ان اعتاد القراءة  
 بالفارسية أو أراد أن يكتب مصحفاً بها يمنع وان فعل في آية أو آيتين لا فان كتب  
 القرآن وتفسير كل حرف وترجمته جاز ) اهـ

«فانه ان أراد بالترجمة الترجمة الحرفية للقرآن فقد علمت انها لا تجوز مطلقاً  
 ذكر معيار تفسير أو لم يذكر لأنها تحريف وتغيير للنظم لا يدفعه اقتران التفسير به  
 وان أراد الترجمة التفسيرية فهذه جائزة مطلقاً بالشرط الذي بيناه وليس ترجمته  
 اقتران ، على أن نصوص الفقهاء من الحنفية وغيرهم تخالفه

ولذلك أفتى صاحب الفضيلة الاستاذ شيخ الجامع الأزهر بمنع ترجمة القرآن  
 ووجوب مصادرة المصحف المشتمل على الترجمة الحرفية وان كان معها ترجمة

تفسيرية (١)

«وما يتوهم من جواز الترجمة الحرفية أخذنا من ظاهر قوله تعالى ( وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ) فليس بصحيح لان المعنى كما ذكره الأوسمي وغيره أن المشرك اذا طالب الأمان بعد انقضاء الاجل المضروب يؤمن حتى يتدبر الأمر ويتعظ بما يدعى إليه من هدي الإسلام فان كان من العرب تنلى عليه آيات الله وكلامه لانه من أعرف الناس بدلالاتها وأعلمهم ببراعة أسلوبها وبلاغة نظمها، وكثير منهم كانوا اذا سمعوا القرآن خروا له سجدا وهم صاغرون، وأمنوا به وهم لا عجزاه مذعنون، وان كان من غير العرب الذين لا يعرفون اللغة العربية يبين له ما يرشده للحق ويهديه الى الصراط المستقيم لا بخصوص كلام الله تعالى

واقصر في الآية على ذكر السماع لانها مسوقة لبيان حال مشركي العرب وهم من أهل اللسن والبلاغة وان كان لفظها يتناولهم وغيرهم من المشركين والمراد حتى ينصاعوا لطاعة الله ورسوله

«وقد علمت مما سلف حكم ترجمة كتبه صلى الله عليه وسلم وأن بعثها الى الكفار مشتملة على بعض الآيات القرآنية لا ينهض دليلا على جواز الترجمة الحرفية للقرآن الكريم لجواز أن يكون ترجمة ما وقع فيها من نحو الآية والآيتين ترجمة تفسيرية لا حرفية ولو سلم أنها حرفية فهي لم تذكر في الكتب على أنها من نظم القرآن ولا قصد بها تلاوته بل سبقت للدعوة الى حكمها ضمن كتبه عليه السلام اهـ

(١) يعني الترجمة الانكليزية الحديثة لبعض المهنود المطبوعة مع المصحف الشريف فقد جاءت نسخ منها الى مصر، فسالت الحكومة مشيخة الأزهر عنها فأفتى شيخ الأزهر بما ذكر فتمت الحكومة ادخال الترجمة الى الديار المصرية . وسبق مثل هذا في بيروت فقد أرسل اليها بعض النسخ من هذه المصاحف المطبوعة مع الترجمة الانكليزية فأرسلتها ادارة الجرك الى مفتي بيروت حسب النظام المتبع فأفتى بمنعها فتمت

## ﴿ شبهات من أبحاث ترجمة القرآن في هذا الزمان ﴾

قد كان مما نشكو من فوضى العلم والدين في هذا الزمان أن بعض الناس كتبوا مقالات في الجرائد خالفوا فيها جماعة المسلمين منذ ظهر الإسلام إلى اليوم فزعموا أن ترجمة القرآن مباحة ، وجاءوا بشبهات يحتجون بها على رأيهم ، بعضها آراء لهم ، وبعضها أقوال من الكتب لم يفهموها ، فهي لا تدل على زعمهم ، ولو دلت عليها لم تكن حجة ، لأنها كآرائهم ، وما كان لأحد أن ينقض برأيه بناءً رفع سمكه القرآن ، وأجمعت عليه الأمة قولاً وعملاً

( الشبهة الأولى ) ما استدل به بعض الحنفية لامامهم على قوله الذي كان خطر له ، ثم رجع عنه لظهور بطلانله ، كما أنه لم يتابعه عليه أصحابه ، ولا عمل به أحد من أتباعه . أعني ماسبقت الإشارة إليه مرارا من جواز قراءة العاجز عن النطق بالعربية لما عجز عنه من القرآن في الصلاة بالفارسية ، أعني بما استدل له به قوله تعالى في سورة الشعراء ( وإنه لني زُبر الأولين ) قال الزمخشري في كشافه في تفسيرها وإن القرآن - يعني ذكره - مثبت في سائر الكتب السماوية . وقيل : إن معانيه فيها ، وبه يحتج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة حيث قيل : ( وإنه لني زُبر الأولين ) لكون معانيه فيها . ونقله عنه آخرون كصاحب التفسيرات الأحمدية ، وصاحب فتح البيان ، ونقله عنهم في هذه الأيام بعض الأزهريين في الجرائد عند مدار الجدال في حكم ترجمة القرآن باللغات الأعجمية ، وادّعى أن الزمخشري فهم هذا من الآية

وتقول في رد هذه الشبهة (أولا) إن الزمخشري لم يفهم هذا من الآية ، بل فهم غيره ، ونقله بصيغة التمريض والتضعيف « قيل » وإنما الذي فهمه واعتمده ما قبله ، واعله لولا عادة المنتهين إلى مذهب مجتهد الحسكية كل ما يؤيد قوله من قوي وضعيف لم ينقله ولو بصيغة التمريض ، وله كثير من النقول الضعيفة التي لا يحمل تبعثها لإشارته إلى ضعفها

(ثانياً) ان سبب اشارته الى ضعفه هو ان تفسير المعاني بما ذكره ظاهر البطلان لا يمكن ان يريد الامام ثوحيفة، ولا من دونه في علم اللغة والدين: أعني ان تكون معانيه هي مدلول كلمة القرآن كله أو بعضه، بأن تكون سورة الفاتحة الواجبة في الصلاة - وهي موضوع مسألة أبي حنيفة قبل كل شيء - موجودة في التوراة بهذا النظم والترتيب، ولكن بألفاظ عبرانية، اذ لو كان الأمر كذلك لكان القرآن ترجمة للتوراة، وصح أن يقال: إنه هو التوراة، ولا نطيل في بيان وجوه فساد هذا القول وبطلانه، وما كان يترتب عليه لو كان مراداً من الأباطيل كاحتجاج اليهود وغيرهم على النبي (ص) بأنه لم يأت بكتاب جديد من عند الله بل بترجمة بعض التوراة

(ثالثاً) ان فرضنا أن هذا مراد في بعض القرآن كقصص موسى التي في سورة الشعراء، أو مطلقاً دون الفاتحة ومثل قصة بدر وأحد، وأن من قرأ قصة موسى في سورة الشعراء يصح أن يقول: قرأت التوراة مترجمة بالعربية فان هذا على كونه - ليس بصحيح أيضاً على حقيقته - لا يدل على جواز ترجمة القرآن كله كما أن الذي يقرأ القصص في سفر الخروج من التوراة لا يصح ان يقول: قرأت القرآن - الذي هو موضوع الخلاف. وإنما قصارى ما يدل عليه أن تجوز قراءة عبارة التوراة الموافقة للقرآن في الصلاة، وأن يقاس عليها جواز ترجمتها بالفارسية مثلاً، ولم يقل بالأصل أبو حنيفة ولا غيره من علماء المسلمين حتى يصح قياسهم عليه. وههنا مجال واسع للتجويل والسخرية بمن يتهوون كون مثل هذا التهويك الذي نحن بصدده، وينشرونه على الناس في مسألة عظيمة كهذه تبركه عفواً عنهم

(رابعاً) اتفق السلف والخلف من علماء التفسير على أن الكلام في الآية مقدر فيه مضاف قبل ضمير القرآن ومضاف قبل زبر الأولين - كما قال ابن جرير - والمعنى وان ذكره أو خبره أو دليل صدقه - مثلاً - لثابت في بعض زبر الأولين. ولهم في الضمير قولان (أحدهما) أنه القرآن - وهو المتبادر من السياق قبله - والثاني أنه النبي (ص) كما قال (يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل)



(خامساً) ان الذي يوجد من معاني لقرآن في كتب الرسل الأولين قسماً (أحدهما) عام يوجد فيها كلها ، وهو أصول الدين الالهي المطلق من الايمان بالله تعالى وعبادته وحده ، والايمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح ، وما يقابل ذلك من الزجر عن الشرك والمعاصي والردائل — ويصح حمل الآية عليه على حد قوله تعالى ( شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ) الخ ( والثاني ) خاص وهو الأقرب الى السياق سابقه ولاحقه وهو ان المراد ماني هذه السورة وأمثالها من قصة موسى وكذا غيره من الرسل عليهم السلام التي كانت مجهولة عند النبي (ص) وقومه وأهل بلده خاصة ، ولذلك قال بعدها ( أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل ) كما قال عقب قصة موسى في سورة القصص مخاطباً لرسوله (ص) محتجاً على صدق ما جاء به (وما كنت بجانب الغربي اثم قضينا الى موسى الأمر) الآيات

فهل يصح الذي علم أو فهم أن يقول في الآية إنها تدل على جواز ترجمة القرآن بالفارسية أو غيرها ، وإن الترجمة مع هذا تسمى قرآناً ، وتكلام الله ، ويتعبد بها ، خلافاً للنصوص القرآنية القطعية ، ولاجماع الأمة منذ وجد الاسلام ، إلى اليوم ؟ ؟ لك أن تقول : إن فوضى العلم والدين يصح معها ما هو أبعد من هذا عن العلم والفهم ، كما صح لعالم أزهرى أن يقول : إن الزمخشري رجع نقول الذي رأيت أنه حكاة حكاية بصيغة التضعيف ، وأنه ليس في سياق الآية ولا في قواعد اللغة ما يمنع هذا التفسير . وقد علمت قطعاً أن سياق الآية والمتبادر من اللغة يمنع ذلك !!!

( الشبهة الثانية ) قول هذا الأزهرى « وإن رجعنا الى قول الفقهاء — لأن الجواز وعنده من مباحثهم رأينا الامام الشافعي روي عنه في الأم أن للأعجمي أن ينطق بالقرآن مترجماً الى غير العربية في الصلاة ، وأن ما ينطق به اذا أراد القراءة به صحت صلاته ، وعند ما ينطق به قراءة وقرآناً . وأنه يجوز وجود جماعة تصلي في مسجد يقرأ الامام في تلك الصلاة بلسان أعجمي ، ويقرأ المؤمنون به بلسان أعجمي ، كذلك أم القرآن وغيرها من السور ماداموا لا يحسنون العربية » اهـ

بالعجب ! وباللغوي ! الامام الشافعي يجيز للأعجمي أن يقرأ القرآن في

الصلاة مترجماً إلى غير العربية ويسمى الترجمة قرآناً، أما الإمام الشافعي يجوز إقامة صلاة الجماعة إمامة في المسجد بإمام يقرأ بلسان أعجمي، وجماعة يقرؤون بلسان أعجمي، سواء في ذلك أم القرآن وغيرها من السور؟ وماذا بقي؟ إذا كان الشافعي يجيز قراءة القرآن في الصلاة باللسان الأعجمي للإمام وللجماعة وللأفراد بمثل هذا الاطلاق الذي حكاه هذا العالم الأزهرى عن الأم، فما معنى ذلك البيان المفصل الذي أورده في رسالته في الأصول في إثبات كون القرآن عربياً، وأنه يجب على كل مسلم أن يتعلم العربية ليقرأ بها في الصلاة كما أنزله الله الخ؟

(والجواب) عن هذه الشبهة أن صاحبها تقول على الشافعي ما لم يقل، على أنه كان قد نقل بعض عبارته بتصرف، ثم فسرها بما نقلناه عنه، فقصر في النقل، وأخطأ في الفهم، ولا تتمه بتعمد القول على الإمام الشافعي، وهذا نص عبارة الأم:

«فإن أم أعجمي أو لحن فافصح بأم القرآن، أو لحن لحننا لا يحيل معنى شيء، منها أجزاءه وأجزائهم، وإن لحن فيها لحننا يحيل معنى شيء، منها لم تجز من خلفه صلاتهم، وأجزائه إذا لم يحسن غيره، كما يجزيه أن يصلي بقراءة إذا لم يحسن القراءة. ومثل هذا إن لفظ منها بشيء، بالأعجمية وهو لا يحسن غيره أجزاءه صلاته، ولم تجز من خلفه، قرؤا معه أو لم يترؤا، وإذا ائتموا به فإن أقاما معاً أم القرآن أو نطق أحدهما بالأعجمية أو لسان أعجمي في شيء من القرآن غيرها أجزاءه ومن خلفه صلاتهم إذا كان أراد القراءة لما نطق به من عجمة ولحن. فإن أراد به كلاماً غير القراءة فسدت صلاته، فإن ائتموا به فسدت صلاتهم» اهـ

ذكرت هذه الأحكام في الام في فصل عنوانه (إمامة الأعجمي) والأعجمي كلاً أعجم من في لسانه لكنة وفهاة، سواء كان عربياً أو عجمياً، ووضه الفصيح الجيد النطق كما في المصباح وغيره. وحكم الأعجمي أنه يغتفر له ما ذكر آنفاً من اللحن في الصلاة منفرداً وإماماً أو منفرداً فقط، كما يغتفر ترك التراءة فيها مطلقاً لمن لا يحسنها. وقوله الأخير الذي لم يفهمه الناقل فكان محل الشبهة وهو «وإذا ائتموا به» الخ، معناه أن الأعجمي الذي لا يحسن القراءة إذا أم مثله

فأقاما معاً أم القرآن أي أحسن كل من الامام والمأموم قراءة الفاتحة ، أو لحنا جميعاً في غير الفاتحة ، أو نطق أحدهما بالأعجمية أو اسان أعجمي في شيء من القرآن غير الفاتحة كانت صلاة كل منهما صحيحة ، لأن اللحن والعجمة والرطانة الأعجمية في غير الفاتحة لا تبطل الامامة ولا الصلاة إذ ركن القراءة في الصلاة هو الفاتحة ، وما عداه من القرآن فهو مستحب لا فرض ولا واجب — وليس عند الشافعي في الصلاة واجب غير فرض — والمفروض أن ما ذكر من النطق بالأعجمية أو باللسان الأعجمي في غير الفاتحة سببه العجز عن القراءة الفصيحة لا التلاعب ولا قصد غير القراءة ، والا بطلت صلاتهما .

ولا يدخل في هذا الباب شيء من تعمد ترجمة القرآن والاستغناء بالعجمي المترجم به عن القرآن العربي المنزل من عند الله تعالى ، وتسميته قرآناً . كيف وقد صرح الشافعي في الرسالة بوجوب قراءة القرآن في الصلاة وغيرها بالعربية كما أنزله الله تعالى ، وبوجوب أداء سائر الأذكار المأمور بها بالعربية أيضاً . وبوجوب تعلم العربية على كل مسلم لذلك . وهذا نص عبارته ( كما في ص ٩ من الطبعة الأميركية التي مع كتاب الأم له ) :

« فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به أن لا إله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله تعالى ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك » الخ

هذا نص الشافعي بعد أن أطل في كون كل ما في القرآن عربي ، وكتب مذهبه متفقه في المسألة كسائر كتب المسلمين وأتباعه أشدهم فيها أليس من العجيب مع هذا أن يتجرأ عالم أزهري فيعزوا الى رواية الأم عن الشافعي ما يأتي على إطلاقه (١) إن للأعجمي أن ينطق بالقرآن مترجماً الى غير العربية في الصلاة

(٢) وإن ما ينطق به اذا أراد القراءة به صحت صلاته وعدم ما ينطق

قراءة وقرآناً

(٣ و ٤) وانه يجوز وجود جماعة تصلي في مسجد يقرأ الامام في تلك الصلاة

بلسان أعجمي أم القرآن وغيرها من السور ما داموا لا يحسنون تعريبه  
 أين ذكر الشافعي الترجمة وأباحها للأعجمي ؟ اللهم هذا افتراء عليه  
 أين أجاز الشافعي إقامة الجماعة في مسجد يقرأ إمامه فيها الفاتحة وغيرها  
 بلسان أعجمي الخ ؟ وعبارته المنقولة عنه أنفاً صريحة في كون عجز الأعجمي عن  
 الإفصاح ولو ببعض الفاتحة عذراً له دون من يصلي خلفه ، فأنهم لا تصح صلاتهم  
 معه . وعدم الإفصاح بالانفاظ العربية شيء ، والترجمة بلسان أعجمي شيء آخر  
 وجملة القول أن عبارة الامام الشافعي في هذا المقام خاصة بمن لا يحسن  
 النطق بالقرآن ، وما يعذر به وما لا يعذر به هو ومن يأتيه . ومثل هذا العجز  
 معهود في كل زمان نسمعه بأذاننا ممن يتعلمون لغة غير لغتهم ولا يتقنونها من  
 العرب أو العجم ، فهم يحرفون ويلحنون ويخلطون ألفاظاً من اللغة التي يجيدونها  
 باللغة التي لا يجيدونها بغير اختيار . ونعيد القول ونؤكد ، بأن تعمد ترجمة القرآن  
 والقراءة به لا تدخل في شيء من كلام الامام ، ولم تخطر ببال أحد من أتباعه في  
 مذهبه عندما شرحوا كلامه ، وفصلوا أحكامه ، ولا تخطر ببال أي قارئ له يفهم ما يقرأ  
 ﴿ الشبهة الثالثة ﴾ ان الدلائل على وجوب فهم القرآن في الصلاة وتدبره فيها  
 وفي خارجها صريحة والآيات الواردة فيها محكمة ، ولا يتم اداء هذا الواجب إلا  
 بترجمة القرآن بلغات جميع الشعوب العجمية التي تدين بالاسلام . وما لا يتم  
 الواجب الا به فهو واجب

والجواب عن هذه الشبهة من وجهين ( أحدهما ) ان الفهم والتدبر وما  
 يراد بهما من الخشوع والاعتبار إنما يتم بتعلم المسلمين للغة الكتاب الالهي لا بتحويل  
 الكتاب الالهي إلى لغاتهم كلها كما فصله الامام الشافعي في رسالة الأصول وأقره  
 جميع المسلمين لسبق الاجماع وجريان العمل على ذلك في الصدر الأول . ويؤكد  
 ان ترجمة القرآن ترجمة صحيحة تؤدي مافيه من المعاني والتأثير كما أراد الله تعالى  
 متعذرة ومستلزمة لتغيير كلام الله ، وهذا من دليل وسند الاجماع على تحريمها  
 فتعين أن يكون المسلمون تابعين لما أنزل الله تعالى دون أن يكون ما أنزل الله تعالى  
 تابعاً للغاتهم . ولا يعقل أن يؤثر المؤمن بالله وبكتابه ورسوله لغة قومه على لغة

كتاب الله ورسوله ، ولهذا كان قدماء العجم من المسلمين يزاحمون العرب بالمناكب في تلقي العربية من اعراب البادية وفي جميع علومها وفنونها وآدابها كعلوم الشريعة نفسها ، وذلك ان إيمانهم كان برهانيا وجدانيا ، وما أحدث التنافس بين لغة الدين الذي عليه مدار سعادة الدارين ولغة الآباء من العجم الا بعض زنادقة الفرس الاوائل وملاحدة الترك المتأخرين . وأما قدماء مسلمي الترك الذين أعرضوا عن العربية وفنونها فكانت آفتهم الجهل فالخوف من عودة السلطان والسيادة الى العرب — وهذا هو الذي أعدهم لقبول دسائس الافرنج بالدعوة الى عصبية الجنس واللغة التي قوضت سلطنتهم ( امبراطوريتهم ) العظمى بجلبهم ﴿ ثانيهما ﴾ ان ما لا بد منه من التلاوة في الصلاة وهو الفاتحة وبعض الآيات أو السور القصيرة يمكن أن يفسر لكل مسلم يحفظه تفسيراً يتمكن به من فهم معناه والاعتبار به ، فهو لا يتوقف على ترجمته وتسميتها كلام الله كذبا على الله وخلافا لنص كتاب الله واجماع المسلمين — فضلا عن ترجمة جميع القرآن كذلك ﴿ الشبهة الرابعة ﴾ مسألة تبليغ الدعوة إلى الاسلام . وقد بينا بطلانها من قبل ، ونزيدها هنا بيانا فنقول :

لئن كان اطلاع بعض الأفراد من أعاجم الشرق والغرب على ترجمة القرآن سبباً لاسلامهم فعلته أنهم عرفوا منها أصول الاسلام ومقاصده كلها أو بعضها ، وذلك كاف لتفضيله على غيره من الأديان كلها ، ولم يكن سببه ترجمته كتأثير أصله المعجز للبشر ، في إقناع العقول ، وهداية القلوب ، الذي كان سبب اهتداء العرب ، وقلب طباعهم ، وجمع كلمتهم ، وارتفاع رايتهم ، وخضوع الامم والشعوب لهم . ولو بلغت هذه الأصول والمقاصد للأعاجم بلغاتهم بأسلوب آخر بأن يذكر كل أصل في فصل خاص مع الشواهد عليه من القرآن والسنة ، ببيان معاني نصوصها بالتفسير ، وإقامة الأدلة عليه من النقل والعقل — لكان يكون ذلك أقرب الى الاقناع ، وأشد تأثيراً في هداية المستعد للاسلام . فان هذه هي الطريقة المثلى للدعوة ، وهي التي جرى عليها مسالمو خير القرون ، وشهد لهم بذلك أصدق الشهود ، وأبعدها عن الجرح والظلمن — وهي

سيرتهم الفضلى في فتوحهم ، وعدلهم المطلق في أحكامهم ، وصلاحهم واصلاحهم في أعمالهم ، وبذلك انتشر الاسلام في الشرق والغرب ، وساد أهله الأمم والشعوب بسرعة لم يعرف لها نظير في التاريخ

فاسلام الأمة العربية كان بتأثير هداية القرآن وهدى النبي صلى الله عليه وسلم وجهاده به ، كما قال تعالى ( إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم \* يهدي به من نشاء من عبادنا \* ويهدي به كثيراً \* يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ) وقال لنبيه ( وجاهدكم به جهاداً كبيراً ) وقد كان كل ما كان من اضطهاد رؤساء قومه المعاندين له (ص) لأجل صدّه عن تبليغ القرآن للعرب ، لجزمهم بما يكون من جذبهم به الى اتباعه كما قال لهم عمه أبو لهب في أول العهد بتبليغهم الدعوة : خذوا على يدي ، قبل أن تجتمع العرب عليه . ولم يكن (ص) يطلب منهم ثم من كل من كان يعرض نفسه عليهم في الموسم الاحمائيه ليبلغ دعوة ربه . ولما أسلم من أسلم من الانصار في موسم الحج سرّاً ، ونشروا الدعوة في عاصمتهم يثرب ، وصار لهم قوة يحمونه بهامن قريش ، هاجر اليهم . فما زالت قريش تقاومه الى أن رضي منهم بعد استكمال قوته أن يصالحهم في الحديبية بالشروط التي يرضونها مع كراهة أصحابه كلهم لها في مقابلة الشرط الوحيد الذي كان هو أهم المؤامرات عنده عليه صلوات الله وسلامه ، وهو حرية الاختلاط والاجتماع بينه وبين سائر العرب ، لعلمه بأن سماعهم للقرآن ولاسيما منه كاف لاسلام السواد الأعظم منهم ، وكذلك كان وكذلك ما فعل خلفاؤه وأصحابه الهادون المهديون من العجائب في نشر الاسلام وفتح الاقطار ، ، وثل عروش أعظم دول الأرض قوة وعظمة ونظاماً وتشريعاً وحضارة ، وتبديل ممالكهم وشعوبها بذلك كله ما هو خير منه — ما فعلوا ذلك كله إلا بتأثير القرآن

وأما انتشار الاسلام في الأعاجم فقد كان بتبليغ الصحابة ثم من تبعهم في هديهم من العرب فالعجم للدعوة ، وكان برهاتهم عليها من أحوالهم الصالحة وسيرتهم الحسنى أقوى تأثيراً في تلك الشعوب من أقوالهم التي كانت تنقل اليها بالترجمة ، ولم ينتشر الاسلام في شعب منها بترجمة القرآن بلغته ، وقراءتهم

أترجمته ، وإنما كانت درجة الهدى والعلم والعمل ترتفع فيهم بقدر تدبرهم له بعد تعلم لغته ، فكان من متقني لغة القرآن من الموالي كبار الأئمة المجتهدين من أهل الحديث وأهل الرأي ، وجهاً بعلوم اللغة وفنونها ، وأفراد العباد ، ونوايع الأدباء ، وغفلة الشعراء .

وقد كان إيمانهم الصحيح بتلك الدعوة المثلى هو الذي حملهم على طلب لغة الدين ( العربية ) من غير إلزام حاكم ، ولا نظام تعليم اجباري تؤسس له المدارس وقد ترجم القرآن في هذه القرون الاخيرة بأشهر لغات الشعوب الكبيرة من غربية وشرقية فكانت ترجمته مشاراً للشبهات وسبباً للمطاعن ، أكثر مما كانت سبباً للاهتمام الى الاسلام ،

( فان قيل ) إن مشار الشبهات لم يكن من الترجمة بل من الخطأ فيها ، وذلك يتلافى بالترجمة الصحيحة التي ندعو اليها ، وإن سبب الطعن لم يكن إلا سوء قصد من أعداء الاسلام من دعاة النصرانية أو الملاحدة وهؤلاء يطعنون في القرآن العربي المنزل أيضاً

( قلت ) إني على علمي بهذا أقول إن الترجمة أكبر عون على الأمرين فإن الذي يطعن في القرآن المنزل إما أن يكون ضعيفاً في اللغة العربية أو حاذقاً لها راسخاً فيها — فالأول شبيه بمن يحاول فهم القرآن من الترجمة أكثر مما يؤتى من جهله باللغة ، وأما الثاني فهو يتكاف الطعن تكافاً يكابر به وجدانه ، ويغالب ذوقه وبيانه ، فيجنيء طعنه ضعيفاً سخيفاً ، ويكون الرد عليه سهلاً المسلك ، واضح المنهج ، وقلماً يكون الدفاع عن الترجمة كذلك وإن كانت صحيحة ، وإن تكون صحيحة إلا في بعض الجمل أو الآيات القصيرة . دون السور والآيات الطويلة . بل بعض المفردات تتعذر ترجمتها بمفردات من اللغات الأخرى تؤدي المراد منها . وأنه ليوجد في كل لغة من هذه المفردات التي لا يوجد لها مرادف في لغة أخرى . وفي كلام بعض العارفين باللغة العربية وغيرها من اللغات المشهورة ما يدل على أن العربية اغناهن بهذه المفردات ، دع ما لها من الخصائص في فنون الحجاز والكنائيات .

## تعذر ترجمة القرآن

قد تكرر في كلامنا الجزم بتعذر ترجمة القرآن والمسلم الصحيح الاسلام  
لابتحتاج الى دليل على هذا لأنه يؤمن بأن القرآن معجز للبشر بأسلوبه ونظمه  
العربي المنزل ، كما أنه معجز بهدايته وإصلاحه للبشر ، وقد تحدى النبي (ص)  
العرب بهذا الاعجاز وتحدى المسلمون به من بعدهم فثبت عجز الجميع عن الاتيان  
بمثله ، وصدق قوله عز وجل (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل  
هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (١٧ : ٨٩) والترجمة  
لا تكون صحيحة إلا اذا كانت مثل الأصل ، فالآية نص قطعي على عجز  
الانس والجن عن الاتيان بمثله ولو كان بعضهم عوناً ومساعداً لبعض فكيف  
يمكن أن يأتي بمثله فرد أو جماعة ؟

وإن الذين يريدون ترجمته من الترك لصرف قومهم بها عن الكتاب المنزل  
من عند الله ليسوا بمؤمنين به فتقوم عليهم هذه الحجة ، وإن كثيراً من المسلمين  
المقلدين الذين يجهلون كثيراً من أصول الاسلام وفروعه لينخدعون بشبهات  
القائلين بترجمة الكلام الالهي باللغات المختلفة ولا يدرون أنه غير ممكن ولا  
أنه غير جائز ، واذ قد بينا للفريقين عدم جوازه وما يترتب عليها من المفساد بالدلة  
المقنعة وجب ان نبين له الدلائل على عدم إمكانها من جهة اللغة ، ولا تقتصر  
على بيانها من جهة الشرع فقط

وقد علم أننا نعني بالترجمة حقيقة معناها والمراد منها الذي هو محل النزاع  
وهو التعبير عن الآيات العربية بما يؤدي معانيها وتأثيرها من لغة أخرى  
وإن توفية هذا الموضوع حقه يقتضي تأليف كتاب مستقل ولكننا نكتفي  
بقليل من الشراهد تعني عن الكثير ونبدأ بالمفردات ونثني بالجملة ثم نعرزها  
بكلمة في الأساليب

أما المفردات فاما حقيقة واما مجاز واما كناية وكل منها إما لغوي سبق به  
استعمال العرب واما شرعي أو مما انفرد به التنزيل ، ومنها المشترك الذي وضع  
لعدة معان في اللغة تعرف المراد منها بالقرائن . ومن علماء اللغة والأصول من أثبت



أن اللفظ قد يستعمل في حقيقته ومجازه والمشارك في معنیه أو معانيه إذا لم يمنع من ذلك مانع ، وقد جرى على هذا الجع شيخ المفسرين الامام محمد بن جرير الطبري في تفسيره وتبعناه فيه . ثم إن هذه المفردات تنقسم الى أسماء وأفعال وحروف معان وكل منها أقسام لكل منها مواقع في الاستعمال

ومن المعلوم بالقطع لدى العارفين باللغات المتعددة أنه لا يمكن أن تتفق لغتان من لغات العالم في جميع مفرداتها ، ولا في طرق دلالتها ، وإذا فرض اتفاق لغتين في حقيقة لفظ واحد ومجازه وكنايته بحيث يترجم أحدهما بالآخر . مهما يكن المراد منه للمتكلم فلن يمكن مثل هذا في الأوضاع الجديدة الشرعية والعرفية كالالفاظ الموضوعية في القرآن لصفات الله تعالى وغير ذلك من عالم الغيب أو لبعض العبادات . ولذلك ذهب بعض علماء اللغات وعلماء الاجتماع الى استحالة قيام لغة مقام أخرى في آدابها ومعارفها ومعانيها العقلية والشعرية

مثال ذلك الأسماء الموضوعية ليوم القيامة وهي كثيرة وكل لفظ منها له معنى تدل عليه مادته العربية وهذا المعنى مراد لتحقيقه في ذلك اليوم كالأقعة والتمارة والطامة والصاخة والحاقة والغاشية الخ وقد أقت الحجة على طيب تركي في القسطنطينية بهذه الألفاظ إذ زعم انه يترجم القرآن المجيد — وهو لا يحسن التعبير عن مراده باللغة العربية كما يجب — قلت له : لكم أن تفسروه بالتركية كما فعل بعض علمائكم من قبل . وأما الترجمة فهي مما يتعذر على أهل اللغات التي هي أغنى من لغتكم وأوسع وان أتقنوا العربية ... ثم سألته كيف تترجم هذه المفردات الموضوعية ليوم القيامة ؟ قال انه يترجمها بيوم القيامة . قلت اذاً تفوت المعاني الاشتقاقية المتصودة بالذات من هذه الاسماء وهي بيان صفات ذلك اليوم مبدأ غاية وما يقع فيه ، وما فيها من الوعظ والنذر المؤثرة في الخوف والرجاء ، والرادعة عن المعاصي . وإذا ترجمت بمعناها الاشتقاقية لم يفهم منها أن المراد بها صفة يوم القيامة ، فن القارة اسم فاعل يوصف به في اخقيقة امرأة تفرع أحدًا بالقرعة ، وفي المجاز داهية تفرع القلوب بأهوالها ، والقرع في أصل اللغة ضرب شيء على شيء — كما قال الراغب — وأخص منها (الصاخة) وهي الضربة ذات الصوت

الشديد الذي يصيح المسامع أي يقرعها حتى يصمها أو يكاد ، أو الذي يضطرها إلى الاصاخة والاصغاء .

وإذا أنت فسرت الكلمة بيوم القيامة ، ووصفته بالقارعة في سورتها ، وبالصاخة في سورة ( عبس وتولى ) تكون قد انفلت من أذق الترجمة إلى سعة التفسير ، وحينئذ قد تكون عرضة لغلط في التفسير يضيع به شيء من مراد الله تعالى من هذه الألفاظ . وإذا كان قد وقع في هذا بعض المفسرين بالعربية ، فالترجم بلغة غير العربية أولى بالغلط ، فإن بعض المفسرين قال : إن المراد بالقارعة الداهية التي تفرع القلوب . وهذا التفسير مردود بدلالة القرآن نفسه ، فإن الله تعالى يقول في شرح هذا القرع : ( إذا وقعت الواقعة \* ليس لوقعتها كاذبة \* خافضة رافعة \* إذا رجَّت الأرض رجاً \* وبسطت الجبال بساً \* فكانت هباء منبثاً ) ( ٥٦ : ١ - ٧ ) فهذا عين المراد من قوله تعالى ( القارعة ما القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة ؟ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث \* وتكون الجبال كالعهن المنفوش ) ويوضح هذا من نظريات الهيئة الفلكية ما ذهب إليه بعض الفلكيين من أن خراب هذا العالم لا يتصور إلا بدنو بعض النجوم ذوات الأذنان من الأرض وصدمه أو قرعه لها قرعة شديدة على نسبة قوة الجذب ، تبس به الجبال أي تتفتت حتى تكون هباء منبثاً في الفضاء ، وحينئذ يبطل نظام الحاذبية العامة ، فتتأثر الكواكب وتتصادم كما قال تعالى في وصف ذلك اليوم ( وإذا الكواكب انتثرت ) فانطبق الآيات المختلفة الواردة في وصف يوم القيامة من السور المتفرقة على على هذه النظرية الفلكية التي لم تكن في عصر التنزيل معروفة للعرب ولا لغيرهم من علماء الفلك على الطريق القديم ، قد تعد في هذا العصر من معجزات القرآن وعجائبه ، وفاقا لما ورد في وصفه من الأثر ( ولا تنتهي عجائبه ) ولكنه لا يظهر من ترجمة القرآن الحرفية ، فيكون قصوره لهمو عدم موافقتها الأصل من طرق متعددة فلما سمع مني ذلك الطيب التركي المغرور هذا الشرح بهت ولم يجر جواباً - على أننا رأينا في الصحف ان الذين شرعوا يترجمون القرآن في هذه الأيام قد فسروا ( يوم الدين ) في الفاتحة بيوم القيامة ، والدين الجزاء على الأعمال ،

وذكره مقصود بالذات ، وله من التأثير ما ليس ليوم القيامة ، فانه يذكر التالي للفاخرة في الصلاة وغيرها بأن الله سيحاسبه على أعماله ويجزيه بها « ان خيراً فخير ، وان شراً أشر »

واذكر من مفردات الافعال دلالة صيغها من نحو التكلف والتكثير والمشاركة والمطاوعة الخ ومن مفردات حروف المعاني والأدوات الفروق في العطف ونكت وضع بعضها في موضع الآخر كقوله في سورة الانعام ( قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ( ٦ : ١١ ) وقوله في سورة العنكبوت ( قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ( ٢٩ : ٢٠ ) فعطف النظر في الأول ثم المفيدة للتراخي وفي الثاني بالفاء المفيدة للتعقيب . فهل يوجد في سائر اللغات مثل هذا العطف الذي تقتضيه المعاني كما بيناء في تفسير الآية الأولى مع مقارنات أخرى ( ص ٣٢١ ج ٧ تفسير ) وله نظائر أخرى في تفسيرنا

واذكر من معاني الأدوات ما حققه الامام عبد القاهر الجرجاني من الفرق بين الحصر بأنما والحصر بحرفي النفي والاثبات كقولك : ما هو إلا كذا . وهو أن موضوع « إنما » على أن تجيء الخبر لا يجبهه المخاطب ولا يدفع صحته أو لما نزل هذه المنزلة ، وأن الخبر بالنفي والاثبات يكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه وقد ذكرنا هذه القاعدة بالأمثلة في تفسير قوله تعالى من سورة الانعام ( قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهلّ لغير الله به ( ٦ : ١٤٥ ) ) وبيننا سبب حصر هذا المعنى بأنما في سورتي النحل والبقرة وان الجمع بينهما هو أن آية الأنعام هي أول ما نزل في هذا الحصر فكان لما ينكره المشركون ويجبهه المسلمون ، وان آيتي النحل والبقرة نزلتا بعد ذلك فكانت في معنى صار معروف . فهل يوجد مثل الفرق في الأدوات في اللغة التركية وغيرها ؟ وهل يفهم المترجمون هذه الدقائق في الكتاب الآلهي فيراعونها في ترجمتهم ان كانت لغتهم تساعد على ذلك ؟ ومن هذا الباب الفرق بين إن وإذا الشرطيتين ذكرني به قولي الآن « إن

كانت لغتهم تساعدهم على ذلك « وهو ان الأصل في شرط إن يكون مما يجبهه المخاطب أو ينكره أو يشك فيه أو ما ينزل هذه المترفة ، وان شرط اذا بخلافه كما هو مقرر في علمي المعاني والنحو بأمثله .

وأما الجمل فأكتفي منها بإيراد شاهد واحد وهي الجملة المقيدة بالحال والفرق فيها بين الحال المفردة وجملة الحال ويترتب على ذلك أحكام شرعية كما بيناه في تفسير قوله تعالى من سورة النساء ( يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغسلوا - ٤٣:٤ ) فقوله تعالى ( وأنتم سكارى ) جملة حالية مقيدة للنهي وقوله ( جنباً ) حال مفردة مقيدة له أيضاً ، ولكن الأولى تفيد النهي عن السكر قبل الصلاة لئلا يأتي وقت الصلاة في حال السكر فيضطر السكران إلى ترك الصلاة أو إلى أدائها وهو سكران وهو المنهي عنه في الآية . وأما الثانية فلا تدل على ترك أسباب الجنابة قبل وقت الصلاة ولا في وقتها إلا أن يعلم انه لا يتمكن من فعل الطهارة وأداء الصلاة قبل ذهاب الوقت . ومثاله ما قاله الفقهاء في النذر وهو ان من قال : لله علي أن أعتكف صائماً وحب عليه أن يصوم لأجل الاعتكف ولا يجزئه أن يعتكف في رمضان ، ومن قال : لله علي أن أعتكف وأنا صائم لا يلزمه صوم لأجل الاعتكف بل يجزئه أن يعتكف في رمضان . ويراجع وجه كل منهما في تفسير الآية ( ص ١١٥ ج ٥ تفسير ) فهل يفهم مترجم القرآن بالتركية مثل هذه الدقائق ؟ وهل تساعده لغته على مراعاتها ان كان يفهمها ؟ أم يحتاج الى شرح وتفسير ليأتي مفسر الأمر جماً ؟ هذا شاهد من شواهد دقة التعبير في الأحكام الشرعية العملية . وأما دقة التعبير ، وبلاغته في الوصف المفيد للموعظة والتأثير ، فمن عجائب شواهد وصف الظالمين يوم القيامة في قوله تعالى من سورة ابراهيم ( انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار \* مهطعين مقنعي رء وسهم لا يرتد اليهم طرفهم \* وأفئدتهم هواء ( ٤٢ و ٤٣ )

شخص الأبصار عبارة عن ارتفاعها وكون أجفانها مفتوحة ساكنة لا تطرف (ومهطعين) من أهدع البعير اذا صوب عنقه ومد بصره ، وقيل الاهطاع أن تقبل بصرك على المرئي تديم النظر اليه لا تلتفت الى غيره ويأتي بمعنى الاسراع . و ( مقنعي

راء وسهم) من أفنع البعير رأسه الى الحوض يشرب اذا رفعه، وقيل انه يكون رفعا وخفضا فهو من أسماء الاضداد، وقوله (لا يرتدائهم طرفهم) معناه ان لهم في شخوص الأبصار وإهطائهما مع امتداد الاعناق وتصويبها إلى ما تنظر اليه شغلا شاغلا لما ان ترجع اليهم فتكون طوع ارادتهم يوجهونها حيث شاؤا، بل هم في هول وكرب لامشيتة ولا سلطان لهم معهم على أبصارهم، بل عيونهم ممدودة مفتوحة لا تطرف ولا تتحرك ولا تتوجه الى شيء، اخر بتصويب ولا تصعيد. ثم بين علة هذا وسببه في النفس فقال (وأفندتهم هواء) أي خلاء خاوية من العقل ففقدت للقوة والارادة.

لعمر الحق اذا تصور من يفهم هذا الوصف حق الفهم قوما هذد حالهم في ذلك اليوم حتى كأنه يراهم، ليأخذن الرعب بمخنقه، وليستحوذن الذعر على شعوره وادراكه، ولا سيما اذا كان من العرب الخلدص أو الاعراب الاقحاح،

واذ كر من الكنایات مثل الرفث وانضاء الزوج الى الزوج وقوله تعالى (فلماتغشاها حجابا خفيفا) وقوله تعالى (أولاستم النساء) وقوله (نساؤكم حرث لكم) وقوله (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) فاذا فرضنا أن في اللغة التركية وغيرها لفظا بمعنى التغشي الدال على الستر ولفظا بمعنى الحرث وهو الزرع لأن معانيهما كالمس والملاسة مشتركة بين الشعوب فهل تستعمل هذه الالفاظ وما في معناها في لغاتهم كناية عن الوظيفة الزوجية السرية كما تستعمل في العربية؟

وأما أسلوب القرآن فالكلام فيه هو البحر الخضم، والقاموس المحيط الأعظم، فانه أظهر وجوه الاعجاز اللفظية، وذلك أنه يمزج فنون الكلام، وينظم مقاصد الهداية والارشاد، على اختلاف أنواعها، وتباين موضوعاتها، مزجا متلائما، ونظما متناسبا متناسقا، موافقا للذوق السليم، مطابقا لنكت البلاغة. فالعقائد الآيبية، والدلائل العلمية والعقلية، والأخبار الغيبية، والسنن الكونية والاجتماعية، والمواعظ الأخلاقية والأدبية، وأحكام العبادات والمعاملات القضائية والسياسية، وقصص الانبياء، ووصف الأرض والسماء، وما فيهما من جمادات وأحياء، وما بينهما من هواء وهباء، تراه كله في السورة الواحدة، وترى الكثير منه في آية واحدة، بعبارة بدیعة مؤثرة، ينتقل فيها العقل من فائدة إلى فائدة، ويتقلب

فيها القلب من موعظة إلى موعظة، مع منتهى الاحكام والمناسبة، بحيث لا أمل تلاوته، ولا تقناً تتجدد هدايته ، حتى إن بعض الأدباء وأهل الذوق في اللغة العربية من غير المسلمين يترددون في ليالي رمضان على بيوت معارفهم من المسلمين ، لسموعوا القرآن ، ويمتعوا قلوبهم وأذواقهم بسماع ترتيله ، بذلك النظم الذي ليس بشعر ولا سجع ، ولا كلام مرسل ، بل هو نظم خاص قابل للأداء باللغات المختلفة المؤثرة ، على تفاوت آياته وفواصله في الطول والقصر ، فالآية قد تكون كلمة مفردة أو كلمتين ، وجملة أو جملتين ، أو جملاً قليلة أو كثيرة ، وكلها مخالفة لسائر أساليب الكلام العربي المنثور والمنظوم ، ولكل نوع منها تأثير غريب في ترتيلها وتجويدها ، بالأصوات الملائمة لمعانها

صليت الفجر مرة في أهل بيتي بسورة القمر ، وتلوتهما بصوت خاشع صاعد مناسب لزواجرها ونذرهما ، فقالت لي الوالدة : إن هذه النذر تقصم الظهر ، وصارت تسميها سورة النذر . وقالت مثل هذا القول مرة أخرى في سورة (ق) فهل يُتصور مثل هذا التأثير للترجمة التركية أو غيرها من لغات الأعاجم في أنفس أهلها كما يؤثر في أنفسهم مادون القرآن من كلام بلغاتهم ؟ كلا

### نموذج من ترجمة تركية

إنني بعد كتابة ما ذكر تذكرت أن عند بعض معارف ترجمة تركية للقرآن فاستعرتها منه فإذا هي ترجمة جميل بن سعيد — وسيأتي ذكرها وإذا فيها من النقص والحذف والخطأ فوق ما كنت أظن ، ويظن أنه أخذها من الترجمة الفرنسية لأنه هو لا يعرف العربية ، وهذه جرأة قبيحة لا تصدر عن رجل يؤمن بالله وكتابه ورسوله ، وتدل على سوء نية هؤلاء الناس في الترجمة وكون غرضهم منها العبث بدين الاسلام وتنفير الترك منه ، وفتح أبواب الطعن لهم فيه . وقد راجعنا فيها ما ذكرنا من أسماء يوم القيامة فوجدناه يذكر الفاظها العربية ويفسرهما بيوم القيامة . وأما كنيات الوقاع فحذف منها قوله تعالى ( فلما تفشاهما ) واكتفى بكلمة بما يدل على الحل

وترجم الملامسة بامعناه وإذا وجدتم بالمناسبات الجنسية مع النساء فتفظفوا.

وفيه ما فيه . وأما الحرث فترجمه بكلمة « تارالا » وهي الارض المعدة لزرع الحبوب دون المشجرة ومن المعلوم أن الكناية تجامع الحقيقة فاحلال الرث الى النساء في ليالي رمضان يدل بمفهومه على حظر الرث بالقول على الصائم وهو المعنى الحقيقي للكلمة كما يدل على تحريم الفعل المكنى عنه . والترجمة التركية لا تفيد الدالتين وترجم قوله تعالى ( لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى ) الح بما معناه : لا تصلوا في حال سكركم بل انتظروا أن تجيئوا الى حال يمكنكم أن تفهموا فيها ما تقولون - ولا تعبدوا في حال كونكم جنباً بل انتظروا الغسل . وهذه ترجمة تفسيرية باطلة من وجوه كما يرى القاريء وليس فيها تفريق بين الحامين ولا بين الحكامين . وأما قوله تعالى في الظالمين ( إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار ، مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وافنتهم هواء ) فقد ترجمه بما معناه الحرفي : يمهلم الله الى يوم يعطفون فيه أنظارهم الى السماء بصورة كاملة ، وستبقى قلوبهم فارغة ، وأنظارهم ثابتة ، وهم يسرعون بعجلة رفعت رءوسهم اه فزاد على الاصل توجيه النظر الى السماء وقوله بصورة كاملة أراد به تفسير شخوص البصر وهو لا يؤدي معناه ولا يصور ذلك الوصف البليغ المؤثر للابصار الشاخصة ، والرءوس المقنعة ، والاعناق المهطعة ، بل لم يذكر الرءوس والاعناق البتة . واذا كان بهذه الدركة من العجز مع استعائته بالالفاظ العربية فكيف تكون ترجمتهم لكتاب الله تعالى اذا حاولوا أن تكون تركية خالصة خالية من الالفاظ العربية كما يطالب غواتهم ؟

هذا وان في هذه الترجمة من الغلط وتحريف المعاني والزيادة والنقصان مالا يعقل له المطلع عليه سبباً الا تعمد الاضلال لأن الجهل وحده لا يهبط بهذا المترجم إلى هذا الدرك الأسفل مع ادعائه الوقوف عند حدود التعبير عن مدلول اللفظ العربي بلفظ تركي كوظيفة مترجمي المحاكم القضائية

فمن التحريف المخل الدال على سوء النية ترجمة قوله تعالى ( وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة ) (سورة يونس آية ٨٧) اتفق مفسرو السلف والخلف على ان معنى اتخاذ بيوتهم قبلة أن يصلوا فيها

فكانه قال اجعلوها مساجد ، وهو الصحيح - أو ان وجهوها إلى القبلة - قيل هي الكعبة وقيل بيت المقدس. إلا ما ذكره بعضهم من احتمال جعلها متقابلة متقاربة ولكن المترجم التركي ترجمها بقوله

« قومكز ايجون مصرده خانه لرايشا ايديكز . وپوتلريني قبله طرفنه توجيه ايديكز » أي أنشئوا في مصر بيوتنا لقومكم ووجهوا أصنامها لجهة القبلة ( ?? ) فما قول العالم الاسلامي في ترجمة للقرآن تعلم الترك ان الله تعالى أجاز لبني اسرائيل اتخاذ الاصنام . والعياذ بالله تعالى .

وليس هذا هو الغلط الوحيد في ترجمة هذه الآية الكريمة بل هو الأفتخس وفيها أيضاً انه ترجم تبتوا البيوت بانشاء البيوت وهو غلط وإنما معناه سكنها ومن الحذف والاسقاط انه أسقط من ترجمة سورة البقرة قوله تعالى ( ثم استوى إلى السماء ( ١ : ٢٨ ) وأسقط ذكر المن والسلوى من الآية ٥٤ منها - وأسقط وصف القرآن بالقيم من أول سورة الكهف والأمر بالسجود والاقتراب من آخر سورة العلق ... وغير ذلك مما يشق إحصاؤه

نعم قد بلغنا ان رئيس الأمور الدينية في الجمهورية التركية قد أعلن ان هذه الترجمة مملوءة بالأغلاط فلا يجوز الاعتماد عليها . ولكن هذه الحكومة لم تجمع نسخها وتمنع استعمالها وطبعها فهي منتشرة . وبلغنا انها ألفت لجنة لترجمة القرآن أي مسلم يعتمد عليها وعلى لجنتها في عمل بعده المسلمون العارفون بالاسلام جنابة عليه وهدمأ له ؟

### صفة ترجمات القرآن التركية

وقد نشرت جريدة الأخبار المصرية رسالة لمراسلها من الاستانة<sup>(١)</sup> في هذا الموضوع جاء فيها بعد الموافقة على ترجمة الترك للقرآن وتحبيذها مانصه :  
« كان أول مترجم للقرآن الكريم زكي افندي مغامر ، وهو مسيحي سوري وقد اطلعنا على ترجمته صدفة قبل طبعها ، فأبدينا رأينا في الحال ، وكنا السبب في عدم طبعها ، ثم قام على أثر ذلك الشيخ محسن فاني ( هو حسين كاظم بك )

(١) هو عمر رضا افندي المصري من محرري الجرائد التركية



أحد أعلام تركيا في الأدب والفضل ، وتصدى لترجمة القرآن الكريم مع جماعة من زملائه ، وقد رأيناه لا يؤدي المعاني حقها ، لا يؤديها في أحسن صورة يمكن أن تؤدي بها في اللغة التركية ، ولذلك فإننا<sup>(١)</sup> انتقدناه مراراً

ثم قام بعدهما جميل سعيد بك حفيد كمال باشا ناظر المعارف الأسبق فترجم القرآن . لقد كان المنتظر أن تكون الترجمة الثانية أحسن وأكمل من الأولى ، إنما لم يتحقق ذلك الأمل ، ولذلك فإننا<sup>(٢)</sup> قد انتقدنا جميل بك أمر انتقاد ، ولم نترك له أي منفذ للتخلص ، وقد أراد حضرته أن يجيبنا على انتقاداتنا بتخفيف أهمية أخطائه فلم يفلح في ذلك ، بل كان جوابه أعدل شاهد على أنه غير كفء للعمل الذي أراد أن يقوم به . والأدهى من ذلك أننا عند انتقادنا له ظننا أنه ترجم القرآن من لغة من لغات أوروبا ، لا من أصله العربي ، واستدلنا على ذلك ببعض الدلائل ، فلم يستطع أن يجيبنا على ذلك ببنت شفة ، ولذلك فإننا<sup>(٣)</sup> في مقالنا الثانية شددنا عليه الحملة لآخر درجة ، وقلنا له : أنه فضح الشعب التركي بأقرف هذه الجريرة المدهشة ، لأن الشعب التركي شعب مسلم منذ عشرات القرون ، شعب يخدم المدينة الإسلامية ، ويتولى زعامة الأمم الإسلامية منذ قرون ، شعب يفهم القرآن الكريم من أصله العربي منذ قرون ، شعب أنجب المثات من العلماء الذين فسروا القرآن ، وتبحروا في جميع العلوم المستفادة منه . فعار أن يقرأ ترجمة القرآن في هذا القرن من لغة مبشر متعصب ! وقد أخرجنا لذلك المترجم كثيراً من أخطائه التي لم يستطع أن يرد عليها . وعدا هذا فإن رياسة الامور الدينية في أنقره لم تتأخر مطلقاً في القيام بواجبها ، بل أنها عند انتشار كل ترجمة من هذه التراجم حذرت الناس منها ونبهتهم إلى مافيهما من التحريفات . وبذلك قضت على تلك الكتب بماستحقها من المراد منه

(١) هذا التعبير أي تأخير الفاء وجعل ما قبلها متملقاً ، أي بعدها مما فشافي الجرائد وهو خطأ صوابه هنا : فلذلك انتقدناه الخ (٢) و (٣) تراجع الحاشية السابقة

وجاء في جريدة الاهرام في ٢٩ رمضان سنة ١٣٤٢ مانصه :

### ترجمة القرآن بالتركية

أقدم فريق من الترك أخيراً على تنفيذ الفكرة التي طالما تمنوا تنفيذها ، وهي أن يترجموا القرآن بالتركية ، ويستغفروا به عن النظم العربي المبين ، فشرع مصطفى أفندي العينتابي وزير الحفانية السابق ، والشيخ محسن فاني ، ومصطفى بك ، وسيف الدين بك في نشر الترجمة التركية بأقلامهم . وقد أنشأت مجلة (سبيل الرشاد) التركية مقالة علمية جليظة في انتقاد هذه الترجمة ، وبيان مواطن الخلل فيها ، وقدمت لذلك نموذجاً من الغلطات الموجودة في ترجمة (سورة الفاتحة) فقط ، فبلغت ست غلطات لا يجوز التسامح في واحدة منها . فمن ذلك خطأهم في وضع لفظ يدل على المعنى المندمج في حرف (أل) من (الحد) وحشوه لفظاً زائداً في ترجمة (الرحمن الرحيم) وتقول المجلة التركية إنهم قطعوا بذلك نظم الكلمات القدسية ، بل سحقتوا ما فيها من الدرر ، وترجموا وغيروا اللفظ (يوم الدين) بلفظ (يوم القيامة) وقد أبانت المجلة التركية الفروق العظيمة بين اللفظين وزادوا في الفاتحة نداء «ياالله» مرتين بلا لزوم . وبذلك حولوا بلاغة القرآن وإيجازه إلى شكل غير لطيف ، وترجموا كلمة (إهدنا) بلفظ «أرنا» قالت المجلة : وبذلك نحوا نحو مذهب المعتزلة ، ولا ندري أقصدوا ذلك أم هي رمية من غير رام ؟ وحرفوا نظم (صراط الذين أنعمت عليهم) فجعلوا «الصراط» في الترجمة مفعول الانعام ، وهو مفعول الهداية ، فجاءت ترجمتهم هكذا : «الصراط الذي أنعمته على غير المغضوب عليهم ولا الضالين»

قالت مجلة (سبيل الرشاد) : والحق أن جرأة أناس هذا مبلغ علمهم بلغة القرآن ، على أن يترجموا القرآن لما يدعو إلى الأسف ، وإنه لأثم عظيم ، قالت : ورجاؤنا إليهم أن يستغفروا الله مما ارتكبوا من الأثم العظيم ، وأن يتوبوا إليه ، ويتحولوا عن هذا العمل السقيم الذي حاولوه اه

وتقول بلغنا أنهم لم يتوبوا وإنهم مأمورون بذلك من حكومة انقره وإن ترجمتهم

ستكون الرسمية والله أعلم

قد علم مما تقدم أن كل ترجمة حاولها الترك قاصرة عن أداء معاني القرآن الظاهرة التي يفهمها كل قاري<sup>١</sup> يسهل التعبير عنها بكل لغة ، دع ما أشرنا إليه من المعاني الدقيقة ، والاصناف الممتازة في البلاغة ، وأسماء الله تعالى وصفاته وعالم الغيب ، والتعبير عنها بالمفردات والجل والاساليب الخاصة باللغة العربية دون لغات العجم ولا سيما التركية الفقيرة ، وهذا يفتح أبوابا واسعة للشبهات والمطاعن فيه ويسد أبوابا واسعة لضروب من التفسير والتأويل الدافعة لها، وضروب من المعارف هي من أعظم الآيات البينات له. وقد علمنا أن الترك حظروا تعليم اللغة العربية وفنونها والعلوم الشرعية في بلادهم . فعلى هذا لا يجد قاري، ترجمتهم التركية للقرآن في الاجيال الآتية مرجعا لتفسير هذه الترجمة إذا هو استشكل أو طعن له أحد في شيء منها وأضرب لذلك من المثل قوله تعالى (والتين والزيتون) الذي سأل عنه مصطفى كمال باشا بعض علمائهم فأجابه بأن الجواب لا يمكن بيانه في أقل من نصف ساعة ، فزأ به الباشا ، وأراد أن يجعله مثلا في الجهل ، وهو أجدر بهذا الوصف في هذا المقام لتوهمه أنه يكفي في الجواب أن يذكر له مرادف التين بالتركية وهو « إنجير » وذلك العالم يعذر اذا اعتقد أن هذا الرجل الكبير في مقامه وفي معارفه العسكرية لا يُعقل أن يسأل عن تفسير بعض المفردات العربية بما يقابها في التركية . واعتقد أنه إنما يريد بالسؤال معنى إقسام الله تعالى ببعض الشجر والباق والبلاد وحكته ، كما اذا سأل هذا الفقيه من الباشا عما يسميه رجال الحرب « خط الرجعة » مثلا فانه لا يمكن أن يريد بذلك تفسير كلمة خط وكامة الرجعة لغة ولعل ذلك العالم كان يعتقد أن الباشا لم يسأل هذا السؤال الا وهو منكر لورود القسم بالتين والزيتون كما يؤخذ من كلام له كثر نقله عنه ، وهو اختصار التعاليم والنظم التي وضعت في صدر الاسلام ، وزعمه أنها وضعت لقوم منحطين في الحضارة والفنون، فلا يليق اتباعها في هذا العصر الذي ارتقت فيه الصناعات والفنون والمعارف المادية ، واستباح المترفون فيه الرذائل باسم المدنية، فأراد أن يزيل من فكره هذه الشبهات الجهلية، ويبين له معنى صيغة القسم عند العرب وهو تأكيد الكلام، وحكمة ما في القرآن من الاقسام بالخلق، كالتذكير بما فيها من الآيات، ومناسبة

كل قسم منه لما أقسم به عليه لتوكيده، كالأقسام بالنجم على هداية النبي (ص) ورشاده، لأن كلا منهما يهتدى به، ثم الانتقال من ذلك إلى ماورد في التفسير المأثور مناسبا لذلك. ولا بأس ببيان ذلك وان طال الاستطراد إزالة لشبهة مصطفى كمال باشا وأمثاله لتلا يكون تأخيراً للبيان عن وقت الحاجة فنقول :

إن الجمع في قوله تعالى ( والتين والزيتون وطور سينين \* وهذا البلد الأمين ) بين نوعين من الشجر وموقعين من بقاع الأرض لم يكن إلا المناسبة جامعة بينهما كما هو المعلوم في التنزيل ، وفيما دونه من كلام البلغاء أيضاً . ولما كان من المعلوم قطعاً أن طور سينين ( أي سيناء ) مهبط الوحي على موسى عليه الصلاة والسلام ومظهر نبوته — وأن البلد الأمين ( مكة ) مهبط الوحي على محمد عليه الصلاة والسلام ومظهر نبوته — ترجح أن يكون المراد بالتين والزيتون الكناية عن مظهرين من مظاهر النبوة والدين ، كما يكنى بالأهرام أو أبي الهول عن حضارة الفراعنة، وبشجر الارز عن جبل لبنان مثلاً

وإذا رجعنا للتفسير المأثور عن السلف في ذلك نرى فيه عن ترجمان القرآن وحبر الأمة ابن عباس (رض) قولين ( أحدهما ) مارواه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم وهو أن المراد بالتين مسجد نوح ( عليه السلام ) الذي بناه بأعلى الجودي — أي حيث استوت سفينته بعد الطوفان — والزيتون بيت المقدس وطور سينين مسجد الطور والبلد الأمين مكة ( ثانيهما ) مارواه عنه الأخير من أن المراد بالتين والزيتون المسجد الحرام والمسجد الأقصى حيث أسرى بالنبي (ص) الخ : ويقوي الأول تعدد رواه وموافقة التاريخ له كما بينه شيخنا الاستاذ الامام من وجه آخر في تفسير السورة من جزء عم فإنه قال بعد حكاية أشهر أقوال المفسرين مانصه : « وقال قليل من المفسرين إن الأقسام هو بالتوعين لذاتهما التين والزيتون قالوا لكثرة فوائدهما . ولكن تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الأمين وحكمة جمعهما معهما في نسق واحد غير مفهومة ، ولهذا رجح أنهما موضعان ، وقد يرجح أنهما النوعان من الشجر ولكن لا لفوائدهما كما ذكروا ، بل لما يذكران به من الحوادث العظيمة التي لها الآثار الباقية في أحوال البشر . قال صاحب هذا القول

إن الله تعالى أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الانسان الطويل من أول نشأته الى يوم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، فالتين إشارة الى عهد الانسان الاول فانه كان يستظل في تلك الجنة التي كان فيها بورق التين ، وعند ما بدت له ولزوجته سوءا فطفقا بخصفان عليهما من ورق التين . والزيتون إشارة الى عهد نوح عليه السلام وذريته وذلك لأنه بعد أن فسد البشر وأهلك الله من أهلك منه بالطوفان ونجى نوحا في سفينته واستقرت السفينة نظر نوح الى ما حوله فرأى المياه لا تزال تغطي وجه الأرض فارسل بعض الطيور لعله يأتي اليه بخبر انكشاف الماء عن بعض الارض فغاب ولم يأت بخبر فارسل طيراً آخر فرجع اليه يحمل ورقة من شجر الزيتون فاستبشر وسرّ وعرف أن غضب الله قد سكن ، وقد أذن للأرض أن تعمر . ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشرية العظيمة في الارض التي محي عمرانها بالطوفان ، فعبر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون . والاقسام هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثة وهي من أكبر ما يذكر به من الحوادث . وطورسينين إشارة الى عهد الشريعة الموسوية وظهور نور التوحيد في العالم بعد ما تدنست جوانب الارض بالوثنية ، وقد استمر الانبياء بعد موسى يدعون قومهم الى التمسك بتلك الشريعة الى أن كان آخرهم عيسى صلى الله عليه وسلم جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع ، ثم طال الأمد على قومه فأصابهم ما أصاب من قبلهم من الاختلاف في الدين ، وحجب نوره بالبدع واخفاء معناه بالتأويل ، واحداث ما ليس منه بسبيل ، فمن الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ويفصل بين ما سبق من أطوار الانسانية وبين ما يلحق ، وهو عهد ظهور النور المحمدي من مكة المكرمة واليه أشار بذكر البلد الأمين وعلى هذا القول الذي فصلنا بيانه يتناسب القسم والمقسم عليه كما ستري « اه المراد منه

ومن هذا الشرح تعلم أن ذلك العالم التركي على علم لا يشاركه مصطفى كمال باشا في شيء منه ، وانه مصيب في تقدير زمن الجواب بنصف ساعة كما تعلم ان الترجمة التركية لن تكون الا قاصرة عن احتمال مثل هذا التفسير ، وانها تمهيد للاضلال والتكفير سبحانه الله ! انشك في كون مراد ملاحظة الترك بترجمة القرآن التوسل بها

إلى الطعن فيه والتشكيك في كونه كلام الله عز وجل، وإقامة الشبهات على بطلان دين الاسلام، وترك المسلم منهم في ظلمات لا يبصر فيها بصيصاً من نور يهتدي به إلى الدفاع عن دينه بأشك في هذا بعد اقدامهم على ابطال التشريع الاسلامي من حكومتهم حتى في الأحكام الشخصية من زواج وطلاق وادب تفضيلاً للتشريع الأوربي عليه على اختلافه، وابطال التعليم الاسلامي من بلادهم واضطهاد علماء الدين حتى في ملائمتهم، فقد أكرههم عن إمس الأي الخاص بغير المسلمين كغيرهم، ولم يبالوا بمراعاة وجدان أحد ولا اعتقاده في ان ذلك معصية الله تعالى بل هو آية الردة عن دينه - فعلموا هذا والسواد الأعظم من الشعب التركي يدين الله بالاسلام وجدانا وتسليماً يحمله على الفضائل ويزعه عن الرذائل، وعلماء الدين احترام عنده، ثم لم يستطع أحد منهم أن يدافع عن دين الشعب بكلمة مع كون مادة القانون الأساسي للجمهورية التركية الناطقة بأن دين الدولة هو الاسلام لما تنسخ كما نسخت أحكام الاسلام نفسها، ذلك بأن من عارض الحكومة في عمل من أعمالها هذه يساق الى محكمة خاصة تسمى محكمة الاستقلال مفوضة بأن تحكم بالقتل المدفع عن هذه الحكومة اللادينية من غير استناد الى شرع منزل ولا قانون مدون، ويكون حكمها نهائياً لا استئناف له ولا مراجعة فيه، وقد قتل كثير من العلماء والأقبياء المعارضة في وضع القنصلية الافرنجية ( البرنيطة ) موضع العمارة واستبدالها بها ؛

هذا ما يجري اليوم فماذا يكون في الغد إذا لم يجد المسلم التركي بين يديه في بلاده من كتب دينه الا ترجمة للقرآن بالصفة التي عرفت أغلاطها وقصورها ؛ نعم ان هؤلاء الملاحدة أنفسهم سيفسرونها له بما يزيد بعداً عن الاسلام وبعده للكفر به وعداوتهم وعداوة أهله ان طال أمر استبدالهم فيه

لا تقل وما يمنع تسمية أهل الدين منهم أن يفسروها له بالتركية تفسيراً واضح الانلاط ويدفع الشبهات بقران الذين نعدنا ما علمت ينعون هذا أيضاً ويشيرون تفسيرا ملاحظتهم المؤيدة لغرضهم وهم يستمدونها من خصوم الاسلام كدعاة النصرانية، وشياطين السياسة الاوربية وملاحدة المادة دس، انما يه غايهم الخيل أو الكفر أذكر مثلاً واحداً من ذلك قوله تعالى ( واعبد ربك حتى يأتيك اليقين )

بلغني من عالم عربي أقام في الآستانة سنين كثيرة يخاطب علماءها عن عالم تركي أعرفه وكنت أعدة من أفضل علمائها الجامعين بين العلم والتدين ومعرفة حال العصر، أنه يشتغل بترجمة القرآن ، وأنه يقول بقول الباطنية الأولين : في هذه الآية وهو أن العبادة من صلاة وصيام لم تفرض إلا على من لم يصلوا في العلم إلى درجة اليقين ، ومن وصل إلى هذه الدرجة ترتفع عنه العبادة بنص هذه الآية من القرآن . ويكفي هذا التأويل لإبطال جميع عبادات الاسلام . فان اليقين أمر يمكن لكل أحد أن يدعيه ، ويمكن اضلال جماهير الناس بالوصول إليه ، وفي التحكم فيما يطالب اليقين فيه

وتقول في إبطال هذه المضلالة (أولا): إنها طعن صريح في النبي الأعظم صلوات الله وسلامه عليه بأنه لم يكن على يقين في دينه وعلمه بالله عز وجل ، فان الخطاب له (ص) في الآية ، وهو المعنى به أولا وبالذات وان كان الحكم عاما . وذلك بالتبع لما قبله من الامتنان عليه بايتائه السبع المثاني والقرآن العظيم ، وأمره بالتبليغ والصدع به وتهوين أمر المشركين عليه ، وإنبائه بكفايته تعالى أمر المستهزئين منهم . بعد هذا قال (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون\* فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين\* واعبد ربك حتى يأتيك اليقين\* (خاتمة سورة الحجر ١٥: ٩٤ - ٩٩) وقد ورد في التفسير المأثور أن المراد باليقين الموت ، وان المعنى واعبد ربك مادمت حيا . ونقلوا شواهد له من الاستعمال . وفسروا به قوله تعالى حكاية عن أهل النار (وكانا نكذب بيوم الدين\* حتى أتانا اليقين\* (سورة المدثر ٧٤: ٤٦ و٤٧) (ثانيا) إن أصل اليقين شرط في صحة الايمان والايمان الصحيح شرط في صحة العبادة ، فاليقين في الاسلام مبدأ لا غاية ، والخفية الذين تلقى هذا التركي الدين على مذهبهم : ان الايمان لا يقبل الزيادة ولا نقصان ، لان التصديق اذا لم يكن يقينا لا يكون إيمانا ، وليس فوق اليقين غاية تكون هي الزيادة . وفي هذا البحث نظر ليس هذا محله

(ثالثا) ان اليقين الذي ينتهي اليه تصديق الانسان في الدين أو غيره لا يصح التعبير عنه بالاثيان ونحوه كالحجب . لانه يكون في نفسه وعقله ، وإنما يعبر

به عما يرد على الانسان من الخارج بذاته أو بأسبابه كالموت والعلم الخبري ، أو المتفرع من المعلوم الخارجي ، دون نتيجة القياس العقلي . فقوله تعالى ( حتى يأتيك اليقين ) كقوله ( ويأتيه الموت من كل مكان ) وقوله ( من قبل أن يأتي أحدكم الموت ) وقوله ( حتى اذا جاء أحدكم الموت )

ونكتفي بهذا القدر من الاستطراد للدفاع عن القرآن في تفسيره فهو أفضل ما يدافع به عنه ، بل هو من مقاصد التفسير لامن الاستطراد الأجنبي عنه . وما ضعف اهتداء الناس بالقرآن الا بخلو تفسيره من تطبيق عقائده وأحكامه على أحوال الناس ودفع الشبهات التي تصدم عنه

(١٥٨) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ

بين تعالى في الاستطراد الخاص بنبوّة خاتم الرسل صلوات الله عليه وسلامه كتابة رحمته للذين يتبعونه من قوم موسى وعيسى عليهما السلام ، وقال في متبعيه ( أولئك هم المفلحون ) أي دون غيرهم من الذين كفروا به ولم يتبعوا النور الذي أنزل معه بعد بعثته وبلوغ دعوته ، وذلك لا ينافي كون المتبعين لموسى حق الاتباع قبل بعثته (ص) على هدى وحق وعدل وأنهم من المفلحين ، فان ما أفادته جملة ( أولئك هم المفلحون ) من الحصر اضافي للاحقيقي كما أشرنا اليه آنفاً وبيناه في تفسير تلك الآية . ولذلك بين سبحانه في هذه الآية حال خواص أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا متبعين له حق الاتباع ، عاطفاً إياهم على المهتدين باتباع خاتم النبيين (ص) فقال :

﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ أي ومن قوم موسى (أيضا) جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذي جاءهم به من عند الله تعالى ويعدلون به دون غيره اذا حكموا بين الناس ، لا يتبعون فيه الهوى ، ولا يأكلون السحت والرشي ، فالظاهر المتبادر أن هؤلاء ممن كانوا في عصره وبعد عصره حتى بعدما كان من ضياع أصل التوراة ثم وجود النسخة المحرفة بعد السبي ، فان الامم العظيمة لا تخلو من أهل



الحق والعدل . وهذا من بيان القرآن للحقائق ، وعدله في الحكم على الامم ، كقوله ( ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمتم عليه قائما ) الآية ( ٣ : ٧٥ ) وقيل في وجه التناسب والاتصال إنه ذكر هؤلاء من قومه في مقابل متخذي العجل للدلالة على أنهم كانوا بعض قومه لا كلهم ، وهو جائز على بعد يقدر يقدر بعدها الآية عن قصة العجل ، وما قلناه أظهر

(فان قيل) إن قوله « يهدون ويعدلون » للحال المفيد للاستمرار (قلنا) إن أمثاله مما حكي فيه حال الغابرين وخدمهم بصيغة المضارع كثير ، ووجه ان التعبير لتصوير الماضي في صورة الحاضر ، وما هنا يشمل أهل الحق من قوم موسى الى زمن نزول هذه السورة ممن لم تكن بلغتهم دعوة النبي الامي خاتم النبيين (ص) وهم الذين كانوا كلما بلغت أحدا منهم الدعوة قبلها وأسلم وقد ورد في وصفهم آيات صريحة وحمل بعضهم هذه الآية التي نفسرها عليهم وخدمهم

قالوا : ان المراد بهؤلاء الأمة من آمن بالنبي (ص) من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام واضرابه . وتقول انه نزل في هؤلاء آيات صريحة كقوله في آخر سورة آل عمران ( وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليك وما أنزل اليهم ) الآية (٣: ١٩٩) وهذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها ليست صريحة في هذا بل السياق يناهيه لأنها جاءت بعد بيان حال الذين يؤمنون به (ص) فالتبادر فيها أنها في خواص قوم موسى في عهد موسى وبعده ومنهم النبيون والربانيون والقضاة العادلون كما يعلم بالقطع من آيات اخرى . فالآيات في الخيار من أهل الكتاب ثلاثة أنواع (١) الصريحة في الذين ادركوا النبي (ص) وآمنوا قبل ايمانهم أو بعده كقوله تعالى في سورة البقرة ( الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ) ( ١٢١ ) وقوله في سورة القصص ( الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون \* الى قوله - أولئك يؤتون أجرهم مرتين ) الآيات ( ٢٨ : ٥٢ - ٥٥ ) ومثلين في سور الانعام والاعد والاسراء والقصص والعنكبوت الخ ( ٢ ) الصريحة في الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام واستقاموا معه ثم في

عهد من بعده من انبيائهم الى عهد البعثة العامة قبل بلوغ دعوتها كالأية التي نحن بصدد تفسيرها (٣) المحتملة للقسمين كقوله تعالى (من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله) الخ (٣ : ١١٣ - ١١٥) فراجع تفسيرهن (في ص ٧٠ - ٨٣ ج ٤ تفسير) وفي تفسير الامة هنا خرافات اسرائيلية ذكر بعضها ابن جرير عن ابن جريج انه قال بلغني كذا وذا ذكر أن سبطا من بني اسرائيل ساروا في نفق من الارض فخرجوا من وراء الصين الخ وذا ذكر عن ابن عباس ما يؤيد هذا بدون سند . وابن جريج على سعة علمه وروايته وعبادته شر المدلسين تدليسا لأنه لا يداس عن ثقة وأئمة الجرح والتعديل لا يعتدون بشيء يرويه بغير تحديث، ونقل هذه الخرافة كثيرون وزادوا فيها ما عزوه الى غيره أيضا وبحوثها فيها مباحث ، ولا يستحق شيء من ذلك أن يحكى

(١٥٩) وَقَطَعْنَاهُمْ اِثْنَيْ عَشَرَ اَسْبَاطًا اُمَّمًا وَاَوْحَيْنَا  
 اِلَى مُوسَى اِذَا اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ اَنْ اَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ  
 مِنْهُ اِثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ اِنْسَانٍ مَشْرَبَهُمْ ، وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ  
 الْقَدَمَ وَاَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ  
 وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

هذا سياق آخر من أخبار قوم موسى عليه السلام عطف على ما قبله لمشاركته إياه في كل ما يقصد به من العظات والعبر . قال تعالى :

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اِثْنَيْ عَشَرَ اَسْبَاطًا اُمَّمًا ﴾ أي وفرقنا قوم موسى الذين كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ومنهم الظالمون والفاستقون -- كما سيأتي بعد بضع آيات -- قطعناهم فجعلناهم اثنتي عشرة قطعة أي فرقة تسمى أسباطا أي أئمة وجماعات يمتاز كل منها بنظام خاص في معيشتها وبعض شؤونها ، كما يأتي قريباً في مشارب مائهم . والمشهور من معنى السبط بكسر السين أنه ولد الولد

مطلقاً ، وقد يخص بولد البنت . وأسباط بني إسرائيل سلائل أولاده العشرة — أي ماءدا لاوي — وسلائل ولدي ابنه يوسف وهما ( أفرايم ومنسي ) وأما سلالة لاوي فسيطت بها خدمة الدين في جميع الأسباط ولم تجعل سبطاً مستقلاً . وقد تقدم تفصيل ذلك <sup>(١)</sup> فالأسباط بيان للفرق والقطع التي هي أقسام بني إسرائيل يعلم أنها سميت بذلك ، كما سميت الفرق في العرب بالقبائل ، والأثم بيان للمراد من معنى الأسباط الاصطلاحي . والأمة الجماعة التي تتوآف بين أفرادها رابطة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد ، وتقدم بيان ذلك أيضاً

﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاء قومه أن اضرب بعصاك الحجر

فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ تقدم في سورة البقرة مثل هذا مع تفسيره وهو ( واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ) فأفاد ما هنا ان قومه استسقوه ، وما هنا لك انه استسقى ربه لقومه . وكلاهما قد حصل . والاستسقاء طلب الماء للسقيا ، وتعريف الحجر في هاتين السورتين المكية ( الأعراف ) والمدنية ( البقرة ) لتعظيم جرمه ، وقد عبر عنه في التوراة بالصخر — أو تعظيم شأنه ، أو كليهما ، وكلاهما عظيم ، وقد يكون للعهد كما تدل عليه عبارة التوراة اذ عينت مكانه من جبل حوريب . والانبجاس والانفجار واحد ، يقال : بجسه أي فتحه فانبجس وبجسه ( بالتشديد ) فانبجس ، كما يقال : فجره ( كمنصره ) اذا شقه فانفجر ، وفجره ( بالتشديد ) فنفجر — وزعم الطبرسي أن الانبجاس خروج الماء بقله ، والانفجار خروجه بكثرة ، وأنه عبر بهما لافادة أنه خرج أولاً قليلاً ثم كثر . وأدق منه قول الراغب : الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق ، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع ، فاستعمل حيث ضاق المخرج للفظان — أي وهو حجر موسى — وقال ( وفجرنا خلالها نهراً \* وفجرنا الأرض عيوناً ) ولم يقل بجسنا اه

أقول : ولكن رواية اللغة فسروا أحدهما بالآخر ، وذكروا من الشواهد عليه

ما يدل على الكثرة . قال في اللسان : أبيض انتطاق في قرية أو حجر أو أرض يتبع منه الماء ، فإن لم يتبع فليس بأبيض . وكيف تحرفني في الحجريين (١) والسحاب يتبعس بالمطر ، والأبيضاس عام ، والنبوع العين خاصة ، ويجست الماء فابجس أي تجرته فأنفجر ، ويجس نفسه بجس ، تعدي ولا يتعدى ، وسحاب يجس ، وتيجس أي تفجره وفي الأساس : أبيض الماء من السحاب والعين : انفجر ، وتيجس : تفجر الخ . . . وسحاب يجس ويجسها الله . قال ابن مقبل :

له قائد دُهم الرباب وخلفه روايا يجسن الغمام الكنهورا (٢)

وحاصل المعنى : وأوحينا إلى موسى حين استنقاه قومه فاستنقاه ربه لهم ( كما في آية البقرة ) بأن اضرب بعصاك الحجر فضر به فبعثت منه عنب فخر به إياه اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد أسباطهم ( قد علم كل أناس مشربهم ) أي قد عرف أناس كل سبط المكان الذي يشربون منه ، إذ خص كل منهم بعين لا يأخذ الماء إلا منها لما في ذلك من النظام ، واتفق ضرر الزحام . وفي أول سفر العدد من التوراة : أن عدد الرجال الصالحين للحرب من بني إسرائيل كان يزيد على ستمائة ألف من ابن عشرين فما فوقه فعلى هذا يكون عدد الجميع رجالاً ونساء وأطفالاً لا يقل عن ألفي ألف ( مليونين ) . وللمؤرخ النقادة الحكيم ابن خلدون تشكيك معروف فيما قاله المؤرخون تبعاً للتوراة في كثرة هذا العدد من وجوه كثيرة فصلها في أول مقدمة تاريخه ، ولكن لا يمكن الشك في أنهم كانوا ألوفا كثيرة أو عشرات الألوف ، فإذا لم يكن لهم في سيناء موارد للماء غير تلك العيون التي انفجرت من صخر في جبل ( حوريب ) متصل به ، فلا بد أن تكون مساحة ذلك الصخر واسعة جداً ، وأن يكون السهل أمامه أبيض الألوفا من الأسباط يردون

«١» أي وكفت وسالت كوكيف دلوي مانح من البئر وهو الدالج . فالوكيف مصدر كالودف والوكوف «٢» الرباب السحاب ، والكنهور كسفر رجل السحاب المتراكم والروايا الأبل التي تحمل الماء . والكلام في وصف سحاب ماطر يقول إن له قائداً من السحاب السود ، وخلفه سحاب يقال من حمل الماء كالروايا يجسن أي يفجرن الغمام المتراكم بالوابل المدرار

ويصدرون . وقد اختلف علماء أهل الكتاب في مدلول لفظ (حوريب) الذي أمر الله موسى أن يذهب الى صخر فيه فيجده - أي الرب - عنده أو عليه، وأن يضربه بعصاه فينفجر منه الماء: هل هو جبل سيناء نفسه أم بين اللفظين عموم وخصوص — ويزعم بعضهم أن الصخر المذكور في الوادي الذي يسمى ( وادي اللجاء ) ويعين بعض الرهبان مكانه . ولا يعنيننا شيء مما ذكر الا أننا نجزم بأن ما في كتب التفسير عندنا من صفة ذلك الحجر وحجمه وشكله ككونه كراس الشاة أو اكبر وكونه يوضع في الجواني أو يحمل على ثور أو حمار - كل ذلك من الخرافات الاسرائيلية التي كانوا يتلقونها بالقبول أيها الثرب . وقد نقل ابن كثير على احتراسه كثيرا منها وفي عرائس المجالس عن وهب بن منبه ان موسى كان يقرع لهم أقرب حجر فتنفجر منه عيون ... فقالوا ان فقد موسى عصاه متنا عطشا فأوحى الله اليه بأن يكلم الحجارة فتطيعه ، فقالوا كيف بنا اذا مضينا الى الارض التي ليس فيها حجارة ؟ فأمر الله موسى أن يحمل معه حجرا فخيمًا نزل ألقاه ! الخ وهذا من الخرافات التي اختلفها وهب ليس لها أصل عند اليهود ولا عند المسلمين . ولولا جنون الرواة بكل ما يقال عن بني اسرائيل لما قبلوا من مثله ان يشرب مئات الالوف أو الملايين من حجر صغير يحمل كما قبلوا من مزاعمه ان راس الرجل من قوم هود عليه السلام كان كالقبة العظيمة !! وقد عدوه مع امثال هذه الخرافات ثقة في الرواية (!)

﴿ وظلانا عليهم الغمام ﴾ الغمام السحاب أو الابيض أو الرقيق منه أي وسخرنا لهم الغمام يلقي عليهم ظله فيقيمهم لفتح حرارة الشمس من حيث لا يحرمون فائدة نورها وحرها المعتدل ، وتسمى السحابة ظلة بالضم ككل ما أطلق من فوق . ولولا كثرة السحاب في التيه لأحرقتهم الشمس اذ لم يكن هنالك شجر يستظلون به

﴿ وأنزلنا عليهم المن والسوى ﴾ المن مادة بيضاء تنزل من السماء (الجو) كالطل حلوة الطعم تشبه العسل ، واذا جفت تكون كالصمغ ، وقد كثر نزوله على بني اسرائيل في التيه وهو موصوف في التوراة بأن طعمه كطعم قطائف بالزيت ومنظرة

كنظر المقل، وعبر عنه فيها بخبز السماء . وقد كان يقوم مقام الخبز . ويقول كثير من المفسرين إنه هو المعروف عند الأطباء بالترنجبين . وقال (الدكتور بوست) في قاموس الكتاب المقدس : لا يجوز أن يشتهب بين هذا المن والمن الطبي الذي هو عصير منعقد من شجرة الدردار ولا هو أيضاً المن الذي يتكون من شجرة الطرفاء وعلل ذلك بقوله (١) إن الاسرائيليين لم يروه قبل رحلتهم (٢) لا يوجد المن العربي الا تحت الطرفاء . وفي أول الصيف فقط (٣) يمكن حفظه مدة طويلة ولا يدود (٤) لا يمكن طحنه أو دقه (٥) يتكون المن كل يوم من أيام الأسبوع مدة الفصل اه . وفي قوله نظر لاحاجة الى شرحه ، وهو يريد به إثبات ما قاله من أن هذا المن كان «عجيبة» أي معجزة أو كرامة ملوسى عليه السلام . ونحن لاننكر ما آتى الله كليمه من الآيات البيّنات والحجج على قومه لاصلاحهم . وقد كان أفسدهم استعباد المصريين لهم ويكفي أن تكون المعجزة في نزولها بتلك الكثرة التي كانت تكفي تلك الألوف وتقوم عندهم مقام الخبز كما اعترف به هو في (السلوى) فقد وافق غيره في أنها هي طير السمان المعروف وقال : إنها كانت تهاجر من أفريقية (ولا سيما مصر) فتصل الى سيناء تعبئة فتقع على الارض أو تسف فتؤخذ باليد . وقيل طير تشبه السمان ولكنها أكبر منها .

﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ هنا قول مقدر يكثر مثله في التنزيل وكلام العرب أي وقلنا لهم — أو أنزلنا ما ذكر عليهم قائلين : كلوا من طيبات ما رزقناكم ، فوضع هذا الوصف للمن والسلوى موضع الضمير لتعظيم شأن المنة بهما . واسناد الرزق الى ضمير جمع العظمة تأكيداً للتنبيه والتذكير بما يجب من شكره تعالى على ذلك . ويقدر مثل هذا في آية البقرة المدنية ، وإن كانت خطاباً لبي إسرائيل المجاورين للنبي (ص) في المدينة ولمن بلغه من غيرهم ، فإن الخطاب لهم هنالك إنما كان بما وقع لأجدادهم فهو بمعنى الحكاية في آية الأعراف إلا أن الكلام هنا كان موجهاً أولاً الى المشركين لأن السورة مكية ، ولذلك اتحد عجز الآية في السورتين وهو :

﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ولكن كان دأبهم ظلم أنفسهم دون ربهم الذي لا يناله تأثير أحد بظلم ولا غيره فكانوا يجنون على أنفسهم بكفر النعم والجحود وغيرهما آت بعد آت وجيلا بعد جيل ، كما هو مبين في القرآن بالأجمال وفي التوراة بالتفصيل . فتقديم أنفسهم على يظلمون المفيد لقصر ظلمهم عليها إنما هو لبيان أن كفرهم بنعمه تعالى يضرهم ولا يضره تعالى كافي الحديث القدسي الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعا « يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . ( ومنه ) « يا عبادي انكم لن تبغوا ضري فتضروني ، ولن تبغوا نفي فتنفعوني » ولا يدخل في معنى القصر انهم لا يظلمون الناس فانه لم يكن معهم أحد في التيه فينفي عنهم ظلمه ولما اتصلوا بالناس بعد الخروج منه وكان منهم العادلون ومنهم الظالمون ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم . وان كان ظلمه لنفسه مما يجهل انه ظلم لها لأنه يتجلى له في صورة المنفعة . وانما تكون عاقبته المضرة ، وهكذا شأن جميع الظالمين والمجرمين . ينوون بظلمهم واجرامهم نفع أنفسهم جهالة منهم . ولا يزال طوائف من بني اسرائيل يقدمون على ضروب من ظلم الناس يقصدون بها نفع أنفسهم وقومهم ، وهي تنذر بخطر كبير ، وشر مستطير ، كالفتنه التي أثاروها في بلاد الروسية بتعاليم الاشتراكية المسرفة المعبر عنها بالبلشفية ، ومحاوله انتزاع فلسطين من الأمة العربية ، وهذا مما يدخل في مضمون التمادي والاستمرار على الظلم المعبر عنه بجملة ( كانوا أنفسهم يظلمون ) اذ هي تفيد أن هذا صار دأبا وعادة لهم

(١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَقَرْنَا لَكُمْ خِصْمًا لَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ

تقدم مثل هاتين الآيتين في سورة البقرة وبين ما هنا وما هناك فروق في التعبير نبيتها هنا فنقول

(٢٠١) قال تعالى هنا ﴿ واذ قيل لهم ﴾ لأن القصة خطاب وجه أولاً إلى أهل مكة ، فالحكاية فيه عن بني اسرائيل حكاية عن غائب والأصل أن يذكر ضميره فيه ولذلك قال « لهم » وفي سورة البقرة « واذ قلنا » والمعنى واحد إذ المعلوم أن القائل هو الله تعالى ، وقد روعي هنالك السياق في خطاب بني اسرائيل إذ قبلها « واذ فرقنا بكم البحر ... واذ واعدنا موسى ... » فناسب أن يقول « واذ قلنا » ولم يقل فيها « لكم » كما قال هنا « لهم » لأن القول كان لأجداد المخاطبين من أولف السنين لا لهم أنفسهم ، ولم يقل « لهم » أيضاً لأن السياق لم يكن حكاية عن غائب مجهول يحتاج إلى تعيينه ، بل هو تذكير الخلف بما تقوم به عليهم الحججة من شؤون السلف ، لأنهم وارثوا أخلاقهم وعرائضهم وعاداتهم ، فهو اذن مشترك بين الخلف الحاضر ، والسلف الغابر ، وزيادة « لهم » تلتصقه بالغائب وحده فتكون حكايته لبني اسرائيل كحكايته لعرب مكة وغيرهم ، فتأمل

(٣) قال ههنا ﴿ اسكنوا هذه القرية ﴾ وفي سورة البقرة « ادخلوا » والفائدة ههنا أتم لأن السكنى تستلزم الدخول ولا عكس . وتظهر فائدة اختلاف التعبير في الفعلين بما يليهما من العطف عليهما وهو

(٤ و٥) قال ههنا ﴿ وكأوا منها حيث شئتم ﴾ وفي سورة البقرة « فكلوا منها حيث شئتم رغداً » فعطف الأمر بالأكل هنالك بالغاء لأن بدءه يكون عقب الدخول كما كل الفواكه والثمار التي كانت توجد في كل ناحية من القرية والسكنى أمر ممتد يكون الأكل في أثناءه لاعتقابه ، بل لا يقال عقب السكنى إلا فيمن يتروك هذه السكنى ، ولذلك عطف عليه هنا بالواو التي تفيد الجمع بين الأمرين مطلقاً بلا ملاحظة ترتيب ولا تعقيب . وقد وصف هنالك الأكل بالرغد وهو الواسع الهنيء ، والتبشير به يناسب حال الدخول ، إذ الأمر لدى الداخل مجهول .

(٦) قال ههنا ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ وقدم هنالك ما أخطر



هنا وآخر ما قدمه أي في الذكر ، وهو لا يدل على طلب ترتيب بين الأمرين لأن العطف فيه بالواو الدالة على طلب الأمرين مطلقاً ، ولكن لو كان التعبير في الموضوعين واحداً لفهم منه أن المقدم في الذكر أرجح أو أهم ولو في الجملة كما هي القاعدة في التقديم لذاته . فكان الاختلاف دالاً على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذلك وبين عكسه . لأن المراد منهما لا يقتضي ترتيباً بين مادلت عليه كلمة (حطة) وهو الدعاء بأن تحط عنهم أوزارهم وخطاياهم كقولك اللهم غفرًا<sup>(١)</sup> وبين دخول باب القرية في حال التلبس بالتواضع والخشوع لله تعالى وتنكيس الرؤوس شكراً لجلاله على نواله ، كما فعل النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة فاتحاً

(٧) قال هبنا ﴿ غفر لكم خطيئاتكم ﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب (تغفر) بالتاء والفاء المفتوحة ورفع (خطيئاتكم) وهو يناسب (واذ قيل لهم) وقرأ الجمهور تغفر بالنون وكسر الفاء ونصب «خطيئاتكم» بكسر تائها وهو يناسب ما بعده وهو كون «سنزید» للمتكلم المعظم . والمعنى فيهما واحد، لأن المخاطب الذي يغفر الذنوب واحد . وقرأ ابن عامر (خطيئتكم) بالافراد . وهو بمعنى الجمع لأنه مضاف فيفيد العموم ، وأهل فيه إشارة إلى خطيئة خاصة مشتركة . وقرأ أبو عمرو (خطاياكم) وبها قرأ الجمهور في آية البقرة ، مع اختلافهم في فعل المغفرة كما هنا . وكتابة الكلمتين في المصحف الامام تحتمل كل ما ذكر في الالكامتين ، وفائدة الاختلاف لفظية . وهي التوسع في القراءة ، وقال القطب الشيرازي ان فائدة الاختلاف بين قراءتي الافراد والجمع للخطيئة أن هذه الذنوب تغفر لهم اذا فعلوا ما أمروا به من قول وفعل سواء كانت قليلة كواحدة أو كثيرة

(٨) قال هبنا ﴿ سنزید المحسنين ﴾ بدون واو على الاستئناف البياني وهو جواب سؤال كأنه قيل : وماذا بعد المغفرة ؟ أي سنزید المحسنين في عملهم جزاء حسناً على

(١) قالوا رفعت كلمة حطة مع كونها في موضع النصب بمعنى حط عنا خطايانا حطة - للدلالة على معنى الثبات والاستقرار . والتقدير حاجتنا حطة ، وهو أحسن من تقدير مسألنا حطة كما قد روي ، أي حاجتنا أن تحط عنا ذنوبنا حطاً خاصاً أو تاماً فان كلمة حطة بكسر الحاء تدل على هيئة الحط ونوعه

احسانهم . وفي سورة البقرة ( وسنزيد ) بالعطف ، والمعنى واحد . وقد يكون طرح الواو أدل على كون هذه الزيادة تفضل محض ليس مشاركا للمغفرة فيما جعل سبباً لها من الخضوع والسجود والاستغفار والدعاء بحط الأوزار

(٩) قال هبنا ﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ وفيه زيادة ( منهم ) على مثله من سورة البقرة وسببها ما تقدم نظيره في قوله تعالى ( واذ قيل لهم ) الخ من الحاجة إلى ذكر ضمير المحكي عنهم لربط الكلام ، وهذه الحاجة منتفية في سورة البقرة كما علمت من الفرق السابع آنفاً ، وليس لزيادة البيان كما قيل ، بل هو الأصل هبنا ولا حاجة إليه هنالك وإن كان حكاية عن الغائبين ، لأنه لم يخرج عن سياق مخاطبة خلفهم الحاضرين .

وأما معنى تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم فقد تقدم بيانه في تفسير آية البقرة ، وملخصه أنهم عصوا بالقول والفعل . وخالفوا الأمر مخالفة تامة لا تحتمل الاجتهاد ولا التأول ، فلم يراعوا ظاهر مدلول لفظه ، ولا نحوه والمقصد منه ، حتى كأن المطلوب منهم غير الذي قيل لهم ، ولو قال فبدنوا قولاً بقول ، أو فبدلوا ما قيل لهم ، لم يدل على هذا المعنى كما .

ولاشك لنا بشيء مما روي في هذا التبديل من ألفاظ عبرانية ولا عربية ، فكأنه من الاسرائيليات الوضعية ، كما قاله الاستاذ الامام هنالك . وإن خرج بعضه في الصحيح والسنن موقوفاً مرفوعاً كحديث أبي هريرة المرفوع في الصحيحين وغيرهما « قيل لني اسراييل (ادخلوا الباب سجداً أو قولوا احطه) ندخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حطة ، حبة في شعرة» وفي رواية شعيرة . رواه البخاري في تفسير السورتين من طريق همام بن منبه أخي وهب وهما صاحبا الغرائب في الاسرائيليات . ولم يصرح أبو هريرة بسماع هذا من النبي (ص) فيحتمل أنه سمعه من كعب الا جبار إذ ثبت أنه روى عنه ، وهذا مدرك عدم اعتماد الاستاذ رحمه الله تعالى على مثل هذا من الاسرائيليات وإن صح سنده ولكن قلنا يوجد في الصحيح المرفوع شيء يتضي الطعن في سندها

( ١٠ - ١٢ ) قال هبنا ﴿ فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾

وقال هنالك ( فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون )  
 فالاختلاف في ثلاثة مواضع ( أولها ) بين الارسال والانزال وهو لفظي إذ  
 الارسال من فوق عين الانزال ( ثانياً ) بين المضمرة « عليهم » والمظهر ( على الذين  
 ظلموا ) والمراد منها أن ذلك الرجز عذاب كان خاصاً بالذين ظلموا الاعاماً فحسن أن يقول  
 في آية الأعراف « عليهم » لتصريحه بسببية الظلم بعده ولو قال « فأرسلنا على الذين  
 ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون » لكان تكرار التعليل بالظلم منافياً للبلاغة،  
 وهذا التكرار منتف في آية البقرة لان التعليل فيها بالفسق لا الظلم ( ثالثاً ) بين  
 يظلمون ويفسقون وقائده بيان أنهم كانوا جاهعين بين الظلم الذي هو نقص للحق أو  
 إيذاء للنفس والغير، وبين الفسق الذي هو الخروج عن الطاعة ولو في غير الظلم للنفس أو  
 للناس . وحسن أن تكون هذه الزيادة في آية البقرة لأنها نزلت آخرأ . والرجز العذاب  
 الذي تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس في شؤونهم ومعايشهم كما تقدم  
 تحقيقه في تفسير الآية ( ١٣٣ ) من هذه السورة وذكرونا فيها قول المفسرين إن  
 الرجز الذي أرسله الله على الظالمين في قصة دخول القرية هو الطاعون وأنه جائز  
 ولكن لم يثبت بنقل صحيح ، وقد عزاه بعض المفسرين الى وهب بن منبه  
 إن الله تعالى أنزل القرآن هدى وموعظة ، وجعل قصص الرسل فيه عبرة  
 وتذكرة ، لاتاريخ شعوب ومدائن ، ولا تحقيق وقائع ومواقع . والعبرة في هذه  
 القصة أن تنقي الظلم والفسق . ونعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها في الدنيا  
 قبل الآخرة ، وأنه قد عاقب بني اسرائيل بظلمهم ، ولم يحل دون عقابه ما كان  
 لهم من المزايا والفضائل ، وكثرة وجود الأنبياء فيهم . ومنه السياق الآتي

(١٦٢) وَأَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ  
 يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ  
 لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ  
 (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ

مَعَذِرَةً لِّهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، قَالُوا مَعَذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ  
(١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَدْنَا الَّذِينَ يَنْتَهُونَ عَنِ الشُّؤْمِ  
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَلِيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ  
(١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قَسَمْنَا لَهُمُ كُرُوسًا قِرَادَةً خَاسِرِينَ

هذه الآيات تفصيل لقوله تعالى في سورة البقرة ( ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ) إلى آخر الآيتين وقد تقدم تفسيرها ، ولا أعلم للقصة ذكراً من كتب اليهود المقدسة ولكنها كانت معروفة عندهم ، ولولا ذلك لبهتوا النبي (ص) في المدينة عند ما نزل عليه ( ولقد علمتم ) أو لما آمن من آمن به من علمائهم إذا كانوا لا يعلمون ما حكى لهم عن الله تعالى انهم يعلمونه مؤكداً بلام القسم ، وإذا قال غير المسلم المؤمن : انه اطلع على القصة في بعض كتبهم المقدسة أو التاريخية غير المقدسة أو سمعه من بعضهم - قلنا أولاً : ان آيات سورة الاعراف هذه نزلت بمكة في أوائل الاسلام ، ولم يكن النبي (ص) لقي أحداً من اليهود - ومن المعلوم قطعاً انه كان أمياً لم يقرأ الكتب كما قال تعالى ( وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك ، إذا لارتاب المبطلون ) الخ . وثانياً : انه (ص) لم يكن يصدقهم بعد معاشرتهم في المدينة بكل ما يحكون عن كتبهم بل كذبهم عن الله تعالى في كثير منها ، ولم يكن يصدقهم في كل ما يقولونه غير منقول عن كتبهم بالأولى : وهالك تفسير الآيات بدلول الفاظها ، ولا نعتمد على شيء من الروايات فيها

﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ﴾ الخطاب للرسول (ص) والسؤال فيه للتقرير المتضمن للتقريع ، والادلال بعلم ماضيهم . والمعنى واسأل بني اسرائيل عن أهل المدينة التي كانت حاضرة البحر أي قرية منه ، رابكة لشاطئه ﴿ إذ يعدون في السبت ﴾ أي أسأل عن حالهم في الوقت الذي كانوا يعدون في السبت ، ويتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه ﴿ إذ تأتيتهم حيتانهم ﴾ أي سمكهم — ولا يزال أهل الحجاز يسمون السمكة حوتاً

كبيرة كانت أو صغيرة ، وأهل سورية يخصون السمكة الكبيرة باسم الحوت — وقد أضيفت الحيتان اليهم لما كان من ابتلائهم بها ، واحتياهم على صيدها ، وكانت تأتيمهم ﴿ يوم سبتهم ﴾ أي تعظيمهم للسبت ، فهو مصدر سبتت اليهود تسبت إذا عظمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة ﴿ شرعا ﴾ أي ظاهرة على وجه الماء كما روي عن ابن عباس ، وفي رواية أخرى عنه ظاهرة من كل مكان — وهي جمع شارع ، كالركع السجد جمع الرأكع والساجد ، من شرع عليه إذا دنا وأشرف ﴿ ويوم لا يسبتون لأناتيمهم ﴾ أي ولا تأتيمهم يوم لا يعظمون السبت فعلا وتركها . قيل : إنها اعتادت أن لا يتعرض أحد لصيدها يوم السبت ، فأمنت وصارت تظهر فيه ، وتجنفي في الأيام التي لا يسبتون فيها لما اعتادت من اصطيادها فيها ، فلما رأوا ظهورها وكثرتها في يوم السبت أغرام ذلك بالاحتيال على صيدها ففعلوا

﴿ كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ أي مثل هذا البلاء بظهور السمك لهم نبلوهم أي نختبرهم أو نعاملهم معاملة المختبر لحال من يريد إظهار كنه حاله ليترتب الجزاء على عمله بسبب فسقهم المستمر عن أمر ربهم ، واعتدائهم حدود شرعه

﴿ وإذا قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ﴾ أي واسألهم عن حال أهل تلك القرية في الوقت الذي قالت أمة وجماعة منهم كيت وكيت تدل هذه الآية على أن الذين كانوا يعدون في السبت بعض أهل القرية لا كلهم وأن أهلها كانوا ثلاث فرق : فرقة العادين التي أشير إليها في الآية الأولى ، وفرقة الواعظين الذين نهوا العادين عن العدوان ، ووعظوهم ليكفوا عنه وهي التي أشير إليها في هذه الآية . وفرقة اللامئين للواعظين التي قالت لهم : لم تعظون قوماً قضى الله عليهم بالهلكة أو العذاب الشديد ، فهو إما مهلكهم بالاستئصال ، أو بعذاب شديد دون الاستئصال ، أو المعنى مهلكهم في الدنيا ومعذبهم في الآخرة — وأبأ ما كان المراد فأر هنا هي المانعة للخلو من وقوع أحد الجزأين ، لا المانعة لجمعهما ، فهي لاتنفي اجتماعهما . وفي الآية من الإيجاز البليغ مالا يوجد نظيره

﴿ قالوا : معذرة الى ربكم ولعلمهم يتقون ﴾ أي قال الواعظون للأمين :  
نعظيم وعظ عذر نعتذر به الى ربكم عن السكوت على المنكر وقد أمرنا بالتناهي  
عنه ، ورجاء في انتفاعهم بالموعظة ، وحملها لهم على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه .  
أي فذعن لم نياس من رجوعهم الى الحق ياسكم

﴿ فلما نساوا ما ذكروا به ﴾ أي فلما نسي العادون المذنبون ، ما ذكروا  
ووعظهم به اخوانهم المتقون ، بأن تركوه وأعرضوا عنه حتى صار كالمسني في  
كونه لا تأثير له ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء ﴾ أي عن العمل الذي تسوء عاقبته  
أي أنجينا من العقاب الذي استحقه فاعلوا السوء بظلمهم ﴿ وأخذنا الذين  
ظلموا ﴾ وخدم ﴿ بعذاب بئيس ﴾ أي شديد من البأس وهو الشدة ، أو البؤس  
وهو المكروه أو الفقر ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر ،  
لا بظلمهم في الاعتداء في السبب فقط . وذلك أن وصفهم بأنهم ظلموا لتعليل  
لأخذهم بعذاب بئيس ، على قاعدة كون بناء الحكم أو الجزاء على المشتق يدل على أن  
المشتق منه علة له ، ولكن الله تعالى لا يؤاخذ كل ظالم في الدنيا بكل ظلم يقع منه  
ولو كان قليلا في الصفة أو العدد - وان شئت قلت في الكيف أو الكم - بدليل  
قوله (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وقوله (ويعفو  
عن كثير) وإنما يؤاخذ الأمم والشعوب في الدنيا قبل الآخرة بالظلم والذنوب  
التي يظهر أثرها فيها بالأصرار والاستمرار عليها ، وهو ما أفاده هنا في هؤلاء  
اليهود قوله تعالى (بما كانوا يفسقون) وإنما يكون العقاب على بعض الذنوب دون  
بعض في الدنيا خاصة بالأفراد أو الجماعات الصغيرة من المذنبين كأهل هذه القرية  
الذين كانوا بعض أهل قرية من امة كبيرة ، وأما الأمم الكبيرة فهي التي تصدق  
عليها سنن الله في عقاب الأمم إذا غلب عليهم الفسق والظلم كقوله تعالى (واتقوا  
فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) الا ان يقال ان الفاسقين من أهل تلك  
القرية كانوا أقل من الفريقين الآخرين . وقد عاقب الله بني اسرائيل كافة  
بتنكيل البابليين ثم النصارى بهم وسلبهم ملكهم ، عند ما عم فسقهم ، ولم يدفع  
« تفسير القرآن الحكيم » « ٤٨ » « الجزء التاسع »

ذلك عنهم وجود بعض الصالحين فيهم ، اذ لم يكونوا يخلون منهم .  
والآية ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين ، ونجاة الصالحين الذين نهوم عن  
عمل السوء وارتكاب المنكر ، وسكنت عن الفرقة التي أنكرت على الواعظين  
وعظهم وانكارهم ، فقيل : انها لم تنج ، لأنها لم تنه عن المنكر بل أنكرت على  
الذين نهوا ، وقيل : بل نجت ، لأنها كانت منكرة للمنكر مستبحة له ، ولذلك  
لم تفعله ، وانما لم تنه عنه ليأسها من فائدة النهي ، وجزمها بأن القوم قد استحقوا  
عقاب الله باصرارهم فلا يفيدهم الوعظ ، وروي هذا عن ابن عباس كما روي عنه  
أنه كان متردداً في هذه الفرقة حتى أقنعه تلميذه عكرمة بنجاتها . وقد رجح  
الزمخشري وغيره هذا قال :

( فان قلت ) الامة الذين قالوا : لم تعظون؟ من أي الفريقين هم ؟ أمن فريق  
الناجين أم المعذبين ( قلت ) من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين ، وما  
قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه ، حيث لم يروا فيه غرضاً  
صحيحاً لعلمهم بحال القوم ، وإذا علم الناهي حال المنهي وأن النهي لا يؤثر فيه ،  
سقط عنه النهي ، وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث . ألا ترى أنك لو  
ذهبت الى المسكسين القاعدين على المآصر ، والجلادين المرتبين للتعذيب ،  
لتعظهم وتكفهم عما هم فيه ، كان ذلك عبثاً منك ، ولم يكن إلا سبباً للتلهي بك .  
وأما الآخرون فانما لم يعرضوا عنه إما لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس  
الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم ، أو لفرط حصرهم ، وجدتهم في أمرهم ، كما  
وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله ( فلعلك باخع نفسك ) اه  
أقول : ان ما ذكره من سقوط النهي عن المنكر أو وجوب تركه في حالة اليأس  
من تأثيره مرجوح ولا سيما اذا أخذ على اطلاقه ، وانما هو شأن اضعف الايمان  
في حديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع  
فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن أبي سعيد  
الخدري (رض) وانما تكون هذه الحالة أضعف الايمان عند عدم استطاعة ما قبلها ،  
فان استطاع النهي وسكت عنه لم يكن له عند مطلقاً ، ولذلك اختلف في هؤلاء الساكتين .

المحتملة حالهم للعذر وعدمه ، واليأس قلما ينشأ إلا من ضعف في النفس أو الإيمان ، وكأين من مكاس وجلاذ ومدمن خمر تاب وأناب ، والمحققون لم يجعلوا احتمال الأذى ولا يقينه موجباً تترك النهي عن المنكر ولا تفضيله على الفعل بل قالوا في هذه الحالة بالجواز ، واستدلوا على تفضيل النهي بحديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وغيرهم

وفي بئس عدة قرأت أخرى بين متواترة وشاذة ، تخرج على الخلاف في أصل صيغته ، وعلى لغات العرب في التصرف في المهموز : فقرأها أبو بكر على خلاف عند بيئس بوزن ضيغم — وابن عامر بكسر الباء وسكون الهمزة بناء على أنه أصله بئس بوزن حذير فنقلت حركة الهمزة إلى الفاء للتخفيف ككبد في كبد ، ونافع بييس على قلب الهمزة ياء كذئب وذيب ، أو على أنه فعل الظم وصف به فجعل اسماً . ومن الشواذ بييس كريس على قلب الهمزة ياء وادغامها ، وبييس كيهين على تخفيف المشددة ، وبأيس بوزن فاعل

﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه ﴾ أي فلما عتوا عن أمر ربهم عتوا أي ، واستكبار عن

ترك ما نهواهم عنه الواعظون ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ هذا القول للتكوين أي تعلقت إرادتنا بأن يكونوا قردة خاسئين أي صاغرين أذلاء فكانوا كذلك قيل : إن هذا بيان وتفصيل للعذاب البئيس في الآية السابقة ، وقيل : هو عذاب آخر ، وإن الله عاقبهم أولاً بالبؤس والشقاء في المعيشة ، لأن من الناس من لا يريه ويهذبه إلا الشدة والبؤس ، كما إن منهم من يريه ويهذبه الرخاء والنعمة ، وبكل بيتي الله عباده ويمتحنهم كما قال ( ونبلوكم بالشر والخير فتنة ) وقال في بني إسرائيل ( وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون ) ولكن هؤلاء القوم لم يزدوا بالبؤس والسوء إلا عتوا وإصراراً على الفسق والظلم فقدم عليهم ربهم بذنبيهم ، ومسخهم مسخ خلق وبدن فكانوا قردة بالفعل ، أو مسخ خلق ونفس ، فكانوا كالقردة في طيشها وشرها ، وإفسادها لما تصل إليه أيديها . والاول قول الجمهور والثاني قول مجاهد قال : مسخت قلوبهم فلم يوقوا الفهم الحق



(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ أَسْرِعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَنُفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا ، مِمَّنْهُمُ الْمَصْلُحُونَ وَمِمَّنْهُمُ دُونَ ذَلِكَ ، وَبَلَّوْا نَبِيَّهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ عَلَيْهِمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكُتُبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكُتُبِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَاللَّذَّارُ الْأَخْرَجَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكُتُبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضْمِعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَإِذْ تَبَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

هذه الآيات خاتمة قصة بني اسرائيل في هذه السورة ، وما سيأتي من نبي الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها مثل عام ليس فيه ما يدل على أنه كان منهم كما روي عن بعض المفسرين فهو لا يدخل في قصتهم ، ومناسبة هذه لما قبلها مباشرة أنها بيان لجرى ان سنة الله العامة في عقاب الأمم وانطباقها على اليهود عامة ، بعد بيان عقابه تعالى لطائفة منهم قال عز وجل :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾  
 تأذن صيغة تفعل من الايدان ، وهو الاعلام الذي يبلغ فيدرك بالآذان ، ويتضمن هنا تأكيد القسم ، ومعنى العهد المكتوب الملتمزم ، بدليل مجيء لام القسم ونون التوكيد في جوابه . والمعنى : واذكر أيها الرسول الخاتم العالم إذ أعلم ربك هؤلاء القوم المرة بعد المرة أنه قد قضى في علمه وكتب على نفسه ، وفاقا لما أقام عليه نظام الاجتماع البشري من سننه ليبعثن ويسلطن عليهم الى يوم القيامة من

يسومهم سوء العذاب ، أي يريدوه ويوقعه بهم ، عقاباً على ظلمهم وفسادهم ، وهو مجاز من سوم الشيء ، كما يقال سامه حسماً . وسوء العذاب ما يسوء صاحبه ويذله ، وهو هنا سلب الملك ، وإخضاع القهر

ومصداق هذا وتفصيله على ما قررنا قوله تعالى في أول سورة الاسراء (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعأننّ علواً كبيراً — إلى قوله — ويتبروا ماعلوّاً تبسيراً ) ثم قال ( عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا ) الآية أي وإن عدتم بعد عقاب المرة الآخرة إلى الافساد ، عدنا إلى التعذيب والاذلال ، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصراني فلبوا ملكهم الذي أقاموه بعد نجاتهم من السبي البابلي ، وقهرهم وأستذلّوهم ، ثم جاء الاسلام فعاداه منهم الذين كانوا هربوا من الذل والنكاح ولجؤوا إلى بلاد العرب فعاشوا فيها أعزاء آمنين ، ولم يفوا للنبى (ص) بما عاهدتم عليه فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم ، بل غدروا به وكادوا له ، ونصروا المشركين عليه ، فسلطه الله عليهم فقائلهم فنصره عليهم ، فأجلى بعضهم ، وقتل بعضاً ، وأجلى عمر من بقي منهم ، ثم فتح عمر سورية بعضها بالصلح كبيت المقدس ، وبعضها عنوة ، فصار اليهود من سيادة الروم الجائرة القاهرة فيها إلى سلطة الاسلام العادلة ، ولكنهم ظلوا أذلة بفقد الملك والاستقلال . وقد بينا حقيقة حالهم ، وما يحاولونه من استعادة ملكهم في هذا الزمان في غير هذا الموضع من هذا التفسير ، وفي مواضع من المنار

﴿ إن ربك لسريع العقاب ﴾ اللهم التي تفسق عن أمره وتفسد في الأرض فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد ( وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفياً ففستقوا فيها — فحق عليها القول — فدمرناها تدميراً ) أي أمرناهم بالحق والعدل ، والرحمة والفضل ، فعصوا وفسقوا عن الأمر ، وأفسدوا وظلموا في الأرض ، فحق عليهم القول ، بمقتضى سنته تعالى في الخلق ، فحل بهم الهلاك على الفور

﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن تاب عقب الذنب ، وأصلح ما كان أفسد في

الأرض ، قبل أن يحق عليه القول ( وإني اغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ) وهذا كما قال في اليهود بعد ذكر إفسادهم مرتين ( عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا ) وقلمما ذكر الله عذاب الفاسقين المفسدين ، إلا وقرنه بذكر المغفرة والرحمة للتائبين المحسنين ، حتى لا يئس صالح مصلح من رحمته بذنب عمله بجهالة ، ولا يأمن مفسد من عقابه اغترارا بكرمه وعفوه وهو مصر على ذنبه ، ثم بين تعالى كيف كان بدء إذلال اليهود بازالة وحدتهم ، وتمزيق جامعهم

فقال ﴿ وقطعناهم في الأرض أئمة ﴾ أي وفرقناهم في الأرض حال كونهم أئمة

بالتقدير ، أو صبرناهم أئمة متقطعة ، بعد أن كانوا أمة متحدة ﴿ منهم الصالحون ﴾ كالذين نهوا الذين اعتدوا في السبت عن ظلمهم ، والذين كانوا يؤمنون بأنبياء الله تعالى فيهم من بعد موسى الى عهد عيسى عليهم السلام ، والذين آمنوا بمحمد

خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ﴿ ومنهم دون ذلك ﴾ ومنهم ناس دون وصف الصلاح لم يبلغوه ، وهم درجات أودر كات ، منهم الغلاة

في الكفر والفسق ، كالذين كانوا يقتلون النبيين بغير حق ، ومنهم السامعون للكذب الأكلون للسحت ، الى غير ذلك مما هو شأن الأمم الفاسدة في كل عصر ، تفسد بالتدريج لادفعة واحدة كما نراه في أمتنا الاسلامية

﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون ﴾ أي امتحناهم ، وبلونا سرائرهم واستعدادهم ، بالنعم التي تحسن ، وتقر بها الأعين ، وبالنقم التي تسوء صاحبها ، وربما حسنت بالصبر والانابة عواقبها ، رجاء أن يرجعوا عن ذنبيهم ، وينيبوا الى ربهم ، فيعود برحمته وفضله عليهم

﴿ خلف من بعدهم خلف ﴾ أي خلف من بعد أولئك الذين كان فيهم الصالح والطالح ، والبر والفاجر ، خلف سوء وبدل شر ، قيل : إن الخلف بسكون اللام يغلب في الأشرار ، وإنما يقال في الأخير خلف بالتحريك

كسلف ﴿ ورتوا الكتاب ﴾ الذي هو التوراة عنهم ، وقامت الحججة به عليهم ،

فماذا كان شأنهم ؟ الجواب ﴿ يأخذون عرض هذا الأذى ﴾ أي يأخذون عرض هذا الشيء الأذى ، أي هذا الحطام الخقير من متاع الدنيا ، والمراد به ما كانوا يأكلونه من السحت والرشى ، والاتجار بالدين والمحاباة في الحكم والفتوى

﴿ ويقولون سيغفر لنا ﴾ أي سيغفر الله لنا ، ولا يؤخذنا بما أذنبنا ، فاننا شعبه الخاص ، وسلائل أنبيائه ، ونحن أبناءه وأحبائه ، وما هذه الأقوال الا أماني ، وغرور وأوهام ، قال ابن كثير ، وقال مجاهد : هم النصارى ، وقد يكون أعم من ذلك اه وكل من القولين ينافيه مقتضى السياق ، فأوائل

النصارى كانوا صالحين ، وسابق الكلام ولاحقه في اليهود وحدهم ﴿ وإن

يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ أي يقولون ذلك والحال أنهم مصرون على ذنبهم إن يأتهم عرض آخر مثل الذي أخذوه أولاً بالباطل يأخذوه لا يتعففون عنه وإنما وعد الله في كتبه بالمغفرة للتائبين الذين يتركون الذنوب ندما وخوفاً من الله ورجاء فيه ، ويصلحون ما كانوا أفسدوا ، كما تكرر في القرآن ، ومنه في سياق قصة موسى مع بني إسرائيل خطاباً لهم من سورة طه ( واني لعقار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى )

وقد ردَّ الله تعالى عليهم زعمهم بقوله ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن

لا يقولوا على الله الا الحق ﴾ الاستفهام للتقرير ، أي قد أخذ عهد الله وميثاقه في كتابه بأن لا يقولوا عليه غير الحق الذي بينه فيه ، فما بالهم يجزمون بأن الله سيغفر لهم مع اصرارهم على ذنوبهم على خلاف ما في الكتاب ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ أي من تحريم أكل أموال الناس بالباطل والكذب على الله كقولهم إنه سيغفر لهم وغير ذلك ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في العمل بكتابه كما في آخر سفر تثنية الاشرع

﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟ ﴾ أي والدار الآخرة وما أعدَّه الله فيها للذين يتقون الرذائل والمعاصي خير من الحطام الفاني من عرض

الدنيا بالرشوة والسحت وغير ذلك ، أفلا تعقلون ذلك وهو ظاهر جلي لا يخفى على عقل لم يطمسه الطمع الباطل ، في الخطام العاجل ، فترجعون الخير على الشر ، والنعيم العظيم الدائم ، على المتاع الخثير الزائل ، وقد علم من الآية ان الطمع في متاع الدنيا هو الذي استحوذ على بني اسرائيل فأفسد عليهم أمرهم ، ولا يزال هذا التمني فيها أخص صفاتهم ،

وقد سرى شيء كثير من هذا الفساد إلى المسلمين ، حتى رجال الدين الذين ورثوا الكتاب الكريم ، والقرآن الحكيم ، ودرسوا ما فيه ، غلب على أكثرهم الطمع في حطام الدنيا القليل ، وعرضها للدين ، والغرور بالنسبة إلى الاسلام والتخلي بقلبه ، والتعلل بأمانى المغفرة مع الاصرار على الذنب والالتكال على المكفرات والشفاعات ، وهم يقرءون ما في الكتاب من النهي عن الأمانى والأوهام ، ومن نوط الجزاء بالأعمال ، والمغفرة بالتوبة والاصلاح ، وكون الشفاعة لاتقع إلا باذن الله لمن رضي عنه كقوله ( ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ) وان يرضى الله عن فاسق ولا منافق ( فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ) بل ما قص الله علينا مثل هذه الآيات من أخبار بني اسرائيل إلا لتعتبر بأحوالهم ، وتنقي الذنوب التي أخذهم بها ، ولسكننا مع هذا كله اتبعنا سنهم شهراً بشهر وذراعاً بذراع ، الا اننا نحمد الله ان هذا الاتباع فينا غير عام ، وانه لا يزال فينا طائفة ظاهرة على الحق يطعن فيها الجماهير الذين صار الاسلام فيهم غريباً ، وقد شرحنا ذلك مراراً بل صرحت الآيات بالتحذير من اتباع أهل الكتاب في أمانيتهم وفي فسقهم كقوله تعالى ( ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سواها يحز به ) الخ وقوله ( ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون )

قرأ ( تعقلون ) بالتاء نافع وابن عامر وابن ذكوان وأبو جعفر وسهل ويعقوب وحفص فقل إن الخطاب به لليهود المحكي عنهم بطريق الالتفات ، وقيل بل هو خطاب لهذه الأمة لتعتبر بحالهم ، وتجتنب ما كان سبباً لسوء مآلهم ، من الاصرار

على سوء أعمالهم ، وقرأ الآخرون ( يعقلون ) على الأصل في الحكاية عن الغائبين ، ولو صح ما قيل من أن هذه الآيات نزلت وحدها في المدينة نصح أن يقال ان الخطاب موجه الى اليهود المجاورين لها ، لأنهم آخر ذلك الخلف ، الذي نزل فيه هذا الوصف في ذلك الوقت

﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لانضيع أجر المصلحين ﴾  
 قرأ الجمهور يمسكون بتشديد السين من مسك تسميكا بمعنى تمسك تمسكا ، ومثله قدم بمعنى تقدم ، ومنه ( لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ) وقرأ أبو بكر وحماد يمسكون بالتخفيف من الامسك . — أي والذين يستمسكون بعروة الكتاب الوثقى ويعتصمون بحبله في جميع أحوالهم وأوقاتهم ، وأقاموا الصلاة التي هي عماد الدين في أوقاتها ﴿ انا لانضيع أجر المصلحين ﴾ انا لانضيع أجرهم لأنهم هم المصلحون . والله لا يضيع أجر المصلحين ، فهو خبر قرن بالدليل ، ومثله قوله تعالى ( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لانضيع أجر من أحسن عملا )

﴿ واذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾ لعل حكمة ختم قصة بني اسرائيل بهذه الآية هنا للتذكير ببدء حالهم في انزال الكتاب عليهم في إثريان عاقبة أمرهم في مخالفتهم والخروج عنه ، فان في تلك الفاتحة اشارة الى هذه الخاتمة ، وذلك عند ما أخذ عليهم الميثاق ليأخذن بالشريعة بقوة وعزم فانه رفع فوقهم الطور وأوقع في قلوبهم الرعب من خوف وقوعه بهم ، فلاغرو اذا آل أمرهم الى ترك العمل به بعد طول الامد وقساوة القلوب ، والانس بالذنوب ، وقد تقدم في معنى هذه الآية آيتان من سورة البقرة وأشير اليه في سورة النساء . وذكرنا آية الاعراف هذه في سياق تفسير آية البقرة الأولى . والمعنى واذكرأيها الرسول النبي الأبي إذ نتقنا فوق هؤلاء الجبل جبل الطور أي رفعناه كما عبر به في الآيات الأخرى وهو المروي عن ابن عباس — أو زلزالناه وهو مرفوع فوقهم مظل لهم — كما يقال تنق السماء اذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبدة . قال الجمهور انه اقتله ، وجعله فوقهم ( فان قيل ) لو كان الأمر كذلك لكان ظلة بالفعل « تفسير القرآن الحكيم » « ٤٩ » « الجزء التاسع »

لا كالظلة ، فان الظلة كل ما أظلك من فوقك ، ويصدق رفع الجبل فوقهم كالظلة وجودهم في سفحه واستظلالم به (قلنا) أنه وإن صح هذا التأويل فان رفع الجبل على الوجه الاول إنما كان لاخافتهم لا لأظلالهم وأما ظنهم أنه واقع بهم فانما جاء من زلزلته واضطرابه ، على أن الله تعالى قادر على قلعه وجعله فوقهم وكم رأوا من آياته ما هو أدل على قدرته تعالى من ذلك

﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ وقلنا لهم في تلك الحالة : خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بقوة عزيمة وعزم على احتمال مشاقه ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ أي واذكروا ما فيه من الاحكام أو امرها ونواهيها ، أو اعملوا به لئلا تنسوه — فان ذلك يعدكم للتقوى ويجعلها مرجوة لكم ، فان الجدد وقوة العزم في اقامة الدين يهذب النفس ويزكيها ، والتهاون والاعراض فيه بدسيها ويغويها ( قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها )

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٧٤)

هذه الآيات بدء سياق جديد في شؤون البشر العامة المتعلقة بهداية الله لهم بما أودع في فطرتهم وركب في عقولهم من الاستعداد للايمان به وتوحيده وشكره ، في إثربيان هدايته لهم بارسال الرسل وانزال الكتب في قصة بني إسرائيل ، فالمناسبة بين هذا وما قبله ظاهرة ولذلك عطف عليه عطف جملة على جملة ، او سياق على سياق ، قال تعالى

﴿ واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ﴾ الظهور جمع ظهر وهو العمود الفقري لهيكل الانسان الذي هو قوام بنيته ، ومركز النخاع الشوكي

الذي عليه مدار حياته ، فيصح أن يعبر به عن جهة وجوده الجسدي الحيواني ،  
والذرية سلالة الانسان من الذكور والاناث . قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر  
ويعقوب ( ذرياتهم ) بالجمع والباقون بالافراد ومعناها واحد فان المفرد المضاف  
يفيد العموم ، ورسومها في المصحف الامام واحد ، وقوله ( من ظهورهم ) بدل  
من بني آدم بمعناه والجمهور على انه بدل البعض من الكل ، وهو الظاهر اذا لم  
يرد بهذا البعض ذلك الكل ، وقال أبو البقاء هو بدل اشمال

والمعنى واذكر أيها الرسول في إثر ذكر أخذ ميثاق الوحي على بني اسرائيل  
خاصة ، مأخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشر عامة ، اذ استخرج  
من بني آدم ذريتهم بطنا بعد بطن ، فخلقهم على فطرة الاسلام ، وأودع في  
أنفسهم غريزة الايمان ، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية ان كل فعل لا بد  
له من فاعل ، وكل حادث لا بد له من محدث ، وان فوق كل العوالم الممكنة  
القائمة على سنة الأسباب والمسببات ، والعلل والمعلولات ، سلطانا أعلى على  
جميع الكائنات ، هو الاول والآخر ، هو المستحق للعبادة وحده ، — وقد بسطنا

هذه المسألة — وهذا معنى قوله تعالى ﴿ وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ ﴾

قالوا بلى شهدنا ﴿ أي أشهد كل واحد من هذه الذرية المتسلسلة على نفسه بما أودعه  
في غريزته واستعداد عقله قائلاً قول إرادة وتكوين ، لا قول وحي وتلقين ،  
ألست بربكم ؟ فقالوا كذلك بلغة الاستعداد واسان الحال ، لا بلسان المقال :  
بلى أنت ربنا والمستحق وحده لعبادتنا . فهو من قبيل قوله تعالى بعد ذكر خلق  
السماء ( فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ) وهذا النوع  
من التعبير والبيان يسمى في عرف علماء البلاغة بالتمثيل ، وهو أعلى أساليب البلاغة  
وشواهدة في القرآن وكلام البلغاء كثيرة .

يَبِّنُ سَبْحَانَهُ سَبَبَ هَذَا الْأَشْهَادِ وَعَلْتَهُ فَقَالَ :

﴿ أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ أي فعلنا هذا منعا  
لاعتذاركم أو احتجاجكم يوم القيامة بأن تقولوا اذا أنتم اشر كنتم به : انا كنا



غافلين عن هذا التوحيد للربوبية وما يستلزمه من توحيد الالهية بعبادة الرب وحده والمراد انه تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بالجهل

﴿ أو تقولوا : إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ جاهلين ببطلان شركهم ، فلم يسعنا الا الاقتداء بهم ﴿ أتقبلكننا بما فعل المبطلون ﴾ باختراع الشرك فتجعل عذابنا كعذابهم ، مع عذرنا بتحسين الظن بهم ، والمراد أن الله تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بتقليد آباءهم وأجدادهم ، كما أنه لم يقبل منهم الاعتذار بالجهل ، بعد ما أقام عليهم من حجة الفطرة والعقل

﴿ وكذلك نفصل الآيات لعلمهم يرجعون ﴾ أي ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبي آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم ، وعلمهم يرجعون بها عن جهلهم وتقليدهم والآيات تدل على ان من لم تبلغه بعثة رسول لا يعذر يوم القيامة . بالشرك بالله تعالى ولا بفعل الفواحش والمنكرات التي تنفر منها الفطرة السليمة ، وتدرك ضررها وفسادها العقول المستقلة ، وإنما يعذرون بمخالفة هداية الرسل فيما شأنه أن لا يعرف الا منهم . وهو أكثر العبادات التفصيلية

هذا ما يتبادر الى الفهم من الآيات لذاتها واكن ورد في أخذ الذرية من بني آدم واشهادهم على أنفسهم أحاديث وآثار لا يمكن أن تعرف إلا من خبر الوحي . وقد كانت موضوع بحث ومناقشة بين علماء المعقول والمنقول فنورد أمثل ما قالوه فيها قال الامام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : —

« يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكم ، وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى ( فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ) وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » وفي رواية « على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » . وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم « يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتاتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحلت لهم » وقال الامام ابو جعفر بن جرير رحمه الله : حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني السري بن يحيى أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد عليه ثم قال : « ما بال أقوام يتناولون الذرية » فقال رجل : يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين؟ فقال « إن خياركم أبناء المشركين ، ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة ، فما تزال عابها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها وينصرانها » قال الحسن : والله لقد قال الله في كتابه (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية ، وقد رواه الامام احمد عن اسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصري به ، وأخرجه النسائي في سننه من حديث هشيم بن يونس ابن عبيد عن الحسن قال : حدثني الأسود بن سريع فذكره ، ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك .

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتمييزهم الى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال . وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم ، قال الامام احمد : حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن ابي عمران الجوني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الارض من شيء أ كنت مفنديا به ؟ قال : فيقول نعم فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي » أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به ﴿ حديث آخر ﴾ قال الامام احمد : حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير -

يعني - ابن حازم عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنهتان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم فتلا قال : أأنت

بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا - الى قوله - المبطون» وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه عن محمد بن عبد الرحيم عن صائفة عن حسين بن محمد المروزي به، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد به، الا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً، وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كاثوم بن جبير به وقال: صحيح الاسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكاثوم بن جبير هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث عن كاثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فوقفه، وكذا رواه اسماعيل بن علية وو كيع عن ربيعة بن كاثوم عن جبير عن أبيه به، وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن ابي ثابت وعلي بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله، وكذا رواه العوفي وعلي بن ابي طلحة عن ابن عباس فهذا أكثر وأثبت والله أعلم وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع حدثنا ابي عن ابي هلال عن ابي حمزة الضبي عن ابن عباس قال: أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو في أذي من الماء. وقال أيضاً: حدثنا علي بن سهل حدثنا ضمرة بن ربيعة حدثنا ابو مسعود عن جويبر: مات ابن الضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال: فقال يا جابر اذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده، فان ابني مجلس ومستول، ففعلت الذي به أمر، فلما فرغت قلت يرحمك الله عم يسأل ابنك؟ من يسأله اياه؟ قال: يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم، قلت: يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابن عباس أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول، على الفطرة. فهذه الطرق كلها مما تقوي وقف هذا على ابن عباس والله أعلم

﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن جرير : حدثنا عبد الرحمن بن الوليد حدثنا احمد ابن ابي ظبية عن سفيان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاك عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ) قال « أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم : ألسنت بربكم ؟ قالوا : بلى ، قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » احمد بن ابي ظبية هذا هو ابو محمد الجرجاني قاضي قومس ، كان أحد الزهاد ، أخرج له النسائي في سننه وقال : ابو حاتم الرازي يكتب حديثه ، وقال ابن عدي : حدث بأحاديث كثيرة غرائب . وقد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن حمزة بن مهدي عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قوله ، وكذا رواه جرير عن منصور به وهذا أصح والله أعلم

﴿ حديث آخر ﴾ قال الامام احمد : حدثنا روح هو ابن عبادة حدثنا مالك وحدثنا اسحق بن مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ( وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم ؟ قالوا بلى ) الآية فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون » فقال : يا رسول الله فقيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » وهكذا رواه ابو داود عن القعني والنسائي عن قتيبة ، والترمذي عن اسحق بن موسى عن معن ، وابن ابي حاتم عن يونس ابن عبد الأعلى عن ابن وهب ، وابن جرير من حديث روح بن عبادة وسعيد ابن عبد الحميد بن جعفر ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه من رواية ابي مصعب

الزبيري كلهم عن الامام مالك بن أنس به قال الترمذي : وهذا حديث حسن  
ومسلم بن يسار لم يسمع عمر ، وكذا قاله ابو حاتم وأبو زرعة ، زاد ابو حاتم  
وبينهما نعيم بن ربيعة ، وهذا الذي قاله ابو حاتم رواه ابو داود في سننه عن محمد  
ابن مصفى عن ببيعة عن عمرو بن جعتم القرشي عن زيد بن أبي انيسة عن عبد  
الحيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار الجهني عن نعيم بن  
ربيعة قال : كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية ( وإذ أخذ  
ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ) فذكره . وقال الحافظ الدارقطني :  
وقد تابع عمرو بن جعتم بن زيد بن سنان ابو فروة الرهاوي ، وقولها أولى  
بالصواب من قول مالك والله أعلم ( قلت ) الظاهر أن الامام مالك إنما أسقط  
ذكر نعيم بن ربيعة عمداً لما جهل حال نعيم ولم يعرفه ، فانه غير معروف إلا في  
هذا الحديث ، ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضونهم ، ولهذا يرسل كثيراً  
من المرفوعات ، ويقطع كثيراً من الموصولات والله أعلم

حديث آخر قال الترمذي عند تفسير هذه الآية : حدثنا عبد بن حميد  
حدثنا ابو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن ابي صالح عن ابي هريرة  
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من  
ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل  
إنسان منهم وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال : أى رب من هؤلاء ؟ قال :  
هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص عينيه قال : أى رب من هذا ؟  
قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال : رب وكم جعلت  
عمره ؟ قال : ستين سنة قال : أى رب قد وهبت له من عمري أربعين سنة فلما  
انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال : أولم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال  
أولم تعطها ابنك داود قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته  
وخطىء آدم فخطئت ذريته » ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ،  
وقد روي من غير وجه عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ورواه  
الحاكم في مستدركه من حديث ابي نعيم الفضل بن دكين به وقال : صحيح على

شرط مسلم ولم يخرجاه ، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم عن أبيه أنه حدثه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكر نحو ما تقدم إلى أن قال « ثم عرضهم على آدم فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك ، وإذا فيهم الأجدم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم : يارب لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال : كي تذكر نعمتي وقال آدم : يارب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نوراً ؟ قال : هؤلاء الانبياء يا آدم من ذريتك » ثم ذكر قصة داود كنحو ما تقدم

﴿ حديث آخر ﴾ قال عبد الرحمن بن قتادة النضري عن أبيه عن هشام بن حكيم رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ابتداء الأعمال أم قد قضى القضاء قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه ثم قال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار ، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار » رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عنه ﴿ حديث آخر ﴾ روى جعفر بن الزبير — وهو ضعيف — عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين يمينه ، وأهل الشمال بشماله ، فقال يا أصحاب اليمين فقالوا لبيك وسعديك قال ألسنت بربكم قالوا بلى ثم خلط بينهم ، فقال قائل له يارب لم خلطت بينهم قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، ثم ردهم في صلب آدم » رواه ابن مردويه

﴿ أثر آخر ﴾ قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى ( وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ) الآيات قال فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم ( ألسنت بربكم قالوا بلى ) الآية قال فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أبابكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا علموا أنه لا إله غيري ،

ولا رب غيري ، ولا تشركو ابي شيئا ، واني سأرسل لكم رسلا اينذروكم  
عهدي وميثاقي وانزل عليكم كتيبي ، قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لارب لناغيرك  
فأقرؤا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر اليهم فرأى فيهم الغني والفقير وحسن  
الصورة ودون ذلك فقال يارب لو سويت بين عبادك قال اني أحببت ان أشكر  
ورأى فيهم الانبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة  
والتبوة فهو الذي يقول تعالى ( وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ) الآية وهو الذي  
يقول ( فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله ) الآية . ومن ذلك قال ( هذا نذير  
من النذر الأولى ) ومن ذلك قال ( وما وجدنا لأكثرهم من عهد ) الآية رواه  
عبد الله بن الامام احمد في مسند أبيه ورواه ابن ابي حاتم وابن جرير وابن  
مردويه في تفاسيرهم من رواية أبي جعفر الرازي به . وروي عن مجاهد وعكرمة  
وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي وغير واحد من السلف سياقات توافق  
هذه الأحاديث اكتفينا بإيرادها عن التطويل في تلك الآثار كلها وبالله المستعان  
فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه  
وميز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الاشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا  
في حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس — وفي حديث  
عبدالله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لامرفوعان كما تقدم ، ومن ثم قال قائلون  
من السلف والخلف إن المراد بهذا الاشهاد انما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم  
في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ومن رواية الحسن البصري عن  
الاسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا : ولهذا قال ( واذا أخذربك  
من بني آدم ) ولم يقل من آدم ( من ظهورهم ) ولم يقل من ظهر ذرياتهم أي جعل  
نسلهم جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، كقوله تعالى ( وهو الذي جعلكم خلائف  
الأرض ) وقال ( ويجعلكم خلفاء الأرض ) وقال ( كما أنشأكم من ذرية قوم  
آخرين ) ثم قال وأشهدهم على أنفسهم ( أأست بربكم؟ قالوا بلى ) أي أوجدهم  
شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالوا والشهادة تارة تكون بالقول كقوله ( قالوا  
شهدنا لي أنفسنا ) الآية . وتارة تكون حالا كقوله تعالى ( ماكان للمشركين

أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ( أي حاله شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك كقوله تعالى ( وإنه على ذلك شهيد ) كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالمال كقوله ( وآتاكم من كل ما سألتموه ) قالوا ومما يدل على أن الأشهاد حجة عليهم في الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه ، فان قيل اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم به كاف في وجوده ، فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ، ولهذا قال ( أن يقولوا ) أي لئلا يقولوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين أي عن التوحيد غافلين ، أو يقولوا إنما أشرك آباؤنا الآية « اه كلام ابن كثير

وقد بسط العلامة ابن القيم هذه المسألة في كتاب الروح في سياق البحث في خلق الأرواح قبل الأجساد — فذكر الروايات المرفوعة والموقوفة والآثار فيها وما قيل من الجرح والتعديل في أسانيدهم قال ! — وهنأ أربع مقامات ( أحدها ) ان الله سبحانه استخرج صورهم وأمثالهم ، فميز شقيهم وسعيدهم ومعافاهم من مبتلاهم ( والثاني ) ان الله سبحانه أقام عليهم الحجة حينئذ وأشهدهم بربوبيته واستشهد عليهم ملائكته ( الثالث ) ان هذا هو تفسير قوله تعالى ( وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ) ( الرابع ) انه أقر تلك الأرواح كلها بعد إخراجها بمكان وفرغ من خلقها وإنما يتجدد كل وقت إرسال جملة منها بعد جملة إلى أبدانها

( فأما المقام الأول ) فالآثار متظاهرة به مرفوعة وموقوفة ( وأما المقام الثاني ) فأما أخذه من أخذه من المفسرين من الآية وظنوا انه تفسيرها ، وهذا قول جمهور المفسرين من أهل الأثر . قال أبو اسحاق : جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذرات التي أخرجها فهما تعقل به كما قال ( قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ) وقد سخر مع داود الجبال تسبيح معه وانطير . وقال ابن النباري : مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية ان الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلا



أولاده وهم في صور الذر ، فأخذ عليهم الميثاق انه خالقهم وانهم مصنوعون ، فاعترفوا بذلك وقبلوا ، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بهاماعرض عليهم كما جعل للجبل عقلا حين خوطب ، وما فعل ذلك بالبعير للمسجد ، والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت

وقال الجرجاني : ليس بين قول النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته » وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية لذريته بعضهم من بعض . وقوله تعالى ( ان تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ) أي عن الميثاق المأخوذ عليهم ، فاذا قالوا ذلك كانت الملائكة شهوداً عليهم بأخذ الميثاق قال : وفي هذا دليل على التفسير الذي جاءت به الرواية من أن الله تعالى قال للملائكة : اشهدوا فقالوا شهدنا . قال : وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق إنما أخذ على الارواح دون الاجساد ، ان الارواح هي التي تعقل وتفهم ولها الثواب وعليها العقاب ، والاجساد اموات لا تعقل ولا تفهم . قال : وكان اسحق بن راهويه يذهب الى هذا المعنى ، وذكر انه قول أبي هريرة . قال اسحق : وأجمع أهل العلم انها الأرواح قبل الاجساد استنطقهم وأشهدهم ، قال الجرجاني : واحتجوا بقوله تعالى ( ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء ) والاجساد قد بليت وضلت في الارض ، والارواح ترزق وتفرح ، وهي التي تلذ وتألم ، وتفرح وتحزن وتعرف وتنكر ، وبيان ذلك في الاحلام موجود ، ان الانسان يصبح وأثر لذة الفرح وألم الحزن باق في نفسه مما تلاقى الروح دون الجسد

قال : وحاصل الفائدة في هذا الفصل انه سبحانه قد أثبت الحججة على كل منفسوس ممن يبلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذي اخذه عليهم ، وزاد على من بلغ منهم الحججة بالآيات والدلائل التي نصبها في نفسه وفي العالم وبالرسل المنفذة اليهم مبشرين ومنذرين ، وبالمواعظ بالمثلثات المنقولة اليهم اخبارها ، غير انه عز وجل لا يطالب أحداً منهم من الطاعة الا بقدر ما لزمه من الحججة وركب فيهم من القدرة وآتاهم من الادلة ، ويبين سبحانه ما هو عامل في البالغين الذين أدركوا الأمر

والنهي وحجب عنا علم ما قدره في غير البالغين ، الا انا نعلم انه عدل لا يجور في حكمه ، وحكيم لا تفاوت في صنعه ، وقادر لا يسأل عما يفعل ، له الخلق والامر ، تبارك الله رب العالمين

### ﴿ فصل ﴾

ونازع هؤلاء غيرهم في كون هذا معنى الآية وقالوا معنى قوله ( واذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ) أي أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نطفة في أصلاب الالباء إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم بما أظهر لهم من آياته وبراهينه التي تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم فليس من أحد الا وفيه من صنعة ربه ما يشهد على أنه باريه ونافذ الحكم فيه ، فلما عرفوا ذلك ودعاهم كل ما يرون ويشاهدون إلى التصديق به كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته كما قال في غير هذا الموضع (شاهدين على أنفسهم بالكفر) يريد هم بمنزلة الشاهدين وإن لم يقولوا نحن كفره وكما تقول قد شهدت جوارحي بقولك تريد قد عرفته فكان جوارحي لو استشهدت وفي سعيها أن تنطق نشهدت ، ومن هذا اعلامه وتبينه أيضاً (شهد الله أنه لا إله الا هو) يريد أعلم وبين فأشبه ذلك شهادة من شهد عند الحكم وغيرهم ، هذا كلام ابن الانباري وزاد الجرجاني بيانا لهذا القول فقال حاكياً عن أصحابه إن الله لما خلق الخلق ونفذ علمه فيهم بما هو كائن وما لم يكن بعد مما هو كائن كالكائن إذ علمه بكونه مانع من غير كونه تابع في مجاز العربية أن بوضع ما هو منتظر بعد مما لم يقع بعد موقع الواقع لسبق علمه بوقوعه كما قال عز وجل في مواضع من القرآن كقوله ( ونادى أصحاب النار ونادى أصحاب الجنة — ونادى أصحاب الاعراف ) قال فيكون تأويل قوله ( واذا أخذ ربك ) واذا يأخذ ربك وكذلك قوله ( وأشهدهم على أنفسهم ) أي ويشهدهم بما ركب فيهم من العقل الذي يكون به الفهم ، ويجب به الثواب والعقاب وكل من ولد وبلغ الحنث ، وعقل الضر والنفع ، وفهم الوعد والوعيد والثواب والعقاب صار كأن الله تعالى أخذ عليه الميثاق في التوحيد بما ركب فيه من

العقل ، وأراه من الايات والدلائل على حدوثه ، وأنه لا يجوز أن يكون قد خلق نفسه واذا لم يحز ذلك فلا بد له من خالق هو غيره ليس كخالقه ، وليس من مخلوق يبلغ هذا المبلغ ولم يقدح فيه مانع من فهم إلا اذا حزبه أمر يفرع إلى الله عز وجل حين يرفع رأسه إلى السماء ويشير اليها بأصبعه علماً منه بأن خاتمه تعالى فوقه واذا كان العقل الذي منه الفهم والافهام مؤدياً إلى معرفة ما ذكرنا ودالا عليه فكل من بلغ هذا المبلغ فقد أخذ عليه العهد والميثاق إذ جعل فيه السبب والادلة اللذين بهما يؤخذ العهد والميثاق ، وجائز أن يقال له قد أقر وأذعن وأسلم كما قال الله عز وجل ( والله يسجد من في السموات والارض طوعاً وكرهاً ) قال واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « رفع التلم عن ثلاثة عن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى ينتبه »

وقوله عز وجل ( إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ) ثم قال ( وحملها الانسان ) الامانة هن عهد وميثاق قامتاع السموات والارض والجبال من حمل الامانة خلوها من العقل الذي يكون به الفهم والافهام وحمل الانسان إياها لكان العقل فيه قال وللعرب فيها ضروب نظم فمنها قوله

ضمن القنان لقعس بديأها ان القنان لقعس لاياتلى

والقنان جبل فذكر انه قد ضمن لقعس وضمانه لهم أنهم كانوا اذا حز بهم أمر من هزيمة أو خوف لجأوا اليه فجعل ذلك كالضمان لهم ومنه قول النابغة كاجارف الجولان هال ربه وجوران منها خاشع متضائل وأجارف الجولان جبالها وجوران الارض التي الى جانبها وقال هذا القائل ان في قوله تعالى ( ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ) دليلاً على هذا التأويل لانه عز وجل أعلم أن هذا الأخذ للعهد عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين . والغفلة ههنا لا تخلو من أحد وجهين أما أن تكون عن يوم القيامة أو عن أخذ الميثاق فاما يوم القيامة فلم يذكر سبحانه في كتابه انه أخذ

عليهم عهداً وميثاقاً بمعرفة البعث والحساب وإنما ذكر معرفته فقط وأما أخذ الميثاق فالاطفال والأسقاط إن كان هذا العهد مأخوذاً عليهم كما قال المخالف فهم لم يبلغوا بعد ما أخذ هذا الميثاق عليهم مبلغاً يكون منهم غفلة عنه فيجحدونه وينكرونه فمتى تكون هذه الغفلة منهم وهو عز وجل لا يؤاخذهم بما لم يكن منهم وذكر ما لا يجوز ولا يكون محال وقوله تعالى ( أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكناذرية من بعدهم ) فلا يخلو هذا الشرك الذي يؤاخذون به أنفسهم إن يكون منهم أو من آباؤهم فإن كان منهم فلا يجوز أن يكون ذلك إلا بعد البلوغ وثبوت الحجة عليهم إذ الطفل لا يكون منه شرك ولا غيره وإن كان من غيرهم فالامة مجمعة على أن لاتزر وازرة وزر أخرى كما قال عز وجل في الكتاب وليس هذا بمخالف لما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله مسح ظهر آدم وأخرج منه ذريته فأخذ عليهم العهد » لأنه صلى الله عليه وآله وسلم اقتصر قول الله عز وجل فجاء مثل نظمه فوضع الماضي من اللفظ موضع المستقبل ، قال وهذا شبيه بقصة قوله تعالى ( وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ) فجعل سبحانه ما أنزل على الانبياء من الكتاب والحكمة ميثاقاً أخذه من أممهم بعدهم يدل على ذلك قوله تعالى ( ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ) ثم قال للامم ( أتقرتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ) فجعل سبحانه بلوغ الامم كتابه المنزل على انبيائهم حجة عليهم كأخذ الميثاق عليهم وجعل معرفتهم به اقراراً منهم : قلت . وشبيه به أيضاً قوله تعالى ( واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا واطعنا ) فهذا ميثاقه الذي أخذه عليهم بعد ارسال رساله اليهم بالايمان به وتصديقه ، ونظيره قوله تعالى ( والذين يوفون بعهد الله ولا ينتقضون الميثاق وقوله تعالى ( ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لاتعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ) فهذا عهده اليهم على السنة رساله ومثله قوله تعالى لبني اسرائيل ( وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ) ومثله ( واذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه )

وقوله تعالى ( وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى  
وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ) فهذا ميثاق اخذه منهم بعد بعثهم  
كما أخذ من أممهم بعد انذارهم وهذا الميثاق الذي لعن سبحانه من تقضه وعاقبه  
بقوله تعالى ( فجاء تقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ) فانما عاقبهم بتقضهم  
الميثاق الذي أخذه عليهم على السنة رسله وقد صرح به في قوله تعالى ( وإذ  
أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم  
تتقون ) ولما كانت هذه الآية ونظيرها في سورة مدنية خاطب بالتذكير  
بهذا الميثاق فيها أهل الكتاب فانه ميثاق أخذه عليهم بالايان به وبرساله ولما  
كانت هذه آية الاعراف في سورة مكية ذكر فيها الميثاق والاشهاد العام لجميع  
المكافين ممن أقروا بربوبيته ووجدانيته وبطلان الشرك وهو ميثاق وإشهاد تقوم  
به عليهم الحجة وينقطع به العذر وتحل به العقوبة ويستحق بمخالفته الاهلاك  
فلا بد أن يكونوا ذا كرين له عارفين به وذلك بما فطروهم عليه من الاقرار  
بربوبيته وانه ربهم وفاطروهم وانهم مخلوقون من ربهم ثم أرسل اليهم رساله  
يذكرونهم بما في فطرتهم وعقولهم ويعرفونهم حقه عليهم وأمره ونهيه ووعدته  
ووعيده ونظم الآءة انما يدل على هذا من وجوه متعددة ( أحدها ) انه قال  
واذ أخذ ربك من نبي آدم ولم يقل آدم وبنو آدم ( الثاني ) انه قال من ظهورهم  
ولم يقل ظهره ، وهذا يدل على بعض من كل أو يدل اشمال وهو أحسن ( والثالث )  
انه قال ذرياتهم ولم يقل ذريته ( الرابع ) انه قال وأشهدهم على أنفسهم أي  
جعلهم شاهدين على أنفسهم فلا بد أن يكون الشاهد ذا كرا لما شهد به وهو انما  
يذكر شهادته بعد خروجه الى هذه الدار لا يذكر شهادة قبلها ( الخامس ) انه  
سبحانه أخبر أن حكمة هذا الاشهاد إقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة  
( انا كنا عن هذا غافلين ) والحجة انما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فطروا  
عليها كما قال تعالى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة  
بعد الرسل ( السادس ) تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا  
غافلين معلوم انهم غافلون بالاجراهم من صلب آدم كلهم واشهادهم

جميعا ذلك الوقت فهذا لا يذكره أحد منهم (السابع) قوله تعالى (أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فذكر حكمتين في هذا التعريف والاشهاد (إحداهما) أن لا يدعوا الغفلة (والثانية) أن لا يدعوا التقليد فالغافل لا شعور له والمقلد متبع في تقليده لغيره (الثامن) قوله (تعالى أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أي لو عذبهم بمجودهم وشركهم لقالوا ذلك وهو سبحانه إنما يهلكهم لمخالفة رسله وتكذيبهم فلو أهلكهم بتقليد آبائهم في شركهم من غير إقامة الحجة عليهم بالرسول لأهلكهم بما فعل المبطلون أو أهلكهم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما كانوا عليه وقد أخبر سبحانه انه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، وإنما يهلكهم بعد الاعذار والانذار (التاسع) انه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه انه ربه وخالقه واحتج عليهم بهذا الاشهاد في غير موضع من كتابه كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله فإني يؤفكون) أي فكيف يصرفون عن التوحيد بعد هذا الاقرار منهم أن الله ربهم وخالقهم وهذا كثير في القرآن فهذه هي الحجة التي اشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله بقوله تعالى (أفي الله شك فاطر السموات والارض) فأن الله تعالى إنما ذكرهم على السنة رسله بهذا الاقرار والمعرفة ولم يذكرهم قط باقرار سابق على إيجادهم ولا أقام به عليهم حجة (العاشر) انه جعل هذا آية وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لدلولها بحيث لا يتخلف عنها المدلول وهذا شأن آيات الرب تعالى فانها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به فقال تعالى (وكذلك نفضل الآيات) أي مثل هذا التفصيل والتبيين نفضل الآيات (لعلمهم يرجعون) من الشرك الى التوحيد ومن الكفر الى الايمان وهذه الآيات التي فصلها هي التي بينها في كتابه من أنواع مخلوقاته وهي آيات أفقية ونفسية، آيات في نفوسهم وذواتهم وخلقهم وآيات في الاقطار والنواحي مما يحدثه الرب تبارك وتعالى مما يدل على وجوده ووحدانيته وصدق رسله وعلى المعاد والقيامة ومن آياتها ما أشهد به كل واحد على نفسه من انه

ربه وخالقه ومبدعه وانه مربوب مخلوق مصنوع حادث بعد ان لم يكن ، ومحال أن يكون حدث بلا محدث أو يكون هو المحدث لنفسه فلا بد له من موجد أوجده ليس كمثل شي . ، وهذا الاقرار والمشاهدة فطرة فطروا عليها ليست بمكتسبة وهذه الآية وهي قوله تعالى ( وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ) مطابقة لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » ولقوله تعالى ( فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيدين اليه ) ومن المفسرين من لم يذكر الا هذا القول فقط كالزنجشيري ومنهم من لم يذكر الا القول الأول فقط ومنهم من حكى القولين كابن الجوزي والواحدي والماوردي وغيرهم . قال الحسن بن يحيى الجرجاني : فان اعترض معترض في هذا الفصل بحديث يروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « ان الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ثم ردهم في ظهره » وقال ان هذا مانع من جواز التأويل الذي ذهب اليه لامتناع ردهم في الظهر ان كان أخذ الميثاق عليهم بعد البلوغ وتمام العقل . قيل له . إن معنى ثم ردهم في ظهره ثم يردهم في ظهره كما قلنا إن معنى أخذ ربك يأخذ ربك فيكون معناه ثم يردهم في ظهره بوقاتهم لانهم اذا ماتوا رداوا الى الارض للدفن وآدم خلق منها ورد فيها فاذا رداوا فيها فقد رداوا في آدم وفي ظهره إذ كان آدم خلق منها وفيها رد بعض الشيء من الشيء وفيما ذهبتم اليه من تأويل هذا الحديث على ظاهره تفاوت بينه وبين ما جاء به القرآن في هذا المعنى إلا أن يرد تأويله الى ما ذكرنا لانه عز وجل قال ( وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ) ولم يذكر آدم في القصة انما هو ههنا مضاف اليه لتعريف ذريته انهم اولاده وفي الحديث انه مسح ظهره فلا يمكن رد ما جاء في القرآن وما جاء في الحديث الى الاتفاق إلا بالتأويل الذي ذكرناه قال الجرجاني وأنا أقول : ونحن الى ماروي في الآية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما ذهب اليه أهل العلم من السلف الصالح أميل وله أقبل وبه آنس والله ولي التوفيق لما هو أولى وأهدى

على أن بعض أصحابنا من أهل السنة قد ذكر في إزد على هذا القائل معنى يحتمل ويسوغ في النظم الجاري ومجاز العربية بسهولة وإمكان من غير تعسف ولا استكراه وهو أن يكون قوله تعالى ( وإذ أخذ ربك من بني آدم ) مبتدأ خبره من الله عز وجل عما كان منه في أخذ العهد عليهم وإذ يقتضي جواباً يجعل جوابه قوله تعالى ( قالوا بلى ) وانقطع هذا الخبر بتمام قصته ثم ابتدأ عز وجل خبراً آخر بذكر ما يقوله المشركون يوم القيامة فقال : شهدنا يعني نشهد قل الخطيئة .

شهد الخطيئة حين يلقي ربه ان الوليد أحق بالعدر

بمعنى يشهد الخطيئة يقول تعالى نشهد انكم ستقولون يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أي عما هم فيه من الحساب والمناقشة والمؤاخذة بالكفر ، ثم أضاف إليه خبراً آخر فقال ( أو تقولوا ) بمعنى وأن تقولوا لأن أو بمعنى واو النسق مثل قوله تعالى ( ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ) فتأويله ونشهد أن تقولوا يوم القيامة ( إنما أشرك أبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ) أي أنهم أشركوا وحملوا على مذهبهم في الشرك في صبابنا فجرينا على مذاهبهم واقتدينا بهم فلا ذنب لنا إذ كنا مقتدين بهم ، والذنب في ذلك لهم ( قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ) يدل على ذلك قولهم ( أقتهلكننا بما فعل المبطلون ) أي حملهم إيانا على الشرك فتكون القصة الأولى خبراً عن جميع الخلقين بأخذ الميثاق عليهم . والقصة الثانية خبراً عما يقول المشركون يوم القيامة من الاعتذار ، وقال فيما ادعاه المخالف إنه تفاوت فيما بين الكتاب والخبر لاختلاف ألفاظها فيها قولاً يجب قبوله بالنظائر والعبر التي تأيد بها مخالفته فقال : إن الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله مسح ظهر آدم أفاد زيادة خبر كان في القصة التي ذكر الله تعالى في الكتاب بعضها ولم يذكر كلها ، ولو أخبر صلى الله عليه وسلم بسوى هذه الزيادة التي أخبر بها ، فما عسى أن يكون قد كان في ذلك الوقت الذي أخذ فيه العهد مما لم يضمه الله كتابه لما كان في ذلك خلاف ولا تفاوت ، بل كان زيادة في الفائدة وكذلك الألفاظ إذا اختلفت في ذاتها وكان مرجعها إلى أمر واحد لم يوجب ذلك تناقضاً كما قال عز وجل في كتابه في خلق آدم فذكر



مرة انه خلق من تراب ، ومرة انه خلق من حمأ مسنون ، ومرة من طين لازب ومرة من صلصال كالفخار . فهذه الالفاظ مختلفة ومعانيها أيضاً في الاحوال مختلفة لأن الصلصال غير الحماة ، والحماة غير التراب إلا أن مرجعها كلها في الأصل إلى جوهر واحد وهو التراب ومن التراب تدرجت هذا الاحوال فقوله سبحانه وتعالى ( واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ) وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذريته » معنى واحد في الأصل إلا أن قوله صلى الله عليه وسلم « مسح ظهر آدم » زيادة في الخبر عن الله عز وجل ومسحه عز وجل ظهر آدم واستخراج ذريته منه مسح لظهور ذريته واستخراج ذرياتهم من ظهورهم كما ذكر تعالى لانا قد علمنا أن جميع ذرية آدم لم يكونوا من صلبه ، لكن لما كان الطبقة الاول من صلبه ، ثم الثاني من صلب الأول ، ثم الثالث من صلب الثاني جاز أن ينسب ذلك كله إلى ظهر آدم لأنهم فرعه وهو أصلهم ، وكما جاز أن يكون ما ذكر الله عز وجل انه استخرجه من ظهور ذرية آدم من ظهر آدم جاز أن يكون ما ذكر صلى الله عليه وسلم انه استخرجه من ظهر آدم من ظهور ذريته إذ الأصل والفرع شيء واحد . وفيه أيضاً انه عز وجل لما أضاف الذرية إلى آدم في الخبر احتتمل أن يكون الخبر عن الذرية وعن آدم كما قال عز وجل ( فظلت أعناقهم لها خاضعين ) والخبر في الظاهر عن الأعناق والنعت للأسماء المكنية فيها وهو مضاف إليها كما كان آدم مضافاً إليه هناك ، وليس جميعاً بالتصودين في الظاهر بالخبر ، ولا يحتمل أن يكون قوله ( خاضعين للأعناق ) لأن وجه جمعها خاضعات ومنه قول الشاعر

وتشرق بالقول الذي قد أذعته \* كما شرقت صدر القناة من الدم

فالصدر مذكر وقوله شرقت أنت لإضافة الصدر إلى القناة

وَأَتَلُّ عَلَيْهِمْ تَبَأَ الذِّي ، أَتَيْنَهُ ، ابْتِنَا فَأَسْلَخَ مِنْهَا  
فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفِتَاوِينَ ( ١٧٥ ) وَلَوْ شِئْنَا  
لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ

الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون (١٧٦) ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون (١٧٧)

هذا مثل ضربه الله تعالى للكاذبين بآيات الله المنزلة على رسوله (ص) على ما أيدها به من الآيات العقلية والكونية ، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالماً بها حافظاً لقواعدها وأحكامها ، قادراً على بيانها والجدل بها ، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم ، بل كان عمله مخالفاً لعله تمام المخالفة ، فسلبها لأن العلم الذي لا يعمل به لا يلبث أن يزول فأشبهه الخية التي تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض ( ويسمى هذا الجلد المسلخ ) أو كان في التباين بين علمه وعمله كالمنسلخ من العلم التارك له كالثوب الخلق يلقى صاحبه والثعبان يتجرد من جلده حتى لا تبقى له به صلة على حد قول الشاعر :

خلقوا وما خلقوا المكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا  
رزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

فحاصل معنى المثل أن المكذبين بآيات الله تعالى المنزلة على رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه على إيضاها بالحجج والدلائل كالعالم الذي حرم ثمرة الانتفاع من علمه لأن كلاً منهما لم ينظر في الآيات نظر تأمل واعتبار وإخلاص وهالك تفسير الآيات بما يدل عليه نظمها العربي ، ويتلوه ماورد من الروايات فيها

ونظرة فيه ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ التلاوة القراءة والقاء الكلام الذي يعاد ويكرر للاعتبار به ، والضمير في عليهم للناس المخاطبين بالدعوة وأولهم كفار مكة . والسورة مكية ، وقيل لليهود لأن المثل تابع لقصة موسى في السورة ، والنبأ الخبر الذي له شأن ، وهذا الذي آتاه الله آياته من مبهات القرآن لم يبين الله ولا رسوله في حديث صحيح عنه اسمه ولا جنسه ولا وطنه لأن هذه الأشياء لا تدخل لها فيها أنزل الله تعالى الآيات لبيانها . وانسلاخه منها

نجرده وانسلاخه منها وتركه إياها بحيث لا يلتفت إليها لاهتداء ولا اعتبار ولا عمل والتعبير بالانسلاخ المستعمل عند العرب في خروج الحيات والثعابين أحياناً من جلودها يدل على أنه كان متمكناً منها ظاهراً إلا باطناً

﴿ فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ أي قترتب على انسلاخه منها باختياره ان لحقه الشيطان فأدركه وتمكن من الوسوسة له إذ لم يبق لديه من نور العلم والبصيرة ما يحول دون قبول وسوسته ، وأعقب ذلك أن صار من الغاوين أي الفاسدين المفسدين

﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ أي ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات إلى درجات الكمال والعرقان ، التي تقرن فيها العلوم بالأعمال ، ( يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) — لفعلنا بأن نخلق له الهداية خلقاً ، ونحمه له عليها طوعاً أو كرهاً ، فإن ذلك لا يعجزنا ، وإنما هو مخاف استننا ،

﴿ ولكنه أخذ إلى الأرض واتبع هواه ﴾ أي ولكنه اختار لنفسه التسفل المنافي لتلك الرفعة بأن أخذ ومال إلى الأرض وزينتها وجعل كل حظه من حياته التمتع بما فيها من اللذائذ الجسدية ، فلم يرفع إلى العالم العلوي رأساً ، ولم يوجه إلى الحياة الروحية الخالدة عزماً ، واتبع هواه في ذلك فلم يراع فيه الاهتداء بشيء مما آتيناها من آياتنا ، وقد مضت سنتنا في خلق نوع الانسان بان يكون مختاراً في عمله ، المستعد له في أصل فطرته ، ليكون الجزاء عليه بحسبه ، وأن نبثله ونمتحنه بما خلقنا في هذه الأرض من الزينة والمستلذات ( إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ) ونولي كل انسان منهم ما تولى ( من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً \* ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً \* كلا عد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً \* أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وا أكبر تفضيلاً )

وقد مضت سنتنا أيضاً بان اتبع الانسان لهواه بتحريره وتشبيهه ما تميل إليه نفسه في كل عمل من أعماله دون ما فيه المصلحة والفائدة له من حيث هو جسد

( وروح ) بضله عن سبيل الله الموصلة الى سعادة الدنيا والآخرة ، ويتعسف به في سبل الشيطان المرديّة المهلكة قال تعالى لخليفته داود عليه السلام ( ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ) وقال تعالى في أول ما أوحاه الى كليمه موسى عليه السلام بعد ذكر الساعة ( فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ) وقال جل جلاله لخاتم أنبيائه عليه صلواته وسلامه ( أفرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ ) والآيات في ذم الهوى والنهي عنه كثيرة وحسبك منها قوله ( ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن )

وحاصل معنى الشرط والاستدراك ان من شأن من أوتي آيات الله تعالى ان ترتقي نفسه ، وترتفع في مراقب الكمال درجته ، لما فيها من الهداية والارشاد والذكرى ، وإنما يكون ذلك لمن أخذ هذه الآيات وتلقاها بهذه النية ( وإنما لكل امرئ ما نوى ) وأما من لم ينبو ذلك ولم تتوجه اليه نفسه وإنما تلقى الآيات الالهية اتفاقا بغير قصد ، أو بنية كسب المال والجاه ، ووجد مع ذلك في نفسه ما يصرفه عن الاهتداء بها فلن يستفيد منها ، واسرع به أن ينسلخ منها ، فهو يقول لو شئنا لرفعناه بها لأنها في نفسها هدى ونور ، ولكن تعارض المقتضي والممانع وهو إخلاده الى الأرض واتباع هواه

قالوا فلان عالم فاضل فاكرموه مثلما يقتضي

فقات لما لم يكن عاملا تعارض الممانع والمقتضي

( فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ) اللهث بالفتح واللاهث بالضم التنفس الشديد مع اخراج اللسان ، ويكون لغير الكلب من شدة التعب والاعياء أو العطش ، وأما الكلب فيلهث في كل حال سواء أصابه ذلك أم لا ، وسواء حملت عليه تهدده بالضرب أم تركته وادعأ آمنا ، وهذا الرجل صفته كصفة الكلب في حاله هذه وهي أخس أحواله واقبحها ، والمراد والله أعلم انه كان من إخلاده الى الأرض واتباع هواه في أسوأ حال ، خلافا لما كان ينبغي من نعمة العيش وراحة البال ، فهو في هم دائم مما شأنه أن يهتم به ، وما شأنه أن لا يهتم به من صفات الأمور وخسائس الشهوات ، كدأب عباد الالهواء

وصغار المهمم ، تراهم كاللاهث من الأعمياء والتعب وان كان ما يعنون به ويحملون همه حقيراً لا يتعب ولا يعيي ولا ترى أحداً منهم راضياً بما أصابه من شهواته وأهوائه ، بل يزيد طمعا وتعباً كلما أصاب سعة وقضى أرباً فما قضى احد منها لباته ولا انتهى ارب الا الى ارب

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي ذلك الأمر البعيد الشأو في الغرابة هو مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من الجاحدين المستكبرين ، والمقلدين الجاهلين ، كذبوا لظنهم أن الإيمان بها يسلبهم ما يفخرون به من العزة والعظمة باتباعهم لغيرهم ، ويحط من قدر آبائهم وأجدادهم الذين قلدوهم في ضلالهم ، ويحول دون تمتعهم بما يشتهون من لذاتهم ، فلهذا الظن الباطل لم ينظروا في الآيات نظر تفكر واستقلال ، وتبصر واستدلال ، بل نظروا اليها - لافيها - من جهة واحدة وهي أن اتباعها يحط من أقدارهم ، ويعد اعترافاً بضلال سلفهم الذين يفخرون بهم ، ويحرمهم التمتع بمحظوظهم وأهوائهم

فكان مثلهم مثل الذي أوتي الآيات فانسلخ منها ، وذلك لا يعيب الآيات وإنما يعيب أهل الأهواء الذين حرّمهم سوء اختيارهم الانتفاع بها ، وكأين من انسان حرم الانتفاع بمواهبه الفطرية بعدم استعماله إياها فيما يرفعه درجات في العلم والعمل ، وكأي من انسان استعمل حواسه في الضر ، وعقله وذكاءه في

الشر ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ فاقصص القصص لعلهم

يتفكرون ﴾ أي فاقصص أيها الرسول قصص ذلك الرجل المشابهة حاله لحال هؤلاء المكذبين بما جئت به من الآيات البينات في مبدأ أمره وغايته ، ومعناه وصورته ، رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم وقبح مثلهم ، على التفكير والتأمل ، فاذا هم تفكروا في ذلك تفكروا في المخرج منه ، ونظروا في الآيات ، وما فيها من البينات ، بعين العقل والبصيرة ، لابعين الهوى والعداوة ، ولا طريق لهدايتهم غير هذه . والآية تدل على تعظيم شأن ضرب الامثال في تأثير الكلام وكونه أقوى من سوق الدلائل والحجج المجردة ، ويدل على تعظيم شأن التفكير ،

وكونه مبدأ العلم وطريق الحق ، ولذلك حث الله عليه في مواضع من كتابه وبين أن الآيات والدلائل إنما تساق إلى المتفكرين لأنهم هم الذين يعتقدونها وينتفعون بها

وقد تكرر قوله تعالى ( إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ) في عدة سور من القرآن. وقد قال تعالى ضارباً مثلاً للحياة الدنيا والغرور بها يناسب سياقنا هذا ( إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفاً وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ) وقد قال بعض علماء الغرب: إن الفارق الحقيقي بين الانسان المدينى، والانسان الوحشى هو التفكير اه فبقدر التفكير في آيات الله تعالى المنزلة على رسوله وآياته في النفس والآفاق ، وسننه وحكمه في البشر وسائر المخلوقات ، يكون ارتقاء الناس في العلوم والاعمال ، من دينية ودنيوية

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ أي ساء مثل أولئك القوم الذين كذبوا بآياتنا في الامثال ، وقبحت صفتهم في الصفات ، وما كانوا بما اختاروه لأنفسهم من الاعراض عن التفكير في الآيات ، ومن النظر اليها نظر العدو الشانيء يظلمون أحداً وإنما يظلمون أنفسهم وحدها بجرمانها من الاهتداء بها ، وبما يعقب ذلك من حرمان سعادة الدنيا والآخرة

هذا ما فهمته من معنى الآيات كتبته (بمكة المكرمة) وليس عندي شيء من كتب التفسير أستعين به على الفهم ، وكنت قرأت تفسيرها في بعض الكتب ولكن لم يبق منه في ذهني إلا تنازع الأشعرية والمعتزلة في تفسير ( ولو شئنا لرفعناه بها ) هل يدل على مشيئة الله تعالى لضلال الرجل أم لا ، ولا شك في أن الله يفعل ما يشاء ، وأن كل شيء يقع بمشيئته ، ولكن مشيئته تجري في العالم بمقتضى سننه وتقديره - وإلا ماورد في الروايات المأثورة من قصة الرجل الذي آتاه الله آياته فانسأخ منها ، وأن أكثرها على أنه من بني اسرائيل وأن اسمه ( بلعام ) واسم

أبيه ( باعورا ) وهذا مما تلقاه أولئك المفسرون من الاسرائيليات وصار ينقله بعضهم عن بعض لتقتهم بالراوى لكونه ممن اغتروا بصلاحيهم ككعب الاحبار ووهب بن منبه . وهالك خلاصة تلك الروايات : منقولة عن الدر المنثور للحافظ السيوطي

قال رحمه الله تعالى

قواه تعالى ( واطل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ) الآية أخرج الفريابي وعبد الرزاق وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود ( واطل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ) قال هو رجل من بني اسرائيل يقال له بلعم بن أبر ، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : هو بلعم بن باعوراء وفي لفظ بلعام بن عامر الذي أوتي الاسم كان في بني اسرائيل

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ( واطل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ) الآية ، قال : رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم تعلم اسم الله الاكبر ، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمه وقومه فقالوا : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وأنه ان يظهر علينا مهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال اني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه مضت دنياي وآخرتي فلم يزلوا به حتى دعا عليهم فسلخ مما كان فيه وفي قوله ( إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ) قال : ان حمل الحكمة لم يحملها ، وإن ترك لم يهتد لخير كالكلب ان كان رابضاً لهث وإن طرد لهث

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ( واطل عليهم نبأ الذي آتيناه ) الآية ، قال هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت اجعل لي منها واحدة ، قال : فلك واحدة فما الذي تريدن ؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني اسرائيل ، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني اسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت

عنه وأرادت شيئاً آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة ، فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا : ايس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها فدفع الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليه ، فدعا الله فعدت كما كانت ، فذهبت الدعوات الثلاث وسميت البسوس

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال ، هو رجل يدعى بلعم من أهل اليمن آتاه الله آياته فتركها ، وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو ( و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ) قال هو أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وفي لفظ نزلت في صاحبكم أمية بن أبي الصلت ، وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال : قدمت الفارعة أخت أمية بن أبي الصلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فقال لها « هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً » قالت نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يا فارعة ان مثل أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها »

وأخرج ابن عساكر عن ابن شهاب قال : قال أمية بن أبي الصلت

ألا رسول لنا منا يخبرنا \* ما بعد غايتنا من رأس نجرانا

قال : ثم خرج أمية إلى البحرين وتبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام أمية بالبحرين ثمانين سنين ، ثم قدم فلقني رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من أصحابه فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه بسم الله الرحمن الرحيم ( يس والقرآن الحكيم ) حتى فرغ منها ، وثب أمية يجر رجله فتبعته قريش تقول : مات قول يا أمية ؟ قال : أشهد انه على الحق ، قالوا فهل تتبعه ؟ قال : حتى انظر في أمره ، ثم خرج أمية إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بقتلي بدر ترك الاسلام ورجع إلى الطائف فمات بها ، قال ففيه أنزل الله ( و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها )

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن نافع ابن عاصم بن عروة بن مسعود قال : اني لفي حلقة فيها عبد الله بن عمرو فقرأ



رجل من القوم الآية التي في الاعراف ( و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ) فقال أتدرون من هو؟ فقال بعضهم هو صيفي بن الراهب ، وقال بعضهم هو بلعلم رجل من بني اسرائيل ، فقال لا ، فقالوا من هو ؟ قال أمية بن أبي الصلت وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الشعبي في هذه الآية ( و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ) قال : قال ابن عباس هو رجل من بني اسرائيل يقال له بلعم بن باعورا ، وكانت الانصار تقول هو ابن الراهب الذي بني له مسجد الشقاق ، وكانت ثقيف تقول هو أمية بن أبي الصلت . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو صيفي بن الراهب . وأخرج ابن جرير عن مجاهد في الآية قال : هو نبي في بني اسرائيل يعنى بلعم أوتي النبوة فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ( فانسلخ منها ) قال نزع منه العلم وفي قوله ( ولو شئنا لرفعناه بها ) قال لرفعه الله بعلمه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار قال : بعث نبي الله موسى بلعام بن باعورا إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله وكان محجاب الدعوة وكان من علماء بني اسرائيل فكان موسى يقدمه في الشدائد فأقطعه وأرضاه فترك دين موسى وتبع دينه فأنزل الله ( و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ) . وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب في قوله ( و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ) قال كان يعلم اسم الله الاعظم الذي اذا دعى به أجاب

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ( و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ) قال هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه (ولو شئنا لرفعناه بها) ، قال لو شئنا لرفعناه بإيتائه الهدى فلم يكن للشيطان عليه سبيل ، ولكن الله يبتلي من يشاء من عباده ، (ولكنه أخذ إلى الارض واتبع هواه) قال أبي أن يصحب الهدى فمثله (كمثل الكلب) الآية ، قال هذا مثل الكافر ميت الفؤاد كما أميت فؤاد الكلب وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم في قوله ( و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه

آياتنا فانسلخ منها ) قال أناس من اليهود والنصارى والحنفاء ممن أعطاهم الله من آياته وكتابه فانسلخ منها فجعله مثل الكتاب

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ( ولو شئنا لرفعناه بها ) قال لدفعنا عنه بها ، ولكنه أخذ إلى الارض ، قال سكن ( إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ) إن تطرده بدابتك ورجليك وهو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ( ولكنه أخذ إلى الارض ) قال ركن ، نزع . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ( إن تحمل عليه ) قال : إن تسمع عليه . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله إن تحمل عليه يلهث قال الكلب منقطع الفؤاد لافؤاده مثل الذي يترك الهدى ، لافؤاد له أما فؤاده منقطع كان ضالاً قبل أو بعد

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن المعتمر قال : سئل أبو المعتمر عن هذه الآية ( واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ) فحدث عن سيار أنه كان رجلاً يقال له بلعام وكان قد أوتي النبوة وكان مجاب الدعوة ، ثم إن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الارض التي فيها بلعام فرعب الناس منه رعباً شديداً فأثوا بلعام فقالوا : ادع الله على هذا الرجل ، قال حتى أوامر ربي فأمر في الدعاء عليهم فقيل له لا تدع عليهم ، فإن فيهم عبادي ، وفيهم نبيهم . فقال لقومه : قد أمرت في الدعاء عليهم وإني قد نهيت ، قال فأهدوا اليه هدية فقبلها ، ثم راجعوه فقالوا : ادع الله عليهم ، فقال حتى أوامر فأمر فلم يحار اليه شيء ، فقال قد أمرت فلم يحار إلي شيء ، فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الاولى فأخذ يدعو عليهم فاذا دعا جرى على لسانه الدعاء على قومه ، فاذا أرسل أن يفتح على قومه جرى على لسانه أن يفتح على موسى وجيشه فقالوا ماتراك إلا تدعو علينا قال : ما يجري على لساني الا هكذا ، ولو دعوت عليهم ما استجيب لي ، ولكن سأدكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاككم ان الله يفيض الزنا ، وإن هم وقعوا بالزنا هلكوا فأخرجوا النساء فانهم قوم مسافرون فعسى أن يزونا فيهلكوا

فأخرجوا النساء تستقبلهم فوقعوا بالزنا فسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً . وأخرج أبو الشيخ عن معبد بن جبير في قوله ( وائل عليهم نبا الذي آتناه آياتنا فانسلخ منها ) قال : كان اسمه بلعام وكان يحسن اسما من أسماء الله فغزاهم موسى في سبعين ألفاً فجاهه قومه ، فقالوا : ادع الله عليهم ، وكانوا إذا غزاهم أحد أتوه فدعا عليهم فهلكوا ، وكان لا يدعو حتى ينام فينظر ما يؤمر به في منامه فنام ، فقيل له ادع الله لهم ولا تدع عليهم ، فاستيقظ فأبى أن يدعو عليهم ، فقال لهم ذينوا لهم النساء فانهم إذا رأوهن لم يصبروا حتى يصيبوا من الذنوب فتدالوا عليهم اه ذلك ما لخصه السيوطي عن رواية التفسير المأثور ، وكله مما انخدع به بعض الصحابة والتابعين من الاسرائيليات ان صحت الروايات عنهم ، وبعضها قوي السند . وقد أورد الحافظ ابن عساكر في تاريخه جل هذه الروايات وزاد عليها وانتقد بعضها وذكّر ان من رواها كعب الاحبار ووهب بن منبه ومما عزاه إلى رواية وهب وفيه مخالفة لغيره ان قصة بلعام كانت في قتال فرعون من الفراعنة لأمة موسى بعد وقته وان بلعام من أنبياء بني اسرائيل ، وذكّر عنه رواية أخرى وقال بعد سياق طويل للقصة لا حاجة إلى نقله ما نصه :

« وحكيّت هذه القصة عن كعب وفيها ان معسكر موسى عليه السلام كان بأرض كنعان من الشام بين أريحا وبين الأردن وجبل البلقاء واليه فيما بين هذه الموضع ، ثم ساق القصة على نمط ما تقدم إلا ان فيها بدل « اندلع اسانه » وجاءت لهامة فأخذت بصره فعمي .

« وحكي عن وهب انه قال ان بلعام أخذ أسيراً فأتي به الى موسى فقتله (قال) وهكذا كانت سننهم أنهم يقتلون الاسرى ( قال ) فقوله تعالى ( فانسلخ منها ) يقول الاسم الاعظم الذي أعطاه الله عز وجل إياه .

وروى محمد بن اسحق عن الزهري عن سعيد بن المسيب ان رسول الله (ص) قال « كان مثل بلعام بن باعورا في بني اسرائيل كمثل أمية بن أبي الصلت في هذه الامة » (قال ابن عساكر) قلت والحديث موقوف على ابن المسيب ، فنأمل (??) (قال) « وأقول في الاصحاح الثاني والعشرين من سفر العدد من التوراة ذكر بلعام

وقصته مطولة وهي أشبه برواية وهب غير ان الذين دونوا التوراة الموجودة اليوم برؤا بلعام فقالوا انه ذهب الى منزله ولم يدع على بني اسرائيل ولم يصبه شيء ، فان كانت الآيات نزلت في حكاية بلعام فيكون القرآن قد أظهر ما كتبه التوراتيون وأظهر ماخبأوه ويكون هذا من جملة المعجزات الدالة على ان القرآن من عند الله تعالى وان كانت في غيره فالله أعلم بمن نزلت . على ان الصحيح ان الآيات شاملة لكل من كانت هذه صفته من كل من آتاه الله الآيات التي هي الحجج التي جاء بها الانبياء ثم انه انسلخ منها — الى أن قال — والصواب في تفسير هذه الآية انه لا يخص منه شيء إذا كان لا دلالة على خصوصه من خبر ولا عقل « اه المراد من كلام ابن عساكر

أقول ان هذا الحافظ كان مطلعاً على التوراة التي في أيدي أهل الكتاب وهي عين التي بين أيدينا منها إلا ما في اختلاف الترجمات القديمة والحديثة من الفروق وهي وان كان فيها اختلاف في المعاني فلن يصل الى الحد الذي في روايات وهب وكعب وغيرهما من رواة الاسرائيليات الكاذبة . وابن عساكر يرجح قول وهب على ما في التوراة لأنه ثقة عنده في الرواية ويعده روايته دليلاً على معجزة للقرآن ، ولو ذكر القرآن ان الرجل الذي آتاه الله آياته هو بلعام هذا أو لو صح هذا في خبر مسند متصل عن النبي (ص) لكان صحيحاً ، ولكن يجب أن نعلم من أين جاء وهب بهذه القصة وهو لم يكن الا روائياً لما عند أهل الكتاب وما قاله مخالف لما عندهم ؟

وقصة بلعام مفصلة في الفصول ٢٢ — ٢٤ من سفر العدد وفيها أنها وقعت في « عربات موآب من عبر أردن أريحا » من أرض مدين كما تقول ( أو مديان كما يقولون ) وان بالاق بن صفور ( بكسر الصاد المهملة وتشديد الفاء ) ملك الموآبيين طلب من بلعام بن بعور أن يلعن بني اسرائيل لينصره الله عليهم ووعدته بمال كثير فأوحى الله الى بلعام أن لا يفعل فلم يفعل ،

وفي قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست ان بلعام هذا من قرية فتور من بين النهرين قال « وكان نبيا مشهوراً في جيله والظاهر انه كان موحداً يعبد

الله (!!) وليس ذلك بعجيب لانه من وطن ابراهيم الخليل حيث يظن ان جرثومة تلك العبادة كانت لم تزل معروفة عند أهل تلك البلاد ما بين النهرين في أيام ذلك الرجل ، وقد ذاع صيت هذا النبي بين أهل ذلك الزمان فعلا شأنه وصارت الناس تقصده من جميع أنحاء البلاد ليتنبأ لهم عن أمور مختصة بهم أو ليباركهم ويبارك مقتنياتهم وما أشبهه « ثم ذكر حكاية ملك موآب معه ، فعلى ذلك يكون بلعام عراقياً لا اسرائيلياً ولا موآبياً

وذكر البستاني في دائرة المعارف العربية ملخص قصة بلعام ثم قال: وبعض مفسري الكتاب المقدس المدققين ذهب الى ان قصة بلعام المدرجة في سفر العدد من الاصحاح ٢٢ — ٢٤ دخيلة الخ فتأمل

وجملة القول أن هذه الروايات الاسرائيلية لا يعتد بشيء منها ، ولا قيمة لأسانيد هالان من ينتهي اليه السند قد اغتر ببعض ملفقي الاسرائيليات حياء ، وقد رأينا شيخ المفسرين ابن جرير لم يعتد بها . ونرجو — وقد راجعنا أشهر مالدينامن كتب التفسير — أن يكون ما بيننا به معنى الآيات أصحها وأكبرها فائدة

وأكبر وجوه العبرة فيها مانراه من حال علماء الدنيا اللابسين لباس علماء الدين الذين هم أظهر مظاهر المثل في الانسلاخ من آيات الله والاخلاد الى الارض واتباع أهوائهم وتفانيهم في إرضاء الحكام وان كانوا امرتدين ، والعوام وان كانوا مبتدعة خرافيين ، وهم فتنة للنابتة العصرية تصدهم عن الاسلام ، وللعوام في الثبات على الخرافات والاهام ، ومنها عبادة القبور بدعاء موتاهها فيما لا يطلب الامن الله تعالى والطواف بها والنذر لها وغير ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

(١٧٨) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضَلِّمْ فَأُوَّاءِكُمْ هُمُ

الْخَيْرُونَ (١٧٩) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ

لَا يَسْمَعُونَ بِهَا . أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ السَّافِلُونَ

هاتان الآيتان مقررتان لمضمون المثل في الآيات قبلها ، وهو أن أسباب الهدى والضلال إنما ينتهي كل نوع منها بالمرء المستعد إلى كل من الغائتين؛ والعرضة لسلك كل من النجدين ، بتقدير الله والسير على سننه في استعمال مواهبه وهداياته الفطرية من العقل والحواس في أحد السبيلين ، (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) وقد أجمل تعالى هذا المعنى في الآية الأولى وفصله في الثانية بإيجاز بديع فقال ﴿من يهد الله فهو المهتدي﴾ أي من يوفقه الله سبحانه وتعالى لسلك سبيل الهدى باستعمال عقله وحواسه بمقتضى سنة الفطرة وإرشاد الدين فهو المهتدي

الشاكر لنعمه تعالى الفائز بسعادة الدنيا والآخرة ﴿ومن يضال فأولئك هم الخاسرون﴾ أي ومن يخذله بالحرمان من هذا التوفيق فيتبع هواه وشيطانه في ترك استعمال عقله وحواسه في فقه آياته تعالى وشكر نعمه فهو الضال الكفور الخاسر لسعادة الدنيا والآخرة — لأنه يخسر بذلك مواهب نفسه التي كان بها إنساناً مستعداً لسعادة فتوته هذه السعادة فواتاً إضافياً في الدنيا وحقيقياً في الآخرة

وفي الآية من محاسن البديع الاحتباك وهو حذف الفوز والملاح من الجملة الأولى للعلم به من إثبات نظيره ومقابله وهو الخسران في الجملة الثانية، وحذف الضال من الجملة الثانية لإثبات مقابله وهو المهتدي في الجملة الأولى . وأفرد المهتدي في الأولى مراعاة للفظ (من) وجمع الخاسرين في الثانية مراعاة لمعناها فإنها من صيغ العموم . وحكمة أفراد الأول الإشارة به إلى أن الحق المراد من الهداية الإلهية نوع واحد وهو الإيمان المثمر للعمل الصالح وحكمة جمع الثاني الإشارة إلى تعدد أنواع الضلال كما تقدم بيانه مفصلاً في تفسير قوله تعالى من سورة الانعام (٦: ١٥٣) وأن هذا صراط مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله (

« تفسير القرآن الحكيم » « ٥٣ » « الجزء التاسع »

وتفسير قوله تعالى من سورة البقرة (٢: ٢٥٧) الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ( الآية (١) )

ثم فصل تعالى ما في هذه الآية من الاجمال بقوله ﴿ ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾

(الذرة) فسروه بالخلق ، وذرأنا خلقنا كما قال ابن عباس وغيره وهو تفسير مراد ولكل مادة معنى خاص وقد تقدم معنى مادة خلق وسنعيده. وقال الراغب: الذرة اظهار الله تعالى ما أبدأه يقال ذرأ الله الخلق أي أوجد أشخاصهم وذكر هذه الآية وغيرها وقال: وقرئ: تذرؤه الرياح. وفي اللسان بعد تفسير الذرة بالخلق والاستشهاد بالآية: وقال عز وجل ( خلق لكم من أنفسكم أزواجا ومن الانعام أزواجا يندركم فيه ) قال أبو اسحاق: المعنى يندركم به أي يكثركم بجعله منكم ومن الانعام أزواجا .. ثم قال « أعود بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذرأ وبرأ » وكان الذرة مختص بخلق الذرية. وفي حديث عمر (رض) كتب الى خالد: واني لأظنكم آل المغيرة ذرة النار — يعني خلقها الذين خلقوا لها ، وبروى ذرو النار، يعني الذين يفرقون فيها، من ذرت الريح التراب اذا فرقته اه المراد منه . وفي الاساس: ذرأنا الارض وذروناها ، وذرأ الله الخلق وبرأ الخ فاذا تأملت مع هذه الاقوال استعمال القرآن لهذا الحرف في النبات والحيوان والانس خاصة علمت ان الذرة في اصل اللغة بمعنى بث الاشياء وبذرها وتفريقها وتكثيرها وان اسنادها الى الله تعالى بمعنى خلق ذلك أي ايجاده ، كما ان أصل معنى الخلق التقدير ويسند إلى الله تعالى بمعنى ايجاد الاشياء بتقدير ونظام لا جزافا ، ولهذا عطف الذرة والبرء على الخلق في حديث الدعاء المتقدم

( والجن ) الاحياء العاقلة المكافئة الخفية غير المدركة بحواس البشر ، ولعل تقديمهم هنا في الذكر على الانس أنهم اكثر أهل جهنم لانهم أجدر وأعرق في الصفات الآتية التي هي سبب استحقاقها ، وكون خلق أصل نوعهم وأوله من

(١) آية الانعام في ص ١٩٤ ج ٨ تفسير وآية البقرة ص ٤٠ ج ٣

ما رج من نار لا يقتضي عدم تألمهم من النار كما قد يتوهم ، فان بين حقيقة نوع البشر وحقيقة الطين الذي خلق أبوهم منه بونا عظيما يقاس عليه الجن ( والقلوب ) جمع قلب وهو يطلق في اللغة العربية على المضغفة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من جسد الانسان اذا كان موضوع الكلام جسد الانسان ويطلق عند الكلام في نفس الانسان وإدراكه وعلمه وشعوره وتأثير ذلك في أعماله على الصفة النفسية واللطيفة الروحية التي هي محل الحكم في انواع المدركات ، والشعور الوجداني المؤلمات والملازمات ، أعني أنه يطلق بمعنى العقل وبمعنى الوجدان الروحي ، الذي يعبر عنه في عرف هذا العصر بالضمير وهو تعبير صحيح . واشتقاق العقل من عقل البعير لمنعه من السير ، وفي معنى القلب اللب الذي هو جوهر الشيء ، ويكثر في التنزيل . ومنه النية وجمعها نهى ومنه قوله تعالى في سورة طه ( ٢٠ : ١٢٨ ) ان في ذلك لآيات لأولي النهى )

ومن استعماله في معنى العقل قوله تعالى في سورة الحج ( ٢٢ : ٤٦ ) أنتم يسبروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعى الابصار ولكن تعى القلوب التي في الصدور ) وهي بمعنى الآية التي نفسها وحذف منها — أو أعين يبصرون بها - استغناء عنه بدلالة ما بعده عليه ، والآيات المبصرة بالأعين في السياحة في الارض أكثر من المسموعة ، ومن استعماله في معنى الوجدان النفسي قوله تعالى في سورة الزمر ( ٣٩ : ٤٥ ) واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ) وقوله في سورة آل عمران والانفال ( ٣ : ٥١ ) و ٨ : ١٢ سألتني في قلوب الذين كفروا الرعب ) وقوله في النازعات ( ٧٩ : ٨ ) قلوب يومئذ واجفة ) فالاشمزاز والرعب والوجيف شعور وجداني ، لا حكم عقلي ، وقد يستعمل في المعنيين معاً والاقرب ان منه فقه القلوب هنا فان الفقه لا يحصل الا بنوع من الادراك يصحبه وجدان يبعث على العمل كما يعلم مما نذكره في تحقيق معناه وقد يتعارض مقتضى العقل والوجدان كوجدان اللذة والالم والحب والبغض التي تحمل على أعمال مخالفة لحكم العقل في المنافع والمضار وسبب استعمال القلب بمعنى الوجدان الحسي والمعنوي وهو الضمير ما يشعر



به المرء من انقباض أو انشراح عند الخوف والاشمئزاز أو السرور والابتهاج ،  
ولذلك قال النبي ( ص ) لو ابصت حين جاء يسأله عن البر والاثم وقد علم ( ص )  
ذلك قبل السؤال « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب  
والاثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » رواه الامام  
أحمد والدارمي باسناد حسن ومسلم مختصراً . ثم توسعوا في استعماله فاستعملوه  
بمعنى الادراك العقلي المؤثر في النفس لامطلق التصور والتصديق . فهو لا ينافي كون  
مركزها الدماغ ، على ان الاستعمالات اللغوية ، لا يجب أن توافق الحقائق العلمية ،  
( والفقه ) قد فسروه بالعلم بالشيء ، والفهم له - وكذا بالفظنة كما في جل  
المعاجم أو كلها ، وقالوا فقه ( كعلم وفهم وزنا ومعنى ) وقالوا فقه ( ككرم وضخم )  
فقاهاة أي صار الفقه وصفاً وسجية له ، وقال الراغب الفقه هو التوصل بعلم شاهد  
إلى علم غائب . قال السيوطي بعد نقله فهو أخص من العلم .

وقال ابن الأثير في النهاية إن اشتقاقه من الشق والفتح . أي هذا معناه  
الأصلي فهو كالفقء ، بالهمزة وهي تتعاقب مع الماء لاتحاد مخرجهما ، وذكر الحكيم  
الترمذي هذا واستدل به على أن الفقه بالشيء ، هو معرفة باطنه والوصول إلى  
اعماقه ، فمن لا يعرف من الأمور الا ظواهرها لا يسمى فقيهاً . وذكر أصحاب  
المعاجم أن اسم الفقه غلب على علم فروع الشريعة ، أي من العبادات والمعاملات  
وهو اصطلاح حادث لا يفسر به ماورد في الكتاب والسنة من هذه المادة والتحقيق  
أنهم لم يكونوا يسمون كل من يعرف هذه الفروع فقيهاً كما ترى من عبارة الغزالي  
الآتية ولغيره ما هو أوضح منها ، فقد اشترطوا فيه معرفتها بدلائلها .

وذكر الغزالي في ( بيان ما يبدل من ألفاظ العلوم ) أن لفظ الفقه تصرفوا  
فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى  
والوقوف على دقائق علمها ... ( قال ) ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على  
علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال ، وقوة  
الاحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع الى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب  
ويدلك عليه قوله تعالى ( ليمتقنوا في الدين واينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ) وما يحصل

به الانذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعناق واللعان والسلم والاجارة ، فذلك لا يحصل به انذار ولا تخويف ، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الحشية منه ، كما نشاهد الآن من التجردين له . وقال تعالى ( لهم قلوب لا يفقهون بها ) وأراد به معاني الايمان دون الفتوى اه وروى عن أبي حنيفة تفسيره بمعرفة النفس مالها وما عليها

وأقول ذكرت هذه المادة في عشرين موضعاً من القرآن تسعة عشر منها تدل على أن المراد به نوع خاص من دقة الفهم ، والتعمق في العلم ، الذي يترتب عليه الانتفاع به ، وأظهره نبي الفقه عن الكفار والمنافقين ، لأنهم لم يدركوا كنهه المراد مما نفي فقهه عنهم ، فقالتهم المنفعة من الفهم الدقيق والعلم المتمكن من النفس ومنه قول قوم نوح لتبئهم ( ما نفقه كثيراً مما تقول ) وان ترادى لغير الفقيه أنه ليس منه ، فانهم كانوا يفهمون كل ما يقول فهما سطحياً ساذجاً لأنه يكلمهم بلغتهم ، ولكن لم يكونوا يبلغون ما في أعماق بعض الحكم والمواعظ من الغايات البعيدة لعدم تصديقهم اياه ، وعدم احترامهم له ، ولأنه مخالف لتقاليدهم وأهوائهم الصادقة لم عن التفكير فيه والاعتبار به . وأما الموضع العشرون فهو قوله تعالى حكاية عن نبيه موسى ( واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ) وهو لا ينافي ما ذكر لان فصاحة لسان الداعية الى الدين والواعظ المنذر تعين على تدبر ما يقول وفقهه

اذا تمهد هذا فقوله تعالى ( ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ) معناه تقسم أننا قد خلقنا وبنشنا في العالم كثيراً من الجن والانس لأجل سكنى جهنم والمقام فيها ، أي كما ذرأنا للجنة مثل ذلك ، وهو مقتضى استعداد الفريقين ( فمنهم شقي وسعيد \* فريق في الجنة وفريق في السعير ) وبماذا كان هؤلاء معدين لجهنم دون الجنة وما صفاتهم المؤهلة لذلك ؟

( الجواب ) : ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها الخ أي لا يفقهون بقلوبهم ما تصلح وتنزكي به أنفسهم من توحيد الله المظهر لها من الخرافات والاهام ، ومن المهانة والصغار ، فان من يعبد الله تعالى وحده عن ايمان ومعرفة تعلق نفسه ، وتسمو بمعرفة ربه رب

العالمين ، ومدبر الكون بتقديره وسننه ، فلا تذلل نفسه بدعاء غيره ، والخوف منه ، والرجاء فيه ، والاتكال عليه ، بل يطلب كل ما يحتاج اليه من ربه وحده ، فان كان مما أقدر الله تعالى عليه خلقه باعلامهم باسبابه وتمكينهم منها طلبه بسببه ، مراعيًا في طلبه ماعلمه من مقادير الخلق وسننه ، وذلك عين الطلب من الله تعالى ولا سيما في نظر العالم بما ذكر ، وان لم يكن كذلك توجه الى الله وحده لهدايته إلى العلم بما لا يعلم من سببه ، واقداره على ما لا يقدر عليه من وسائله ، أو تسخير من شاء من خلقه لمساعدته عليه ، أو إيصاله اليه ، ممن أعطاهم من أسبابه ما لم يعطه ، كالاطباء لمداواة الامراض ، وأقوياء الابدان لرفع الاثقال ، والعلماء الراسخين لبيان الحقيقة وحل الاشكال ، ولا يتوجه مثل هذا العارف الموحد في طلب شيء الى غير ما يعرف البشر من الاسباب المطردة ، والوسائل المعقولة المجربة ، كالتقى والنشرات ، والتنجيس والطسمات ، والعزائم والتبخيرات (١) ولا كرامات الصالحين من الأحياء والاموات ، دع التقرب اليهم بما يعدمن العبادات ، كالدعاء الذي هو

(١) الرقي بالضم جمع رقية ( كعرف جمع غرفة ) وهي ما يقرأ على المددوغ أو المريض ليبرأ أو يخف ألمه ، ومنه ما يفيد ولا سيما أصحاب الامزجة العصبية الذين يؤثرون فيهم الوهم والاعتقاد وهي جائزة اذلك إذا كان المقروه حقا كالقرآن وذكر الله ومحرمه اذا كان فيه شيء منكر أو مجهول. ولما كان الانتفاع بالرقية غير مطرد جعل النبي (ص) الاسترقاء ما نما من دخول الجنة بغير حساب ومنايا للتوكل على الله تعالى ، بخلاف التداوي. والنشرة ما يكتب للمريض ويحرق او يشرب ماؤه بعد أن يذاب ليشفى وقد حرّمها الفقهاء بالمجهول والتنجيس ما يعلق على الاطفال وغيرهم من عظم وخرز وغير ذلك لمنع تأثير المين وإلزام الشياطين ، والطاسمات جمع طلسم بكسر الطاء وتشديد اللام والاشهر بفتح فكسر وجمه طلسم وهو خرافة يكتبون لها أرقاما في أشكال هندسية للتأثير الخارق للمادة . والعزائم أقسام يقسم بها على الجن لتخرج من المصروع أو لتحمل على عمل آخر ويحرقون في أثناء تلاوتها البخور ، وكل هذا من أعمال السحر القديمة خاط بها سحرة المسلمين ومشعوذهم أساء الله تعالى . قال ابن حجر الهيتمي بعد الجزم بتحريم العزائم المقروءة والمكتوبة ان كان فيها اسم لا يعرف معناه. وكذلك الرقية قال مانصه : وما عدا ذلك من التبخيرات والتدخينات ونحوها مما اعتاد السحرة الفجرة — الحرام الصرف بل الكبيرة بل الكفر بتفصيله المشهور عندنا ، ومطلقا عند مالك وغيره اه

مع العبادة والركن الاعظم فيها كما ورد في الحديث والله تعالى يقول ( فلا تدعوا مع الله أحدا - ويقول - بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إن شاء وتسنون ما تشركون ) ويقول ( إنا - اذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين - ويقول - اتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه - ويقول - فلا تخشوهم واخشوني ) الخ ويقول ( وعلى الله فتواكوا - ويقول - وعلى الله فليتوكل المتوكلون ) ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها أن ترك الشرور والمنكرات، والحرص على أعمال الخيرات ، وان شئت فقل - واجتناب الرذائل ، والتجلي بالمفضائل - مناط سعادة الدنيا ، وبها مع الايمان بالله واليوم الآخر يتم الاستعداد لسعادة الآخرة ، وأنها لا يمكن أخذ الناس بها فعلا وتركها ، وسراً وجهاً ، الا بالترقية الدينية الصحيحة ، ولذلك نرى أعلمهم بصفات النفس البشرية وأخلاقها ، وقوانين التربية الصورية وآدابها ، يجنون على أجسادهم وأنفسهم بالاسراف في الشهوات ، والاحتيال على كثرة المقتنيات ، والتعالي على الاقران واللذات ، فيجترحون فواحش الزنا واللواط ، ويقترفون جرمي الرشوة والقمار ، ويستحلون منكرات الحسد والاستكبار ، ومنهم أكثر الخونة أعوان الاجانب على استعباد أمتهم ، وامتلاك أوطانهم ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها معنى الحياة الروحية ، واللذات المعنوية ، والسعادة الابدية ، ( يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ) ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها معنى الآيات الالهية في الانفس والافاق ، ولا آياته التي يؤيد بها رسله من علميات وكونيات ، وأظهر آياته العلمية الباقية الى آخر الزمان ، ما أودعه منها في كتابه القرآن المنزل على رسوله الامي (ص) كالعلوم الالهية والتشريعية والادبية والاجتماعية ، وأخبار الغيب الماضية والآتية ، فهم ينظرون في ظواهر هذه الآيات ، ويتكافون لها غرائب التأويلات ، ولذلك قال تعالى في موضوع الآيات ( ٦ : ٦٦ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض . أنظر كيف نصرف الآيات عليهم يفقهون )<sup>(١)</sup> وقال ( ٦ : ٩٨ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد

(١) راجع تفسيرها في ص ٤٩٠ ج ٧ تفسير وتطبيقها على خالهم في الحرب العظمى

فصلنا الآيات لقوم يفقهون) وقال في عدم فقههم للقرآن (٦ : ٢٦) ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا . وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الاولين) وهذه الآية جمعت حرمانهم لهداية القلوب والاسماع والابصار فهي شاهد لكل ما جاء في الآية التي نحن بصدد تفسيرها ، ومثلها في سورتى الاسراء (١٧ : ٤٥ و ٤٦) والكهف (١٨ : ٥٥) ولكن الشاهد فيهما على نبي هداية القلوب والاسماع فقط إذ هو المناسب للموضوع

ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها أسباب النصر على الاعداء من روحية وعقلية ، واجتماعية وآلية ، التي نصر الله بها المؤمنين على الكافرين في عهد الرسول (ص) ثم في عهد الخلفاء الراشدين والمدنيين في الاسلام ، وجعل العشرة منهم أهلا لغلب المائة في طور القوة ، والمائة أهلا لغلب المائتين في طور الضعف ، وعال ذلك بأن الكفار قوم لا يفقهون ( الانفال ٨ : ٦٦ ) وقال في سورة الحشر (٥٩ : ١٣) لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) فمن آيات الدين في المؤمن أن يكون أفقه من الكافر بنظم الحرب وأسباب النصر الصورية والمعنوية وأكل اتصافاتها، وتمتعاً بشمرها. فأين هذا الايمان ، من مسلمي هذا الزمان ؟ ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها سنن الله تعالى في الاجتماع ، وتأثير العقائد الدينية في جمع الكلمة وقوة الجماعات ، ولا سيما في عهد النبوة وزمن المعجزات ، ولا يفقهون بها إدالة الله لاهل الحق من أهل الباطل ، بل يحكون في ذلك بما يبدو لعقولهم القاصرة من الظواهر ، دون ما وراءها من الفقه الباطن ، كما حكاه الله تعالى عن المنافقين في آخر سورة التوبة من كونهم لا يزدادون بنزول سور القرآن إلا رجساً أي خبثاً ونفاقاً ، وكونهم يفتنون ويمتحنون مراراً ، ولا يفيدهم ذلك توبة ولا ادكاراً ، حتى اذا ما أنزلت سورة فروا من سماعها فراراً ، لا يخافون أن يراهم الله ولكن يخافون أن يراهم المؤمنون ( واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) وما حكاه تعالى عنهم في سورتهم من قصر نظرهم وظلمة بصيرتهم إذ توهموا

أنهم يقنعون المؤمنين من الانصار بترك الانفاق على اخوانهم المهاجرين ، وأن ذلك كاف في انفضاضهم من حول الرسول (ص) (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . والله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون ) أي لا يفقهون سر كفاية الله تعالى رسوله والمؤمنين وكفالتهم لهم ، ولا يفقهون أن سبب انفاق الانصار الابرار رضوان الله تعالى عليهم هو الايمان الصادق الذي هو أقوى البواعث على بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى ابتغاء مرضاته فلا يؤثر فيه قولهم : لا تنفقوا على من عند رسول الله — إلا احتقارهم لهم على نفاقهم ، وثباتهم هم على إنفاقهم ، — لا يفقهون هذا ولا ذلك لأنهم محرومون من وجدان الايمان ، وايتار ما عند الله تعالى على جميع ما في هذه الدار الفانية من متاع .

وجملة القول أن نفي الفقاهاة عن قلوب المخلوقين لجهنم يشمل كل ما ذكرنا وما في معناه من أمور الدين وأمور الدنيا من حيث علاقتها بالدين وتكميل النفس . ومن العبرة فيه أن الذين يدعون الايمان في هذا الزمان لهم قلوب لا يفقهون بها ما ذكر ، ولا يعلمون ان من فقهه فهو المخلوق للعنة كما يؤخذ من الحكم على أن من لم يفقهه مخلوق لجهنم ، بل صار كثير ممن لا يوصفون بايمان ولا اسلام يفقهون من سنن الله تعالى المشار إلى بعضها في القرآن مالا يفهمون كاسباب النصر في الحرب ولذلك نراهم ينصرون فيها على هؤلاء . والله تعالى يقول المؤمنين ( ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ) ويقول فيهم ( وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ) وليس المعنى أنه ينصروهم بخوارق العادات ، بل أنهم بمقتضى الايمان هم الذين يفقهون أسباب النصر المادية والمعنوية ، وفقاهاة الأمر تقتضي العمل بموجبه ، والآيات حجة على المسلمين الجغرافيين بأنهم غير مؤمنين ، وأن لدى أعدائهم من العلم واخلاق الايمان أكثر مما عندهم ، وإن لم يبلغوا بها مرتبة الايمان الاسلامي الكامل . ثم إنهم بعد ذلك يعدون جهلهم وخذلانهم حجة على الاسلام ، ويزعمون أنه هو سبب حرمانهم النصر والترقي في معارج العمران ، — ( ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ) حقيقة « تفسير القرآن الحكيم » « ٥٤ » « الجزء التاسع »

الاسلام ، ولا يدرون ما الكتاب وما الايمان ، فالقرآن حجة عليهم وهم أجهل وأضل من أن يكونوا حجة على القرآن .

وقوله تعالى ( لهم قلوب لا يفقهون بها ) أبلغ من أن يقال : ليس لهم قلوب يفقهون بها . لأن اثبات خلق القلوب لهم ، هو موضع قيام الحجة عليهم ، والتعبير الآخر يصدق بأمرين : بعدم وجود القلوب لهم بالمرّة ، وبوجود قلوب لا يفقهون بها ، وفي الحالة الأولى لا تقوم عليهم حجة لانهم لم يؤتوا آلة التكليف وهو العقل والوجدان . فلا تكون العبارة نصاً في قيام الحجة لاحتمالها عدم التكليف . وإنما قال ( لا يفقهون بها ) ولم يقل « لا تفقه » لبيان أنهم هم المؤاخذون بعدم توجيه إرادتهم لفقه الامور واكتناه الحقائق ، ويقال مثل هذا وما قبله فيما بعد وهو :

﴿ ولم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ ومعنى الجملتين يفهم اجمالاً مما فسرنا به فقه القلوب تفصيلاً ، أي ولهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكير فيما يرون من آيات الله في خلقه ، وفيما يسمعون من آيات الله المنزلة على رسله ، ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه تعالى في خلقه ، فيمتدوا بكل منها إلى ما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم . وأما التفصيل فيؤخذ من آيات القرآن الكثيرة المرشدة إلى النظر في آياته تعالى في النفس والآفاق وفي تدبر القرآن ، وكذا الاستفادة مما يروى ويؤثر من تاريخ البشر ، فإن الآذان قد خلقت للانسان ليستفيد من كل ما يسمع ، لامن القرآن فقط ، كما أن الابصار خلقت له ليستفيد من كل ما يبصر ، وإنما يكون ذلك على كاله بتوجيه ارادته إلى استعمال كل منها فيما خلق له . قال تعالى في آخر سورة ألم السجدة ( أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ؟ إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ؟ \* أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الارض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ) فهذان مثلان للآيات البصرية والسمعية وأمثالها كثير ، ولكن أكثر الذين يسمون أنفسهم أهل القرآن لا يفقهون شيئاً منها ، وليس الفقه عندهم الا تقليد علماء فروع الاحكام العملية فيما كتبوه منها ، وقد يكون في حكايتها دون العمل بها ، ! !

وفي معنى ما هنا من صفات أهل جهنم قوله تعالى في الذين علم الله رسوخهم في الكفر وثباتهم عليه من سورة البقرة (٢ : ٦) ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) فقد بين بضرب من التشبيه البليغ عدم انتفاعهم بمواهب القلوب والاسماع والأبصار التي هي آلات العلم والعرفان، وطرق الهدى والإيمان . وقوله في المناققين بتشبيهه ابلغ (٢ : ١٧) صم بكم عمي فهم لا يرجعون) ومثله المثل (٢ : ١٦٦) ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون ) وقوله فيهم من سورة النحل ( ١٦ : ١٠٨) أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ) وقوله في سورة الجاثية (٤٥ : ٢٢) أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله؟ أفلا تذكرون ؟ ) وقوله في سورة الاحقاف بعد ذكر هلاك عاد (٤٦ : ٢٥) ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلناهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ، إذ كانوا يجحدون بآيات الله ) وقوله تعالى في سورة الانفال (١٩:٨) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون (٢٠) ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون (٢١) ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون (٢٢) ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ) أي ولو أسمعهم سماع تفقه واعتبار والحال انه قد علم أنهم لاخير فيهم — لتولوا عن الاستجابة له وهم معرضون .

كرر الرب الحكيم بيان هذه الحقيقة بأساليب مختلفة في البلاغة كالتشبيه والتمثيل والاحتجاج، وبيان السنن الاجتماعية لأجل التأثير والتذكير والانذار، لمن لم يفقد استعداد الهداية من الكافرين ، ولأجل العظة والذكري للمؤمنين ، كما ترى في آيات الانفال ، ومع هذا التكرار البالغ حد الإعجاز في البلاغة نرى أكثر المسلمين أشد إهمالاً من غيرهم لاستعمال أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم في النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق، لانهم من أجهل الشعوب بالعلوم التي تعرف بها آياته تعالى في أعضاء الانسان ومشاعره وقواه العقلية وانفعالاته النفسية ،



وآياته في الجماد والنبات والحيوان ، والهواء والماء والبخار، والغازات التي تتركب منها هذه المواد وغيرها، وسنن النور والكهرباء ، والهيئة الفلكية ، ومن أصاب منهم حظاً من هذه العلوم فانما أخذه عن الافرنج أو تلاميذهم المتفرنجين فكان مقلداً فيه لهم لامستقلاً ، ولم يتجاوز طريقهم في البحث عن منافع هذه الاشياء لأجل الانتفاع بها في هذه الحياة الدنيا ، من غير ملاحظة كونها آيات دالة على أن لها رباً خالقاً مدبراً عليماً حكماً ، مريداً قديراً رحيماً ، يجب أن يعبد وحده ، وأن يخشى ويحب فوق كل أحد ، وأن تكون معرفته والزاني عنده ورجاء لقائه في الآخرة منتهى كل غاية من الحياة ، ولو قصد أولئك العلماء هذا من العلم لأصابوه فان الأمور بمقاصدها و « انما الاعمال بالنيات » ولكنهم غفلوا عنه ، لتعلق ارادتهم بما دونه ، ولهذا كان علمهم على سعته ناقصاً أقبح نقص ، وكان الانتفاع به مشوباً بضرر عظيم باستعمال ما هداهم اليه العلم من خواص الاشياء في الحرب وآلات القتال ، التي تدمر العمران وتسحق الالوف الكثيرة من البشر في وقت قصير — وبهذا يصدق على هؤلاء العلماء الذين استعملوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم في استنباط حقائق العلوم ونفعها المادي العاجل ما يصدق على الذين أهملوا استعمالها ، وآثروا الجهل على العلم بها ، من قوله عز وجل :

﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات السلبية كالأنعام من إبل وبقر وغنم في كونهم لا حظ لهم من عقولهم ومشاعرهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمعيشتهم في هذه الحياة الدنيا ، بل هم أضل سبيلاً من الأنعام لأن هذه لا تنجني على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية في أكلها وشربها ونزوانها ، بل تقف فيه عند قدر الحاجة التي تحفظ بها الحياة الشخصية والنوعية ، وأما عبيد الشهوات من الناس فهم يسرفون في كل ذلك اسرافاً يتولد منه أمراض كثيرة يقل فيهم من يسلم منها كلها ، ومن الناس من يجاهد هذه الشهوات جهاداً يفرط فيه بحقوق البدن فلا يعطيه الغذاء الكافي ، ويقصر في حقوق الزوجية ، أو يقطع على نفسه طريقها بالرهبانية ، فيجني على شخصه وعلى نوعه بالتفريط كما يجني عليها عبيد اللذات بالافراط ، دع الجنابة على الاخلاق

والآداب وعلى الأمم والشعوب، وهداية الإسلام تحظر هذا وذلك وتوجب الأكل من الطيبات والزواج بشرطه وتحرم الاسراف في كل شيء. فلو اهتدى الناس بالقرآن في فقه أسرار الخلق ومنافعه لجعوا بها بين ارتقامهم في معاشهم، واستعدادهم لمعادهم، واتقوا هذا الاسراف في الشهوات والتنازع عليها الذي أفسد مدينة الافرنج بما يشكو منه جميع حكماهم ويجزمون بأنه لا بد أن يقضي عليهم.

﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ أي أولئك الموصوفون بكل ما ذكر هم الغافلون التام والغفلة عما فيه صلاحهم وسعادتهم في الحياتين الدنيا والآخرة جميعاً أو خبيرها وأكملها وأدومها وهي الثانية، فهم طبقات على درجات في الغفلة، الغافلون عن أنفسهم، الغافلون عن استعمال عقولهم ومشاعرهم في أفضل ما خلقت لأجله من معرفة الله تعالى، الغافلون عن آيات الله في الانفس والآفاق التي تهدي الى معرفة العبد نفسه وربّه، الغافلون عن ضروريات حياتهم الشخصية، وحياتهم القومية، وحياتهم المليية، الذين يعدون كالانعام من وجه آخر غير الذي تقدم من مجافاة سنن الفطرة، وهو حقارتهم ومهانتهم الشخصية والقومية بين الأمم والدول وتسخير غيرهم لهم كما يسخر الأنعام في سبيل مديشته

فالتسم الاول من الغافلين هم الذين قال الله تعالى فيهم في أوائل سورة يونس بعد التذكير بخلق السموات والارض واستوائه على عرشه وتدييره أمر العالم، وكونه بيدي، الخالق ثم يعيد -والاعادة في العادة أهون من البدء- والتذكير بآياته في جعل الشمس ضياء والقمر نور أو تقديره منازل يعلم منها عدد السنين والحساب - وآياته في اختلاف الليل والنهار وخلق السموات والارض - قال بعد ذلك - (١٠ : ٦) إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون (٧) أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ) فهذا نص في ان النار مأوى الغافلين عن هذه الآيات أي عن دلالتها على وجود خالقها ومدبر النظام فيها وكون إعادة خلق البشر وغيرهم في طور آخر لا يتعاضى على قدرته، وهو من مقتضى علمه وحكمته، وعن كون معرفته تعالى أعلى أنواع المعرفة، وكون التمتع الروحاني ببقائه عز وجل في دار الكرامة أسمى أنواع النعيم. وان كان هؤلاء الغافلون عما ذكر من أكبر

العلماء بسنن الله تعالى وحكمه في خلق العالم العلوي والعالم السفلي ، بل حجة الله على هؤلاء العلماء أبلغ وأظهر لأنهم لو فطنوا بدلائلها على ما ذكر وفتقوه كما يجب كانوا أسعد في هذه الحياة الدنيا وأبعد عن شرورها ومفاسدها مما هم عليه الآن ، ولا استعدوا بذلك لسعادة الآخرة أكل استعداد

كذلك يصدق عليهم قوله تعالى في أول سورة الروم ( ٣٠ : ٦ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ) فانظر إلى بلاغة القرآن في إعادة ضمير ( هم ) وهول التأكيد الذي اقتضاه وصفهم بالعلم الذي من شأن صاحبه عدم الغفلة تلك الصفات هي صفات من خلقوا اسكنى الجحيم ، وما يقابلها فهو صفات أهل دار النعيم ، فأهل النار بنص كتاب الله تعالى هم الأغبياء الجاهلون الغافلون ، الذين لا يستعملون عقولهم في فقه حقائق الأمور ، ولا يستعملون أسماعهم وأبصارهم في استنباط المعارف واستفادة العلوم ، ومعرفة آيات الله الكونية ، ووقته آياته التنزيلية ، وهما سبب كمال الإيمان ، والباعث النفسي على كمال الإسلام والاحسان ، ولن ترى في كتب التفسير الكثيرة من نبه قراء كتاب الله تعالى إلى هذه المعاني الهادية إلى سبيله وصرطه المستقيم ، على أن أكثر المسلمين قد اتخذوا كتاب الله مهجوراً ، فإذا سألت أشهرهم بعلم التفسير عن معنى هذه الآية قال لك إن الله تعالى خلق للنار خلقاً هم على الكفر والمعاصي مجبورون ، « لهم قلوب أيس من شأنها أن يفهموا بها شيئاً مما من شأنه أن يفهم ، فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولاً أو لياً - ولهم أعين لا يبصرون بها شيئاً من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجاً أو لياً ولهم آذان لا يسمعون بها شيئاً من المسموعات فيتناول الآيات التنزيلية على طرز ما سلف » اه ملخصاً من روح المعاني ، وما زاد عليه فيه فكلام في الأعراب ونكت التعبير وتحقيق معنى الجبر عند بعض المتكلمين وهو زبدة ما في كتب التفسير . وأهل النار عندهم من يسمونهم كافرين ، وأهل الجنة من يسمونهم مسلمين ، وإن كانوا يجهلون حقائق هذه الأمور ، ويبصرون على الفجور ، اتكالا على شفاعة أهل القبور ، الذين يدعونهم مع الله أو من دون الله لمهمات الأمور ، وينبجحون لهم النسائك وينذرون لهم الندور ،

وهي عبادات لغير الله يخرجون بها من حظيرة الإيمان ، والاحتجاج بالآية على أخير غفلة وجبل ، بل هي كسائر الآيات الدالة على نوط الجزاء بالعمل ، ومعناها ان هؤلاء المكلفين من الجن والانس قد تركوا استعمال عقولهم ومشاعرهم الباطنة والظاهرة في علم الهدى الذي يترتب عليه الاعمال المذكية للنفس فكانوا بذلك أهل جهنم ، وليس فيها انه تعالى ذرأهم لجهنم لذواتهم فان ذوات الجنسين كلها متشابهة ، ولم يقل انه خلقهم ناجزين عن استعمال تلك القوى في أسباب الهدى بل قال انهم هم لم يستعملوها في ذلك ( وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في أصحاب السعير \* فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ) ولكن الجدل في المذهب هو الذي أوهم ونحمد الله تعالى أن هدانا الى تفسير الآية بالشواهد الكثيرة من القرآن ، وسنن الله تعالى في الانسان والاكون ، وهو ما لم نطلع على مثله ولا ما يحوم حوله لانسان . والتحدث بنعمة الله ، مما أمر به الله ، فالحمد لله ثم الحمد لله

(١٨٠) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ

فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \*

بين الله تعالى لنا في الآية السابقة حال المخلوقين لجهنم في عدم استعمال عقولهم ومشاعرهم في الاعتبار بآيات الله والتفقه في تزكية أنفسهم بالعلم الصحيح الذي يترتب عليه العمل الصالح ، وأن ذلك الاهمال أعقبهم الغفلة التامة عن أنفسهم ومافيه صلاحها من ذكر الله تعالى وشكره والثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال - وقفي على ذلك في هذه الآية بدواء هذه الغفلة وأقرب الوسائل المخرج منها إلى ضدها فقال :

﴿ ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ الاسماء جمع اسم وهو اللفظ الدال على الذات فقط أو على الذات مع صفة من صفاتها سواء كان مشتقا كالرحمن الرحيم الخالق الرازق أو مصدراً كالرب والسلام والعدل. والحسنى جمع الاحسن، والمعنى

ولله دون غيره جميع الاسماء الدالة على أحسن المعاني وأكمل الصفات، فادعوه أي سموه  
واذكروه ونادوه بها لمجرد الثناء، وعند السؤال وطلب الحاجات ، فمن الذكر لمحض  
الثناء آية الكرسي ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ الخ وآخر سورة الحشر ﴿ هو  
الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾ هو الله الذي  
لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحانه الله  
عما يشركون ﴾ هو الله الخالق الباريء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في  
السموات والارض وهو العزيز الحكيم ﴾ وقد ورد في السنة الدعاء بهذه الآيات  
وأن يقول قبلها « أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم — ثلاث مرات »  
رواه الترمذي والدارمي وابن السني من حديث معقل بن يسار

وللذكر المحض فوائد كثيرة في تغذية الايمان ومراقبة الله تعالى وحبه والخشوع  
له والرغبة فيما عنده واحتقار مصائب الدنيا وقلّة المبالاة والتألم لما يفوت المؤمن  
من نعيمها ، ولذلك ورد في الحديث الصحيح « من نزل به غم أو كرب أو أمر  
مهم فليقل : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا  
الله رب السموات والارض ورب العرش الكريم » رواه الشيخان والترمذي والنسائي  
ومن الذكّر بصيغة النداء ما رواه الترمذي أنه (ص) سمع رجلاً وهو يقول  
( يا ذا الجلال والاكرام ) فقال « قد استجيب لك فسل » وروى الحاكم في المستدرك  
من حديث أنس ( رض ) قال قال رسول الله (ص) لفاطمة « ما يمنعك أن تسمعي  
ما أوصيك به ؟ أن تقولي اذا أصبحت واذا أمسيت : يا حي يا قيوم برحمتك  
استغث ، أصالح شأني كله ولا تكفني إلى نفسي طرفة عين » وقال هذا حديث صحيح  
على شرط الشيخين وأقره الحافظ الذهبي على ذلك .

والادعية باسماء الله تعالى نداء أو غير نداء كثيرة تراجع في كتاب الاذكار  
للنووي ، وكتاب الحصن الحصين لابن الجزري وغيرهما من كتب السنة .

وأسماء الله كثيرة وكما حسنى بدلالة كل منها على منتهى كمال معناه وتفضيلها  
على ما يطلق منها على المخلوقين كالرحيم والحكيم والحفيظ والعليم  
وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما قال قال رسول الله ( ص )

« إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » هذا لفظ البخاري في كتاب الشروط وكتاب التوحيد ومسلم في الذكر ( قل مسلم ) وزاد همام عن أبي هريرة عن النبي (ص) « إنه وتر يحب الوتر » وفي الرواية الأخرى له « إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة وإن الله وتر يحب الوتر » ( قل ) وفي رواية ابن أبي عمر « من أحصاها » اه ورواه البخاري في كتاب الدعوات بلفظ « لله تعالى تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحدة من حفظها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » وقوله إلا واحدة بالتأنيث وجهه ابن مالك بأنه أنث باعتبار التسمية أو الصفة أو الكامة

ورواه الترمذي والحاكم من طريق الوليد بن مسلم وسردا فيه الأسماء التسعة والتسعين ورواه غيرهما أيضاً من طريقه وفي سرد الأسماء اختلاف في الروايات وقد اختلف المحدثون في سرد الأسماء هل هو مرفوع أو مدرج في الحديث من بعض الرواة؟ والراجح أنه مدرج لا مرفوع ، ولم يخرج الشيخان لتفرد الوليد به والاختلاف عليه فيه وتدائسه واحتمال الإدراج كما قال الحافظ في الفتح ، وروي من طريق أخرى أضعف من هذه. وهذا سرد الأسماء في أمثل الطرق عن الوليد من جامع الترمذي كما قال الحافظ :

هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم الملك القدوس السلام ، المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور ، الغفار القهار ، الوهاب الرزاق ، الفتاح العليم ، القابض الباسط ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، السميع البصير ، الحكم العدل ، اللطيف الخبير ، الحليم العظيم ، الغفور الشكور ، العلي الكبير ، الحفيظ المقيت ، الحسيب الجليل ، الكريم الرقيب المجيب ، الواسع الحكيم ، الودود المجيد ، الباعث الشهيد ، الحق الوكيل ، القوي المتين ، الولي الحميد ، المحصي المبدئ ، المعيد ، المحيي المميت ، الحي القيوم ، الواجد الماجد ، الواحد الصمد ، القادر المقدر ، المقدم المؤخر ، الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الوالي المتعالي ، البر التواب ، المنتقم الغفور الرؤف ، مالك الملك ، ذو الجلال

« تفسير القرآن الحكيم » « ٥٥ » « الجزء التاسع »

والاكرام ، المتسبط الجامع ، الغني المغني المانع ، الضار النافع ، النور الهادي ،  
البيدع الوارث ، الرشيد الصبور »

أورد هذه الاسماء الحافظ ابن حجر في الفتح وذكر اختلاف الروايات فيها  
وانكار بعض كبار العلماء لرفعها كابن حزم والداودي والقاضي أبي بكر بن العربي ،  
والاقوال في حصرها وماخذها ثم قال :

« وإذا تقرر رجحان أن سرد الاسماء ليس مرفوعاً فقد اعتنى جماعة باتباعها  
من القرآن من غير تقييد بعدد فروينا في كتاب المائتين لابي عثمان الصابوني بسنده  
الى محمد بن يحيى الذهلي أنه استخرج الاسماء من القرآن ، وكذا أخرج أبو نعيم  
عن الطبراني عن أحمد بن عمر ، والحلال عن ابن أبي عمير ، وحدثنا محمد بن جعفر  
ابن محمد بن علي بن الحسين : سألت أبا جعفر بن محمد الصادق عن الاسماء الحسنی  
فقال هي في القرآن ، وروينا في فوائد تمام من طريق أبي الطاهر بن السرح عن  
حبان بن نافع عن سفیان بن عيينة الحديث ، يعني حديث « إن لله تسعة وتسعين  
اسماً » قال فوجدنا سفیان أن يخرجها لنا من القرآن فابطأ ، فاتينا أبا زيد فاخرجها  
لنا فعرضناها على سفیان فنظر فيها أربع مرات وقال . نعم هي هذه

« وهذا سياق ما ذكره جعفر وأبو زيد قالاً: ففي الفاتحة خمسة : الله ، رب ، الرحمن  
الرحيم مالك ، وفي البقرة : محيط ، قدير ، عليم ، حكيم ، علي ، عظيم ، تواب ،  
بصير ، ولي ، واسع ، كف ، رؤف ، بدیع ، شاکر ، واحد ، سمیع ، قابض ،  
باسط ، حي ، قيوم ، غني ، حميد ، غفور ، حلم . وزاد جعفر : إله قريب مجيب ،  
عزيز نصير ، قوي شديد ، سريع ، خبير ، قال وفي آل عمران : وهاب ، قائم ، زاد  
جعفر الصادق : باعث منعم مفضل ، وفي النساء : رقيب حسيد شهيد مقيت  
وكيل ، زاد جعفر علي كبير . وزاد سفیان : عفو . وفي الانعام : فاطر قاهر ، زاد جعفر :  
ميت غفور برهان : وزاد سفیان : لطيف خبير قادر ، وفي الأعراف : محي مميت .  
وفي الأنفال : نعم المولى ونعم النصير ، وفي هود : حفيظ مجيد ودود ، فعال  
لما يريد ، زاد سفیان قريب مجيب ، وفي الرعد : كبير متعال ، وفي ابراهيم : منان ،  
زاد جعفر : صادق وارث ، وفي الحجر : خلاق ، وفي مریم : صادق وارث ، زاد

جعفر : فرد ، وفي طه عند جعفر وحده : غفار ، وفي المؤمنين : كريم ، وفي النور :  
 حق مبين ، زاد سفيان : نور ، وفي الفرقان : هاد ، وفي : سبأ فتاح وفي الزمر :  
 عالم ، عند جعفر وحده وفي المؤمن : غافر قابل ذو الطول ، زاد سفيان : شديد ،  
 وزاد جعفر : رفيع ، وفي الذاريات : رزاق ذو القوة المتين ، بالثناء ، وفي الطور :  
 بر ، وفي اقتربت : مقتدر . زاد جعفر : مليك ، وفي الرحمن ، ذو الجلال والاكرام :  
 زاد جعفر ( رب المشرقين ورب المغربين ) باق معين ، وفي الحديد : أول آخر  
 ظاهر باطن وفي الحشر : قدوس سلام مؤمن مهيمن عزيز جبار متكبر خالق باريء  
 مصور ، زاد جعفر ، ملك ، وفي البروج : مبديء معيد ، وفي الفجر : وتر .  
 عند جعفر وحده ، وفي الاخلاص : أحد صمد . هذا آخر ما روينا عن جعفر  
 وأبي زيد وتقرير سفيان من تتبع الاسماء من القرآن وفيها اختلاف شديد وتكرار  
 وعدة أسماء لم ترد بلفظ الاسم وهي صادق منعم متفضل منان مبديء معيد  
 باعث قابض برهان معين مميت باق

« ووقفت في كتاب المقصد الاسني لابي عبد الله محمد بن ابراهيم الزاهد أنه  
 تتبع الاسماء من القرآن فتأملته فوجدته كرر أسماء وذكر مما لم أره فيه بصيغة  
 الاسم : الصادق والكاشف والعلام ، وذكر من المضاف الفائق من قوله ( فائق  
 الحب والنوى ) وكان يلزمه أن يذكر المقابل من قوله قابل التوب

« وقد تتبع ما بقي من الاسماء مما ورد في القرآن بصيغة الاسم مما لم يذكر في  
 رواية الترمذي وهي الرب الاله المحيط ، القدير الكافي ، الشاكر الشديد ، القائم  
 الحاكم ، الفاطر الغافر القاهر ، المولى النصير ، الغالب الخالق ، الرفيع المليك ،  
 الكفيل الخلاق - الاكرم الاعلى ، المبين - بالوحدة ، الحفي - بالحاء المهملة والفاء -  
 القريب ، الاحد الحافظ . فهذه سبعة وعشرون اسما إذا انضمت إلى الاسماء التي وقعت  
 في رواية الترمذي مما وقعت في القرآن بصيغة الاسم تكمل بها التسعة والتسعون وكأها  
 في القرآن لكن بعضها باضافة كالشديد ( من شديد العقاب ) والرفيع من ( رفيع الدرجات  
 والقائم من قوله ( قائم على كل نفس بما كسبت ) والفاطر من ( فاطر السموات ) والقاهر من  
 ( وهو القاهر فوق عباده ) والمولى والنصير من ( نعم المولى ونعم النصير ) والعالم من ( عالم



الغيب) والخالق من قوله (خالق كل شيء) والغافر من (غافر الذنب) والغالب من (والله غالب على أمره) والرفيع من (رفيع الدرجات) والحافظ من قوله (فالله خير حافظا) ومن قوله (وإناله لحافظون) وقد وقع نحو ذلك من الاسماء التي في رواية الترمذي وهي المحيي من قوله (لحیی الموتی) والمالك من قوله (مالك الملك) والنور من قوله (نور السموات والارض) والبديع من قوله (بديع السموات والارض) والجامع من قوله (جامع الناس) والحكم من قوله (أفغير الله أبتغي حكما) والوارث من قوله (ونحن الوارثون) والاسماء التي تقابل هذه مما وقع في رواية الترمذي مما لم تقع في القرآن بصيغة الاسم وهي سبعة وعشرون اسما: القابض الباسط، الخافض الرافع، المعز المذل، العدل الجليل، الباعث المحصي، المبدئ المعيد المميت، الواجد المسجد، المقدم المؤخر، الوالي ذو الجلال والاكرام، المقسط المغني، المانع المضار، النافع الباقي، الرشيد الصبور.

«فاذا اقتصر من رواية الترمذي على ما عدا هذه الاسماء وأبدلت بالسبعة والعشرين التي ذكرتها خرج من ذلك تسعة وتسعون اسما وكلها في القرآن واردة بصيغة الاسم ومواضعها كلها ظاهرة من القرآن إلا قوله «الحنفي» فانه في سورة صريم في قول ابراهيم (سأستغفر لك ربي انه كان بي حنيا) وقل من نبه على ذلك «ولا يبقى بعد ذلك إلا النظر في الاسماء المشتقة من صفة واحدة مثل، القدير والمقتدر والقادر، والنفور والنفار والغافر، والعلي والاعلى والتمتع، والملك والمليك والمالك، والكریم والاكرم، والقاهر والقهار، والخالق والخالق، والشاكر والشكور، والعالم والعليم، فإما أن يقال لا يمنع ذلك من عدها فان فيها التغيرات في الجملة فان بعضها يزيد بخصوصية على الآخر ليست فيه، وقد وقع الاتفاق على أن الرحمن الرحيم اسمان مع كونهما مشتقين من صفة واحدة، ولو منع من عد ذلك للزم أن لا يعد ما يشترك الاسمان فيه مثلا من حيث المعنى مثل الخالق البارئ، المصور لكنها عدت لانها ولو اشتركت في معنى الایجاد والاختراع فهي مغايرة من جهة أخرى وهي أن الخالق يفيد القدرة

على الایجاد<sup>(١)</sup> والباری، بفتح الموجد لجوهر المخلوق، والمصور بفتح خالق الصورة في تلك الذات المخلوقة، واذا كان ذلك لا يمنع المغایرة لم یمنع عدها اسما مع ورودها والعلم عند الله تعالى وهذا سردها لتحتفظ ولو كان في ذلك اعادة لكنه یغفر لهذا المقصد: الله الرحمن الرحيم، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن العزيز، الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور، الغفار القهار، التواب الوهاب، الخلاق الرزاق الفتاح، العليم الخليم العظيم، الواسع الحكيم، الحي القيوم، السميع البصير، اللطيف الخبير، العلي الكبير، المحیط القدير، المولى النصير، الكريم الرقيب، القريب المحيب، الوكيل الحسيب، الحفيظ المقيت، الودود المجيد، الوارث الشهيد، الولي الحميد، الحق المبین، القوي المتين، الغني المالك الشديد، القادر المقدر، القاهر الكافي، الشاكر المستعان، الفاطر البديع الغافر، الاول الآخر، الظاهر الباطن، الكفيل الغالب، الحكم العالم الرفيع، الحافظ المنتقم، القائم المحيي، الجامع المليك المتعالي، النور الهادي، الغفور الشكور، العفو الرؤف، الاكرم الاعلى، البر الحفي، الرب الاله، الواحد الاحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ثم قال الحافظ: وقد اختلف في هذا العدد هل المراد به حصر الاسماء الحسنی في هذه العدة أو أنها أكثر من ذلك، ولكن اقتصت هذه لأن من أحصاها دخل الجنة، فذهب الجمهور إلى الثاني، ونقل النووي اتفاق العلماء عليه، فقال ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى، وليس معناه انه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث ان هذه الاسماء من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الاخبار عن دخول الجنة باحصائها لا الاخبار بحصر الاسماء ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم في حديث ابن مسعود الذي أخرجه احمد وصححه ابن حبان «اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» وعند مالك عن كعب

(١) أصل معنى الخالق التقدير، فالاولى أن يقال ان الخالق هو الموجد للاشياء بتقدير ونظام لاجزائها.

الاحبار في دعاء « واسألك باسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم اعلم » واورد الطبري عن قتادة نحوه من حديث عائشة انها دعت بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم بنحو ذلك ، وسيأتي في الكلام على الاسم الاعظم . وقل الخطابي : في هذا الحديث اثبات هذه الاسماء المخصوصة بهذا العدد ، وليس فيه منع ماعداها من الزيادة ، وانما التخصيص لكونها أكثر الاسماء وأبينها معاني . وخبر المبتدا في الحديث هو قوله من أحصاها لا قوله لله وهو كقولك لزيد ألف درهم اعداها للصدقة ، واعبروا بمائة توب من زاره ألبسه إياها . وقال القرطبي : في المهيم نحو ذلك ، ونقل ابن بطلال عن القاضي أبي بكر بن الطيب قال : ليس في الحديث دليل على انه ليس لله من الاسماء إلا هذه العدة ، وانما معنى الحديث ان من أحصاها دخل الجنة . ويدل على عدم الحصر ان أكثرها صفات وصفات الله لا تتناهى ، وقيل ان المراد الدعاء بهذه الاسماء لأن الحديث مبني على قوله ( والله الاسماء الحسنى فادعوه بها ) فذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنها تسعة وتسعون فيدعى بها ولا يدعى بغيرها حكاه ابن بطلال عن المهلب . وفيه نظر لأنه ثبت في أخبار صحيحة الدعاء بكثير من الاسماء التي لم ترد في القرآن كما في حديث ابن عباس في قيام الليل « أنت المقدم وأنت المؤخر » وغير ذلك . وقال الفخر الرازي لما كانت الاسماء من الصفات وهي اما ثبوتية حقيقية كالحي ، أو اضافية كالعظيم واما سلبية كالقدوس ، واما من حقيقية واطافية كالقدير ، أو من سلبية اضافية كالاول والآخر ، واما من حقيقية واطافية وسلبية كالملك والسلب غير متناهية لأنه عالم بلا نهاية قادر على مالا نهاية له ، فلا يمتنع أن يكون له من <sup>(١)</sup> ذلك اسم فيلزم أن لانهاية لأسمائه ، وحكى القاضي أبو بكر بن العربي عن بعضهم أن لله ألف اسم . قال ابن العربي : وهذا قليل فيها ، ونقل الفخر الرازي عن بعضهم أن لله أربعة آلاف اسم استأثر بعلم ألف منها واعلم الملائكة بالبقية ، والانبياء بألفين منها ، وسائر الناس بألف . وهذه دعوى تحتاج إلى دليل <sup>(٢)</sup> واستدل بعضهم بهذا القول لأنه ثبت في نفس حديث الباب انه وتوجب الوتر الرواية

(١) المقام يقتضي أن يقول من كل ذلك (٧) وكذا ما قبلها

التي سردت فيها الاسماء لم يعد فيها الوتر ، فدل على أن له اسماً آخر غير التسعة والتسعين ، وتعقبه من ذهب إلى الحصر في التسعة والتسعين كبن حزم بن الخبز الوارد لم يثبت رفعه ، وإنما هو مدرج كما تقدمت الإشارة إليه ، واستدل أيضاً على عدم الحصر بأنه مفهوم عدد وهو ضعيف وابن حزم ممن ذهب إلى الحصر في العدد المذكور وهو لا يقول بالمفهوم أصلاً ، ولكنه احتج بالتأكيد في قوله صلى الله عليه وسلم إلا واحداً قال : لأنه لو جار أن يكون له اسم زائد على العدد المذكور لزم أن يكون له مائة اسم فيبطل قوله مائة إلا واحد ، وهذا الذي قاله ليس بحجة علي ما تقدم لأن الحصر المذكور عندهم باعتبار الوعد الحاصل لمن أحصاها ، فمن ادعى أن الوعد وقع لمن أحصى زائداً على ذلك خطأ ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكون هناك اسم زائد ، واحتج بقوله تعالى ( والله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في اسمائه ) وقد قال أهل التفسير من الأحاد في اسمائه تسميته بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة ، وقد ذكر منها في آخر سورة الحشر عدة وختم ذلك بان قال له الاسماء الحسنى ، قال وما يتخيل من الزيادة في العدد المذكورة لعلمه مكرر معنى وإن تغاير لفظاً ، كالغافر والغفار والغفور مثلاً فيكون المعدود من ذلك واحداً فقط ، فإذا اعتبرت ذلك وجمعت الاسماء الواردة نصاً في القرآن وفي الصحيح من الحديث لم تزد على العدد المذكور ، وقال غيره : المراد بالاسماء الحسنى في قوله تعالى ( والله الاسماء الحسنى فادعوه بها ) ما جاء في الحديث « ان لله تسعة وتسعين اسماً » فان ثبت الخبر الوارد في تعيينها وجب المصير اليه وإلا فليتبع من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة ، فان التعريف في الاسماء للعهد فلا بد من المعهود ، فانه أمر بالدعاء بها ونهى عن الدعاء بغيرها فلا بد من وجود المأمور به ( قلت ) والحوالة على الكتاب العزيز اقرب وقد حصل بحمد الله تتبعها كما قدمته ، وبقي أن يعمد إلى ما تنكر لفظاً ومعنى من القرآن فيقتصر عليه ويتبع من الأحاديث الصحيحة تكلمة العدد المذكورة فهو نمط آخر من التبع عسى الله ان يعين عليه بحوله وقوته آمين . اهـ (فتح ) والمتبادر من الحديث أنه جملتان فالاسماء الشرعية في الاسلام ٩٩ وكان الحافظ اجدر العلماء بما رجاه في آخر كلامه

﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائهم﴾ أي ادعوه بها أيها المؤمنون واتركوا أو اهلوا أو ابلا بمبالاة جميع الذين يلحدون في أسمائهم بالميل باللفظ أو معانيها عن منهج الحق الوسط، إلى بنيات الطريق ومتفرق السبل، من تحريف أو تأويل، أو تشبيه أو تعطيل، أو شرك أو تكذيب، أو زيادة أو نقصان، أو ما ينافي وصفها بالحسنى وهو منتهى الكمال، ذروا هؤلاء الملحدون ولا تبالوا بهم، وكأن قائلًا يقول ولماذا نذرهم

في خوضهم يعمهون؟ فأجاب تعالى ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾ أي سيبلقون جزاء عملهم عن قريب بعضهم في الدنيا قبل الآخرة، وإنما يعمهم جميعهم عقاب الآخرة، إلا من تاب منهم قبل الموت

واننا نفصل هذا التفسير الاجمالي بعض التفصيل لفظاً ومعنى فنقول

«ذروا» أمر لم يرد في اللغة استعمال ماضيه ولا مصدره وهو بمعنى الترك والاهمال فهو بوزن: ودع الشيء، يدعه ودعا، ومعناه. إلا أن هذا قد استعمل ماضيه ومصدره قليلاً، وذلك لم يستعمل منه إلا المضارع «يذر» والأمر «ذر» وتعدد ذكرها في التنزيل. وزعم الراغب في مفرداته أن معناه قذف الشيء لقلة الاعتداد به، وأورد من الشواهد عليه من القرآن ما هو ظاهر فيه، وأشار إلى شاهد واحد يخالفه في الظاهر ووعد ببيان دخوله في موضع آخر ولعله يعني تفسيره للقرآن، وهو قوله تعالى (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً) ولم يقل ويتركون ويخلفون ولعله أجاب عنه بأن المراد ويتركون أزواجاً هن عرضة للاهمال وعدم الانفاق عليهن فليوصوا لهن وإلا كانوا هم المهملين لهن والقاذفين بهن في بيداء الاهمال والحاجة. ويرد عليه أيضاً قوله تعالى حكاية عن المخلفين في سورة الفتح (ذرونا تتبعكم) وكل ما عداه من استعمال القرآن لهذه الكلمة يظهر فيه معنى الترك لعدم المبالاة والاهتمام لا القذف كما عبر به، ومنه قوله تعالى في ناقة صالح حكاية عن (فذروها تأكل في أرض الله) وأظهر منه قوله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه\* أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض\* رب لا تذر على الأرض\* ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً\* وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم\* وتذرون الآخرة\*

ثم ذرهم في خوضهم يلعبون \* فذرهم وما يفترون \* نذرهم حتى يلاقوا يومهم  
الذي يعدون ) الخ

وأما الأحاد فمعناها العام الميل والازورار عن الوسط حساً أو معنى ، والاول  
الاصل فيه كأمثاله ، ومنه لحد القبر للميت وهو ما يحفر في جانب القبر من جهة القبلة  
مائلاً عن وسطه ويسوى ببناء ونحوه ويوضع فيه الميت ، ويقابله الضريح أو الشق وهو  
وضعه في وسط القبر ( واللحد أفضل في الشرع ) يقال لحد القبر وألحده ، ولحد  
الميت وألحد : أي جعل له لحداً . ومن كلامهم ألحد السهم الهدف : أي مال في  
أحد جانبيه ولم يصب وسطه ، ولما كان « خيار الامور أوساطها » كان الانحراف  
عن الوسط مذموماً ، ومنه أخذ التعبير عن الكفر والتعطيل والشك في الله تعالى  
بالاحاد وسمي ذروه الملاحدة والملحدون .

قال الراغب : اللحد حفرة مائلة عن الوسط وقد لحد القبر حفره وألحده  
وقد لحدت الميت وألحدته : جعلته في اللحد ، ويسمى اللحد ملحداً وهو اسم  
موضع من ألحدته . ولحد بلسانه إلى كذا مال ، قال تعالى ( لسان الذي يلحدون  
اليه ) من لحد وقرىء ( يلحدون ) من ألحد <sup>(١)</sup> وألحد فلان : مال عن الحق ،  
والاحاد ضربان : الاحاد إلى الشرك بالله ، والاحاد إلى الشرك بالاسباب <sup>(٢)</sup> فالاول  
ينافي الايمان ويبطله ، والثاني يوهن عراه ولا يبطله . ومن هذا النحو قوله ( ومن  
يرد فيه بالاحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ) وقوله ( الذين يلحدون في أسمائه )  
والاحاد في أسمائه على وجهين : أحدهما أن يوصف بما لا يصح وصفه به ، والثاني  
أن يتأول أوصافه على ما لا يليق به اه

(١) الآية رد على بعض كفار قريش الذين قالوا ان النبي (ص) يعلمه بشر  
يعنون روميا كان بمكة يصنع السيوف ، ورأوه (ص) يقف عنده يتأمل صنيعته .  
قال تعالى ( لسان الذين يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ) فاستعمال  
الاحاد فيه على القاعدة لانهم ما لوا فيه إلى الباطل (٢) هو النظر إلى الاسباب مع  
الغفلة عن كونها من خالق الله وتسخره ويخشى أن ينسى الانسان ذلك أو يمتقد  
انها مؤثرة بذاتها لا بفعله تعالى وهو شرك جلي ، والظاهر ان الراغب أراد بهذا  
النوع المعاصي كالظلم في الحرم من قولهم : المعاصي يريد الكفر

أقول قرأ حمزة (تلحدون) بفتح الياء هنا وفي قوله تعالى في فصلت (إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا) من لحد والباقون بضمها من ألحد ومعناها واحد كما علمت ، وأخطأ من زعم أن الأول لا يكاد يسمع .

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس (رض) الألحاد التكذيب وقال في تفسيره هنا : اشتقوا العزى من العزيز واللات من الله . وعن الأعمش أنه قرأ « يلحدون » بفتح الياء من اللحد وفسره بقوله : يدخلون فيها ما ليس منها . وعن قتادة في تفسيره روايتان أحدهما يشركون ، والثانية : يكذبون في أسمائه . ومالخص هذه الروايات أن من الألحاد في أسمائه تعالى التكذيب بها وانكار معانيها وتحريفها بالتأويل ونحوه ، وتسميته تعالى بما لم يسم به نفسه ، وبما لا يليق بكماله وجلاله ، وإشراك غيره به فيها — وهذا قسمان اشراك في التسمية ، وهو يقصر على الأسماء الدالة على معنى الألوهية والربوبية وخصائصها ، وإشراك في المعاني وهي قسمان : معان خاصة بالألوهية والربوبية ، ومعان غير خاصة في نفسها ، وإنما الخاص به تعالى كإلهها ، وهو معنى كونها الحسنى كما يدل عليه تقديم الخبر في قوله « والله الأسماء الحسنى » أي له وحده دون غيره كما تقدم — فالألحاد في أسمائه الحسنى أقسام

(١) التغيير فيها لوضعها لغيره مما عبد من دونه كما ورد في « اللات والعزى » وتقدم قريباً ، قيل و « مناة » من اسمه تعالى المنان فإن صح كان دليلاً على أن العرب كانت قبل الإسلام تطلق هذا الاسم على الله تعالى وهو ليس في القرآن ولا في رواية الترمذي لأسمائه تعالى ، ولكن ورد في بعض الأحاديث وأما لفظ « اللات » فالظاهر أنه أنشأ به اسم الجلالة « والعزى » مؤنث الأعز كالفضلى مؤنث الأفضل والحسنى مؤنث الأحسن .

(٢) تسميته تعالى بما لم يسم به نفسه في كتابه أو ما صح من حديث رسوله (ص) قال بعضهم أو أجمع عليه المسلمون فإنه كما قيل لا بد له من مستند منها ومنه « واجب الوجود والواجب » - لكن يحتاج هذا إلى قرينة لأن استعماله في كل واجب عقلي وكل واجب شرعي هو الأكثر - (قال) والقديم ، والصانع ، وقيل هما مسموعان » وأقول إن الواجب وواجب الوجود والصانع من اصطلاح المتكلمين

لا يثبت كونها من أسماء الله تعالى بالاجماع الذي قالوا إن لا بد له مستند من الكتاب أو السنة عند أهله ، وللصانع مأخذ من قوله تعالى في سورة النمل (صنع الله الذي أتقن كل شيء) عند من يقول بجواز مثله وهو ضعيف ، ويقضي أن يكون من أسمائه للمتقن أيضاً . والتحقيق أن باب الاخبار عنه تعالى بأفعاله أوسع من باب اطلاق الاسماء عليه ، فان الاسم في الاصل ما دل على الذات ولا يعتبر فيه اتصاف المسمى بمعنى الاسم إن كان له معنى غير العلمية كزبد و حارث وفضل ، وما أطلق لأجل معناه فقط يسمى وصفاً وعتماً كالحارث يوصف به من يحرث الارض ، والظالم من يجور في فعله أو حكمه ، وقد يقصد بالاسم العلم الوصف مع العلمية من باب التفاؤل أو المدح فان لمح عند الاطلاق أدخلوا عليه الالف واللام فقالوا الحارث والفضل والا فلا وهذا سماعي لا قياسي في العربية . ومنه أسماء الله المنقولة عن اسم فاعل كالخالق والرازق والمؤمن والمهيمن أو صفة مشبهة كالحمن الرحيم ، أو مصدر كالسلام والعدل فكما يراعى فيها المعنى الوصفي فتسمى صفات والدلالة على الذات المنصفة بمدلوله الوصفي فتسمى أسماء

ويقتصر فيها كلها على التوقيف وليس منه الواجب والصانع والموجود ولكن يجوز الاخبار بهذه الصفات عنه تعالى فيقال ان الله موجود وواجب وهو صانع كل شيء والمتقن لكل ما خلقه ، ولا يقال في الدعاء والنداء يا واجب أو يا صانع اغفر لي مثلاً ، بهذا القدر يصحح كلام المتكلمين ، ولا يجوز أن يشتق له تعالى أسماء من كل ما أخبر به عن نفسه ولو بصيغته اسم الفاعل فلم يقل أحد باطلاق اسم الزارع عليه تعالى من قوله « أنتم تزرعون أم نحن الزارعون » ولا لما كر من قوله ( ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ) ولا الخادع أو الخادع من ( إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ) ولكن عدواً ومنها بعض الصفات المضافة كما تقدم في الشديد والرفيع والقائم والفاطر ، والفرق بين الفريقين ان هذه ذكرت في سياق الثناء على الله تعالى وأما تلك فذكرت في سياق الاحتجاج أو من باب المشاكلة واسم الصفة لا بد ان يدل على الكمال بمجرد إطلاقه وليس هذا منه وقد اتفق أهل الحق على أن أسماء وصفاته تعالى توفيقية ونصوا على اثبات



## ٤٤٤ الخلاف والاشكال في كون أسماء الله وصفاته توفيقية التفسير: حجته

كل ماورد في الكتاب والاحاديث الصحيحة دعاء ووصفاً له ، وإخباراً عنه ، وعلى منع كل ما دل على منعه ، ومنه كل ما يسمى بالماداً في أسمائه ، وكل ما أؤهم تقصاً أو كان منافياً للكمال ولو وصف الحسنى . وقد منع جمهور أهل السنة كل ما لم يأذن به الشارع مطلقاً ، وجوز المعتزلة ما صح معناه ودل الدليل على انصافه به ولم يوهم اطلاقه تقصاً ، والعلامة اوسع حرية في هذا الاطلاق ومنه قول ابن سينا:

مدبر الكل انت القصد والغرض وأنت عن كل ما قد فاتنا عوض

من كان في قلبه مثقال خردلة سوى جلالك فاعلم انه مرض

وقد عدوا عليه من اساءة الأدب قوله لخالقه : فاعلم

ذكر ذلك السفاريني في شرح عقيدته الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة ثم قال: ومال اليه - أي قول المعتزلة بالجواز - بعض الاشاعرة كالقاضي أبي بكر الباقلاني وتوقف أمام الحرمين الجويني ، وفصل الغزالي فجوز اطلاق الصفة وهي ما دل على معنى زائد على الذات ومنع اطلاق الاسم وهو ما دل على نفس الذات ، واحتج للقول المعتمد « أنها توفيقية » بأنه لا يجوز أن يسمى النبي (ص) بما ليس من أسمائه فالباري أولى . وتعلق المعتزلة بأن أهل كل لغة يسمونه سبحانه باسم مختص بلغتهم كقولهم ( خدائي ) وشاع من غير تكبير ، ورد بأنه لو ثبت لكان كافياً في الاذن الشرعي ونقل الالوسي في تفسيره سياق السفاريني الى احتجاج المعتزلة بعدم انكار أحد من المسلمين على اطلاق الفرس (خدا) وزاد عليه اسم ( تكري ) وهو تركي وكافه نون في النطق وقال إنهم ادعوا أن هذا اجماع ، وأنه لو ثبت لكان كافياً في الاذن الشرعي

وأقول ان لفظي خدا وتكري هما الاسم العلم لرب العالمين وخالق الخلق ، وذلك من قبيل الترجمة لاسم الجلالة ( الله ) وليس اطلاق اسم جديد عليه فيحتاج الى نص أو دليل شرعي ، ومثله ترجمة ما يمكن ترجمته من الاسماء والصفات وهو المشترك في اللغات ولا سيما الراقية منها كالفارسية فهو جائز بخلاف ترجمة ما لا يوجد له مرادف في غير العربية ، كالرحمن والقيوم — كما نعتقد — ومنع الغزالي في كتاب الجامع العوام ترجمة صفات الله في الكلام على التشابهات منها لما فيها من

خطر مخالفة مراده تعالى وقال ان بعضها لا مرادفله في غير العربية و لبعضها مرادف في الحقيقة دون المجاز كما يدفهي تطلق في العربية على الجارحة من أعضاء الانسان ولها عدة معان مجازية كالنعمة والقدرة والتصرف مثلاً وقد أضيفت اليه تعالى في مواضع قد تختلف معانيها كقوله تعالى ( يد الله فوق أيديهم \* بيده الملك \* بيدك الخير \* لما خلقت بيدي \* بل يدها مبسوطتان ) فلا يمكن وضع كلمة ترجمة يد بالفارسية لتفسير هذه الآيات كلها. اه بالمعنى ، وقد أوردت لفظه في تفسير الآيات المتشابهات من اول سورة آل عمران

ثم إن الالوسي نقل موافقة القاضي الباقلاني المعتزلة وذكر أن إمام الحرمين اعترضه بأنه قول بالقياس وهو حجة في العمليات دون العليات والاسماء والصفات منها ( قال ) وروى بعضهم عنه التوقف . ثم ذكر قول الغزالي المتقدم وذكر أنه احتج له باباحة الصدق واستجابته ، والصفة لتضمنها النسبة الخبرية راجعة اليه وهي لا تتوقف الا على تحقيق معناها ، بخلاف الاسم فإنه لا يتضمن النسبة الخبرية وانه ليس الا للابوين أو من يجري مجراها . ( قال الالوسي ) وأجيب بان ذلك حيث لا مانع من استعمال اللفظ الدال على تلك النسبة — والخطر قائم — وأين التراب من رب الارباب ؟ اه

وأقول مثال ما ذكره وصفه تعالى بالعقل بناء على أنه هو الكمال في غرائز البشر ولم يرد به الشرع . ويدل على منعه من جهة النظر أيضاً أن معنى العقل في اللغة العربية يدخل فيه مادات عليه مادته وهي عقل البعيراي ربط ذراعه ووظيفه وشدهما بالعقل ( وهو بالكسر الحبل الذي يعقل به البعير وغيره ) لمنعه من المشي وذلك أن عقل الانسان من شأنه أن يعقله أي يمنعه مما لا ينبغي له ، وهذا المعنى لا يليق بالباري ، سبحانه وتعالى . فقاعدة الغزالي في الصفات تقتضي تحكيم رأي كل أحد في وصف خالقه بما يراه هو حسناً أو كلاً . وقد يكون في رأي غيره ممن هم أعلم منه غير حسن ولا كمال ، وهذا ظاهر عتلاً لا نقلاً فالحق أن لا يطلق عليه المؤمنون من الصفات الا ما أذن به في كتابه أو على لسان رسوله (ص) (٣) ترك تسميته بما سمي به نفسه أو وصفه بما وصفها به ومثله أسناداً أسنده

تعالى إلى نفسه من الافعال — بناء على أن ذلك لا يليق به تعالى أو أنه يوم نقصاً في حقه عز وجل ، كأن هؤلاء الملاحدين أعلم منه تباركت أسماؤه وجلت صفاته وأعلم من رسوله صلواته عليه وسلامه بما يليق به وما لا يليق ، وبما يوم قص التشبيه أو غير التشبيه ، كامتناع بعض المبتدعة من ذكر بعض الآيات والاحاديث في صفات الله تعالى التي زعموا وجوب تأويلها في عقائدكم ودروسهم وعدم ذكرها في مجالسهم الا مقرونة بالتأويل وادعاء أن معناها غير مراد . وقد غلا بعض الاشعرية في القرون الوسطى في التأويل غلو الجهمية والمعتزلة أو أشد ، حتى إن منهم من أغروا السلاطين بسجن شيخ الاسلام ابن تيمية لذكر هذه الآيات والاحاديث في كتبه ودروسه كصفة علو الله تعالى على خلقه ومنها اسم العلي والمتعال ، ومنها آيات الاستواء على العرش وأحاديث النزول من السماء ، وانتهى بهم الأمر إلى أن يغلبوا منه التوبة من ذكر هذه الآيات والأحاديث للعامّة وان يتعمد بذلك كتابة (!) وهذا من أعاجيب تعصب المذاهب والغرور في تحكيم العقل أي الآراء النظرية في النصوص . وان ادعاء أن بعض كلام الله وحديث رسوله مما يجب كتمانها واستبدال نظريات بعض المتأخرين أمثالهم به لمطعن كبير في الدين ، وفي سالف الأمة الصالحين . وهذا النوع من الاحاد هو غير التأويل الاسماء والصفات وهو القسم الآتي من الاحاد فيها

( ٤ ) تحريف أسمائه وصفاته تعالى عما وضعت له بضر وب من التأويل ، تقتضي التشبيه او التعطيل ، فالمشبهة ذهبت إلى جعل الرب القُدوس الذي ليس كمثل شئ ، كرجل من خلقه زاعمة انه وصف نفسه بصفات يدل مجموعها على ذلك كالسمع والبصر والكلام والوجه واليد والرجل والضحك والرضا والغضب . والجهمية ذهبت إلى تأويل جميع صفات الله تعالى حتى جعلته كالعدم . وأهل السنة والجماعة الذين قال الله تعالى فيهم ( وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ) هم الذين جمعوا بين العقل والنقل في تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله وبين وصفه بما وصف به نفسه وتسميته بما سمى به نفسه وإسناد ما أسنده الى نفسه من الأفعال كالاستواء على العرش والعلو على الخلق وغير ذلك . أثبتوا

له كل ذلك مع كمال التنزيه فقالوا : ان له رحمة ليست كرحمة المخلوق وغضبا لا يشبه غضب المخلوق واستواء على عرشه ليس كاستواء الملوك المخلوقين على عروشهم ، وانه تعالى علمنا بما بين لنا من أسماءه وصفاته وأفعاله كل ما أوجب علينا أن نعلمه من عظمته وكماله وجلاله وجماله وأفعاله ، ولا يمكن بيان ذلك لنا الا بالألفاظ التي نستعملها في شؤون أنفسنا ، وعلمنا مع ذلك انه ليس كمثل شيء ، فعصمنا بهذا التنزيه ، أن يضلنا الاشتراك اللفظي فنقع في التشبيه ،

(٥) اشراك غيره فيما هو خاص به من أسماءه باللفظ كاسم الجلالة (الله) والرحمن ، ورب العالمين - وما في معناه من الاضافات كرب السماء والأرض ، والسموات والأرض ، أو رب الكعبة ، أو رب البيت - اذا أريد به الكعبة . قال تعالى ( فليعبدوا رب هذا البيت ) وأما اذا أضيف لفظ رب الي بيت آخر من بيوت الناس في كلام بعينه فلا بأس ، كأن تقول وأنت في بيت أحد الناس وقد حضرت الصلاة : الامامة حق رب البيت ، أو ليؤمننا رب البيت . أو تقول لمن أراد أن يجلس في كرسي صاحب البيت أو على الحشية الخاصة به : هذه تكريم رب البيت وقد نهينا عن الجلوس عليها بدون إذنه . وقالوا ان كلمة الرب معرفة خاصة به تعالى ويترجع هذا القول حيث لا قرينة تصرف اللفظ الى غيره

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في شرحه لحديث « لله تسعة وتسعون اسما » من الفتح بحث انتماع اليمين بجميع هذه الاسماء عند الحنفية والمالكية وابن حزم مطلقا ثم قال : والمعروف عند الشافعية والحنابلة وغيرهم من العلماء ان الاسماء ثلاثة أقسام ( احدها ) ما يختص بالله ( تعالى ) كالجلالة والرحمن ورب العالمين فهذا يعتقد اليمين به اذا اطلق ولو نوى به غيره ( ثانيها ) ما يطلق عليه وعلى غيره ولكن الغالب اطلاقه عليه وان يقيد في حق غيره بضرب من التقييد كالجبار والحق والرب ونحوها ، فالحلف به يمين ، فان نوى به غير الله فليس بيمين ( ثالثها ) ما يطلق في حق الله وحق غيره على حد سواء كالحي والمؤمن فان نوى به غير الله او اطلق فليس بيمين ، وان نوى الله تعالى فوجبان صحح النووي انه يمين ، وكذا في المحرر ، وخالف في الشرحين فصحح انه ليس بيمين ، واختلف الحنابلة فقال

القاضي ابو يعلى ليس يمين ، وقال المجد ابن تيمية في المحرراتها يمين اه  
(٦) اشراك غيره تعالى في معاني اسمائه الخاصة مع تغيير اللفظ كاطلاق لفظ  
( الوسيلة ) على بعض الصالحين بمعنى انه يدعى من دون الله أو مع الله سبحانه لقضاء  
الحاجات ، ورفع الكربات ، وكفاية المهات ، من غير طريق الأسباب والعادات ،  
كطلب ذلك من الأموات ، فلفظ الوسيلة هنا بمعنى ( الاله ) اذ معناه المعبود ،  
والدعاء منح العبادة وأعظم اركانها كما بينا مراراً ، او ( الرب ) المدبر للأمر على  
الاطلاق — فهذا الحاد في معاني أسماء الله تعالى لا في الفاظها

( ٧ ) اشراك غيره في كمال اسمائه التام الذي وصفت لأجله بالحسنى ، كمن  
يزعم او يعتقد ان لغيره تعالى رحمة كرحمته ورافة او غير ذلك من معاني اسمائه  
كالمجيب مثلاً ، قال تعالى ( واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي  
اذا دعان ) وقال تعالى حكاية عن رسوله صالح عليه السلام ( ان ربي قريب مجيب )  
وان بعض الذين يدعون غير الله تعالى من الموتى يعتقدون انهم اقرب وأسرع في  
اجابتهم من الله تعالى فيجمعون بذلك بين الشركين : شرك دعاء غير الله مع  
اعتقاد اجابته الدعاء — والله يقول ( ٢٧ : ٢٣ ) آمن يجيب المضطر اذا دعاه  
ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الارض ؟ ألم مع الله ؟ ) أي لا يجيب المضطر ... الا  
الله فهو الاله المستحق للعبادة وحده والكفر به بتفضيل غيره عليه سبحانه في سرعة  
الاجابة . وقد سمعت امرأة مصرية تدعو وتستغيث في امرها همها : يا متبولي ا  
يا متبولي ... ا فقلت لها بعد ان هدا روعها لماذا تدعين المتبولي ولا تدعين الله  
تعالى ؟ قالت : المتبولي ما يستناش - اي لا يهمل ولا يتأخر في اجابة من دعاه  
واستغاث به - ، وذكرت حكاية متناقلة بين أمثالها وهي : ان رجلاً كان قد سرق  
سمكة فسيخ وأكلها ، فحلفه صاحبها يميناً بالمتبولي فحلف به فقيأه الفسيخة ، ولمثل  
هذه الحكايات يتجرأ أمثال هؤلاء على الحلف بالله تعالى كذباً ولا يتجرؤون على الحلف  
بمعتقدهم وهذا نوع آخر من تفضيلهم اياهم على رب العالمين ، وهو من الحاد الشرك  
الصريح ويزعمون معه انهم من المسلمين ، ويتأول لهم علماء الجود المضلين ، وينبزون  
من انكر عليهم بلقب وهايين ، ويمقتون هذا اللقب وان صار بمعنى الموحدين :

(١٨١) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ  
 (١٨٢) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ  
 (١٨٣) وَأْمُرْ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا؟ مَا بِصَاحِبِهِمْ  
 مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٥) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ  
 اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ؟ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ؟ (١٨٦) مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا  
 هَادِيَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

بعد الانتهاء من قصة موسى مع قومه التي ختمت بها قصص الرسل من هذه  
 السورة بين الله تعالى لنا في بضع آيات منها شيئا من شؤون البشر العامة في الايمان  
 والشرك والهدى والضلال ، وما لفساد الفطرة واهمال مواهبها من العقل والحواس  
 من سوء المآل ، وارشادنا في آخرها الى ما يصلح فساد الفطرة من دعائه باسمائه  
 الحسنى ، والى ما للالحاد فيها من سوء الجزاء في العقبى . ثم قفى على هذه البضع  
 الآيات يوضع آيات أخرى في شأن الامة المحمدية بدأها بوصف أمة الاجابة ،  
 وثى بذكر المكذبين من أمة الدعوة ، وثلت بتفنيد ما عرض لهم من الشبهة ،  
 فالارشاد الى التفكير الموصل الى فقه الامور وما في حقائقها من العبرة ، والى النظر  
 الهادي الى ما أخذ البرهان والحجة ، لمعرفة صدق الرسول وما في القرآن من الهداية  
 والعلم والحكمة ، فالموعظة الحسننة المؤثرة في النفس المستعدة بالتذكير بقرب الأجل ،  
 والاحتياط للقاء الله عز وجل ، وختمها ببيان عدم الطمع في هداية من قضت سنة  
 الله بضلاله، وتركه يعمه في طغيانه . قال تعالى

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة  
 (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس) وكتاها تفصيل لاجمال قوله تعالى  
 (من يهد الله فهو المهتدي) الخ بدأه ببيان حال من أضلهم وهم الذين أهملوا  
 « تفسير القرآن الحكيم » « ٥٧ » « الجزء التاسع »

استعمال قلوبهم وأبصارهم واسماعهم في فقه آيات الله ، وأنهم كثيرون ، ولكنه ما ساءهم امة ، لانهم لا يجمعهم في الضلال جماعة ، ولان الباطل كثير وسبله متفرقة . ثم ذكر هنا حال من هداهم الله تعالى وهو أنهم امة أي جماعة كبيرة ، مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة ، يهدون بالحق وبه دون غيره يعدلون ، فسبيلهم واحدة لان الحق واحد لا يتعدد ، وهؤلاء هم امة محمد ، صلى الله عليه وآله وسلم وقد تقدم تفسير هذا التركيب في قوله تعالى من هذه السورة ( ٧ : ١٥٨ ) ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون ( فليراجع فهو قريب <sup>(١)</sup> فهاتان الآيتان متقابلتان لقرب الشبه بين امة موسى و امة محمد عليها الصلاة والسلام كقرب الشبه بينهما وقد تقدم بيانه أيضا <sup>(٢)</sup> وانما قال ( وممن خلقنا ) ألخ لمناسبة قوله في مقابله ( ولقد ذرأنا ) أي خلقنا ، فهناك يقول ذرأنا لجهنم من صفتهم كذا ، وهنا يقول وممن خلقنا أي للجنة امة صفتهم كذا وكذا .

اخرج ابن جرير وابن المنذر وابو الشيخ عن ابن جريم في قوله تعالى ( وممن خلقنا امة يهدون بالحق ) قال ذكر لنا أن النبي ( ص ) قال « هذه امتي ، بالحق يحكمون ويقضون ، يأخذون ويعطون » واخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فيها قال : بلغنا ان نبي الله ( ص ) كان يقول اذا قرأها « هذه لكم وقد اعطي القوم بين ايديكم مثلها : ( ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون ) » واخرج ابو الشيخ عن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قال : لتفترقن هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار الا فرقة : يقول الله ( وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون ) فهذه هي التي تنجو من هذه الامة . اهـ ومعلوم ان الشق الاول من هذا الاثر مرفوع الى النبي ( ص ) فذكره علي رضي الله عنه ليفسر به الفرقة الناجية . وقد فسرهما النبي ( ص ) في بعض الروايات بأنها هي التي تستقيم على ما كان عليه ( ص ) هو وأصحابه ، ومعنى التفسيرين واحد في مآلها والمراد منه امة الاجابة لدعوته ( ص ) ثم ذكر حال المكذبين من امة الدعوة فقال

﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ الاستدراج مأخوذ من الدرج مصدر درج أو من الدرجة وهي المرقاة ، يقال درج الكتاب والثوب وأدرجه إذا طواه ويعبر بالدرج وهو المصدر عن المدرج أي المطوي ، ويقال درج فلان بمعنى مات ، وهذه آثار قوم درجوا أي انقضوا ، جعله الراغب مجازاً بالاستعارة ، ولكن الزمخشري ذكره في حقيقة الاساس وقال واستدرجه : رقاها من درجة إلى درجة ، وقيل استدعى هلكته من درج إذا مات . وقال الراغب في سنستدرجهم من الآية : قيل معناه سنطوبهم طي النكتاب عبارة عن إغفالهم نحو ( ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ) وقيل معناه سنأخذهم درجة بعد درجة وذلك إدناؤهم من الشيء شيئاً فشيئاً كالمرافي والمنازل في ارتقائها ونزولها اهـ

أقول والمراد على هذا أنهم يسترسلون في غيهم وضلالهم ، من حيث لا يدرون شيئاً من عاقبة أمرهم ، لجهلهم سنن الله تعالى في المنازعة بين الحق والباطل ، والمصارعة بين الضار والنافع ، وكون الحق يدمغ الباطل ، وما ينفع الناس يصرع ما يضرهم ، كما قال تعالى ( بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ) وقوله تعالى ( فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض )

وأما المعنى على القول الاول فهو انذارهم بهذه العاقبة وهو أن الله تعالى سيأخذهم بالعقاب وينصر رسوله عليهم ولكن بالتدرج وكذلك كان

واجتمع بين معني الاستدراج جائز هنا لظهوره فيمن نزل فيهم أولاً وبالذات وهم كفار قريش الجاحدون والمباغون في عداوة النبي (ص) فقد كانوا مغترين بكثرتهم وثروتهم لا يعتقدون به ولا يغيرونه من آمن به أولاً وأكثرهم من الضعفاء الفقراء فما زالوا يتدرجون في عداوتهم له وقتلهم اياه حتى أظهره الله تعالى عليهم في غزوة بدر فلم يعتبروا ، ثم زادهم غرورا ظهورهم في آخر معركة أحد وقال قائدهم أبو سفيان : يوم بيوم بدر - الى أن كان الفتح الاعظم فهذا كله استدراج بمعنى التنقل في مدارج الغرور وبمعنى أخذ الله ايامهم واظهار رسوله (ص) ومن اتبعه عليهم من حيث لا يعلمون سنته تعالى في هذا ولا ذلك .

وقد فسر السدي الاستدراج بالمعنى الثاني فجعله خاصا بأخذهم في غزوة بدر



وفسر بعض المتقدمين الاستدراج بمعناه العام في اللغة كاعتزاز العصاة بالنعمة التي تنسيهم التوبة وتلهيهم عن شكر المنعم . واقتصارهم عليه غفلة عن سبب النزول ومن أنزل فيهم . فهو كقوله تعالى في سورة القلم ( ٦٨ : ٤٤ ) فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ) وقفي عليها بمثل ما هنا — والسورتان مكيتان — وهو قوله تعالى :

﴿ وأملئ لهم ان كيدي متين ﴾ الاملاء الامداد في الزمن والامهال والتأخير مشتق من الملوء والملاوة وهي الطائفة الطويلة من الزمن ، والملاوان الليل والنهار قال الراغب وحقيقته تكررها وامتدادها ، يقال أملئ له اذا أمهله طويلا . وأملئ للبعير اذا أرخى له الزمام ووسع له في القيد ليتسع له المرعى . ( واهجرني مليا ) أي زمتنا طويلا . والملا بالقصر المغازاة الواسعة الممتدة ، وأما الاملاء للكتائب بمعنى تلقينه ما يكتب فأصله أملل . فهو ليس من هذه المادة

والكيد كالمكر هو التدبير الذي يقصد به غير ظاهره بحيث يتخدع المكيد له بمظهره فلا يظن له حتى ينتهي الي ما يسوءه من مخبره وغاياته ، وأكثره احتيال مذموم ، ومنه الحمود الذي يقصد به المصلحة ككيد يوسف لاخذ أخيه الشقيق من اخوته لأبيه برضاهم ومقتضى شريعتهم ، ولذلك اسندوا ضيف الى الله عز وجل في مثل هذين الموضعين . والجمهور على أن اضافة الكيد والمكر أو إسنادهما اليه تعالى في القرآن من باب المشاكلة أو متأول بمعنى العقاب والجزاء وما يبيناه أدق ، والمتين القوي الشديد ومعنى الآية وأمهل هؤلاء المكذبين المستدرجين في العمر وأمد لهم في أسباب المعيشة والقدرة على الحرب بمقتضى سنتي في نظام الاجتماع للبشر كيداً لهم ومكرآ بهم ، لاجبا فيهم ونصراً لهم ، ( ٢٣ : ٥٥ ) فذرهم في غمرتهم حتى حين ٥٦ يحسبون أن ما نمدهم به من مال ودين ٥٧ نسارع لهم في الخيرات ؟ بل لا يشعرون ) وان نسأل عن كيدي فهو قوي متين : قال النبي (ص) فيما رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي موسى « إن الله تعالى ليملي للظالم حتى اذا أخذهم لم يفلتهم » فمعنى هذا الاملاء أن سنة الله تعالى في الامم والأفراد قد مضت بأن يكون عقابهم بمقتضى الاسباب التي قام بها نظام الخلق ، فالخذول اذا بغى وظلم ولم ينزل به العقاب الالهي عقب ظلمه يزداد

بغيا وظلما ولا يحسب للعواقب حسابا فيسترسل في ظلمه الى أن تحقيق به عاقبة ذلك بأخذ الحكم له أو بتورطه في مهلكة أخرى ، والعذاب الآخرة أشد وأبقى وقد قلنا في أوائل هذا التفسير عن شيخنا الاستاذ الامام أن عذاب الامم في الدنيا مطرد ، وأما عذاب الافراد فقد يتخلف ويرجأ إلى الآخرة . وحققتنا في مواضع أخرى أن عقاب الامم وبعض عقاب الافراد أثر طبيعي لذنوبهم فالامم والشعوب الباغية الظالمة لا بد أن يزول ساطانها وتدول دولتها ، والسكير والزنا ، لا يسلان من الامراض التي سببها السكر والزنا . والمقامر قلما يموت الا فقيراً معدماً الخ وقد سردنا الشواهد في مواضع أخرى على عقاب الامم من الآيات التي صدقتها شواهد التاريخ الماضي والحاضر وستصدقها في المستقبل ، وما كانت الحرب الاخيرة العظمى الا بعض عقاب الله تعالى للذين صلوا نارها بغيهم وفسوقهم ، وسيرون ما هو شر منها اذا لم يرجعوا عن غيهم بعد هذا أرشدهم الى المخرج من ا كبر شبهة لهم على الرسالة فقال عز وجل

﴿ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴾ الجنة بالكسر النوع الخاص من الجنون فهو اسم هيئة ، واسم للجن أيضاً ولا يصح هنا الا بتقدير مضاف ، أي من مس جنة - وقد حكى الله تعالى عن قوم نوح أول رسله الى قوم مشركين انهم اتهموه بالجنون فقالوا بعد قولهم انه بشر مثلهم يريد أن يتفضل عليهم (٢٣:٢٥) ان هو الا رجل به جنة قتر بصوا به حتى حين) وفي سورة القمر عنهم (٥٣:٩) كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ) وفي سورة الشعراء حكايته عن فرعون لعنه الله في موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم (٢٦: ٢٦) قال إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون) وقال تعالى عنه في سورة الذاريات (٥١ . ٣٩) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون) ثم بين تعالى في هذه السورة أن جميع الكفار كانوا يقولون هذا القول في رسلهم فقال (٥٢) كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون (٥٣) أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاعون )

وفي معنى آية الاعراف في خاتم النبيين والمرسلين عدة آيات ( منها ) قوله تعالى في كفار مكة من سورة المؤمنين (٢٣:٦٩) أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت

آباءهم الاولين؟ (٧٠) ام لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون؟ (٧١) أم يقولون به جنة؟ بل جاءهم بالحق والكفرهم للحق كارهون) ومثله في سورة سبأ (٧:٣٤) وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبؤكم اذا مزقتم كل ممزق إنكم انبي خلق جديد؟ (٨) أقترى على الله كذبا أم به جنة؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) ثم قال فيها (٤٦) قل انما أعظمكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا : ما بصاحبكم من جنة ، ان هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) وهذه شبيهة بآية الاعراف . وفي أول سورة الحجر (٦ : ١٥) وقالوا ياأيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون (٧) لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) وفي سورة الصافات (٣٧ : ٣٥) ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) وفي سورة الطور من الرد عليهم (٥٢ : ٢٧) فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) ومثله (٦٨ : ١) ن والقلم وما يسطرون (٢) ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وفي آخرها (٥١) ويقولون انه لمجنون (٥٢) وما هو الا ذكر للعالمين) وفي سورة التكوير بعد وصف ملك الوحي (٨١ : ٢٢) وما صاحبكم بمجنون) روى أبناء حميد وجريز والمنذر وأبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال ذكر لنا أن نبي الله (ص) قام على الصفا فدعا قريشاً فخذأ فخذأ : يا بني فلان يا بني فلان يحذرم بأس الله ووقائع الله إلى الصباح حتى قال قائلهم : ان صاحبكم هذا لمجنون : بات يهوت ( أي يصيح ) حتى أصبح . فأنزل الله ( أو لم يتفكروا ما بصاحبكم من جنة )

قد علمنا بما سبق أن جميع الكفار كانوا يرمون رسلهم بالجنون لانهم ادعوا أن الله تعالى خصهم برسالته ووحيه على كونهم بشراً كغيرهم لا يمتازون على سائر الناس بما يفوق أفق الانسانية كما علم من نشأتهم ومعيشتهم ، ولانهم ادعوا مالا يعهد له عندهم نظير ، وليس مما تصل اليه عقولهم بالتفكير ، وهو أن الناس يعثون بعد الموت والبلى خلقاً جديداً ، ولأن كلا منهم كان يدعي أن الناس مخطئون وهو المصيب ، وضالون وهو المهتدي ، وخاسرون وهو المفلح ، إلا من اتبعه منهم - ولأنهم نهوا عن عبادة الآلهة وأنكروا أنها بالدعاء والتعظيم والندور ولها تقرب

المتوسلين بها الى الله زلني وتشفع لهم عنده ، وأثبتوا ان الشفاعة لله وحده لا يشفع أحد عنده إلا باذنه ، من رضي له لمن رضي عنه ، فلا استقلال لهؤلاء الآلهة بالشفاعة عنده لمن توسل بهم - وشرعوا أنه لا يدعى مع الله أحد من ملك كريم ، ولا صالح عظيم ، فضلا عن صورهم وتماميهم المذكورة بهم ، وقبورهم المشرفة برفاتهم ، مع أن المذنب العاصي لا يليق به في رأي المشركين أن يدعو الله تعالى بغير واسطة ولا وسيلة لتدنسه بالذنوب فيحتاج الى من يقربه اليه من أولئك الطاهرين ، وشبهتهم أن الملوك العظام في الدنيا لا يدخل أحد عليهم إلا باذن ووزرائهم وحجابهم . ومن الغريب أن هذه الشبهة الشركية لا تزال متسلسلة في جميع المشركين ، حتى من أشرك من أهل الكتاب والمسلمين ، الذين خافوا نصوص الكتب الالهية وسنة الرسل الى أعمال الوثنيين ؟ ولا يرون بأساً في تشبيه رب العالمين وأرحم الراحمين ، بالملوك الظالمين المستبدين ، وأما معنى الآية فالاستفهام فيه للانكار والتوبيخ وهو داخل على فعل حذف للعلم به من سياق القول كما تقدم في أمثاله والتقدير: أكذبوا الرسول ولم يتفكروا في حاله من أول نشأته ، وفي حقيقة دعوته ، ودلائل رسالته ، وآيات وحدانية ربه ، وقدرته على إعادة الخلق كما بدأهم وحكمته في ذلك — فان حذف معمول التفكير يؤذن بعموم ما يدل عليه المقام مما تقتضيه الحال كما هي القاعدة المعروفة في علم المعاني — ألا فليتفكروا والمقام مقام تفكر وتأمل ، انهم ان تفكروا أو شك أن يعرفوا الحق ، وما الحق ؟ ( ما بصاحبهم من جنة ) جملة مستأنفة لبيان الحق في أمر الرسول نفيًا وإثباتًا فهي نافية لما رموه به من الجنون كقوله تعالى ( ما أنت بنعمة ربك بمجنون ) وقوله ( وما صاحبكم بمجنون ) ومثلها آية سبأ ( ثم تفكروا : ما بصاحبكم من جنة ) ولذلك ختمت بنفي كل صفة عنه في موضوع رسالته الا كونه منذرًا مبلغًا عن ربه فقال هنا ﴿ ان هو الا نذير مبين ﴾ الا نذار تعاليم وارشاد مقترن بالتخويف من مخالفته أي ليس بمجنون : ايس الا منذرًا ناصحًا ، ومبلغًا عن الله مبينًا ، يندرك ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة اذا لم تستجيبوا له ، وقد دعاكم لما يحييكم في الدنيا بجمع كلمتكم ، واصلاح أفرادكم ومجتمعكم ، والسيادة على غيركم ، ويحييكم في الآخرة بقاء ربكم . وقال هنالك ( ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد )

وقد برع عنه في هاتين الآيتين وفي آية التكوير بالصاحب لهم لتذكيرهم بأنه يعرفونه من أول نشأته الى أن تجاوز الأربعين من عمره ، فما عليهم إلا أن يتفكروا حق التفكير في سيرته الشريفة المعقولة ليعلموا أن الشذوذ ومجافاة المعقول ليس من دأبه ولا مما عهد عنه ، وكذلك الكذب كما قال بعض زعمائهم من أهل مكة : إن محمداً لم يكذب قط على أحد من الناس أفيكذب على الله ؟ وقد قال تعالى في أولئك الزعماء (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون )

وقد بينا في تفسيرنا هذا شبهة المشركين على الرسل بكونهم بشرآ مع الرد عليها <sup>(١)</sup> كذلك شبهاتهم على البعث مع الرد عليها <sup>(٢)</sup>

ولو تفكر مشركوا مكة في نشأة النبي « ص » وأخلاقه وآدابه وما جربوا من أماته وصدقته من صبوته الى أن اكتمل ، ثم تفكروا فيما قام يدعوهم اليه من توحيد الله بعبادته وحده ومن كون حكته في خلقه السموات والارض بالحق تقتضي تنزهه عن العبث (ومنه) أن يكون هذا الانسان السميع البصير العاقل البهائم عن حقائق الاشياء من ماض وحاضر وآت ، ينتهي وجوده بالعدم المحض الذي هو في نفسه محال ، ثم لو تفكروا في سوء حالهم الدينية ( كعبادة الأصنام ) والأدبية والمدنية والاجتماعية وما دعاهم اليه من اصلاحها كلها - لعلموا ان هذا الاصلاح الديني والادبي والاجتماعي والسياسي لا يثمر الا السيادة والسعادة ، وانه لا يمكن أن يكون مصدره جنون من دعا اليه ، بل اذا كان فيه شيء غير معقول فهو انه لا يمكن أن يكون هذا العلم العالي والاصلاح الكامل من رأي محمد بن عبد الله الأبي الناشيء بين الأميين - ولا أن تكون هذه البلاغة المعجزة للبشر في أسلوب القرآن ونظمه من كسب محمد الذي بلغ الأربعين ولم ينظم قصيدة ولا ارتجل خطبة - وأن هذه الحجج البالغة على كل ما يدعو اليه القرآن ، والبراهين العقلية والعلمية الكونية لا يأتى أن تأتي فجأة من ذي عزلة لم يناظر ولم يفاخر ولم يجادل أحداً فيما مضى من عمره كمحمد بن عبد الله - فاذا تفكروا في هذا كله جزموا بان هذا كله وحي من الله تعالى

(١) راجع ص ٣٠٩ و ٣١٥ من ج ٧ تفسير وص ٢٧٨ و ٤٩٥ ج ٨ منه

(٢) راجع ص ٣٥٧ ج ٧ تفسير وص ٢٨٣ و ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨ منه

ألقاه في روعه، ونزل من لدنه على روجه، وعلّموا ان استبعادهم لذلك جليل منهم، فأنه تعالى القادر على كل شيء، يختص برحمته من يشاء. لهذا حثهم على التفكر في هذا المقام من هذه السورة وغيرها وذكر بعدها كونه نذير آميننا، ونذير آيين يدي عذاب شديد. ثم انه دعاهم بعد هذا الى النظر والاستدلال العقلي فقال

﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء وان

عسى أن يكون قد اقترب أجلمهم ﴾ الملكوت الملك العظيم كما تدل عليه صيغة (فعلوت) والمراد بملكوت السموات والارض مجموع العالم لأن الاستدلال به على قدرة الله تعالى وصفاته ووحدانيته أظهر، فان العالم في جملة لا يمكن أن يكون قديما أزليا ولا نزاع بين علماء الكون في إمكانه ولا في حدوث كل شيء منه وإنما يختلفون في مصدره ومم وجود. وهو لا يمكن أن يكون من عدم محض لأن العدم المحض لاحقيقة له في الخارج بل هو أمر فرضي فلا يعقل أن يصدر عنه وجود — ولا يمكن أن يكون بعضه قد أوجد البعض الآخر وهذا يديهي ولذلك لم يقل به أحد، فلا بد اذا من أن يكون صادرا عن وجود آخر غيره وهو الله واجب الوجود. ثم إن هذا النظام العام في الملكوت الاعظم يدل على أن مصدره واحد وتديره راجع الى علم عليهم واحد وحكمة حكيم واحد، سبحانه وتعالى (أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والارض؟ بل لا يوقنون)

ومعنى الآية أ كذبوا الرسول المشهور بالامانة والصدق، وقالوا: إنه المجنون وهو المعروف عندهم بالرؤية والعقل، حتى جعلوا تحكيمه في تنازعهم على رفع الحجر الاسود هو الحكم الفصل - ولم ينظروا نظر تأمل واستدلال في مجموع ملكوت السموات والأرض على عظمته، والنظام العام الذي قام بجملة، وما خلق الله من شيء، في كل منها وإن دق وصغر، وخفي واستتر، ففي كل شيء من خلقه له آية تدل على علمه وقدرته، ومشيتته وحكمته، وفضله ورحمته، وكونه لم يخلق شيئا عبثا، ولا يترك الناس سدى، تدل على ذلك بوجود ذلك الشيء بعد ان لم يكن، وبتبرجيح كل وصف من أوصافه على ما يقابله، وبما فيها من فائدة ومنفعة، فكيف بالملكوت

الاعظم في جملته ، والنظام البديع الذي قام هو به؟ أكذبوا وقالوا ما قالوا ولم ينظروا في العالم الأكبر ، ولا في ذرات العالم الأصغر ، نظر تأمل واعتبار ، وتفكر واستدلال ، ولا فيما عسى أن يكون عليه الشأن من اقتراب أجلمهم ، وقدمهم على الله تعالى بسوء عملهم ، فأجل الافراد مها يطل فهو قصير ، ومها يعد أملهم فيه فهو في الحق الواقع قريب ، ولو نظروا في الملكوت أو في شيء مامنه ، واعتبروا بخلق الله تعالى إياه ، لاهتدوا بدلائله إلى تصديق الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، ولو نظروا في توقع قرب أجلمهم لاحتاطوا لأنفسهم ورأوا أن من العقل والروية أن يقبلوا إنذاره (ص) لهم ، لأن خيريته لهم في الدنيا ظاهرة لم يكونوا ينكرونها ، وأما خيريته في الآخرة فهي أعظم إذا صدق ما يقرره من أمر البعث والجزاء وهو صدق وحق ، وإن صح إنكارهم له — وما هو بصحيح — فلا ضرر عليهم من الاحتياط له ، كما قال الشاعر :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعثُ الامواتُ قلتُ إليكما  
إن صح قولكما فليست بخاسر أو صح قولي فليخسر عليكما  
فالمجنون إذاً من يترك ما فيه سعادة الدنيا باعترافه ، وسعادة الآخرة ولو على احتمال لا ضرر في تخلفه ، لا من يدعو إلى السعادتين ، أو إلى شيئين يجزمون بأن أحدهما نافع قطعاً والآخر إما نافع وإما غير ضار . هذا مادعاهم إليه صاحبهم بكتاب ربهم مؤيداً بالبراهين العقلية والعلمية ، لعلمهم يعقلون ويعلمون ،

( فبأي حديث بعده يؤمنون ) وردت هذه الآية بنصها في آخر سورة المرسلات (٧٧) التي أقيمت فيها الدلائل على البعث والجزاء وتهديد المكذابين بالويل والهلاك بعد تقرير كل نوع منها . وورد في الآية الخامسة من سورة الجاثية (٤٥) بعد التذكير بآيات الله للمؤمنين وآياته لقوم يوقنون وآياته لقوم يعقلون قوله : ( تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ) والحديث في الجميع كلام الله الذي هو القرآن ، يدل عليه هنا قوله تعالى في رسوله ( إن هو إلا نذير مبين ) وفي آية المرسلات القرينة في تهديد المكذابين له . وفي آية الجاثية افتتاح السورة بذكر الكتاب فيكون معناها فبأي حديث بعد كتاب

الله المذكور في الآية الأولى وآياته المشار إليها بعدها يؤمنون ؟  
 والمراد ان محمداً رسول الله (ص) نذير مبين عن الله تعالى وانما أنذر الناس  
 بهذا الحديث أي القرآن كما أمره أن يقول (٦ : ١٩) وأوحى الي هذا القرآن  
 لأنذركم به ومن بلغ) وهو أكمل كتب الله بياناً ، وأقواها برهاناً ، وأقبرها  
 سلطاناً ، فمن لم يؤمن به فلا مطمع في إيمانه بغيره ، ومن لم يرو ظياه الماء النقاخ  
 المبرد فأي شيء يرويه ؟ ومن لم يبصر في نور النهار في أي نور يبصر ؟ ثم قال تعالى  
 ﴿ من بضل الله فلا هادي له ﴾ هذا استئناف بياني مقرر لجملة هذا السياق ،  
 ومعنى الجملة المراد أن الله تعالى قد جعل هذا القرآن أعظم أسباب الهداية وانما  
 جعله هدى للمتقين ، لا لجاجدين المعاندين ، وجعل الرسول المبلغ له أكمل الرسل  
 وأقواهم برهاناً في حاله وعقله وأخلاقه وكونه أمياً - فمن فقد الاستعداد للإيمان  
 والهدى بهذا الكتاب على ظهور آياته وقوة بيناته ، وبهذا الرسول المتحدي به -  
 فهو الذي أضله الله ، أي قضت سنته في نظام خلق الانسان ، وارتباط المسببات  
 في أعماله بالأسباب ، بأن يكون ضالاً راسخاً في الضلال ، واذا كان ضلاله بمقتضى  
 سنن الله ، فمن يهديه من بعد الله ؟ ولا قدرة لأحد من خلقه على تغيير سنته ولا تبديلها  
 ﴿ ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ أي وهو تعالى يترك هؤلاء الضالين في طغيانهم  
 كالشيء القما الذي لا يبالي به حاله كونهم يعمهون فيه أي يترددون تردداً خيرة والنعمة  
 لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، وفي هذا بيان لسبب ضلالهم من كسبهم ، وهو  
 الطغيان أي تجارز الحد في الباطل والشر من الكفر والظلم والنجور الذي ينتهي  
 بالعمه وهو التردد في الخيرة ، والارتكاس في النعمة . وقد روعي في أفراد الضمير  
 أولاً لفظ « من يضال » وفي جمعه آخرها معناها وهو الجمع ، ونظائره كثيرة  
 وقد علم مما قررناه أن اسناد الاضلال الى الله تعالى ليس معناه انه أجبرهم  
 على الضلال إجباراً ، وأعجزهم بقدرته عن الهدى فكان ضلالهم اضطراراً لا اختياراً ،  
 بل معناه أنهم مارسوا الكفر والضلال وأسرفوا فيها حتى وصلوا الى حد العمه  
 في الطغيان ، ففقدوا بهذه الاعمال الاختيارية ما يضادها من الهدى والايمان  
 وقرأ حمزة والكسائي يذرهم باسكان الراء فقل هو للتخفيف وقيل للأعراب  
 بالعطف على جواب الشرط وقرأه بعض القراء بالنون على الالتفات



## ﴿تحقيق معنى الفكر والتفكير والنظر العقلي﴾

من تحقيق المباحث اللفظية في الآيات كمتا التفكير والنظر العقلي وقد عبرنا  
 بالتفكير في موضوع استنباه كون النبي (ص) ليس بمجنون كما زعم بعض غوااتهم، وبالنظر  
 في جملة الملكوت وجزئياته في موضوع الايمان بما جاءهم به الرسول من كتاب الله  
 تعالى، فنيين ذلك بما تظهر به نكتة الفرق بين التعبيرين، ويتجلى تفسير الآيتين:  
 الفكر بالكسر عبارة عن التأمل في المعاني وتدبرها وهو اسم من فكر  
 يفكر فكراً (من باب ضرب) وفكر بالتشديد وتفكر: ومثله الفكرة والفكري.  
 وفسروه أيضاً بأعمال الخاطر وإجالاته في الأمور، وقال الراغب: الفكرة مطرقة  
 للعالم الى المعلوم، والتفكير جولان تلك القوة بحسب نظر العقل . . . . ولا يقال  
 إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب ولهذا روي « تفكروا في آلاء الله ولا  
 تفكروا في الله » إذ كان منزهاً أن يوصف بصورة . ثم أورد الشواهد من الآيات  
 ومنها آية الاعراف هذه . ثم نقل عن بعض الادباء أن الفكر مقلوب عن الفك  
 لكنه يستعمل في المعاني وهو فرك الامور وبمجها طلباً للوصول الى حقيقتها اه  
 وقال علماء المنطق الفكر ترتيب أمور معلومة للتوصل إلى مجهول تصوري أو  
 تصديقي، وهو ينافي الحكم على ظواهر الأشياء، أو فيها بادي الرأي من غير تمحيص  
 ولا تقدير . واستعمال القرآن للتفكير والتفكير يدل على أنهما في العقليات المحضه أو في  
 العقليات التي مبادئها حسيات، فالإنسان يفكر فيما ينبغي أن يقوله في المواقف التي  
 تميز الاقوال، وفيما ينبغي أن يفعله حيث تنتقد الافعال، ويفكر في أقوال الناس  
 وأفعالهم، ويفكر في الأمور الاجتماعية والأدبية والدينية والسياسية، ويفكر أيضاً  
 في المبصرات كالسموعات والمعقولات، وأكثر ما استعمله التنزيل في آيات الله  
 ودلائل وجوده ووحدانيته وحكمته ورحمته

وأما النظر فقد قال الراغب في تعريفه: هو قلب البصر أو البصيرة في  
 ادراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص وقد يراد به المعرفة الحاصلة  
 بعد الفحص وهو الروية، يقال نظرت فلم تنظر أي لم تتأمل ولم تترو . وقوله تعالى

(قل انظروا ماذا في السموات والارض) أي تأملوا. واستعمال النظر في البصر أكثر عند العامة ، وفي البصيرة أكثر عند الخاصة . اه وقد اختلف علماء المعقول من المناطقة والمتكلمين في الفكر والنظر هل هما مترادفان أو أحدهما أخص من الآخر ولهم كلام طويل في ذلك أكثره اصطلاحى غير مقيد باستعمال اللغة .

واستعمال القرآن يدل على أن النظر العقلي مبدأ من مبادئ الفكر والتفكير ، كما أن مبدأه هو النظر الحسي في الغالب كقوله تعالى ( أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت ؛ الخ وقوله ( أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها ) الخ ومنه النظر في عاقبة الامم برؤية آثارها في عدة آيات والشواهد على ذلك في التنزيل معروفة فلا تطيل في سردها . والآيات التي نحن بصدد تفسيرها جمعت بين المبدأ الحسي وهو ملكوت السموات والارض والمبدأ الفكري وهو اقتراب الاجل ، وهما وما في معناهما يدلان على بناء الدين الاسلامي على قاعدتي النظر العقلي والتفكر اللذين يمتاز بهما الافراد والامم بعضها على بعض والله اعلم وأحكم

(١٨٧) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِمُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآتَاءُ تِيكُمْ إِلَّا بَعْثَةً . يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنها ارشاد الى النظر والتفكر في أمر الساعة التي ينتهي بها أجل جميع الناس ، في أمر الارشاد الى النظر والتفكر في اقتراب أجل من كانوا في عصر التنزيل وعهد نزول هذه السورة منهم ، وبعبارة أخرى أنها كلام في الساعة العامة ، بعد الكلام في الساعة الخاصة . قال تعالى :

( يسألونك عن الساعة أيان مرساها ) الساعة في اللغة جزء قليل غير معين من الزمان ، وتسمى ساعة زمانية ، ومنه قوله تعالى في أوائل هذه السورة ( ٣٣

لا يستأخرون عنه ساعة ) وفي اصطلاح الفلكيين جزء من ٢٤ جزءاً متساوية من اليوم والليالة وهي تنقسم إلى ٦٠ دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية - وقد صار هذا التقسيم عرفاً عاماً في جميع البلاد الحضرية يضبط بألة تسمى الساعة وكان معروفاً عند العرب وثبت في الحديث « يوم الجمعة اثنتا عشرة ساعة » يعني نهارها .

وفي لسان العرب : الساعة جزء من أجزاء الليل والنهار والجمع ساعات وساع وجاءنا بعد سوع من الليل وبعد سواع . أي بعد هده منه - أو بعد ساعة . والساعة الوقت الحاضر . وقوله تعالى ( ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ) يعني بالساعة الوقت الذي تقوم فيه القيامة فلذلك ترك أن يعرف أي ساعة هي . فان سميت القيامة ساعة فعلى هذا . والساعة القيامة . وقال الزجاج اسم للوقت الذي تصعق فيه العباد والوقت الذي يبعثون فيه وتقوم فيه القيامة ، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأولى التي ذكرها الله عز وجل فقال ( إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم خامدون )

ثم ذكر أنه تكرر ذكرها في القرآن والحديث وانها تطلق في الاصل بمعنيين وهما ما ذكرنا أولاً من الساعة الزمانية والساعة الفلكية ، وقال في المعنى الأول : يقال جلست عندك ساعة من النهار أي وقتاً قليلاً منه ثم استعير لاسم يوم القيامة . قال الزجاج : معنى الساعة في كل القرآن الوقت الذي تقوم فيه القيامة - يريد أنها ساعة خفية يحدث فيها أمر عظيم ، فلقلة الوقت الذي تقوم فيه سماها ساعة اه

أقول الصواب أنها استعملت في القرآن منكرة بمعنى الساعة الزمانية ومعرفة بالالف واللام العهدية بمعنى الساعة الشرعية، وهي ساعة خراب هذا العالم وموت أهل الارض، وجمع بينهما في قوله تعالى ( ٣٠ : ٥٤ و ٥٥ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون : ما لبثوا غير ساعة ) وقيل ان هذا القول هو وجه تسميتها بالساعة

والغالب في استعمال القرآن التعبير بيوم القيامة عن يوم البعث والحشر الذي يكون بعد الموت الذي يكون فيه الحساب وما يتلوه من الجزاء - والتعبير بالساعة عن الوقت الذي يموت فيه الاحياء في هذا العالم ويضطرب نظامه ويخرب بما يكون فيه من الاهوال يتلو بعضها بعضاً ، فالساعة هي المبدأ والقيامة هي الغاية ففي الاولى

الموت والهلاك، وفي الآخرة البعث والجزاء . وبعض التعبيرات في كل منها يحتمل حلوله محل الآخر في الغالب، وفي المعنى المشترك الذي يعم المبدأ والغاية. وحمل بعض المفسرين الآيات على القيامة الصغرى لكل فرد وهي ساعة موته ، و زاد بعضهم القيامة الوسطى وهي هلاك الجيل أو القرن، وفسروا به حديث « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » رواه البخاري من حديث أبي هريرة . وقد يراد بالساعة هنا ساعة زوال الدولة لان هذا من شؤونها واستدلوا عليه بحديث « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً . وفي حديث عائشة من صحيح مسلم : كان الأعراب يسألون رسول الله (ص) عن الساعة فنظر إلى أحدث انسان منهم فقال « إن يعيش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم » ومثله من حديث أنس عنده أيضاً وهو أصرح من حديث أبي هريرة لاضافة الساعة اليهم . قال الداوودي هذا الجواب من معارضض الكلام فانه لو قال لهم : لا أدري - ابتداء مع ما هم فيه من الجفاء وقبل تمكن الايمان في قلوبهم - لارتابوا فعدل الى اعلامهم بالوقت الذي ينقضون هم فيه . وقال الكرماني ان هذا الجواب من الاسلوب الحكيم ، أي دعوا السؤال عن وقت القيامة الكبرى فانها لا يعلمها الا الله ، واسألوا عن الوقت الذي يقع فيه انقراض عصركم فهو أولى لكم لان معرفتكم ببعثكم على ملازمة العمل الصالح قبل فوته لأن أحدكم لا يدري من الذي يسبق الآخر اه وقال ابن الجوزي كان النبي (ص) يتكلم بأشياء على سبيل القياس وهو دليل معمول به فكانه لما نزلت عليه الآيات في قرب الساعة كقوله تعالى ( أتى أمر الله فلا تستعجلوه ) وقوله ( وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب ) حمل ذلك على أنها لا تزيد على مضي قرن واحد، ومن ثم قال في الدجال « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه » فجوز خروج الدجال في حياته . قال وفيه وجه آخر - وذكر مثل ما تقدم عن الداوودي ورجحه الحافظ في الفتح .

ومما اختلفوا في تفسير الساعة فيه بالوجوه الثلاثة المذكورة قوله تعالى ( ٦ : ٣١ ) قد خسر الذين كذبوا بآلاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرنا على ما فرطنا فيها ) وقوله تعالى ( ٦ : ٤٠ ) قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير

الله تدعون إن كنتم صادقين؟) ويراجع تفسيرهما في الجزء السابع .

وحيث يذكر قيام الساعة كآيات سورة الروم الثلاث ( ١٠ و ١٢ و ٥٣ ) وآية سورة غافر ( ٤٠: ٤٦ ) ويوم تقوم الساعة: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) فالمبتدأ منه غايتها يوم البعث والحساب والجزاء - وحيث يذكر التكذيب بها أو الممازاة فيها فالمراد المعنى العام لكل ما وعد الله به وأوعد من أمر مبدئها وغايتها وحيث يذكر اقتراب الساعة أو مجيئها وإثباتها ولا سيما إذا قرن ببغمة فالمبتدأ منه مبدأ القيامة وخراب العالم الذي نعيش فيه ومن هذا القبيل السؤال عنها فإن السؤال يكون عن أول الأمر المنتظر في الغالب ومنه آية الاعراف التي نحن بصدد تفسيرها .

فقوله تعالى ﴿ أيا ن مرساها ﴾ معناه يسأونك أيها الرسول عن الساعة قائمين أيا ن مرساها أي متى إرساؤها وحصولها واستقرارها - أو يسأونك عنها من حيث زمن مجيئها وثبوتها بالوقوع والحصول . فأيا ن ظرف زمان ، ومرساها مصدر معناه إرساؤها يقال رسا الشيء يرسو ثبت ، وأرساه غيره ، ومنه ارساء السفينة وإيقافها بالمرساة التي تلتقى في البحر فتمنعها من الجريان ، قال تعالى ( باسم الله مجراها ومرساها ) وقال ( والجبال أرساها ) .

وفي السؤال عن زمن وقوعها بحرف الارساء الدال على استقرار ما شأنه الحركة والجريان أو الميذان والاضطراب نكتة دقيقة هي في أعلى درج البلاغة . وهو أن قيام الساعة عبارة عن انتهاء أمر هذا العالم وانقضاء عمر هذه الارض التي تدور عن نفسها من العوالم المتحركة المضطربة ، فعبر بارسائها عن منتهى أمرها ووقوف سيرها ، والساعة زمن وهو أمر مقدر ، لا جسم سائر أو مسير ، وما يقع فيها ويعبر بها عنه فهو حركة اضطراب وزلزال ، لارسو ولا إرساء ، وهو أمر مستقبل لا حاصل ، ومتوقع لا واقع ، وقوله تعالى ( ٥٢ : ٦ ) ان عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ) معناه انه سيقم حتما ، ولذلك علق به بيان ما يقع فيه بقوله ( ٨ يوم تمور السماء موراً ٩ وتسير الجبال سيراً ١٠ ويل يومئذ للمكذبين ) فلم يبق لارسائها معنى الا ارساء حركة هذا العالم فيها . وانه لتعبير بليغ ، لم يعهد له في كلام

البلغاء نظير ، ولم أر أحدا نبه لهذا . وذكر الساعة أولا والاستفهام عن زمن وقوعها ثانياً على قاعدة تقديم الأهم وهو المقصود بالذات .

قيل ان المراد بالسائلين هنا اليهود سأواوه عنها امتحاناً قالوا إن كان نبياً فإنه لا يعين لما زعمنا لان الله تعالى لم يطالع على ذلك أحداً من رسله ، وقيل قريش ويرجح أن السورة مكية ولم يكن في مكة أحد من اليهود ، وصيغة يسألونك المتبادر منها الحال لا الاستقبال البعيد . وفي آية الأحزاب (٣٣ : ٦٣) يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ( وهذه مدنية . قال ابن كثير بعد ترجيح كون السائلين من قريش : وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكديباً بوجودها كما قال تعالى ( ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ) وقال تعالى (٤٢ : ١٦) يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق \* إلا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ) وقوله ( أيا نمرساها ) قال علي بن طلحة عن ابن عباس : منتهاها . أي متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة اهـ

﴿ قل إنما علمها عند ربي ﴾ قل أيها النذيران علم الساعة عند ربي وحده ليس عندي ولا عند غيري من الخلق شيء منه . وهذا ما يدل عليه لفظ « إنما » من الحصر كما قال تعالى في الآية التي فسر بها النبي ﷺ مفاتيح الغيب ( ٣١ : ٣٤ ) ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ) أي عنده لا عند أحد سواه . ومثله قوله تعالى ( ٤١ : ٤٦ ) إليه يرد علم الساعة وما يخرج من ثمرات من أكلها ) الآية أي يرد إليه وحده لا إلى غيره . وأشبه الآيات الدالة على استئثار علم الله تعالى بالساعة بآية الاعراف آيتان آية الأحزاب ( ٣٣ : ٦٣ ) وذكرناهما آنفاً . وآية أواخر النزاعات وما بعدها : ( ٧٩ : ٤٢ ) يسألونك عن الساعة أيا نمرساها ٤٣ فبم أنت من ذكرها ٤٤ إلى ربك منتهاها ٤٥ إنما أنت منذر من يخشاها ٤٦ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ) أي إلى ربك وحده من دونك ودون سائر خلقه انتهى أمر الساعة الذي يسألونك عنه ، وإنما أنت منذر لاهل الإيمان الذين يخشونها ويستمدون لها لا تعذر وظيفة الإنذار والتعليم والارشاد :

فهذه الآيات كآية الاعراف سؤالاً وجواباً فالسؤال عن الساعة من حيث  
 ارساؤها ومنتهاى أمرها، والجواب رد ذلك الى الرب مضافاً الى ضمير رسوله فما أخبره  
 به في قوله ( الى ربك منتهاها ) هو ما أمره أن يجيب به في قوله ( قل إنما علمها عند  
 ربي ) وفيه ايدان بأن ما هو من شأن الرب، لا يكون للعبد ، فهو تعالى قد ربه ليكون  
 منذراً ومبشراً ، لا للاخبار عن الغيوب باعيانها وأوقانها، ولا نذار إنما يناط بالإعلام  
 بالساعة وأهوالها، والنار وسلسلها وأغلاها ، ولا تتم الفائدة منه الا بإبهام وقتها،  
 ليخشى أهل كل زمن اتيانها فيه . والإعلام بوقت اتيانها وتحديد تاريخها ينافي  
 هذه الفائدة بل فيه مفسد أخرى ، فلو قال الرسول للناس ان الساعة تأتي بعد ألفي  
 سنة من يومنا هذا، مثلاً - وألف سنة في تاريخ العالم وآلاف السنين تعد أجلاً قريباً  
 لرأى المكذبين يستهزؤن بهذا الخبر ويلحون في تكذيبه ، والمرتابين يزدادون  
 ارتياباً ، حتى إذا ما قرب الاجل وقع المؤمنون في رعب عظيم ينغص عليهم  
 حياتهم ، ويوقع الشلل في أعضائهم، والشلج في أعصابهم، حتى لا يستطيعون عملاً،  
 ولا يسيغون طعاماً ولا شراباً، ومنهم من يخرج من ماله وما يملكه ، من  
 حيث يكون الكافرون آمنين، يسخرون من المؤمنين ، وقد وقع في أوربة أن أخبر  
 بعض رجال الكنيسة الذين كان يقدم الجمهور بان القيامة تقوم في سنة كذا فهلعت  
 القلوب واختلت الاعمال، وأهمل أمر العيال، ووقف المصدقون ما يملكون على الكنائس  
 والاديار، ولم نهداً الانفس ويشوب اليها رشدها الا بعد ظهور كذب النبأ عجبي . أجله  
 دون وقوعه، فالحكمة البالغة اذاً في إبهام أمر الساعة العامة للعالم، وكذا الساعة الخاصة  
 بأفراد الناس، أو بالأتم والاجيال، وجعلها من الغيب الذي استأثر الله تعالى به، على  
 ما سنذكر في إيضاحه ، فذلك قال بعد حصر أمرها في علمه .

﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ هذا جواب عن طلب معرفة الوقت الذي يكون  
 ارساؤها فيه، يقال جلا لي الامر وانجلي ، وجلاه فلان تجلية بمعنى كشفه وأظهره  
 أتم الاظهار . واللام الداخلة على وقتها تسمى لام التوقيت كقولهم : وكتب هذا  
 الكتاب لغرة المحرم أو لعشر مضين أو بقين من صفر . والمعنى لا يكشف  
 حجاب الحفاء عنها ولا يظهرها في وقتها المحدود عند الرب تعالى إلا هو ، فلا

وساطة بينه وبين عبادته في اظهارها ولا الاعلام بميقاتها، وإنما وساطة الرسل (عليهم السلام) في الانذار بها

وقتي على هذا الايتاس من علم أمرها والانبا بوقت وقوعها بقوله في تعظيم شأنها وسر إخفاء وقتها ﴿ثقلت في السموات والارض﴾ أي ثقل وقوعها وعظام أمرها في السموات والارض على أهلها من الملائكة والانس والجن، لأن الله تعالى نبأهم بأهوالها، ولم يشعرهم بميقاتها، فهم يتوقعون أمراً عظيماً لا يدرون متى ينفجؤهم وقوعه. روي عن قتادة في تفسير الجملة أنه قال: ثقل علمها على أهل السموات والارض أنهم لا يعلمون. وقال السدي: خفيت في السموات والارض فلا يعلم قيامها لك مقرب ولا نبي مرسل. فهذان القولان تفسير لثقلها بفقد العلم بها فان المجهول ثقيل على النفس ولا سيما اذا كان عظيماً، وروي عن معمر وابن جريج أن ثقلها يكون يوم مجيئها (اذا الشمس كورت) - و - اذا السماء انفطرت، واذا الكواكب انتثرت، - و - اذا رحمت الارض رجاً \* وبست الجبال بساً \* فكانت هباء منبثاً) وغير ذلك مما وصفه الله تعالى من أمر قيامها. وعن ابن عباس في ثقلها: ايس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة. ولكل رواية وجه صحيح، والمتبادر من الجملة ما ذكرناه أولاً وهو يتفق مع جملة هذه الروايات.

﴿لاتأتينكم إلا بغتة﴾ أي فجأة على حين غفلة، من غير توقع ولا انتظار، ولا اشعار ولا انذار. وقد تكرر هذا القول في التنزيل، وجاء في حديث أبي هريرة من الصحيحين واللفظ للبخاري « ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته<sup>(١)</sup> فلا يطعمه، ولتقوم الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقي فيه<sup>(٢)</sup> ولتقوم الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها» والمعنى أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم المعتادة، وأبلغ من هذا قوله تعالى في أول سورة الحج (١:٢٢) - يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ٢ يوم

(١) اللقحة الناقة ذات الدر «٢» يلبط حوضه بالضم من الألط: طلا حجارتها بالطين أو غيره كالجص ليمسك الماء ويحفظه والثلاثي منه لاطه يلوطه



ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد )  
 فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم ، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا فيها الحق ، ويتحروا الخير ، ويتقوا الشرور والمعاصي ، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدال ، والقييل والقال . وانا نرى بعض المتأخرين قد شبهوا المسلمين عن ذلك يبحث افتجره بعض الغلاة وهو أن النبي ﷺ لم يبق طول عمره لا يعلم متى تقوم الساعة كما تدل عليه آيات القرآن الكثيرة بل أعلمه الله تعالى به ، بل زعم أنه أطاعه على كل ما في علمه ، فصار علمه كعلم ربه — أي صار نداً وشريكاً لله تعالى في صفة العلم المحيط بالغيوب التي لانهاية لها ، ومن أصول التوحيد انه تعالى لا شريك له في ذاته ولا في صفة من صفاته ، والرسول عبد لله لا يعلم من الغيب إلا ما أوحاه الله تعالى اليه لأداء وظيفة التبليغ . وستزداد علما يبطلان هذا الغلو خاصة في تفسير الآية التالية . ولكن الغلاة يرون من التقصير في مدح النبي ﷺ وتعظيمه أن تكون صفاته دون صفات ربه وإلهه وخالق الخلق أجمعين . فكذبوا كلام الله تعالى وشبهوا به بعض عباده إرضاء لغلوهم ، ومثل هذا الغلو لم يعرف عن أحد من سلف هذه الامة ، ولو أراد الله تعالى أن يعلم رسوله ﷺ بوقت قيام الساعة بعد كل ما أنزله عليه في اخفائها واستثاره بعلمها لما أكده كل هذا التأكيد في هذه السورة وغيرها كقوله عز وجل :

﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ الخ . يسألونك هذا السؤال كأنك حفي مبالغ في سؤال ربك عنها — أو يسألونك عنها كأنك حفي بهم — فعنها متعلق يسألونك وجملة « كأنك حفي » معترضة . قال في مجاز الاساس : أحفي في السؤال : ألحف ... وهو حفي عن الامر : بليغ في السؤال عنه ، ( كأنك حفي عنها ) وقال الاعشى :

فان تسألني غني فيارب سائل حفي عن الاعشى به حيث أصعدا  
 واستحفيته عن كذا : استخبرته على وجه المبالغة . ونحفي بي فلان ، وحفي بي

حفاوة، اذا تطف بك وبالغ في اكرامك اه . أقول ومنه قوله تعالى حكاية عن خليفه ابراهيم عليه وعلى نبينا وآلهما الصلاة والسلام ( إنه كان بي حفيًا )  
وفي تفسير ابن كثير : عن العوفي عن ابن عباس ( يسألونك كأنك حفي عنها )  
يقول : كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم . قال ابن عباس : لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله اليه إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع عليه ملداً مقرباً ولا رسولا . وقال قتادة : قالت قرش لمحمد ﷺ إن بيننا وبينك قرابة فأشر الينامتي الساعة؟ فقال الله عز وجل ( يسألونك كأنك حفي عنها ) وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك والسدي ، هذا قول والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجیح وغيره ( يسألونك كأنك حفي عنها ) قال : استخفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها . وكذا قال الضحاك عن ابن عباس ( يسألونك كأنك حفي عنها ) يقول كأنك عالم بها ، لست تعلمها ، قل إنما علمها عند الله . وقال معمر عن بعضهم ( كأنك حفي عنها ) كأنك عالم بها ، وقد أخفى الله علمها عن خلقه، وقرأ ( إن الله عنده علم الساعة ) الآية . ( قال ابن كثير ) وهذا القول أرجح في المعنى من الاول والله أعلم ، ولهذا قال

﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾ هذا تكرر للجواب في إثر تكرر السؤال للبالغة في التأكيد والايثاس من العلم بوقت مجيئها ، وتخطئة من يسألون عنه ، وقد ذكر هنا اسم الجلالة للاشعار بأنه مما استأثر بعلمه لذاته، كما أشعر ما قبله بأنه من شؤون

ربوبيته ، وكل منهما مما يستحيل على خلقه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ اختصاص علمها به تعالى ولا حكمة ذلك، ولا أدب السؤال، ولا غير ذلك مما يتعلق بهذا المقام، وإنما يعلم ذلك القليلون وهم المؤمنون بما جاء من أخبارها في كتاب الله تعالى وبالسمع من رسوله ﷺ كالذين حضروا مثل جبريل عليه السلام بصفة رجل وسؤاله للنبي ﷺ عن الايمان والاسلام والاحسان ثم عن الساعة . وقول النبي ﷺ له عند السؤال الاخير « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » يعني اننا سواء في هذا الامر لا يعلم أحد منا متى تقوم الساعة

﴿ فصل فيما ورد في قرب الساعة وواشراؤها وما قيل في عمر الدنيا ﴾

ان ما ورد في بعض الاحاديث من قرب قيام الساعة حق مقتبس من القرآن  
 كآية الاحزاب التي ذكرت قريبا ومثلها آية الشورى ( ٤٢ : ١٧ ) وما يدريك لعل  
 الساعة قريب ) وفي معناهما قوله تعالى في سياق الرد على منكري البعث والاعادة  
 ( ١٧ : ٥١ ) ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا ) وفي التعبير عن قرب بلعل  
 وعسى ما يناسب عدم إطلاع الله لرسوله على وقته . ولا شك ان قرب ذلك اليوم  
 الذي مقداره من مبدئه الى غايته خمسون الف سنة مناسب له ، ولما تقدم من عمر  
 الدنيا وما بقي منه - فالقرب والبعد من الامور النسبية والمراد قربها بالنسبة إلى  
 ماضى من عمر الدنيا ولا يعلمه إلا الله تعالى

وما جاء في الآثار من أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة مأخوذ من الاسرائيليات  
 التي كان يشها زنادقة اليهود والفرس في المسلمين حتى روه مرفوعا ، وقد اغتر بها  
 من لا ينظرون في نقد الروايات إلا من جهة أسانيدها حتى استنبط بعضهم منها ما بقي  
 من عمر الدنيا . وللجلال السيوطي في هذا رسالة في ذلك قد هدمها عليه الزمان ،  
 كما هدم أمثالها من التخرصات والاهام ، وما بث في الاسرائيليات من الكيد للاسلام .  
 قال السيد الاكوسي في اثر تفسير الآية : « وانما أخفى سبحانه أمر الساعة لاقتضاء  
 الحكمة التشريعية ذلك ، فانه أدعى إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية ، كما أن اخفاء  
 الاجل الخاص للانسان كذلك . ولو قيل بأن الحكمة التكوينية تقتضي ذلك أيضا  
 لم يبعد . وظاهر الآيات <sup>(١)</sup> أنه عليه الصلاة والسلام لم يعلم وقت قيامها . نعم علم  
 عليه الصلاة والسلام قربها على الاجمال ، وأخبر صلى الله عليه وسلم به ، فقد أخرج الترمذي  
 وصححه عن أنس مرفوعا « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى <sup>(٢)</sup>  
 وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعا أيضا « انما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الامم  
 من صلاة العصر إلى غروب الشمس » وجاء في غير ما أثر أن عمر الدنيا سبعة

« ١ » الصواب ان نصوص الآيات قطعية في ذلك « ٢ » الحديث رواه الشيخان

أيضا وكأنه غفل عنه

آلاف سنة ، وأنه عليه الصلاة والسلام بعث في أواخر الألف السادسة ، ومعظم  
الملة في الألف السابعة .

« وأخرج الجلال السيوطي عدة احاديث في أن عمر الدنيا سبعة الاف  
سنة وذكر أن مدة هذه الامة تزيد على ألف سنة ولا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة ،  
واستدل على ذلك بأخبار وآثار ذكرها في رسالته المسماة ( بالكشف ، عن  
مجاورة هذه الأمة الألف ) وسمى بعضهم لذلك هذه الألف الثانية بالمخضرة  
لان نصفها دنيا ، ونصفها الآخر أخرى ، واذا لم يظهر المهدي على رأس المائة  
التي نحن فيها ينهدم جميع ما بناه فيها كما لا يخفى ، وكأني بك تراه منهدما اه  
أقول نقلت هذا لأن كثيراً من الناس يرجعون إلى هذا التفسير في مثل هذا  
البحث فاحسبت أن يعرف رأيه في المسألة من لم يطالع عليه ، وقد مضت المائة التي  
كان فيها مؤلفه برأسها وذنبا وهي المائة الثالثة عشرة من الهجرة ثم مضى زهاء  
نصف المائة التي بعدها وهي الرابعة عشرة إذ نكتب هذا البحث في سنة ١٣٤٥  
ولم يظهر المهدي فانهدم والله الحمد ما بناه السيوطي عفا الله تعالى عنه من الأوهام  
التي جمعها كحاطب ايل ، ولم يعرج في مباحثها على ما كتبه أستاذه الاكبر الحافظ  
ابن حجر في تقدر واياها . ونحن نوردها ما كتبه الحافظ في شرحه لحديث « بعثت أنا  
والساعة كهاتين » من شرحه للبخاري ، ثم نقفي عليه بما يقتضيه المقام

بدأ الحافظ شرحه لمعنى الحديث باقوال محققي العلماء في معنى التشبيه بالأصبعين  
هل المراد به قرب أحدهما من الأخرى أم التفاوت الذي بينهما في الطول ، وما  
المراد به ؟ والارجح المختار عندنا من هذه الأقوال أنه ليس بينه صلى الله عليه وسلم وبين الساعة  
نبي آخر فهي تليه . ثم قال « ولا معارضة بين هذا وبين قوله تعالى ( إن الله عند  
علم الساعة ) ونحو ذلك لان علم قربها لا يستلزم علم وقت مجيئها معنا ، وقيل معنى  
الحديث ليس بيني وبين القيامة شيء هي التي تلي كما تلي السبابة الوسطى . وعلى هذا  
فلا تنافي بين ما دل عليه الحديث وبين قوله تعالى عن الساعة ( لا يعلمها إلا هو ) اه  
وأقول إن جملة ( لا يعلمها إلا هو ) قد وردت في قوله تعالى من سورة الانعام  
( ٢٩:٦ ) وعند مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ) لافي الساعة ولكن ورد في الصحيح تفسير

منأخ الغيب بآية آخر سورة لقمان (٣١ : ٣٤) ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) الخ فعبارة صحيحة المعنى لا اللفظ واهله أراد ذلك . ثم قال رحمه الله وأتابه : « وقال القاضي عياض : حاول بعضهم في تأويله أن نسبة ما بين الأصبعين كنسبة ما بقي من الدنيا بالنسبة إلى ماضى وأن جملتها سبعة آلاف سنة واستند إلى أخبار لا تصح ، وذكر ما أخرجه أبو داود في تأخير هذه الأمة نصف يوم وفسره بخمسة مائة سنة ، فيؤخذ من ذلك أن الذي بقي نصف سبع وهو قريب مما بين السبابة والوسطى في الطول (قال) وقد ظهر عدم صحة ذلك لوقوع خلافه ومجاوزة هذا المقدار ، ولو كان هذا ثابتاً لم يقع خلافه

« قلت : قد انضاف إلى ذلك من عهد عياض إلى هذا الحين ثلاثمائة سنة<sup>(١)</sup> وقال ابن العربي<sup>(٢)</sup> قيل الوسطى تزيد على السبابة نصف سبعها وكذا الباقي من الدنيا من البعثة إلى قيام الساعة ؟ قال وهذا بعيد ولا يعلم مقدار الدنيا فكيف يتحصل لنا نصف سبع أمد مجهول فالصواب الاعراض عن ذلك

« قلت : السابق إلى ذلك أبو جعفر بن جرير الطبري فإنه أورد في مقدمة تاريخه عن ابن عباس قال الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة وقد مضى ستة آلاف ومائة سنة ، وأورده من طريق يحيى بن يعقوب عن حماد بن أبي سليمان عن سعيد بن جبير عنه ويحيى هو أبو طالب القاضي الانصاري ، قال البخاري منكر الحديث . وشيخه هو فقيه الكوفة وفيه مقال ، ثم أورد الطبري عن كعب الاحبار قال الدنيا ستة آلاف سنة ، وعن وهب بن منبه مثله ، أراد أن الذي مضى منها خمسة آلاف وستمائة سنة ثم زيفها ورجح ماجاء عن ابن عباس انها سبعة آلاف . ثم أورد حديث ابن عمر الذي في الصحيحين مرفوعاً « ما أجلكم في أجل من كان قبلكم إلا من صلاة العصر إلى مغرب الشمس » ومن طريق مغيرة بن حكيم عن ابن عمر بلفظ « ما بقي لامتي من الدنيا إلا كقدرها إذا صليت العصر » ومن طريق

« ١ » كان عياض في القرن السادس وابن حجر في القرن التاسع وقد تم كتابه فتح الباري سنة ٨٤٢ وكانت وفاة عياض سنة ٥٤٤ ووفاته هو ٨٥٢ رحمه الله تعالى ورحمنا « ٢ » هو القاضي أبو بكر المفسر الفقيه المالكي لا ابن عربي الخاتم الصوفي

مجاهد عن ابن عمر كنا عند النبي ﷺ والشمس على قبة قمعان مرتفعة بعد العصر فقال « ما أعماركم في أعمار من مضى الا كما بقي من هذا النهار مما مضى منه » وهو عند أحمد بسند حسن ثم أورد حديث أنس: خطبنا رسول الله ﷺ يوماً وقد كادت الشمس تغيب فذكر نحو الحديث الاول عن ابن عمر ومن حديث أبي سعيد بمعناه قال عند غروب الشمس « إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها كبقية يومكم هذا فيما مضى منه » وحديث أبي سعيد أخرجه أيضاً وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف وحديث أنس أخرجه أيضاً وفيه موسى بن خلف<sup>(١)</sup> ثم جمع بينهما بما حاصله أنه حمل قوله « بعد صلاة العصر » على ما اذا صليت في وسط من وقتها .

« قلت : وهو بعيد من لفظ أنس وأبي سعيد . وحديث ابن عمر صحيح متفق عليه فالصواب الاعتماد عليه وله محملان أحدهما أن المراد بالتشبيه التقرب ولا يراد حقيقة المقدار فيه يجتمع مع حديث أنس وأبي سعيد على تقدير ثبوتها والثاني أن يحمل على ظاهره فيقدم حديث ابن عمر لصحته ويكون فيه دلالة على أن مدة هذه الأمة قدر خمس النهار تقريباً . ثم أيد الطبري كلامه بحديث الباب وبحديث أبي ثعلبة الذي أخرجه أبو داود وصححه الحاكم ولفظه « والله لا تعجز هذه الامة من نصف يوم » ورواته ثقات ولكن رجح البخاري وقفه . وعند أبي داود أيضاً من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ « إني لا أرجو أن لا تعجز أمتي عند ربهم أن يؤخرهم نصف يوم » قيل لسعد : كم نصف يوم؟ قال خمسمائة سنة ، ورواهم وثقون الا أن فيها انقطاعاً ، قال الطبري ونصف اليوم خمسمائة سنة أخذنا من قوله تعالى ( وإن يوماً عند ربك كالف سنة ) فاذا انضم الى قول ابن عباس إن الدنيا سبعة آلاف سنة توافقت الاخبار فيكون الماضي الى وقت الحديث المذكور ستة آلاف سنة وخمسمائة سنة تقريباً ، وقد أورد السهيلي كلام الطبري وأيده بما وقع عنده في حديث المستورد وأكد بحديث ابن زمل رفعه « الدنيا سبعة آلاف سنة بعثت في آخرها » قلت وهذا الحديث إنما هو عن ابن زمل وسنده ضعيف جداً أخرجه ابن السكن في الصحابة وقال إسناده مجهول وليس بمعروف في الصحابة وابن قتيبة

« ١ » لم يقل الحافظ فيه شيئاً وقد وثقه بعضهم وضعفه ابن معين وقال ابن حبان

أكثر من المناكير

في غريب الحديث وذكره في الصحابة أيضا ابن منده وغيره وسماه بعضهم عبد الله وبعضهم الضحاك ، وقد أورده ابن الجوزي في الموضوعات ، وقال ابن الاثير ألفاظه مصنوعة . ثم بين السهيلي أنه ليس في حديث نصف يوم ما يفي الزيادة على الخمسة قال وقد جاء بيان ذلك فيما رواه جعفر بن عبد الواحد بلفظ « إن أحسنت أمي فبقاؤها يوم من أيام الآخرة - وذلك الف سنة - وإن أسأت فنصف يوم » قال وليس في قوله « بعثت أنا والساعة كهاتين » ما يقطع به على صحة التأويل الماضي بل قد قيل في تأويله أنه ليس بينه وبين الساعة نبي مع التقريب لمجيئها ثم جوز أن يكون في عدد الحروف التي في أوائل السور مع حذف المكرر ما يوافق حديث ابن زمل وذكر أن عدتها تسعمائة وثلاثة .

« قلت : وهو مبني على طريقة المغاربة في عد الحروف وأما المشاركة فينقص العدد عندهم مائتين وعشرة ، فإن السين عند المغاربة بثلاثمائة والصاد بستين وأما المشاركة فالسين عندهم ستون والصاد تسعون فيكون المقدار عندهم ستمائة وثلاثة وتسعين وقد مضت وزيادة عليها مائة وخمس وأربعون سنة فالخل على ذلك من هذه الحيتية باطل ، وقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن عد أبي جاد والاشارة إلى أن ذلك من جملة السحر وليس ذلك بعيد فانه لا أصل له في الشريعة وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي وهو من مشايخ السهيلي في فوائد رحلته مانصه : ومن الباطل الحروف المقطعة في أوائل السور وقد تحصل لي فيها عشرون قولاً وأزيد ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعلم ، ولا يصل فيها إلى فهم ، إلا أتى أقول - فذكر ما ملخصه - انه لو لا ان العرب كانوا يعرفون ان لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا اول من انكر ذلك على النبي ﷺ بل تلا عليهم ( ص وحم فصلت ) وغيرها فلم ينكروا ذلك بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوفهم الى عثرة ، وحرصهم على زلة ، فدل على انه كان امراً معروفاً بينهم لا انكار فيه (\*)

«\*» نقول لو كان لها مدلولاً متداولاً لعرف وتقل ويكفي في سبب سكوت العرب عن انكارها علمهم أنها ذكرت لفائدة كالتنبيه واستصغاء السمع وتوجيه الذهن لما يذكر بعدها كما شرحناه في أول تفسير هذه السورة . وأما عدد أبي جاد فليس بلغوي ولا شرعي بل هو اصطلاح يهودي

« قلت : وأما عد الحروف بخصوصه فانما جاء عن بعض اليهود كما حكاه ابن اسحق في السيرة النبوية عن ابي ياسر بن اخطب وغيره أنهم حملوا الحروف التي في أوائل السور على هذا الحساب واستقصروا المدة أول منازل « الم والر » فانه نزل بعد ذلك ( المص وطسم ) وغير ذلك قالوا ألبست علينا الامر . وعلى تقدير أن يكون ذلك مراداً فليحمل على جميع الحروف الواردة ولا يحذف المكرر فانه مامن حرف منها الا وله سر يخصه ، أو يقتصر على حذف المكرر من اسماء السور ولو تكررت الحروف فيها فان السور التي ابتدئت بذلك تسع وعشرون سورة وعدد حروف الجميع ثمانية وسبعون حرفاً . وهي الم ستة حم ستة الر خمسة طسم اثنتان المص المر كيعص طه طس يس ق ن فاذا حذف ماكرر من السور وهي خمس من : الم وخمس من حم وأربع من الر وواحدة من طسم بقي أربع عشرة سورة عدد حروفها ثمانية وثلاثون حرفاً فاذا حسب عددها بالجلل المغربي بلغت ألفين وسمائة وأربعة وعشرين وأما بالجلل المشرقي فتبلغ ألفاً وسبعائة وأربعة وخمسين . ولم أذكر ذلك ليعتمد عليه إلا لاين أن الذي جنح اليه السهيلي لا ينبغي الاعتماد عليه لشدة التخالف فيه

« وفي الجملة فأقوى ما يعتمد في ذلك ما دل عليه حديث ابن عمر الذي أشرت اليه قبل ، وقد أخرج معمر في الجامع عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال معمر وبلغني عن عكرمة في قوله تعالى ( في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ) قال الدنيا من أولها إلى آخرها يوم مقداره خمسين ألف سنة لا يدري كم مضى ولا كم بقي إلا الله تعالى ، وقد حمل بعض شراح المصابيح حديث « لن تعجز هذه الامة أن يؤخرها نصف يوم » على حال يوم القيامة وزيفه الطيبي فأصاب

وأما زيادة جعفر فهي موضوعة لانها لاتعرف الا من جهته وهو مشهور بوضع الحديث وقد كذبه الائمة مع أنه لم يسق سنده بذلك فالعجب من السهيلي كيف سكت عنه مع معرفته بحاله والله المستعان . أه سياق الحافظ ابن حجر كله

﴿ يقول محمد رشيد ﴾ أما زيادة جعفر أي ابن عبد الواحد على حديث ابن زميل في عمر الدنيا فهو ما ذكره من حديث اليوم ونصف اليوم في عمر هذه الامة



فهو موضع جمع السيوطي بينه وبين حديث ابن زمل الجهول الذي حكم ابن الجوزي بوضعه ومزجها بسائر الروايات في المسألة ولا يصح منها شيء ، يؤيد مراده فكان رسالته كلها مستنبطة من الخبرين الموضوعين أي المكذوبين على رسول الله ( ص ) فتأمل هداك الله تعالى ما يفعل الغرور بظواهر الروايات حتى في أنفس المشتغلين بالحديث كالسيوطي الذي عد من الحفاظ وأنكر ذلك زميله السخاوي وكلاهما من تلاميذ الحفاظ ابن حجر

وقد علم مما ذكره الحفاظ هنا أن بطلي الاسرائيليات وينبوعي الخرافات كعب الاحبار ووهب بن منبه قد بثا في هذه الامة خرافة تحديد عمر الدنيا وليس أصله من مخترعاتهما فهو موجود في كتب اليهود حتى فيما يسمونه التوراة ولكنه فيها سبعة آلاف فجعله ستة آلاف غشا للمسلمين ، وما يدرينا أن كل تلك الروايات أو الموقوفة منها ترجع اليهما ، فان الصحابة (رض) لم يكونوا يذكرون ما يسمع بعضهم من بعض ومن التابعين على سبيل الرواية والنقل بل يذكرونه بالمناسبات من غير عزو غالبا ، وكثير من التابعين كذلك بل أكثر ماروي عن أبي هريرة من الاحاديث المرفوعة لم يسمعه منه (ص) ولذلك روي أكثره عنه بالعنعنة أو بقوله قال رسول الله ﷺ وأقله بلفظ سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا ، وقد روى عن بعض الصحابة وعن بعض التابعين ، وثبت أنه روى عن كعب الاحبار. ومن هنا نجزم بأن موقوفات الصحابة التي لا مجال فيها للاجتهد والرأي لا يكون لها قوة المرفوع كما قال المحدثون الا اذا كانت ليست من قبيل الاسرائيليات

وقد تكلم في مسألة قرب الساعة بعد السيوطي كثيرون وبعضهم فيها مصنغات كبهجة الناظرين والاشاعة ومنهم العلامة السفاريني في كتبه والسيد ابن الامير اليمني والسيد أبو الطيب صديق حسن خان في كتبه ومنها كتاب (الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة) وكان معاصراً للسيد محمود الآلوسي صاحب تفسير (روح المعاني) وقد نقل عن ابن الامير وعن الحفاظ ابن حجر . وقد لخص ابن الامير كلام ابن جرير وما أورده عليه ابن حجر ، ثم أورد خلاصة كلام السيوطي ورده وذكر أن الحق الواقع بخالفه - وهو ما أشار إليه الآلوسي بعده اشارة .. وهالك ما نقله

عنه صاحب الأذاعة السيد أبو الطيب صديق حسن خان المعاصر لآل أوسى في هذا عقب ما نقله من تعقيب الحافظ على ابن جرير قال :

( قلت ) لما تقارب انخرام القرن التاسع ذكر الحافظ السيوطي أنه وصل إليه رجل في سنة ثمان وتسعين وثمانمائة في شهر ربيع الأول ومعه ورقة حاصل ما فيها الاعتماد على حديث أنه لا يلبث النبي ﷺ في قبره ألف سنة وأنه أفنى بعض العلماء اعتماداً على هذا الحديث بأن في المائة العاشرة خروج المدي والدجال ونزول عيسى وسائر الآيات من أشراط الساعة ، ثم قال السيوطي : على أن هذا الحديث باطل ، وأطال الكلام في صدر رسالته التي سماها (الكشف في مجاوزة هذه الأمة الألف ) ثم ذكر أن الذي دلت عليه الآثار أن هذه الأمة تزيد مدة بقائها في الدنيا على ألف سنة ، وأنها لا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة ، ثم اعتمداً ما ذكره ابن جرير أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، قال وذلك لأنه ورد من طرق أن مدة الدنيا من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة سبعة آلاف سنة ، وأن النبي ﷺ بعث في آخر الألف السادس وساق ما قدمناه من أدلة ابن جرير ، بل قال وصحح ابن جرير هذا الأصل وعقده باباً انتهى

«قال السيد الامير ( قلت ) وما كان للسيوطي أن يعرض عن تعقبات الحافظ ابن حجر ، بل كان يتعين عليه ذكرها واقرارها أو ردها ، فان تركها يروم الناظر في كلامه وسكوته على تصحيح ابن جرير ليس كذلك كما عرفت (١)»

«ثم استند السيوطي في جزمه ببقاء الأمة بعد الألف أقل من خمسمائة سنة إلى آثار ذكرها منها ما أخرجه ابن أبي شيبة عن ابن عمر رضي الله عنه قال : يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة، وإلى أنه يلبث عيسى عليه السلام أربعين سنة بعد قتله الدجال ثم يستخلف رجل من تميم يبقى ثلاث سنين وإلى أنه يبقى الناس بعد ارسال الله رجلاً تقبض روح كل مؤمن مائة سنة لا يعرفون

«١» لا بد أن يكون قد سقط من هذا النقل شيء والمعنى ان هذا الترك والسكوت يوم الناظر فيهما أن نقد الحافظ الكلام ابن جرير في غير محله والامر ليس كذلك

ديناً من الاديان ، وإلى أن بين النفتين أربعين عاماً ، وإلى أنه ينزل عيسى على رأس مائة سنة، فهذه مائة سنة وثلاث وستون سنة ، ونحن الآن في القرن الثاني عشر ويضاف إليه مائتان وثلاث وستون سنة فيكون الجميع ١٤٦٠ وعلى قوله إنه لا يبلغ خمسمائة سنة بعد الاف يكون منتهى بقاء الامة بعد الاف ٤٦٣ سنة ويتخرج منه أن خروج الدجال أعادنا الله من فنته قبل انخراط هذه المائة التي نحن فيها وهي المائة الثانية عشرة من الهجرة النبوية انتهى وقد توفي ابن الامير سنة ١١٨٢ قال صاحب الاذاعة : « أقول : وقد مضى الى الآن على الاف نحو من ثلاثمائة سنة ولم يظهر المهدي ولم ينزل عيسى ولم يخرج الدجال فدل على أن هذا الحساب ليس بصحيح

» ثم قال السيد العلامة ( قلت ) وقد أخرج مسلم والحاكم عن ابن عمر مرفوعاً « يخرج الدجال فيمكث في أمي أربعين » انتهى ، هكذا لم يتميز العدد بشيء لا بالايام ، ولا بالشهور ، ولا بالسنين ، فلو كانت سنين لكان ظهوره من رأس ستين من هذا القرن ، إلا أنه قد ثبت عند أحمد وابن خزيمة وأبي يعلى والحاكم تعيين الاربعين بليلة فهي أربعون يوماً ، وقال « يوم منها كالسنة ، ويوم كالشهر ، ويوم كالجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » وعلى هذا يكون خروجه في سنة تسع وتسعين من هذا القرن الذي نحن فيه ، وأما قلنا ذلك ليم نزل عيسى في رأسها ويبقى عيسى من القرن الثالث عشر أربعين سنة وخليفته ثلاث سنين ، ثم تطلع الشمس من مغربها ويبقى الناس مائة وعشرين بعد طلوعها ، ويحتمل أن المائة التي يبقى الناس فيها لا يعرفون ديناً هي من هذه المائة والعشرين . هذا خلاصة كلام السيوطي في رسالة الكشف وفيه ما عرفت ، واستدل على ما ذكره بآثار عن السلف كأنه يقول انها لا تقال من قبل الرأي فلها حكم الرفع

(ثم قال) « وإذا أحطت علماء بجميع ما سقناه علمت بأن القول بتعيين مدة الدنيا من أولها إلى آخرها بأنه سبعة آلاف سنة لم يثبت فيه نص يعتمد عليه وغاية ما فيه آثار عن السلف وإن كانت لا تقال إلا عن توقيف فلعلها مأخوذة عن أهل الكتاب وفي أسانيدھا مقال وقد علم تغييرهم لما لديهم عن الله تعالى وعن رسوله وأهل

الكتاب هم القائلون ( لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ) وتقل عنهم المفسرون أنهم قالوا إن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وأنهم يعذبون بكل ألف عام يوما من هذه الأيام ، فانه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والواحدي عن ابن عباس أن يهوداً كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً واحداً من أيام الدنيا في النار ، وإنما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب فأنزل الله تعالى ( وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة — إلى قوله تعالى — هم فيها خالدون ) انتهى وأكذبهم الله فيما قالوه

« ولعل هذا الذي نقله عن السلف من الآثار التي سقناها وساقها ابن جرير والسيوطي في رسالة الكشف مأخوذة من أهل الكتاب إذ لم يثبت بنص نبوي عنه صلى الله عليه وسلم بأن مدة الدنيا كذا على أن تلك الآثار القاضية بأن مدتها سبعة آلاف سنة معارضة لما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة في قوله تعالى ( في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ) قالوا هي الدنيا أولها إلى آخرها يوم مقداره خمسون ألف سنة يوم القيامة انتهى . فهذه الآثار متعارضة كما ترى ، وإنما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أن بعثته من أي قيام الساعة انتهى كلام السيد العلامة محمد بن اسماعيل الامير رحمه الله ( قال صاحب الاذاعة ) « وقد قال الشيخ مرعي في بهجة الناظرين بعد ذكر قول السيوطي في رسالة الكشف مانصه : وهذا مردود لان كل من يتكلم بشيء من ذلك فهو ظن وحسبان لا يقوم عليه برهان انتهى .

« وقال في الاشاعة <sup>(١)</sup> بعد ذكر قول السيوطي : الذي فهم من الاحاديث أن المهدي يمكث في الارض أربعين سنة وأن عيسى يمكث بعد الدجال أربعين سنة كما رواه الحاكم عن ابن مسعود فانه ظاهر في الاربعين بعد الدجال وان بعد عيسى يتولى أمراء منهم القحطاني يتولى احدى وعشرين سنة ويفرض لبقيةهم الى طلوع الشمس من المغرب عشرون سنة ايضاً ان لم يكن اكثر فهذه مائة وعشرون سنة ومر ان الدجال يمكث اربعين فان لم تكن سنين فلا اقل من مقدار سنتين لان أيامه طوال ، وان بعد طلوع الشمس من مغربها يمكث الناس مائة وعشرين سنة

وفي رواية أن الشرار بعد الحيار عشرون ومائة سنة وورد أيضا ان المؤمنين يتمتعون بعد طلوعها اربعين سنة ثم يسرع فيهم الموت فهذه ثمانمائة وعشرون سنة وقد مضى بعد الالف قريب من ثمانين ، فهذه اربعمائة والى تمام هذه المائة تبلغ اربعمائة وثلاثين. وقدم عن السيوطي انها لا تبلغ خمسمائة بل أخذ بعضهم من قوله تعالى ( فهل ينظرون إلا الساعة ان تأتيهم بغتة ) وقوله ( لا تأتيكم الا بغتة ) ان الساعة تقوم سنة ١٤٠٧ فان عدد حروف بغتة ١٤٠٧ والعلم عند الله ، فيحتمل خروج المهدي على رأس هذه المائة ويحتمل ان يتأخر للمائة الثانية ، ولا يفوتها قطعا ، واذا تأخر فلا بد ان يبعث الله على رأس هذه المائة من يجدد الامة أمر دينها كما ورد في حديث مشهور. وهذه كلها مضمونات ورد بها آحاد الاخبار بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها ضعاف مع شواهد وبعضها بغير شواهد ، وغاية ما ثبت بالاخبار الصحيحة الكثيرة الشهيرة التي بلغت التواتر المعنوي وجود الآيات العظام التي أولها خروج المهدي وأنه يأتي في آخر الزمان من ولد الفاطمة بملأ الارض عدلا كما ملئت جوراً وأنه يقا تل الروم في الملحمة ويفتح القسطنطينية ويخرج الدجال في زمنه وينزل عيسى ويصلي خلفه ، وما سوى ذلك كله أمور مظنونة أو مشكوكة والله أعلم انتهى

(أقول) قد علمت من هذه النقول أنه ليس في عمر الدنيا حديث مرفوع صحيح ولا حسن وأن الروايات فيه إما ضعيفة وإمام موضوعه ، وأن الراجح أن كل ما ورد فيها من مرفوع وموقوف ومن الآثار فهو من الاسرائيليات التي بنها في الامة كعب الاحبار ووهب بن منبه وأمثالها ، ولو فطن الحافظ ابن حجر لئسائهما وخطا من عدلها من رجال الجرح والتعديل لطفاء تلييسهما عليهم لكان تحقيقه لهذا البحث أنهم أكل وقد أشار الى ذلك حكيم الاسلام الاجماعى ابن خلدون في مقدمته عند الكلام في ابتداء الدول والامم وما بقي من الدنيا قال « فكان المعتمد في ذلك في صدر الاسلام آثار منقولة عن الصحابة وخصوصاً مسلمة بني اسرا ئيل مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وأمثالها . وربما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأريلات محتملة » ثم ذكر مباحث السهيلي في كلام الطبري وغير ذلك مما يغني عنه ما تقدم وذكر أيضاً كلام الصوفية في ذلك وظهور كذب الجميع

وكذلك الامام أبو محمد علي بن حزم ( المتوفى سنة ٤٥٦ ) لم يعبأ بشيء من هذه الروايات في هذه المسألة على طول باعه وسعة حفظه والآثار وقد سبق القاضي عياضاً والقاضي أبا بكر ابن العربي وابن خلدون في رفضه لما قيل في عمر الدنيا وعجبت كيف غفل الحفاظ عن إيراد ما قاله في هذه المسألة على سعة اطلاعه . قال بعد ذكر ما كان يقول اليهود والنصارى في بدء الخليقة مانصه

« وأما نحن — يعني المسلمين — فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا ، ومن ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل فقد قال ما لم يأت قط عن رسول الله (ص) فيه لفظة تصح ، بل صح عنه (ص) خلافه ، بل نقطع على أن الدنيا أمدأ لا يعلمه إلا الله تعالى . قال الله سبحانه ( ما شهدتهم خالق السموات والارض ولا خلق أنفسهم ) وقال رسول الله (ص) « ما أتم في الائم قبلكم إلا كالشعرة البيضاء في الثور الاسود ، أو الشعرة السوداء في الثور الابيض » وهذه نسبة من تدبرها وعرف مقدار عدد أهل الاسلام ونسبة ما بأيديهم من معهود الارض وأنه الاكثر — علم أن الدنيا أمدأ لا يعلمه إلا الله . وكذلك قوله عليه السلام « بعثت أنا والساعة كهاتين » وضم أصبعيه المقدستين السبابة والوسطى ، وقد جاء النص بأن الساعة لا يعلم متى تكون إلا الله تعالى لأحد سواه — فصيح أنه (ص) إنما عنى شدة القرب لا فضل الوسطى على السبابة إذ لو أراد ذلك لا خدت نسبة ما بين الأصبعين ونسب من طول الأصبع — فكان يعلم بذلك متى تقوم الساعة وهذا باطل ، وأيضاً فكان تكون نسبه (ص) إيانا إلى من قبلنا بأننا كالشعرة في الثور كذبا ، ومعاذ الله من ذلك فصيح أنه (ص) إنما أراد شدة القرب . وله صلى الله عليه وسلم منذ بعث أربعائة عام ونيف ، والله تعالى أعلم بما بقي الدنيا « فإذا كان هذا العدد العظيم لا نسبة له عند مسلف لقلته وتفاهته بالإضافة إلى ماضى فهو الذي قاله (ص) من أننا فيمن مضى كالشعرة في الثور أو الرقمة في ذراع الحمار اه كلام ابن حزم وأقول هذا كلام الائمة المحققين فالذين حاولوا تحديد عمر الدنيا ومعرفة وقت قيام الساعة ارضاء شهوة الاتيان بما يهيم جميع الناس لم يشعروا بأنهم يحاولون تكذيب آيات القرآن الكثيرة الناطقة بأن الساعة من علم الغيب الذي استأثر الله

تعالى به وأنها تأتيم بفتة وهم لا يشعرون - أي على غير انتظار من أحد منهم ولا أدنى علم وهذا البلاء كله من دسائس رواة الاسرائيليات وتليبسهم على المسلمين باظهار الاسلام والصلاح والتقوى ، ومن وضع بعض الاصطلاحات العلمية في غير موضعها ككون كثرة الروايات الضعيفة يقوي بعضها بعضاً فان هذا انما يصح في المسائل التي لا يجرى إرجاعها إلى مصدر واحد يعنى بنشرها والدعوة اليها كسألة المهدي المنتظر الذي هو أساس مذهب سياسي كشي ثوب الدين ، ألم تر أن رواياته لا تخلو أساسيدها من شيعي ، وان الزنادقة كانوا يبدون الدعوة إلى ذلك تمهيداً لسلب سلطان العرب واعادة ملك الفرس ، وككون كلام الصحابي فيما لا مجال للرأي والاجتهاد فيه له حكم الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ ويجب تقييد هذا فيما لا يحتمل أن يكون من الاسرائيليات وهو ما أشار اليه العلامة المجتهد محمد بن اسماعيل الامير في موضوعنا هذا كما رأيت آنفاً . هذا وإن لمقدمي أمم الحضارة الاولين من الهنود والصينيين وغيرهم أقوالا في عمر الدنيا وتاريخ البشر الماضي تذكر فيه الارقام بالوف السنين وألوف الألوف وقد بني بعضه على روايات مأثورة عن قدمائهم وبعضه على اصطلاحات فلكية وأوهام تنجيمية لا تفيد علماء صحيحاً .

وأما علماء الكون في هذا العصر فلمهم منهج في عمر الارض الماضي ومنهج آخر في تاريخ البشر وآثارهم في القرون الحالية : منهجان علميان مبنيان على ما عرف بالحفر من طبقات الارض وما كشف من آثار أعمال البشر ومن عظام موتاهم ورفاتهم ، وهم يجزمون أن عمر الدنيا الماضي يعد بالوف الألوف من السنين وقد وجدت آثار للبشر فيها منذ مئات الألوف منها ، وذلك ينقض ما في سفر التكوين في المسألتين ، ولكنه لا ينقض من القرآن كلمة ولا حرفاً ( ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ) وكذلك أحاديث الرسول القطعية أو الصحيحة الصريحة القرينة من القطعية ، التي لا شبهة فيها للدسائس الاسرائيلية ، ولا المكاييد الفارسية المجوسية . واننا نتم هذا البحث بفصل وجيز في اشرط الساعة وأماراتها لأننا الممناني هذا الفصل بذكر أهمها ، وفيها من الشهات ما في مسألة عمر الدنيا وقيام الساعة التي هي أماراتها فنقول :

## اشراط الساعة وأمارتها

إن للساعة اشراطا ثبتت في الكتاب والسنة قال تعالى ( ٤٧ : ٢٠ فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها ؟ فأنسى لهم اذا جاءتهم ذكراهم )  
الاشراط جمع شرط بفتح حاءين كاسباب جمع سبب وهي العلامات والامارات الدالة على قربها وأعظمها بعثة خاتم النبيين ، بأخر هداية الوحي الآلهي للناس أجمعين ، لأن بعثته ﷺ قد كمل بها الدين ، كما قال تعالى ( اليوم أكملت لكم دينكم ) وبكمله تكمل الحياة البشرية الروحية ، ويتلوها كمال الحياة البشرية المادية ، وما بعد الكمال الا الزوال ، لان البقاء في هذا العالم محال ، وقد ورد أن نبينا ﷺ الساعة وتقدم حديث الصحيحين « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقد وردت أحاديث أخرى في اشراط الساعة يدل بعضها على أن الشهوات المادية تتنازع مع الهداية الروحية ، فيكون لها الغلب زمناً ثم تنتصر الهداية الروحية زمناً قصيراً ، ثم يغلب الضلال والشر والفجور والكفر ، حتى تقوم الساعة على شرار الخلق ، ولكن في هذه الاحاديث اختلافاً وتعارضاً وما ينافي بحكمة الله تعالى في اخفائها وعدم اطلاع الخلق على وقتها وبعضها ظاهر في قرب قيام ساعة دولة العرب أو دولة الاسلام  
ومن الاحاديث الصحيحة الواردة في إقبال الدنيا وسعتها من أمارات الساعة حديث جبريل الذي رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب (رض) وفيه أن جبريل عليه السلام لما جاء في صفة رجل غريب وسأل النبي ﷺ عن الاسلام والايمن والاحسان ليعلم الصحابة (رض) كيف يسألون عن دينهم - ثم سأله عن الساعة قال فأخبرني عن الساعة ؟ قال ﷺ « ما المستول عنها بأعلم من السائل » قال فأخبرني عن أمارتها قال « أن تلد الأمة ربتها ، وان ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » وروى هذا السؤال وحده ابن أبي شيبه والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ يوماً بارزاً للناس فأناه رجل فقال يارسول الله متى الساعة ؟ فقال « ما المستول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن اشراطها : اذا ولدت الأمة ربتها فذاك من اشراطها ، واذا كانت



الحفاة العراة رعاء الشاء ، وس الناس فذاك من أشراطها ، وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذاك من أشراطها» قيل معنى ولادة الامة ربتها كثرة السراري وأولاد السبايل وكان لهذا طور عظيم في الفتوحات الاسلامية - وقيل معناه أن الملوك والامراء يكونون من أولاد السراري لامن أولاد بنات البيوتات العريقة في حسن التربية وعلو الاخلاق ، والمراد بصيرورة رعاء (بالهمزة) أي رعاء الغنم وأهل البداوة من أصحاب الثروة والبذخ والتصور العالية أن يكون من هذه الطبقة رؤساء للناس كما في حديث أبي هريرة وهذا قد ظهر أيضاً في أمتنا وفي غيرها من الامم ، وصار بعض أسود هذه الطبقة وأمثالهم في هذا العصر معدوداً في مناقبه بعد فساد تربية كثير من أسر الاشراف والتبلاء واستعلانهم على الناس بالباطل ، وكان هذا من أمارات زوال الدولة العربية أو الاسلامية فهو يظهر في علامات الساعة الخاصة لا العامة

وأجمع الاحاديث الصحيحة السند فيما يكون قبل الساعة مارواه البخاري من حديث أبي هريرة ، وروى هو وغيره ما ذكر فيه في أحاديث أخرى مفصلة وهذا نصه عن أبي هريرة مرفوعاً (٥)

« لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتها واحدة <sup>(١)</sup> وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول

(\*) في هذا الحديث أحد عشر شرطاً أوردها البيهقي في البعث في سبعة أحاديث أدمج في الثالث منها قبض العلم وكثرة الزلازل وتقارب الزمان وكثر الهرج فأول كل حديث منها « لا تقوم الساعة حتى » يكون كذا - فاذا عدت « حتى » في هذا الحديث وجدتها سبعة - ولذلك قال : أخرج البخاري هذه الاحاديث السبعة عن أبي اليان عن شعيب الخ واستشكل الحافظ في الفتح عدتها سبعة ذهولا منه عن إدماج ٤ اشراط في حديث واحد . ومعنى كلام البيهقي ان ما هنا سبعة أحاديث متفرقة جمعها البخاري في واحد

(١) المراد بالفتن فئمة علي الامام الحق وفئمة معاوية الباغية - وهذا أول اشراط قيام ساعة الدولة العربية او الاسلامية المقيدة بالشورى ونصوص الكتاب والسنة

الله (٣) وحتى يقبض العلم (٣) وتكثر الزلازل (٤) ويتقارب الزمان (٥) وتظهر

(٢) من هؤلاء الدجالين في المتأخرين الباب والبهاء الايرانيين - على أن الثاني ادعى الألوهية - ومسيح الهند القادياني الدجال واتباعه لا يزالون يدعون النبوة . وفي حديث ثوبان الجزم بعدد الثلاثين مع زيادة « وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي » قال الحافظ اخرجيه ابو داود والترمذي وصححه ابن حبان وهو طرف من حديث اخرجيه مسلم ولم يسق جميعه . وذكر روايات اخرى منها حديث عبدالله بن عمرو عند احمد وابي يعلى وفيه زيادة: قلت ما آياتهم قال « يأتونكم بسنة لم تكونوا عليها يغيرون بها سنكم فاذا رأيتوهم فاجتنبوهم »

(٣) حديث قبض العلم مفصل في حديث عبدالله بن عمرو في الصحيحين مرفوعا « ان الله لا يقبض العلم انزاعا يتمزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالم - وفي رواية: لم يبق عالما - اتخذ الناس رءوساء جهلا فاستلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » والمراد علم الدين والهداية لا علوم الدنيا والغواية .

(٤) في حديث سلمة بن نفيل عند احمد « وبين يدي الساعة سنوات الزلازل » فيظهر منه انها تكثر قبيل الساعة بسنوات قليلة عما يعهد الناس في كل زمان ، والا فهي دائما كثيرة في مجموع الارض . وللساعة نفسها زلزلة عظيمة تقدم الصاخة التي هي الطامة الكبرى . اقرأ (١:٢٢) إن زلزلة الساعة شيء عظيم ( الخ و (٩٩: ١) اذا زلزلت الارض زلزالها ( الخ

(٥) ذكر تقارب الزمان واقترابه في عدة أحاديث في الصحاح وغيرها مجملا وأخرج الترمذي من حديث أنس وأحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً « لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كـشهر والشهر كالجمعة والجمعة كالיום واليوم كاحتراق السعفة » وقد اختلفوا في معنى ذلك هل هو حسي أو معنوي ؟ وهل المراد الزمان نفسه أو أهله ؟ فقيل إن المراد به استلذاذا العيش ووفرة النعيم حتى لا يشعر الناس بالزمان كما قال الشاعر \* وعمر النسر معكم بعض يوم \* وقيل المراد به نزع البركة منه وقيل تقارب أهله في قلة الدين الخ ما قالوا ، ويرى بعض أهل هذا الزمان ان المراد قد يكون ما هو حاصل من تقارب المواصلات وقطع المسافات البعيدة في الزمن القصير برا وبحرا وجوا - وهذا أظهر من كل ما قالوه،

الفن (٦) ويكثر الهرج وهو القتل (٧) وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يموت  
وأليق بكونه إخباراً عن غيب لا مجال للرأي فيه ولا يعرف إلا بوحى من الله تعالى  
وما قالوه يختلف باختلاف الناس في كل زمان ، فترى مثل القاضي عياض والنووي  
يرجحان ان معنى الحديث نزع البركة من الزمان ويوافقهما على ذلك الحافظ  
ابن حجر فيقولون ان الانتفاع باليوم قد صار بمقدار الانتفاع بالساعة . وهو  
وهم ظاهر ، ونحن نقول ان بعض ما يعمل الآن في ساعة واحدة لم يكن يمكن عمله في يوم  
وما يعمل في يوم واحد كان يحتاج فيه الى اسبوع الخ ولو كانت البواخر والقطارات  
الحديدية والطائرات في عصر الذين كانوا يرحلون من قطر الى قطر لتلقى الحديث  
لتيسر لك البخاري ان يتلقى في سنة واحدة ما تلقاه في سنين أو في عمره كله

(٦-٧) ظهور الفن وكثرة القتل قد وقع في كل عصر في البلاد الاسلامية  
وغيرها ، فلا يمكن عدّها من العلامات التي تكون بين يدي الساعة الا ان اريد بها  
ساعة ملك الامة العربية او الاسلامية فالامر حينئذ يكون ظاهراً ويكون المراد  
به ما فصل في احاديث أخرى كاعتداء الترك وقاظم للعرب وسلبهم ملكهم واخراجهم  
من عراقهم وفي ذلك عدة احاديث في الصحاح والنسب والمسند ومن أصرحها  
حديث معاوية عند أبي يعلى مرفوعاً « ان الترك تجلي العرب حتى تلحقها بمنابت  
الشيخ » يعني بوادي جزيرة العرب - وحديث « ان بني قنطورا أول من يسلب  
امتي ملكهم » رواه الطبراني عنه أيضاً قال الحافظ : وكأنه يريد بقوله امتي أمة  
النسب لأمة الدعوة - يعني العرب والله أعلم اه وورد ان من اشراط الساعة فتح  
القسطنطينية وهو في الصحاح قال شيخ شيوخنا العلامة الشيخ محمود نشابه معناه ان  
العرب يفتحونها من أشقياء الترك ولم يكن الشيخ من أهل السياسة ولا كان في زمنه  
شيء من التعادي بينهم وبين العرب ، دع ما فعلته الحكومة التركية في هذا الزمان ،  
من ترك شريعة الاسلام ، وكان مسلمو الترك يحملون الاحاديث على فتح السلطان محمد  
لها ولكنها صريحة في أن فتحها يتلوه في عهده ظهور الدجال

وإذا حمل الهرج وكثرة القتل على ما حدث في هذا الزمان من الفن ومن  
كثرة القتل بما استحدثت من آلات الحرب النارية بحيث يقتل في يوم واحد ما لم  
يكن يمكن حدوثه في سنة أو سنين قبلها لكان ابلغ في الاخبار بالغيب فقد هلك  
في الحرب الاوربية الاخيرة زهاء عشرة آلاف الف (١٠ ملايين) في أربع سنين  
ولم يقع مثل ذلك في عدة قرون قبل هذه الآلات الحديثة

ربّ المال من يقبل صدقته<sup>(٨)</sup> وحتى يتناول الناس في البنيان<sup>(٩)</sup> وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه<sup>(١٠)</sup> وحتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً)<sup>(١١)</sup> ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن قمحه فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته الى فيه فلا يطعمها » وتقدم تفسير هذه الجمل الأخيرة

وفي الأحاديث اشراط وأمارات أخرى بعضها صار عادياً وبعضها غريب ويقول علماءنا ان منه ما وقع ، وماقيه يتوقع ، وفيها تعارض وتناقض ومشكلات حار العلماء في الجمع بينها وانني أتكلم عنه كلاماً إجمالياً عاماً ، وأبسط الكلام في أهمها بسطاً خاصاً ، ولا سيما أحاديث الدجال والمهدي ، فألق له السمع ووجه اليه النظر ، فهو يجلي العبرة لمن اعتبر .

( ٨ ) كثرة المال فسرت بما حدث للمسلمين من الثروة في الفتوحات من عهد الصحابة ويصح تخصيص كثرة بهم إذا كان المراد بالساعة ساعتهم فان كثرة المال كانت سبباً للترف الذي كان سبباً لزوال ملكهم كغيرهم . وإذا أريد بالساعة العامة فيمكن أن يكون المراد ما نرى مقدماته من كثرة الثروة العامة في العالم

( ٩ ) التناول في البنيان تقدم ذكره في حديث جبريل وهو مما حصل منذ قرون كثيرة ويقال فيه ما قلناه فيما قبله ، وقد وصل التناول فيه الآن الى ان صارت المباني تناطح السحاب ، ولا يمكن الصعود اليها إلا بالمعارج والمصاعد الكهربائية فإذا كانت في مصر لا تزيد على بضع طبقات ففي أميركا قد صار البناء الواحد مؤلفاً من عشرات من الطبقات فهذا هو التناول الذي لم يعهد له نظير من قبل

( ١٠ ) نمي الموت حصل ويحصل في أوقات الضيق والبلاء من كل زمان ولا يكون من اشراط الساعة العامة الا إذا صار عاماً فهو بهذا المعنى من الاشراط المستقبلية ( ١١ ) طلوع الشمس من مغربها هو أعظم الاشراط الكبرى بين يدي الساعة وقد تقدم تفصيل القول فيه في تفسير الآية ١٥٩ من اواخر سورة الانعام فيراجع

﴿ نظرة في اشراط الساعة وتناسيها ومشكلاتها ﴾

أعلم أيها المسلم الذي يحب أن يكون على بصيرة من دينه ان في روايات الفتن واشراط الساعة من المشكلات والتعارض ما ينبغي لك أن تعرفه ولو إجمالاً حتى لا تكون مقلداً لمن يظنون أن كل ما يهتده أصحاب النقل حق، ولا لمن يظنون أن كل ما يقوله أصحاب النظريات العقلية حق، فان الله تعالى يقول ( فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ) الآية ، وقال لخاتم رساله ﷺ ( قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ) واتى أبين فيه ما يطمئن به قلب القانع بالأجمال ، ويفتح باب التحقيق لطالب التفصيل ، فأقول :

ان العلماء جعلوا ما روي من اشراط الساعة وأماراتها ثلاثة أقسام : ما وقع بالفعل منذ قرون خات الى زمن كل من تكلم في ذلك منهم وقد عدوه عداً ، — وما وقع بعضه وهو لا يزال في ازدياد كالفتن والفسوق وكثرة الزنا وكثرة الدجالين وكثرة النساء وتشبهن بالرجال والكفر والشرك حتى في بلاد العرب . وما سيقم بين يدي الساعة من العلامات الصغرى والكبرى - ومن الأولى قتال اليهود وفتح بيت المقدس والقسطنطينية

وتنقسم باعتبار آخر الى ما عهد ويعهد مثله في كل الامم من الفتن والقتال وسعة الدنيا وضيقها ، وقيام الدول وسقوطها ، والفسق من زنا ولواط وسكر ، الخ والابوثة والزلازل، وهذا لا يشعر جماهير الناس بأن له علاقة ما بقيام الساعة الكبرى ، والى ما هو غريب غير مألوف كظهور يأجوج ومأجوج والدجال والمهدي والمسيح وطلوع الشمس من مغربها ، وأما الزلازل والحسوف وظهور النجوم ذوات الاذنان أو الاذيال ، فقد صارت من الامور المعتادة المعروفة بين الناس

وباعتبار ثالث الى ما هو علامة على قيام ساعة الجيل أو الدولة كذهاب الامانة وتوسيد الأمر الى غير أهله ، وما هو آية على قرب الساعة العامة الكبرى ، ويرد من الاشكال على ما ذكر أن ما ورد من الاشراط الصغرى المعتاد مثلها التي تقع عادة بالتدرج لا يذكر بقيام الساعة ولا تحصل به الفائدة التي من أجلها

أخبر الشارع بقرب قيام الساعة — وأن ما ورد من الاشراف الكبرى الخارقة للعادة يضع العالم به في مأمن من قيام الساعة قبل وقوعها كلها فهو مانع من حصول تلك الفائدة، فالمسلمون المنتظرون لها يعلمون أن لها اشرافا تقع بالتدرج فهم آمنون من مجيئها بغتة في كل زمن، وإنما ينتظرون قبلها ظهور الدجال والمهدي والمسيح عليه السلام ويأجوج ومأجوج، وهذا الاعتقاد لا يفيد الناس موعظة ولا خشية، ولا استعداداً لذلك اليوم أو لتلك الساعة، فما فائدة العلم به إذا؟ وهل من الحكمة أن تكون فائدتها محصورة في وقوع الرعب في قلوب الذين يشاهدون هذه الآيات الكبرى ولا سيما آخر آية منها؟ وكيف يتفق هذا وما ورد من كون كل رسول كان يخوف قومه وينذرهم الساعة والدجال قبلها؟ وكيف وقع هذا منهم ولم يصدقه الواقع ومثله لا يكون بمحض الرأي؟ وهل كان نبينا (ص) يريد بالاطخبار بها تأمين الناس من قيام الساعة مدة قرون كثيرة الى أن تظهر هذه الاشراف؟ أم كان يتوقع ظهورها بعنده في قرنه أو فيما يقرب منه كغيره من الرسل بدليل ماورد من تجويزه ظهور الدجال في زمنه، وتصديقه ما حكاه تميم الداري من خبر الجساسة وكون الدجال محبوباً في جزيرة؟

#### الاشكال والاشتباه في روايات الدجال

قد تقدم ما قاله ابن الجوزي من كونه (ص) كان يقدر في هذه المسائل تقديراً، اذ لم يوح الله تعالى اليه أخبارها تفصيلاً، وعد من ذلك ماورد في احتمال ظهور الدجال في زمنه وقال النووي في شرح أحاديث ابن صياد من صحيح مسلم: قال العلماء، وقصته مشكلة وأمره مشتبه... وظاهر الأحاديث أن النبي عليه السلام لم يوح إليه بأنه المسيح الدجال ولا غيره، وإنما أوحى إليه بصفات الدجال وكان في ابن صياد قرائن محتملة، فلذلك كان النبي عليه السلام لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره ولهذا قال لعمر « إن يكن هو فلن تستطيع قتله » اهـ ولا بأس ببيان ما أشاء اليه النووي من الاشكال والاشتباه بشي، من التفصيل

ان أحاديث الدجال مشكلة من وجوه (أحدها) ما ذكرناه آنفاً من منافاتها لحكمة إنذار القرآن الناس بقرب قيام الساعة وإتيانها بغتة

(ثانيها) ما ذكر فيها من الخوارق التي تضاهي أكبر الآيات التي أيد الله بها أولي العزم من المرسلين أو تفوقها ، وتعد شبهة عليها كما قال بعض علماء الكلام وعدت بعض المحدثين ذلك من بدعتهم ، ومن المعلوم ان الله ما آتاهم هذه الآيات إلا لهداية خلقه ، التي هي مقتضى سبق رحمته لغضبه، فكيف يؤتى الدجال أكبر الخوارق لفتنة السواد الأعظم من عباده ؟ فان من تلك الروايات انه يظهر على الارض كلها في أربعين يوما إلا مكة والمدينة ، وقد روى أبو نعيم في الحلية عن حسان ابن عطية من ثقات التابعين أنه لا ينجو من فتنة الدجال الا اثنا عشر الف رجل وشبعة آلاف امرأة . قال الحافظ في الفتح وهذا لا يقال من قبل الرأي فيحتمل أن يكون مرفوعا أرسله ، ويحتمل أن يكون أخذه عن بعض أهل الكتاب اه وهو الصحيح المختار عندي

(ثالثها) وهو من متعلقات ما قبله أن ما عزي اليه من الخوارق مخالف لسنن الله تعالى في خلقه وقد ثبت بنصوص القرآن القطعية انه لا تبدل لسننه تعالى ولا تحويل . وهذه الروايات المضطربة المتعارضة لا تصلح لتخصيص هذه النصوص القطعية ولا لمعارضتها

(رابعها) اشتمال بعض هذه الاحاديث على مخالفة بعض القطعيات الاخرى من الدين كتخلف أخبار الرسل أو كونها عبثا وإقرارهم على الباطل وهو محال في حقهم (خامسها) انها متعارضة تعارضا كثيرا يوجب تساقطها كما ترى فيما يلي فمن ذلك التعارض أن بعضها يصرح بانه صلى الله عليه وسلم كان يرى من المحتمل ظهور الدجال في زمنه وأنه يكفي المسلمين حينئذ شرده، وبعضها يصرح بأنه يخرج بعد فتح المسلمين لبلاد الروم والقسطنطينية (ومنه) انه كان يشك في ابن صياد من يهود المدينة هل هو الدجال أم لا ؟ وأنه وصف (ص) الدجال بصفات لا تنطبق على ابن صياد كما قال ابن صياد نفسه لسعيد الخدري (رض)

ومن التعارض أيضاً أنه يصرح في بعض الروايات بأنه يكون معه (أي الدجال) جبل أو جبال من خبز ونهر أو أنهار من ماء وعسل، كما رواه أحمد والبيهقي في البعث عن رجل من الأنصار وعن جابر بن عبد الله بسند رجاله ثقات مع

مارواه الشيخان واللفظ للبخاري من حديث المغيرة بن شعبة قال : ما سألت أحد النبي ﷺ عن الدجال ما سألته وإنه قال لي « ما يضرك منه؟ » قلت لأنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء. قال « بل هو أهون على الله من ذلك » وفي رواية مسلم يقولون إن معه جبال خبز ولحم ونهر من ماء. وقد أولوا هذا لتصحيح ذلك، ويتأمل قول جابر: يقولون إن معه كذا وكذا، ولم يقل إنك قلت هذا. ومن التعارض أيضاً ما ورد من اختلاف الروايات في المكان الذي يخرج منه، ففي بعض الروايات أنه يخرج من قبل المشرق على الإبهام. وفي حديث النواس بن سمعان عند مسلم أنه يخرج من خلة بين الشام والعراق، وفي رواية أخرى لمسلم أنه يخرج من أصبهان، وفي حديث الجساسة عنده أنه محبوس بدير أو قصر في جزيرة في بحر الشام — أي البحر المتوسط وهو في الشمال — أو بحر اليمن وهو في الجنوب وأنه يخرج منها، وروى أحمد والحاكم أنه يخرج من خراسان. وقد حاول شراح الصحيحين وغيرهم الجمع بين الروايات المتعارضة في كل مسألة فجاؤا بأجوبة متكلفة ردها المحققون كلها أو أكثرها، وفيها من المشكلات غير ما أشرنا إليه ولا سيما الروايات في ابن صياد وما كان من حلف عمر بن الخطاب (رض) عند النبي ﷺ أنه هو الدجال وإقراره ﷺ إياه على ذلك ومتابعة جابر بن عبد الله إياه على هذا الحلف كما في الصحيحين عنه

وقد أجاب بعضهم عن الأخير بأن هذا التقرير قد نقضه التصريح منه ﷺ لعمر بخلافه حين قال له دعني أضرب عنقه فقال « إن يكن هو فإني تسلط عليه » الخ الحديث وهو في الصحيح، وقد رد الحافظ ابن حجر بعض تأويلات الحافظ البيهقي في مولد ابن صياد وصفاته وفي إقرار النبي ﷺ لعمر على حلفه، وعده قصة تميم الداري مرجحة لكونه غير ابن صياد، وكون عمر كان يحلف حلفه قبل سماعه لهذه القصة — لهذا أخص هذا الحديث بشيء من التفصيل فأقول إن فيه عدة مباحث (١) كان تميم الداري من عرب فلسطين (سورية) وقد وصف بأنه كان راهب زمانه وقد جاء هو وأخوه نعيم المدينة في آخر عهد النبي ﷺ سنة تسم من الهجرة وأسلما وحدث هو النبي ﷺ بحكاية الجساسة الغربية، وذكروا أنه كان



بعد إسلامه من العباد ومن القصاصين ولم يذكر لأحد شبهة فيه بل عدوا من مناقبه ان النبي (ص) روى عنه ، وستعلم ما فيه ، فبهذه مقدمة

(٢) راوية الحديث عنه في صحيح مسلم بطوله ومشكلاته هي فاطمة بنت قيس

من المهاجرات وقالت ان النبي ﷺ جمع الناس في المسجد رجالا ونساء وحدثهم على المنبر بما سمعه من نعيم من هذه الحكاية . وقد رواه عنها الشعبي وحده ، وهو

على جلالته قد روى عن كثير من الصحابة الذين لم يروهم ولم يسمع منهم ، ولكن المحدثين أنشأوا على مراسيله على انه صرح بالسماع منها ، وما أتى من رواه غيرها وغيره

(٣) من علل هذا الحديث اذا انه من الاحاديث التي تتوفر الدواعي على نقلها بالتواتر

لغرابية موضوعه ولا هتمام النبي ﷺ به وجمعه الناس له وتحديثه به على المنبر واستشهاده بقول نعيم على ما كان حدثهم به قبل إسلامه ، ولسماع جمهور الصحابة له منه ﷺ فمن غير

المعقول ان لا يروى إلا آحادا ويؤيده امتناع البخاري عن إخراجها في صحيحه لشدة تحريمه وقد أجاب الحافظ في الفتح عند شرح حديث جابر في ابن صياد من كتاب الاعتصام

عن هذا الاعلال بقوله: ولشدة التباس الامر في ذلك — أي الاختلاف بينه وبين حديث ابن صياد — سلك البخاري مسلك الترجيح فاقصر على حديث جابر عن عمر

في ابن صياد ولم يخرج حديث فاطمة بنت قيس في قصة نعيم ، وقد توهم بعضهم انه غريب فرد وليس كذلك فقد رواه مع فاطمة بنت قيس أبو هريرة وعائشة وجابر — أما

أبو هريرة فأخرجه أحمد من رواية عامر الشعبي عن المحرز بن أبي هريرة عن أبيه بطوله ، وأخرجه أبو داود مختصراً وابن ماجه عقب رواية الشعبي عن فاطمة قال

الشعبي فلقيت المحرز فذكره ، وأخرجه ابو يعلى من وجه آخر عن ابي هريرة ... واما حديث عائشة فهو في الرواية المذكورة عن الشعبي قال ثم لقيت القاسم بن محمد

فقال اشهد على عائشة حدثتني كما حدثتكم فاطمة بنت قيس ، واما حديث جابر فأخرجه أبو داود بسند حسن من رواية أبي سلمة عن جابر وذكر لفظه

اقول ان ما ذكره الحافظ لا ينبغي كون الحديث من الآحاد والمقام مقام التواتر لما ذكرناه من أسباب توفر الدواعي ، ولا ينبغي ايضاً كونه غريباً وإن لم يكن

فرداً فقد انحصرت الاسانيد لروايته في الشعبي وفي فاطمة بنت قيس . واما ما رواه

أبو داود من طريق الوليد بن عبد الله بن جميع عن ابن أبي سلمة عن جابر فهو على كونه ليس من الصحيح مختصر وليس فيه اسناد الحكاية الى تميم الداري بل لا يزيد لفظ المرفوع فيه عن هذه الجملة « بينما أناس يسرون في البحر فنغد طعمهم فرفعت لهم جزيرة فخرجوا يريدون الخبز فلقيتهم الجساسة » قال أبو الوليد بن عبد الله فقلت لأبي سلمة وما الجساسة ؟ قال امرأة تجر شعر جلدها ورأسها قالت في هذا القصر - فذكر الحديث - وسأل عن نخل بيسان وعن عين زغر ، قال هو المسيح . فقال لي ابن أبي سلمة ان في هذا الحديث شيئاً ما حفظته ، قال شهد جابر انه هو ابن صائد وفي نسخة - ابن صياد - فقلت انه قد مات قال وان مات . قلت فانه قد اسلم قال وإن اسلم . قلت فانه قد دخل المدينة قال وان دخل المدينة اه سياق أبي داود بحرفه

اقول وهو لا يقوي تلك الروايات وليس فيه شيء من مشكلاتها المعنوية وغرائبها بل قواه الحافظ بها فجعله حسناً لأجلها وهو يعلم ان الوليد بن عبد الله ابن جميع (بالتصغير) الزهري رواية عن أبي سلمة ضعيف وان روى عنه مسلم فقد قال هو نفسه (أي الحافظ) في تهذيب التهذيب فيما زاده على أصله ان ابن حبان ذكره في الضعفاء وقال انه ينفرد عن الأثبات بما لا يشبه حديث الثقات فلما فحش ذلك منه بطل الاحتجاج به ، وذكر عن الحاكم انه لو لم يخرج له مسلم لكان أولى اه في رواية أبي داود عن فاطمة مخالفة لرواية مسلم من وجه آخر لا غرض لنا في ذكره إذ لا نريد استقصاء كل ما في هذه الأحاديث من التعارض والخلاف .

(٤٥٤) من الأشكال المعنوي في هذه الحكاية أن تيمم وأصحابه الثلاثين كانوا من عرب الشام والمتبادر أنهم ركبوا سفينتهم من بعض نفورهم في البحر المتوسط وقد ذكرت فاطمة بنت قيس أن النبي ﷺ قال بعد أن سرد للناس الحكاية « فانه أعجبني حديث تميم انه وافق الذي كنت أحدثكم به عنه - أي الدجال - وعن المدينة ومكة . ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن - لا بل من قبل المشرق . ماهومن قبل المشرق ، ماهومن قبل المشرق ، ماهو؟ وأوماً بيده إلى المشرق » قالت فحفظت هذا من حديث رسول الله (ص) اه

فان صح الحديث رواية فهذا التردد من النبي (ص) في مكان الجزيرة التي ذكرها تميم الداري في أي البحرين هي؟ ثم اضربه عنهما وجزمه بأنه في جهة المشرق الخ إشكال آخر في منته ينظر إلى اختلاف الروايات الأخرى في مكان الدجال بعين ، وينظر إلى اختلاف الروايات في ابن صياد بالعين الأخرى ، وينظر بالعينين ككتيبها إلى سبب هذا التردد ومناقضاته لأن يكون كلامه صلوات الله وسلامه عليه في أمر الدجال عن وحي من الله تعالى وسأتكلم في سببه في هذا البحث على تقدير صحة الرواية ثم أين هذه الجزيرة التي رفا إليها تميم وأصحابه في سفينتهم؟ إنها في بحر الشام أو بحر اليمن كما في اللفظ المرفوع — إن صح الحديث — أي الجهة المقابلة لسواحل سورية من البحر المتوسط ، أو الجهة المجاورة لشواطئ اليمن من البحر الأحمر ، وكل من البحرين قد مسح البحارة في هذه الأزمنة مسحاً ، وجابوا سطحهما طولاً وعرضاً ، وقاسوا مياههما عمقاً عمقاً ، وعرفوا جزائرهما فرداً فرداً ، فلو كان في أحدهما جزيرة فيها دير أو قصر حبس فيه الدجال وله جساسة فيها تقابل الناس وتنقل اليه الاخبار، لعرف ذلك كله كل الناس، وما قاله شارح المشارق من تنقل الدجال في البحرين أو من الجانب الشامي إلى الجانب اليمني بناء على زعمه أن البحر واحد — وما قاله الحافظ من انتقاله إلى اصفهان ليخرج منها مع سبعين ألفاً من يهودها — كلاهما من الدعاوي التي لا أصل لها من النقل، ولا من المقبول في نظر العقل، وإنما يستنبطونها للجمع بين الروايات المتعارضة التي يعز عليهم أن يرجعوها إلى قاعدتهم « تعارضت فتساقطت » حتى إن الحافظ رضي لنفسه في هذا الجمع أن يقر قول من قال إن ابن صياد شيطان تبدي في صورة الدجال في تلك المدة إلى أن ذهب إلى اصفهان الخ وهو يحفظ تلك الروايات الكثيرة في ولادته بالمدينة ونشوته فيها، ثم اسلامه وحججه ثم موته فيها، على أنه يحفظ بعض الروايات المضعفة لهذا (٦) في الالفاظ المرفوعة من حكاية الجساسة أن النبي (ص) لم يقر تيمماً على كل ما حكاه ، بل على بعضه وهو قوله « فانه أعجبي من حديث تميم انه وافق الذي كنت أحدثكم به عنه (أي عن الدجال) وعن المدينة ومكة » أي أنه لا يدخلهما . وقوله بعده « ألا انه في بحر الشام أو اليمن ، لا بل من قبل المشرق » الخ ما تقدم

آنفاء، وترجيح جميع العلماء روايات جهة المشرق دليل على أنه ليس في بحر الشام ولا بحر اليمن لأن الشام في جهة الشمال من المدينة واليمن في جهة الجنوب منها فلا شيء منهما بمشرق. قال الطيبي: لما تيقن عليه السلام بالوحي أنه من قبل المشرق نفي الأولين، وظاهر العبارة يدل على أن النبي ﷺ صدق تيمما في أول الأمر ولذلك قال «ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن» بالتأكيد بـ «البدء» بإداة الاستفتاح «ألا» ثم كوشف في موقفه بأنه ليس في هذا ولا ذلك، بل في جهة المشرق (٧) وهنا يجيء إشكال آخر وهو أن نفي النبي ﷺ لبعض قول تميم يطل الثقة به كله، ويحصر عجمه ﷺ في شيء واحد منه لا يعرف بالرأي وهو موافقته لما سبق إخباره به ﷺ من ظهور الدجال وكونه لا يدخل مكة ولا المدينة. وإن بقي الإعجاب مما ذكر منه في محله، وقد يتفصون من هذا بأن الدجال كان قبل إسلام تميم وحديثه قد خرج من تلك الجزيرة التي رآه فيها فذهب إلى أصحابان أو غيرها من المشرق، ويرده أن ما نقله عنه تميم صريح فيما ينافي ذلك وهو أن وثاقه الشديدانما يحمل عند الأذن له في الخروج وأنه صار قريباً بعد ظهور العلامات التي ذكرها قال: «أني أنا المسيح وأني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان علي ألح فعضته الخروج على الأذن بالفاء والسير على الخروج بالفاء نص في أنهما على التعقيب لافاصل بين هذه ولا تلك، والاقرب إلى الخروج من كل هذه المشكلات أن تكون الرواية مصنوعة.

(٨) ننتقل من هذا المبحث إلى مبحث قوي الصلة به وهو إذا لم نعد ما فيه من نفي النبي ﷺ لما أثبتته تميم من وجود الدجال في أحد البحرين وفاقاً للعلامة الطيبي الشهير — فهل يجب أن تكون حكايته ﷺ لما حدثه به تميم تصديقاً له؟ وهل كان (ص) معصوماً من تصديق كل كاذب في خبر فيعد تصديقه لحكاية تميم دليلاً على صدقه فيها؟ ويعد ما يرد عليها من إشكال واردة على حديثه حكم المرفوع؟ وفي معناه إقراره ﷺ لعمر على حلفه بأن ابن صياد هو الدجال كما تقدم إن ما قالوه في العصمة لا يدخل فيه هذا فالجمع عليه هو العصمة في التبليغ عن

الله تعالى وعن تعدد عصيانه بعد النبوة . قال السفاريني في شرح عقيدته . قال ابن حمدان في نهاية المتدين وأنهم معصومون فيما يؤدون عن الله تعالى وليسوا معصومين في غير ذلك . وقال ابن عقيل في الارشاد : إنهم عليهم السلام لم يعصوا في الأفعال ، بل في نفس الأداة . قال ولا يجوز عليهم الكذب في الأقوال فيما يؤدونه عن الله تعالى . وقال الحافظ العراقي : النبي ﷺ معصوم من تعدد الذنب بعد النبوة بالاجماع ، ولا يعتد بخلاف بعض الخوارج والحشوية الذين نقل عنهم تجوز ذلك ألخ اه ملخصاً وتصديق الكاذب لا يعد ذنباً . وقد ثبت أنه ﷺ كان يصدق بعض ما يفتره المنافقون حتى يخبره الله بما كان من المصلحة اخباره به منه كما وقع في غزوة تبوك وغيرها وصدق بعض أزواجه في القصة المشار اليها في سورة التحريم حتى أخبره تعالى به وبأن من أسر اليها الحديث أفشته وذلك قوله تعالى ( قالت من أنبأك هذا ؟ قال نبأني العليم الخبير ) وتردد في حديث أهل الافك وضاق صدره به زمنا حتى نزلت عليه آيات البراءة المكذبة لهم في سورة النور . فعلى هذا لا يكون ذكره ﷺ لقصة تميم في حكم المرفوع الذي يقوله هو ﷺ كما أن ما يقوله عليه ﷺ برأيه وظنه لا يدخل في عموم ما هو معصوم منه وهو تعدد الكذب كما قال ﷺ في مسألة تلقيح النخل « إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فاني لن أكذب على الله » وقال فيها أيضا « إنما أنا بشر اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر » رواها مسلم في صحيحه

وقال المحقق ابن دقيق العيد في مسألة تقريره ﷺ من أوائل شرح الامام : اذا أخبر في حضرة النبي ﷺ عن أمر ليس فيه حكم شرعي فهل يكون سكوته ﷺ دليلا على مطابقة ما في الواقع كما وقع لعمر في حلفه على ان ابن صياد هو الدجال فلم ينكر عليه ، فهل يدل عدم انكاره على ان ابن صياد هو الدجال كما فهمه جابر حتى صار يحلف عليه ويستند إلى حلف عمر ، أو لا يدل ؟ فيه نظر ، والاقرب عندي انه لا يدل لان مأخذ المسألة ومناطها هو العصمة من التقرير على

باطل وذلك يتوقف على تحقق البطلان ولا يكفي فيه عدم تحقق الصحة الخ ثقته  
عنه الحافظ في الفتح ملخصاً

(٩) إن في روايات هذه الحكاية اختلافات أخرى كقوله في أطولها عن تميم « انه  
ركب سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لحم وجزام فلعب بهم الموج شهراً في البحر  
ثم أرفقوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا  
الجزيرة » وقوله في رواية أخرى « حدثني تميم الداري أن أناساً من قومه كانوا  
في البحر في سفينة لهم فانكسرت بهم فركب بعضهم على لوح من ألواح السفينة  
فخرجوا إلى سفينة في البحر » وفي رواية « إن بني عم تميم الداري ركبوا في  
البحر » وفي رواية « انه ركب البحر فنهاهت به سفينة فسقط إلى جزيرة فخرج إليها  
يلتمس الماء فلقى انساناً يجرح شعره » وهذه الروايات كلها في صحيح مسلم  
والاختلافات فيها متعددة كما ترى ، وفي سائر الروايات ما يزيد على ذلك

وجملة القول في حديث الجساسة أن ما فيه من العلل والاختلاف والاشكال من  
عدة وجوه يدل على أنه مصنوع ، وأنه على تقدير صحته ليس له كراهة المرفوع ،  
وكذا يقال في سائر أحاديث الدجال المشككة التي انتقدتها الحافظ في الفتح من  
جهة صناعة علم أصول الحديث وتعارض المتون أو مخالفتها للواقع وعد من علل  
بعضها احتمال كونها من الأسرثيليات . فقد ذكر ما أخرجه نعيم بن حماد شيخ  
البخاري في كتاب الفتن من طريق جبير بن نفير وشريح بن عبيد وعمرو بن  
الاسود وكثير بن مرة قالوا جميعاً : الدجال ليس هو بانسان وإنما هو شيطان  
موثق بسبعين حلقة في بعض جزائر اليمن لا يعلم من أوثقه : سليمان النبي أو غيره ؟  
فاذا أن ظهوره فك الله عنه كل عام حلقة ، فاذا برز أتمه أتان عرض ما بين أذنيه  
أربعون ذراعاً فيضع على ظهرها منبراً من نحاس ويقعد عليه ويتبعه قبائل الجن  
يخرجون له خزائن الارض »

قال الحافظ بعد إيراد هذا : ( قلت ) ولا يمكن معه كون ابن صياد هو الدجال  
ولعل هؤلاء مع كونهم ثقات تلقوا ذلك من بعض كتب أهل الكتاب . وأخرج  
نعيم أيضاً من طريق ( كعب الاحبار ) أن الدجال تلده أمه بقوص من أرض

مصر ( قال ) وبين مولده ومخرجه ثلاثون سنة ( قال ) ولم ينزل خبره في التوراة والانجيل وإنما هو في بعض كتب الانبياء اه وأخلق بهذا الخبر أن يكون باطلا فان الحديث الصحيح أن كل نبي قبل نبينا أنذر قومه الدجال ، وكونه يولد قبل مخرجه بالمدة المذكورة مخالف لكونه ابن صياد ولكونه موثقا في جزيرة من جزائر البحر أه المراد من قول الحافظ وهو في شرح كتاب الاعتصام من الفتح ومنه يعلم أن الحافظ لم يسلم من ضرب بعض هذه الروايات المضطربة المتعارضة المتنافرة ببعض ، وبأنه بعد احتمال الاخذ عن أهل الكتاب علة صحيحة لرد روايات الثقات ولو فيما لا مجال للعقل ولا للرأي فيه خلافا لما زعمه الزرقاني وتمسك به بعض أنصار الخرافات فعدوه مما له حكم المرفوع .

ومنه يعلم أيضا أن يدبطل هذه الاسرائيليات الاكبر كهب الاحبار قد لعبت لعبها في مسألة الدجال ( في كل وادأثر من ثعلبة ) وقول كهب إن ما ذكره من ولادة الدجال بقوص في كتب بعض الانبياء كذب واقتراء

وهناك روايات أخرى عنه منها ما نقله الحافظ في شرح كتاب الفتن عن نعيم ابن حماد في كتابه المذكور عنه قال ( أي كهب ) يتوجه الدجال فينزل عند باب دمشق الشرقي ثم يلتمس فلا يُقدر عليه ، ثم يرى عند المياه التي عند نهر الكسوة ثم يطلب فلا يدرى أين يتوجه ، ثم يظهر بالمشرق فيعطى الخلافة ، ثم يظهر السحر ، ثم يدعو النبوة فتتفرق الناس عنه فيأتي النهر فيأمره أن يسيل فيسيل ثم يأمره أن يرجع فيرجع ، ثم يأمره أن يبس فيبس ، ويامر جبل طور وجبل زيتا أن ينتطحا فينتطحا ، ويامر الريح أن تثير سحابا من البحر فتسقط الارض ويخوض البحر في كل يوم ثلاث خوضات فلا يباغ حقوبه ، وإحدى يديه أطول من الاخرى فيمد الطويلة في البحر فتبلغ قعره فيخرج من الحيتان ما يريد اه

بمثل هذه الخرافات كان كهب الاحبار يغش المسلمين ليفسد عليهم دينهم وسنتهم ، وخذع به الناس لآظهاره التقوى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

وجملة أخبار الدجال قالوا انها متواترة يعنون التواتر المعنوي وهو ان لها اصلا وان لم يتواتر شي من رواياتها . ويدل القدر المشترك منها على ان النبي ﷺ

كشفت له وتمثل له ظهور دجال في آخر الزمان يظهر للناس خوارق كثيرة وغرائب يفتن بها خلق كثير، وأنه من اليهود، وأن المسلمين يقتلونه ويقاتلون اليهود في هذه البلاد المقدسة وينتصرون عليهم، وقد كشف له ذلك مجملًا غير مفصل ولا يوحى به عن الله تعالى - كما كشف له غير ذلك من الفتن - فذكره فتناقله الرواة بالمعنى فإخطأ كثير منهم، وتعهد الذين كانوا يبشرون الأسر اثليبات الدس في رواياته . ولا يبعد أن يقوم طلاب الملك من اليهود الصهيونيين بتدبير فتنة في هذا المعنى يستعينون عليها بخوارق العلوم والفنون العصرية كالكهرباء والكيمياء وغير ذلك والله أعلم

### التعارض والاشكالات في أحاديث المهدي

وأما التعارض في أحاديث المهدي فهو أقوى وأظهر، والجمع بين الروايات فيه أيسر، والمنكرون لها أكثر، والشبهة فيها أظهر، ولذلك لم يعتقد الشيخان بشيء من رواياتها في صحيحيهما . وقد كانت أكبر مثيرات الفساد والفتن في الشعوب الإسلامية . إذ تصدى كثير من محبي الملك والسلطان، ومن ادعاء الولاية وأولياء الشيطان، لدعوي المهديوية في الشرق والغرب، وتأييد دعواهم باقتال والحرب، وبالبدع والافساد في الأرض، حتى خرج ألوف الألوف عن هداية السنة النبوية، ومرق بعضهم من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية وقد كان من حق تصديق الجماهير من المتأخرين بخروج مهدي يجدد الإسلام، وينشر العدل في جميع الأنام، أن يحملهم على الاستعداد لظهوره بتأليف عصبة قوية تنهض بزعامته، وتساعد على إقامة أركان إمامته، ولكنهم لم يفعلوا، بل تركوا ما يجب لحماية البيضة، وحفظ سلطان الملة بجمع كلمة الأمة، وباعداد ما استطاعوا من حول وقوة، فاتكأوا وتواكأوا، وتنازعوا وتحاذلوا، ولم يعظم ما نزع من ملكهم، وما سلب من مجدهم، اتكأوا على قرب ظهور المهدي، كأنه هو المعيد المبدي، فهو الذي سيرد إليهم ملكهم، ويجدد لهم مجدهم، ويعيد لهم عدل شرعهم، وينتقم لهم من أعدائهم، ولكنه يفعل ذلك بالكرامات، وما يؤيده من خوارق العادات، لا بالبوراريد أو البندقيات الصارخات، ولا بالمدافع الصاخات. ولا بالدبابات المدمرات،



ولا بأساطيل البحار السابحات والغواصات، ولا أساطيل المناطيد واطيارات ، ولا بالغازات الخائقات ، وقد كانت الحرب بين خاتم النبيين والمشركين سجالات، وكان المؤمنون ينفرون معه خفافا وثقالا ، فهل يكون المهدي أهدي منه أعمالا ، وأحسن حالا وما آلا ؟ كلا

وقد جاءهم النذير ، ابن خلدون الشهير ، فصاح فيهم ان الله تعالى سننا في الائم والدول والعمران ، مطردة في كل زمان ومكان، كما ثبت في مصحف القرآن، وصحف الاكوان ، ومنها أن الدول لا تقوم إلا بعصبية ، وإن الاعاجم قد سلبوا العصبية من قريش والعترة النبوية، فان صححت أخبار هذا المهدي فلن يظهر إلا بعد تجديد عصبية هاشمية علوية، ولو سمعوا وعقلوا، اسعوا و عملوا، وان كان استعدادهم لظهور المهدي بالاهتداء بسنن الله تعالى رحمة لهم، تجاهد ما كان في أخباره من الفتن والنقم فيهم ، وربما أغناهم عن بعض ما يرجون من زعامته إن لم يغنهم عنه كله . كانت اليهود اغترت، مثلنا بظواهر ما في كتب أنبيائهم من الانبياء بظهور مسيح فيهم يعيد لهم ما فقدوا من ملك داود وسليمان ، فاتكلوا على ما فهم أحبارهم منها بمحض التقليد الاصم الذي لا يسمع ، الاعمى الذي لا يبصر ، ومضت القرون في إثر القرون وهم لا يزدادون إلا تفرقا وضعفا ، فلما عرفت أجيالهم الاخيرة سنن الله تعالى في العمران ، طفقوا يستعدون لاستعادة ذلك الملك والسلطان، بالسعي الى انشاء وطن يهودي خاص بهم يقيمون فيه قواعد العمران، بارشاد العلوم والفنون العصرية ، التي يتعلمونها بما يحيون من لغتهم العبرانية ، وقد أنشأوا لذلك مصر فامالياً خاصا، وما زالوا يجمعون لاجله الاعانات بالألوف وأنوف الألوف من الدنانير ، حتى انهم استمالوا لمساعدتهم في هذا العهد، أقوى دول الارض، هذا — والمسلمون لا يزالون يتكلمون على ظهور المهدي ويزعم دهماؤهم انه سينقض لهم سنن الله تعالى أو يبدلها تبديلا ، وهم يتلون قوله تعالى ( ٣٥ : ٤٣ ) فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا وان تجد لسنة الله تحويلا ) فاذا كان من اشراط الساعة آيات ، وكان زمنها زمن خوارق عادات، فهل يضرهم أن تأتيهم وهم على هدى من ربهم، واقامة لشرعهم، وعزة وسلطان في أرضهم ؟

على أنهم أنشؤا في العصور الأولى عصبيات لأجل المهدي ولكنها جاهلية ، بل أنشؤا المهدي المنتظر (عج) نفسه لأجل تلك العصبيات الفارسية المجوسية ، التي كانت تسعى لإزالة ملك الأمة العربية ، وفساد دينهم الذي أعطاهم الملك والقوة ، ولأجل ذلك كثر الاختلاف في اسم المهدي ونسبه وصفاته وأعماله ، وكان لكعب الأخبار ، جولة واسعة في تفتيق تلك الأخبار ،

### الاختلاف والاضطراب في أحاديث المهدي

(منها) أن أشهر الروايات في اسمه واسم أبيه عند أهل السنة أنه محمد بن عبدالله وفي رواية : أحمد بن عبدالله ، والشيعه الامامية متفقون على انه محمد بن الحسن العسكري وهما الحادي عشر والثاني عشر من أئمتهم المعصومين ، ويلقبونه بالحجة والقائم والمنتظر ، ويقولون انه دخل السرداب في دار أبيه في مدينة (سرمن رأى) التي تسمى الآن « سامرا » سنة ٢٦٥ وله من العمر تسع سنين ، وانه لا يزال في السرداب حيا ، وقد رفع اليه بعض علماءهم المتأخرون أسئلة شرعية في رقع كانوا يلقونها ، وزعموا أنهم كانوا يجدون فتاواه مدونة فيها ! ! ومسائل هذه الرقع عندهم أصح المسائل والأحكام !! وهم كلما ذكروه يقرنون اسمه بحرفي العين والجيم هكذا (عج) وهما مقتطفتان من جملة عجل الله خلاصه

وزعمت الكيسانية أن المهدي هو محمد بن الحنفية وأنه حي مقيم بجبل رضوى بين أسدين بحفظانه وعنده عينان نضاختان يفيضان ماء وعسلا ومعه أربعون من أصحابه . فقولهم فيه كقول الامامية في المهدي ابن الحسن العسكري . ورضوى بفتح الراء جبل جهينة من أرض الحجاز على مسيرة يوم من ينبع وسبع مراحل من المدينة المنورة . ويقال إن السنوسية يعتقدون أن شيخهم المهدي السنوسي هو الامام المنتظر . ومنهم من يقول إنه اختفى ، وقد باعنا أنهم كانوا اذا سئلوا عن موته يقولون : الحي يموت . ولا يقولون انه قد مات .

وروي عن كعب الأخبار انه قال : انما سمي بالمهدي لانه يهدي الى امر خفي وسيخرج التوراة والانجيل من أرض يقال لها انطاكية ، وفي رواية أخرى عنه انما سمي بالمهدي لانه يهدي الى أسفار التوراة فيستخرجها من جبال الشام ويدعو

اليها اليهود فيسلم على تلك الكتب جماعة كثيرة . رواها ابو نعيم في كتاب الفتن .  
 وروي مثل ذلك عن ابي عمرو الداني ، وانما هو مأخوذ من تضليلات كتب الاحبار  
 والمشهور في نسبه انه علوي فاطمي من ولد الحسن ، وفي بعض الروايات من  
 ولد الحسين وهو يوافق قول الشيعة الامامية وهناك عدة احاديث مصرحة بأنه  
 من ولد العباس ( منها ) ما رواه الرافعي عن ابن عباس انه (ص) قال للعباس « ألا  
 أبشرك يا عم ؟ ان من ذريتك الأصفياء ، ومن عترتك الخلفاء ، ومنك المهدي في آخر  
 الزمان ، به ينشر الله الهدى وبطفيء نيران الضلالة ، إن الله فتح بنا هذا الأمر  
 وبذريتك يختم » ومن حديث ابن عساكر عنه مرفوعاً أيضاً « اللهم انصر العباس  
 وولد العباس ( ثلاثاً ) يا عم أما علمت أن المهدي من ولدك موقفاً مرضياً » قال  
 ابن حجر رجاله ثقات ، وفي معناها احاديث أخرى لابي هريرة وأم سلمة وعلي  
 وفي حديثه التصريح بأن المراد بالمهدي ثالث خلفاء بني العباس

وفي معناه حديث ابي هريرة المعروف عندهم بحديث الرايات وذكره ابن  
 خلدون من حديث ابن مسعود مرفوعاً « إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على  
 الدنيا ، وإن أهل بيتي سيلقون من بعدي بلاء وتشريداً وتطريداً حتى يأتي قوم  
 من قبل المشرق معهم رايات سود » الخ وهو من طريق يزيد بن ابي زياد وهو من  
 شيعة الكوفة ضعفه الأكترون وروى له مسلم مقرونا بغيره وقال شعبة فيه : كان  
 رفيعاً ، أي يرفع الى النبي ﷺ الاحاديث التي لا تعرف مرفوعة ، وصبر حوا  
 بضعف حديثه هذا . وهناك احاديث أخرى في نسبة المهدي الى العباس . وعن  
 ابن عباس عند البيهقي وأبي نعيم والخطيب البغدادي روايات في التصريح بأن  
 المهدي المنتظر هو العباسي وذكر قبله السفاح والمنصور . وأهل الرواية يتكلمون  
 الجمع بين هذه الروايات وما يعارضها باحتمال أن يكون لكل من العباس والحسن  
 والحسين فيه ولادة بعضها من جهة الأب وبعضها من جهة الأم ، قاله ابن حجر في  
 القول المختصر وتبعه الشوكاني وغيره ، ولكن ألفاظ الاحاديث لا تتفق مع هذا  
 الجمع ، على انه لم يرد في أم المهدي شيء من هذه الروايات على كثرتها

وسبب هذا الاختلاف أن الشيعة كانوا يسعون لجعل الخلافة في آل الرسول ﷺ

من ذرية علي سلام الله ورضوانه عليهم وبضعون الأحاديث تمهيداً لذلك، ففطن لهذا الأمر العباسيون فاستألبوا بعضهم، ورأى أبو مسلم الخراساني وعصبيته أن آل علي يغلب عليهم الزهد، وأن بني العباس كعبي أمية في الطمع في الملك، فعمل لهم توسلاً بهم إلى تحويل عصبية الخلافة إلى الفرس، تمهيداً لاعادة الملك والمجوسية، وحينئذ وضعت أحاديث المهدي مشيرة إلى العباسيين مصرحة بشارتهم (السواد) وأشهرها حديث ثوبان المرفوع في سنن ابن ماجه « يقتتل عند كنزكم هذا ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا تصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلاً لم يقتله قوم — ثم ذكر شيئاً لا أحفظه — فاذا رأيتموه فبابعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي » قال السندي في حاشيته على ابن ماجه: وفي الزوائد هذا اسناد صحيح رجاله ثقات ورواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح على شرط الشيخين اهـ فهو مثال لأصح ما رووه في المهدي ولكن في إسناده عبد الرزاق بن همام الصنعاني الشهير وهو معروف بالثشيع وعمي في آخر عمره فخلط وكان من مشايخه عمه وهب بن منبه وناهيك به — وفي سننه إلى ثوبان أبو قلابة وسفيان الثوري وهما مدلسان وقد عنعنا في هذا الحديث ولم يقولوا انهما سمعاه . فاذا أضفت إلى هذا طعن الطاعنين في عبد الرزاق ومنهم ابن عدي القائل انه حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافق عليها أحد، وما هو أعظم من ذلك من رمي بعضهم إياه بالكذب على مكاتته من هذا الفن — واذا تذكرت مع هذا ان أحاديث الفتن والساعة عامة، وأحاديث المهدي خاصة، وانها كانت مهب رياح الأهواء والبدع، وميدان فرسان الأحزاب والشيع، — تبين لك أين تضع هذه الرواية منها

ولما انقضى أمر بني العباس وكانت الأحاديث قد دونت لم يسع القائلين بظهور المهدي إلا أن يقولوا ان الرايات السود المروية فيها غير رايات بني العباس على ان خصوصهم كانوا قد رووا في معارضتها روايات ناطقة بأن رايات المهدي تكون صفراً، وروايات في أن ظهوره من المغرب لا من المشرق

قال محمد بن الصامت قلت للحسين بن علي رضي الله عنهما : أما من علامتين يدي هذا الامر ؟ — يعني ظهور المهدي — قال بلى . قلت وما هي ؟ قال هلاك بني

العباس وخروج السفيناني والحسف بالبيداء . قلت جعلني الله فداك أخاف أن يطول هذا الامر . فقال : انما هو كنظام سلك يتبع بهضه بعضاً . ورووا عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكرم وجهه قال : تكون في الشام رجفة يهلك فيها أكثر من مئة الف يجعلها الله رحمة للمؤمنين ، وعنداها على المنافقين ، فان كان كذلك فانظروا إلى أصحاب البراذين الشهب والرايات الصفرة تقبل من المغرب حتى تحل بالشام ، وذلك عند الجوع الاكبر ، والموت الأحمر ، فاذا كان ذلك فانظروا خسف قرية من قرى دمشق يقال لها (حرسنا) فاذا كان ذلك خرج ابن آكلة الأكباد من الوادي اليباس حتى يستوي على منبر دمشق ، فاذا كان ذلك كله فانظروا خروج المهدي . انتهى الاثر المروي عن أمير المؤمنين ، ونحن نعلم ان ابن آكلة الأكباد لقب معاوية لأن أمه أخرجت قلب حمزة سيد الشهداء ، رضوان الله عليه يوم قتل في أحد فمضغته . وكانت هذه الرواية قد وضعت فيما يظهر بعد أمير المؤمنين للتبشير بانتقام المهدي من معاوية ، ثم حملوها على السفيناني التي كثرت الروايات في خروجه قبل المهدي وقالوا انه من ولد خالد بن يزيد ابن أبي سفينان ، وانه أحد الخوارج الذين يتقدمونه بل شرهم ، والآخرون هم الملقبون بالأبقع والأصهب والأعرج والكندي والجهمي والقحطاني ، وفارس ميدان الخرافات الاسرائيلية كعب الأحبار تفصيلات لخروج هؤلاء ، هي كالتفسير الاثر العلوي الموضوع تراجع في فوائد الفكر للشيخ مرعي وعقائد السفاريني وغيرها فهذا نموذج من تعارض الروايات وتهاقها في المهدي ولو ذكرنا ما في كتب الشيعة والمنصوفة في ذلك لجئنا بالعجب العجيب . وتمحيص القول فيها لا يتم إلا بسفر مستقل .

#### خلاصة القول في اشراط الساعة

وجملة القول في أحاديث الفتن وأشراط الساعة وأماراتها وسبب الاختلاف والتعارض فيها يختصر في المسائل الآتية

(١) ان النبي ﷺ لم يكن يعلم الغيب كما يأتي في الآية التالية بل هو معلوم من الدين بالضرورة وانما أعلمه الله تعالى ببعض الغيوب بما أنزله عليه في كتابه وهو قسمان ، صريح كخبر الملائكة والساعة والجنة والنار ، ومستنبط من بيان سنن الله تعالى المنصوصة فيه كقوله تعالى ( واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم

خاصة ) وقوله ( وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ) فكان يفهم منها ﷺ ما لا يفهم غيره من الصحابة فمن دونهم علما وفيها كما روي عن الزبير (رض) من عدة طرق في آية ( واتقوا فتنة ) انهم قرءوها على عهد رسول الله ﷺ ولم يكونوا يعلمون أنها تقع منهم حيث وقعت في فتنة قتل عثمان وفي يوم الجمل ، والروايات عن الزبير أوردتها الحافظ في أول شرح كتاب الفتن من البخاري

(٢) ان الله تعالى أعلمه ببعض ما يقع في المستقبل بغير القرآن من الوحي كسؤاله لربه أن لا يجعل بأس أمته بينها فلم يعطه ذلك وأعلمه أن سنته في خلقه لا تتبدل أي وأن هذا منها راجع تفسيرنا لقوله تعالى ( ٦ : ٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ) إلخ ولم يكن ﷺ يعلم أن ذلك من سنته تعالى قبل إعلامه له . (٣) أنه كان يتمثل له ﷺ بعض أمور المستقبل كأنه يراه كما تمثلت له الجنة والنار في عرض الحائط ، وكما تمثل له في أثناء حفر الخندق ما يفتح الله لأصحابه من الممالك وكما تمثلت له الفتن وهو مشرف على أطم من أطام المدينة فقال كفاي الصحيحين « هل ترون ما أرى ؟ قالوا لا ، قال « فاني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقوع القطر » وظهر هذا في فتنة قتل عثمان (رض) ومثله حديث الفتن من قبل المشرق وكشفه هذا حق وهو ما يسميه أهل الكتاب نبوءات وقد ظهر منه شيء كثير كالشمس

(٤) إنه ﷺ لم يكن يخبر أصحابه بكل ما يطلع الله عليه من ذلك بل بما كان يري المصلحة في إخبارهم به موعظة وتحذيراً ، وكان يخص بعض أصحابه ببعضها كما روي في مناقب حذيفة (رض) وما كان كل من سمع منه شيئاً منها يفهم مراده كله وإذا كانوا لم يفهموا تأويل بعض آيات القرآن في سنن الله العامة حق الفهم التفصيلي كما تقدم آنفاً عن الزبير (رض) وإذا كان منهم من لم يفهم بعض آيات الأحكام الظاهرة كقوله تعالى ( حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ) فلأن يخفى عليهم تأويل ما خص به بعض الأفراد وهو مما لم يؤمر بتبليغه للناس كافة - لأنه ليس من أصول الدين ولا من فروعه - أولى - وخفاء ذلك على من « تفسير القرآن الحكيم » ٦٤٤ « الجزء التاسع »

بعدهم أولى الا من يقع تأويله في عهدهم كوصفه (ص) النساء المهتمكات في هذا العصر بالكاسيات العاريات الخ

(٥) لاشك في أن اكثر الاحاديث قد روي بالمعنى كما هو معلوم واتفق عليه العلماء، ويبدل عليه اختلاف رواة الصحاح في الفاظ الحديث الواحد حتى المختصر منها، وما دخل على بعض الاحاديث من المدرجات وهي ما يدرج في اللفظ المرفوع من كلام الرواة، فعلى هذا كان يروي كل أحد ما فهمه، وربما وقع في فهمه الخطأ لأن هذه أمور غيبية، وربما فسر بعض ما فهمه بألفاظ يزيد بها، وإذا كان النبي ﷺ لم يطلع الله تعالى على كل ما أطلع عليه من هذه الغيبات بالتفصيل، وكان يجتهد في بعضها ويقدر ويأخذ بالقرائن كما قال النووي وابن الجوزي في تجويره ﷺ أن يكون ابن صياد اليهودي المعاصر له هو الدجال المنتظر - وكذا تجويره ان يظهر في زمنه وهو حي - فهل من الغرابة أن يقع الخلط والتعارض فيما يروى عنه بالمعنى بقدر فهم الرواة؟

(٦) ان العابثين بالاسلام ومحاولي افساد المسلمين وازالة ملكهم من زنادقة اليهود والفرس وغيرهم من أهل الابتداع وأهل العصبية العلوية والاموية والعباسية قد وضعوا أحاديث كثيرة اقروها، وزادوا في بعض الآثار المروية دسائس دسوها، وراج كثير منها باظهار روايتها للصلاح والتقوى، ولم يعرف بعض الأحاديث الموضوععة إلا باعتراف من تاب الى الله من واضعها، ولقد كان الاستاذ الامام يقول إن الاسلام الصحيح هو ما كان عليه أهل الصدر الأول قبل ظهور الفتن، ولم يكن يثق الا بأقل القليل مما روي في الصحاح من أحاديث الفتن (٧) إن بعض الصحابة والتابعين كانوا يروون عن كل مسلم وما كل مسلم مؤمن صادق، وما كانوا يفرقون في الاداء بين ما سمعوه من النبي ﷺ أو من غيره وما بلغهم عنه بمثل سمعت وحدثني وأخبرني، ومثل: عن النبي ﷺ انه قال أو قال رسول الله ﷺ كما فعل المحدثون من بعد عند وضع مصطلح الحديث، وقد ثبت أن الصحابة (رض) كان يروي بعضهم عن بعض وعن التابعين حتى عن كعب الاحبار وأمثاله، والقاعدة عند أهل السنة أن جميع الصحابة عدول فلا يخجل جيل اسمراو منهم بصحة السند، وهي قاعدة أغلبية لامطرده فقد كان في عهد النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مناقون قال تعالى ( ١٠٢ : ٩ ) ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم) مردوا عليه احكموه وصدقوه أو صُقلوا فيه حتى لم يعد يظهر في سيامهم وحقوى كلامهم كالذين قال الله فيهم منهم ( ٤٧ : ٣١ ) ولو نشاء لأريناكم فلعرقتهم بسيامهم ولتعرفنهم في لحن القول ) ولكن البلية في الرواية عن مثل كعب الاحبار . ومن روى عنه أبو هريرة وابن عباس ومعظم التفسير المأثور مأخوذ عنه وعن تلاميذه، ومنهم المدلسون كقتادة وكذا غيره من كبار المفسرين كابن جريج ،

فكل حديث مشكل المتن أو مضطرب الرواية ، أو مخالف لمن الله تعالى في الخلق ، أو لأصول الدين أو نصوصه القطعية ، أو للحسيات وأمثالها من القضايا اليقينية ، فهو مظنة لما ذكرنا في هذه التنبيهات . وسبق لنا بيان أكثرها في الكلام على حديث طلوع الشمس من مغربها في تفسير ٦ : ١٨٥ من أواخر سورة الانعام (ص ٢٠٩ ج ٨ تفسير). فمن صدق رواية بما ذكره ولم يجد فيها إشكالا فالاصل فيها الصدق ، ومن ارتاب في كل شيء منها أو أورد عليه بعض المرتابين أو المشككين إشكالا في متونها ، فليحمله على ما ذكرنا من عدم ائمة بالرواية لاحتمال كونها من دسائس الاسرائيليات ، أو خطأ الرواية بالمعنى ، أو غير ذلك مما أشرنا اليه ، وإذا لم يكن شيء منها ثابتا بالتواتر القطعي فلا يصح أن يجعل شبهة على صدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المعلوم بالقطع ولا على غير ذلك من القطعيات . ولعل الله تعالى يبارك لنا في العمر ووقفنا لصرف معظمه في خدمة الكتاب والسنة فنضع لاحاديث الفتن وآيات الساعة مصنفا خاصا بها، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شيء قدير .

(١٨٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَمْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ .  
إِنَّا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

هذه الآية من أعظم أصول الدين وقواعد عقائده ببيانها لحقيقة الرسالة



والفصل بينها وبين الربوبية والالوهية ، وهدمها لقواعد الشرك ومباني الوثنية من أساسها . ومناسبتها لما قبلها أن الله تعالى أمر خاتم رسوله فيما قبلها أن يجيب السائلين له عن الساعة بأن علمها عند الله تعالى وحده وأمرها بيده وحده — وأمره في هذه أن يبين للناس أن كل الامور بيد الله تعالى وحده، وأن علم الغيب كله عنده ، وأن ينفي كلا منهما عن نفسه ﷺ وذلك أن الذين كانوا يسألونه (ص) عن الساعة من المسلمين كانوا يظنون أن منصب الرسالة قد يقتضي علم الساعة وغيرها من علم الغيب وربما كان يظن بعض حديثي العهد بالاسلام أن الرسول قد يقدر على مالا يصل اليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضرر عن نفسه وعن من يحب أو يشاء ، أو منع النفع وإحداث الضرر بمن يكره أو بمن يشاء . فأمره الله تعالى أن يبين للناس أن منصب الرسالة لا يقتضي ذلك ، وإنما وظيفة الرسول التعليم والارشاد ، لا الخلق والايجاد ، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما يتعلق بذلك مما علمه الله بوحيه ، وأنه فيما عدا تبليغ الوحي عن الله تعالى بشر كسائر الناس ( قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ) قال عز وجل :

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ﴾ أي قل أيها الرسول للناس فيما تبليغه من أمر دينهم إنني لا أملك لنفسي — أي ولا لغيري بالاولى — جلب نفع مافي وقت ما ، ولا دفع ضرر مافي وقت ما ، فوقع كلمتي النفع والضرر نكرتين منفيتين يفيد العموم حسب القاعدة المعروفة ، ونفي عموم الفعل يقتضي نفي عموم الاوقات له. ولكن هذا العموم مشكل بما هو معلوم بالضرورة من تمكن كل انسان سليم الاعضاء من نفع نفسه وغيره في بعض الامور الكسبية ودفع بعض الضرر عنهما ، ولذلك حرمت الشريعة الضرر والضرار

وبجواب عن هذا الاشكال من وجهين ( أحدهما ) أن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا مستملا بقدرته وإنما يملك ما يملكه من ذلك بتعليمك الرب الخالق جلت قدرته وهو المراد بالاستثناء أي لا أملك منهما ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ من نفع أقدرني على جلبه وضرر أقدرني على منعه وسخر لي أسبابهما، أو الا وقت

مشيئته سبحانه أن يمكنني من ذلك . فالمعنى المراد على هذا هو بيان عجز الخلق الذاتي وكون كل شيء أوتي به بمشيئة الله تعالى لا يستقل العبد بشيء منه استقلالاً مطلقاً ولا هو يملكه بذاته لذاته ، بل بمشيئة الله تعالى ، فالاستثناء على هذا متصل بما قبله مخصص لعمومه مقيد لاطلاقه

( الثاني ) أنه ﷺ لا يملك بمقتضى منصب الرسالة نفعاً ولا ضرراً لنفسه بمنطوق الجملة ولا لغيره بمفهومها الأولى مما يعجز عنه غيره بمقتضى بشريته وما أقدره الله تعالى عليه بمقتضى سنته في عالم الاسباب والمسببات ، كما أنه لا يملك شيئاً من علم الغيب الذي هو شأن الخالق دون المخلوق كما يأتي بيانه في تفسير الجملة التالية . والاستثناء على هذا منفصل عما قبله مؤكداً لعمومه ، أي اكن ما شاء الله تعالى من ذلك كان ، فهو كقوله تعالى ( سنقرئك فلا تنسى \* إلا ما شاء الله ) وقوله حكايه عن خليفه ابراهيم عليه السلام ( ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً ) وقوله في خطاب كليمه موسى عليه السلام ( إني لا يخاف لدي المرسلون \* إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء ) الآية .

وهذا الوجه هو المختار عندنا لأن الناس قد فتنوا منذ قوم نوح بمن اصطفاهم الله ووقفهم لطاعته وولايته من الانبياء ومن دون الانبياء من الصالحين فجعلهم شركاء لله تعالى فيما يرجوه عبادته من نفع يسوقه اليهم ، وما يخشونه من شر يمسهم فيدعونه ليكشفه عنهم ، وصاروا يدعونهم كما يدعونه لذلك إما استقلالاً ، وإما إشراكاً ، إذ منهم من يظن أنه تعالى قد أعطاهم القدرة على التصرف في خلقه بما هو فوق الاسباب التي منحها الله تعالى لسائر الناس فصاروا يستقلون بالنفع والضرر منحاً ومنعاً ، وإيجاباً وسلباً ، ومنهم من يعتقد أن التصرف الغيبي الاعلى الذي هو فوق الاسباب الكسبية الممنوحة للبشر خاص بربهم لا يقدر عليه غيره ولكنهم يظنون مع هذا أن هؤلاء الانبياء والاولياء عند الله تعالى كوزراء الملوك وحجابهم وبطانتهم ، وسطاء بينهم وبين من لم يصل إلى رتبهم ، فالملك المستبد بسلطانه يعطي هذا ويعفو عن ذنب هذا بوساطة هؤلاء الوزراء والحجاب المقربين عنده ، وكذلك رب العالمين يعطي ويمنع ويغفر ويرحم وينتقم بوساطة أنبيائه وأوليائه بزعمهم ، فهم شفعا للناس عنده تعالى

يقربونهم اليه زلفى كما حكاها التنزيل عن المشركين، وبيناه في مواضع من هذا التفسير (١) وفي مثل هذا التشبيه الوثني وتمثيل تصرف الرب العظيم الغني عن عباده بتصرف الملوك المستبدين الجاهلين الذين يمتاحون إلى وزراءهم وبطانتهم في حمله على ما ينبغي له فيهم - قال الله تعالى ( فلا تضربوا الله الامثال ) وبين في هذه الآية وأمثالها أن رسل الله تعالى وهم صفوة خلقه لا يشاركون الله تعالى في صفة من صفاته ، ولا تأثير لاحد منهم في علمه ولا في مشيئته ، لأنها كاملة أزلية لا يطرأ عليها تغير ، وأن الرسالة التي اختصهم الله تعالى بها لا يدخل في معناها إقذارهم على النفع والضرر بسلطان فوق الاسباب المسخرة لساثر البشر ولا منحهم علم الغيب وإنما هي تبليغ وحي الله تعالى وبيانه للناس بالقول والفعل والحكم ودليلنا على اختيار هذا الوجه أن مدار العبودية على توجه العباد إلى المعبود فيما يرجون من نفع ويخافون من ضرر ، فاستعمل اللفظان في التنزيل في بيان أن الرب المستحق للعبادة هو من يملك الضرر والنفع غير خاضع ولا مقيد بالاسباب العادية كقوله تعالى ( ٥ : ٧٩ قل أعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً ) وقوله في عجل بني اسرائيل ( ٢٠ : ٨٩ أفلا يرون ألاّ يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ) وقوله ( ٤٨ : ١١ قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً ؟ ) وقوله ( ١٣ : ١٧ قل من رب السموات والارض ؟ قل الله ، قل أفأخذتم من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ؟ ) وقوله ( ٢٥ : ٣ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً ) الآية

فلما كان ملك الضرر والنفع بهذا الاطلاق خاصاً برب العباد وخالقهم ، وكان طلب النفع أو كشف الضرر عبادة لا يجوز أن يوجه إلى غيره من عباده مهما يكن فضله تعالى عظيماً عليهم - أمر الله رسوله ﷺ أن يصرح بالبلاغ عنه أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، وقد تكرر هذا الأمر له في القرآن مبالغته في تقريره وتوكيده فقال تعالى في سورة يونس ( ١٠ : ٤٩ قل لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً إلا ما شاء

(١) يراجع لفظ الشفاعة والشفعاء في فهارس أجزاء التفسير كلها

الله) الآية ، وقال في سورة الجن ( ٧٢ : ٢٠ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ) وهذه الآية أبلغ وأشمل مما في معناها بما فيها من إيجاز واحتباك بمحذ ما يقابل الضر والرشد المذكورين وهما ضدهما بدالاتها عليهما والتقدير : لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، ولا رشداً ولا غواية — فهذه الآيات بمعنى ما هنا تؤيد اختيارنا ثم أمره تعالى أن ينفي عن نفسه علم الغيب مستدلاً عليه بانتفاء أظهر منافعه القريبة فقال

﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ الخبير ما يرغب الناس فيه من المنافع المادية والمعنوية كالللمال والعلم، والسوء ما يرغبون عنه مما يسوءهم ويضرهم، ويراد بهما هنا الجنس الذي يصدق ببعض أفرادها وهو الخير الذي يمكن تداركه وتحصيله، والسوء الذي يمكن الاستعداد لدفعه بعلم ما يأتي به القدر . والجملة استدلال على نفي علم النبي ﷺ الغيب كأنه يقول لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا أعلم الغيب ، ولو كنت أعلم الغيب - وأقربه ما يقع في مستقبل أيامي في الدنيا - لاستكثرت من الخير كالللمال وأعمال البر التي تتوقف على معرفة ما يكون في المستقبل من عسرة وغلاء، مثلاً وتغير الأحوال، ولما مسني السوء الذي يمكن الاحتياط لدفعه بعلم الغيب كشدة الحاجة مثلاً ، ومن أمثله في العبادة قوله ﷺ في حجة الوداع « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت ولولا أن معي الهدى لأحلت » رواه الشيخان وغيرها - يعني لو أنه علم ﷺ ما يحصل من انفراده دون أصحابه بسوقه الهدى إلى الحرم من مشقة فسخهم الحج إلى عمرة دونه إذ لا يباح الفسخ والتحلل بالعمرة لمن معه الهدى لما ساق الهدى ليوافق الجمهور في تمتعهم بالعمرة إلى الحج . ومن أمثله في الإدارة وسياسة الحرب ما عاتبه الله تعالى عليه من الإعراض عن الأعمى والتصدي للاغنياء ومن أخذ الفداء من أسرى بدر ، ومن الأذن بتخلف المنافقين في غزوة تبوك سنة العسرة ، ولم أر أحداً نبه على هذا النوع من المفسرين .

وفيه وجه آخر أنه مستأنف غير معطوف على ما قبله ، ومعناه وما مسني الجنون كما زعم الجاهلون ، فيكون حاصل معنى الآية نفي رفعه إلى رتبة الربوبية الذي افتتن بمثله الغلاة ، ونفي وضعه في أدنى مرتبة البشرية الذي زعمته الغواة العتاة .

وبيان حقيقة امره ، وما رفع الله تعالى من قدره ، بجعله فوق جميع البشر بوحيه ،  
ووساطته بينه وبين خلقه ، لكن في التبليغ والارشاد ، لا في الخلق والايجاد ،  
ولا في تدبير أمور العباد ، فان هذا شأن الربوبية ، وانما هو صلوات الله عليه  
وسلامه في أعلى مقام العبودية ،

ومن نكت البلاغة في القرآن بتقديم اللفظ على ما يقابله في آية وتأخيره في  
أخرى تقديم النعم على الضر في هذه الآية وتأخيره وتقديم الضر عليه في آية  
سورة يونس المذكورة آنفا . والفرق المحسن لذلك ان آية الاعراف جاءت بعد  
السؤال عن الساعة أيا نمرساها؟ وأكبر فوائد العلم بالساعة وهو من علم الغيب الاستعداد  
لها بالعمل الصالح واتقاء أسباب العقاب فيها، فاقتضى ذلك البدء بنفي ملك النعم لنفسه  
بمثل هذا الاستعداد وتأخير ملك الضر المراد به ملك دفعه واتقاء وقوعه ، وأن  
يستدل على ذلك بما ذكر من انه لو كان يعلم الغيب حتى فيما دون الساعة زمنا وعظم  
شأن لاستكثر من الخير الذي يتعلق بالاستعداد للمستقبل واتقى أسباب ما يمسسه من  
السوء فيه كالمثلة التي ذكرناها

وأما آية سورة يونس فقد وردت في سياق تماري الكفار فيما أوعدهم الله من  
العقاب على التكذيب بما جاءهم به رسوله من بينات والهدى واستعجالهم إياه  
تهكما ومبالغة في الجحود، فناسب أن يذكر في جوابهم أنه لا يملك لنفسه ولا لهم ضرا  
كتعجيل العذاب الذي يكذبون به ولا نفعا كالنصر الذي يترتب على تعجيل العذاب  
لهم في الدنيا ، فقد أمره الله تعالى ان يبلغهم ان أمر عذابهم تعجيلا أو تأخيرا الله  
تعالى وحده كما أمره أن ينفي عن نفسه القدرة على ما اقترحوه من الآيات ، ومن  
ذلك ما ذكره تعالى من مقترحاتهم في سورة الاسراء من تفجير ينبوع في مكة  
وايجاد جنة تنفجر الأنهار خلالها تفجير - أو إسقاط السماء عليهم كسفا ( وهو  
من العذاب ) الخ ومن أمره تعالى لرسوله ﷺ أن يجيبهم عن ذلك بقوله ( قل  
سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ) وقال تعالى في هذه السورة ايضا ( ربكم  
أعلم بكم إن يشأ برحمة أو إن يشأ يعذبكم ، وما أرسلناك عليهم وكيلا ) أي موكلنا  
بأمر ثوابهم وعقابهم منفذ له ، وقال تعالى في سورة الرعد ( وإما نرينك بعض

الذي نعدمهم أو توفينك فأنما عليك البلاغ وعلينا الحساب )  
 وهالك ماورد في التفسير المأثور في الآية نقلا عن تفسير الحافظ ابن كثير قال :  
 « أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب  
 المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا ما أطلع الله عليه كما قال تعالى ( عالم  
 الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ) الآية ، وقوله ( ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت  
 من الخير ) قال عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن مجاهد ( ولو كنت أعلم  
 الغيب لاستكثرت من الخير ) قال لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملاً صالحاً ،  
 وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد وقال مثله ابن جريج ، وفيه نظر لأن  
 عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ديمة ، وفي رواية كان إذا عمل عملاً أثبتته  
 فجميع عمله كان على منوال واحد ، كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله ، اللهم  
 إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك والله أعلم

« والاحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس ( ولو كنت أعلم الغيب  
 لاستكثرت من الخير ) أي من المال ، وفي رواية لعمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح  
 فيه فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ولا يصيبني القمطر . وقال ابن جرير وقال آخرون :  
 معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجذبة من المحصبة ، ولو قت  
 الغلاء من الرخص . وقال عبد الله بن زيد بن أسلم ( ومامستي السوء ) قال لاجتذبت  
 ما يكون من الشر قبل أن يكون واقتيته . » إه وما قلناه أعم وأصح

هذا وإننا قد بينا في تفسير ( ٦ : ٥ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله  
 ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي ) أن الغيب قسمان  
 حقيقي لا يعلمه إلا الله تعالى وإضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض ، وأن هذه  
 الآية تنفي قدرة الرسول على التصرف في خلق الله تعالى بما هو فوق كسب البشر ،  
 وتنفي عنه علم الغيب بهذا المعنى ، إلا ما أعلمه الله تعالى به بوحيه لتعلقه بوظيفة الرسالة  
 كالملائكة والحساب والثواب والعقاب — وأن ما يطلع الله عليه الرسل من ذلك  
 لا يكون من علمهم الكسبي ، بل يدخل في معنى الاجتماع على أن النبوة غير مكتسبة .

وأوردنا هنالك قوله تعالى في ذلك من سورة الجن ( ٧٢ : ٢٦ ) عالم الغيب فلا يظن  
على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول — إلى قوله — ليعلم أن قد أبلغوا  
رسالات ربهم ) الآية . واستطردنا إلى تنفيذ ما يدعيه بعض مشايخ طرق  
الصوفية أو يدعى لهم من علم الغيب والتصرف في ملك الله أحياءاً وأمواتاً بما  
أغنى عن اعادته هنا <sup>(١)</sup> ثم أطلنا البحث في علم الغيب في تفسير ( ٦ : ٥٩ ) وعنده  
معناح الغيب لا يعلمها الا هو ) الآية وتكلمنا فيه عن الكشف وغير ذلك من  
معرفة بعض الامور المستقبلية المتعلقة بمسألة الغيب الاضافي أو التي لا يصح تسمى  
غيباً لأن لما أسباباً فطرية <sup>(٢)</sup> . وفي الكلام على اشراط الساعة الذي مر بك قريباً  
ببحث فيما أطلع عليه رسوله بما دون الوحي من بعض الحوادث المستقبلية كتمثل الاشياء  
له تمثلاً متفارقاً في الوضوح، وهو لا يعارض هذه الآية كما علمت

﴿ إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ هذا بيان مستأنف لتعليل لما تقدم  
من نفي امتيازهم (ص) على البشر بملك النفع والضيم من غير طرق الاسباب وسنن الله  
في الخلق — ونفي امتيازهم بعلم الغيب ، علاهما ببيان حصر امتيازهم عليهم  
بالتبليغ عن الله عز وجل ، والتبليغ قسمان : قسم مقترن بالتخويف من العقاب على  
على الكفر والمعاصي وهو الانذار ، وقسم مقترن بالترغيب في الثواب على الايمان  
والطاعة وهو البشارة أو التبشير . وكل منهما يوجه إلى جميع أمة الدعوة على الاطلاق  
والآيات فيه كثيرة ، ويوجه أيضاً إلى من يؤمن وإلى من يصر على كفره  
واجرامه مطلقاً ، واذا ذكر الفريقان جميعاً في سياق واحد يخص الكافرون  
بالانذار والمؤمنون الصالحون بالتبشير ، وقد ذكر في أول سورة الكهف الانذار  
المطلق بالقرآن ثم تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات وإنذار متخذي الولد لله  
تعالى من الكافرين . ومن المقابلة بين الفريقين قوله تعالى في آخر سورة مريم  
( لتبشّر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ) وفي معناها آيات أخرى في المقابلة كما  
ترى في أوائل سورتي البقرة والاسراء ، ولكن بدون ذكر لفظ الانذار .  
والتبشير لا يوجه إلى الكافرين والمجرمين بلقبهم إلا بأسلوب التهم كقوله تعالى

(١) راجع ص ٤٢١ ج ٧ تفسير « ٢ » راجع ص ٤٥٦ - ٤٦٩ منه .

( فيشرهم بعذاب أليم ) على القول المشهور الذي عليه الجمهور ، وأما الإنذار فقد يوجه إلى المؤمنين المتقين على معنى أنهم هم الذين ينتفعون به كقوله في سورة فاطر ( إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ) وقوله في سورة يس ( إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم )

بناء على هذا قال بعض المفسرين إن قوله تعالى ( لقوم يؤمنون ) متعلق بالوصفين على معنى أن المؤمنين هم الذين ينتفعون بإنذاره فيزيدهم خشية لله وافتقاراً لما يسخطه ، وبتبشيرهم فيزدادون شكرياً له بعبادته وإقامته سنه . وقال بعضهم إنه متعلق بالثاني المتصل به ويدل على حذف مقابله فيما قبله . والتقدير : ما أنا إلا نذير للكافرين وشير للمؤمنين ، ووجهه أن المقام مقام التبليغ ، وهناك وجه ثالث وهو أن البشارة للمؤمنين خاصة لا اتصالها بهم ، والإنذار عام لهم وغيرهم ، وقد عرف وجهه مما فصلناه وقد ورد في مثل هذا من حصر وظيفة الرسول بالإنذار والتبشير بلفظيهما معاً أو بأحدهما وبلغ التبليغ الجامع لهما آيات كثيرة بعضها بالاثبات بعد النفي كما هنا وبعضها بآثار ، والحصر بكل منهما أقوى النصوص القطعية للدلالة ، ومع هذا التكرار والتوكيد كماه بأبي غلاة الإطراء للرسول ولمن دون الرسل من الصالحين حقيقة أو توها إلا أن بشر كهم مع الله سبحانه وتعالى في صفات ربوبيته وأفعاله قال تعالى في سورة سبأ ( وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) وقال في سورتي الإسراء والفرقان ( وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ) وقال في سورتي الأنعام والكهف ( وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ) وقال في سورة النحل ( فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ) وفي سورة يس حكاية عن الرسل ( وما علينا إلا البلاغ المبين ) وفي سورتي النور والعنكبوت ( وما على الرسول إلا البلاغ المبين )

( فان قيل ) إن الحصر في هذه الآيات وأمثالها إضافي فان من وظائف الرسل بيان الوحي والحكم بين الناس كما قال تعالى ( إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ) وقال عز وجل ( وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ) والبيان يكون بالأفعال كالأقوال بل الأفعال أقوى دلالة وأعصى على تأويل المحرفين . وكما قد



امر تعالى بتحكيم رسوله ﷺ والخضوع لحكمه ، امر بالتأسي به في هديه وسنته ( لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ) (قلنا) ان هذا الاينافي الحصر الحقيقي لان التبليغ لدين الله وشرعه لا يتم الا بالعمل والحكم به وتنفيذ أحكامه فهو داخل في التبليغ وبيان الوحي وجملة القول ان الرسل عليهم الصلاة والسلام عبيد لله تعالى مكرمون، لا يشار كونه في صفاته ولا في افعاله ، ولا سلطان لهم على التأثير في علمه ولا في تدبيره، وهم بشر كسائر الناس لا يمتازون على البشر في خلقهم وصفاتهم وقرائنهم ، وانما يمتازون باختصاص الله تعالى اياهم بوحيه ، واصطفايتهم لتبليغ رسالاته لعباده ، وبما زكاهم وعصمهم فاهلهم لان يكونوا اسوة حسنة وقدوة صالحة للناس في العمل بما جاؤا به عن الله تعالى من الصلاح والتقوى ومكارم الاخلاق .

(١٨٩) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٩٠) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩١) أَيُشْرِكُونَ مَا لَآ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩٢) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٣) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ ، سِوَاكَ عَلَيْكُمْ آدَتُهُمْ وَهُمْ أُمَّةٌ أَنْتُمْ صَانِعُونَ

افتتحت هذه السورة بدعوة القرآن إلى دين التوحيد والأمر باتباع ما أنزل الله، والنهي عن اتباع أولياء من دونه ، وتلاه التذكير بنشأة الانسان الاولى في الخلق والتكوين ، والعداوة بينه وبين الشيطان ، ثم اختتمت بهذه المعاني ، وهو التذكير بالنشأة الاولى والنهي عن الشرك واتباع وسوسة الشيطان ، والأمر بالتوحيد واتباع القرآن ، قال تعالى

﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ أي خلقكم من جنس واحد أو حقيقة واحدة صورها بشراً سوياً ، ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ سكنوا زوجياً ، أي جعل لها زوجاً من جنسها فكانا زوجين ذكراً وأنثى كما قال تعالى ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكروأنثى ) كما أنه خلق من كل جنس وكل نوع من الأحياء زوجين اثنين قال عز وجل ( ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ) وانا نشاهد ان كل خلية من الخلايا التي ينمي بها الجسم الحي تنطوي على نويتين ذكر وأنثى يقترنان فيولد بينهما خلية أخرى ، وهلم جراً ، ونعلم أيضاً كيف يتكون في الأرحام كل من الزوجين كما قال تعالى ( وانه خلق الزوجين الذكر والانثى \* من نطفة إذا تمى ) ولكننا لا ندري كيف ازدوجت النفس الأولى بعد وحدتها فكانت ذكراً وأنثى ، قال تعالى ( ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ) وفي التوراة التي عند أهل الكتاب ان حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم وقد أمرنا نبينا ﷺ أن لانصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم أي فيما لا نص فيه عندنا لاحتماله، فنحن نعمل بأمره ﷺ في هذا الخبر وان حمل عليه بعض المفسرين وغيرهم حديث « استوصوا بالنساء فان المرأة خلقت من ضلع وان أعوج شيء في الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته ، وان تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » رواه الشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً ، فان المتبادر منه الذي اعتمده الشراح في تفسيره ان المراد بخلقها منه أنها ذات اعوجاج وشذوذ تخالف به الرجل كما يشير اليه ما رواه ابن حبان عن أبي هريرة « ان المرأة خلقت من ضلع أعوج » فهو على حد قوله تعالى ( خلق الانسان من عجل ) وقال الحافظ في شرحه من الفتح : قيل فيه إشارة إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر وقيل من ضلعه القصير أخرجه ابن اسحاق وزاد: اليسرى من قبل أن يدخل الجنة وجعل مكانه لحم ، ومعنى خلقت أي أخرجت كما تخرج النخلة من النواة اه فتأمل لجعل الحافظ المسألة من باب الإشارة وحكايته لها بصيغة التضعيف ، وما ذكره من تفسيرها الغريب بتشبيه خلق الانسان بخلق النبات ، وظاهره انه لم يطلع على سعة حفظه على قول ابن يعنبد بأقوالهم من علماء السلف ومحقق الخلف

في المسألة ، وتذكر ان الله تعالى خاطب الناس في عصر التنزيل بمثل ما حكاه لهم في هذه الآية عن نشأة جنسهم في كونه تعالى خلق لهم أزواجا من أنفسهم فقال في بيان آياته من سورة الروم ( ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ) فهذا المعنى عام لا خاص بالانسان الأول عبر التنزيل عن ميل الزوج الجنسي إلى زوجه هنا وفي سورة الزوم بالسكون وذلك ان المرء إذا بلغ سن الحياة الزوجية يجد في نفسه اضطرابا خاصا لا يسكن إلا إذا اقترن بزواج من جنسه واتحدا ذلك الاقتران والاتحاد الذي لا تكمل حياتها الجنسية المنتجة إلا به ، ولذلك قال بعده ﴿ فلما تغشاها ﴾ الخ الغشاء غطا، الشيء الذي يستره من فوقه ، والغاشية الظلة تظله من سحابة وغيرها ( والليل إذا يغشى ) أي يحجب الأشياء ويسترها بظلامه، وتغشاها اناها كغشيتها ويزيد مانع طيه صيغة التفعّل من جهد ، وهو كناية نزيهة عن أداء وظيفة الزوجية تشير إلى أن مقتضى الفطرة وأدب الشريعة فيها الستر ، ولفظ النفس مؤنث فأنت في أول الآية ، ولفظ الزوج يطلق على الذكر والانثى ولهذا ذكر هنا فاعل التغشي وأنت مفعوله . أي فلما تغشى الزوج الذي هو الذكر الزوج التي هي الانثى ﴿ حملت حملا خفيفا ﴾ أي علقته منه وهو الحبل ، والحمل بالفتح يطلق على المصدر وعلى المحمول والمشهور انه خاص بما كان في بطن أو على شجرة وان ما حمل على ظهر ونحوه يسمى حملا بكسر الحاء . والحمل هاهنا يحتمل المعنيين وهو يكون في أول العهد خفيفا لاتكاد المرأة تشعر به ، وقد تستدل عليه بارتفاع حيضتها ﴿ فمرت به ﴾ أي فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق كما قاله الزمخشري أو استمرت في اعمالها وقضاء حاجتها من غير مشقة ولا استئقال ﴿ فلما أثقلت ﴾ أي حان وقت ثقل حملها وقرب وضعها ﴿ دعوا الله ربهما : لنن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين ﴾ أي توجهنا إلى الله تعالى ربهما يدعوانه فيما المحصر ههما فيه بعد تمام الحمل على سلامة بأن يعطيها ولدا صالحا أي سوياتا م الخلق يصلح للقيام بالاعمال البشرية النافعة- ولا ينبغي أن يدعو العبد غير

ربه ، فيما لا يملك هو ولا غيره من العبيد أسبابه ، دعواه مخلصين مقسمين له على ما وطنا عليه انفسهما من الشكر له على هذه النعمة قائلين ان اعطينا ولدا صالحا لنكونن من القائمين لك بحق الشكر قولاً وعملاً واعتقاداً و اخلاصاً ، كما يدل عليه الوصف المعروف

﴿ فلما آتاها صالحا جعلنا له شركاء فيما آتاها ﴾ اي فلما اعطاهما ولدا صالحا لانقص في خلقه ، ولا فساد في تركيبه ، جعلنا له شركاء في اعطائه أو فيما اعطاه بأن كان سبباً لوقوع الشرك منها أو ظهور ما هو راسخ في انفسهما منه ، رسنين معناه وقرأ نافع وأبو بكر ( جعلنا له شركاء ) أي شركة أو ذوي شرك ، فالعنى واحد ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ اي تعالى شأنه عن شركهم ، فانه هو معطي النسل بما خلقه لكل من الزوجين من اعضاء ، وقدر لهما في العلوق والوضع من اسباب ، لا فعل لغيره في ذلك البتة . وجمع الضمير هنا بعد تنزيهه الافعال قبله لان المراد فيه بالزوجين الجنس لا فردين معينين : وقال الزمخشري : ان الضمير في ( آتينا ) و ( لنكونن ) لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما . والآية على كل من القولين بيان لحال البشر فيما طرأ عليهم من نزغات الشرك الخفي والجلي في هذا الشأن وأمثاله ، والجنس يصدق ببعض انواعه وبعض افراده

فقال الشرك الخفي في انعام الله عليهم بالنسل ما يسندونه إلى الاسباب في سلامة الحامل من الامراض في أثناء الحمل أو في حالة الوضع ، وفي سلامة الطفل عند الوضع وعقبه وفيما بعد ذلك من الموت أو التشويه أو الامراض ، كقولهم : لولا ان فعلنا كذا لكان كذا ، ولولا فلان أو فلانة من طبيب أو مرشد أو قابلة هلك الولد أو لاجهضت أمه إجهاضاً ، أو جاءت بسقط لم يستهل ، أو لمات عقب اسقاطه لعدم استعداده للحياة . وينسون في هذه الاحوال فضل الله تعالى عليهم بما من به من العافية والتوفيق وتسخير الاسباب من البشر وغيرهم ، وان كانوا ممن يذكرونها ولا ينكرونها إذا ذكروا بها - ذلك شأن كثير من الناس في كل نعمة تمسهم ، أو نعمة يدفعها الله تعالى عنهم ، وهذا الشرك ليس خروجاً من الملة ، ولكنه نقص في شكر المنعم ، ويحتمل أن يكون المراد بالشرك هنا ترجيح حب الاولاد على حب الله تعالى وشغلهم للوالدين عن ذكره وشكره ، وإيثارهم لهم على

طاعته والتزام ماشرعه من أحكام الحلال والحرام، وهو كسابقه نقص في التوحيد لا تقض له ، وغلة عنه لا جحد به

ومثال الشرك الجلي إسناد هذه النعم إلى غيره تعالى ممن يدعوهم من دونه او معه من الاولياء والقديسين ، أو الانبياء والمرسلين ، أو ما يذكر بهم أو يثلمهم من القبور أو الاصنام والتماثيل ، يقولون : لولا سيدي فلان ولولا مولانا اعلان لما كان كذا مما نحب ، أو لكان كذا وكذا مما نكره ، يعتقدون ان لهم فيما كان من نفع ومنع ضرر تأثيراً غيبياً يستقلون به هو فوق تأثير الاسباب المذكورة عن القسم الاول كما تقدم شرحه مرارا أقربها ما في تفسير الآية السابقة

﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ أي وارتفع مجده ، وتعالى جده ، تزه عن شرك هؤلاء الاغبياء أو عن شرك كلهم أن يكون لهم تصرف في خلقه ، أو تأثير في صفاته وأفعاله كنت قرأت منذ سنين جل مقال المفسرون في تفسير هذه الآيات من كتبهم التي بين أيدينا من مآثور وغيره ، وما أوردوه فيها من الاشكال ، وما لهم في الجواب عنه والتفصي منه من اقوال ، ولما أردت كتابة تفسيرها الآن لم أجد مما في ذهني منه شيئاً مرضياً بطمئن به قلبي ، فتوجهت إلى الله تعالى وفكرت في معناها الذي يعطيه الاسلوب العربي وينطبق على سنة الله في البشر ، وفي بيان كتابه لحقائق أحوالهم ، فكرت في ذلك قبل النوم وأنا في فراشي ، ثم كتبت ما تقدم في آخر النهار ، ثم بحثت فيما عندي من كتب التفسير لأكتب خلاصة ما قيل فيها ، وانظر فيما عساه يؤيده ، وأجيب عما ربما يفنده ، فاذا أنا بصاحب الانتصاف يقول بعد ذكر ما نقلناه آنفاً من كلمة الزمخشري في ضميري الجمع مانصه : وأسلم من هذين التفسيرين أن يكون المراد جنسي الذكر والانثى لا يقصد فيه إلى معين ، وكان المعنى والله أعلم : خلقكم جنساً واحداً وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا اليهن ، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الآخر الذي هو الانثى جرى من هذين الجنسيتين كيت وكيت . وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون لأن المشركين منهم كقوله تعالى ( ويقول الانسان إذا مامت لسوف أخرج حياً \* قتل الانسان ما أكفره \* إن الانسان اني خسر ) إهـ

وأما الاشكال الذي أشرنا إليه فهو ماروي عن بعض الصحابة والتابعين وفي حديث مرفوع أيضاً من أن الآية في آدم وحواء فقد أخرج احمد والترمذي وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وغيرهم من حديث سمرة بن جندب مرفوعاً قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبدالحارث فإنه يعيش ، فسمته عبدالحارث فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان » وهو على كثرة مخرجه غريب وضعيف كما سيأتي ، وقد جاءت الآثار في هذا المعنى مفصلة ومطولة وفيها زيادات خرافية ، تشهد عليها بأنها من الدسائس الاسرائيلية ، وهذه الآثار بعدها بعض العلماء من قبيل الاحاديث المرفوعة لأنها لا تقال بالرأي ، والذي نعتقه وجرينا عليه في التفسير أن كل ما هو منها مظنة للاسرائيليات المتلقاة عن مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه فهي لا يوثق بها ، فان كانت مع ذلك مشتملة على ما ينكره الدين أو العلم الصحيح قطعنا بطلانها وكونها دسيسة اسرائيلية ، ومنها ما نحن فيه لأن فيه طعنًا صريحاً في آدم وحواء عليها السلام ورمياً لهما بالشرك ، ولذلك رفضها بعض المفسرين وتكفأ آخرون في تأويلها بما تنكره اللغة . وقد اعتمد بعض المتأخرين كصاحب فتح البيان وصاحب روح المعاني الاخذ بحديث سمرة دون آثار الصحابة والتابعين التي فيها ما ليس فيه من رمي آدم بالشرك الصريح ، وظننا أنه حجة ووصفاه تبعاً للترمذي والحاكم بالحسن وبالصحيح ، وما هو بحسن ولا صحيح ، على أنه لم يرد تفسيراً للآية كتلك الآثار .

وذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب في الآية لقريش وأن المراد فيها بالنفس الواحدة قصي جدم ، وأن المراد يجعل زوجها منها أنها قرشية أو عربية لما روي أنها من خزاعة لأم قريش ، وأن المراد بشر كما تسمية أبنائهما الاربعة عبد مناف وعبد شمس وعبد العزى وعبد الدار — يعني دار الندوة — وفيه نظر من وجوه ذكرها بعض المفسرين لانضيم الوقت بذكرها . وأما الذي يصح أن يذكر ويبين بطلانه فهو الروايات التي انخدع بها ولا يزال ينخدعها الكثيرون ، وعمدتنا في تمحيصها وبيان عللها الحافظ ابن كثير فقد قال في تفسيره مانصه :

« ذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها ثم تتبع ذلك

بيان الصحيح في ذلك إن شاء الله وبه الثقة . قال الامام أحمد في مسنده : حدثنا  
 عبدالصمد حدثنا عمر بن ابراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ  
 قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبدالحارث  
 فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن  
 بشار عن بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به ، ورواه الترمذي في تفسير  
 هذه الآية عن محمد بن المثني عن عبد الصمد به وقال هذا حديث حسن غريب  
 لا نعرفه إلا من حديث عمر بن ابراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه  
 ورواه الحاكم في مستدرکه من حديث عبد الصمد مرفوعا ثم قال هذا حديث  
 صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ورواه الامام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن  
 أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن ابراهيم به مرفوعا ، وكذا  
 رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث شاذ بن مياض عن عمر بن  
 ابراهيم به مرفوعا : قلت ( وشاذ هو هلال وشاذ لقبه ، والغرض أن هذا الحديث  
 معلول من ثلاثة أوجه ( أحدها ) أن عمر بن ابراهيم هذا هو المصري وقد وثقه  
 ابن معين ، ولكن قال أبو حاتم الرازي لا يحتج به <sup>(١)</sup> ولكن رواه ابن مردويه من  
 حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعا قاله أعلم ( الثاني ) أنه قد  
 روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا كما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبدالاعلى  
 حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر بن عبدالله عن سليمان التيمي عن عبدالاعلى بن  
 الشخير عن سمرة بن جندب قال : سمي آدم ابنه عبد الحارث ( الثالث ) أن  
 الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل  
 عنه . قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن  
 ( جعلناه شركا . فيما آتاها ) قال كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم ،  
 وحدثنا محمد بن عبد الاعلى حدثنا محمد بن نور عن معمر قال : قال الحسن غني  
 بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده ، يعني جعلناه شركا . فيما آتاها ، وحدثنا

«١» وقال أحمد وابن عدي وابن حبان أنه يروي عن قتادة أحاديث منكورة

لا يوافق عليها وقال الدارقطني ويترك حديثه وقال البزار ليس بالحافظ

بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا . وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفسير وأولى ما حلت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره لاسيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي ، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله ألا إنما برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم «فأما الآثار فقال محمد بن اسحاق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال : كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدونهم الله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبيهم الموت ، فأتاهما إبليس فقال : إنكما لو سميتهما بغير الذي تسميانه به لعاش ، قال فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث فنيه أنزل الله يقول ( هو الذي خافكم من نفس واحدة — إلى قوله — جعل له شركاء فيما آتاهما ) إلى آخر الآية : وقال العوفي عن ابن عباس قوله في آدم ( هو الذي خلقكم من نفس واحدة — إلى قوله — فمرت به ) شكت أحملت أم لا ؟ ( فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ) فأتاهما الشيطان فقال هل تدريان ما يولد لكما أم هل تدريان ما يكون أمهية أم لا ؟ وزين لها الباطل انه غوي مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لها الشيطان إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سوياء ومات كما مات الأول فسمياه ولدهما عبد الحارث فذلك قول الله ( فلما آتاهما صالحاً جعل له شركاء فيما آتاهما ) الآية . وقال عبد الله ابن المبارك عن شريك عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ( فلما آتاهما صالحاً جعل له شركاء فيما آتاهما ) قال : قال الله تعالى ( هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها ، فلما تفشاها ) آدم حملت فأتاهما إبليس لعنه الله فقال اني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيتل فيخرج من بطنك فيشققه ولأفعلن ولأفعلن — يخوفهما — فسمياه عبد الحارث ، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ، ثم حملت الثانية فأتاهما أيضاً فقال :



أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت لتفعلن أو لا تفعلن - يخوفهما - فأبيا أن يطيعا فخرج ميثا ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً فذكر لهما فأدركما حب الولد فسمياه عبدالحارث فذلك قوله تعالى ( جعلناه شركاء فيما آتاهما ) رواه ابن أبي حاتم

« وقد تلقى هذا الاثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كعجابه وسعيد بن جبير وعكرمة، ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب كما رواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد يعني ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : لما حملت حواء أتاهما الشيطان فقال لها تطيعيني ويسلم لك ولدك سميته عبدالحارث فلم تفعل فولدت فمات ، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل ، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال : إن تطيعيني يسلم وإلا فانه يكون بهيمة . فبيهما فأطاعا

« وهذه الآثار يظهر عاينها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » ثم أخبرهم على ثلاثة فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً ، ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام « حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج » وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وهذا الاثر هو من القسم الثاني أو الثالث ؟ فيه نظر ، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فانه يراه من انقسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ، ولهذا قال الله ( فتعالى الله عما يشركون ) ثم قال فذكره آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدها من الوالدين وهو كالأستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله ( ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح ) الآية ، معلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء

ليست هي التي يرمى بها ، وإنما هذا استطراد من شخص الصايبح إلى جنسه ولهذا  
نظائر في القرآن والله أعلم . إه سياق ابن كثير وقد أصاب كنه الحقيقة في قوله  
ان هذه الآثار مأخوذة من الاسرائيليات ، وما كانت طعنا في عقيدة أبونا آدم  
وحواء عليهما السلام بما تبطه عقائد الاسلام ، وجب الجزم ببطالها وتكذيبهم فيها .

ثم يتن على سخافة عقولهم وأفن آرائهم بهذا الشرك فقال ﴿ أشركون

مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ﴾ الاستفهام اللانكار والتجويل ، أي يشركون به  
سبحانه وتعالى وهو الخالق لهم ولأولادهم ولكل شيء . ما لا يخلق شيئا من الأشياء  
مها يكن حقيراً كقوله تعالى ( ان الذين تدعون من دون الله ان يخلقوا ذبابا  
ولو اجتمعوا له ) وليس قصارى أمرهم ان الخالق لا يقع منهم ، بل هو يقع عليهم ،  
فهم يخلقون آنا بعد ان ، ولا يليق بسليم العقل أن يجعل الخلق العاجز ، شريكاً  
للخالق القادر ؟ والآية وما بعدها حكاية لشرك عباد الاصنام والتماثيل كافة ،  
ومنهم مشركو مكة وأمثالهم ممن نزل القرآن في عهدهم ومن يجيء بعدهم ، فقوله  
( مالا يخلق شيئا ) يراد به اصنامهم لأن « ما » لما لا يعقل ولفظها مفرد وهو من  
صيغ العموم فأفرد الضمير في « يخلق » مراعاة للفظ ثم جمع في « يخلقون » مراعاة  
للمعنى ، وجعله ضمير العقلاء من قبيل الحكاية لا اعتقادهم ، والتعبير بفعل المضارع  
« يخلقون » لتصوير حدوث خلقهم ، وكون مثله مما يتجدد فيهم وفي أمثالهم من  
المشركين ، وهذا أسوأ فسادهم في الشرك

﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ﴾ أي وهم على كونهم  
مخلوقين نير خالقين شيء لا يستطيعون لها بديهم نصراً على أعدائهم ، ولا يستطيعون  
لأنفسهم نصراً على من يعتدي عليها باهانة لها ، أو أخذ شيء ، من طيها أو حليها ، كما  
قال ( وان يسلمهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ) أي  
فهم يحتاجون اليكم في تكريمهم وانتم لا تحتاجون اليهم ، بل أنتم الذين تدفعون  
عنهم وتنصرونهم بالنضال دونهم ، ﴿ وان تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ﴾  
قرأ نافع « لا يتبعوكم » بالتخفيف والباقون بالتشديد أي وان تدعوهم إلى

ما هو الهدى والرشاد في نفسه لا يتبعوكم ، فلا هم ينفعون ولا هم ينتفعون منكم أو المعنى وان تدعوهم إلى إفادتكم لا يستجيبون لكم (سواء عليكم أذعوتهم أم أنتم صامتون) أي مستور عندكم دعاؤكم إياهم وبقاؤكم على صمتكم ، ولعله لم يقل صمتهم ، أو تصمتون ، لأن إشراكهم بهم كان قد وهن بحيث لم يكونوا يدعونهم عند الاضطرار وكوارث الخطوب بل يدعون الله وحده ، وإنما كانوا يتحدثون بتعاليدهم الوثنية فيهم والرجاء بشفاغهم في أوقات الرخاء ، التي لا يشعر فيها الانسان بالحاجة إلى الدعاء ( فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر اذا هم يشركون ) ومنه الدعاء بالولد الصالح عند قرب وضع الحامل ، والشرك بعد وجود الولد الصالح ، فالتعبير بالوصف « صامتون » لافادة كون إحداث الدعاء واستصحاب الحال الثابتة قبله واستمرارها سواء ، وهي تصدق بنفس شعورهم بالحاجة الى دعائهم وعدم خطورهم بالبال عند الشدائد ، والشعور بحاجة المخلوق الى الرب الخالق ، ولو قال : « أم صمتهم » أو « أم أنتم تصمتون » لما كانت المقابلة بين وجود وعدم ، وإيجاب وسلب ، لأنه يصدق بتكلف الصمت وكف النفس عن دعائهم ولو للتجربة مع الشعور بالحاجة الى الدعاء . والاول أبلغ في المراد من كون وجود هذه الأصنام وعدمها سواء ، ومن كون دعائها مساويا لترك الدعاء ، ولو مع انصراف القلب عنها ، ولو كانت وسائل تشفع عند الله وتقرب اليه زلفى كما كان يقول أولو الوثنية الكاسية الحالية ، أو تنفع وتضر بنفسها أو بما أعطاه الله تعالى من التصرف في الكون باستقلالها كما يعتقد أصحاب الوثنية العارية العاطية - لكان الاعراض عن دعائها ضاراً بهم ، أو مضيعاً بعض المنافع عليهم .

وقد يظن من أشرك بعض الأولياء مع الله تعالى هذا النوع من الاشراك ان هذا التوبيخ لا يوجه اليهم ، وان هذه الحججة لا تقوم عليهم ، لان أولئك كانوا يدعون جماداً أو شجراً لا يعقل ، وهم يدعون أولياء وصلحاء ، لأنهم حكم الشهداء في الحياة ، وهم يقصدون قبورهم ، يعظمونها ، لان لأرواحهم اتصالاً بها ، وإنما جاءت هذه التفرقة من جهلهم بأن أكثر هذه الاصنام لم تنصب إلا للتذكير بأناس من الأولياء الصالحين كما رواه البخاري عن ابن عباس في اصنام قوم نوح التي انتقلت

إلى العرب ، وقد كانت اللات صنخة لرجل يلت عليها السويق ويطعمه الناس . فالأصنام والمماثل والقبور التي تعظم تعظيماً دينياً لم يأذن به الله كلها سواء في كونها وضعت للتذكير بأناس عرفوا بالصلاح ، وكانوا هم المقصودين بالدعاء لما تخيلوا فيه من التأثير في إرادة الله ، أو التصرف الغيبي في ملك الله ، وهو أخس الشرك بالله ، على أنه لا فرق في المسألة بين أشرك الصنم والوثن ، وأشرك الولي أو النبي أو الملك فاقراً الآيات في اتخاذ الولد لله من الملائكة والمسيح في سورة الانبياء (٢١: ٢٦-٢٩)

(١٩٤) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٥) أَلَمْ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ كَمَا كُنْتُمْ تُكِيدُونَ فَلَا تَنْظُرُونَ (١٩٦) إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٧) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٨) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ

هذه الآيات تمة لما قبلها من آيات التوحيد مقررة ومؤكدة لمضمونها ، لأن توحيد العبادة ونفي الشرك فيها هو أس الإسلام ، ولا يتقرر في الأذهان ، ويثبت في الجنان ، وبكلمة بالوجدان ، إلا بتكرار الآيات فيه نفيًا وإثباتًا لمضمون كلمة (لا إله إلا الله)

﴿ ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ الدعاء مخ العبادة وركنها الأعظم فلا يصح توحيد أحد لله إلا بدعائه وحده وعدم دعاء أحد معه كما قال (فلا تدعوا مع الله أحداً) والمفسرون يقولون ان الدعاء في مثل هذه الآيات معناه العبادة من باب تسمية الكل باسم الجزء فصاروا يفسرون « تدعون » بتعبدون فضلاً بعض العوام من القارئ وغيرهم في هذا التعبير وظنوا ان المرء لا يكون عابداً غير الله تعالى إلا إذا كان يصلي له الصلاة المعروفة ويصوم لأجله ، وأنه

لا ينافي توحيد الله تعالى أن يدعى غيره معه أو يدعى من دونه بقصد التوسل إليه والاستشفاع لديه ، إذا كان لا يصلي ولا يصوم له . وقال بعضهم : ان الدعاء هنا بمعنى التسمية فيكون الإنكار فيه خاصاً بتسميتهم لأصنامهم وغيرهم من معبوداتهم آلهة . وكل من هذا وذلك ضرب من ضروب الاحتمالات اللفظية التي تتعلق بها من أشرك بالله جاهلاً بمعنى الشرك ممن يدعون الموتى من الصالحين لدفع الضر عنهم أو جلب الخير لهم ، من غير طريق الاسباب التي هي من تناول كسبهم وسعيهم ، ولكنهم لا يسمونهم آلهة . وهذا هو الشرك الأكبر الذي نعي على المشركين من قبلهم لا مجرد التسمية التي لا تكون بدونه صحيحة

والحق الذي لا معدل عنه أن الدعاء هنا هو النداء لدفع الضر أو جلب النفع الموجه إلى من يعتقد الداعي أن له سلطاناً يمكنه به أن يجيبه إلى ما طلبه بذاته أو بحمله للرب الخالق على ذلك بحيث يجيب دعاء الداعي لأجله

يقول تعالى ان الذين تدعونهم من دون الله هم عباد الله أمثالكم في كونهم مخلوقين لله تعالى خاضعين لسنته في خلقه ، وإذا كانوا أمثالكم امتنع عقلاً أن تطلبوا منهم ما لا تستطيعون نيله بأنفسكم ولا بمساعدة أمثالكم لهم فيما يتوقف على التعاون في اتخاذ الاسباب له . وإنما يدعى لما وراء الاسباب المشتركة بين الخلق الرب الخالق المسخر للاسباب الذي تخضع لارادته الاسباب وهو لا يخضع لها ، ولا لارادة أحد يحمله على ما لا يشاؤه منها

وهذه المماثلة إنما تظهر فيمن يدعى من دون الله تعالى من الملائكة أو الانبياء أو الصالحاء ، ومن ما اتخذ لهم تذكيراً بهم من التماثيل أو القبور أو الاصنام ، وقد صار بعض هذه المذكرات يقصد ذاته ، جهلاً بما كانت اتخذت لاجله ، وفي هذه الحالة تدخل في المماثلة بطريقة تنزيلها منزلة ما وضعت لاجله ، كأنه يقول ان قصارى أمرها أن تكون من الاحياء العقلاء ، أمثالكم ، فكيف ترفعونها عن هذه المثالية ، إلى مقام الربوبية ؟

﴿ فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين ﴾ أي إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم يقدرون على ما لا تقدرون عليه بتواكف البشرية من نفع أو ضرر

بذواتهم فادعوهم فليستجيبوا لكم بأنفسهم ، أو ليحملوا الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ما تطلبون منهم ان كنتم صادقين في قواكم ( هؤلاء شفعاؤنا عند الله ) وقواكم ( ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى ) ثم بين لهم أنهم أحط رتبة منهم لا أمثالا لهم ، فقال

﴿ لهم أرجل يشون بها أم لهم أيدي يبسطون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ﴾ هذا تقرير موجه الى الوجدان ، في إثر احتجاج وجه قبته الى الجنان ، والاستفهام فيه للانكار ، وهو خاص بالاصنام والاوثان ، ومعناه أنهم أفقدهم لجوارح الكسب ، التي يناط بها في عالم الاسباب النفع والضرر ، قد هبطوا عن درجة مماثلتكم من كل وجه ، فليس لهم أرجل يسعون بها الى دفع ضرر أو جلب نفع ، وليس لهم أيدي يبسطون بها فيما ترجون منهم من خير أو تخافون من شر ، وليس لهم أعين يبصرون بها حالكم ، وليس لهم آذان يسمعون بها قواكم ، ويعرفون بها مطالبكم ، فأنتم تفضلونهم في الصفات والقوى التي أودعها الله في الخلق ، فلماذا ترنعونهم عن مماثلتكم ، وهم بدليل المشاهدة والاختبار دونكم ؟ وها أنتم أولاء تستكبرون عن قبول الهدى والرشاد من الرسول وتعملون ذلك بأنه بشر مثلكم ، فيقول بعضهم لبعض ( ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ) \* وانشأ أتعلم بشرا مثلكم انكم اذا خاسرون ) أفنأين قبول الحق والخير من مثلكم ، وقد فضله الله بالعلم والهدى عليكم ، وهو لا يستذلكم بادعاء انه ربكم أو إلهكم ، ثم ترنعون مادونه ودونكم الى مقام الالهية ، مع انحطاطه وتسفله عن هذه المثلية ؛

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾ أي قل أيها الرسول هؤلاء المرزوقين بعقولهم ، المحقرين نعم الله تعالى عليهم ، نادوا شركاءكم الذين اتخذوهم أولياء ، وزعمتم أنهم فيكم شفعاء ، ثم تعاونوا على كيدي جميعاً ، واجمعوا مكرهم الخفي لايقاع الضرر بي سريعاً ، فلا تنظرون أي لا تؤخروني ساعة من نهار ، بعد إحكام المكر الكبار . وحكمة مطالبتهم بهذا ان العقائد والتقاليد الموروثة تتغلغل في أعماق الوجدان ، حتى يتضاد دونها كل برهان ، ويظل صاحبها مع ظهور الدليل على

بطلانها يتوهم انها تضر وتنفع، وتقرب من الله وتشفع، فطابهم بأمر عملي يستل هذا الوهم من أعماق قلوبهم، ويمتلخ الشعور به من خبايا صدورهم، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء، نداء استغاثة واستنجاد لابطال دعوة الداعي الى الكفر بها، واثباته العجز لها، وبذل الجهد فيما ينسبون اليها من التأثير الباطن، والتدبير الكامن، الذي هو عندهم أمر غيبي، يدخل في معنى الكيد الخفي. فان كان لهائني، ما من السلطان الغيبي في أنفسها أو عند الله تعالى فهذا وقت ظهوره، فان لم يظهر لابطال عبادتها وتعظيمها، ونصر عابديها ومعظمي شأنها، فمتى يظهر وينتفعون به؟ وهم منكرون للبعث، وكل ما يرجونه أو يخافونه منها فهو خاص بما يكون في هذه الارض؟

﴿ ان واي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ هذا تعليل لجزمه صلى الله عليه وسلم بما ذكر من عجز هذه المعبودات وتحقير أمرها وأمر عابديها على ما كان من ضعفه بمكة عند نزول هذه السورة. يقول ان ناصرى ومتولى أمرى هو الله الذي نزل على هذا الكتاب الناطق بوحديته في ربوبيته، وبما يجب من عبادته ودعائه في المهات والملمات وحده، وبأن عبادة غيره باطلة، وان دعاء هذه الاوثان هزؤ باطل، وسخف لا يرضاء لنفسه إلا جاهل سافل، وهو يتولى نصر الصالحين من عباده، وهم الذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة السالمة من الخرافات والاورهام، والاعمال التي تصلح بها الافراد وشؤون الجماعات، فينصرهم على الخرافيين الفاسدي العقائد والمفسدين في الاعمال (فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض، كذلك يضرب الله الامثال)

﴿ والذين تدعون من دون الله لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ أي وأما الذين تدعونهم لنصركم وغير النصر من منافعكم ودفع الضر عنكم، فهم عاجزون لا يستطيعون أن ينصروكم، ولا أن ينصروا أنفسهم على من يحقر أمرهم، أو يسلبهم شيئاً مما وضع من الطيب أو الحلي عليهم، وقد كسر ابراهيم صلى الله عليه وسلم الاصنام فجعلهم جذاذاً فما استطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم، ولا أن

ينتقموا منه لها . وروي عن معاذ بن عمرو بن الجوح ومعاذ بن جبل (رض) وكانا شابين من الانصار قد أسلما لما قدم النبي ﷺ المدينة انهما كانا بعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتخذانها حطباً للارامل ليعتبر قومهما بذلك ، وكان عمرو بن الجوح - وكان سيد قومه - صم يعبده فكانا يجيئان في الليل فينكأه على رأسه ويلطخانها بالعدرة فيجعي ، فيرى ما صنع به فيغسله وبطيه ويضع عنده سيفاً ويقول له انتصر حتى أخذه مرة فقرناه مع كلب ميت ودياه بجبل في بئر فمأراه كذلك علم بطلان عبادته وأسلم وفيه يقول

تالله لو كنت إلهاً مستدن لم تك والكلب جميعاً في قرن

وبعد أن نفى قدرتهم على النصر ، ففى عليه بنفى قدرتهم على الارشاد اليه فقال

﴿ وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعون ﴾ أي وان تدعوهم الى أن يهدوكم إلى ما تنتصرون به من أسباب خفية أو جلية لا يسمعون دعاءكم ، مطلقاً ، فكيف يستجيبون لكم ؟ على انهم لو سمعوا لما استجابوا اعجزهم عن الفعل ، كقتدهم للسمع ،

﴿ وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ﴾ أي وهم فاقدون لحاسة البصر كقتدهم لحاسة السمع ، وتراهم أي المحاطب ينظرون اليك بما وضع لهم من الاعين الصناعية ، والحدق الزجاجية أو الجوهريّة ، وجهلها موجهة الى الداخل عليها كأنها تنظر اليه ، وهم لا يبصرون بها لان الابصار لا يحصل بالصناعة ، بل هو من خواص الحياة التي استأثر الله سبحانه بها ، وإذا كانوا لا يسمعون دعاء ، ولا نداء من عابدهم ولا من غيره ، ولا يبصرون حاله وحال خصمه ، فأنى يرجى منهم نصره وشد أزره ؟

وفي الآية وجه آخر ذهب اليه بعضهم وهو أن الخطاب فيها المؤمنين والرسول في مقدمتهم بناء على ان الكلام في الاصنام قد تم فيما قبلها وعاد الكلام في عابديها ، أي وان تدعوا أيها المؤمنون هؤلاء الاغبياء من المشركين ، الذين لم يعقلوا هذه الحجج والبراهين ، الى هدى الله وهو التوحيد والاسلام لا يسمعون دعوتكم سماع فهم واعتبار ، وتراهم أيها الرسول ينظرون اليك وهم لا يبصرون ما أو تبت من سمت الجلال والوقار ، الذي يميز به صاحب البصيرة بين أولي الجد والعزم ، والصدق في القول والفعل ، وبين



اهل العيب والهزل . وقد كان بعض ذوي الفطرة السليمة ينظر الى النبي ﷺ فيعرف من شمائله وسيماه في وجهه ، أنه حر صادق ، غير مخادع ولا ماذق ، فيقول والله ما هذا الوجه وجه كاذب

وما زال من المعبود بين الناس ان أصحاب البصيرة والفضيلة من الناس يعرف بعضهم بعضاً بذلك من أول العهد بالنسبة بما يتوسمونه من ملامح الوجه ومعارفه فمن موضوع الحديث وتأثيره في نفس المتكلم والسامع ثم بكل ذلك بالعايشة . كما يعرفون حال الاشرار والمنافقين بذلك (ولو نشاء لا ربنا كم فلعرفتمهم بسيماهم واعرقتهم في لحن القول) بهذه البصيرة النيرة عرفت السيدة خديجة فضلي عمائل قريش فضائل محمد بن عبد الله قبل بعثته ، فاستمالته وخطبته لنفسها على غناها وفقره ، بعد ان رفضت أناساً من كبراء قريش خطبوها بعد موت زوجها الأول ، ثم كانت أول من جزم برسالة الله عندما حدثها بأول مارآه من بدء الوحي وخاف على نفسه منه ، وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول رجل دعاه الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى الاسلام بحسن فراسته فيه فلم يتوقف ولم يتمكث ولم يتريث أن اجاب الدعوة منشرح الصدر قريز العين ، لأنه كان أجدر الناس بمعرفة حقيقتها وحقيقة من دعا اليها . وامثلة هذا كثيرة في كل زمان . وكان أظهرها في قرننا هذا تعلق الشيخ محمد عبده بالسيد جمال الدين الأفغاني من أول ليلة رآه فيها ولزاهه الى أن فارق هذه الديار ، فلم يعرفه حق المعرفة غيره على كثرة المكبرين له والمعجبين به ، وقد كان الكثيرون من أهل الازهر يفرون منه ويصدون عنه ، فأين هم وأين آثارهم في العلم أو الدين ؟ فبأمثال هذه العبر الواقعة تفهم معنى قوله تعالى ( وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ) على الوجه الأخير في تفسيرها ، لا بمجرد تسمية هذا التعبير استعارة شبه فيها كذا بكذا ثم اقرأني معناه قوله تعالى ( ١٠ : ٤٢ ) ومنهم من يستمعون اليك فانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون \* ومنهم من ينظر اليك فانت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون )

(١٩٩) خُذِ الْعَنْتُوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ

هذه الآية بيان لأصول الفضائل الأدبية وأساس التشريع ، وهي التي تلي في

المرتبة أصول العقيدة المبنية على التوحيد ، الذي تقرر فيما قبلها من الآيات بابلغ التوكيد ، فقوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ يأمر فيه بثلاثة أشياء ، هي أصول كلية للتواعد الشرعية والأداب النفسية والأحكام العملية (الأصل الأول) العفو وهو يطلق في اللغة على خالص الشيء ، وجيده ، وعلى الفضل الزائد فيه أو منه ، وعلى السهل الذي لا كلفة فيه ، وعلى ما يأتي بدون طلب أو بدون احفاء ومبالغة في الطلب ، وهذه المعاني متقاربة وهي وجودية ، ومن معانيه السلبية إزالة الشيء ، كعفت الرياح الدير والآثار ، أو إزالة أثره كالعفو عن الذنب وهو منع ما يترتب عليه من العقاب ، فمعاني العفو الوجودية والعدمية أو الموجبة والسالبة كلها احسان ورفق ، وقد ورد عن مفسري السلف في تفسير العفو هنا أقوال كلها ترجع إلى هذه المعاني ، فرواية العوفي عن ابن عباس في تفسير (خذ العفو) خذ ما عفاك من أموالهم - أي ما فضل وما أتوك به من شيء . وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها ، وبذلك قال السدي وزعم أنها نسخت بآية الزكاة - وفي رواية الضحاك عنه : أنفق الفضل ، ومثلها عن سعيد بن جبير . وفي عدة روايات عن هشام ابن عروة بن الزبير عن أبيه عن عمه عبد الله ابن الزبير أن معناها خذ العفو من أخلاق الناس ومثله وفي رواية لهشام عن عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين مثل ذلك وبه قال مجاهد . وروي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن العفو هنا الصفح عن المشركين وكان عشر سنين فنسخ بآية السيف ، وهذا ضعيف لان العفو بهذا المعنى لا يعبر عنه بالأخذ لأنه أمر عديم هو بالأعطاء أشبه ، ولا بالقبول لأنه لم يطلب . وأحسن انزخشي ما شاء ، في تصويره معنى العفو بما أعطيه اللغة فقال :

العفو ضد الجهد أي خذ ما عفاك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ، ولا تدأقهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى ينفروا كقوله ﷺ « يسروا ولا تعسروا » قال

خذني العفو مني تستدعي مودتي ولا تنطقي في سورتني حين أغضب  
وقيل خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم ، وذلك قبل نزول آية الزكاة . فلما نزلت  
بأمر أن يأخذهم بها طوعاً أو كرهاً تقول وبقيت الآية محكمة في صدقة التطوع

والمختار عندنا أن العفو يشمل مذاوذاك فلراد به أن من أصول آداب هذا الدين وقواعد شرعه اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الناس وقد تقدم تفصيل القول في ذلك في تفسير آية الوضوء من سهرة المائدة (١) وقد خالف هذه القاعدة الأساسية أهل الفقه المقلوب فجعلوا العسر والحرج من أهم قواعد الدين وأصول الشرع فعلا لا تسمية وقد صح في الأحاديث أن النبي ﷺ ما خبير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، وترى هؤلاء لا يخير أحدهم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ولا سيما العسر على الأمة بأسرها ، وأما فتاوى الأفراد فقد قال بعض المصنفين منهم في المسألة فيها قولان مصححان: نحن مع الذراهم قلة وكثرة !! يعني في الفتوى بأحدهما

(الأصل الثاني) الأمر بالعرف وهو ما تعارفه الناس من الخير وفسروه بالمعروف وفي اللسان المعروف ضد المنكر والعرف ضد المنكر قال (العرف والعارفة والمعروف واحد ضد المنكر وهو كل ما تعارفه النفس من الخير وتناسبه (٢) وتطمئن إليه (قال) وقد تكرر ذكر المعروف في الحديث وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والاحسان إلى الناس وكل ما ندب إليه ونهى عنه من المحسنات والمقبحات وهو من الصفات الغالبة أي أمرٌ معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه ، والمعروف النصفة وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم ، والمنكر ضد ذلك جميعه اهـ

والقول الجامع أن العرب تطلق المعروف على ضد المنكر وعلى ضد المجهول ، والمنكر هو المستقبح عند الناس الذي ينفرون منه لقبحه أو ضرره ويذمون ويذمون أهله. والأمر به في هذه السورة المكية التي نزلت في أصول الدين وكليات التشريع تثبت لنا أن العرف أو المعروف أحد هذه الأركان للآداب الدينية والتشريع الاسلامي وهو مبني على اعتبار عادات الأمة الحسنة وما تتواطأ عليه من الأمور النافعة في مصالحها حتى أن كتاب الله عز وجل قد قيد طاعة رسوله ﷺ بالمعروف في عقد مبايعته ﷺ للنساء قال عز وجل في سورة الممتحنة (١٢:٦٠) يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يباعدنك على أن لا يبشرن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتاناً يقترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك

في معروف فبايعين واستغفر لمن الله ان الله غفور رحيم (ومن المعلوم ان عقد المبايعة اعظم العمود في الامم والدول فتقيد طاعة الرسول ﷺ فيه بالمعروف دليل على ان التزام المعروف من اعظم أركان هذا الدين وشرعه ومن المعلوم في السنة ان مبايعته ﷺ للرجال كانت مبنية على أصل مبايعته للنساء المنصوص في هذه الآية . وقال ﷺ « إنما الطاعة في المعروف » وهو في مواضع من الصحيح وقد تقدم من هذه السورة (الاعراف) وصف النبي ﷺ في بشارة التوراة والانجيل بأنه « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » وورد ذكر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما حكاه تعالى من وصية لقمان في السورة المسماة باسمه وهي مكية كالأعراف ثم تكرر ذكر المعروف في السور المدنية وأكثرها في بيان الاحكام الشرعية العملية وذلك في عشرات من الآيات بعضها في صفة الامة الاسلامية وحكومتها وأكثرها في الاحكام الزوجية والمالية . فمن النوع الاول قوله تعالى في تعليل الاذن للمسلمين باقتتال من سورة الحج فذكر من صفات المأذون لهم به أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق لاجل توحيد الله تعالى ثم قال ( ٢٢ : ٤١ ) الذين ان مكابهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الامور ) ومنه قوله تعالى في سورة آل عمران ( ٣ : ١٠٣ ) ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ) وقوله بعدها ( ١٠٩ ) كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ) وقوله عز وجل في سورة التوبة ( ٩ : ٧١ ) والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ) الآية ثم قوله في صفاتهم منها ( التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ) فهذه الآيات أصول لامندوحة للامة عن التزامها في آدابها وتشريعها

ومن النوع الثاني وهو ماورد في الاحكام الفرعية قوله تعالى في الحقوق الزوجية من سورة البقرة ( ٢ : ٢٢٨ ) ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ) وهذه الآية ركن من أركان الحقوق الزوجية يفضل به الاسلام جميع الشرائع والقوانين

في العدل والمصلحة ولم نزل النساء مثله في أمة من الأمم . ومنها قوله في أحكام الطلاق ( ٢٢٩ فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان ) وقوله بعده ( ٢٣١ فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ) - ومثلها في سورة الطلاق - وقوله بعدها في المطلقات الرجعيات ( ٢٣٢ فلانعضوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ) وقوله بعدها فيهن إذا كن مرضعات ( ٢٣٣ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف - الى قوله فيهن إذا أراد الزوجان الفصال عن تراض منهما وتشاور - وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتن بالمعروف ) وقوله في الآية التي بعدها في معتدات الوفاة ( ٢٣٤ فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف ) وقوله بعد آية أخرى في المطلقات ( ٢٣٦ ومنعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حتما على المحسنين ) وقوله بعد أربع آيات أخرى ( ٢٤١ وللمطلقات متاع بالمعروف حتما على المتقين ) وكقوله في معاشررة الأزواج من سورة النساء ( ١٩:٤ ) وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ) وهناك آيات أخرى في انعقود عن القصاص وفي الوصية الوالدين والاقربين وفي أكل الوصي من مال اليتيم قيدت بالمعروف فأنت ترى ان المعروف في هذه الآيات معتبر في هذه الأحكام المهمة وان المعروف فيها هو المعهود بين الناس في المعاملات والعادات ، ومن المعلوم بالضرورة انه يختلف باختلاف الشعوب والبيوت والبلاذ والاقوات ، فتجديده وتعيينه باجتهاد بعض الفقهاء بدون مراعاة عرف الناس مخالف لنص كتاب الله تعالى . والشيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من فقهاء الحديث والحنبلة أقوال حكيمة في المعروف منها انه يجب على كل من الزوجين من أعمال البيت والاسرة ما جرى العرف به ، وأنه اذا كان من المعروف عن بعض البيوت انهن لا يزوجن بناتهن لمن يتزوج عليهن ويضارهن كان هذا كالشرط فلا يجوز للرجل أن يتزوج على المرأة منهن فان قلت ان بعض العلماء قالوا ان المراد بالعرف والمعروف في الآيات هو المنصوص في الشرع كتقول صاحب لباب التأويل في قوله ( وا. مر بالعرف ) : واءمر بكل ما أمرك الله به وعرفته بالوحي . فالجواب ان مثل هذا القول مخالف لما

ذكرنا وما لم نذكر من أقوال السلف والخلف ولا يمكن أن يراد من كل آية ولا من مجموع الآيات المتقدمة وما يحتمله منها كآيات الأمر والنهي المدنية لا بد أن يكون اللفظ فيها عاماً يشمل المعروف في الشرع وفي العادات والمعاملات ولا يظهر هذا في آية الأعراف التي هي الأصل الأول لأنها الأولى في الموضوع، ولم يكن قد نزل قبلها أحكام يفسر بها العرف ويحال عليها فيه — فما قاله صاحب لباب التأويل هو من قشره لا من لبابه، وأول ما يرد عليه أنه إذا كان المراد من العرف المعروف بالوحي يقال فيه أنه لم يكن قبل الأمر به معروفاً وبعد الأمر به صار من قبيل تحصيل الحاصل

نعم إن ما يتقرر بنص الشرع يصبر من جملة المعروف الذي هو ضد المجهول كما أنه يكون بالضرورة من المعروف الذي هو ضد المنكر، ويبقى تحكيم العرف والمعروف بالمعنى اللغوي العام معتبراً فيما لا نص فيه بخصوصه وللإلمة فيه عرف غير معارض بنص، ولا يستقيم نظام الأمة على أساس ثابت إذا كان أمر العرف والمعروف فيها فوضي وغير مقيد بأصول وأحكام وفضائل ثابتة، فلا بد من شيء ثابت وهو ما لا يختلف فيه المصالح والمنافع باختلاف الزمان والمكان وأحوال المعيشة، ولا بد من شيء يحكم فيه العرف وهو ما يقابله، ولذلك جاء الشرع الحكيم بهما معاً، ولا يضر مع هذا اختلاف الناس فيما يعرفون وينكرون فليكن المعروف كما قال الجصاص من أئمة الحنفية: ما يستحسن في العقل فعله ولا تنكره العقول الصحيحة. فيكفي المسلمين المحافظة على النصوص الثابتة إذ لا يمكن أن يستنكر المؤمن ما جاء عن الله ورسوله نصاً حتماً لا اجتهاد فيه، وليكن للجماعة بعده رأي فيما يعرفون وينكرون، ويستحسنون ويستنجدون، يكون عمدتهم فيه جمهور العقلاء والعلماء وأهل الأدب والفضيلة في كل عصر

( الأمر الثالث ) الأعراض عن الجاهلین وهم السفهاء بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم، ولا علاج أوقى لآذاهم من الأعراض عنهم، وشهرهم في هذا العصر من تزقة صحف الأخبار المنشورة، فإن سفهاء هاهم شر من سفهاء الشعراء في العصور السابقة، وقد قل سفة الشعراء في عصرنا هذا فلا أعرف لشاعر مشهور

من القذع والبذاء في الهجو شيئاً مما نعهد في الصحف التي يعبرون عنها بالساقطة،  
وكم من صحيفة قائمة ناهضة بالثروة، شر من ساقطة بالقلّة. وإنما يجب الاعراض عن  
السفهاء لأنهم لا يطلبون الحق إذا فقدوه، ولا يأخذون فيما يخالف أهواءهم إذا  
وجدوه، ولا يرعون عهداً، ولا يحفظون وداً، ولا يشكرون من النعمة إلا  
ما اتصل مدده، فاذا انقطع عاد الشكر كفرآ، واستحال المدح ذماً

أكثر ما كتب المفسرون في هذه الآية مادلت عليه من الآداب، وأقله  
ما شتمت عليه من أصول الأحكام، وروى عن جدنا الامام جعفر الصادق رضي الله عنه  
أنه قال: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الاخلاق منها، ووجهه بأن الاخلاق  
ثلاثة بحسب القوى الانسانية، عقلية وشهوية وغضبية، فالعقلية الحكمة ومنها  
الامر بالمعروف، والشهوية العفة ومنها أخذ العفو، والغضبية الشجاعة ومنها  
الاعراض عن الجاهلين. وروى الطبري مرسلًا وابن مردويه موصولًا من حديث  
جابر وغيره لما نزلت (خذ العفو وامر بالعرف) سألت النبي ﷺ جبريل عنها فقال  
«لا أعلم حتى أسأل ثم رجعت فقال إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من  
حرمك، وتعفو عمن ظلمك» اه من فتح الباري ومراد الامام أعلى وأشمل من ذلك  
وفيه أبعد وأوسع من فهم من علله أو فسره كما علمت من تفسيرها في الجملة  
وذكر ابن كثير أن بعض الحكماء أخذ هذا المعنى فسبكه في يدين فيها جناس فقال:

خذ العفو وامر بعرف كما أمرت وأعرض عن الجاهلين

ولين في الكلام لكل الانام فمستحسن من ذوي الجاه لين

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن: قال علماؤنا هذه الآية  
من ثلاث كلمات، قد تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، حتى لم  
يبق فيها حسنة إلا أوعتها، ولا فضيلة إلا شرحتها، ولا أكرومة إلا افتحتها،  
وأخذت الكلمات الثلاث أقسام الاسلام الثلاثة: فقوله (خذ العفو) تولى بالبيان  
جانب اللين، ونفي الحرج في الاخذ والاعطاء والتكليف، وقوله (وامر بالعرف)  
تناول جميع المأمورات والمنهيات، وأنها ما عرف حكمه، واستقر في الشريعة  
موضعه، واتفقت القلوب على علمه، وقوله (وأعرض عن الجاهلين) تناول

جانب الصريح بالصبر الذي يتأتى للعبد به كل مراد في نفسه وغيره . ولو شرحنا ذلك على التفصيل لكان اسفاراً . اهـ . ومن مباحث البلاغة في الآية أن ما جمعه هذه الكلمات الثلاث من المعاني العالية هو من اعجاز إيجاز القرآن ، الذي لا مطمع في مثله لانس ولا جان . والله أعلم

(٢٠٠) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ

بين الله تعالى في الآية التي قبل هذه الآيات أفضل ما يعامل البشر به بعضهم بعضاً من الوصايا الثلاث التي لا يمكن شرح التعامل بها تفصيلاً إلا بسفر كبير ، ولو عمل الناس بهذه الوصايا لصلحت أحوالهم ولم يجد الفساد اليهم سبيلاً - ثم قفى عليها بهذه الثلاث الآيات في الوصية باتقاء إفساد الشيطان أي جنسه لجنس البشر ، والمراد هنا شياطين الجن المستترة ، فالتناسب القريب بينهما وبين ما قبلهن المقابلة بين معاملة البشر ومعاملة الجن ، ومن فروعه التناسب بين الجاهلين أي السفهاء الذين أمرت الآية السابقة بالأعراض عنهم اتقاء لشرهم ، وبين الشياطين التي أمرت هذه الآيات بالاستعاذة بالله منهم اتقاء لشرهم ، وبعبارة أخرى : اتقاء شر شياطين الانس وشياطين الجن ، فان الشيطان هو الشرير المفسد من الفريقين كما تقدم في سورة الانعام ، ومن فسر آيات ( هو الذي خلقكم من نفس واحدة ) الخ بما مر من أن شرك الابوين فيما آتاها الله من الولد الصالح كان باغواء الشيطان يرجعون إليه في التناسب بين الآيات ، يقولون إن الآية بينت لنا أن وسوسة الشيطان لأبويننا كانت سبب ما وقع لهما من الشرك فيما آتاها من الولد - والأولى ارجاع التناسب في هذه المسألة الى ما بين في أوائل السورة من خلق آدم وحواء ووسوسة الشيطان لهما - وما بين في خواتيمها من الارشاد الى اتقاء نزغ الشيطان ومسه - وهو ما أشرنا اليه في بدء سياق هذه الخاتمة



قوله تعالى ﴿ وإما ينزغتك الشيطان فزغ ﴾ قال الراجب النزغ دخول في أمر لافساده . واستشهد له بقول يوسف عليه السلام ( من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي ) . وفي الأساس : نزغه مثل نسغه اذا طعنه ونخسه . ومن المجاز : نزغه الشيطان - كأنه ينخسه ليحثه على المعاصي . ونزغ بين الناس - أفسد بينهم بالحث على الشر اهـ فالنزغ كالنسخ والنخس والنخز والنغز والنكرز والوكز والهمز ألفاظ متقاربة المعنى وأصله إصابة الجسد برأس شيء محدد كالابرة والمهماز والرمح أو ما يشبه المحدد كالأصبع والمراد من نزغ الشيطان إثارتة داعية الشر والفساد في النفس بداعية غضب أو شهوة حيوانية أو معنوية بحيث تتقدم صاحبها الى العمل بتأثيرها كما تمخس الدابة بالمهماز لتسرع وغلب استعماله في الشر فقط ، وإنما قال ينزغتك نزغ والمراد نازغ لأن اسناد الفعل الى المصدر أبلغ . والشيطان تقدم الكلام فيه وفي الجن مراراً أو سماعها ماورد في تفسير قوله تعالى ( ٦ : ٦٨ وإما ينسبك الشيطان ) الآية <sup>(١)</sup> وتفسير قوله تعالى ( ٦ : ٧١ كالذي استهوته الشياطين في الأرض ) الآية <sup>(٢)</sup> وكتناهما من سورة الانعام وتفسير قصة آدم من هذه السورة والذي يناسب منها ما هنا وهو اغواء الناس بالوسوسة قوله تعالى حكاية عن الشيطان ( ٨ : ١٥٠ قال فيما أغويتني ) الخ <sup>(٣)</sup> وقوله تعالى ( ٨ : ٢٦ يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان ) الخ <sup>(٤)</sup> وملخص ما يجب اعتقاده أنه ثبت في وحي الله تعالى الى رسله أن في عالم الغيب خلقاً خفياً اسمه الشيطان لا تدركه حواسنا له أثر في أنفسنا فهو يتصل بها ويقوي داعية الشر فيها بما سماه الوحي وسواساً ونزغاً ومساءً، ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره ، وقد شبهنا تأثير هذه الشياطين الخفية في الارواح بتأثير النسم الخفية المادية المسماة بالبكتيريا وبالميكروبات في الاجساد ، فقد مرت القرون التي لا يحصيها إلا رب العالمين والناس يجهلون هذه النسم الخفية ويجهلون فعلها لعجز الابصار عن ادراكها بنفسها وعن رؤية فعلها لدقتها وتناهيها في اللطف والصغر الى أن اخترعت في هذا العصر المرايا أو النظارات المكبرة التي ترى الجسم أضعاف

(١) راجع ص ٥٠٧ - ٥١٦ ج ٧ تفسير ( ٢ ) ص ٥٢٤ - ٥٦٩ منه

(٢) راجع ص ٣٣٧ - ٣٤٤ ج ٨ تفسير (٤) ص ٣٦١ - ٣٧٢ - منه

أضعاف جرمه فيها رؤيت وعلم ما يحدث بسببها في المواد السائلة والرخوة وكل ذات رطوبة من التحول والتغير كالاختار والفساد وغيرها ومن الامراض المعدية في الانسان والحيوان كما فصلناه من قبل

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على السنة رسله عليهم السلام بهذا العالم الغيبي المعادي لنا الضار بأرواحنا كضرر نسم الامراض بأجسادنا أن نراقب أفكارنا وخواطرنا ولا نفعل عنها ، كما نراقب ما يحدث في أجسادنا من تغير في المزاج ، وخروج الصحة عن الاعتدال، فنبادر الى علاجه - فمتى فطنا بميل من أنفسنا الى الشر أو الباطل عالجناه بما وصفه الله تعالى لنا من العلاج في هذه الآية وهو قوله عز وجل ﴿ فاستعذ بالله انه سميع عليم ﴾ أي فاجأ الى الله وتوجه اليه ليعيدك من شر هذا النزغ ، فلا يحملك على ما يزعجك اليه من الشر ، الجأ الى الله بقلبك ، وعبر عن ذلك بلسانك ، فقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : انه تعالى سميع لما تقول عليم بما تتوجه اليه ، فهو بصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر . ومن المحرب ان الالتجاء الى الله تعالى وذكره بالقلب والاسنان ، بصرف عن القلب وسوسة الشيطان ، ( ١٦ : ٩٨ فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ٩٩ انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ) الخ

والخطاب في هذه الآية وأمثالها من آيات التشريع والتأديب موجه الى كل مكلف يبلغه وأولهم الرسول ﷺ ، ومن المفسرين من يقول انه هنا للنبي ﷺ والمراد أمته . وقد تقدم الخلاف في ذلك في تفسير ( ٦ : ٦٨ واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان ) الآية فقد اختلف مفسروها في ترجيح توجيه الخطاب فيها . وذكرنا هناك آية الاعراف هذه وان ظاهر السياق فيها ان الخطاب للنبي ﷺ وإن كان يأتي فيه الوجوه الأخرى في مثلها ، ولكن نزغ الشيطان أقوى من انسانيته ومن مسه المبين في الآية التالية فالتحتمار عندي الآن عصمته (ص) منه وذكرت في الكلام هناك حديث عائشة وابن مسعود في صحيح مسلم « ما منكم أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن - قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال - وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم » وهو سياق طويل يراجع هناك

وقد ورد في سورة حم السجدة ( فصلت ) مثل هذه الآية بعد آية في معنى قوله ( واعرض عن الجاهلين ) في آخر الآية التي قبلها ولكن بتعريف السميع العليم وقال صاحب الدرر في الفرق بينهما مانصه :

قوله تعالى ( وإما ينزغتك من الشيطان نزغ فاستعد بالله انه سميع عليم ) وقال في سورة حم السجدة ( وإما ينزغتك من الشيطان نزغ فاستعد بالله انه هو السميع العليم ) للسائل أن يسأل فيقول لأي معنى جاء في الآية من سورة الاعراف سميع عليم على لفظ النكرة وفي سورة حم السجدة معرفتين بالألف واللام مؤكدين به؟ (والجواب) أن يقال ان الاول وقع في فاصلة ما قبلها من الفواصل أفعال جماعة أو أسماء مأخوذة من الأفعال من نحو قوله ( فتعالى الله عما يشركون ) وبعده مخلقون، وينصرون، ويبصرون، والجاهلين ، فأخرجت هذه الفاصلة بأقرب ألقاب الأسماء المؤدية معنى الفعل أعني النكرة وكأن المعنى استعد بالله انه يسمع استعاذتك ويعلم استجارتك، والتي في سورة حم السجدة قبلها فواصل يسلك بها طريق الأسماء وهي ما في قوله تعالى ( ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم \* وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ) فقوله ( ولي حميم ) ليس من الأسماء التي يراد بها الأفعال وكذلك قوله ( انه لذو حظ عظيم ) ليس في الحظ معنى فعل ، فأخرج ( سميع عليم ) بعد الفواصل التي هي على سنن الأسماء على لفظ يبعد عن اللفظ الذي يؤدي معنى الفعل فكأنه قال انه هو الذي لا يخفى عليه مسموع ولا معلوم فليس القصد الاخبار عن الفعل كما كان في الأولى انه يسمع الدعاء ويعلم الاخلاص فهذا فرق ما بين المكنين إياه فتأمل فانه دقيق جداً . ثم بين تعالى وجه سلامة من يستعيز من وسوسة الشيطان لازالة جهل من لم يعلمه أو من لم يفقهه فقال

( ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ) الطوف والطواف والطيف بالشيء الاستدارة به أو حوله. فهو واوي يائي يقال طاف يطوف ويطيف بالشيء ( كقال وباع ) وطاق الخيال يطيف طيفاً : جاء في النوم . وطاق الخيال ما يرى في النوم من مثال الشخص وأصله طيف بالتشديد فهو كيت

وميت . وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب هنا « اذا مسهم طيف » والياقون « اذا مسهم طائف » والمعنى واحد ورسمه في المصحف الامام (طف) كرمم (ملك) في سورة الفاتحة فتؤدئى قراءة وزن فاعل من الكلمتين بمد الحرف الاول . والمس في أصل اللغة كاللمس ومما يفتقران فيه ان المس يقال في كل ما ينال الانسان من شر وأذى بخلاف اللس ، فقد ذكر في التنزيل مس الضر والضراء والبأساء ، والسوء والشر والعذاب والكبر والقرح واللعوب والشيطان وطائف الشيطان ، ولم يذكر فيه مس الخير والنفع إلا في قوله في سورة المعارج ( إن الانسان خلق هلوعا \* اذا مسه الشر جزوعا \* واذا مسه الخير منوعا \* إلا المصلين ) فقد ذكر الخير هنا في مقابلة الشر ولكن المقام مقام منع الخير لا فعله . واستعمل المس والمسيس بمعنى الوقوع وهو مجاز مشهور كاستعماله في الجنون مجازا ومعنى الآية « ان الذين اتقوا » وهم خيار المؤمنين الذين وصفوا في أول سورة البقرة « اذا مسهم » أي ألم أو اتصل بهم طيف أو « طائف من الشيطان » ليحلمهم وسوسته على المعصية ، أو ينزع بينهم ليقاع البغضاء والتفرقة ، « تذكروا » ان هذا من عدوهم الشيطان وإغوائه ، وما أمر الله تعالى به في هذه الحال من الاستعاذة به والاتجاء اليه في الحفظ منه ، وقال بعضهم تذكروا ما أمر الله تعالى به ونهى عنه ، وقال آخرون : تذكروا عقاب الله لمن أطاع الشيطان وعصى الرحمن ، وجزيل ثوابه لمن عصى الشيطان وأطاع الرحمن ، وقال بعضهم : تذكروا وعده ووعيده . ومآل الاقوال كلها واحد وهو يعمها . كتفيدة قاعدة حذف المفعول . « فاذا هم مبصرون » أي فاذا هم أولوا بصيرة وعلم يربأ بأنفسهم أن تطيع الشيطان ، فهو انما تأخذ وسوسته الغافلين عن أنفسهم لا يحاسبونها على نحو اطرها ، الغافلين عن ربهم لا يراقبونه في أهوائها واعمالها ، ولا شيء أقوى على طرد الشيطان من ذكر الله تعالى بالقلب ، ومراقبته في السر والجهر ، فذكر الله تعالى بأي نوع من أنواعه يقوى في النفس حب الحق ودواعي الخير ، ويضعف فيها الميل الى الباطل والشر ، حتى لا يكون للشيطان مدخل اليها ، فهو انما يزين لها الباطل والشر بقدر استعدادها لأي نوع منها . فان وجد بالقفلة مدخلا الى قلب المؤمن المتقي لا يلبث أن يشعر به لانه غريب عن نفسه ، ومتى شعر

ذكر فأبصر فحنس الشيطان وابتعد عنه وان أصاب منه غرة قبل تذكرة تاب من قريب  
فمثل المؤمن المتقي في عدم تمكن الشيطان من اغوائه وان تمكن من مسه  
كمثل المرء الصحيح المزاج القوي الجسم النظيف الثوب والبدن والمكان لا تجد  
جنة الامراض المفسدة للصحة استعدادا لافساد مزاجه واصابته بالامراض فهي  
تظل بعيدة عنه فان مسه شيء منها بدخوله في معدته أو دمه فتكت به انسم الصحة والعافية  
فمالت دون فتكها به - وهو ما يسمى في عرف الطب المناعة - وكذلك يكون قوي الروح  
بالايمان والتقوى غير مستعد لتأثير الشيطان في نفسه، فهو يطوف بها يراقب غفاتها  
وعروض بعض الاهواء النفسية لها من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام، فتقى  
عرضت اقترصها، فلا بس النفس وقواها فيها، كما تلبس الحشرات القذرة أو جنة  
الامراض الخفية ما يعرض من القدر للنظيف والضعف للقوي، فاذا أهملها بالغفلة  
عنه افعلت فعلها، وإذا تداركها نجا من ضررها، ويحسن أن يعبر عن هذا بالحصانة،  
فيقال مناعة جسدية وحصانة نفسية او روحية.

ذكرنا في الكلام على الشيطان من أوائل سورة البقرة أن الانسان يشعر  
بقدر علمه بتنازع دواعي الخير والشر والحق والباطل في نفسه، وأن لداعية  
الحق والخير ملكا يقويها، ولداعية الباطل والشر شيطانا يقويها، وان النبي  
(ص) بين هذا بقوله «ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان  
فأبعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فأبعاد بالخير وتصديق بالحق،  
فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ومن وجد الاخرى فليتعوذ  
من الشيطان» ثم قرأ (الشيطان يعدمكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) رواه الترمذي  
والنسائي في الكبير وابن حبان عن ابن مسعود وعلم عليه السيوطي في الجامع  
الصغير بالصحة، ولكن الترمذي قال حسن غريب لا نعلمه مرفوعا الا من  
حديث أبي الاحوص. وذكرنا هنالك بعض كلام الامام الغزالي في هذا المقام  
وله فيه تفصيل حسن طويل في كتاب شرح عجائب القلب وغيره من الاحياء  
وللمحقق ابن القيم كتاب خاص في ذلك اسمه (إغاثة اللهفان، في مصاديق الشيطان)  
فمن قرأ أمثال هذه الكتب، كان من وسوسة الشيطان على حذر

وما زال الصالحون المتقون يراقبون خواطرهم ويجاهدون الوسواس الذي يلطم بها ولهم حكايات في ذلك غريبة . حدثني الشيخ عبد الغني الرافعي الفقيه الصوفي انه دخل في أيام سلوكة وهو في مبة شبابه بستانا في طرابلس يعمل فيه نساء من نصارى لبنان فاذا بشابة جميلة منهن في مكان خلوفنزغ الشيطان بينه وبينها حتى همَّ بمباشرتها فتذكر قوله تعالى ( ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ) فتردد وانكمش ثم ساورته ثورة الغلظة نهون له الأمر ، ولج به الوسواس : هلم هلم ، فقوي سلطان الآية في قلبه حتى صار قلبه يتلو بصوت يسمعه بأذنيه ( ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ) قال فجعلت أقول بيدي فوق صدري هكذا - يعني بمسحه كمن ينحي عنه شيئا - أحاول إسكات قلبي فلم استطع إسكاته فتوليت عن المرأة وحفظني الله بذكر الآية من الفاحشة وله الحمد . وأقول تحدثنا بنعمة الله تعالى ان الشيطان لم يبلغ مني غرة يدعوني فيها الى الفاحشة قط فما ذكرته في مقصوري في سياق حادثة امتحان امتحني الله تعالى بها ، قد استمر بفضل الله تعالى من سن الشباب الى سن الشيخوخة ، وأسأله بفضل حسن الخاتمة . وذلك قولي في فتاة بارعة الجمال طلبت مني أن أضم يدي على صدرها أرقه .

ورب ملء خميصة الحشا	بهنانه ترنو بألحاظ اللأى
رقراقة شف زجاج وجهها	عن ذرب ياقوت وراه جرى
خاشعةً اللحاظ والطرف أنت	تلمس الدعاء مني والرقى
أواه يامرلاي صدري ضاق عن	قابي وما يفيض عنه من جوى
فضع عليه يدك التي بما	بارك فيها الله تبرى الضنى
أنت فتى خاف مقام ربه	ما زال ينهى نفسه عن الهوى
لم يقترف فاحشة قط ولم	يعزم ولا همَّ بها ولا نوى
بغرة منها وحسن نية	في معزل تُشبه أقصى ما اشتهى
مما يعنيه به شيطانه	من حيث لا يطمع منه في خنا
لكنه استعصم راويا لها	ما أمر الله به وما نهى

( وما أبرئ نفسي ) مما دون كباثر الأثم والفواحش وهو اللمم ( إن النفس لأماراة بالسوء الا مارحم ربي إن ربي غفور رحيم ) ولا أعد من اللمم حضور المراقص النسائية وملاهيها، فأحمد الله تعالى أن نفسي لم تطالبني بحضورها يوماً ما، ولم يجد شيطان الجن من نفسي ميلاً إليها فيزينها لي بوسوسته، ولكن دعاني إليها بعض شياطين الانس لاجل اختبارها والنهي عنها على معرفة فأبيت وقلت للداعي حسبك من شر سماءه ، على اني رأيت نموذجاً من أهونها عرضاً لا قصداً إليها، وذلك في بعض ملاهي تمثيل القصص التاريخية أو الوصفية في ليلة خيرية، ولم أكن أعلم باستحداث ذلك فيها، وأحمد الله تعالى اني مقته على غرابة الصنعة والزينة فيها، وخرجت من المكان وآليت أن لأعود إليه ، فقد صارت هذه الاماكن بؤر فساد، وكان فيها شيء من الادب والعبرة وترين العوام على اللغة العربية الصحيحة التي تقرب من الفصيحة في الجملة ، ولم يكن يرى الناس فيها من منكرات الزي أكثر مما يرى في الاسواق والشوارع ، فأصبحت كالحجر إنما أكبر من نفعها

قد يقول من يظنون أن يوسف الصديق عليه السلام هم بالفاحشة : انك قد فضلت نفسك عليه بزعمك أنك لم تنهم وهو قد هم، وأقول انه وإن اختلفت الحال والداعية ، فانه عليه السلام لم يهم بالفاحشة ، وانما همت امرأة العزيز وهم هو بالانتقام ، وهو بطشها به بالقتل أو الضرب، ودفاعه عن نفسه بالفعل، وهذا هو المعتاد في مثل هذه الحال بمقتضى الطبع البشري وشواهدة تقع دائماً ، والعبارة تدل عليه دون الاون ، فانه لا يقال هم بالشخص في مقام الخلاف والمفاضلة إلا اذا أريد الهم بالضرب أو ما هو مثله أو فوقه من الايذاء ، ولا يقال ان المرأة همت بالرجل بالمعنى الآخر لأن الهم يتعلق بالعمل دون الشخص وهي في المباشرة موأتبة لاعمل لها، وما استبقا الباب إلا وهو فار من ثورة غضبها وهي موأتبة له تريد البطش به لاهانته إياها بمخالفتها وهو غلامها ، بمد أن ابتذلت نفسها ببذلها له . وما معنى قوله تعالى ( كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ) إلا عصمته من البطش بها دفاعاً عن نفسه وهو السوء ، وعصمته مما دعت إليه وهو الفحشاء ، ولولا الروايات الاسرائيلية في القصة لما خطر ببال المفسرين الراسخين في ذوق اللغة العربية غير

هذا المعنى ، وكتم لغتهم تلك الروايات عما هو أوضح منها ، فتأولوا وتكفروا  
لتصحيح حمل الكلام عليها ؟ وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه  
الشيطان يزين لكل أحد من الناس ما هو مستعد له وقريب من أخلاقه وآرائه  
التي تربى عليها ، ومناسب لحاله وشعوره الذي يكون غابا عليه ، فإذا أراد الصلاة في  
الليل وهو في حال نعاس أو فتور زين له النوم وترك الصلاة الى وقت اليقظة  
والنشاط لأجل اقلتها كما يرضى الله تعالى !! فإذا خالفه وشرع في الصلاة زين له  
بوسوسته العجلة والاختصار ، وقرأة السور القصار ، أو قرأة السورة من متوسط  
المفصل في ركعتين أو أكثر ، وإذا وجد منه جداً ونشاطا فيها فقد يزين له المبالغة  
في التطويل ليسرع اليه الملل ، و « أحب الاعمال الى الله أدومها وإن قل » كما رواه  
الشيخان في صحيحهما من حديث عائشة . وإذا كانت تربيته الدينية منفرة من  
الكبائر ، أغراه بمقدماتها ووسائلها من الصغائر ، وربما أفتاه بقوله تعالى ( إن  
تجنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ) وليس  
المراد بهذا أن يحتمر الانسان الصغائر ويتعمدها ويواظب عليها كالمستحل لها ، فان  
مثل هذا قلما يسلم من التدرج منها الى الكبائر . ولكن المراد به اللجم وهو ما يلزم به المرء  
إذا ما عرض له ولا يتعمق فيه ولا يصر عليه ، بل يلوم نفسه عليه ويتوب منه ،  
( وقد بينت هذا المعنى في الكلام على التوبة من تفسير سورة النساء - ج ٤ ) فإذا  
تاب تنقل نفسه به من دركة ( النفس الامارة بالسوء ) الى درجة ( النفس اللوامة )  
ولا يزال يجاهدها في منله الى أن يرتقي الى درجة ( النفس المطمئنة ) فإذا هو  
أطاع النفس الأمارة بالسوء فلها تهبط به الى دركة الفحش والفجور ، وربما تهوي به  
الى استحلال المعاصي وهو من الكفر ، كمن يدمن النظر بشهوة الى بعض الحسنان  
فينتقل من النظر الى المغازلة ، ومن المغازلة الى المهازلة ، ومن المهازلة الى الملاعبة  
والمباغلة ، ومنها الى المفاعلة : قال الشاعر العربي

فلما رأيتي رأأت ثم أقبلت تهازاتي والهزل داعية العهر

وقال شاعر مصر في التنقل من كل حالة الى ما بعدها

نظرة فابنساءه فسلام فكلام فمواعد فلقاء



وقد استفتاني شاب مصري افتتن بفتاة شغفته حباً فكان يخلو بها لما في مصر في هذا العهد من إباحة ذلك عند الكثيرين - فيتداعبان حتى يخشى على نفسه الفضيحة الكبرى ثم يتفارقان فيندم ويتوب ، ويعزم أن لا يعود ، حتى اذا ما زارته نقض العزم ، ثم يفارقها فيبرمه ويؤكد به باليمين ، ثم تغلبه على أمره فينكث ما أبرم ، ويحنث بما أقسم ، حتى قال أخيراً : لئن عدت لأكونن بريئاً من دين الاسلام ، ولكنه عاد مغلوباً على أمره ، لا يملك تجاه سحر فاتنته شيئاً من قوة ارادته ، فعظم هذا الحنث العظيم عليه ، وجاءني مستفتياً فيما وقع فيه وما يجب عليه ، فوعظته وأرشدته بما ألهمني الله تعالى ولم يعد إلي بعد ذلك ، فلا أدري كيف انتهت فتنته ، وقد حدث هذا منذ بضع عشرة سنة هبطت بها البلاد المصرية الى الدركات السفلى من الاباحة الراجح أن هذا الشاب من احد البيوت التي لانزال فيها بقية من التربية الدينية ، وأخلاق العفة والحياء الموروثة ، وهذه التربية وهذه الاخلاق التي كان بها الشعب ذا وجود ممتاز مستقل في نفسه ، فطفق دعاة الاحاد والزندقة وإباحة الشهوات يهدمونها باسم التجديد المدني ، والتقليد الأوربي ، ومنه وجوب السفور الذي يعنون به إباحة اختلاط النساء بالرجال ، ومعاشرة الفتيان للفتيات بحجة التمهيد للزواج عن تعارف وحب واختبار . . . وقد تناقمت استباحة التهتك والفجور في هذه السنين الى حد ينذر بهلاك هذه الأمة ، فالنساء يرقصن مع الرجال كاسيات عاريات ، ويسبحن معهن في شواطئ البحار ، ولما تعاشر الفتاة العذراء شاباً ولو بقصد الزواج عن تعارف وحب واختبار ، إلا وينتهي هذا الاختبار بفضيحة الاقتراع ، ثم لا يكون الزواج مضموناً ، واذا وقع لا يكون الوفاق غالباً ، ولا حب شهوة الصبا دائماً ، بل يصير الاختبار لكل منهما عادة من العادات ، والتنقل من حبيب الى آخر من أفتن اللذات ، وان الله يبغض الذواقين والذواقات وقد استفتاني رجل في امرأة مسلمة متزوجة مختلف الى بيت رجل غير مسلم ولا وطني تزوره بعد العصر في شهر رمضان ثلاثة أيام في الاسبوع فتمكث معه الى قرب المغرب : هل يجوز له أو يجب عليه أيذنان بعلمها بذلك ؟ وذاكر ان سبب افتتان هذه المرأة الحبيثة بهذا الرجل الخبيث انها عرفته عاملاً في صيدلية

قصدها مرة لشراء دواء منها فتصباها حتى صارت تختلف إلى الصيدلية لأدنى حاجة ثم لغير حاجة الخ

فسدت العقائد والأخلاق وتوكت العبادات، وأبيحت الأعراض واستبيحت المحرمات ، وعبد الشيطان في معصية الرحمن ، وتوجد جمعيات من الرجال ومن النساء يزينون للناس كل هذه الفضائح والقبائح باسم التجديد والتقدم، ولهم جرائد تنشر دعاية الإلحاد والزندقة ، والاباحة المطلقة ، إلا من بعض قيود قانون العقوبات في الظاهر دون الباطن. وإذا أنذروهم منذر ، وحذروهم من طاعة الشيطان محذر ، قالوا : وما الشيطان؟ وما الدليل على وجود الشيطان؟ فإن قلت لهم إن أطباء الأرواح ، وإساة أمراض الاجتماع ، قد حذرونا بأمر الله خالق ما يرى وما لا يرى من نزغ الشيطان ، وتزيينه للفسوق والعصيان ، كما يحذرننا أطباء الأجساد من «ميكروبات» الأمراض ، فهل من مقتضى العقل أن نرد كلام هؤلاء الأطباء بحجة أننا لم نر تلك الميكروبات المرضية، وأن لا تقبل كلامهم ولا نستعمل أدويتهم إلا بعد رؤية ما رأوا ، واختبار ما اختبروا؟ ألم يقيم الدليل على صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام في التبليغ عن وحي الله عز وجل؟ بلى وقد ثبت بالتجربة والاختبار أن من اتبعوهم صحت عقائدهم، واستقامت أخلاقهم ، وصلحت أعمالهم، وحفظت صحتهم وأعراضهم وأموالهم، فتجربة معالجتهم لأمراض النفس والأرواح، أثبتت من تجربة معالجة الأطباء لأمراض الأجساد . وقد ثبت بالمشاهدة والاختبار أيضاً أن هؤلاء الماديين المنكرين لوجود الشياطين هم أشد فساداً وإفساداً منهم : سكيرون مقامررون ، زناة لوطيون ، كذابون منافقون ، مرتشون سراقون ، (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الأنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون \* ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون )

وفي مثل هؤلاء يقول الله تعالى في هذا السياق ﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ الغي الفساد . والمد والامداد الزيادة في الشيء ، من جنسه ، وقد قرأنا نافع يمدونهم بضم الياء وكسر الميم من الامداد والجمهور بفتح الياء وضم

الميم من المدّ وقري، في الشواذ بما دونهم بصيغة المشاركة، والمد يستعمل في القرآن في الخلق والتكوين كقوله تعالى ( وهو الذي مدّ الارض \* ألم تر الى ربك كيف مدّ الظل \* والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ) وفي مد الناس فيما يذم ويضر كقوله ( قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا \* ومد له من العذاب مدا \* ويمده في طغيانهم بعمهون ) وأما الامداد ففيها يحمّد وينفع كقوله تعالى ( أمدكم بأنعام وبنين \* وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا \* كلاًّ نمد هؤلاء، وهؤلاء، من عطاء ربك ) ومنه امداد النبي ( ص ) والمؤمنين بالملائكة يتبتون قلوبهم في غزوة بدر، وحملت قراءة نافع هنا على التهمك . والإقصار التقصير وأقصر عن الأمر تركه وكف عنه وهو قادر عليه

والمعنى مع سابقه أن شأن المؤمنين المتقين اذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة الجاهلين والخوض معهم وعلى غير ذلك من المعاصي والفساد تذكرها فأبصروا فخذروا وسلموا، وانزلوا تابوا أو أنابوا، وأن اخوان الشياطين وهم الجاهلون غير المتقين يتمكن الشياطين من اهوائهم فيمدونهم في غيهم وفسادهم لانهم لا يذكرون الله تعالى اذا شعروا في أنفسهم بالتزوع الى الشر والباطل والفساد في الارض ولا يستعينون به سبحانه من نزغ الشيطان ومسه فيصروا ويتقوا — إما لانهم لا يؤمنون بالله، وإما لانهم لا يؤمنون بأن الانسان شيطانا من الجن يوسوس اليه ويفريه بالشر — ثم لا يقصرون ولا يكفون عن اغوائهم وفسادهم، فلذلك يصرون على الشرور والفساد لفقد الوازع النفسي والواعظ القلبي . وفي هذا التفسير عود الضمير الى الشيطان بالجمع لأن المراد به الجنس لا الشخص كما تقدم وهو استعمال عربي معروف ومنه ( والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ) . وقيل ان الضمير يعود الى الجاهلين، أي واخوان أوثاك الجاهلين من الانس وهم شياطينهم يمدونهم في غيهم وفسادهم، فيكونون أعوانا لشياطين الجن في ذلك كما بيناه في تفسير الآية التي قبل هذه

(٢٠٣) وَإِذْ أَلَمَّ تَأْتِيهِمْ بآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ  
إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

الاجتباء افتعال واختصاص من الجباية . يقال جبي العامل المال يجبيه وجباه يجبره اذا جمعه للسلطان القيم على بيت مال الامة . و : اجتباه اذا جمعه واصطفاه لنفسه أو احتازه لها، وفي الكشاف اجتبي الشيء، بمعنى جباه لنفسه أي جمعه كقولك اجتمعه - أو جبي إليه فاجتباه أي أخذه، كقولك جلبت إليه العروس فاجتلاها اه والآية هنا آية القرآن كما روي عن ابن عباس أو المعجزة المقترحة من قبل المشركين كما روي عن مجاهد وقتادة

والمعنى واذا لم تأتكم أيها الرسول بآية قرآنية بأن تراخي نزول الوحي زمنا ما قالوا لولا افعلت نظمها وتألّفها واختر عثم من تلقاء نفسك: أو اذا لم تأتكم بآية مما اقترحوا عليك قالوا: هلا جباها الله لك بأن مكذك منها فاجتبيتها وأبرزتها لنا ﴿ قل إنا

أتبع ما يوحى إليّ من ربي ﴾ فما أنا بمبتدع ولا مجتنب لشيء من آيات القرآن بعلمي وبلاغتي بل أنا عاجز عن مثله كهعزكم وعجز سائر الانس والجن وفي معناه ( ١٠ : ١٥ ) واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا: إئت بقرآن غير هذا أو بدله - قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ) - أو ما أنا بقادر على إيجاد الآية الكونية ولا عمفات على الله في طلبها وإنما أتبع لما يوحى إليّ فضلا من ربي عليّ أن جعلني المبلغ عنه - وما عليّ إلا البلاغ المبين ،

﴿ هذا بصائر من ربكم ﴾ أي هذا القرآن الذي أوحاه إليّ بصائر وحجج ناهضة من ربكم بعدد من تأملها وعقلها بصير العقل بما تدل عليه من الحق إذ هي أدل عليه مما تطبون من الآيات الكونية لأنها تدل عليه مباشرة<sup>(١)</sup> . وقد سبق في سورة الانعام تفسير قوله تعالى ( ١٠٤:٦ ) قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنمسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ) فيراجع لزيادة البيان<sup>(٢)</sup> ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ أي وهو هدى كامل يهدي الى الحق والى طريق مستقيم، ورحمة في الدنيا والآخرة للذين يؤمنون به، كما قال تعالى في سورة الانعام أيضاً ( ١٥٤:٦ ) وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لكم ترحون (١٥٥) أن تقولوا إنما

أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإت كنا عن دراستهم لغافلين (١٥٦) أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكننا أهدي منهم، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ( الآية (١) قيل ان قوله تعالى لقوم يؤمنون متعلق بالثلاثة وقيل بالهدى والرحمة لان البصيرة قد يتأملها العاقل فيؤمن

(٢٠٤) وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ  
(٢٠٤) وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ  
بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ  
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ

هذه دلالة على الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن ، والحصانة من نزغ الشيطان ، وهي الاستماع له اذا قريء ، والانصات مدة القراءة . والاستماع أبلغ من السمع لانه إنما يكون بقصد ونية وتوجيه الحاسة الى الكلام لا دراهمه ، والسمع ما يحصل ولو بغير قصد ، والانصات السكوت لأجل الاستماع حتى لا يكون شاغلا عن الاحاطة بكل ما يقرأ . فمن استمع وانصت كان جديراً بان يفهم ويتدبر ، وهو الذي يرجى أن يرحم . والآية تدل على وجوب الاستماع والانصات للقرآن إذا قريء . قيل مطلقاً سواء كانت القراءة في الصلاة أو خارجها ، وهو مروى عن الحسن البصري وعليه أهل الظاهر ، وخصه الجمهور بقراءة الرسول ﷺ في عهده وبقراءة الصلاة والخطبة من بعده ، وزعم بعضهم أن الآية نزلت في خطبة الجمعة وهو غلط فان الآية مكية وصلاة الجمعة شرعت بعد الهجرة وقال بعضهم ان الامر للندب لا للوجوب ولكن روي أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة فحرم بنزولها الكلام فيها

وحكي ابن المنذر الاجماع على عدم وجوب الاستماع والانصات في غير الصلاة والخطبة . وذلك أن إيجابها على كل من يسمع أحداً يقرأ فيه حرج عظيم لأنه يقتضي أن يترك له المشتغل بالعلم علمه ، والمشتغل بالحكم حكمه ، والمبتاعان مساومتها وتعاقدتهما

وكل ذي شغل يشغله . فأما قراءة النبي (ص) فكان بعضها تليغاً للنزول وبعضها وعظاً وإرشاداً فلا يسمع أحداً من المسلمين يسمعه يقرأ أن يعرض عن الاستماع أو يتكلم بما يشغله أو يشغل غيره عنه ، وهذا شأن المصلي مع إمامه وخطيبه ، إذ هو موضوع الصلاة والواجب فيها ، ولهذا استدلوا بالآية على امتناع القراءة خلف الامام في الصلاة الجهرية واستثنى بعضهم الفاتحة لما ورد في الأحاديث الصحيحة من أن الصلاة لا تجزىء بدونها جمعاً بين النصوص . وورد في السنة سكوت الامام بقدر ما يقرأ المأموم الفاتحة . على انه اذا قرأ الفاتحة مع الامام أو بعده آية آية لا يعد غير مستمع للقرآن ولا غير منصت ، وقد بينا تحقيق الحق في قراءة الفاتحة للمأموم كغيره في متمات تفسيرها من الجزء الأول

ومن فروع طلب الاستماع والانصات ان القاريء لا يطالب منه ترك قراءته للاستماع لقاريء آخر بل يختار لنفسه ما يراه خيراً لها من الأمرين ، فقد ينخشم بعض الناس براءة نفسه ، وينخشم آخر بالاستماع من غيره ، أو من بعض القراء دون بعض ، واذا تعدد القراء في مكان استمع كل حاضر لمن كان أقرب اليه . أو لمن يري قراءته أشد تأثيراً في نفسه . وما يفعله جماهير الناس في المحافل التي يقرأ فيها القرآن بمصر كالمآتم وغيرها من ترك الاستماع والاشتغال بالأحاديث المختلفة مكروه كراهة شديدة ، وتكون على أشدها لمن كانوا على مقربة من التالي . وأما تعدد الاعراض عن السماع للقرآن فلا يكاد يفعله مؤمن به ، وكذلك رفع الصوت بالكلام على صوت القاريء عمداً ، فاذا كان الله تعالى قد أدب المؤمنين مع رسوله (ص) بقوله ( يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض أن تحيط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ) فرفع أصواتهم على صوت التالي لكلامه عز وجل أولى بأن ينهى عنه ، والأدب معه فوق الادب مع كلام النبي (ص) بالضرورة . وقد كان الصحابة وغيرهم من فصحاء العرب يعيرون عن سماع القرآن بقولهم : سمعت الله يقول كذا . ولا يجوز لقاريء أن يقرأ على قوم لا يستمعون له ، فان كان في المجلس كثير من الناس يستمعون وينصتون ، فشد بعضهم بمناجاة صاحبه بالجيب من غير تهويش

« تفسير القرآن الحكيم » ( ٧٠ ) « الجزء التاسع »

على القاري، ولا على المستمعين كان الخطب في هذا هينا لا يقتضي ترك القراءة ولا ينافي الاستماع

ويجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته كما يحرص على تلاوته، وأن يتأدب في مجلس التلاوة، وملاك هذا الأدب للقاري، أن لا يكون منه ولا من غيره ولا من حال المكان، أبعد في اعتقاده أو في عرف الناس منافاة للأدب، وقد ذكر الفقهاء في المسألة آداباً وأحكاماً قد يختلف بعضها باختلاف الاعتقاد والعرف، وصرحوا بقراءة القرآن في كل حال من قيام وقعود واضطجاع ومشي وركوب فلا تكره في الطريق نصاً ولا مع حدث أصغر ونجاسة بدن وثوب، ولكن يمك عن القراءة في حال الحدث، ويستحب الوضوء لها استحباباً، ولا سيما للقاري، في المصحف، وتكره مع الجنابة جهراً لأنه بدعة، وفي المواضع القفرة بأن يجلس فيها للقراءة وأما من مر بمكان منها وهو يقرأ فلا يطلب منه ترك القراءة وكذلك من عرض له الجلوس في بعض الملاهي غير المباحة لا يكره له التلاوة مرة واحدة وصرحوا بأنه لا يكره له أن يتلو في بيته إذا كانت زوجته غير مستورة عودة الصلاة.

وتستحب القراءة بالترتيل والنعني بالنغم المفيد للتأثير والخشوع من غير تكلف صناعي. وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً « ما أذن الله لشيء ما أذن لشيء من الصوت يتغنى بالقرآن - زاد غيره في رواية - بجر به » رواه الشيخان وأذن هنا بمعنى استمع أو سمع. ومصدره بفتح تين وروى أحمد وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي عن فضالة بن عبيد مرفوعاً « لله أشد أذناً لرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » والقينة الأمة المغنية، وروى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ويستحب البكاء مع القراءة والخشوع وإلا فالتباكي والتخشم، وأن يستعيز بالله قبلها ويدعو الله في أثنائها بحسب معاني الآيات كسؤال الرحمة عند ذكرها والاستعاذة من العذاب عند ذكره. وكان أنس (رض) يجمع أهله وولده عند ختم القرآن فاستحبوا الاقتداء به

واعلم أن قوة الدين وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن

واستماعه مع التدبر بنية الاهتداء به والعمل بأمره ونهييه . فالإيمان الازداعي الصحيح يزداد ويقوى وينمي وتترتب عليه آثاره من الاعمال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن ، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره ، وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه ، ولا فتحو الاقطار، ومصرفوا الامصار ، واتسع عمرانهم، وعظم سلطانهم، إلا بتأثير هدايته ، وما كان الجاحدون المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنعه من قراءة القرآن على الناس ، ( وقالوا لا نسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ) وما ضعف الاسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه إلا بهجر تدبر القرآن ، وجعله كالرقى والتعاويد التي تتخذ للتبرك أو لشفاء أمراض الابدان، وجل فائدة الصلاة وهي عماد الدين بتلاوة قرآن مع التدبر والتخشع ، فاذا زال منها هذا صارت عادة قليلة الفائدة . والآيات الدالة على ذلك فيه كثيرة تقدم بعضها مع تفسيرها فمن التطويل في غير محله إيراد شيء منها هنا

وإنتي أختي هذا البحث بأول حديث عائشة (رض) الطويل في الهجرة من رواية صحيح البخاري للاسئسهاد به على ما كان من تأثير سماع القرآن عند مشركي العرب قال: حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب اخبرني عروة ابن الزبير أن عائشة (رض) زوج النبي (ص) قالت لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة<sup>(١)</sup> وهو سيد القارة ، فقال أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الارض وأعبد ربي . قال ابن الدغنة فان مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج : انك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك بيلدك.

(١) تعني بابتلاء المسلمين اضطهاد المشركين لهم لارجاعهم عن الاسلام بالقوة والقهر . ونقظ الدغنة يضبطه المحدثون بفتح الدال وكسر اللين وتخفيف النون وتشديدها واللغويون بضمهما وتشديد النون



فرجم وارتمل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في أشرف قريش فقال لهم ان أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج أنخرجون رجلا يكذب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نواب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة من أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ماشاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فاننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لابي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتكذب<sup>(٢)</sup> عليه نساء المشركين وأبنائهم وهم يعجبون منه وينظرون اليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه اذا قرأ القرآن. وأفزع ذلك أشرف قريش من المشركين فأرسلوا الى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانه فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل وإن أبي إلا أن يعطن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك فانا قد كرهنا أن ننفرك ولنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة فأتى ابن الدغنة الى أبي بكر فقال قد علمت الذي عاقدت لك عليه فاما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إليّ ذمتي فاني لأحب أن نسمع العرب آتي أخبرت في رجل عمدت له، فقال أبو بكر فاني أرد إليك جوارك وأرضي بجوار الله عز وجل اه المراد منه

بعد الامر بالاستماع والاصغاء لتلاوة القرآن، في سياق حصة النفس من مس الشيطان، أمرنا تعالى بالذكر العام الشامل للقرآن تلاوة وتدبر واغيره فان كل نوع من أنواع ذكره تعالى حصن للنفس وتزكية لها فقال

(٢) وفي رواية يتقصف والمراد يزدحمون عليه حتى يستمط بعضهم على بعض حتى كأن كل أحد يتكذب غيره، وتناذف الركاب تراميها وقد أخطأ من قال إن هذه الرواية لا معنى لها فالتكذب هنا أظهر من التقصف وهو الكسر — وكأنا يتقصف بعضهم بعضاً. وفي الاساس: وتقصف القوم: لجوا في خصومة أو وعيد

﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول ﴾ قال ابن جرير إن الأمر بالذكر هنا موجه إلى مستمع القرآن أمر بأن يتدبر في نفسه ما يسمع ، وقال عطية العوفي إن المراد بالذكر هنا الدعاء - والجهور على أنه أمر عام كما تقدم وأن الخطاب فيه للنبي ﷺ ومن اتبعه . والتضرع إظهار الضراعة وهي الذلة والضعف والخضوع بكثرة وشدة عناية . والخيفة حالة الخوف والخشية - أي واذكر ربك الذي خلقك وربك بنعمة في نفسك بأن تستحضر معنى أسماءه وصفاته وآياته وآلائه وفضله عليك وحاجتك إليه متضرعاً له خائفاً منه ، راجياً نعمه - واذكره بلسانك مع ذكره في نفسك ذكر آدون الجهر برفع الصوت من القول ، وفوق التخافت والسر ، بل ذكر آقصداً وسطاً - كما قال في آخر سورة الاسراء ( ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ) ولا تحصل فائدة الذكر باللسان إلا مع ذكر القلب وهو ملاحظة معاني القول ، وكأي من ذي ورد يذكر الله ذكراً كثيراً بعد بالسبحة منه المئين أو الألف ثم لا يفيد كل ذلك معرفة بالله ولا مراقبة له ، بل هو عادة تقارنها عادات أخرى منكراً شرعاً . وما ذلك إلا أنه ذكر لساني محض لا حظ فيه للقلب . ذكر النفس نفسه ينفع دائماً ، وذكر اللسان وحده قلما ينفع وقد يكون في بعض الاحوال ذنباً . والأكل الجمع بين ذكر اللسان والقلب .

وبعد أن بين تعالى صفة الذكر والذاكر بين وقته فقال ﴿ بالغدو والآصال ﴾ الغدو مصدر غدا يغدو - كعلا يعلو علواً - أي ذهب غدوة وهو اول النهار من طلوع الفجر الى طلوع الشمس ، ثم توسع فيه حتى استعمل بمعنى الذهاب مطلقاً - ويقابله الرجوع وهو الرجوع - ومنه ( غدوها شهر ورواحها شهر ) والآصال جمع أصيل وهو العشي من وقت العصر الى غروب الشمس فهو كقوله تعالى في سورة الاحزاب ( ٣٣ . ٤١ ) يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً ) وقوله في سورة الدهر أو الانسان ٧٦ : ٢٥ ( واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ) وقوله في سورة آل عمران ٣ : ٤١ ( وسبح بالعشي والابكار ) وخص هذان الوقتان بالذكر لانهما طرفا النهار ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديراً بأن يراقبه تعالى

ولا ينسأ فيما بينهما وأهم الذكر فيهما أصيلا الفجر والعصر اللتين تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار ويشهدان عند الله تعالى بما وجد عليه العبد كما ورد في الصحيح

﴿ولا تكن من الغافلين﴾ عن ذكره تعالى في سائر الاوقات وإنما يتسامح بقلة الذكر فيما بين البكرة والأصيل لانه وقت العمل للعالم فمن غفل عن ذكره تعالى مرض قلبه، وذهب إيمانه، واستحوذ عليه الشيطان فأفساه نفسه، والله در القائل: إذا مرضنا تدأويننا بذكركم وتترك الذكر أحيانا فننتكس ثم عزز عز وجل هذا الامر وهذا النهي بما يعد خيرا أسوة للإنسان، وهو

انتشبه والمشاركة للملائكة الرحمن، فقال ﴿ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي ان ملائكة الله المقربين الذين هم عنده كحمله عرشه والحافين به ومن شاء تقدر وتعالى بهذه العندية الشريفة التي لا يعلمها سواه وهم أعلى مقاما من الموكلين بالخلق وتدير نظامها كالسحاب والمطر والريح والجنة والنار. ان هؤلاء المقربين العالين عنده لا يستكبرون عن عبادته كما يستكبر عنها هؤلاء المشركون

الذين عد بعضهم السجود لله تعالى حطة وضعة لا تحتمل ﴿ويـبحونه﴾ أي يزهدونه عن كل ما يليق بعظمته وكبريائه وجلاله وجماله من اتخاذ الند والشريك والظاهر والمساعد على الخلق والتدبير، كما يفعل الذين اتخذوا من دونه شفعا، انداد الله

يحبونهم كحب الله ويعبدونهم مع الله ﴿وله يسجدون﴾ أي وله وحده يصلون ويسجدون فلا يشركون معه أحدا، فيجب أن يكون لكل مؤمن أسوة حسنة بخواص ملائكته وأقرب المقربين عنده، تبارك اسمه وتعالى جده.

وقد شرع الله تعالى لنا السجود عند تلاوة هذه الآية أوسماعها إرغاما للمشركين، واقتداء بالملائكة العالين، ومثلها آيات أخرى بمعناها في الجملة، وهذه هي الأولى في ترتيب المصحف. ونسأله تعالى أن يجعلنا من خير الذاكرين له،

الشاكرين لنعمة، المسيحين بحمده، الساجدين له دون سائر خلقه

وأن يوفقنا لاتمام تفسير كتابه، إنه على كل شيء قدير



## خلاصة سورة الأعراف

وهي تدخل في ستة أبواب :

- (أولها) توحيد الله تعالى إيماناً وعبادة وتشريعاً ، وصفاته وشؤون ربوبيته
- (ثانيها) الوحي والكتب والرسالة والرسول
- (ثالثها) الآخرة والبعث والجزاء
- (رابعها) أصول التشريع وبعض قواعد الشرع العامة
- (خامسها) آيات الله وسنته في الخلق والتكوين
- (سادسها) سنن الله تعالى في الاجتماع وال عمران البشري وشؤون الأمم المعبر عنه في عرف عصرنا بعلم الاجتماع

### الباب الأول

توحيد الله تعالى إيماناً وعبادة وتشريعاً وصفاته وشؤون ربوبيته

﴿ وفيه ١٢ أصلاً ﴾

(١) دعاء الله وحده وإخلاص الدين له وتخصيصه بالعبادة وكون الإخلال بذلك شركاً وكفراً بالله تعالى . قال تعالى في الآية ٢٨ ( وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ) أي بأن لا تشوبه أدنى شائبة من التوجه إلى غيره في الدعاء ولا في غيره من دينكم كالتوجه إلى الأنبياء والصالحين أو ما يذكرونهم كقبورهم فذلك شرك ينافي خلوصه له ، قل أو كثر ، سمي شركاً أو سمي توسلاً وتبركاً ( راجع ٣٧٥ ج ٨ تفسير ) وقال تعالى في بيان حال المشركين عند موتهم من الآية ٣٧ ( حتى إذا جاءتهم رسالتنا يتوفونهم قالوا : أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عننا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ) راجع ص ٤١٣ منه ، وأمرنا تعالى في الآية ٥٤ بأن ندعوه تضرعاً وخفية - ونهانا عن الاعتداد

٥٦٠ الشارح للدين هو الله وحظر الشرع على غيره وحسن كل ما يشرعه التفسير ج ٩

في الدعاء ، وفي آية ٥٥ بأن ندعوه خوفاً وطمعاً ، وفي الأولى صفة دعاء الاخلاص  
السانية ، وفي الثاني صفته القلبية ( راجع ص ٤٥٦ و ٤٦٢ منه )

ومن الامر بعبادة الله وحده وترك عبادة غيره ما حكاه عن تبليغ الرسل  
لأقوامهم فدل على أنه أصل دينه على السنة جميع رسوله قال تعالى ( ٤٨ ) ولقد  
أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ) ومثله عن رسوله  
هود عليه السلام في الآية ٦٤ مع حكاية قول قومه له ( ٦٩ ) قالوا أجبنا لنعبد  
الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ) ومثله ما حكاه عن رسوله صالح عليه السلام  
في الآية ٧٢ وما حكاه عن رسوله شعيب عليه السلام في الآية ٨٤

ومن بيان بطلان عبادة غير الله تعالى ونزغات الوثنية في اتخاذ الآلهة اتخاذاً  
ماورد في الآيات ١٣٨ -- ١٤٠ من طلب بني اسرائيل من موسى أن يجعل لهم  
إلهاً كالقوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم ورد موسى ( ع . م ) عليهم  
فراجع تفسيرها ( في ص ١٠٧ - ١١٥ ج ٩ تفسير ) وفيه بيان خطأ الرازي في  
فهم معنى الإله لجرية على اصطلاح المتكلمين .

(٢) انكار الشرك وإقامة الحججة على أهله وأثبات التوحيد وكونه مقتضى  
القطرة في الآيات ١٧٢ و ١٧٣ في أخذ الرب الميثاق من ذرية بني آدم وأشهدهم  
على أنفسهم أنه ربهم، ويراجع تفسيرهما ( من ص ٣٨٥ - ٤٠٤ ج ٩ )

(٣) بيان أن شارع الدين هو الله رب العالمين فيجب اتباع ما أنزله ولا يجوز  
اتباع أولياء من دونه في العقائد ولا العبادات ، ولا التحليل والتحرير الديني ،  
وهو نص قوله تعالى في الآية الثانية ( اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من  
دونه أولياء ) لا أولياء يتولون التشريع لكم بما ذكر كالذين ( اتخذوا أحبارهم وورهبانهم  
أرباباً من دون الله ) يحلون لهم ويحرمون عليهم فيتبعونهم كما فسر الحديث المرفوع  
ولا أولياء يتولون أموركم فيما عدا ما سخره الله لكم من الأسباب وهذا عين توحيد  
الربوبية . واتباع رسوله (ص) لا يدخل في عموم النهي هنا فإنه تعالى أمر باتباعه  
في الآية ١٥٨ من هذه السورة وفي غيرها وجعل طاعته فيما أرسله به وحياً وبياناً  
نوحياً عين طاعته كما في سورة النساء فلا يكون ولياً من دونه بل من عنده كما بيناه

في تفسير الآية (يراجع ص ٣٠٦ - ٣١٠ ج ٨ تفسير )  
(٤) حظر القول على الله بغير علم بتشريع أو غيره . وذلك قوله تعالى في الرد  
على المشركين من الآية ٢٧ ( أتقولون على الله مالا تعلمون ) وقوله تعالى في آخر  
أصول المحرمات في الآية ٣٣ ( وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ) وقد بينا في  
تفسيرها مفسد هذه الجريمة الشركية ( ص ٣٩٨ - ٤٠١ ج ٨ تفسير ) ومنه يعلم  
خطأ الذين أنكروا الحسن والقبح في الأشياء مطلقا والذين حكوا العقل في التشريع الديني  
(٥) كون جميع ما يشرعه الله تعالى حسنا في نفسه وتنزيهه عن الأمر بالقبيح  
وهو نص قوله تعالى في الآية ٢٧ ( وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا  
والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ) وقوله في الآية ٢٣ ( قل إنما حرم  
ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ) الخ فإن الفواحش ما ظهر قبحه وعظمه ، والأثم  
ما يضر ، والبغي تجاوز حدود الحق والعدل ، والشرك بالله بغير سلطان أي برهان  
جهل ، والقول على الله بغير علم جهل وتعدي على حقوق الرب تعالى . وكل ذلك  
قبيح في نظر العقل وبعضه قبيح في الحس أيضا . فكل ما أمر الله تعالى به فهو  
حسن في نفسه وإن خفي حسن بعضه على بعض ضعفاء الناظرين ، وكل ما نهى  
عنه فهو قبيح في نفسه وإن جهل قبحه بعض الغاوين ، ولكن العقل على إدراكه  
لذلك لا يستقل بمعرفة كل حسن وكل قبيح بالاحاطة والتحديد ، بل تصدده عن

كثير من المحاسن والقبايح التقايد والعادات وضمف النظر والبحث  
(٦) استواء الرب على عرشه وعلوه على خلقه ، وهو في الآية ٤٣ وفي تفسيرها  
تحقيق الحق في مذهب السلف ( وهو في ص ٤٥١ ج ٨ تفسير )

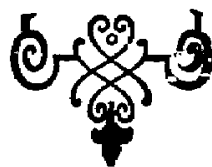
( ٨ و ٧ ) تكليم الرب لموسى عليه السلام ومسألة رؤيته سبحانه وتعالى وبيان  
ذلك في تفسير قوله تعالى ( ١٤٣ ) ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قل رب أرني  
أنظر اليك قال : إن تراني ( الخ وتفسيرها ) ( في ص ١٢٢ - ١٩٢ ج ٩ تفسير )  
وفيه من التحقيق والحكم في مسائل الخلاف مالا تجده له نظيراً في كتاب لافي أصل  
المسألتين ولا في متعلقتهما كنتجلي الرب سبحانه والحجب بينه وبين خلقه وتجليه

في الصور المختلفة ، ومسائل الأرواح والكشف والرؤيا والعمل النومي والتنويم المغناطيسي وأنواع مدركات النفس ومادة الكون الأولى والنور والكهرباء وما يقال من أنها أصل هذه الكائنات ، والخلاف في إمكان معرفة كنه الخالق وأول المخلوقات، ومنها مسائل الكلام ومراتبه ومن ذكر الحرف والصوت في كلامه تعالى. وتحقيق رجحان مذهب السلف على جميع مذاهب المتكلمين وفلسفتهم في الكلام والرؤية وسائر صفات الرب سبحانه وتعالى وشؤونه

(٩) هداية الله واضلاله في آية ( ١٧٨ من يهدي الله فهو المهتدي ) الخ ، وآية ( ١٨٦ من يضل الله فلا هادي له ) الخ ، وفي تفسيرها تحقيق أن هذا الاضلال لا يقتضي الاجبار وإنما هو مقتضى سنة الله تعالى في خلق الانسان ، وارتباط المسببات من أعماله بالاسباب ، فليس حجة للمعتزلة ومن شأهم -م ولا للاشعرية والجبرية ( راجع ٤٥٩ ج ٩ ) ومثله قوله تعالى ( ١٤٦ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ) وكذلك الطبع على القلوب في آتي ١٠٠ و ١٠١ كل ذلك بيان لسنن الله تعالى في طباع البشر وأعمالهم

(١٠) الكلام في رحمة الله تعالى ومغفرته، ومنه قرب رحمته من المحسنين في آية ٥٤ وكونه أرحم الراحمين في الآية ١٤١ ورحمته ومغفرته للتائبين في الآية ١٥٣ وكونه خير الغافرين ١٥٥ وسعة رحمته كل شيء ، ومن يكتبها أي يوجبها لهم ١٥٦ (١١) أسماء الله الحسنى ودعاؤه بها والاحاد فيها وهو نص الآية ١٨٠ وفي تفسيرها تحقيق ماورد من هذه الاسماء في القرآن وحديث « إن لله تسعة وتسعين اسما » الخ ( ص ٤٣١ ج ٩ )

(١٢) الامر بذكر الله تضرعا وخيفة سرأ وجهر أو كونه غذاء الايمان، وعبادته وتسبيحه والسجود له وحده وهو في الآيتين اللتين ختم الله بها السورة ٢٠٤ و ٢٠٥



## الباب الثاني

الوحي والكتب والرسالة والرسول وفيه ٣ فصول فيها ٢٤ أصلاً أو مسألة

﴿ ما جاء فيها بشاره القرآن ﴾

( ١ ) أنزال القرآن على خاتم الرسل محمد ﷺ للانذار به وذكرى المؤمنين وهو في الآية الأولى من السورة ، وفيها نهي الرسول أن يكون في صدره حرج منه  
( ٢ ) أمر المؤمنين باتباع المنزل اليهم من ربهم وهو القرآن وأن لا يتبعوا من دونه أولياء ، وهو الآية الثانية وبيان أهم إذا لم يؤمنوا به فلا يرجى أن يؤمنوا بكتاب غيره كما قال في آخر الآية ١٨٥ ( فبأي حديث بعده يؤمنون )

( ٣ ) وصفه تعالى للقرآن بأنه فضله على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، وهو نص الآية ٥١

( ٤ ) بيانه تعالى لما سيكون عند إتيان تأويل القرآن أي ظهور صدقه بوقوع ما أخبر بوقوعه من أمر الغيب وهو أن الذين نسوه فلم يؤمنوا به في الدنيا يؤمنون يومئذ ويشهدون لجميع الرسل بأنهم جاؤا بالحق ويتمنون الشفعاء أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير ما كانوا يعملون ، وهو في الآية ٥٢

( ٥ ) ولاية الله لرسوله بانزاله الكتاب عليه في الآية ١٩٦

( ٦ ) الأمر بالاستماع لقراء القرآن والانصات له رجاء الرحمة بسماعه والاهتداء به

﴿ ما جاء فيها فهاصا بنبينا (ص) ﴾

( ٧ ) قوله تعالى في الآية الأولى ( فلا يكن في صدرك حرج منه ) أي الكتاب هو نهي عن ضيق الصدر بعظمة القرآن وجلال الأمر الذي أنزل لأجله وشدة وقع سلطانه في القلب ، أو عن ضيقه بمشقة الانذار به والتصدي لهداية جميع البشر وقد غلب عليهم الشرك والضلال ، أو بما يتوقع من شدة معارضة الكفار وعدوانهم - وقيل هو دعاء ، وقيل هو حكم منه تعالى بمضمونه (راجع ص ٣٠٣ ج ٨)



( ٨ ) أمره تعالى له بأن يعتز بأنه هو وليه وناصره وبأنه تعالى يتولى الصالحين فلا خوف على أتباعه من اضطهاد الكفار لهم ، وهو في الآية ١٩٦ وقد ذكرت في مسألة أخرى

( ٩ ) قوله تعالى في الآية ١٨٤ ( أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ) الآية وهي تفنيد لرمي بعض مشركي مكة إياه ﷺ بالجنون يعني أن التفكير الصحيح في حاله ﷺ من أخلاقه وهديه وسيرته وفما جاء به العلم والهدى ينفي أن يكون به ﷺ أدنى مس من الجنون كما زعموا ، فما عليهم إلا أن يتفكروا ( راجع تفسيرها في ص ٤٥٣ ج ٩ )

( ١٠ ) بيان أنه ﷺ لم يعط علم الساعة أيا من مرساها ومتى تقوم : بل هو من علم الغيب الخاص بالله تعالى وذلك نص الآية ١٨٧

( ١١ ) بيان أنه صلوات الله وسلامه عليه لا يملك لنفسه - أي ولا لغيره بالاولى - نفعا ولا ضرا - إلا ما مكنه الله منه بتسخير الاسباب من الاعمال الاختيارية - وبيان أنه لا يعلم الغيب مؤيداً بالدليل الحسي والعقلي وذلك قوله تعالى ( ١٨٨ ) قل لأملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ( راجع تفسيرها في صفحة ٥٠٧ - ٥١٦ ج ٩ )

( ١٢ ) بيان عموم بعثته وشمول رسالته لجميع الامم والشعوب ومنهم أهل الكتاب والشهادة له في كتبهم. يدل عليه في الآية الاولى حذف مفعول ( لتذربه ) فهو يدل على العموم ، وكذلك الخطاب العام بعده في الامر باتباع الناس ما أنزل اليهم من ربهم وهو القرآن المذكور في الآية الاولى . والنص في ارساله الى أهل الكتاب قوله تعالى فيمن يكتب لهم رحمته ( ١٥٧ ) الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل ( الخ وقد بينا في تفسيرها نصوص التوراة والانجيل المشار اليها فيها ) ( ص ٤٢٢ - ٢٩٩ ج ٩ تفسير )

وأما النص الصريح في عموم الرسالة فهو قوله تعالى ( ١٥٨ ) قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) الآية، وكذا كل خطاب خوطب به بنو آدم في الآيات

٢٥ و ١٦ و ٣١ وما بعدها من آيات التشريع العام ولكن هذا كله مشترك بين أمة خاتم النبيين وأمم الانبياء قبله ، وأصرح منه في الاشتراك العام ما ترى في أول الكلام في الرسالة العامة

### ما ورد في الرسالة العامة والرسول

( ١٣ ) بعثة الرسل إلى جميع بني آدم في قوله تعالى ( ٣٥ يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ) الخ ويدل على إرسالهم إلى الامم المختلفة قوله تعالى ( ٣٠ وكم من قرية أهلكناها ) إلى آخر الآية الخامسة . فالمراد بالفري الكثيرة أمة الرسل بدليل ما بعده .

( ١٤ ) سؤال الرسل يوم القيامة عن التبليغ وسؤال الامم عن الاجابة وهو نص الآية الخامسة

( ١٥ ) جزاء بني آدم على اتباع الرسل وطاعتهم وعلى تكذيبهم إياهم واستكبارهم عن اتباعهم وهو في الآيتين ٣٥ و ٣٦

( ١٦ ) وظيفة الرسل تبليغ رسالات ربهم بشارة وإنذارا قولاً وعملاً وهو صريح في الآيات : ١ و ٦٢ و ٩٣ و ١٨٨

( ١٧ ) أول مادعا اليه الرسل توحيد الالوهية بالأمر بعبادة الله وحده وتفي عبادة إله غيره كما هو صريح في الآيات ٥٩ و ٦٥ و ٧٠ و ٧٣ و ٨٥

( ١٨ ) مجيء الرسل بالبينات من الله تعالى وهي تشمل الآيات الكونية والحجج العقلية كما ترى في الآيات ١٣ و ٨٥ و ١٠٣ و ١٠٥ و ١٠٧ و ١٠٨

( ١٩ ) الآيات الكونية التي أيد الله تعالى بها رسوله هي حجة له على الامم وهي غير مقتضية للايمان اقتضاء عقلياً ولا ملجئة اليه طبعاً ، ولو كانت مقتضية له قطعاً أو ملجئة اليه طبعاً لما يتخلف عنها ، ولكن خلاف مقتضى التكليف المبني على الاختيار ، والملجأ لا يستحق جزاءاً . ونحن نرى في قصة موسى مع فرعون وقومه من هذه السورة وغيرها أن السحرة قد آمنوا بإيماناً يقينياً على علم ، وان الجماهير من قومه ظلوا على كفرهم ، ولكن الله تعالى أخبرنا في سورة النمل أنه

لما جاءتهم الآية الكبرى قالوا انها لسحر مبين (١٤:٢٧) وجحدوا بها واستيقنتها  
 أنفسهم ظلما وعلوا) أي عاندوا موسى عليه السلام عناداً باظهار الكفر بها في الظاهر  
 مع استيقانها في الباطن، وأن سبب هذا الجحود هو الظلم والعلو والكبرياء في الارض  
 وهذا وصف فرعون وملأه أي كبار رجال دولته إذ من المعلوم أن سائر الشعب  
 كان سنذلاً، وهو مقلد للرؤساء لجهله وقد صدقهم في قولهم إن موسى ساحر وإن  
 السحرة كانوا متواطئين معه ولذلك أظهروا الايمان به لأجل إخراج فرعون ورجال  
 دولته من مصر والتمتع بكبرياء الملك بدلاً منهم. كما تدل عليه آيات أخرى ولو فهم  
 جمهور الشعب من الآيات ما فهموا إلا من كما آمنوا، لأنه لم يكن لديه من عتو العلو  
 والكبرياء ما يصرفه عن الايمان، ولا شك أن السحرة كانوا أكرم منزلة في الدولة  
 من سائر الشعب ولكن كرامتهم لم تكن بالغة درجة العظمة والعلو المانعة لصاحبها من  
 تركها لأجل الحق. وقد امتاز خام النبيين ﷺ بأن جعل الله آية نبوته الكبرى  
 علمية لا صعوبة في فهم دلالتها على عامي ولا خاصي على أنه أيده في زمنه بعدة آيات كونية  
 (٢٠) نصيحة الرسل الامم وأمرهم بالحق والفضيلة ونهيهم عن ضدهما كافي

الآيات ٦٢ و ٦٣ و ٦٨ و ٧٤ و ٧٩ و ٨٢ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٣

(٢١) شبهة الامم على الرسل التي أثارت تعجبهم واستنكارهم هو كون

مدعي الرسالة رجلاً مثلم كما في الآية ٦٣ و ٦٩

(٢٢) اتهام الكفار رسل الله بالسحر كما فعل فرعون والملا من قومه باتهام

موسى في الآية ١٠٩ وما يابها من الآيات في قصة سحرة المصريين مع موسى.

وهي شبهة جميع أقوام الرسل على آياتهم من حيث ان كلا منهما أمر غريب

لا يعرفون سببه، ومن خطأ المتكلمين التفرقة بين المعجزة والسحر باختلاف حال

الاشخاص، وقد عقدنا في تفسير الآيات فصلاً في حقيقة السحر وأنواعه لا يجد

القارى مثله في شيء من تفاسيرنا وكتبنا الكلامية «وهو في ص ٤٥ - ٦٠ ج ٩»

(٢٣) عقاب الامم على تكذيب الرسل وهو في الآيات ٦٤ و ٧٣ و ٧٨ و ٨٤

و ٩١ و ٩٢ و ١٣٣ و ١٣٦ و ١٣٧

(٢٤) قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب. وهي من آية ٥٩ إلى ٩٣

قصة موسى مع فرعون وقومه وسحرته من آية ١٠٣ الى ١٣٧ وقصته مع قومه وخدمهم من ١٣٨ - ١٧١ وفيها من العبر والفوائد ما ذكر بعضه في أبواب من هذه الخلاصة وبقي ما سبب إنزالها وإنزال غيرها من المقاصد المصرح بها في غير هذه السورة ككونها من أخبار الغيب الماضية الدالة على كون القرآن وحياً من الله تعالى ( ١١ : ٤٩ ) تلك من أنباء الغيب نوحياً إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ) وكونها تسليية للأنبي (ص) عما يلاقي من اعراض المشركين وأذاهم وتثبيتاً لقلبه في النهوض بأعباء الرسالة كما قال تعالى ( ١١ : ١٢٠ ) وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ) - وكونها موعظة وذكرى للمؤمنين كما قال تعالى في تنمة هذه الآية ( وموعظة وذكرى للمؤمنين ) وكونها عبرة عامة للعقلاء من المؤمنين والكافرين المستعدين للاعتبار كما قال تعالى ( ١١ : ١٢٢ ) لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ) وغير ذلك مما سنفضله إن شاء الله تعالى في تفسير سورة هود . فقد طال تفسير هذه السورة جداً .



## الباب الثالث

عالم الآخرة والبعث والجزاء

( وفيه ١٢ أصلاً )

( الاصل الاول ) البعث والاعادة في الآخرة وهو قوله تعالى في الآية ٢٥ ( زمنها تخرجون ) وفي ٢٩ ( كما بدأكم تعودون ) وفيه دليل على إمكان البعث لأنه كالبدء أو أهون على المبدئيء بداهة فكيف وهو القادر على كل شيء . بدءاً وإعادة على سواء - وفي الآية ٥٧ تشبيه إخراج الموتى بإخراج النبات من الأرض الميتة بعد إنزال المطر عليها وهذا التشبيه يتضمن البرهان الواضح على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى بعد فناء أجسادهم ، وقد أطننا في تفسيرها الكلام في المسألة

من الجهة العلمية المتعلقة بالعلوم العقلية والكونية ( قراجع في ص ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨ )  
( الاصل الثاني ) وزن الاعمال يوم القيامة وترتيب الجزاء على ثقل الموازين  
وخفتها وهو في الآيتين الثامنة والتاسعة

( الاصل الثالث ) سؤال الرسل في الآخرة عن التبليغ وآثره وسؤال الامم  
عن اجابة الرسل وهو في الآية السادسة

( الاصل الرابع ) كرن الجزاء بالعمل وجزاء المكذبين المستكبرين والمجرمين  
والظالمين ودخول الامم من الانس والجن في النار وامن بعضهم بعضاً ، وشكوى  
بعضهم من اضلال بعض والدعاء عليهم بمضاعفة العذاب وتحاورهم في ذلك . راجع  
الآيات ٣٦ - ٤١ و ١٤٧ و ١٧٩

( الاصل الخامس ) جزاء المتقين الصالحين في الآية ٣٥ وجزاء الذين آمنوا  
وعملوا الصالحات وإيرائهم الجنة وحالم ومقالم فيها وذلك في الآيتين ٤٢ : ٤٣ -  
ومن ذلك قوله تعالى في الزينة والطيبات من الرزق من الآية ٣٢ ( قل هي للذين  
آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة )

( الاصل السادس ) إقامة أهل الجنة المحجة على أهل النار في قوله تعالى ( - ونادى  
أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم  
حقاً ؟ قالوا نعم ) الخ وفي تفسيرها بيان لما في صناعات هذا العصر من ازالة الاستبعاد  
والاستغراب من تحاور الناس مع بعد المسافات بينهم ( راجع ص ٤٢٤ ج ٨ تفسير )  
( الاصل السابع ) الحجاب بين أهل الجنة وأهل النار وهو الاعراف وأهله  
وتسليمهم على أهل الجنة وخطابهم لآناس يعرفونهم بسيماهم في النار بما يذكروهم بضلالهم  
في الدنيا وغرورهم بأموالهم الخ وهو في الآيات ٤٦ - ٤٩

( الاصل الثامن ) نداء أصحاب النار أصحاب الجنة ( أن أفيضوا علينا من  
الماء أو مما رزقكم الله ) وجواب أهل الجنة لهم في الآية ٤٨

( الاصل التاسع ) اعتراف أهل النار في الآخرة بصدق الرسل وتنبؤهم الشفعا  
ليشفعوا لهم ، أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير الذي كانوا يعملون . وحكم الله تعالى  
عليهم بأنهم خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون من القول بأن من كانوا

يدعونهم في الدنيا سيشفعون لهم عند الله . وهو في الآية (٥٣)  
( الاصل العاشر ) الدعاء بخير الآخرة مع الدنيا وهو ما ورد في دعاء موسى عليه  
السلام من قول الله تعالى حكايته عنه ( ١٥٦ ) واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة )  
فهو موافق لما ورد في القرآن تشريعا لهذه الأمة . فغاية دين الله على السنة جميع  
رسله سعادة الدارين كما ترى بيانه في السنة ٤ من الباب السادس  
( الاصل الحادي عشر ) صفة أهل جهنم ( ١٧٩ ) ولقد ذرأنا لجنهم كثير آمن  
الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ) الخ ، وفي تفسيرنا لها من العلم والحكمة مالا  
تجد مثله في تفسير ولا في كتاب آخر - فراجع ( ص ٤١٨ ج ٩ )  
( الاصل الثاني عشر ) مسألة قيام الساعة وكونها تأتي بغتة وهي في الآية ٨٧  
وفي تفسيرها مباحث مسائل مبتكرة في اشراطها ( راجع ص ٤٦١ - ٥٠٧ ج ٩ )

## الباب الرابع

### أصول التشريع وفيه ٩ أصول

( الاصل الاول ) بيان ان شارع الدين هو الله تعالى كما في الآية الثانية من  
السورة ، وتقدم في الباب الاول من هذه الخلاصة ، وهناك قد ذكر من حيث إنه  
حق الرب سبحانه وتعالى ، ويذكر هنا من حيث إنه الاصل الاول من أصول  
الاحكام التشريعية . والمراد بشرع الدين والتشريع الديني ما يجب اتباعه وجوبا  
دينيا على أنه قرينة يثاب فاعله ويعاقب تاركه في الآخرة . وأما التشريع الدنيوي  
الذي يحتاج إليه الناس في مصالحهم الدنيوية فقد أذن الله تعالى به في الاسلام  
لرَسُولِ ولأولي الامر من المسلمين كما بيناه بالتفصيل الواسع في تفسير قوله تعالى  
( ٤ : ٥٩ ) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم )  
واشترط في هذا الاذن أن يردوا ما تنازعوا فيه من شيء إلى الله ورسوله بالجوع  
إلى الكتاب وإلى الرسول في عهده ، وإلى سنته من بعده ، كما هو صريح بقية الآية  
مع بيان علته ( راجع تفسيرها في ص ١٨٠ - ٢٢٢ ج ٥ تفسير )

( الاصل الثاني ) تحريم التقليد في الدين والاخذ فيه براء البشر ، وهو نص النهي في الآية الثانية معطوفا على الامر باتباع ما أنزل إلى الناس من ربهم وهو ( ولا تتبعوا من دونه أولياء ) وقد صرح بذلك المفسرون . ومن النصوص في بطلانه الانكار على احتجاج المشركين به في الآية ( ٢٨ ) واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ) الآية ( راجع تفسيرها في ص ٣٧٣ ج ٨ ) وفي الآية ١٧٣ ( الاصل الثالث ) تعظيم شأن النظر العقلي والتفكير لتحصيل العلم بما يجب الايمان به ومعرفة آيات الله وسننه في خلقه وفضله على عباده فمن ذلك قوله تعالى في آية ٣٣ ( وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ) السلطان البرهان ، فتقييد تحريم الشرك بانتفائه تعظيم لشأنه . ومنه قوله في آخر الآية ١٦٩ ( أفلا تعقلون ؟ ) وسيدكر في الاصل الرابع . ومنه قوله تعالى بعد ضرب المثل للكاذبين بآياته من آية ١٧٩ ( فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ) ومنه قوله في الآية ١٨٤ ( أو لم يتفكروا ؟ ما صاحبهم من جنة ) وفي الآية ١٨٥ ( أو لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء ؟ ) الخ — والآية الجامعة في هذا المعنى قوله تعالى ( ١٧٩ ) ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفتقون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالانعام بل هم اضل ، أولئك هم الغافلون ) وهي شاملة للنظر العقلي المحض ولكل ما كان مصدره الرؤية والسمع وهما أهم وأكثر مصادر العلم ( الاصل الرابع ) تعظيم شأن العلم الشامل للعلم النقلى وهو ما أنزل الله من الكتاب والحكمة ، وما بينه به رسوله ( ص ) من سنة ، والعلم المستفاد من الحس والعقل ، والمراد من العلم هنا متعلق المصدر وهو المعلومات ، ففارق ما قبله . ومن الآيات في ذلك قوله في آخر الآية ٢٧ ( أتقولون على الله مالا تعلمون ) وقوله في آخر الآية ٣١ ( كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ) وهي من النوع الثاني لان موضوع الآية مسألة الامر بالأكل من الطيبات وبالزينة والانكار على من حرهما وهي من مسائل علم الاجتماع والمصالح البشرية كما فصلناه في تفسيرها ( راجع ٣٠٣ ج ٨ ) وقوله تعالى في آخر آية ٣٣ التي بين فيها أنواع المحرمات العامة ( وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ) السلطان البرهان - وقوله تعالى

في آخر آية ١٣٠ (واكن أكثرهم لا يعلمون) وهو في زعم آل فرعون وخرافاتهم أن ما ينالهم من الحسنات والخيرات فهو حق لهم وأن ما ينالهم من السيئات فهو بشؤم موسى وقومه وتطيرهم بهم. والعلم المنفي عنهم هنا هو العلم بسنن الله في طباع البشر والأسباب والمسببات في العالم - وقوله تعالى في حكاية توبيخ موسى (ع . م) لقومه على مطالبتهم إياه بأن يجعل لهم إلهاً كآلهة الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم من آخر الآية ١٣٨ (إنكم قوم تجهلون) وما علل به الحكم بجهاهم في الآيتين بعدها فهذه جامعة لبيان فضل العلم النقلي والعلم العقلي وذم الجهل بهما معاً فإن موسى (ع . م) علل تجهيلهم أولاً بعلة عقلية وثانياً بعلة دينية عقلية (فراجع تفسيرهن في ص ١٠٥-١١٥ ج ٩) - وقوله تعالى في الآية ١٦٩ (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه) وهو من العلم النقلي ولكنه أيد بالعقلي في ختم الآية بقوله (أفلا تعقلون)

فهذه الشواهد على هذا الأصل وما قبله المؤيدة بأضعافها في السور الأخرى تثبت تعظيم القرآن لشأن التفكير والنظر والاستدلال لتحصيل العلم بالله وشرائعه المنزلة وبسننه وآياته في خلقه ونعمه على عباده - وتعظيم شأن جميع العلوم النافعة من عقلية وعقلية وهي حجة على نقص أهل الجهل بها .

(الأصلان الخامس والسادس) أمر الناس بأخذ زينتهم عند كل مسجد وبالأكل والشرب من الطيبات المستلذات ، والانكار على من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وبيان أنها حق للذين آمنوا في الحياة الدنيا أولاً وبالذات بقيد عدم الاعتداء، والاسراف فيها، وإن شاركهم غيرهم فيها بعموم فضل الله لا باستحقاقهم، وإنما تكون خالصة لهم في الآخرة ، وذلك نص الآيتين ٣١ و٣٢ وهذان الأصلان هما الركنان اللذان يقوم عليهما بناء الحضارة بعلمها وفنونها وصناعاتها وإظهارها لما في هذا الكون من سنن الله تعالى وآياته وأسرار صنعه الدالة على توحيده وقدرته وحكمته وإحسانه على عباده - وهما المبتلان لأساس الديانة البرهية من جعل مقصد الدين تعذيب النفس وحرمانها من الزينة واللذة، وقلدهم في ذلك النصارى وابتدعوا الرهبانية لاجنه ولم يقفوا عند حد تقليدهم في الدنيا حتى



زعموا أن دار النعيم في الآخرة خالية من اللذات الجسدية وليس فيها إلا النعيم الروحاني خلافا لبعض تصريحات الإنجيل من شرب الخمر في الملكوت وكون الصائمين والجياع والعطاش من أجل البر يشبعون هنالك

ولما كان الغلو في الدين كغيره من أمور البشر يقوى الاستعداد له في بعض الناس من كل أمة بدأ بعض الصحابة المبالغين في العبادة بترك أكل اللحم وهم بعضهم بالاختصاص فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك وعن المبالغة في العبادة ونزل في شأنهم (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) الآيات من سورة المائدة وهي بمعنى ما هنا . ولم يمنع ذلك كله بعض مسلمي المتصوفة من الغلو في ترك الزينة والطيبات ، وصار الجاهلون بكنهه الاسلام يعدون الغلو في ذلك هو الكمال في الدين ، وأهله من أولياء الله المقربين ، وإن كانوا جاهلين خرافيين . ويراجع ما في تفسيرنا للآيتين من الاحكام والحكم والفوائد ومنها ما لم يكن يخطر في بال أحد من مفسرينا المتقدمين رحمهم الله تعالى ( ص ٣٦٩ - ٣٩٤ ج ٨ )

( الاصل السابع ) هداية الناس بالحق والعدل به وقد وصف الله تعالى بذلك خيار قوم موسى عليه السلام في الآية ١٥٩ وخيار أمة محمد ﷺ في الآية ١٨١ فهذا من أصول دين الله العامة في جميع شرائعه . والحق هو الامر الثابت المتحقق في الشرع إن كان شرعيا وفي الواقع ونفس الامر إن كان أمرا وجوديا ، والعدل ما تحرى به الحق من غير ميل إلى طرف من الطرفين أو الاطراف المتنازعة فيه أو المتعلقة به ويدخل في هذا الأصل الدعوة الى الحق والخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة العامة والخاصة والاصلاح بين الناس

ومنه الامر بالعدل المطلق في الاحكام والاعمال بقوله [ ١٨ قل أمر ربي بالقسط ] وهذا هو الاصل العام لجميع الاحكام بين الناس كما قال تعالى في سورة النساء المدنية إذ صار للامة حكم ودولة [ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ] وفي سورة النساء والمائدة آيات أخرى في وجوب عموم العدل والمساواة فيه بين المؤمن والكافر والبر والعاجز والغني والفقير والقريب والبعيد ، وقد تقدمت مع تفسيرها . فمن تحرى العدل بغير محاباة وعرف مكانه فحكم به كان حاكما بحكم الله تعالى من غير حاجة إلى

نص خاص في الشريعة به فان وجد النص كانت الثقة بالمعدل أتم بل لا حاجة مع النص الى الاجتهاد كما ان الاجتهاد المخالف للنص الخاص أو للمعدل العام باطل .  
 ( الاصل الثامن ) حصر أنواع المحرمات الدينية العامة في قوله تعالى ( ٣٣ )  
 قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والأثم واليبغي وغير الحق ، وأن  
 تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ( تراجع بيان  
 وجه الحصر في تفسيرها [ ص ٣٩٤ - ٤٠١ ج ٨ ]  
 [ الأصل التاسع ] بيان أصول الفضائل الادبية والتشريعة الجامعة بأوجز  
 عبارة معجزة في قوله تعالى [ ١٩٩ ] خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ]  
 فيراجع تفسيرها من آخر ص ٥٣٣ - ٥٣٩ ج ٩

## الباب الخامس

في آيات الله وسنته في الخلق والتكوين  
 ( وفيه ١٤ أصلا )

(١) خلق الله السموات والارض في ستة أيام واستواؤه على عرشه ونظام  
 الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره ، وكون الخلق والامر له  
 وحده ، وذلك في الآية ٥٤ وهي تتضمن الترغيب في علمي الفلك والجغرافية  
 الطبيعية دون علم التنجيم الخرافي ، وقد بلغ أهل العرب من العلم بذلك ما لو ذكر  
 أبسطه وأبعده عن الغرابة في غير هذا العصر لقال فيه أذكى العقلاء إنه من  
 هذيان المجانين ، أو تخيل الحشاشين ، ولا يوجد علم أدل على عظمة الخالق وقدرته  
 وسعة علمه ودقة حكمته من علم الفلك ، وقد كان قومنا العرب في عهد حضارتهم  
 الاسلامية أعلم البشر به فصاروا أجملهم به  
 (٢) خلق الله الرياح والمطر وحياءه الارض به واخرجه الثمرات والخشب  
 وضده وذلك في الآيتين ٥٧ و٥٨ وذلك يتضمن الترغيب في العلم بسنن الله تعالى  
 في هذه المخلوقات كما قلناه فيما قبله لان في العلم بذلك كله من معرفة آيات الله  
 وكما صفاته ما يعطي متأملا اليقين في الايمان اذا قصده ويفقد عليه نعمه التي من

عليها بها وبعده لشكرها فتجتمع له بذلك سعادة الدارين وقد اتسعت علوم بعض البشر بذلك فاستحوذوا على أكثر خبرات الأرض في بلادهم وبلاد الجاهلين بها الذين أضع الجبل عليهم دنياهم ودينهم بالتبعم لها

(٣) خلق الله الناس من نفس واحدة وخلق زوجها منها ليسكن إليها وإعداد الزوجين الذكر والانثى للتناسل كما في الآية ١٨٩ وفي قصة جنة آدم ومعصيته وتوبته من الآيات ١٩-٢٥ بعض صفات النشأة البشرية واستعدادها وحالتها في سكنى الأرض (٤) تفضيل الله تعالى للإنسان على من في الأرض جميعاً كما أفاده قوله تعالى

(١٠) واتخذ خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ) وبيان هذه المسألة بالتفصيل في تفسير سورة البقرة لأنها أوسع تفصيلاً لما تقتضيه قصة آدم المطولة فيها والتصريح فيها بجعل آدم خليفة في الأرض ، وفي باب التأويل هنالك سبب طويل للاستناد الإمام رحمه الله تعالى لم يسبقه إليه أحد فيما نعلم فيراجع في الجزء الأول من هذا التفسير

(٥) خلق بني آدم مستعدين لمعرفة الله تعالى وإشهاد الرب إياهم على أنفسهم أنه ربهم ، وشهادتهم بذلك بمقتضى فطرتهم ، وما منحوه من العقل والفكر ، وحجته تعالى عليهم بذلك كما في الآيتين ١٧٢ و١٧٣ فيراجع تفسيرهما (في ص ٣٨٦-٤٠٤ ج) وكذا خلقهم مستعدين للشرك وما يتبعه من الخرافات كما في الآية الثانية منهما والآية ١٩٠

(٦) ضرب المثل لاختلاف استعداد البشر اسكل من الخير والشر والبر والآنم وعلامة كل منهما فيهم وكونهم يعرفون بآثارهم ، وذلك قوله تعالى (٥٧) والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ) ، وفيه إرشاد إلى طلب معرفة الشيء بأثره ، ومعرفة الأثر بمصدره ، وفيه دليل على أن في الأشياء خبيثاً وطيباً ، وجيداً وورديثاً .

ويؤيده حديث « الناس معادن كعادن الذهب والفضة » الخ وهو في الصحاح وغيرها (٧) الكلام في إبليس وهو الشيطان وعداوته لآدم وامتناعه من السجود

له ووسوسته له ولزوجه بالاعراض بالمعصية بالأكل من الشجرة وعاقبة ذلك . وهو في الآيات ٢٠ - ٢٣ وكونه من المنظرين إلى يوم القيامة

(٨) عداوة إبليس والشياطين من نسله لبني آدم وتزيينهم لهم الشر والباطل

وانغرائهم بالفساد والمعاصي وحكمة ذلك ، وهي في الآيات ١٦ و ١٨ و ٢٠ - ٢٢ و ٢٧ وتحذيرهم منه في الآية ٢٦ مع بيان أنه يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم (٩) نزع الشيطان للانسان ومقاومته بالاستعاذة بالله تعالى وكون المتقين اذا مسهم طائف منه تذكروا فاذا هم مبصرون لا تطول غفلتهم فبغرضهم وسواسه وذلك في الآيتين ٢٠٠ - ٢٠٢

(١٠) بيان أن الشياطين أولياء المجرمين الذين لا يؤمنون من بني آدم وهو في فاصلة الآية ٢٧ وبيان أن اخوان الشياطين من بني آدم يمكنون الشياطين من انفسهم بعدم تقواهم فهم يمدونهم في الغي ولا يقصرون فيه وذلك نص الآية ٢٠٢ قد سبق الكلام في تفسيرنا هذا على مباحث الشياطين والجن في عدة مواضع قد أحلنا عليها في تفسير آيات الاعراف وزدنا على ذلك بمقدّم فصل استطرادي في حكمة خلق الله تعالى الخلق ، واستعداد الشيطان والبشر للشر . فيراجع في (ص ٣٤٠ - ٣٤٤ ج ٨) (١١) منة الله على البشر بتمكينهم في الارض وتسهيل أسباب المعاش لهم كما في الآية ٩ ومن الشكر الواجب له تعالى على ذلك طلب سعة العلم باستعمار الارض ووسائل المعاش (١٢) منة الله على البشر باللباس والزينة كما في الآية ٢٦ وراجع في ذلك الاصلين ٥ و ٦ من الباب الرابع من هذه الخلاصة

(١٣) صفات شرار البشر المستحقين لجهنم وهم الذين أهملوا استعمال عقولهم وحواسهم فيما خلقت لأجله من اقتباس العلم والحكمة - وذلك نص الآية ١٧٩ وذكرت في أصل الجزاء في الآخرة ( وهو ١١ من الباب الثالث ) وفي تعظيم شأن النظر والتفكير لتحصيل العلم ( وهو الاصل ٣ من الباب ٤ )

(١٤) آياته تعالى ونعمه على بني اسرائيل وتراجع في قصة موسى معهم

## الباب السادس

في سنن الله تعالى في الاجتماع وال عمران البشري

( وفيه ٧ أصول )

(١) اهلاك الله الامم بظلمها لنفسها ولغيرها كما في الآيتين ٣ و ٤ ومصادقه في خلق آدم الذي هو عنوان البشرية وجعله تعالى المعصية بالأكل من الشجرة ظمماً للنفس في الآية ١٩ واعتراف آدم وحواء في دعاء توبتها بذلك في قولها ( ربنا ظلمنا أنفسنا ) وبأن شأن المعصية من الافراد أن تغفر بالتوبة فيعفى عن عقابها وهو خسران النفس كما في قولها ( وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن الخاسرين ) وأما خسارة الامم فهي إضاعة استقلالها وسلطان أمة أخرى عليها تستذلها . وجملة ذلك أن العقوبة أثر طبيعي لازم للعمل وأن ذنوب الامم لا بد من العقاب عليها في الدنيا قبل الآخرة، وأما ظلم الأفراد وعقابهم عليه في الآخرة فيراجع في الاصل ٤ من الباب الثالث (٢) بيان أن للامم آجالاً لا تتقدم ولا تتأخر عن أسبابها التي اقتضتها السنن الالهية العامة ، وهو نص الآية ٣٤ وكونها اذا كانت جاهلة بهذه السنن تؤخذ بغتة وعلى غفلة ليلاً أو نهاراً كما يؤخذ من الآيات ٩٤ — ١٠٠ وهذه الآيات وردت في عقاب الامم التي عاندت الرسل وكان عقابها وضعياً لاجتماعياً — وقد سبق لنا في هذا التفسير أن العقاب الالهى للأفراد وللأمم نوعان (أحدهما) العقاب بما توعد تعالى به على مخالفة رسله ومعاندتهم وهو من قبيل عقاب الحكام لرعاياهم على مخالفة شرائع أممتهم وقوانينها ونظمها (وثانيهما) العقاب الذي هو أثر طبيعي للجرائم، وهو من قبيل ما يعاقب به المريض على مخالفة أمر طبيبه في معالجته له من الحمية والاقتصار على كذا من الغذاء والتزام كذا من الدواء . ( راجع ص ٣٠٨ ج ٧ تفسير )

(٣) ابتلاء الله الامم بالبأساء والضراء تارة وبضدها من الرخاء والنعماء تارة أخرى، فاما أن تعتبر بذلك فيكون تربية لها وإما أن تعفى وتغفل فيكون مهلكة لها كما في الآيات ٩٤ وما بعدها مما تقدم الكلام عليه في السنة الثانية من وجه آخر

(٤) بيان أن الإيمان بما دعا الله إليه والتقوى في العمل بشرعه فعلا وترك سبب اجتماعي طبيعي لسعة بركات السماء والأرض وخيراتها على الأمة كما في قوله تعالى (٩٦) ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وهو موافق لآيات أخرى في سور أخرى [ منها ] الآية ٥٢ من سورة هود [ ١١ ] والآيات ١٢٣-١٢٧ من سياق بيان سننه تعالى في النشأة البشرية من سورة طه ومثله في الآيات ١٠-١٢ من سورة ووح والآيتين ١٦ و١٧ من سورة الجن بعدها وغيرها ، وقد بينا وجه ذلك في التفسير والمنار ومنه تحقيق معنى التقوى واختلافها باختلاف مواضعها من أمور الدين والدنيا في مقالة عنوانها (عاقبة الحرب المدنية) نشرت في (ج ٧ ص ٢١ من المنار) [ ٥ ] استدراجة تعالى للمكذبين والمجرمين واملاؤه لهم كما في الآيتين ١٨٢ و١٨٣ وهو في معنى ما سبقه من سنة أخذ الله للأمم بذنوبها ومن سنة ابتلائها بالحسنات والسيئات فان من لا يعتبر بذلك ولا يتربى بصر على ذنبه ولا يرجع عنه وذنوب الأمم لا بد من العقاب عليها - راجع تفسير الآيتين في ص ٥١ و ٤٤ ج ٩ ففيه بيان هذه السنة موضحاً

(٦) سنة الله في أرض الأرض واستخلاف الأمم فيها والاستيلاء والسيادة على الأمم والشعوب . فقد بين الله تعالى لنا في قصة موسى مع قومه أن وطأة فرعون وقومه اشتدت على بني إسرائيل وصرح بوجوب الاستمرار على تقتيل أبنائهم واستحيا، نسائهم لاجل أن تنقرض الأمة بعد استدلال من يبقى من النساء إلى أن ينقرض الرجال وما ازدادوا إلا ذلاً وخنوعاً - وهم مئات الألوف - كما هو شأن الشعوب الجاهلة المستضعفة ولكن الله تعالى أمر رسوله موسى أن يتلخ ذلك اليأس من قلوبهم بقوة لإيمان بما حكاه عنه بقوله (١١٨) قل موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ) أي بين لهم أن الأرض ليست رهن تصرف الملوك والدول بقدرتهم الذاتية فتدوم لهم وإنما هي لله ، وله سبحانه وتعالى سنة في سلبها من قوم وجعلها إرثاً لقوم آخرين بمحض مشيئته وسلطانه ، ومدار هذه السنة على أن العاقبة في التنازع بين الأمم على الأرض التي تعيش فيها أو تستعمرها للمتقين ، أي الذين يتقون أسباب

الضعف والخذلان والهلاك كاليأس من روح الله والتخاذل والتنازع والفساد في الارض والظلم والفسق، ويتأبسون بضدها وبسائر ما تقوى به الامم من الاخلاق والاعمال، وأعلاها الاستعانة بالله الذي بيده ملكوت كل شيء، والصبر على المكاره مها عظمت، وهذان الامران هما أعظم ما تنفاضل به الامم من القوى المعنوية باتفاق الملاحدة والمليين من علماء الاجتماع وقواد الحروب

وقد تكررت هذه القاعدة في القرآن الحكيم وفي معناها قوله تعالى من سورة الانبياء [ ٢١ : ١٠٥ ] واقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون | وأما الصالحون هم الذين يصلحون لاقامة الحق والعدل وسائر شرائع الله وسننه في العمران، وهي بمعنى ما يسميه علماء الاجتماع «بقاء الاصلاح أو الامثل في كل تنازع» ويدل عليه المثل المشهور في سورة الرعد [ ١٣ : ١٧ ] أنزل من السماء ماء — إلى قوله — فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض | ومن العجيب أن ترى بعض الشعوب الاسلامية المستضعفة في هذا العصر بسيادة الاجانب عليها يأنسه من استقلالها وعزتها بل من حياتها المليية والقومية بما ترى من خفة موازينها ورجحان موازين السائدين عليها في القوى المادية والآلية واستئلال هؤلاء السائدين عليها لها، جهلا منها بسنة الله تعالى التي بينها في هذه الآية وغفلتها عن كون رجحان قوى فرعون وقومه على بني اسرائيل وقهره لهم كانا فوق ورجحان قوى سائديها عليها وقهرهم إياها، وفي هذا العصر من العبر التاريخية بسقوط بعض الدول القوية مالا يقل عن العبرة بأحداث التاريخ القديم

ثم بين لنا تعالى في الآية التالية لتلك الآية [ ١٢٩ ] أن موسى عليه السلام شكاه قومه إيذاء فرعون وقومه لهم قبل مجيئه وبعده على سواء، فذكر لهم ما عنده من الرجاء باهلاك ربهم اعدوهم واستخلافهم في الارض الموعدين بها ليختبرهم فينظر كيف يعملون، ويكون ثبات ملكهم وسلطانهم على حسب عملهم الذي تصلح به الارض وأهلها أو تفسد. وهو ما فصله تعالى لنا بعد ذلك في آيات أخرى منها في إفسادهم قوله تعالى [ ١٧ : ٤ ] وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض | إلى تنمة الآية الثامنة

ثم بين لنا تعالى في الآية ١٣٧ من هذا السياق أنه أورشيم الارض المباركة وتمت كآتمه الحسنى عليهم [ بما صبروا ] أي لا بمجرد آيات الله لموسى وما أیده به ، فعلم منه بالفعل أن الامة المستضعفة مها يكن عدوها الظالم لها قويا فليس لها أن تياس من الحياة . وهو تحقيق لرجاء موسى هنا ولوعد الله إياه بذلك صريحاً في قوله من سورة القصص [ ٢٨ : ٥ ] ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين \* ونمكن لهم في الارض | الآية

ترى شعوب المسلمين يجولون هذه السنن الالهية وماضع ملكهم وعزم الإ بجهايم الذي كان سبباً لعدم الاهتداء بها في العمل ، وما كان سبب هذا الجهل إلا الاعراض عن القرآن ودعوى الاستغناء عن هدايته بما كتبه لهم المتكلمون من كتب العقائد المبنية على القواعد الكلامية المبتدعة وما كتبه الفقهاء من أحكام العبادات والمعاملات المدنية والعقوبات والحرب وما يتعلق بها ، وهذه السورة الجليلة الكبيرة القدر والفوائد (الاعراف) خالية من هذه الاحكام كلها ، ومن نظريات المتكلمين في العقائد وتقريرهم لها ، وكذلك غيرها من السور المكية . فهل أنزل الله تعالى هذه السور كلها للتعبد بتجويد ألفاظها بدون فهم ، أو لاتخاذها رقى وتمايم ، وكسباً لفراء لنا تم ؟

وأعجب من هذا كله أن الجهل بلغ بهم بمذ ذلك أن ظهر فيهم فريق خصم لهذا الفريق المقلد المحافظ على كتب القرون الوسطى دون هدي السلف ، خصم يقول إن دين الاسلام هو السبب في جهل المسلمين وضعفهم ولا حياة لنا إلا باقتباس علم الاجتماع وسنن العمران من الامم غير الاسلامية التي سادتنا بهذه العلوم وما يؤيدها من الفنون والصناعات ، وهؤلاء أجهل بالاسلام من أولئك ، فكتاب الاسلام هو المرشد الاول لسنن الاجتماع والعمران ، ولكن المسلمين قصروا في طور حياتهم العلمية عن تفصيل ذلك بالتدوين لعدم شعورهم بالحاجة اليه ، وكان حقهم في هذا العصر أن يكونوا أوسع الناس به علماً لان كتاب الله مؤيد للحاجة بل الضرورة التي تدعو اليه ( ٧ ) إن سنة الله في الامم التي رث الارض من بعد أهلها الاصلاح هي

سنته تعالى في أهلها ، فاذا كان هؤلاء قد غلبوا عليها بسبب ظلمهم وفسادهم وجهايم وعمى قلوبهم ، فكذلك يكون شأن الوارثين لها من بعدهم اذا صاروا مثلهم في



ذلك ، وذلك قوله تعالى ( ١٠٠ ) أولم يهد الذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصيناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ) وكنا نرى الذين ورثوا ممالك المسلمين متعظين بمعنى هذه الآية من بعض الوجوه فهم على كثرة ذنوبهم بالظلم وفساد العقائد والاخلاق وسلب الاموال يتحرون أن يكون ظلمهم دون ظلم حكام أهل البلاد الذين أضاعوها ، وعقولهم تبحث دائما في الاسباب التي يخشى أن تكون سببا لسلبها منهم لاجل اتقائها ، وأذاتهم مرهفة مصيخة لاستماع كل خبر يتعلق بأمرها وأمر أهلها وشؤون الطامعين فيها حذراً منهم أن يسابوهم اياها وقد قلنا في تفسير هذه الآية: قد كان ينبغي للمسلمين وهذا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى باتقاء كل ما قصه عليهم من ذنوب الأمم التي هلك بها من كان قبلهم ، وزال ملكهم ، ودالت بسببها الدولة لأعدائهم - إلخ ما تراء في ص ٣٠ و ٣١ ج ٩ هذا ما فتح الله به علينا من أصول وأمها ت هداية هذه السورة الجليلة بمراجعتها المرة بعد المرة مروراً على الآيات بالنظر ، ولو أعدنا قراءتها مع قراءة تفسيرها بالتدبر لظفر لنا أكثر من ذلك وإنما أردنا التلخيص ، ونسأله تعالى أن يجعلها هي وسائر كتابه المجيد حجة لنا لا علينا ويوفق أمتنا للرجوع الى الاهتداء به بالتوبة اليه كما تاب أبوهم وأمهم عليهما السلام

- ﴿ تلميحاً ﴾ -

قد وقع خطأ في عدد آيات هذه السورة بالنسبة الى عدد المصحف الجديد الذي طبعته الحكومة المصرية والفرق بينهما آية واحدة من أول السورة إذ عدت فيه ( المص ) آية ولم نعد لها آية - ثم وافقنا عدده من الآية ١٦٧ الى آخر السورة . وقد اعتمدنا في شواهد خلاصة السورة على عدد المصحف لا التفسير

لأننا استنبطناهما من مراجعة المصحف نفسه غالباً

فليعلم هذا ويتذكر عند مراجعة

شواهد التفسير



# سورة الانفال

- ٨ -

( وهي السورة الثامنة في العدد ووضعت موضع السابعة من السبع الطول مع أنها من المثاني وهي دون المثين التي تلي الطول لما سيأتي - وعدد آياتها ٧٥ آية في عد الكوفي و٧٦ في الحجازي و٧٧ في الشامي )

سورة الانفال مدنية كلها كما روي عن الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت . وقال ابن عباس أنها نزلت في بدر وفي لفظ تلك سورة بدر . وقيل إنها مدنية الا آية ( ٦٤ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ) فقد روى البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب ( رض ) فعلى هذا وضعت في سورة الانفال وقرئت مع آياتها التي نزلت في التحريض على القتال في غزوة بدر لمناسبتها للمقام . وروي عن مقاتل استثناء قوله تعالى ( ٣٠ واذ يمكر بك الذين كفروا ) الآية لان موضوعها اثم قريش بالنبي ﷺ قبيل الهجرة بل في الليلة التي خرج فيها رسول الله ﷺ مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه بقصد الهجرة وباتا في الغار ، وهذا استنباط من المعنى وقد صح عن ابن عباس أن الآية نفسها نزلت في المدينة . وزاد بعضهم عنه استثناء خمس آيات أخرى بعد هذه الآية أي إلى الآية ٣٥ للمعنى الذي ذكرناه آنفا وهو أن موضوعها حال كفار قريش في مكة وهذا لا يقتضي نزولها في مكة ، بل ذكر الله بهارسوله بعد الهجرة . وكل ما نزل بعد خروج النبي ﷺ مهاجرا فهو مدني ووجه مناسبتها لسورة الاعراف أنها في بيان حال خاتم المرسلين ﷺ مع قومه وسورة الاعراف مبيضة لأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم ، هذا هو العمدة وهناك تناسب خاص بين عدة آيات من السورتين يقوي هذا التناسب ولكنه لا يصح أن يكون شيء منه سببا للمقارنة بينهما لان مثل هذا الاتفاق في بعض

المعاني مكرر في أكثر السور الكبيرة ، وأقل هنا عن روح المعاني ما نقله عن السيوطي في وضع هذه السورة هنا وما تعقبه به وهو :

«والظاهر أن وضعها هنا توقيفي وكذا وضع براءة بعدها وهما من هذه الحثيثة كسائر السور ، وإلى ذلك ذهب غير واحد كما مر في المقدمات ، وذكر الجلال السيوطي أن ذكر هذه السورة هنا ليس بتوقيف من الرسول ﷺ للصحابه رضي الله تعالى عنهم كما هو المرجح في سائر السور ، بل باجتهاد من عثمان رضي الله تعالى عنه ، وقد كان يظهر في بادئ الرأي أن المناسب إيلاء الاعراف بيونس وهو لاشتراك كل في اشتمالها على قصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأنها مكية النزول خصوصاً أن الحديث ورد في فضل السبع الطول ، وعدوا السابعة يونس وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البيهقي في الدلائل ففي فصلها من الاعراف بسورتين فصل للنظير من سائر نظائره ، هذا مع قصر سورة الانفال بالنسبة الى الاعراف وبراءة ، وقد استشكل ذلك قديماً حبر الامة رضي الله تعالى عنه فقال لعثمان رضي الله تعالى عنه : ما حملكم على أن عمدتم الى الانفال وهي من المثاني ، والى براءة وهي من المثين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا البسملة بينهما ووضعتموها في السبع الطول؟ ثم ذكر جواب عثمان رضي الله تعالى عنه وقد أسلفنا الخبر بطوله سؤالاً وجواباً ثم قال وأقول يتم مقصد عثمان رضي الله تعالى عنه في ذلك بأمر فتح الله تعالى بها

(الاول) أنه جعل الانفال قبل براءة مع قصرها لكونها مشتملة على البسملة فقدمها لتكون كقطعة منها ومفتتحها ، وتكون براءة لخلوها من البسملة كتتمتها وبقيتها ، ولهذا قال جماعة من السلف إنها سورة واحدة

(الثاني) وضع براءة هنا لمناسبة الطول فانه ليس بعد الست السابقة سورة أطول منها وذلك كاف في المناسبة

(الثالث) أنه خلل بالسورتين أثناء السبع الطول المعلوم ترتيبها في العصر الاول الاشارة الى أن ذلك أمر صادر لاعن توقيف والى أن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يبين كاتبيها فوضعها كالمستعار بخلاف ما لو وضعها بعد السبع الطول فانه كان يوم أن ذلك محلها بتوقيف ، ولا يتوهم هذا على هذا الوضع ، للعلم بترتب

السبع ، فانظر الى هذه الدقيقة التي فتح الله تعالى بها اولاً بفصوص عليها الاغواص  
(الرابع) أنه لو أخرهما وتقدم يونس وأتى بعد براءة يهود كما في مصحف  
أبيّ لمراعاة مناسبة السبع وايلاء بعضها بعضاً لفات مع ما أشرنا اليه أمر آخر أكد  
في المناسبة فان الاولى بسورة يونس أن يؤتى بالسور الخمس التي بعدها لما اشتركت  
فيه من المناسبات من القصص، والافتتاح بالآء، وبذكر الكتاب، ومن كونها مكيات،  
ومن تناسب ما عدا الحجر في المقدار، ومن التسمية باسم نبي، والرعد اسم ملك  
وهو مناسب لاسماء الانبياء عليهم الصلاة والسلام. فهذه عدة مناسبات للاتصال  
بين يونس وما بعدها وهي آكد من هذا الوجه الواحد في تقديم يونس بعد  
الاعراف. ولبعض هذه الامور قدمت سورة الحجر على النحل مع كونها أقصر منها  
ولو أخرت براءة عن هذه السور الست لبعثت المناسبة جداً اطولها بعد عدة  
سور أقصر منها بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر فانها ليست كبراءة في الطول  
«ويشهد لمراعاة الفوائح في مناسبة الوضع ما ذكرناه من تقديم الحجر على النحل  
لمناسبة (الآء) قبلها وما تقدم من تقديم آل عمران على النساء وان كانت أقصر منها  
لمناسبتها البقرة في الافتتاح بالآء، وتوالي الطواسين والحواميم، وتوالي العنكبوت  
والروم ولقمان والسجدة لافتتاح كل بالآء، ولهذا قدمت السجدة على الاحزاب  
التي هي أطول منها. هذا ما فتح الله به علي

«ثم ذكر أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قدم في مصحفه البقرة والنساء  
وآل عمران والاعراف والانعام والمائدة ويونس، راعى السبع الطول فقدم الاطول  
منها فالاطول، ثم نبي بالمئين فقدم براءة ثم النحل ثم هود ثم يوسف ثم الكهف  
وهكذا الاطول فالاطول وجعل الانفال بعد النور، ووجه المناسبة أن كلام مدينة  
ومشتملة على أحكام، وأن في النور (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات  
ليستخلفنهم في الارض) الآية، وفي الانفال (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون  
في الارض) الخ، ولا يخفى ما بين الآيتين من المناسبة فالاولى مشتملة على الوعد  
بما حصل وذكر به في الثانية فتأمل اه كلام السيوطي

(الآلوسي) « وأقول قدم من الله تعالى على هذا العبد الحقير، بما لم ين به على هذا المولى الجليل، والحمد لله تعالى على ذلك حيث أوقفني سبحانه على وجه مناسبة هذه السورة لما قبلها وهو لم يبين ذلك، ثم ما ذكره من عدم التوقيف في هذا الوضع في غاية البعد كما يفهم مما قدمناه في المقدمات، وسؤال الخبر وجواب عثمان رضي الله تعالى عنهما ليسا نصاً في ذلك وما ذكره عليه الرحمة في أول الأمور التي فتح الله تعالى بها عليه غير ملامٍ بظاهرة ظاهر سؤال الخبر رضي الله تعالى عنه حيث أفاد أن اسقاط البسملة من براءة اجتهادي أيضاً، وبستفاد مما ذكره خلافه، وما ادعاه من أن يونس سابعة السبع الطول ليس أمراً مجمعاً عليه، بل هو قول مجاهد وابن جبير ورواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وفي رواية عند الحاكم أنها الكهف، وذهب جماعة كما قال في اتقانه إلى أن السبع الطول أولها البقرة وآخرها براءة، واقتصر ابن الأثير في النهاية على هذا

وعن بعضهم أن السابعة الانفال وبراءة بناء على القول بأنهما سورة واحدة وقد ذكر ذلك الفيروز ابادي في قاموسه، وما ذكره في الامر الثاني يعني عنه ما علل به عثمان رضي الله تعالى عنه فقد أخرج النحاس في ناسخه عنه أنه قال : كانت الأنفال وبراءة يدعيان في زمن رسول الله ﷺ القرينتين فلذلك جعلتهما في السبع الطول . وما ذكره من مراعاة الفوائح في المناسبة غير مطرد فان الجن والكافرون والاخلاص منتتجات يقل مع الفصل بعدة سور بين الاولى والثانية والفصل بسورتين بين الثانية والثالثة وبعد هذا كله لا يخلو ما ذكره عن نظر كما لا يخفى على المتأمل فتأمل . إه ما ذكره الآلوسي رحمه الله تعالى

وأقول ان جواب عثمان لابن عباس ( رضي الله عنهم ) هو كما رواه أحمد وأصحاب السنن الثلاثة وابن حبان والحاكم : كان رسول الله ﷺ ينزل عليه السور ذوات العدد فكان اذا نزل عليه شيء دعا من كان يكتب يقول «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا» وكانت الانفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر انقرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت انها منها، فقبض رسول الله (ص) ولم يبين لنا انها منها. فمن أجل ذلك قرنت

بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتهما في السبع الطول اه  
ولأجل هذه الرواية ذهب البيهقي الى أن ترتيب جميع السور توقيفي  
عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا الانفال وبراءة وواقعه السيوطي . ويرد عليه انه  
لا يعقل أن يرتب النبي ﷺ جميع السور إلا الانفال وبراءة ، وقد صح انه  
ﷺ كان يتلو القرآن كله في رمضان على جبريل عليه السلام مرة واحدة من  
كل عام فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه القرآن مرتين فأين كان يضع هاتين  
السورتين في قراءته ؟ التحقيق ان وضعهما في موضعهما توقيفي وإن فات عثمان  
أو نسيه ، ولولا ذلك لعارضه الجمهور أو ناقشوه فيه عند كتابة القرآن كما روي  
عن ابن عباس بعد سنين من جمعه ونشره في الاقطار

وهذا الحديث قال الترمذي حسن لا يعرفه إلا من حديث عوف (بن أبي جميلة)  
عن يزيد الفارسي عن ابن عباس ، ويزيد الفارسي هذا غير مشهور اختلفوا فيه هل  
هو يزيد بن هرمز أو غيره والصحيح انه غيره ، روى عن ابن عباس وحكي عن  
عبدالله بن زياد وكان كاتبه وعن الخجاج بن يوسف في أمر المصاحف . وسئل عنه يحيى  
ابن معين فلم يعرفه ، وقال أبو حاتم لا بأس به . اه ملخصا من تهذيب التهذيب ، فمثل  
هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها بما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ  
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ  
(٢) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ  
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ  
الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٤) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ  
دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

روى أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال « من قتل قتيلا فله كذا وكذا، ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا » فأما المشيخة ( أي المشايخ ) فقتلوا تحت الرايات . وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : انا كنا لكم رداء ولو كان منكم شيء ، للجأتم إلينا فاختصموا إلى النبي ﷺ ففتزت ( يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ) وذلك في غزوة بدر . وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن سعد بن أبي وقاص أنه قتل سعيد بن العاص وأخذ سيفه واستوهبه النبي ﷺ فمنعه إياه ، وأن الآية نزلت في ذلك فأعطاء إياه لان الأمر وكل إليه ﷺ . وعن ابن جرير أنهم سألوا النبي ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأضراس ففتزت هذه الآية . وجملة القول أنها نزلت في غنائم غزوة بدر تنازع فيها حائزوها من الشبان وسائر المقاتلة . وقيل المهاجرون والأنصار

قال تعالى ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ الأنفال جمع نفل بالتحريك وهو في

أصل للغة من النفل - بفتح وسكون - أي الزيادة عن الواجب ومنه صلاة النفل .  
 قال الراغب النفل قيل هو الغنيمة بعينها لكن اختلفت العبارة عنه لاختلاف  
 الاعتبار فانه اذا اعتبر بكونه مظفورا به يقال له غنيمة ، واذا اعتبر بكونه منحة من الله  
 ابتداء من غير وجوب يقال له نفل ، ومنهم من فرق بينهما من حيث العموم والخصوص  
 فقال الغنيمة كل ما حصل مستغنا بعب كان أو بغير تعب ، وباستحقاق أو بغير استحقاق ،  
 وقيل الظفر كان أو بعده . والنفل ما يحصل للانسان قبل القسمة من جملة الغنيمة ، وقيل  
 هو ما يحصل للمسلمين بغير قتال وهو النبي ، وقيل ما يحصل من المناع قيل ان  
 تقسم الغنائم . وعلى هذا حملوا قوله ( يسألونك عن الانفال ) الآية  
 والمعنى يسألونك أيها الرسول عن الانفال لمن هي ؟ للشبان أم للمشيوخ ؟  
 أو للمهاجرين أم للانصار ؟ قال الانفال لله والرسول ﴿ أي قل لهم الانفال لله بحكم  
 فيها بحكمه وللرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى وقد قسمها ﷺ بالسواء .  
 وهذا لا ينافي التفضيل الذي سيأتي في قوله تعالى ( واعلموا أن ما غنمتم من شيء فان  
 لله خمسة ) الخ فيكون التفضيل ناسخا للاجمال كما قل بجهاهد وعكرمة والسدي فالصواب  
 قول ابن زيد ان الآية محكمة وقد بين الله مصارفها في آية الخمس . وللإمام أن ينفل  
 من شاء من الجيش ماشاء قبل التخميس ﴿ فأتقوا الله ﴾ في المشاجرة والخلاف  
 والتنازع وسيأتي في السورة مضار ذلك ولا سيما في حال الحرب ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾  
 أي أصلحوا نفس ما بينكم وهي الحال والصلة التي بينكم تربط بعضهم  
 ببعض وهي رابطة الاسلام واصلاحها يكون بالتوافق والتعاون والمواساة وترك  
 الاثرة والتنوق ، وبالإيثار أيضا . والبين في أصل اللغة يطلق على الاتصال  
 والاتفاق وكل ما بين طرفين كما قال ( لقد تقطع بينكم ) ويعبر عن هذه الرابطة  
 بذات البين . وأمرنا في الكتاب والسنة بإصلاح ذات البين فهم واجب شرعا  
 تتوقف عليه قوة الامة وعزتها ومنعتها وتحفظ به وحدتها ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾  
 في الغنائم وفي كل أمر ونهي وقضاء وحكم ، فالله تعالى يطاع لذاته لأنه رب العالمين  
 ومالك أمرهم ، والرسول يطاع في أمر الدين لأنه مبالغه عن الله تعالى ، وبين لوجه  
 فيه بالقول والفعل والحكم . وهذه الطاعة له تعبدية لأراي لا أحد فيها وتتوقف عليها



النجاة في الآخرة والفوز بشواهبها، ويطاع في اجتهاده في أمر الدنيا المتعلق بالمصالح العامة ولا سيما الحرب من حيث انه الامام والقائد العام، فمخالفته اخلال بالنظام العام وافساد. إلى الفوضى التي لا تقوم معها الامة قائمة. فهذه الطاعة واجبة شرعا كالأولى إلا أنها معقولة المعنى، فقد أمره الله تعالى في تنفيذ أحكامه وادارته بمشاورة الامة كما تقدم في سورة آل عمران وأشرك معه في هذه الطاعة أولى الامر كما تقدم في سورة النساء، وسيأتي كيف راجعه بعضهم في هذه الغزوة المفصلة أحكامها في هذه السورة ورجع عن رأيه صلى الله عليه وسلم إلى الرأي الذي ظهر صوابه، ولكن الامر الأخير لا بد أن يكون له كما شاورهم في غزوة أحد في الخروج من المدينة أو البقاء فيها. فلما انتهت المشاورة وعزم على تنفيذ رأي الجمهور راجعوه فلم يقبل مراجعة، وقد بينا هذا مع حكمته في تفسير (وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله) وترى في تلك السورة كيف كانت مخالفة الرماة له صلى الله عليه وسلم سبباً في ظهور العدو على المسلمين فراجع تفسير (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) في ص ٢٢٤ الجزء الرابع

ولأئمة المسلمين منهم من حق الطاعة في تنفيذ الشرع وادارة الامور العامة وقيادة الجند ما كان له صلى الله عليه وسلم منه مقيداً بعدم معصية الله تعالى وبمشاورة أولى الامر كما تقدم تفصيله في تفسير (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم) الآية ثم قال تعالى ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي فامتثلوا الأوامر الثلاثة فان الإيمان يقتضي ذلك كله لأن الله تعالى أوجبه، والمؤمن بالله غير المرتاب بوعده ووعيده يكون له سائق من نفسه إلى طاعته إلا أن يعرض له ما يغلبه عليها أحياناً من ثورة شهوة أو سورة غضب، ثم لا يلبث أن يفيء إلى أمر الله ويتوب اليه مما عرض له كما تقدم في تفسير (انما التوبة على الله الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) الخ، ثم وصف الله المؤمنين بما يدل على هذا ويثبته فقال

﴿انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ هذه جملة مستأنفة لبيان حال المؤمنين الذين بين في شرعية الآية قبلها شأنهم من التقوى واصلاح ذات البين في الامة، وطاعة الله ورسوله على قاعدة أن النكرة اذا أعيد ذكرها معرفة تكون عين الاولى

أو بيان حال المؤمنين الكاملي الايمان مطلقاً ليعلم منه أن تلك الامور الثلاثة هي بعض شأنهم ، وقد بين صفاتهم بصيغة الحصر التي يخاطب بها من يعلم ذلك أو ينزل منزلة العالم به الذي لا ينكره وهي « انما » كما حققه امام الفن الشيخ عبد القاهر . وصفهم بخمس صفات

( الصفة الاولى ) قوله ( الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) قال الراغب : الوجل استشعار الخوف . يعني ما يجعل القلب يشعر به بالفعل أو عبر غيره عنه بالفزع والخوف ( وبابه فرح وتعب ) وذلك أن الخوف نوقم أمر مؤلم في المستقبل قد يصحبه شعور الالم والفزع ، وقد يفارقه لضعفه أو لاعتقاده بعد أجله ، فالوجل والفزع أخص منه . وفي سورة الحجر من حوار ابراهيم عليه السلام مع ضيفه المنكرين (١٥: ٥٢) قال انا منكم وجلون ٥٣ قالوا لا وجل ) الخ ، وفي سورة المؤمنين في صفة المؤمنين المشفقين من خشية ربهم ( ٢٣ : ٦١ ) والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم إلى ربهم راجعون اقلوجل هنا مقترن بالعمل الصالح وهو البذل والعطاء ، وفي سورة الحج ( ٢٢ : ٣٢ ) وبشر المحبتين ٢٣ الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ) وهي بمعنى آية الانفال ، وليس للوجل ذكر في غيره هذه الايات ، ويتفق معنى الوجل فيها بأنه الفزع وشعور الخوف بلم بالقلب ، وقد يكون هذا الخوف من العاقبة المجهولة ، وقد يكون من الاجلال والمهابة ، وقد روي عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء : الوجل في القلب كاحترق السعفة ، يا شهر بن حوشب أما تجده له قشعريرة ؟ قلت بلى ، قالت فادع الله فان الدعاء يستجاب عند ذلك . وعن ثابت البناني : قال فلان اني لأعلم متى يستجاب لي ، قالوا ومن أين لك ذلك ؟ قال اذا اقشعر جلدي ، ووجل قلبي ، وفاضت عيناي ، فذلك حين يستجاب لي . وعن عائشة (رض) قالت : ما للوجل في القلب الا كضربة السعفة ، فاذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك . السعفة بالتحريك واحدة السعف وهو جريد النخل اذا احترق بسمع له نشيش ، شبهت به أم المؤمنين وأم الدرداء شعور الوجل بلم بالقلب من ذكر الله فيخفق له   والمراد بذكر الله ذكر القلب لعظمته وسلطانه وجلاله أو لوعيده ووعدده ،

ومحاسبته لحلقه وادانتهم ، وغير ذلك من صفاته وأفعاله سواء صحبه ذكر اللسان أم لا ، وأعظم ذكر اللسان مع القلب ترتيب القرآن بالتدبر ، وقد يقول المؤمن في صلاة التهجد في الخلوة « الله أكبر » مستحضراً لمعنى كبريائه عز وجل فينتفض ويقشعر جلده ، فمن خص الذكر هنا بالوعيد غفل عن كل هذا وظن أن الوجل لا يكون الا من خوف العذاب ، وكأنه لم يذوق طعم الخشية والوجل من مهابة الله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه وغير ذلك من معاني أسمائه وصفاته ، ولم يقرأ قوله تعالى ( انما يخشى الله من عباده العلماء ) ولم يعلم أن من عباد الله من يخشم قلبه ويفيض دمه من ذكر أسماء الله في آخر سورة الحشر ( ٥٩ : ٢٢ ) لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ٢٢ هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم الخ ولا يحد مثل هذا الوجل عند وصف جهنم وذكر الحساب والجزاء . وانما يأخذ مثل هذا معاني القرآن من فهمه لظواهر بعض الالفاظ بدون شعور بما لها من التأثير في القلوب فيقابل بين هذه الآية وما في معناها وبين قوله تعالى في سورة الرعد ( ١٣ : ٢٩ ) الذين آمنوا وطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ) فيظن أن بينهما تعارضاً فيحاول التفصي منه بحمل هذا على ذكر الوعد والآخر على ذكر الوعيد ، ولا تعارض في الحقيقة ولا تنافي ففي كل من الوعد والوعيد وصفات الكمال وذكر آيات الله تعالى في الانفس والآفاق اطمئناناً للقلوب بالايان بالله تعالى والثقة بما عنده ، وغير ذلك مما يأتي بسطه في محله إن شاء الله تعالى . ولا ذكر يضرم سعة الوجل في القلب كتلاوة كلام الرب عز وجل ( ٣٩ : ٢٢ ) الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن بضال الله فما له من هاد )

( الصفة الثانية ) قوله تعالى ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ أي إذا تليت عليهم آياته المنزلة على خاتم أنبيائه صلوات الله عليهم زادتهم إيماناً أي يقينا في الاذعان ، وقوة في الاطمئنان ، وسعة في العرفان ، ونشاطا في الاعمال ، ويطلق الايمان في عرف الشرع على مجموع العلم والاعتقاد والعمل بموجبه وعلى كل منهما والقرائن

تعين المراد ، وفيما رواه البخاري ومسلم في كتاب الايمان من صحيحهما شواهد صريحة في ذلك ومن أهمها أحاديث أقل الايمان المنجى في الآخرة وحديث « الايمان بضعة وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الاذى عن الطريق » ولهذا حمل بعض الناس زيادة الايمان على زيادة العمل اللازم له ، وبعضهم على زيادة ما يتعلق به الايمان الذي فسروه بالتصديق القطعي ، والحق أن الايمان القلبي نفسه يزيد وينقص أيضا فان ابراهيم عليه السلام كان مؤمنا باحياء الله للموتى لما دعاه أن يريه كيف يحييها ( قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ) فقام الطمأنينة في الايمان يزيد على مادونه من الايمان المطلق قوة وكلا ، ويروى عن علي المرتضى كرم الله وجهه : لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا . وهذا أقوى من الايمان بالبرهان وهو أقوى من ايمان التقليد الذي قال به الاكثرون إذ وافق الحق وكان يقينا ، والعلم التفصيلي في الايمان أقوى وأكمل من العلم الاجمالي ، مثال ذلك أن الايمان بتوحيد الله تعالى لا يكمل إلا بمعرفة أنواع الشرك الظاهر والباطن التي تنافيه أو تنافي كماله ومنها ما هو أخفى من ديب النمل ، وقد ورد في الدعاء المأثور « اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئا وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » رواه ابن حبان والحكيم الترمذي في نوادر الاصول وأبو يعلى وغيرهم من حديث أبي بكر (ض) وضعفه ابن حبان والبيهقي وحسنه غيرهما وكم من مدع لتوحيد الله وناطق بكلمة الاخلاص وهو يعبد غير الله بدعائه مع الله أو من دون الله و« الدعاء هو العبادة » رواه أحمد والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم من حديث النعمان ابن بشير مرفوعا ومثل آخر : من آمن بأن الله تعالى علما محيطا بالمعلومات ، وحكمة قام بها نظام الارض والسماوات ، ورحمة وسعت جميع الخلق ، وكان علمه بهن إجماليا لوسأله أن يبين لك شواهد في احتمل منجز عنها - لا يوزن إيمانه بايمان ذي العلم التفصيلي بسنن الله في الكائنات ومعجائب صنعه فيها على النجو الذي جرى عليه العلامة المحقق ابن القيم في كتابه تفصيل النشأتين والامام أبو حامد في كتاب التفكير من الاحياء ، وقد اتسعت معارف البشر بهذه السنن والاسرار في كل نوع من أنواع الخلق فعرفوا منها ما لم يكن يخطر على مشاغلهم لا حد من علماء

القرون الحالية ومن كلام العلماء في ذلك قول الواحدي عن عامة أهل العلم إن من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد . وقال الكرخي ان نفس التصديق يقبل القوة وهي التي عبر عنها بالزيادة للفرق المميز بين يقين الانبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الامة . وضرب الغزالي مثلا لتفاوت قوة الايمان وسائر أنواع العلم بمن يرى شبح إنسان في السدفة ثم يراه بعد وضوح الاسفار على بعد فلا يميز صفاته ثم يراه في نور الشمس بجانبه فهل يكون علمه به في كل هذه الاحوال واحداً؟ وجملة القول أن زيادة الايمان ثابتة بنص هذه الآية وآيات أخرى ركز قوله تعالى في سورة آل عمران في وصف الذين استجابوا لله والرسول اذ دعاهم الى القتال بعد ما أصابهم القرع في غزوة أحد ( ٣ : ١٢٣ ) الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاذهبوا فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ) وفي معناه قوله تعالى في سورة الاحزاب ( ٣٣ : ٢٢ ) وما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله . وما زادهم إلا ايمانا وتسليما ) وعطف التسليم على الايمان هنا يؤكد كون المراد به إيمان القلب لا العمل . وفي معناه قوله تعالى في أول سورة الفتح ( ٤٨ : ٤ ) هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ) فهو في إيمان القلب كما هو المتبادر . وأما آيات وأخر التوبة ( ٩ : ١٢٥ و ١٢٦ ) وآية سورة المدثر ( ٧٤ : ٣١ ) فما يحتمل أن تكون زيادة الايمان فيها زيادة متعلقة بما نزل من القرآن . على أن البخاري استدلل بآتي التوبة وأمثالها على زيادة الايمان في القلوب وعليه جمهور السلف . بل حكى الاجماع عليه الشافعي وأحمد وأبو عبيد كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره . فمن العجب بعد هذا أن تنقل هفوة لبعض العلماء أنكر فيها زيادة الايمان بالمعنى المصدرية لشبهة نظرية ويجعل مذهباً يقلد صاحبه فيه تقليداً ، ونزول الآيات والاحاديث لأجله تأويلاً

( الصفة الثالثة ) قوله تعالى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي يتوكلون على ربهم وحده لا يتوكلون على غيره ولا يفوضون أمورهم الى سواه عز وجل كما أفاده تركيب الجملة . وعن ابن عباس قال : لا يرجون غيره . والتوكل أعلى مقامات التوحيد ، فان من كان موقفاً بان ربه هو المدير لاموره وأمور العالم كلها لا يمكن

أن يكمل شيئاً منها الى غيره ، ولما كان من المعلوم من الشرع والطبع والعقل بالضرورة أن للانسان كسباً اختيارياً كلفه الله العمل به وأن يؤمن بأنه يجازى على عمله ان خيراً فخير وان شراً فشر - وجب على الانسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ما علمه من سنن الله تعالى في نظام الاسباب وارتباطها بالمسببات معتقداً أن الاسباب ما يعقل منها كالانسان وما لا يعقل لم تكن أسباباً الا بتسخير الله تعالى ، وأن ما يناله باستعمالها فهو من فضل ربه الذي سخرها وجعلها أسباباً وعلمه ذلك . وأماماً لا يعرف له سبب يطلب به فالمؤمن يتوكل فيه على الله وحده واليه يتوجه واياه يدعو فيما يطلبه منه ، وأما ترك الاسباب وتنبك سنن الله تعالى في الخلق وتسمية ذلك توكلًا فهو جهل بالله وجهل بدينه وجهل بسننه التي أخبرنا بأنها لا تتبدل ولا تتحول . ومثله فيه كمثل من أمره ملكه أو مالكة بأن يعول في طعامه وشرابه وسائر حاجه عليه ولا يطلب من غيره شيئاً ، وكان ذلك الملك أو المالك قد أعد له ولا مثاله كل يوم مائدة اطعامهم وشرابهم فتنطمع هو وامتنع عن الاختلاف الى المائدة مع أمثاله زاعماً أن هذا عصيان لامر الملك في التحويل عليه وانظر أن يرسل اليه طعاماً خاصاً - أي أنه يطلب من ربه أن يبطل سننه في خاتمه لاجله - فما أعظم جهله وغروره به ؟

وقد تقدم تحقيق معنى التوكل مع بسط القول فيه وكونه يستلزم الاخذ بالاسباب في تفسير ( ٣ : ١٦٠ ) وعلى الله فليتوكل المؤمنون ) من سورة آل عمران فيراجع في ص ٢٠٧ - ٢١٤ وسيأتي التذكير ببعضه في الكلام على توكل النبي ﷺ من تفسير هذه السورة ( الانفال )

( الصفة الرابعة ) قوله تعالى ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ تقدم في تفسير هذه الجملة في أول سورة البقرة وفي تفسير ( واستعينوا بالصبر والصلاة ) منها ، وفي تفسير آيات أخرى في معناها ، وملخصها ان إقامة الصلاة عبارة عن أدائها مقومة كاملة في صورتها وأركانها الظاهرة من قيام وركوع وسجود وقراءة وذكور ، وفي معناها وروحها الباطنة من خشوع وحضور في مناجاة الرحمن ، وتدبير واتعاظ بنلاوة القرآن ، وتقدم ان

هذه الاقامة هي التي يستفيد صاحبها بها ما جعله الله تعالى ثمرة للصلاة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر وغير ذلك مما ارجع في موضعه

( الصفة الخامسة ) قوله تعالى ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي وينفقون بعض ما رزقهم الله في وجود البر من زكاة مفروضة لاقامة درة الاسلام وغير ذلك من النفقات الواجبة والمندوبة للأقربين والمعوزين ومصالح الامة . وتقدم تفسيرها في أول سورة البقرة وفي مواضع أخرى مع التنبيه إلى كثرة ماورد في الكتاب العزيز من جعل الزكاة أو النفقة مقارنة للصلاة لانها العبادتان اللتان عليهما مدار الاصلاح الروحي والاجتماعي في الملة . والتعبير بالانفاق أعم من التعبير بالزكاة كما علمت

﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات كلها هم دون سواهم ممن لم يتصف بها المؤمنون إيماناً حقا أو حق الايمان الذي لا نقص فيه ، أو حق ذلك حقا أو حقيقته حقا ، ذلك بأن الايمان حق الايمان هو . ما عقب التصديق الاذعاني فيه أنه من أعمال القلوب والجوارح وبذل المال في سبيل الله عز وجل . وقد جمعت الصفات التي وصفوا بها كل ذلك بحيث تتبعها سائر شعب الايمان ، تقول العرب فلان شاعر حقا أو فارس حقا لمن نبغ في الشعر ولمن كملت فيه صفات الفروسية . روى الطبراني بسند ضعيف يؤثر لاهبة عن الحارث بن مالك الانصاري (رض) انه مر برسول الله ﷺ فقال له « كيف أصبحت يا حارثة ؟ » قل أصبحت مؤمنا حقا . قال « انظر ماذا تقول فان لكل شي ، حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ » فقال عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يمزأرون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال « يا حارثة عرفت فالزم » ثلاثا . وروي عن الحسن أن رجلا سأله أمؤمن أنت ؟ قال الايمان إيمانان فان كنت تسألني عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن وإن كنت تسألني عن قوله تعالى ( انما المؤمنون ) ... فوالله لأدري أنا منهم أم لا

ثم بيّن تعالى جزاء هؤلاء المؤمنين الكلمة فقال ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ الدرجات منازل الرفعة ومصافي الكرامة وكونها عند الرب تعالى

وذكره مضافاً إلى ضميرهم تنبيهه إلى عظم قدر هذه الدرجات وتكريم لأهلها ،  
 فإن الله تعالى فضل بعض الناس ورفعهم على بعض درجة أو درجات في الدنيا وفي الآخرة  
 وعند الرب عز وجل وهذا الأخير وإن كان يكون في الآخرة فإن وصفه بكونه عند  
 الرب وبإضافة اسم الرب إلى أصحاب الدرجات يدل على مزيد رفعة واختصاص  
 وإذا أردت أن تفقه معنى الدرجات في التفاضل بين الناس فتأمل قوله تعالى بعد  
 بيان تساوي الرجال والنساء في الحقوق (والرجال عليهم درجة) وهي درجة الولاية  
 العامة والخاصة . وقوله تعالى في فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین  
 (٤ : ٩٤ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل  
 الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة ،  
 وكلا وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً (٩٥)  
 درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً) وهنا جمع بين الدرجة والدرجات  
 فقيل الدرجة تفضيلهم في الدنيا وقيل منزلتهم عند الله تعالى والدرجات منازلهم  
 في الجنة . وفي معناه قوله تعالى في تفضيل الأيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله  
 على سقاية الحاج من سورة التوبة (٩ : ٢٠ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في  
 سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) الخ  
 الآيتين بعدها . وقال تعالى في بيان التفاوت والبعد بين متبعي رضوانه ومتبعي  
 سخطه من سورة آل عمران (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون)  
 والظاهر أن العندية هنا عندية الحكم أو الحزاء لا المسكنة لأنها محمولة على الفريقين .  
 وقال تعالى في الرسل (٢ : ٢٥٣ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم  
 من كالم الله ورفع بعضهم درجات) الآية قالوا هذه لنبينا ﷺ ، وقال تعالى  
 في إبراهيم عقب ذكر محاجته لقومه (٦ : ٨٤ وتلك حججتنا آتيناها إبراهيم  
 على قومه نرفع درجات من نشاء) وقال في سياق قصة يوسف مع أخوته عقب ذكر  
 أخذه لأخيه الشفيق منهم بوجه شرعي (١٢ : ٧٦ كذلك كدنا يوسف ما كان ليأخذ  
 أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم)  
 وقال في درجات الدنيا وحدها وهي آخر آية من سورة الانعام (١٦٧.٦ وهو



الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم ) وقال في درجات الدار الآخرة بعد بيان التفاضل في الرزق بين الكفار مرئدي الدنيا وحدها والمؤمنين مرئدي الآخرة (٢١:١٦) انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ) وجملة القول ان الله خلق البشر متفاوتين في الاستعداد والعقول والاعمال واقتضى ذلك بنظام سننه في خلقه تفضيل بعضهم على بعض درجات في الدنيا وفي الآخرة وفي المكانة عند ربهم وهذه الاخيرة عليا الدرجات وأفضلها وقوله تعالى ﴿ ومغفرة ورزق كريم ﴾ معناه ولهم مغفرة من الله لذنوبهم الحقيقية التي سبقت وصولهم إلى درجة الكمال إن كانت كبيرة وما كان من قبيل اللوم ، ولذنوبهم الاضافية التي يحاسبون بها أنفسهم بعد بلوغ الكمال كالغفلة عن ذكر الله حيناً ، وترك الافضل إلى مادونه حيناً آخر ، وفوت بعض أعمال البر الممكنة أحياناً ، وأمثال ذلك مما يعبر عنه بحسنات الابرار سيئات المقربين ، ورزق كريم في الجنة ، والكريم تصف به العرب كل شيء حسن في بابه لا قبح فيه ولا شكوى منه .

(٥) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرَهُونَ (٦) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَانَمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٧) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٨) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَطْلَ وَنُوْكَرَ الْمُجْرِمُونَ

تقدم في تفسير قصة البقرة من سورتها أن سنة القرآن في ذكر القصص والوقائع مخالفة للمعهود في أساليب الكلام من سردها مرتبة كما وقعت ، وإن

سبب هذه المخالفة أنه لا يقص قصة ولا يسرد أخبار واقعة لأجل أن تكون تاريخاً محفوظاً، وإنما يذكر ما يذكر من ذلك لأجل العبرة والموعظة، وبيان الآيات الحكم الإلهية والأحكام العملية. بدأت قصة البقرة بأمر موسى لقومه بذبح بقرة وذكر في آخرها سبب ذلك خلافاً للترتيب المألوف من تقديم السبب على مسببه كتقديم العلة على معلولها والمقدمات على نتيجتها. ولكن أسلوب القرآن البديع أبلغ في بابه كما بسط هنالك وههنا بدأت قصة غزوة بدر الكبرى التي كانت أول مظهر لوعده الله تعالى بنصر رسوله والمؤمنين، والادالة لهم من أكابر مجرمي المشركين، بذكر حكم الغنائم التي غنمها المسلمون منهم - وبألها من براءة مطلع - مقرونًا ببيان صفات المؤمنين الكاملين الذين وعدهم النصر كما وعد النبيين، وهم الذين يقبلون حكم الله وقسمته رسوله في الغنائم - وبألها من مقدمات للفوز في الحرب وغيرها - ثم قفى على ذلك بذكر أول القصة وهو خروج النبي ﷺ من بيته في المدينة وكرهة فريق من المؤمنين لخروجه، خلافاً لما يقتضيه الإيمان من الأذعان لطاعته، والرضاء بما يفعله بأمر ربه، وما يحكم أو يأمر به، كما علم من الشرط في الآية الأولى (إن كنتم مؤمنين) وأعل بيان هذا الشرط وما يليه من بيان صفات المؤمنين حق الإيمان هو أهم ما في هذه السورة على كثرة أحكامها وحكمها وفوائدها الروحية والاجتماعية والسياسية والحربية والمالية

قال تعالى ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ﴾ أي ان الانفال لله يحكم فيها بالحق ورسوله يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية، وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها، والذين كانوا يرون أنهم أحق بها وأهلها، فهي كإخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين في الظاهر، وكون تلك الطائفة هي المتقاتلة في الواقع، والحال ان كثير آمن المؤمنين لكارهون لذلك لعدم استعدادهم للقتال أوله ولغيره من الاسباب التي تعلم مما يأتي - هذا ما أراه المتبادر من هذا التشبيه وقد راجعت بعض كتب التفسير فرأيت للمفسرين فيها بضعة عشر وجهاً أكثرها متكلف وبعضها قريب ولكن هذا أقرب وقد بسطه الامام أبو جعفر بن جرير الطبري باعتبار غايته وما كان من المصلحة فيه وهو حق في نفسه ولكن اللفظ لا يدل عليه، وذكره الزمخشري تبييناً على قواعد الاعراب

ولا يظهر المعنى تمام الظهور في الآيات إلا ببيان ما وقع من ذلك وأجمعه رواية محمد بن إسحاق قال : حدثني محمد بن مسلم الزهري وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير ، وغيرهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس ، كل قد حدثني بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر قالوا لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقيلاً من الشام ندب المسلمين اليهم وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلتكموها فانتدب الناس فحذف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً وكان أبو سفيان قد استنفر حين دن من الحجاز من يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لكواعيرك ، فحذر عند ذلك فاستأجر مضمم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لما في أصحابه ، فخرج مضمم بن عمرو سريعا إلى مكة وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له ذفران فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فاحسن ، ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فاحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ( اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد يعني مدينة الحبشة لجدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير ، ثم قال رسول الله ﷺ « أشيروا علي أيها الناس » وإيما يريد الانصار ، وذلك أنهم كانوا عدد الناس وذلك أنهم حين يابغوه بالعقبه قالوا يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما تمنع منه أبناءنا ونساءنا ، وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الانصار ترى عليها نصرته إلا بمن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن

يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ والله لكانك تريدنا يا رسول الله قال « أجل » فقال فقد آمننا بك وصانناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرك الله فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، أنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء. <sup>(١)</sup> وأهل الله بربك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال « سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم »

﴿ يجادلونك في الحق بعدما تبين ﴾ قال بعض العلماء إن هذه الآية نزلت في مجادلة المشركين للنبي ﷺ في أمر الدين والتوحيد . وهي بهم أليق ، ولكن ما قبلها وما بعدها في بيان حال المؤمنين وما كان من هفوات بعضهم التي محصمهم الله بعدها فتعين كونها فيهم وفاقا لابي جعفر ابن جرير فيه وفي رد ذلك القول ومشايعة ابن كثير له ، وذكر أن مجاهداً فسر الحق هنا بالقتال وكذا ابن إسحاق وعمل الجدال فيه بقوله كراهية للقاء المشركين وإنكراً لمسير قريش حين ذكروا لهم . وبيان ذلك ان المسلمين كانوا في حال ضعف فكان من حكمة الله تعالى أن وعدمهم الله أولاً إحدى طائفتي قريش تكون لهم على الإبهام فتعاقبت آملهم بطائفة العير القادمة من الشام لأنها كسب عظيم لامشقة في إحرازه لضعف حاميتها ، فلما ظهر أمها فاتهم وأن طائفة العير خرجت من مكة بكل ما كان عند قريش من قوة وقربت منهم وتعين عليهم قتالها إذ تبين أنها هي الطائفة التي وعدمهم الله تعالى إذ لم يبق غيرها ، صعب على بعضهم لقاءها على قوتهم وكثرتها ، وضعفهم وقوتها ، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها ، وظنقوا يعتذرون للنبي ﷺ باعتذارات جدلية بأنهم لم يخرجوا إلا للعير لأنه لم يذكر لهم قتالاً فيستعدوا له ، كأنهم يجادلون اثبات ان مراد الله تعالى بإحدى الطائفتين العير بدليل عدم أمرهم بالاستعداد للقتال ،

﴿ ١ ﴾ صبر وصدق كل منهما بضمين جمع صبور وصدق

٦٠٠ وعد الله المسلمين إحدى الطائفتين وإرادته غير ما أرادوا التفسير ج ٩

ولكن الحق تبين بحيث لم يبق للجدال فيه وجه ما - لا بأن يقال ان طائفة العير مراد الله تعالى فانها نجت وذهبت من طريق سيف البحر ولو كانت هي المرادة لما نجت ، ولا بأن يقال اننا لم نعد للقتال عدته فلا يمكننا طلب الطائفة الاخرى - فانه مهما تكن حالها فلا بد من الظفر بها لوعده الله تعالى فلم يبق لجدالهم وجه الا

الجبن والخوف من القتال ولذلك قال ﴿ كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ﴾ أي كأنهم من فرط جزعهم ورعبهم يساقون الى الموت سوقا لا مهرب منه اظهور أسبابه حتى كأنهم ينظرون اليه بأعينهم ، وهي ما ذكرنا من التفاوت بين حالهم وحال المشركين في العدد والعدد والخيل والزاد ، ولكن الله تعالى وعد رسوله والمؤمنين الظفر بهم ، وهذا دليل قطعي لا يتخلف عند المؤمن الموقن ، وما تلك الا أسباب عادية كثيرة التخلف ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، وهكذا أنجز الله وعده وكان الظفر التام للمؤمنين ، وقد بين تعالى ذلك كله بقوله

﴿ واذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ تولى الله تعالى اقامة الحججة عليهم بالحق فيما جادلوا فيه رسوله بالباطل ووجه الخطاب اليهم بعد ان كان الخطاب له (ص) فقالوا اذ يعدكم الله إحدى الطائفتين - العير أو النفير - أنها لكم ، وهذا التعبير أكد في الوعد من مثل : واذ يعدكم الله ان إحدى الطائفتين لكم . لان هذا اثبات بعد اثبات ، اثبات للشيء في نفسه ، واثبات له في بدله

﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ أي وتحبون وتتمنون ان الطائفة غير ذات الشوكة وهي العير تكون لكم لانه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا . والشوكة الحدة والقوة ، وأصلها واحدة الشوك شهبوا بها أسنة الرماح . ثم أطلقوها تجوزاً على كل حديد من السلاح ، فقالوا : شائك السلاح وشاكي السلاح . وإنما

عبر عنها بهذا التعبير للتعريض بكرهتهم للقتال ، وطمعهم في المال ، ﴿ ويريد

الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ أي ويريد الله بوعده غير ما أردتم ، يريد أن يحق الحق الذي أراده بكلماته المنزلة على رسوله أي وعده لكم إحدى الطائفتين

سببها وبيانها له معينة مع ضمان النصر له ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ المعاندين له من مشركي مكة وأعوانهم باستئصال شأفتهم ومحق قوتهم ، فان دابر القوم آخرهم الذي يأتي في دبرهم ويكون من ورائهم ، ولن يصل اليه الهلاك الا بهلاك من قبله من الجيش ، وهكذا كان الظفر بيدرفاتحة الظفر فيما بعدها الى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة ، وما تحلل ذلك من نيلهم من المؤمنين في أحد وحزين فأما كان تربية على ذنوب لهم اقترفوها كما قال تعالى في الأولى ( أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ) الى أن قال ( ولما حص الله الذين آمنوا وبمحق الكافرين ) وقال في الثانية ( ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا - الى قوله - ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ) الخ قال في الكشاف : يعني انكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف الامور وأن لا تتلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم والله عز وجل يريد معالي الامور وما يرجع الى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين ، وشتان ما بين المرادين ، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلبتكم ، وأعزكم وأذلهم ، وحصل لكم مالا تعارض أدناه العير وما فيها .

﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ أي وعد بما وعد وأراد باحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحق الحق أي يقره ويثبتته لانه الحق - وهو الاسلام - ويبطل الباطل أي يزيله ويمحقه - وهو الشرك - ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ أولو الاعتداء والظفیان من المشركين . وإحقاق الحق وابطال الباطل لا يكون باستئلاهم على العير بل بقتل أئمة الكفر والطاغوت من صناديد قريش المعاندين الذين خرجوا اليكم من مكة ليستأصلوكم . وقد علم مما فسرنا به الحق في الآيتين انه لا تكرار فيه ، فالحق الاول هو القتال لطائفة النفي مع ضمان النصر للمؤمنين ، ومحق الكافرين ، والثاني هو الاسلام ، وهو المقصد والاول وسيلة له . وهذا أظهر مما

قاله الزمخشري وابن المنير

(٩) إِذِ اسْتَسْفَيْتُكُمْ بِرَبِّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْأَلْفِ  
 مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ (١٠) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ  
 قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١١) إِذِ  
 يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهِّرَ كُمْ بِهِ  
 وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ  
 (١٢) إِذِ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا.  
 سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرَبُوا  
 مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ  
 وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٤) ذَاكُم فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ  
 عَذَابَ النَّارِ

روى أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن عبد الله بن عباس (رض) قال حدثني عمر بن الخطاب (رض) قال لما كان يوم بدر نظر النبي (ص) إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً، ونظر إلى المشركين فاذا هم ألف وزيادة فاستقبل نبي الله القبلة ثم مد يده وجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر (رض) فأخذ رداؤه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالى (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فلما كان يومئذ والتقوا هزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر سبعون، الخ،

الانفال من ٨ علو درجة الرسول (ص) على الصديق في التوكل والخوف ٦٠٣

وأما البخاري فروى عن ابن عباس قال: قال النبي (ص) يوم بدر « اللهم اني أشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك ، فخرج وهو يقول [ سيهزم الجمع ويولون الدبر ] وعن سعيد بن منصور من طريق عميد الله ابن عبد الله بن عتبة قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثروهم وإلى المسلمين فاستقلهم فركم ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه فقال رسول الله ﷺ وهو في صلاته « اللهم لا تؤدع مني ، اللهم لا تخذاني ، اللهم لا تترني <sup>(١)</sup> اللهم أشدك ما وعدتني » وعن ابن إسحاق في سيرته أنه ﷺ قال « اللهم هذه قريش أتت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولاك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني »

وقد استشكل ما ظهر من خوف النبي ﷺ مع وعد الله له بالنصر عاما وخصوصا ومن طمأنينة أبي بكر (رض) على خلاف ما كان ليلة الغار إذ كان النبي ﷺ آمننا مطمئنا متوكلا على ربه ، وكان أبو بكر خائفا وجلا كما يدل عليه قوله عز وجل ( ٩ : ٤٠ ) إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ) قال الحافظ في الفتح قال الخطابي لا يجوز أن يتوهم أحد أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبي ﷺ في تلك الحال ، بل الحامل للنبي ﷺ على ذلك شفقتة على أصحابه وتقوية قلوبهم لانه كان أول مشهد. شهد فبالغ في التوجه والدعاء والابتهاج لتسكن نفوسهم عند ذلك لانهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة فلما قال له أبو بكر ما قال كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبو بكر في نفسه من القوة والطمأنينة فلماذا عقب بقوله ( سيهزم الجمع ) انتهى ملخصا

١ « هو من وتره يقره » من باب وعد « وله معان متقاربة منها جعله وتره أقطع أهله أو أنصاره ومنها مسه بالاذى ومنها نقصه حقه وظلمه ومنه ( وإن يتركم أعمالكم ) أي إن ينقصكم من جزائها شيئا ، وقوله بعده : أشدك ما وعدتني من نشده ينشده « من باب قتل » ومعناه أشد جزك وعدك إلي بال نصر والغلب



« وقال غيره وكان النبي ﷺ في تلك الحالة في مقام الخوف وهو أكل حالات الصلاة ، وجاز عنده أن لا يقع النصر يومئذ لأن وعده بالنصر لم يكن معيناً لتلك الواقعة وإنما كان مجملاً . هذا الذي يظهر ، وزل من لاعلم عنده ممن ينسب إلى الصوفية في هذا الموضوع زللاً شديداً فلا يلتفت إليه ولعل الخطابي أشار إليه . اه ما أورده الحافظ في الفتح فهو لم يطلع على أحسن منه على سعة اطلاعه وأقول يصح أن يكون من مقاصده ﷺ من الدعاء يومئذ تقوية قلوب أصحابه وهو ما يعبر عنه في عرف هذا العصر بالقوة المعنوية ولا خلاف بين العقلاء حتى اليوم في أنها أحد أسباب النصر والظفر ، ولكن لا يصح أن يكون علم باستجابة الله له لما وجد أبو بكر في نفسه القوة والطمأنينة فعلمه ﷺ بربه وبوقت استجابته له أقوى وأعلى من أن يستنبطه استنباطاً من حال أبي بكر (رض)

وأما قول بعضهم إن النبي (ص) كان يومئذ في مقام الخوف فهو ظاهر ولكنه لم يبين معه سببه ولا كونه لا ينافي كمال توكله على ربه ، وكونه فيه أعلى وأكمل من صاحبه بدرجات لا يعلمها شيء ، وقد بينا ذلك بالتفصيل في تفسير (٣: ١١٠) إن نصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ) وهي في سياق غزوة أحد<sup>(١)</sup> ونعيد البحث مع زيادة فائدة فنقول إنه (ص) اعطى كل مقام حقه بحسب الحال التي كان فيها ، فلما كان عند الخروج الى الهجرة قد عمل مع صاحبه كل ما أمكنها من الأسباب لها وهو إعداد الزاد والراحلتين والدليل والاستخفاء في الغار لم يبق عليها إلا التوكل على الله تعالى والثقة بعموته وتخذيلاً أعدائه فكان ﷺ لكامل توكله آمناً مطمئناً بما أنزل الله عليه من السكينة وأيده به من أرواح الملائكة ، وأبو بكر (رض) لم يرتق إلى هذه الدرجة فكان خائفاً حزيناً محتاجاً الى تسلية الرسول ﷺ له

وأما يوم بدر فكان المقام فيه مقام الخوف لا مقام التوكل المحض ، وذلك أن التوكل الشرعي بالاستسلام لعناية الرب تعالى وحده إنما يصح في كل حال بعد اتخاذ الأسباب لها المعلومة من سرع الله ومن سننه في خلقه كما بيناه في تفسير قوله

تعالى (٣ : ١٥٩) فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ) من ذلك السياق ومن المعلوم بالقطع أن أسباب النصر والغلب في الحرب لم تكن تامة عند المسلمين في ذلك الوقت لا من الجهة المادية كالعدد والعدد والغذاء والعتاد والخيل والابل بل لم يكن من هذه الجهة إلا شيئاً ضعيفاً ، ولا من الجهة المعنوية لما تقدم من كراهة بعضهم للقتال وجدال النبي ﷺ فيه . لهذا خشى ﷺ أن يصيب أصحابه تهلكة على قلتهم لتقصيرهم في بعض الأسباب المعنوية فوق التقصير غير الاختياري في الأسباب المادية ، فكان يدعو بأن لا يؤاخذهم الله تعالى بتقصير بعضهم في اقامة سنه عقاباً لهم كما عقبهم بعد ذلك في غزوة أحد ذلك العقاب المشار اليه بقوله تعالى ( ٣ : أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم )

وأما أبو بكر ( رض ) فلم يكن يعلم من ذلك كل ما بعلمه الرسول ﷺ وقد رآه منزجاً خائفاً فكان همه تسليته ﷺ وتذكيره بوعد ربه لشدة حبه له ، وفي الغار كان خائفاً عليه ولكنه رآه مطمئناً فلم يحتج إلى تسليته بل كان ﷺ هو المسلمي له لما رأى من خوفه أن يعرض له ألم أو أذى ،

فالرسول (ص) هو الذي أعطى كل مقام حقه مقام التوكل المحض بعد استيفاء أسباب اتقاء أذى المشركين عند الهجرة ، ومقام الخوف على جماعة المؤمنين لما ذكرنا آنفاً من كراهة بعضهم للقتال ومجادلتهم له فيه بعد ما تبين لهم أنه الحق الذي يريد الله تعالى بوعد ايام احدى الطائفتين . أجل ، كان ﷺ يعلم ان شؤون الاجتماع البشري كسائر أطوار العالم لله تعالى فيها سنن مطردة لا تتغير ولا تتبدل كما تكرر ذلك في السور المكية بوجه عام ، ثم ذكر بشأن القتال خاصة في الكلام على غزوة أحد من سورة آل عمران المدنية ( قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا ) ثم في سورة الاحزاب المدنية التي نزلت في غزوتها التي تسمى غزوة الخندق أيضاً . وكان صلى الله عليه وسلم يعلم أن سننه تعالى في القتال كسائر سننه في أنها لا تتبدل لها ولا تحوّل من قبل نزول ما أشرنا اليه في هاتين السورتين المدنيتين اللتين نزلتا بعد غزوة بدر فلذلك كان خوفه على المؤمنين عظيماً

( فان قيل ) كيف يصح هذا وقد وعده الله تعالى احدى الطائفتين أنها تكون المؤمنين وكشف له عن مصارع صنديد المشركين ؟ فاذا كان قد جوز أن يكون وعده العام بالنصر له والمؤمنين ( وهو مكرر في السور المكية والمدنية وصرح في بعضها بأنه من سننه في رساله والمؤمنين بهم ) غير معين أن يكون في هذه الغزوة كما قال بعض العلماء ، فلا يأتي مثل هذا الجواز في وعدهم احدى الطائفتين فيها ولا سيما بعد أن نجت طائفة العير ، وانحصر الوعد في طائفة النضير ، وبعد أن كشف تعالى له عن مصارع القوم ؟

( قلنا ) أما كشف مصارع القوم له فالظاهر المتعين أنه كان عقب دعائه واستغاثته ربه ، ولذلك تمثل بعده بقوله تعالى في سورة القمر ( سيهزم الجمع ويولون الدبر ) وزال خوفه وصار يعين أمكنة تلك المصارع . وأما الوعد فسيأتي فيه أنه كان في زمن الاستغاثه والاستجابة فان كان قبله فأمثل ما يقال فيه وأقواه ما قاله العلماء في كثير من وعود الكتاب والسنة المطلقة بالجزء ، على بعض الاعمال بأنه مقيد بما تدل عليه النصوص الاخرى من الايمان الصحيح واجتناب الكبائر ، ومن ذلك أن الوعد المطلق بالنصر المرسل والمؤمنين في عدة آيات مقيد بما اشترط له في آيات أخرى ، مثال الاول قوله تعالى في سورة المؤمن المكية ( ٥١٠ : ٤٠ ) إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ) وقوله في سورة الروم المكية أيضاً ( ٤٥ : ٣٠ ) وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ) ومثال الثاني قوله تعالى في الآيات التي أذن الله فيها للمؤمنين بالقتال دفاعاً عن أنفسهم أول مرة وذلك في سورة الحج المدنية ( ٤٠ : ٢٢ ) ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ) وقوله بعد ذلك في سورة القتال ( أو محمد ) | ٨ : ٤٦ | يأيتها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ] وقد سبق لنا بيان هذا المعنى في التفسير وإقامة الحجة به على المسلمين الجاهلين المفرورين والخرافيين الذين يتكلمون في أمورهم على الصالحاء المبتين في قضاء حوائجهم بنحو ارق العادات ، وتبديل سنن الله في الاسباب والمسببات ، حتى كأن قبورهم معامل للكرامات ، يتهاقت عليها الافراد والجماعات ، يدعون أصحابها خاشعين ، مالا يدعوه الموحدون الا الله رب العالمين . كما فعل رسول الله (ص) وجماعة المؤمنين .

وجملة القول في هذا المقام أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يعلم باعلام القرآن أن النصر في القتال أسبابا حسية ومعنوية ، وأن الله تعالى فيها سننا مطردة ، وأن وعد الله تعالى وآياته منها المطلق ومنها المقيد ، وأن المقيد يفسر المطلق ولا يعارضه ، ولا اختلاف ولا تعارض في كلام الله تعالى ، وكان يعلم مع ذلك أن الله تعالى عناية ونوفاً يمنحه من شاء من خلقه فينصر به الضعفاء على الأقوياء ، والفئة القليلة على الفئة الكثيرة بما لا ينقض به سننه ، وأن نه فوق ذلك آيات يؤيد بها رسله ، فلما عرف من ضعف المؤمنين وقتلهم ما عرف استغاث الله تعالى ودعاه ليؤيدهم بالقوة المعنوية ، ويحفهم بالعناية الربانية ، التي تكون بها القوة الروحانية ، أجدر بالنصر من القوة المادية ، وكان كل من علم بدعائه يؤمن عليه ، وكانوا يتأسون به في هذا الدعاء ، فيستغيثون ربهم كما استغاثه وقد أسند الله اليهم ذلك وأجابهم الى ما سألوا بقوله :

﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ الآية ، قيل إن هذا بدل من قوله تعالى ( وإذ بعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ) وظاهر هذا أن زمن الوعد والاستغاثة والاستجابة واحد على اتساع فيه وحينئذ يرتفع الاشكال الذي أجبنا عنه آنفاً من أصله ، وظاهر الروايات وكلام المفسرين أن الاستغاثة وقعت بعد الوعد وقد وجهوا ذلك بما ليس من موضوعنا بيانه مع القطع بأنه عربي فصيح ، وقيل إنه متعلق بقوله ( ليحق الحق ويبطل الباطل ) أو محذوف علم من السياق ومن نظائره في آيات أخرى تقديره « اذكر » أو « اذكروا » إذ تستغيثون ربكم . والاستغاثة طلب العوث والانتقا من الملكة

﴿ فاستجاب لكم أي ممدكم ﴾ هو في قراءة الجمهور بفتح الهمزة أي بأبي ممدكم ، وقرأها أبو عمرو بكسرها أي قائلًا إني ممدكم أي ناصركم ومغيثكم ﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾ قرأ الجمهور مردفين بكسر الدال من أردفه إذا أركبه وراهه وذلك أن الذي يركب وراء غيره يركب على ردف الدابة غالباً وقرأها نافع ويعقوب بفتحها ، وفي كل منها احتمالات لا يختلف بها المراد . أي يردفونكم أو يردف بعضهم بعضاً ويتبعه ، أو يردفهم ويتبعهم غيرهم . وتقدم في تفسير مثل

هذه الآية من سورة آل عمران وتفسير قوله تعالى ( واخوانهم يمدونهم في الغي ) من الاعراف معنى المدد والامداد في اللغة .

ثم بين تعالى أن هذا الامداد أمر روحاني يؤثر في القلوب فيزيد في قوتها

المعنوية فقال ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ﴾ أي وما جعل عز شأنه هذا الامداد إلا بشرى لكم بأنه ينصركم كما وعدكم ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ أي تسكن بعد ذلك الزلزال والخوف الذي عرض لكم في جهلكم فكان من مجاداتكم للرسول في أمر القتال ما كان . فتلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر ، وسيأتي في

مقابلة هذا إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾

دون غيره من الملائكة أو غيرهم كالاسباب الحسية فهو عز وجل الفاعل للنصر

كغيره مها تكن أسبابه المادية أو المعنوية إذ هو المسخر لها وناهيك بما لا كسب

للشرفيه كتسخير الملائكة لخالط المؤمنين فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان

﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ عزيز غاب على أمره ، حكيم لا يضع شيئاً في غير موضعه

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس رضي الله عنه أنه فسر « مردفين » بالمدد

ويقوله « ملك وراء ملك » وعن الشعبي قال : كان ألف مردفين وثلاثة آلاف

منزليين ، فكانوا أربعة آلاف وهم مدد المسلمين في ثغورهم . وعن قتادة متتابعين ،

أمدم الله تعالى بألف ثم بثلاثة ثم أكلهم خمسة آلاف ( وما جعله الله إلا بشرى

ولتطمئن به قلوبكم ) قال يعني نزول الملائكة عليهم السلام ( قال ) وذكر لنا أن

عمر ( رض ) قال : أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة عليهم السلام كانوا معنا ،

وأما بعد ذلك فالله أعلم . وعن ابن زيد : مردفين قال بعضهم على أثر بعض .

وعن مجاهد في قوله ( وما جعله إلا بشرى ) قال إنما جعلهم الله يستبشر بهم .

هذا جملة ما جمعه في الدر المنثور من المأثور في الآيتين . وظاهر نص القرآن أن

إنزال الملائكة وإمداد المسلمين بهم فائدته معنوية كما تقدم وأهم لم يكونوا محاربيين

وهنالك روايات أخرى في أنهم قاتلوا وسيأتي بحقه . وما قاله الشعبي وكتادة من

العدد لا يقبل إلا بنص من الشارع قطعي الرواية والدلالة لانه خبر عن الغيب

وقد خلطت بعض الروايات بين الملائكة المردين الذين أيد الله بهم المؤمنين في غزوة بدر، وبين الملائكة المنزائين والمسومين الذين ذكر خبرهم في سياق غزوة أحد من سورة آل عمران، وقد حققنا هذا المبحث في تفسير تلك الآيات فيها واعتمدنا في جله على تحقيق ابن جرير وذكرنا فيه ما جاء هنا، وجملته أن الله تعالى أمد المؤمنين يوم بدر بألف من الملائكة كان قوة معنوية لهم وأما يوم أحد فقد حدثهم الرسول ﷺ بالامداد ووعدهم به وعدا معلقا على الصبر والتقوى ولكن انتفى الشرط فانقضى المشروط. ويراجع تفصيل ذلك (في ص ١١٠-١١٦ ج ٤ تفسير) فإنه مفيد في تحقيق ما هنا ولذلك لم نطل الكلام فيه

﴿إذ يغشيك النعاس أمنة منه﴾ هذهمنة أخرى من منته تعالى على المؤمنين، التي كانت من أسباب ظهورهم على المشركين، وهي إلقاءه تعالى النعاس عليهم حتى غشيتهم - أي غلب عليهم فكان كالعاشية تستر الشيء، وتعطيه - تأمينا لهم من الخوف الذي كان يساورهم من الفرق العظيم بينهم وبين عدوهم في العدد والعدد وغير ذلك. روى أبو يعلى والبيهقي في الدلائل عن علي كرم الله وجهه قال ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتى أصبح. وذلك أن من غلب عليه النعاس لا يشعر بالخوف، كما أن الخائف لا ينام، ولكن قد ينعس، والنعاس فتور في الحواس وأعصاب الرأس يعقبه النوم فهو بضعف الإدراك ولا يزيله كله فمتى زال كان نوماً ولذلك قال بعضهم هو أول النوم. وفي المصباح: وأول النوم النعاس وهو أن يحتاج الإنسان إلى النوم، ثم الوسن وهو ثقل النعاس، ثم الترنيق وهو مخالطة النعاس للعين، ثم السكرى والغمض وهو أن يكون الإنسان بين النائم واليقظان، ثم العفوق وهو النوم وانت تسمع كلام القوم، ثم الهجود والهجو عاه وهو يفيد أن الوسن والترنيق درجتان من درجات النعاس وأن السكرى مرتبة فاصلة بين النعاس والنوم، وفي المصباح أيضا أن النعاس اسم مصدر لنعس من باب قتل، والجمهور على أنه من باب فتح فهو من البابين، وضعوا اسمه بوزن فعال بالضم كأنهم عدوه من الأمراض كالسعال والفواق واللكباد وقال علي (رض) أنهم ناموا يومئذ وظاهر عبارته أنهم ناموا في الليل والمتبادر

ان نعاسهم كان في أثناء القتال، وقد ذكرنا الخلاف في ذلك وتحقيق الحق فيه في تفسير قوله تعالى ( ٣ : ١٥٤ ) ثم انزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يغشى طائفة منكم ) وهو في سياق غزوة أحد . وقلت هنالك : قد تقدم في ملخص القصة ذكر هذا النعاس وأنه كان في أثناء القتال ، وانما كان مانعا من الخوف لانه ضرب من الدهول والغفلة عن الخطر ، ولكن روي ان السيوف كانت تسقط من أيديهم واخبار الاستاذ الامام انه كان بعد القتال الخ فيحسن مراجعته ففيه الكلام على النعاس يوم بدر أيضا وهو في ( ص ١٨٥ : ١٨٦ ج ٤ تفسير )

قرأ الاكثرون ( يغشاكم ) بالتشديد من النغشية وهو إما للتدريب وإما للمبالغة في التغطية ، وقرأه نافع بالتخفيف من الاغشاء ، وقرأه ابن كثير وابو عمرو ( يغشاكم ) من الثلاثي ورفع النعاس على انه فاعله ، وهذا لا يخالف القراءتين قبله بل هو كالمطامع لها ومعنى الثلاثة أن الله تعالى جعل النعاس يغشاكم فغشاكم ، وأما صيغ الفعل ودلالة قراءة التشديد على التدريب أو المبالغة دون قراءة التخفيف فيحمل اختلافهما على اختلاف حال من غشيهنم النعاس فهو لا يكون عادة الا بالتدريب ويكون أشد على بعض الناس من بعض ، وقد ذكرنا بحث صيغة ( غ ش ي ) في اللغة في تفسير سورة الاعراف .

﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، ويربط على قلوبكم ، ويثبت به الاقدام ﴾ وهذه منة تالفة منه عز وجل على المؤمنين ، كان لها شأن عظيم في انتصارهم على المشركين ، روى ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جرير عن ابن عباس (رض) ان المشركين غالبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء فظمى المسلمون وصلوا مجنبيين محدثين ، وكان بينهم رمال فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن وقال أتزعمون ان فيكم نبيا وانكم أولياء الله وتصلون مجنبيين محدثين ؟ فانزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادي ماء فشرب المسلمون وتطهروا وثبتت أقدامهم ( اي على الدهاس او الرمل اللين لتلبده بالمطر ) وذهبت وسوسته . هذا أثبت وأوضح وأبسط ما ورد في المأثور عن هذا المطر في بدر ، وعن مجاهد انه كان قبل النعاس خلافا لظاهر الترتيب في الآية والواو لاتوجهه .

ولولا هذا المطر لما أمكن المسلمين القتال لانهم كانوا رجالا ليس فيهم الا فارس واحد هو المقداد كما تقدم وكانت الارض دهاسا تسبخ فيها الاقدام أو لا تثبت عليها . قال المحقق ابن القيم في الهدى النبوي : وانزل الله عز وجل في تلك الليلة مطرا واحدا فكان على المشركين وابلا شديدا منهم من التقدم ، وكان على المسلمين طلا ظهرهم به واذهب عنهم رجس الشيطان ، ووطأ به الارض وصلب الرمل ، وثبت الاقدام ، ومهد به المنزل ، وربط على قلوبهم . فسبق رسول الله واصحابه الى الماء فنزلوا عليه شطر الليل وصنعوا الخياض ثم غوروا ماعداها من المياه ، ونزل رسول الله ﷺ وأصحابه على الخياض ونبي لرسول الله ﷺ عريش يكون فيها على تل مشرف على المعركة ومشى في موضع المعركة وجعل يشير بيده « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله تعالى » فما تعدى أحد منهم موضع اشارته اه

وقد ذكر ابن هشام مسألة المطر بنحو مما قال ابن القيم ثم قال :

قال ابن اسحاق فحدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا ان الحباب بن المنذر ابن الجوح قال يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمئزلا أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا ان نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال « بل هو الحرب والرأي والمكيدة » قال يارسول الله فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فنزله ثم نغور ما وراءه من القلب [ بضمين جمع قليب وهي البئر غير المطوية أي غير المبنية بالحجارة ] ثم نبي عليه حوضا فتملؤه ماء ثم تقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال رسول الله ﷺ « لقد أشرت بالرأي » وذكر أنهم فعلوا ذلك ذكر تعالى لذلك المطر أربع منافع ( الأولى ) تطهيرهم به أي تطهيراً حسيماً بالنظافة التي تشرح الصدر وتنشط الاعضاء . في كل عمل - وشرعياً بالغسل من الجنابة والوضوء من الحدث الاصغر ( الثانية ) اذهاب رجز الشيطان عنهم . والرجز والرجس والرأس كلها بمعنى الشيء المستقدر حساً أو معنى والمراد هنا وسوسته كما تقدم في المأثور ( الثالثة ) الربط على القلوب ويعبر به عن تثبيتها وتوطئتها على الصبر كما قال تعالى ( ٢٨ : ٩ ) وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت أن تبدي به لولا أن ربطنا



على قلبها . وتأثير المطر في القلوب تفسره المنفعة ( الرابعة ) وهو تثبيت الاقدام به فان من كان يعلم أنه يقاتل في أرض تسوخ فيها قدمه كلما تحرك وهو قد يقاتل فارساً لا راجلاً لا يكون إلا وجلاً مضطرب القلب .

﴿ اذ يوحى ربك إلى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ الظرف هنا غير بدل من اذ ، في الآيات التي قبله ولا متعلق بما تعلق به بل هو متعلق بيبثت والمعنى أنه يثبت الاقدام بالمطر في وقت الكفاح الذي يوحى فيه ربك إلى الملائكة أمرأ لهم أن يثبتوا به الانفس ، لا يستهم لها واتصالهم بها وإلهامها تذكر وعد الله لرسوله وكونه لا يخلف الميعاد ، والمعية في قوله « اني معكم » معية الاعانة كقوله [ إن الله مع الصابرين ]

﴿ سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ الرعب بوزن قفل اسم مصدر من رعبه ( وتضم عينه ) وبه قرأ ابن عامر والكسائي ومعناه الخوف الذي يملأ القلب ، ولما فيه من معنى الملاء يقال رعبت الحوض أو الاناء أي ملأته ، ورعب السيل الوادي . وقيل أصل معناه القطع إذ يقال رعبت السنام ورعبته ترعبيا اذا قطعته طولا ، وفسره الراغب بما يجمع بين المعنيين فقال الرعب الاتقطاع من امتلاء الخوف اه . ويقال رعبته [ من بات فتح ] وأرعبته ، وأبلغ منه تعبير التنزيل بالقاء الرعب وبذف الرعب في القلب لما فيه من الاشعار بأنه

يصب في القلوب دفعة واحدة ﴿ فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ أي فاضربوا الهام وافلقوا الرؤوس - أو اضربوا على الاعناق - واقطعوا الأيدي ذات البنان التي هي اداة التصرف في الضرب وغيره وهو متعين في حال هجوم الفارس من الكفار على الراجل من المسلمين فاذا لم يسبق هذا الى قطع يده قطع ذلك رأسه . والبنان جمع بنانة وهو أطراف الاصابع

وفي تفسير ابن كثير عن بعض المغازي ان النبي ﷺ جعل يمر بين القتلى يبر - أي بعد انتهاء المعركة - ويقول « نفاق هاما » فيتم البيت أبو بكر « رض » وهو نفاق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلم

وهو يدل على ألمه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله من الضرورة التي اضطرتهم إلى قتل صنائيد قومه . واسم التفضيل في أعق وأظلم هنا على غير بابها مراعاة للاظهار

فان المشركين وخدمهم هم الذين عقوه صلى الله عليه وسلم وظلموه هو ومن آمن به حتى اخرجوهم من وطنهم بغيا وعدوانا ثم تبعوهم الى دار هجرتهم يقاتلونهم فيها ، وروي انه اوصى بنفر من بني هاشم آله اخرجوا مع المشركين كرها أن لا يقتلوا ، كان منهم عمه العباس (رض) ولم يكن أسلم

مقتضى السياق ان وحي الله للملائكة قد تم بامرہ ايام بتثبيت المؤمنين كما يدل عليه الحصر في قوله عن امداد الملائكة [وما جعله الله الا بشرى | الخ. وقوله تعالى [ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب | الخ بد. كلام خوطب به النبي (ص) والمؤمنون تنمة للبشرى فيكون الأمر بالضرب موجها إلى المؤمنين قطعاً وعليه المحققون الذين جزموا بان الملائكة لم تقابل يوم بدر تبعاً لما قبله من الآيات وقيل ان هذا مما أوحى إلى الملائكة ، وتأوله هؤلاء ، بانه تعالى أمرهم بأن يلقوا هذا المعنى في قلوب المؤمنين بالالهام كما كان الشيطان يخوفهم ويلقي في قلوبهم ضده بالوسواس . ولا يرد على الأول ما قيل من أنه لا يصح الا اذا كان الخطاب قد وجه الى المؤمنين قبل القتال والسورة قد نزلت بعده - لأن نزول السورة بنظمها وترتيبها بعده لا ينافي حصول معانيها قبله وفي أثناءه ، فان البشارة بالامداد بالملائكة وما وليه قد حصل قبل القتال واخبر به النبي صلى الله عليه وسلم اصحابه ، ثم ذكرهم الله تعالى به بانزال السورة برمتها تذكيراً بمنته ، ولولا هذا لم تكن لبشارة تلك الفائدة ، والخطاب في السياق كله موجه الى المؤمنين وانما ذكر فيها وحيه تعالى للملائكة بما ذكر عرضاً . وقد غفل عن هذا المعنى الآلوسي تبعاً لغيره وادعى ان الآية ظاهرة في قتال الملائكة ، وقد وردت روايات ضعيفة تدل على قتال الملائكة لم يعياً الامام ابن جرير بشيء منها ولم يجعلها حقيقة أن تذكر ولو اترجيح غيرها عليها

وما ادرى اين يضع بعض العلماء عقولهم عند ما يفترون ببعض الظواهر وبعض الروايات الغريبة التي يرددها العقل ، ولا يثبتها ماله قيمة من النقل فاذا كان تأييد الله للمؤمنين بالتأييدات الروحانية التي تضاعف القوة المعنوية ، وتسهيله لهم الاسباب الحسية كانزال المطر وما كان له من الفوائد لم يكن كافياً لنصره إياهم على المشركين بقتل سبعين وأسر سبعين حتى كان ألف - وقيل آلاف - من

الملائكة يقاتلونهم معهم فيمقتون منهم الهام ، ويقطعون من أيديهم كل بنان ،  
 فأى مزية لأهل بدر فضلوا به على سائر المؤمنين ممن غزوا بعدهم وأذلوا المشركين  
 وقتلوا منهم الأوف ؟ وماذا استحقوا قول الرسول ﷺ لعمر (رض) « وما يدريك  
 لعل الله عز وجل اطلم على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ؟ » رواه  
 البخاري ومسلم وغيرهما . وفي كتب السير وصف للمعركة عُلم منه القاتلون  
 والآسرون لأشد المشركين بأساً - فهل تعارض هذه البيئات النقلية والعقلية  
 بروايات لم يرها شيخ المفسرين ابن جرير حريية بأن تنقل . ولم يذكر ابن كثير منها  
 الا قول الربيع بن أنس كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة من قتلوا  
 بضرب فوق الاعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به . ومن أين جاء الربيع  
 بهذه الدعوى ؟ ومن ذا الذي رؤي من القتلى بهذه الصفة ؟ وكم عدد من قتل  
 الملائكة من السبعين وعدد من قتل أهل بدر غير من سمو اوقالوا قتلهم فلان وفلان ؟  
 كفانا الله شر هذه الروايات الباطلة التي شوهت التفسير وقلبت الحقائق حتى انها  
 خالفت نص القرآن نفسه ، فالله تعالى يقول في إمداد الملائكة ( وما جعله الله الا  
 بشري ولتطمئن به قلوبكم ) وهذه الروايات تقول بل جعلها مقاتلة وان هؤلاء  
 السبعين الذين قتلوا من المشركين لم يمكن قتلهم الا باجماع الف أو أوف من  
 الملائكة عليهم مع المسلمين الذين خصهم الله بما ذكر من أسباب النصر المتعددة !  
 ألا ان في هذا من شأن تعظيم المشركين ورفع شأنهم وتكبير شجاعتهم وتصغير  
 شأن أفضل أصحاب الرسول وأشجعهم مالا يصدر عن عاقل الا وقد سلب عقله  
 لتصحيح روايات باطلة لا يصح لها سند ولم يرفع منها الا حديث مرسل عن  
 ابن عباس ذكره الآلوسي وغيره بغير سند وابن عباس لم يحضر غزوة بدر لانه  
 كان صغيراً فرواياته عنها حتى في الصحيح مرسله وقد روى عن غير الصحابة  
 حتى عن كعب الاحبار وأمثاله

﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أي ذلك الذي ذكره كاه من تأييده تعالى  
 للمؤمنين وخذلانه للمشركين بسبب انهم شاقوا الله ورسوله أي عادوها فكان

كل منهما في شق غير الذي فيه الآخر فله هو الحق والداعي إلى الحق ورسوله هو المبالغ عنه الحق ، والمنشركون على الباطل وما يترتب عليه من الشرور والخرافات ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ أي فإن عقاب الله شديد ، وأحق الناس به المشاقون له بإيثار الشرك وعبادة الطاغوت على توحيده وعبادته ، وبالأعتداء على أو أيلائه أولاً بمحاولة ردهم عن دينهم بالقوة والقهر وإخراجهم من ديارهم ثم اتباعهم إلى مهاجرهم بقائلوهم فيه

﴿ ذلكم فذوقوه ﴾ الخطاب للمشركين المنكسرين في غزوة بدر أي لمن بقي منهم من الأسرى والمهزومين على طريق الانتقام عن الغيبة في قوله تعالى قبله ( بأنهم شاقوا الله ورسوله ) والمعنى الأمر ذلكم — أي إن الأمر المبين آنفاً وهو أن الله تعالى شديد العقاب لمن يشاققه ورسوله — فذوقوا هذا العقاب الشديد وهو الانكسار والانهزام مع الحزبي والذل أمام فئة قليلة العدد والعدد من المسلمين ، ﴿ وإن للكافرين عذاب النار ﴾ هذا عطف على ما قبله أي والأمر المقرر مع هذا العقاب الدنيوي أن للكافرين عذاب النار في الآخرة ، فمن أصر منكم على كفره عذب هنالك فيها وهو شر العذابين وأدومها ، وفي الجمع بين عذاب الدنيا والآخرة للكفار آيات متفرقة في عدة سور

(١٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُتِلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا خِذَافًا فَأْتُوا لَهُمْ  
 الْأَذْيَارَ (١٦) وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ ذُرَّهُ إِلَّا مَتَجَرَّ فَالْقِتَالِ أَوْ مَتَجِيزًا  
 إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبئسَ الْمَصِيرُ  
 (١٧) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ  
 رَمَىٰ ، وَيُؤَيِّدُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَائًا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ  
 (١٨) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ (١٩) إِنْ تَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَانَا لَنُقَاتِلَنَّ  
 الْفَتَحَ وَإِنْ تَتَّبِعُوا فَبِهِمْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَإِنْ تُفِيئُوا نَفْسَكُمْ  
 فَتُكْفَمُ شَيْئًا وَإِنْ كَثُرْتَ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ

نبدأ بتفسير الالفاظ الغريبة في الآيات فنقول (الزحف) مصدر زحف اذا مشى على بطنه كالحية ، أو دب على مقعده كالصبي ، أو ، على ركبتيه قال امرؤ القيس :

فأقبلت زحفا على انركبتي من فتوب لبست وثوب أجر

والمشي بثقل في الحركة واتصال وتقارب في الخطو كزحف الدب ( صغار الجراد قبل طيرانها ) قال في الاساس : وزحف البعير وأزحف : أعيا حتى جر فرسنة وزحفت الشيء جره جراً ضعيفاً ، وزحف العسكر الى العدو : مشوا اليهم في ثقل للكثيرينهم ، ولقوم زحفاً ، وتزاحف القوم وزاحفناهم ، وأزحف لنا بنو فلان صاروا زحفاً لقتالنا . اهـ ملخصاً والزحف الجيش ويجمع على زحوف لخروجه عن معنى المصدرية . ( والادبار ) جمع دبر (بضمين) وهو الخلف ومقابلته القبل بوزنه وهو القدام ، ولذلك يكنى بهما عن السواتين . وتولية الدبر والادبار عبارة عن الهزيمة لان المهزم يجعل خصمه متولياً ومتوجها الى دبره ومؤخره ، وذلك أعون له على قتله اذا أدركه ( والمتحرف ) للقتال أو غيره هو المنحرف عن جانب الى آخر وأصله من الحرف وهو الطرف ، وصيغة التفعيل تعطيه معنى التكلف أو معاناة الفعل المرة بعد المرة أو بالتدرج وفي معناه ( المتحيز ) وهو المنتقل من حيز الى آخر ، والحيز المسكان ، ومادته الوار ، فالحوز المسكان يدنى حوله حائط ، قال في الاساس : انحاز عن القوم : اعتزلهم ، وانحاز اليهم وتحيز انضم . وذكر جملة الآية ( والفتنة ) الطائفة من الناس ( والمأوى ) الملجأ الذي يأوي اليه الانسان وينضم و ( موهن ) الشيء مضعفه اسم فاعل من أوهنه أي أضعفه ومثله وهنه وهنا ووهنه توهينا . و ( الكيد ) التدبير الذي يقصد به غير ظاهره فتسوء غايته المكيد به كما تقدم في تفسير الآية ١٨٣ من سورة الاعراف . والاستفتاح طلب الفتح والفصل في الامر ، كالتصريح في الحرب

والمعنى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا قمتموا الذين كفروا زحفا ﴾ أي اذا قمتموهم حال كونهم زاحفين زحفا لقتالكم كما كانت الحال في غزوة بدر فان الكفار هم الذين زحفوا من مكة الى المدينة لقتال المؤمنين فقفوهم في بدر ﴿ فلاتولوهم الادبار ﴾

أي فلا تولوهم ظهوركم وأفقيتكم منهزمين منهم وان كانوا أكثر منكم عدداً وعداداً، وإذا كان التزاحف من الفريقين أو كان الزحف من المؤمنين فتحريم الفرار والمهزبة أولى، وافظ لقيتوهم زحفا يصلح الاحوال الثلاثة ورجح الاول هنا بقريظة لحال التي نزلت فيها الآية وكون النهي عن التولي والفرار إنما يليق بالزحوف عليه لأنه مظنة له، ويليه ما اذا كان التزاحف من الفريقين . وأما الزاحف المهاجم فليس مظنة للتولي والانهزام فيبدأ بالنهي عنه وهو منه أقبح ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ عبر بنفط تولية الدبر في وعيد كل فرد كما عبر به في نهى الجماعة لتأكيد حرمة جريرة الفرار من الزحف وكون الفرد فيها كالجماعة وآثر هذا اللفظ مفرداً وجمعاً على لفظ الظهور والظاهر أو القفا والأقفية زيادة في تشنيعها لأنه لفظ ينكح به عن السوأة أي وكل من يولهم يومئذ تلقونهم دبره ﴿ إلا متحرفا لقتال ﴾ أي إلا متحرفا لمكان من أمكنة القتال رآه أخرج إلى القتال فيه — أو متحرفا لضرب من ضروبه رآه أبلغ في النكالية بالعدو كأن يولهم خصمه أنه منهزم منه ليغربه باتباعه فينفرد عن أشياعه فيكرّ عليه فيقتله ﴿ أو متحيزاً الى فئة ﴾ أي منتقلاً الى فئة من المؤمنين في حيز غير الذي كان فيه اينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم ، فصاروا أخرج اليه ممن كان في حيزهم ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾ أي فقد رجع متلبساً بغضب عظيم من الله عليه ﴿ وماواه جهنم وبئس المصير ﴾ وماواه الذي يلجأ اليه في الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير جهنم ، كان المنهزم أراد ان يأري الى مكان يأمن فيه من الهلاك فعوقب على ذلك بجعل عاقبته التي يصير اليها دار الهلاك والعذاب الدائم، أي جوزي بضعه من معصية الفرار، وقد تكرر في التنزيل التعبير عن جهنم والنار بالمأوى وهو إما من قبيل ما هنا وإما للتمكّم المحض ، فانك إذا راجعت استعمال هذا الحرف في غير هذا المقام من التنزيل تجده لا يذكر الا في مقام النجاة من خوف أو شدة كقوله تعالى ( إذ أوى الفتية الى الكهف ) وقوله ( أو أوى الى ركن شديد ) وقوله ( سآوى الى جبل يعصمي من الماء ) وقوله ( والذين آروا ونصروا ) الخ والآية تدل على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصي وقد جاء التصريح

بذلك في أحاديث أصحابها عن أبي هريرة صرفوا عن عند الشيخين «اجتنبوا السبع الموبقات» أي المهلكات، قالوا يارسول الله وماهن؟ قال «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم واتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وقد قيد بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لا يزيدون على ضعف المؤمنين، وعدَّ بعضهم الآية منسوخة بقوله تعالى من هذه السورة (٦٦ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) الآية وستأتي. وهذا ظاهر على قول من يسمي التخصيص نسخا كالمقدمين. قال الشافعي رحمه الله تعالى: إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة. وإن كان المشرك كون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ولا يستوجبون السخط عندي من الله لو ولوا عنهم على غير التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة، وروى هو وابن أبي شيبة عن ابن عباس قال: من فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فر وقدر روى عن عمر وابنه وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي بصرة وعكرمة ونافع والحسن وقنادة وزيد بن أبي حبيب والضحاك أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية خاص بيوم بدر - قيل إنه بناء على أن قوله تعالى (يومئذ) يراد به يوم بدر، ولكن هذا خلاف قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويؤيده نزول الآية بعد انتهاء الغزوة، فإنه ليس فيها ذكر «يوم بدر» وإنما المراد بتدوين يومئذ ما فهم من أول الآية أي يوم لقائهم زحفا كما تقدم فاليوم فيه بمعنى الوقت. وإنما قد توجه بناء التخصيص على قرينة الحال لو كانت الآية قد نزلت قبل اشتباك القتال - خلافا للجمهور - مع ما لغزوة بدر من الخصائص ككونها أول غزوة في الإسلام لو انهزم فيها المسلمون والنبي ﷺ فيهم لكانت الفتنة كبيرة، وتأيد المسلمين فيها الملائكة يثبتونهم، ووعدته تعالى بنصرهم وإتمام الرعب في قلوب أعدائهم - فإذا نظرنا إلى مجموع الخصائص وقرينة الحال في النهي أتجه كون التحريم المقرون بالوعيد الشديد الذي في الآية خاصا بها، أضف إلى ذلك أن الله تعالى امتحن الصحابة (رض) بالتولي والادبار في القتال مرتين مع وجوده ﷺ معهم: يوم أحد وذيه يقول الله تعالى (٣: ١٥٥) ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض

ما كسبوا وقد عفا الله عنهم ان الله غفور حلیم ) ويوم حنين وفيه يقول الله تعالى ( ٢٥:٩ ) لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتمكم فلم تغرن عنكم شيئاً وضاعت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ( ٢٦ ) ثم أنزل الله سكنته على رسوله وعلى المؤمنين ( الح وهذا لا ينافي كون التولي حراماً ومن الكفار ، ولا يقتضي أن يكون كل تول غير السببين المستثنين في آية الانفال يوء صاحبه بغضب عظيم من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . بل قد يكون دون ذلك ويتقيد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة وبالنهى عن القاء النفس في التهلكة من حيث عمومها كما تقدم في سورة البقرة وسيأتي تفصيله قريباً

وقد روى أحمد وأصحاب السنن الا النسائي من حديث ابن عمر قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فخاص الناس حيصة (١) وكنت فيمن خاص ، فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا باغضب ؟ ثم قلنا لو دخلنا المدينة فبئنا ، ثم قلنا لو عرضنا نفوسنا على رسول الله ﷺ فان كان لنا توبة والا ذهبنا . فأتينا قبل صلاة الغداة (٢) فخرج فقال « من الفرارون ؟ » فقلنا نحن الفرارون . قال « بل أنتم العكارون (٣) أنا فتتكم وفئة المسلمين » قال فأتينا حتى قبلنا يده . ولفظ أبي داود : فقلنا ندخل المدينة فنبيت فيها لنذهب ولا يرانا أحد ، فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فان كانت لنا توبة أقننا وإن كان غير ذلك ذهبنا ، فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر فلما خرج قلنا اليه فقلنا نحن الفرارون الح ، تأول بعضهم هذا الحديث بتوسم في معنى التحيز إلى فئة لا يبقى معه للوعيد معنى ولا للغة حكم ، وقد قال الترمذي فيه : حسن لا نعرفه الا من حديث يزيد بن أبي زياد . أقول وهو مختلف فيه ضعفه الكثيرون ، وقال ابن حبان كان صدوقاً الا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فوقعت المناكير في حديثه فمن سمع منه قبل التغير صحيح . وجملة القول أن هذا الحديث لا وزن له في هذه المسألة لامتناناً ولا سنداً ، وفي معناه أثر عن عمر هو دونه فلا بوضع في ميزان هذه المسألة

« ١ » خاص عن الشيء حاد وهرب « ٢ » أي الصبح « ٣ » العكار كالعطاف

والكرار لفظاً ومعنى



وأما قوله ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ ولكن الله قتلهم ﴿ فهو وصل للنهي عن التولي بما هو حجة على جدارتهم بالانتها ، فان كانت الآية التي قبله قد نزلت بعد انتهاء القتال في غزوة بدر كسائر السورة كما عليه الجمهور فوجه الوصل بالفاء ظاهر جلي ، كأنه يقول يا أيها المؤمنون لا تولوا الكفار ظهوركم في القتال أبدا ، فانتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم بنصر الله تعالى ، فيها أنتم أولاً ، قد انتصرتم عليهم على قلة عددكم واعددكم وكثرتهم واستعدادهم ، وإنما ذلك بتأييد الله تعالى لكم ، وربطه على قلوبكم وثبتت أقدامكم ، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذريع بمحض قوتكم واستعدادكم المادي ولكن الله قتلهم بأيديكم بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملاستها لأرواحكم ، وباللقاءه الرعب في قلوبهم ، فهو بمعنى قوله عز وجل ( ٤١ : ٩ ) قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ) الآية ، والمؤمن أجدر بالصبر الذي هو الركن الاعظم للنصر من الكافر ، لأنه أقل حرصا على متاع الدنيا ، وأعظم رجاء بالله والدار الآخرة كما قال تعالى ( ولا تهنوا في ابتغاء القوم ، ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون ) وقال حكاية لرد المؤمنين بهذا الرجاء ، على الخائفين من كثرة الاعداء . ( كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ) ثم التفت عن خطاب المؤمنين المقاتلين بأيديهم ، وانجند لين لصناديد المشركين بسببهم ، الى خطاب قائدهم وهو الرسول المؤيد منه تعالى بالآيات ( ص ) ومنها أنه رمى المشركين يومئذ بقبضة من التراب قائلا « شأهت الوجوه » فأعقت رميته هزيمتهم ، وروى عن أبي معشر المدني عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي بالمعنى وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ان النبي ( ص ) لما قال في استغاثته يوم بدر « يارب إن تهلك هذه العصاة فلن تعبد في الارض أبدا » قال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم - ففعل فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين . وروى السدي انه ( ص ) طالب من علي أن يعطيه حصبا من الارض فناوله حصبا عليه تراب فرماهم به الخ . وعن عروة ومجاهد وعكرمة وفتادة أيضا أن الآية في رميه ( ص ) في بدر . فاذا لم تكن رواية من هذه الروايات وصلت الى درجة الصحيح فجمعها

مع القرينة حجة على ذلك . وروي مثل هذه الرمية في غزوة حنين فحمل الآية بعضهم على ذلك وهو شاذ وحملها بعضهم على رميه (ص) لأمية بن خلف بالخربة يوم أحد وهو مقنع بالحديد فقتله وهو شاذ أيضا فالآية بل السورة نزلت في غزوة بدر . والمعنى ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ الخ إرميت أيها الرسول أحداً من أولئك المشركين في الوقت الذي رميت فيه تلك القبضة من التراب بالفاثا في الهواء فأصابت وجوههم فان ما أوتيته كأمثالك من البشر من استطاعة على الرمي لا يبلغ هذا التأثير الذي هو فوق الاسباب الممنوحة لهم ﴿ ولكن الله رمى ﴾ وجوههم كما هو بما أوصل التراب الذي ألقته في الهواء اليها مع قلته ، أو بعد تكثيره بحض قدرته ، وحذف مفعول الرمي للدلالة على عمومته في كل من الاثبات والنفي كما قدرنا فيهما وفاقا لما تقرر في علم المعاني - وقد علم من هذا التفسير انتيادر من اللفظ بغير تكلف وجه الفرق بين قتل المؤمنين للكفار الذي هو فعل من أفعالهم المقدورة ثم بحسب سنن الله في الاسباب الدنيوية ، وبين رمي النبي ﷺ إياهم بالتراب الذي ليس بسبب اشكاية أعينهم وشوهة وجوههم اقلته وبعدهم عن راميهم وكونهم غير مستقبليين كما هو له ، ولجل هذا الفرق ذكر مفعول القتل مثبتا ومنفيا - وهو ضمير المشركين - فنفي القتل المحسوس مطلقا وأثبت المفعول مطلقا لعدم تعارضهما فالمراد من كل منهما ظاهر بغير شبهة ، ولو أثبت لهم القتل مع نفيه عنهم بان قال : اذ قتلتموهم - لكان تناقضا ظاهرا يخفى وجه جعل المثبت منه غير المنفي . وقتلهم لهم مشاهد لا يحتاج الى اثبات من حيث كان سببا ناقضا ، وإنما الحاجة الى بيان نقصه وعدم استقلاله بالسببية ، ثم بيان ما لولاه لم يكن وهو اعانة الله ونصره .

وأما رمي النبي (ص) لوجوه القوم فلم يكن سببا عاديا لاصابتهم وهزيمتهم لا مشاهدا كضرب أصحابه لأعناق المشركين ولا غير مشاهد ، والجمع بين نفيه واثباته لا يوهم التناقض للعلم بعدم السببية . ولم يذكر مفعول الرمي بأن يقال « وما رميت وجوههم » إذ لا شبهة هنا في عدم استطاعة النبي ﷺ لهذا استقلالاً بكسبه العادي ، وأما هنالك فالظاهر أن القتل من كسبهم الاستقلالي . والحقيقة أنه لولا تأييد الله تعالى ونصره بما تقدم بيانه لما وصل كسبهم المحض إلى

هذا القتل ، وقد علمنا ما كان من خوفهم وكرهاتهم للقتال ومجادلة النبي ﷺ فيه ( كأننا يساقون إلى الموت وهم ينظرون ) فلو ظلوا على هذه الحالة المعنوية مع قتلهم وضعفهم لكان مقتضى الأسباب أن يحقهم المشر كون محقاً .

وأما الفرق بين فعله تعالى في القتل وفعله في الرمي فالاول عبارة عن تسخيره تعالى لهم أسباب القتل التي تقدم بيانها كما هو الشأن في جميع كسب البشر وأعمالهم الاختيارية من كونها لا تستقل في حصول غاياتها الا بفعل الله وتسخيره لهم وللأسباب التي لا يصل إليها كسبهم عادة، كقوله تعالى ( أفرايتم ما محرثون \* أنتم زرعونه أم نحن الزارعون؟ لو نشاء لجعلناه حطاماً) الخ فالإنسان يحرث الأرض ويلقي فيها البذر ولكنه لا يملك انزال المطر ولا إنبات الحب وتغذيته بالتراب المختلف العناصر، ولا دفع الجوائح عنه. ولا يستقل إيجاد الزرع وبلوغ ثمرة صلاحها بكسبه وجده .  
وأما الثاني فهو من فعله تعالى وحده بدون كسب عادي للنبي ﷺ في تأثيره فالرمي منه كان صورياً لتظهر الآية على يده صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله فمثل في ذلك كئل أخيه موسى عليه السلام في إلقاءه العصا ( فإذا هي حية تسعى ) فخاف منها أولاً كما ورد في سورتي طه والنمل

هذا ما يدل عليه نظم الكلام بلا تكلف ولا حمل على المذاهب والآراء الحادثة من كلامية وتصوفية وغيرها، فالجبري يحتج بها على سلب الاختيار وكون الإنسان كالريشة في الهواء ، والاتحادي يحتج بها على وحدة الوجود، وكون العبد هو الرب المعبود ، والاشعري يحتج بها على الجمع بين كسب العبد وخالق الرب بإسناد الرمي إلى النبي ﷺ وإلى الخالق عز وجل . وهو يعني عن إسناد القتل إلى المؤمنين بالاولى ، والقرآن فوق المذاهب وقبلها ، غني بفصاحته وبلاغته عن هذه التأويلات كلها ( كل حزب بما لديهم فرحون ) وكلام الله فوق ما يظنون .

وأما موقع الغاء في أول الآية على القول بأن الآية السابقة عليها نزلت قبل القتال تحريضاً عليه فقد قيل إنها واقعة في جواب شرط مقدر واختلفوا في تقديره وقال بعضهم بل هي مجرد ربط الجملة بعضها ببعض ، وقد يقال إنه لا مانع من نزولها بعد المعركة ووصلها بما قبلها للدلالة على ما ذكرنا من التعليل والاحتجاج

على مشروعية النهي عن الهزيمة. وأولى منه أن يستدل بها على نزول ما قبلها في ضمن السورة بعد المعركة .

وأما قوله تعالى ﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ فهو معطوف على تعليل استفاد مما قبله ، أي أنه فعل ماذكر لاقامة حجته وتأييد رسوله ( وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ) بالنصر والغنيمة وحسن السمعة . والبلاء الاختبار بالحسن أو بالسبي . كما قال تعالى في بني اسرائيل ( وبلوناهم بالحسنات والسيئات ) وتقدم بيانه بالتفصيل . وختم الآية بقوله ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ وهو تعليل مستأنف للبلاء الحسن والمراد أنه تعالى سميع لما كان من استفادة المؤمنين مع الرسول ربهم ودعائهم اياه وحده ، عليهم بصدقهم واخلاصهم ، وبما يترتب على استجابته لهم من تأييد الحق الذي هم عليه وخذلان الشرك ، كما أنه سميع لكل نداء وكلام ، عليهم بالنيات الباعثة عليه ، وانعواقب التي تنشأ عنه ، وبكل شيء .

ولما كان من سنة القرآن المقابلة بين الايمان والكفر وبين أهل كل منها وجزائهماعليهما قال ﴿ زلتم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ أي الامر في المؤمنين وفائدتهم مما تقدم هو ذلكم الذي سمعتم ، ويضاف اليه تعليل آخر وهو أن الله تعالى موهن كيد الكافرين ، أي مضعف كيدهم ومكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومحاولتهم انقضاء على دعوة التوحيد والاصلاح قبل أن تقوى وتشتد ، قرأ ابن كثير وناقم وأبو بكر ( موهن ) بتشديد الهاء والتنوين ونصب ( كيد ) والتشديد المبالغة في الوهن . وقرأ حفص عن عاصم بالتخفيف والاضافة والباقون بالتخفيف والنصب

وقد صرح التنزيل بجزء الفريقين في تعليل آخر في عاقبة الحرب ، قال في سياق غزوة أحد من سورة آل عمران ( ٣ : ١٤٠ ) إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداؤها بين الناس - وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ( ١٤١ ) وليحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين )

﴿ إن نستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ قيل إن الخطاب للكفار ذكر خذ لا لهم واضعاف  
 كيدهم ثم التفت عنه إلى تذكيرهم وتوبيخهم على استنصارهم إياه على رسوله (ص)  
 ذكر محمد بن اسحاق وعروة عن الزهري عن عبدالله بن ثعلبة بن صعير أن  
 أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينما كان أقطع لأرحم وأنى بما لا يعرف فأخذه الغداة .  
 فكان ذلك استفتاحاً منه . رواه عنه أحمد ورواه النسائي في التفسير والحاكم في  
 المستدرک عن الزهري، وروى مثله عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقاتدة وغيرهم .  
 وقال السدي كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة  
 فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الغنيتين، وخير القبيلتين ،  
 فقال الله (إن استفتحوا فقد جاءكم الفتح) يقول قد نصرت ما قاتم وهو محمد ﷺ ،  
 وفي رواية أن أبا جهل قال حين التقى الجمعان: اللهم رب ديننا القديم ودين محمد الحديث  
 فأبي الدينين كان أحب إليك وأرضى عندك فانصر أهل اليوم . فالفتح هو نصر النبي  
 ودينه وأتباعه . وهذا يدل على أن أبا جهل كان مغروراً بشركه واثماً بدينه ولم  
 يكن أكثر أكابر محرمي مكة كذلك بل كان كفرهم عن كبر وعلو وحسد للنبي ﷺ .  
 ﴿ وان تنهوا فهو خير لكم ﴾ أي وان تنهوا عن عداوة النبي ﷺ وقاتله فالانتهاء  
 خير لكم لأنكم لا تكونون الا مغلوبين مخذولين كقوله (قل للذين كفروا ستغلبون  
 وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) والخيرية في هذه الحالة بالاضافة إلى الاستمرار  
 على العدوان والقتال، ويحتمل أن يراد به الانتهاء عن الشرك فتكون الخيرية على  
 حقيقتها وكاملها ﴿ وان تعودوا نعد ﴾ أي وإن تعودوا إلى مقاتلته نعد لما رأيتم من  
 الفتح له عليكم حتى يجيء الفتح الاعظم الذي يدل فيه شرركم ، وتدول الدولة  
 للمؤمنين عليكم ﴿ وان تعني عنكم فتتكم شيئاً ولو كثرت ﴾ أي وان تدفع عنكم جماعتكم  
 من المشركين شيئاً من بأس الله وبطشه ولو كثرت عدداً فالكثرة لا تكون  
 سبباً للنصر ، إلا إذا تساوت مع القلة في الثبات والصبر ، والثقة بالله عز وجل  
 ﴿ وان الله مع المؤمنين ﴾ بالمعونة والولاية والتوفيق فلا تضرهم قتلهم . قرأ نافع  
 وابن عامر ( وأن ) وحفص بفتح الهمزة بتقدير اللام أي ولان الله مع المؤمنين

كان الامر ماذكره ، وقرأها الباقون بالكسر على الاستئناف  
وقيل ان الخطاب في الآية للمؤمنين كسابقه ولاحقه والمعنى : ان تستنصروا  
ربكم وتستغيثوه عند شعوركم بالضعف والقلّة فقد جاءكم النصر وإن تنهوا عن  
التكاسل في القتال والرغبة عما يأمر به الرسول ومجاداته في الحق بعد ماتين فهو  
خير لكم . وإن تعودوا اليه بعد عليكم بالانكار أو تهيج العدو ، وإن تغني عنكم  
كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر ، فهانحن أولاً ، قد نصرناكم على قتلكم وضعفكم .  
هذا أقوى من كل ما رأيناه في تصدير المعنى فأكثر ما قالوه ظاهر التكلف ، ولولا  
السياق لكان المعنى الأول أرجح لأنه أظهر

(٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا آيَاتِهِ وَأَنْتُمْ  
تَسْمَعُونَ (٢١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ  
(٢٢) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ (٢٣) وَلَا  
عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مَعْرُضُونَ

كانت السورة من أولها إلى هنا في قصة غزوة بدر الكبرى إلا انها انتهت  
بعد براءة المظنح — وهو السؤال عن الغنائم — بالمقصد من الدين وهو الايمان  
وطاعة الله ورسوله ووصف الايمان الكامل ، وانتقل منها إلى مقدمات الغزوة  
وما كان من عناية الله فيها بالمؤمنين ، ثم انتقل هنا وفيما قبله إلى نداء المؤمنين المرة بعد  
المرة وتوجيه الأوامر والنواهي اليهم في مقاصد الاسلام والايمان والاحسان. وينتهي  
هذا بالآية ٢٩ ثم ينتقل من ذلك إلى شؤون الكفار مع المؤمنين وعداوتهم لهم وللرسول  
عليه السلام وكيدهم وعدوانهم عليه ، وفتنة المؤمنين به — ومنه إلى الامر بتعالف وحكته  
ثم يعود الكلام الى غزوة بدر وما كان فيها من حكم وسنن وأحكام وتشريع ،  
وهذا يدخل في أول الجزء العاشر وهو آية (١٠١) واعلموا انما غنمتم من شيء (١٠١) الخ  
قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ذكرت هذه الطاعة في

الآية الأولى من هذه السورة وأعيدت هنا ليعطف عليها قوله ﴿ ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ أي ولا تتولوا وتعرضوا عن الرسول ﷺ والحال أنكم تسمعون منه كلام الله المصريح بوجوب طاعته وموالاته واتباعه وانصره، والمراد بالسماع هنا سماع الفهم والتصديق والاذعان الذي هو شأن المؤمنين الذين دأبهم أن يقولوا (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) والموصوفين بقوله عز وجل (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب )

ثم قرر هذا المعنى وبين مقابله بقوله ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ وهم فريقان (الأول) الكفار المعاندون ( ٤ : ٤٥ من الذين هادوا يجرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا وسمع غير مسمع وراعنا — لياً بألسنتهم وطعنا في الدين - ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ) وأمثالهم من الكفار المعاندين والمقلدين، وورد فيهم آيات سيذكر بعضها هنا (الثاني) المنافقون الذين قال تعالى في بعضهم ( ١٧ : ٤٧ ) ومنهم من يستمع اليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ؟ ) وتقدم في سورة الاعراف من صفات أهل النار في الدنيا ( ولهم آذان لا يسمعون بها ) مع آيات أخرى والمراد في هذا كله أنهم لا يسمعون سماع تفقه واعتبار يتبعه الانتفاع والعمل

ثم علل الأمر والنهي بقوله ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ الدواب جمع دابة وهو كل ما يدب على الأرض (قال في سورة النور ( ٤٣ : ٢٤ ) والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع) الآية وقلمها يستعمل هذا اللفظ في الانسان وحده وإنما يغلب في الحشرات ودواب الركب، فان كان قديماً فهو هنا يشعر بالاحتقار والمعنى ان شر ما يدب على الارض في حكم الله الحق هم الاشرار من البشر «الصم» الذين لا يلقون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة فكانوا يفقد

(الانفال: ص ٨) الذين فقدوا الاستعداد الايمان فلا تؤثر فيهم دعوة الحق ٦٢٧

منفعة السمع كالذين فقدوا حاسته «البكم» الذين لا يقولون الحق، كأنهم فقدوا قوة النطق، «الذين لا يعقلون» أي فقدوا فضيلة العقل الذي يميز بين الحق والباطل، ويفرق بين الخير والشر، إذ لو عقلوا لطلبوا، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا، ولو سمعوا لنطقوا وبيّنوا، وتذكروا وذكروا، كما قال تعالى (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) فهم لفقدهم منفعة العقل والسمع والنطق كانوا قديين لهذه المشاعر والقوى، بأن خلقوا خداجاً أو طرأت عليهم آفات ذهبت بمشاعرهم الظاهرة والباطنة، بل هم شر من هؤلاء، لان هذه المشاعر والقوى خلقت لهم فافسدوها على أنفسهم لعدم استعمالها فيما خلقها الله تعالى لأجله في سن التمييز ثم التكليف، فهم كما قال الشاعر:

خُلقوا وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا  
رُزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

وإذا أردت فهم الآية فهما تفصيلاً فارجع إلى تفسيرنا لقوله تعالى (١٧٩:٧) واقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفتقرون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها. أو ائلك كالانعام بل هم أضل أو ائلك هم الغافلون) ولم يصرفهم هنا بالمعنى كما وصفهم في آية الاعراف وآيتي البقرة لأن المقام هنا مقام التعريض بالذين ردوا دعوة الاسلام، ولم يهتدوا بسماع آيات القرآن، ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لآسمعهم﴾ أي ولو علم الله فيهم استعداداً الايمان والهدى ببقية من نور القطرة، لم تطفئها مفسد التربية وسوء القدوة، لآسمعهم بتوفيقه وعنايته الكتاب والحكمة سماع تفقه وتدبر، ولكنه علم انه لا خير فيهم لانهم ممن أحاطت بهم خطاياهم وختم على قلوبهم ﴿ولو آسمعهم﴾ وقد علم أن لا خير فيهم ﴿لتولوا﴾ عن القبول والاذعان لما فهموا ﴿وهم معرضون﴾ والحال أنهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به - كما هو مدلول الجملة الحالية - كراهة وعناداً للداعي إليه ولاهذه، لا تولى عارضا مؤقتا، وفرق عظيم بين التولي العارض اصارفاً مؤقت وتولي الاعراض والكراهة الذي فقد صاحبه الاستعداد للحق وقبول الخير فقد تماماً. ومن اضطرب في فهم الجمع بين التولي والاعراض



فقد جهل معنى الجملة الخائية الفارق بينها وبين الحال المفردة كما بينه الامام عبدالقاهر في دلائل الاعجاز ، والآية نص في انه تعالى لم يسمعهم أي لم يوفقهم للسمع النافع لان الباعث عليه هو ما في النظرة من نور الحق المحب للنفس في الخير ، وقد فقدوا ذلك بافسادهم افطرتهم ، واطفاتهم لنور الاستعداد للحق والخير الذي يذكيه سماع الحكمة والموعظة الحسنة ، فصاروا ممن وصفهم في سورة المطففين الملكية بقوله ( ٨٣ : ١٤ ) كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ) وقوله في سورة البقرة ( ٢ : ٨١ ) بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ) ووصفهم فيها بقوله ( ١٨ ) صم بكم عمي فهم لا يرجعون ) وضرب المثل لسماعهم بقوله في الآية الاخرى منها ( ٢ : ١٧١ ) ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون ) يعني أنهم كسارحة النعم نسمع صراخ الناعق فترفع رؤوسها ولكنها لا تسمع له معنى فاذا سكت عادت الى رعيها كما قال ابن دريد في مقصورته :

نحن ولا كفران لله كما قد قيل في السارب أخلى قارتعي  
إذا أحس نبأه ربيع وإن تطامنت عنه تمادى وطأ

وفي الآيتين ٢٢ و ٤٣ من سورة ونس ( ١٠ ) إيتاس النبي ﷺ من أسمع هؤلاء الصم وهداية هؤلاء العمي وقفي على ذلك بقوله تعالى ( ٤ ) إن الله لا يظلم الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون ) فأمثال هذه الآيات تحثو التراب في في من يزعم أن الآية تدل على الجبر وعدم اختيار العبد في كفره وإيمانه ، كما أنها تسجل الجبل باللغة على من يزعم ان فيها إشكالا في النظم بجواز تقدير : ولو أسمعهم لعلمه بأن فيهم خيرا أتولوا وهم معرضون عن الايمان والهدى ، ونقول ان تقديره هذا هو الباطل لانه تقيض ما أفادته « لو » من أنه علم أنه لاخير فيهم فهو لا ينتج إلا باطلا ، وعفا الله عن صوروا هذا الاشكال الوهمي بالاصطلاح المنطقي الفلسفي وأطالوا في الرد عليه من تلك الطرق الاصطلاحية الشائثة عن كتاب الله تعالى ألم يك خيرا لهم من هذه الخذاقة اللفظية الصارفة عن القرآن توجيه قلب سامعه لمحاسبة نفسه على هذا السماع ودرجة حفظه منه ؟ فان للسمع درجات باعتبار ما يطلبه الله تعالى به من الاهتداء بكتابه : أسفلها أن يعتمد من يتلى عليه القرآن أن لا يسمعه

مبارزة له بالعداوة من أول وهلة خوفا من سلطانه على القلوب أن يغلبهم عليها كالذين قال الله فيهم (٢٦: ٤١) وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) ويلبها من يستمع وهو لا ينوي أن يفهم ويعلم كما نناقش المشار إليهم في آية سورة القتال (١٧: ٤٧) وذكرت في هذا السياق - ويلبها من يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض ، كما كان يفعل المعاندون من المشركين وأهل الكتاب ، وكما يفعل في كل وقت مرتزقة عداة النصرانية وغيرهم إذا استمعوا للقرآن أو نظروا فيه - ويلبها أن يسمع ليفهم ويعلم ثم يحكم للكلام أو عليه

وهذه الدرجات كلها الغير المؤمنين ، والمنتصف منهم الفريق الأخير وهم آمن منهم من تأمل وفهم: نظر طبيب إفرنسي معاصر في ترجمة القرآن فرأى أن كل ما يتعلق بالطب والحفاظة على الصحة منه - كإظهاره والاعتدال وعدم الإسراف - موافق لأحدث المسائل التي استقر عليها رأي الأطباء في هذا العصر ، فرغبه ذلك في تأمله كما فأسلم... ونظر (مستر براون) وهو رباتان يارج من الانكليز في ترجمة مستر سايل الانكليزية له فاستقصى فيه الكلام عن البحار والرياح فظن أن النبي (ص) كان من أكبر رباتي الملاحين فسأل عنه فقيل له أنه لم ير البحر قط وكان مع ذلك أمياً لم يقرأ كتاباً ، ولا تلقى عن أحد درسا ، (قال) فعلمت أن هذا كان بوحى من الله لأنه حقائق لم يعلمها من اختباره بنفسه ، ولا بتلقيه عن غيره من المختبرين ، وقد أسلم وتعلم العربية رحمه الله تعالى وأما المسلمون في هذه البلاد فأكثرهم اليوم يسمعون القاري، يتلو القرآن فلا يستمعون له ولا يشعرون بأنهم في حاجة إلى سماعه ، وأكثر الذين يستمعون له وينصتون يقصدون بذلك التلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغمات ، ومنهم من يقصد بسماعه التبرك فقط ، ومنهم من يحضر الحفاظ لتلاوته عنده في ليالي رمضان لأن ذلك من شعائر أكبر الوجاه ، وإنما تكون التلاوة في حجرة البواب أو غيره من الخدم ، وإذا سمعت بعض السامعين للتلاوة يقول : الله الله ، أو غير ذلك من كلمة مفردة أو مركبة أو صوت لا معنى له فأنا ينطق به إعجاباً بنعمة التالي ، حتى أنهم لينطقون عند سماعه ببعض الاصوات التي تخرج من أفواههم عند سماع الغناء دعيت مرة إلى حفلة عرس فاذا أنا بقاري، يتلو بالنغم والتطريب وبعض

الحاضرين بهتزو وينطق بتلك الحروف المعتادة في مجالس الغناء ويستعيدون بعض الجمل أو الآيات كما يستعيدون المغني على سواء، وكان القاري، يتلو تلك الوصايا الصادقة من سورة الاسراء، وما يتلوها من وصف القرآن وهداياته ومواعظه وتوبيخ المعرضين عنه كقوله تعالى (٤١:١٧) ولقد صرفنا في هذا القرآن ليدركوا وما يزيدهم إلا نفورا - الى قوله (٤٥) واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حججا مبسورا ٤٦ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، واذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولو على آدابهم نفورا ٤٧ نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون اليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا )

فلما سمعت مكة، أولئك السفهاء وأصواتهم المنكرة عند سماع هذه الحكم الروائع، والمواعظ الصوادع، لم أملك نفسي أن صحت فيهم صيحة مزعجة ووقفت على الكرسي الذي كنت جالسا عليه ووبختهم وتوبيخنا شديداً مبيناً لهم ما يجب من الأدب والخشوع والخشية عند سماع القرآن ولا سيما أمثال هذه الآيات، وتلوت عليهم قوله تعالى (٢١:٥٩) لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ) فسكنوا وسكتوا إلا واحداً منهم أخذته العزة بالآثم، ولكنه صار يتظاهر بأنه يهتز متخشعاً، ويهمهم معتبراً متديراً .

وليعلم القاري، ان لفهم الكلام نفسه درجات فمن الناس من لا يفهم من الكلام إلا مدلولات الالفاظ على ما فيها من إجمال وإبهام، بحسب ما تفسر به المفردات في معاجم اللغة، أو مع المركبات بحسب قواعد النحو والبيان، ككون لفظي الصم والبكم هنا من مجاز الاستعارة مثلاً، وهذا الفهم قاصر لا يتسع عقل صاحبه للتدبر والتذكر المطلوب، ومنهم من يكون فهمه تفصيلاً ينتقل من الكلبيات إلى الجزئيات، ويعدو المفهومات الذهنية إلى الماصدقات، ولكنه يجعلها بعزل عن نفسه، ويتصور أن الكلام كله لغيره وفي غيره، بان يقول هذه الآية نزات في الكافرين أو المنافقين، لا في أمثالي من المؤمنين، وإن كان متصفاً بما تنهى عنه وتتوعد عليه من صفاتهم وأعمالهم، فصاحبها يصدق عليه بوجه ما أنه، من الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون،

ولما للدرجة العليا للسمع أن تسمع فتفقه وتعقل وتدبر فتعتبر وتعمل ، حتى لا تقول يوم القيامة ر ١٠:٦٧ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير )

(٢٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ  
(٢٥) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٦) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَفَتَكُمْ النَّاسُ فَاوْاكُمْ وَأَيْدِيَهُمْ بِنَصْرِهِ وَوَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

يقال دعاه فأجابه واستجابه واستجاب له ، وكثير المتعدي في التنزيل ويقول الراغب ان أصل الاستجابة التهيؤ والاستعداد للاجابة فحل محلها، أقول والاقرب الى الفهم قلب هذا وعكسه وهو ان الاستجابة هي الاجابة بعناية واستعداد فتكون زيادة السين والتاء للمبالغة ، وهو يقرب مما قالوه في معانيهما من التكلف والتحري أو هو بعينه إلا انه لا يعبر به فيما يسند إلى الله تعالى كقوله (فاستجاب لهم ربهم) فقوله (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) معناه اذا علمتم ما فرضنا عليكم من الطاعة ، وشأن سماع التفقه من الهداية ، وقد دعاكم الرسول بالتبليغ عن الله تعالى لما يحييكم ، فاجيبوا الدعوة بعناية وهمة ، وعزيمة وقوة ، فهو كقوله تعالى (خذوا ما آتيناكم بقوة) والمراد بالحياة هنا حياة العلم بالله تعالى وسننه في خلقه ، وأحكام شرعه ، والحكمة والفضيلة والاعمال الصالحة التي تكمل بها الفطرة الانسانية في الدنيا وتستعد للحياة الابدية في الآخرة ، وقيل المراد بالحياة هنا الجهاد في سبيل الله لانه سبب القوة والعزة والسلطان- والصواب ان الجهاد يدخل فيما ذكرنا وليس هو الحياة المطلوبة بل هو وسيلة لتحقيقها وسياج

لها بعد حصولها ، وقيل هي الايمان والاسلام ، وانما يصح باعتبار ما كان يتجدد من الاحكام ، وثمرته في القلوب والاعمال ، وبما في الاستجابة من معنى المبالغة في الاجابة ، وإلا فالخطاب للمؤمنين . وقيل هي القرآن ولا شك انه ينبوعها الاعظم ، الهادي الى سبيلها الاقوم ، مع بياحه من سنة الرسول وهدبه الذي أمرنا بان يكون لنا فيه أسوة حسنة ، ويدل عليه اقتران طاعته بطاعة الله تعالى ، بل قال بعض العلماء انه كان اذا دعا شخصاً وهو يصلي يجب عليه أن يترك الصلاة استجابة له وان الصلاة لا تبطل باجابته بل انه أن ينبي على ما كان صلى ويتم ، واستدلوا على ذلك بحديث رواه البخاري عن سعيد بن المعلى قال : كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه - أو قال فلم آته حتى صليت ثم أتته - فقلت يا رسول الله اني كنت أصلي ، فقال « ألم يقل الله ( استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم ) ؟ الحديث . وروى الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة انه دعا ﷺ دعا أبي بن كعب وهو في الصلاة وذكر نحواً مما رواه البخاري عن أبي سعيد وصححه . وقال الحافظ في باب فضائل الفاتحة من الفتح عند ذكر فقه الحديث : وفيه ان الامر يقتضي النور لانه (ص) عانص الصحابي على تأخير اجابته ، وفيه استعمال صيغة العموم في الاحوال كلها . قال الخطابي : فيه ان حكم لفظ العموم ان يجري على جميع مقتضاه وان الخاص والعام اذا تقابلا كان العام منزلاً على الخاص ، لان الشارع حرم الكلام في الصلاة على العموم ثم استثنى منها اجابة دعاء النبي ﷺ في الصلاة ( وفيه ) ان اجابة دعاء النبي ﷺ لا تفسد الصلاة - هكذا صرح به جماعة من الشافعية وغيرهم وفيه بحث لاحتمال أن تكون اجابته واجبة مطلقاً سواء كان المخاطب مصلياً أو غير مصلي ، اما كونه يخرج لاجابته من الصلاة أو لا يخرج فليس في الحديث ما يستلزمه ، فيحتمل أن تجب الاجابة ولو خرج المجيب من الصلاة ، والى ذلك جنح بعض الشافعية الخ ما أورده ولا تعرض فيه لما يدعوا المرء اليه وهل يشترط لما ذكر أن يكون من أمر الدين أم لا ؟ وقد كان (ص) دعا سعيداً هذا ليعلمه فضل سورة الفاتحة وانها السبع المثاني ، وفي متن الحديث شيء من الاضطراب . على أنه لا يتعلق به بعده (ص) عمل . وأحق من هذا بالبيان ان طاعته ﷺ واجبة في حياته وبعد مماته فيما علم

انه دعا اليه دعوة عامة من أمر الدين الذي بعثه الله تعالى به كيانه لصفة الصلوات وعددها والمناسك ولو بالفعل مع قوله « صلوا كما أتموني أصلي » وقوله « خذوا عني مناسككم » ومقادير الزكاة وغير ذلك من السنن العملية الدينية المتواترة وكذا أقواله المتواترة التي أمر بتبليغها فيما ندل عليه دلالة قطعية - وأما غير القطعي رواية ودلالة من سننه فهو محل الاجتهاد، فكل من ثبت عنده شيء منها يبحثه أو يبحث العلماء الذين يثق بهم على انه من أمر الدين فينبغي له الاهتداء به فيما دل عليه من الاحكام الخمسة بحسبها - الوجوب والندب والحرمة والكراهة والاباحة - لان الامور العملية والاجتهادية يكتبني فيها بالظن الراجح في الدليل وفي دلالاته ، ولكن لا يملك أحد من المسلمين أن يجعل اجتهاده تشريعاً عاماً يلزمه غيره أو ينكر عليه مخالفته أو مخالفة من قلده هو فيه، إلا الائمة أولى الامر فتجب طاعتهم في اجتهادهم في أحكام المعاملات القضائية والسياسية اذا حكموا بها لاقامة الشرع وصيانة النظام العام - وعلى هذا كله جرى السلف الصالح وجميع أئمة الامصار ، ومن كلامهم ان المجتهد لا يقلد مجتهداً، وانه لا يجب على أحد أن يقلد أحداً معيناً دينه ، ولكن من عرض له أمر يستفتي فيه من بطمئن قلبه لعلمه بالكتاب والسنة وأخذ بفتواه إذا اطأن لها . وقد امتنع الامام مالك من إجابة المنصور ثم الرشيد إلى ما عرضاه عليه من التزام الناس العمل بكتبه حتى الموطأ الذي هو سنن واطأه جل علماء المدينة عليها

وأما من يقولون ان النبي ﷺ إنما كانت تجب طاعته في عهده ولا يجب العمل بعده إلا بالقرآن وحده فهم زنادقة ضالون مضلون يريدون هدم الاسلام بدعوى الاسلام، بل تجب طاعة الرسول كما أطلقها الله تعالى ويجب التأمي به في كل زمان إلى يوم القيامة. بل نقول اننا نهتدي بخلفائه الراشدين، وأئمة أهل بيته الطاهرين، وعلماء أصحابه العاملين، وعلماء السلف من التابعين وأئمة الامصار من أهل البيت والعقلاء والمحدثين ، نهتدي بهم في آدابهم واجتهاداتهم القضائية والسياسية مع مراعاة القواعد الشرعية والمصالح العامة ، ولا نسمي شيئاً منها ديناً ندين الله به الا

ما ثبت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على الوجه المتقدم ، وأما السنن والارشادات النبوية في أمور العادات كاللباس والطعام والشراب والنوم فلم بعدها أحد من السلف ولا علماء الخلف من أمور الدين فتسمية شيء منها ديناً بدعة منكرة لأنه تشريع لم يأذن به تعالى. وقد فصلنا هذه المسألة من قبل في هذا التفسير وفي غيره من مقالات المنار

﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ﴾ هذا تنبيه لأميرين عظيمين أمرنا الله أن نعلمهما علماً يقيناً إذعانياً لما لهما من الشأن في مقام الوصية بالاستجابة لدعوة الحياة الانسانية العليا التي فيها سعادة الدنيا والآخرة . ( الاول ) ان من سنة الله في البشر الحيلولة بين المرء وبين قلبه ، الذي هو مركز الوجدان والادراك ذي السلطان على ارادته وعمله ، وهذا أخوف ما يخافه المتقي على نفسه ، إذا غفل عنها وفرط في جنب ربه ، وكأنه أرجى ما يرجوه المسرف عليها إذا لم ييأس من روح الله فيها ، فهذه الجملة أعجب جل القرآن ولعلمها أبلغها في التعبير ، وأجمعها لحقائق علم النفس البشرية ، وعلم الصفات الربانية ، وعلم التربية الدينية، التي تعرف دقائقها بما تثمره من الخوف والرجاء ، فبينما يزيد بسير على سبيل الهدى ، ويتقي بنيات طرق الضلالة الموصلة إلى مهاوي الردى ، إذا بقلبه قد تقلب بعصوف هوى جديد ، يميل به عن الصراط المستقيم ، من شبهة تزعزع الاعتقاد ، أو شهوة يغلب بها الغي على الرشاد ، فيطبع هواه ، ويتخذ إلهه من دون الله ، ( أفرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً؟ ) على انه فيه مختار ، فلا جبر ولا اضطرار . ويقابل هذا من الحيلولة ما حكى بعضهم عن نفسه ، انه كان منهمكاً في شهواته وهواه ، تاركاً لهواه وطاعة ربه ، فنزل يوماً في زورق مع خلان له في نهر دجلة للتنزه معهم التبيذ والمعازف ، فبينما هم يعزفون ويشربون ، اذ التقوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة ( اذا الشمس كورت ) فوقعت نلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة ، فاستمع له وأنصت ، حتى إذا بلغ قوله تعالى ( وإذا الصحف نشرت ) امتلاً قلبه خشية من الله ، وتدبراً لاطلاعه على صحيفة عمله يوم يلقاه ، فاخذ العود من المعازف

فكسره وألقاه في دجلة ، وثنى بنبذ قناتي النبذ وكؤوسه فيها ، وصار يردد الآية ، وعاد إلى منزله تائباً من كل معصية ، مجتهداً في كل ما يستطيع من طاعة

فتذكير الله تعالى إيانا بهذا الشأن من شؤون الانسان ، وهذه السنة القلبية من سنن الله تعالى في الارادات والاعمال ، وأمره إيانا بان نعلمها علم ايقان واذعان، يفيدنا فائدتين لا يكمل بدونها الايمان ، وهما أن لا يأمن الطائع المشمر من مكر الله فيغتر بطاعته ويعجب بنفسه ، وأن لا ييأس العاصي والمقصر في الطاعة من روح الله ، فيسترسل في اتباع هواه ، حتى تحيط به خطاياها . ومن لم يأمن عتاب الله، ولم ييأس من رحمة الله، يكون جديراً بان يراقب قلبه، ويحاسب نفسه على خواطره ، ويعاقب نفسه على هفواته ، لتظل على صراط العدل المستقيم، متجنبية الافراط والتفريط ، ويتحرى أن يكون دائماً بين خوف يحجزه عن المعاصي ورجاء يحمله على الطاعات، ويساعدنا على ذلك (الأمر الثاني) وهو تذكر حشرنا اليه عز وجل ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية ، ومجازاته إيانا عليها إما بالعذاب الاليم، وإما بالنعيم المقيم ، وهذا منه مقتضى الفضل ، وذلك أثر العدل، ومما يؤيد ما فهمناه في هذا المقام مقام حرمان الراسخين في الكفر من سماع الفقه والهدى، والحيلولة بين المرء وقلبه أن بعصي الهوى ، (٤٥: ٢٣) قرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون) فهي صريحة في أن من هذا حاله ليس مجبوراً عليه وان الله لم يحرمه الهدى بمجازته عنه وهو يؤثره ويفضله : أو باكراهه على اتباع الهوى وهو كاره له ، فانه أسند اليه اتخاذ هواه إلهه ، وقد قال تعالى لتبته داود عليه السلام (٣٨: ٢٦) يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ) الآية

فهذا نص في ان اتباع الهوى سبب للضلال عن سبيل الله ، فقوله في آية الجاثية ( وأضله الله على علم ) ليس معناه انه تعالى خلق فيه الضلال استقلالاً كما يدعي بعض المتكلمين بل هو داخل في سنته تعالى في الاسباب والمسببات ويؤيده



اثبات كون ضلاله على علم وهو انه متعمد لا يتباع الهوى ، مؤثراً له على الهدى ، والله تعالى يسند الامور الى أسبابها تارة واليه تعالى تارة من حيث انه خالق كل شي ، وواضع سنن الاسباب والمسببات . ومن الاسباب ما جعله من أفعال المخلوقات الاختيارية على علم ، وما جعله باسباب لا يعلم للخلق اختيار فيها ولا علم ، وكل من القسمين يسند الى سببه تارة والى رب الاسباب تارة والجهة مختلفة ، معروفة ، ويختار هذا أو ذاك في البيان بحسب سياق الكلام كقوله تعالى في الحشر ( أفأرأيتم ما تحرثون \* أنتم تزرعونهم أم نحن الزارعون ؟ ) فهل يقول عاقل ان الفلاح لا فعل له ولا اختيار في زرعه ، وان الله يخلق له بدون إرادته ، ولا فعله ، أو ان فعله وتركه في أرضه سواء ، وتلقيحه لنخله وعدمه سيان ؟

وجملة القول ان من سننه تعالى في البشر ان من يتبع هواه في أعماله ويستمر على ذلك ويدمنه الزمن الطويل تضعف إرادته في هواه ، حتى تندوب وتفتى فيه ، فلا تعود تؤثر فيه المواظ القوية ، ولا العبر المبصرة ولا المعقولة ، وهذه الحالة يعبر عنها بالخم والرين والطبع على القلب ، وبالصمم والعمى والبكم كما تقدم آفناء ، وسبق مثله في تفسير سورة البقرة وغيرها ،

وأمثال هذه الامثال المضروبة لهذه الحالة قد ضل بها الجبرية غافلين عن كونها عاقبة طبيعية لا دمان تلك الاعمال الاختيارية ، كالخمر الذي يعترى مدمن الخمر ، فيشعر بفتور وألم عصبي لا يسكن إلا بالعودة الى الشرب ، على ان هذه الآية علمتنا عدم اليأس ومن تفسير القرآن بالقرآن في قلب القلوب والحيلولة بينها وبين إرادة الانسان المتصرف في قدرته ومشاعره قوله تعالى من سورة الانعام ( ٦ : ١٠٩ ) وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة . ونذرهم في طغيانهم يعمهون ) فيراجع معناها في آخر تفسير الجزء السابع ، وقال الراغب : قلب الله القلوب صرفها من رأي الى رأي . وذكر آية الانعام هذه

ومن تفسير الآية المأثور في السنة ما رواه ابن مردويه في تفسيرها عن ابن عباس عرفوا « بحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الهدى » وسنده ضعيف

كما قال الحافظ في الفتح وله وغيره آثار في هذا المعنى . وروى البخاري وأصحاب السنن إلا أبا داود من حديث عبد الله بن عمر قال كانت يمين النبي (ص) « لا ومقلب القلوب » وفي رواية له عنه : أكبر ما كان النبي ﷺ يحلف « لا ومقلب القلوب » وفي معناه أحاديث أخرى عند ابن ماجه وغيره والمفسرين وشراح الأحاديث أغلظ لفظية ومعنوية في تفسير لفظ قلب وفي قلب الله تعالى له . وقد تقدم تفسيره اللفظي من قبل ، ومعنى قلبه أنفاً ، وقولهم إن الله خالق القلوب ومقلبها حتى وكذا أفعال العباد كلها ، وليس بحق ما عبر به بعضهم عن ذلك بأن الله تعالى يمنع الكافر بمحض قدرته عن الإيمان وغيره من أفعال الخير مباشرة ، ويخلق في قلبه واسانه الكفر اعتقاداً ونطقاً خلقاً أنفياً لا فعل له فيه ، فالجمع بين الآيات التي أوردناها وما في معناها يبطله ويثبت الأسباب الاختيارية ، والقائلون بما ذكر يثبتون قول القدرية ويحتجون به على قول الجبرية ، فهم يؤيدون الفاسد بالفاسد ولا يشعرون ، ويمدحهم إخوانهم الصوفية في الغي ثم لا يقصرون .

بعد هذه الأوامر والنواهي الخاصة بأعمال الناس الاختيارية الشخصية ، وما يخشى أن تؤدي إليه مما يحرمهم من الهداية الخصوصية ، بانتهاء الاختياري منها الى ما يكاد يخرج عن الاختيار ، باضعاف الإرادة واستعبادها للاهواء ، — أمرهم باتقاء نوع من أنواع الفتن الاجتماعية التي تكون تبعه عقوبتها مشتركة بين المصطلين بنارهم فعلاً ، وبين المؤاخذ به لتصويره في درته ، وإقراره على فعله ، فقال ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ أي واتقوا وقوع الفتن القومية والمالية العامة التي من شأنها أن تقع بين الأمم في التنارع على مصالحها العامة من الملك والسيادة أو التفرق في الدين والشريعة ، والانتقام الى الأحزاب الدينية كالمذاهب ، والسياسية كالحكم ، فإن العقاب على ذنوب الأمم أثر لازم لها في الدنيا قبل الآخرة كما تقدم مراراً ، ولهذا عبر هنا بالفتنة ، دون الذنب والمعصية ، والفتنة البلاء والاختبار كما تقدم بيانه مراراً .

روى أحمد والبخاري وابن المنذر وابن مردويه عن مطرف قال قلنا للزبير يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطالبون بدمه ؟ فقال إنا قرأنا

على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ( واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ) ولم نكن نحسب انا اهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت . وروى عنه جمهور مخرجي التفسير المأثور : لقد قرأناها زمانا وما نرى انا من اهلها فاذا نحن المعنيون بها . وأخرج ابن جرير من طريق الحسن عنه قال لقد خوفنا بهذه الآية ونحن مع رسول الله ﷺ وما ظننا اننا خصصنا بها . قال : لحافظ في الفتح وأخرجه النسائي من هذا الوجه نحوه ، وله طرق أخرى عن الزبير عند الطبري وغيره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر في الآية قال : نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير - وعبد بن حميد عنه قال : أما والله لقد علم أقوام حين نزلت أن يستخص بها قوم . وهو أبو الشيخ عن قتادة قال : علم والله ذوو الالباب من أصحاب محمد ﷺ حين نزلت هذه الآية أن سيكون قتن . وابن جرير وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : نزلت في أهل بدر خاصة ، فاصابهم يوم الجمل فاقتلوا فكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر . وآخرون عنه قال : أخبرت انهم أهل الجمل . وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : تصيب الظالم والصالح عامة . وأبو الشيخ عن مجاهد قال : هي ( يحول بين المرء وقلبه ) حتى يتركه لا يعقل . وروى جمهورهم عن ابن عباس قال : أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعصمهم الله بالعذاب

قال الحافظ ولهذا الاثر شاهد من حديث عدي بن عميرة سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه ، فاذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » أخرجه أحمد بسند حسن وهو عند أبي داود من حديث العرس بن عميرة وهو أخو عدي وله شواهد من حديث حذيفة وجرير وغيرهما عند أحمد وغيره وهذه الروايات متفقة صحيحة المعاني الا قول من قال بالتخصيص فهي عامة إلى يوم القيامة لانها بيان لسنة من سنن الله تعالى في الامم والملل كما بينا . وأما فتنة عثمان فكانت أول هذه الفتن التي اختلفت فيها الآراء فاختلفت الاعمال من أهل الحل والعقد فحلا الجو للمفسدين من السبأيين وأعوانهم من زنادقة اليهود

والمجوس وغيرهم ، وأعقبت فتنة الجمل وصفين ، ثم فتنة ابن الزبير مع بني أمية ثم قتلهم الحسين عليه السلام الخ . ولو تداركوها كما تدارك أبو بكر (رض) عنه الردة لما كانت فتنة تبعثها فتن كثيرة لا يزال المسلمون مصابين بها ومعذنين بعذابها وأكبرها فتن الخلافة والملك وقتن اقتراق المذاهب

﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ لمن خالف سننه في الامم والافراد التي لا تبدل لها ولا تحوّل ، ومن خالف هداية دينه المزكية للانفس وقطعيات شرعه المبنية على درء المفساد والمضار وحفظ المصالح والمنافع . وهذا العقاب منه ما يقع في الدنيا والآخرة ومنه ما يقع في احدهما فقط ، سواء كان للأفراد أو للأمم ، وعقاب الامم المذكور في هذه الآية مطرد في الدنيا ، وأول من أصابه من أمتنا الاسلامية أهل القرن الاول الذي كانوا خيرها بل خير الأمم كلها ولكنهم لما قصروا في درء الفتنة الاولى عاقبهم الله عليها عقابا شديداً كما تقدم آنفاً ، وهكذا تسلسل العقاب في كل جيل وقع فيه ذلك ، ثم امتزجت الفتن المذهبية بالفتن السياسية الخاصة بالخلافة والسلطان ، ولهذا كانت فتنة الخلاف بين أهل السنة والشيعة أشد مصائب هذه الامة وأدومها ، فزالت الخلافة التي تنازعوا عليها ، وتنافسوا فيها ، وتقاتلوا لأجلها ، ولم تزل هي تزداد قوة وشباباً ، وقد شرحنا هذا الموضوع في مواضع من مجلة المنار

﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الارض ﴾ قيل ان الخطاب للمهاجرين يذكرهم بما كان من ضعفهم وقتلهم بمكة — وقيل إنه للمؤمنين كافة في عهد نزول السورة يذكرهم بما كان من ضعف أمتهم العربية في جزيرتهم بين الدول القوية من الروم والفرس ، ولا مانع فيه من ارادة هذا وذاك معاً . فقوله تعالى ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ أي تخافون من أول الاسلام إلى وقت الهجرة أن يتخطفكم مشركو قومكم من قريش وغيرها من العرب ، أي أن ينتزعوكم بسرعة فيفتكوا بكم — كما كان يتخطف بعضهم بعضاً خارج الحرم وتتخطفهم الامم من أطراف جزيرتهم . قال تعالى في أهل الحرم ( أولم يروا انا جعلنا حراماً آمناً ويتخطف الناس

من حولهم؟ ﴿ فَأَوَّكِم ﴾ بامعشر المهاجرين إلى الانصار ﴿ وَأَيَّدِكُمْ ﴾ وإياهم ﴿ بِنَصْرِهِ ﴾ في هذه الغزوة، وسيؤيدكم على الروم وفارس وغيرهم كما وعدكم في كتابه بالاجمال وبينه لكم الرسول ﷺ بالتصريح ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هذه الثلاث وغيرها من نعمه، فيزيدكم من فضله كما وعدكم بقوله (وإذ تأذن ربك لئن شكرتم لأزيدنكم واثن كفرتم إن عذابي لشديد)

وقد جاء في الدر المنثور من تفسير هذه الآية بالمأثور باختصار قليل مانصه: أخرج ابن المنذر وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله (واذكروا إذ أنتم قليل) الآية، قال كان هذا الحي أذل الناس ذلاً وأشقاه عيشاً وأجوعه بطوناً، وأعرأه جلوداً وأبينه ضلالة، معكوفين على رأس حجر بين فارس والروم لا والله مافي بلادهم ما يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقياً ومن مات منهم ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، لا والله ما علم قبيلاً من حاضر الارض يومئذ كان أشر منزلاً منهم، حتى جاء الله بالاسلام فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالاسلام أعطى الله مارأيتم فاشكروا لله نعمه، فان ربكم منعم بحب الشكر وأهل الشكر في مزيد من الله عز وجل وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله (يتخطفكم الناس) : في الجاهلية بمكة (فَأَوَّكِم) الى الاسلام، وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ في قوله (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الارض تخافون أن يتخطفكم الناس) قيل يا رسول الله: ومن الناس؟ قال «أهل فارس» وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله (فَأَوَّكِم) قال الى الانصار بالمدينة (وأيدكم بنصره) قال يوم بدر اه ومن العبرة في الآيات انها حجاج تاريخية اجتماعية على كون الاسلام إصلاحاً أورث ويورث من اهتدى به سعادة الدنيا والسيادة والسلطان فيها قبل الآخرة، ولكن أعداءه الجاحدين لهذا على علم قد شوهاوا تاريخه، وصدوا الناس عنه بالباطل - وان أهله قد هجروا كتابه وتركوا هدايته وجهلوا تاريخه، ثم صاروا

يقلدون أولئك الاعداء في الحكم عليه حتى زعموا انه هو سبب جهلهم وضعفهم وزوال ملكهم الذي كان عقوبة من الله تعالى لخلفهم الطالح على تركه ، بعد تلك العقوبة لسلفهم الصالح على الفتنة بالتنازع على ملكه . فالى متى الى متى أيها المسلمون ؟ إنا لله وإنا اليه راجعون

(٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا  
أَمَنَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨) وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ  
فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

قد بينا وجه التناسب بين هذه النداءات الإلهية للمؤمنين وما قبلها وما بعدها الى آخر هذا الجزء . وورد في سبب نزول هذا النداء بالهي عن الخيانتين هنا من حديث جابر ان أبا سفيان خرج من مكة — وكان لا يخرج إلا في عداوة الرسول (ص) والمؤمنين — فأعلم الله رسوله بمكانه ، فكتب رجل من المنافقين الى أبي سفيان: إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم . فأنزل الله (لا تخونوا الله والرسول) الآية . والمراد ان فيها تعريضاً بفعلة المنافق الذي يدعي الايمان بأن عمله خيانة تنافيه . والخيانة للناس وخدمهم من أركان النفاق كما ثبت في الحديث الصحيح - وسيأتي - فكيف بمثل هذه الخيانة لله والرسول والمؤمنين ؟

وفي عدة روايات عن عبدالله بن قتادة والزهري والكلبي والسدي وعكرمة أنها نزلت في أبي ليابة (رض) فانه كان حليفاً لبني قريظة من اليهود فلما خرج اليهم النبي (ص) بعد إجلاء إخوانهم من بني النضير أرادوا بعد طول الحصار أن ينزلوا من حصنهم على حكم سعد بن معاذ — وكان من حلفائهم من قبل غدرهم وتقضهم لعهد النبي (ص) فأشار اليهم أبو ليابة بأن لا يفعلوا وأشار الى حلقه يعني أن سعداً يحكم بذبحهم ، فنزلت الآية . قال أبو ليابة ما زالت قدماي حتى علمت اني خنت الله ورسوله - وفي رواية عبد بن حميد عن الكلبي ان «الجزء التاسع»

رسول الله (ص) بعث أبا لبابة الى قريظة وكان حليفا لهم ، بل روي انه كان وضع ماله وولده عندهم ، فأوماً بيده الى الذبح فأنزل الله الآية ( وذكرها ثم قال ) فقال رسول الله (ص) لامرأة أبي لبابة « أيصوم ويصلي ويغتسل من الجنابة؟ » فقالت انه يصوم ويصلي ويغتسل من الجنابة وبحب الله ورسوله . والمراد ان النبي (ص) شك في ايمانه حتى انه سأل امرأته هل يقوم في بيته بواجبات الاسلام ؟ فأجابته بصيغة التأكيد التي يجاب بها من أظهر شكه ، وفيه عبرة لنا قتي هذا الزمان الذين يخلصون الخدمة ويسدون النصيحة الى أعداء ملتهم وأوطانهم فيما يمكن لهم السلطان في بلادهم والسيادة على أمتهم

ولينظر المعتبر كيف عاقب أبو لبابة نفسه توبة الى الله تعالى : شذ نفسه على سارية من المسجد وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله عليّ - . كثر سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله (ص) هو الذي يحلني ، فجاه فحبه بيده . وغزوة بني قريظة كانت بعد غزوة بدر التي نزلت فيها سورة الانفال بسنين فيحتمل أن يكون المراد بنزول الآية في أبي لبابة أنها تناول فعلته - وهذا التعبير يكثر مثله عنهم فيما بسمونه أسباب النزول كما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره . ومن ذلك قول المغيرة بن شعبه : نزلت هذه الآية في قتل عثمان (رض) . ويحتمل أن تكون الآية نزلت بعد نزول السورة فألحقت بها بأمر الله لرسوله (ص)

ومهما يكن سبب النزول فالآية عامة تشمل كل خيانة ولذلك فسر ابن عباس خيانة الله بترك فرائضه وارتكاب معصيته ، والأمانة بكل ما ائتمن الله عليه العباد بأن لا ينقضها رواه عنه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم .

والخيانة في أصل اللغة تدل على معنى الاخلاف والخيبة بنقض ما كان يرجى ويؤمل من الخائن أو نقص شيء منه ينافي حصوله وتحققه . ومنه : خانه سيفه ، اذا نبا عن الضريبة : وخائنه رجلاه اذا لم يقدر على المشي ، وخان الرشاء الدلو اذا انقطع . ومن معنى النقص أو الاتقصاء في المادة قوله تعالى ( علم الله أنكم كنتم تختانون

أنفسكم) أي تنقصونها بعض ما أحل لها من الذوات، ومثله التخون ويترقان في معنى الصيغة قال الزمخشري في الأساس: وتخون فلان حقي إذا تنقصه كأنه خانه شيئاً فشيئاً، وكل ما غيرك عن حالك فقد تخونك، قال لبيد \* تخونها نزولي وارتحالي \* اه  
وقال في تفسير الآية من الكشاف وتبعه غيره: معنى الخون النقص كما أن معنى الوفاء التمام ومنه تخونه إذا تنقصه، ثم استعمل في ضد الامانة والوفاء، لانك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه اه وما قلناه أولاً أهم من هذا وأشمل لما ورد من الاستعمال في كلام الله وكلام العرب. وقال الراغب الحيانة والنفاق واحد إلا ان الحيانة تقال اعتباراً بالعهد والامانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدين، ثم يتداخل الخ ما قاله وهو يدخل في عموم ما قلناه ولا يصح كونه حاداً تاماً والمعنى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ﴾ تعالى بتعطيل فرائضه أو تعدي حدوده وانتهاك محارمه التي بينها لكم في كتابه ﴿ والرسول ﴾ بالرغبة عن بيانه لكتاب الله تعالى الى أهوائكم، أو ارتداء مشايخكم أو آبائكم، أو المخافة عن أمره الى أوامر أمرائكم وترك سنته الى سنة أوليائكم، بناء على زعمكم انهم أعلم بما راد الله ورسوله منكم ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ أي ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولياء أموركم من الشئون السياسية ولا سيما الحربية وفيما بينكم بعضكم مع بعض من المعاملات المالية وغيرها حتى الاجتماعية والادبية فقد ورد في الحديث « المجالس بالامانة » رواه الخطيب من حديث علي وحسنه وأبو داود عن جابر بزيادة « إلا ثلاثة مجالس : سفك دم حرام أو فرج حرام أو اقتطاع مال بغير حق » وهو حسن أيضاً، وروى أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه والضياء من حديث جابر أيضاً « اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة » ورواه أبو يعلى عن أنس، وأشار في الجامع الصغير الى صحته. فافشاء السر خيانة محرمة ويكفي في العلم بكونه سرّاً القرينة القولية كقول محدثك : هل يسمعون أحد؟ أو الفعلية كالانفتاح لرؤية من عساه يجي. . وآكد أمانات السر وأحقها بالحفظ ما يكون بين الزوجين  
الحيانة من صفات المنافقين، والامانة من صفات المؤمنين، وقال أنس بن مالك : قلما خطبنا رسول الله (ص) إلا قال « لا إيمان لمن لا عهد له، ولا دين



لمن لا عهد له « رواه أحمد وابن حبان في صحيحه . وروى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ان النبي (ص) قال « آية المنافق ثلاث: اذا حدث كذب، واذا وعد أخلف ، واذا اتمن خان » زاد مسلم « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » وقد ورد في الاحاديث إطلاق الامانة على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والامان، وليس المراد بهذا الحصر ، بل كل ما يجب حفظه فهو أمانة ، وكل حق مادي أو معنوي يجب عليك أدائه الى أهله فهو أمانة . قال الله تعالى في سورة البقرة (٢: ٢٨٣) فان آمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن امانته، وابتق الله ربه ولا يبغض منه شيئاً) وقال في سورة النساء (٤ : ٧٥) إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ( وقد أوردنا في تفسير آية النساء هذه مباحث نفيسة في الامانات والعدل منها (المسألة الثالثة) في أنواع الامانة ( والمسألة السادسة ) في حكمة تأكيد الأمر بالامانة . وأوردنا في هذه ماقاله حكيم الشرق السيد جمال الدين الافغاني في بيان كون الامانة من الصفات الدينية التي قام عليها بناء المدينة وبها حفظ العمران ولاصلاح لحال أمة ولا بقاء لدولة بدونها لان عليها مدار الثقة في جميع المعاملات (١) وناهيك بما عظم الله من أمر الامانة في قوله (٣٣ : ٧١) إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ) وأما قوله ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ فمعناه والحال أنكم تعلمون مفسد الحياة وتحريم الله تعالى إياها وسوء عاقبة تلك المفسد في الدنيا والآخرة ، أو تعلمون ان مافعلتموه خيانة لظهوره ، وأما ما خفي عنكم حكمه فالجهل له عذر إذالم يكن مما علم من الدين بالضرورة أو مما يعلم ببداهة العقل ، أو استفتاء القلب ، كفعلة أبي ابابة التي كانت هفوة سببها الحرص على المال والولد ، ولذلك فطن لها قبل أن يبرح موقعه (رض) ولما كان حب الاموال والاولاد مزلة في الخيانة أعلمنا به عقب النهي عنها فقال ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنه ﴾ الفتنه هي الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه أو قبوله أو إنكاره، فتكون في الاعتقاد والاقوال والافعال والاشياء . يمتحن الله المؤمنين والكافرين ، والصادقين والمنافقين ، ويحاسبهم

ويجزئهم بما يترتب على فتنهم من اتباع الحق أو الباطل ، وعمل الخير أو الشر ، وقد تقدم الكلام في الفتنه سراراً من وجوه . وفتنة الاموال والاولاد عظيمة لا تخفى على ذي فهم إلا ان الافهام تتفاوت في وجوها وطرقها ، فأموال الانسان عليها مدار معيشته وتحصيل رغائبه وشهوانه ودفع كثير من المنكاره عنه ، فهو يتكاف في كسبها المشاق ويركب الصعاب ، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ، ويرغبه في القصد والاعتدال ، ثم انه يتكلف العناء في حفظها ، وتتنازعه الاهواء المتناوحة في انفاقها ، فالشرع يفرض عليه فيها حقوقاً مقدرة وغير مقدرة ، ومعينة وغير معينة ، ومحصورة وغير محصورة ، كالزكاة ونفقات الأزواج والاولاد وغيرهم ، وكفارات بعض الذنوب المعينة من عتق وصدقة ونسك وغير ذلك . ويندب له نفقات أخرى للمصالح العامة والخاصة تكفر الذنوب غير المعينة ، ويترتب عليه شيء عظيم من الأجر والثواب . والضابط لجميع أنواع البذل من صفات النفس السماحة والسخاء من أركان الفضائل ، ولجميع أنواع الامساك البخل وهو من أمهات الرذائل ، ولكل منهما درجات ودرجات .

وأما الاولاد فهم كما يقول الادباء : ثمرة الفؤاد وأفلاذ الاكباد ، وحبهم كما قال الاستاذ الامام : ضرب من الجنون يلقيه الفاطر الحكيم في قلوب الامهات والآباء ، يحملها على بذل كل ما استطاع بذله في سبيلها من مال وصحة وراحة وغير ذلك ، بل روى أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً الى سيد الحكماء وخاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم « الولد ثمرة القلب وانه مجبنة مبخلة محزنة » فان كان سنده ضعيفاً كما قالوا فتنه صحيح ، فحب الولد قد يحمل الوالدين على اقتراف الآثام في سبيل تربيتهم والانفاق عليهم وتأثيل الثروة لهم : يحملها ذلك على الجبن عند الحاجة إلى الدفاع عن الحق أو الحقيقة ، أو ائمة والامة ، وعلى البخل بالزكاة والنفقات المفروضة ، والحقوق الثابتة ، دع صدقات التطوع والضيافة ، كما يحملها الحزن على من يموت منهم على السخط على الرب تعالى والاعتراض عليه وغير ذلك من المعاصي كذوح الامهات وتمزيق ثيابهن واطم وجوههن ، ففتنة الاولاد لها جهات كثيرة فهي أكبر من فتنه الاموال وأكثر تكاليف مادية ونفسية وبدنية ، فالرجل يكسب الحرام

ويأكل أموال الناس بالباطل لأجل أولاده كما يفعل ذلك لكبار شهواته ، فإذا قلت شهواته في الكبر فصار يكفيه القليل من المال يقوى في نفسه الحرص على شهوات أولاده ، وما يكفي الواحد لا يكفي الآحاد ، وفتنة الاموال قد تكون جزءاً من فتنة الاولاد ، فتقدمها وتأخير فتنة الاولاد من باب الانتقال من الأدنى إلى الأعلى فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة الاولى بكسب المال من الحلال ، وانفاقه في سبيل الله من البر والاحسان ، واتقاء الحرام من الكسب والانفاق ، واتقاء خطر الفتنة الثانية من جهة ما يتعلق منها بالمال وغيره مما يشير اليه الحديث ، وبما أوجب الله على الوالدين من حسن تربية الاولاد على الدين والفضائل ، وتجنبيهم أسباب المعاصي والردائل ، قال الله تعالى ( يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ) وقد عطف على هذا التحذير قوله ﴿ وإن الله عنده أجر عظيم ﴾ لتذكير المؤمنين بما يعينهم على ما يجب عليهم من اتقاء الفتنتين وهو إيثار ما عند الله عز وجل من الاجر العظيم لمن راعى أحكام دينه وشرع في الاموال والاولاد ووقف عند حدوده وتفضيها على كل ما عساه يفوته في الدنيا من التمتع بهما ، لعلمهم يتقون مثل هفوة أبي لبابة حين حذر أعداء الله ورسوله من فتح حصنهم والنزول على حكم سعد بن معاذ ، لما كان له من الاعتماد عليهم في حفظ ماله وولده ، على أن للمؤمن الصادق حسن قدوة بأبي لبابة في توبته النصوح ، اذا ألم به ضعف فوقع في مثل هفوته أو مادونها من خيانة ، وأين مثل أبي لبابة رضي الله عنه في ذلك ؟ ونحن نرى كثيراً ممن يدعون الايمان يخونون الله ورسوله في انتهاك حرمت دينهم ، ويخونون أمتهم ودولتهم بضمن قليل أو كثير من المال يرجونه أو ينالونه من عدوهم ، وقد يكون من مال أمتهم وغنائم وطنهم أو خوفاً على مالهم وولدهم من سلطانه قبل أن يستقر له السلطان ، وقد أسقطت الحياة دولة كانت أعظم دول الارض قوة وبأساً بارتكاب رجالها الرشوة من أهلها ومن الاجانب حتى مسخت فصارت دولة صغيرة فقيرة ، واسكن الخلف المغرور لذلك السلف الحرب يدعون انما أسقطها تعاليم الاسلام القوية ، لأنها صارت قديمة ، ولو أنهم أقاموا واجبا واحداً أو أدبا واحداً من آداب القرآن ، لكان كافياً لوقايتها من الزوال .

(٢٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ  
عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

هذه الآية آخر وصايا المؤمنين في هذا اسباق وهي أعما ، والاصل الجامع لها ولغيرها ، وكلمة الفرقان فيها كلمة جامعة ككلمة التقوى في مجيئها من مطلقة ، فالتقوى هي الشجرة ، والفرقان هو الثمرة ، وهو صيغة مبالغة من مادة الفرق ومعناها في أصل اللغة لفصل بين الشئين أو الاشياء ، والمراد بالفرقان هنا العلم الصحيح والحكم الحق فيها ، ولذلك فسروه بالنور ، وذلك أن الفصل والتفريق بين الاشياء والامور في العلم هو الوسيلة للخروج من حيز الاجمال إلى حيز التفصيل ، وإنما العلم الصحيح هو العلم التفصيلي الذي يميز بين الاجناس والاعوان والاصناف والاشخاص ، وإن شئت قلت بين الكليات والجزئيات ، والبسائط والمركبات ، والنسب بين أجزاء المركبات ، من الحسيات والمعنويات ، ويبين كل شيء من ذلك ويعطيه حقه الذي يكون به ممتازاً من غيره . وإيراد الامثلة على ذلك يطول فيشغل عن القدر المحتاج اليه في تفسير لفظ الفرقان إلا أن نترك عوالم المادة وقواها ونأتي بمثال من اللفظ لان معظم الفرقان من مفرداتها فنقول إن العامي يعلم من اللفظ أمراً أجمالياً وهو أنها اللفظ يعبر بها الانسان عما يحتاج إلى بيان من علمه ، ومن العلم التفصيلي فيها ما هو مبين في علم النحو والصرف وفي علوم المعاني والبيان والبديع والوضع والاشتقاق وأصول الفقه — كالعام والخاص ونطلق والمقيد من الاخير مثلاً — وأنت ترى انك بهذا البيان الوجيز لمعنى الفرقان قد انضح لك من دلالة على العلم الصحيح والحكم الرجيح ما كان خفياً ، وفصل منها ما كان مجملًا ولذلك نعده من تفسير اللفظ لا استطراداً أجنبيًا ، ولا سيلا أتياً ، كما كثر الذي يأتيه أكثر المفسرين من مباحث النحو وقنون البلاغة وغيرها . وكما يكون الفرقان في مسائل العلوم وموادها من طبيعية وعقلية لغوية ، وفي الموجودات التي استنبطت العلوم منها يكون في الاحكام والشرائع والاديان ، وفي الحكم بين الناس في المظالم والحقوق وفي الحروب ، وقد أطلق الفرقان على

أشهر الكتب الالهية وهي التوراة والانجيل والقرآن وغلب على القرآن ( تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ) لان كلام الله تعالى يفرق في العلم والاعتقاد بين الايمان والكفر والحق والباطل ، وفي الاحكام بين العدل والجور ، وفي الاعمال بين الصحيح والفساد والخير والشر . وأطلق هذا اللفظ على يوم بدر كما سيأتي في هذه السورة مع بيان وجهه ومتملق فصله وتفرقة

فقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ معناه إن تتقوا الله في كل ما يجب أن يتقى بمقتضى دينه وشرعه ، وبمقتضى سننه في نظام خلقه ، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل ، وتفصلون بين الضار والنافع ، وتميزون بين النور والظلمة ، وتزيبون بين الحجة والشبهة . وقد روي عن بعض مفسري السلف تفسير الفرقان هنا بنور البصيرة الذي يفرق بين الحق والباطل وهو عين ما فصلناه من الفرقان العلمي الحكمي ، وعن بعضهم بالنصر يفرق بين الحق والباطل ، بما يعز المؤمن ويذل الكافر ، وبالنجاة من الشدائد في الدنيا ومن العذاب في الآخرة . وهذا من الفرقان العلمي الذي هو ثمرة العلمي ذكر كل مارآه مناسباً لحال وقته أو حال من تقته ذلك ، ولم يقصد تحديد المدلول اللغوي ، ولا المعنى الكلبي الذي هو ثمرة التقوى بأنواعها ، وهذا النور في العلم الذي لا يصل اليه طالبه الا بالتقوى هو الحكمة التي قال الله فيها ( يؤت الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا أولو الالباب ) فهو كعهد الله في إمامة الناس بالحق لا ينال الظالمين لأنفسهم بالتقليد غيرهم لا حتقارها في جنب اطرائهم لمقلديهم ، بل هم لا يطلبونه ولا يقصدون الوصول اليه لانهم صدقوا بعض الجاهلين في ادعائهم اقفال بابيه ، وكثافة حجابيه ، بل أصحابه هم الائمة المجتهدون في الشرع والدين والواضعون للعلوم التي تنفع الناس ، وكان لشيخنا الاستاذ الامام حظ عظيم منه

أما الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه باتقائه وابتقاء النار وابتقاء الشرك والمعاصي وابتقاء الفتن العامة في الدول والامم وتقدم في وصايا هذا السياق - وابتقاء الفشل والخذلان في الحرب وابتقاء ظلم النساء ، وبين ان العاقبة في إرث الارض

( الانفال ص ٨ ) كل التقوى يشمر الفرقان وهما وكل الاسلام المصلح للانام ٦٤٩

للمتقين ، كما أن الجنة في الآخرة للمتقين ، وقال ( ٤٢:٦٥ ) ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب \* ومن يتق الله فهو حسبه \* ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ) وأمثال ذلك في التقوى العامة والخاصة وأجرها وعاقبتها كثير ، فمعنى التقوى العام اتقاء كل ما يضر الانسان في نفسه وفي جنسه الانساني القريب والبعيد وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والغايات الحسنة والسكالم الممكن ولذلك قال العلماء انها عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصي وفعل ما يستطاع من الطاعات . وزدنا على ذلك اتقاء الاسباب الدنيوية المانعة من السكالم وسعادة الدارين بحسب سنن الله تعالى في الكون كالتصبر على الاعداء ، وجعل كلمة الله هي العليا في الارض ، كما هي في الواقع ونفس الامر ، وكلمة الذين كفروا السفلى كذلك . وكل ذلك يتوقف على العلم الواسع بالكتاب والسنة - وكل هذابتوقف على معرفة سنن الله تعالى في الانسان مجتمعاً ومنفرداً كما أوردنا في آيات من كتابه ، ومن ثم كانت ثمرة التقوى العامة الكاملة هنا حصول ملكة الفرقان التي يفرق صاحبها بنوره بين الاشياء التي تعرض له من علم وحكم وعمل فيفصل فيها بين ما يجب قبوله وما يجب رفضه ، وبين ما ينبغي فعله وما يجب تركه ، وتنكير الفرقان للتنويع التابع لانواع التقوى كالفتن في السياسة والرياسة والحلال والحرام والعدل والظلم ، فكل متق لله في شيء يؤتاه فرقانا فيه وبذلك كان الخلفاء والحكام من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من خلفاء العرب أعدل حكم الامم في الارض حتى في عهد الفتح ، قال بعض حكماء الافرنج : ما عرف التاريخ فائحا أعدل ولا أرحم من العرب ، ولكنهم لم يتقوا فتن السياسة والرياسة لقلة اختبارهم فعوقبوا عليها بفرقهم فضعفهم نزوال ملكهم وكان من بعدهم من أعاجم المسلمين دونهم لجهلهم بكل نوع من أنواع التقوى الواجبة ، وحرمانهم من فرقانها يزعمون أنهم يجددون مجدهم مع جهل هذا الفرقان المبين ، وعدم الاعتصام بالتقوى المزكية للنفس ، المؤهلة لها للاصلاح في الارض ، بل مع انغماسهم في السكر والفواحش لظنهم ان الافرنج قد ترقوا في دنياهم بفساقهم ونجارهم ، وانما ترقوا بحكائهم وأبرارهم ، الذين

وقفوا حياتهم على العلم والعمل النافع ﴿ ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ﴾

هذا عطف على ( يجعل لكم فرقانا ) أي ويعجوبسبب هذا الفرقان وتأثيره ما كان من تدنيس سيئاتكم لأنفسكم فنزول منها داعية العود اليها المؤدي إلى الاصرار المهلك ويفقرها لكم بسترها وترك العقاب عليها ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ ومن أعظم فضله أن جعل هذا الجزاء العظيم بقسميه السلي والايجابي جزاء للتقوى وأرأها

(٣٠) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ (٣١) وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

هاتان الآيتان وما بعدها تذكير للنبي ﷺ بما كان من حاله وحال قومه معه في مكة كما سبقت الإشارة إلى ذلك وقد حسن هذا التذكير بذلك في أول العهد بنصره تعالى له على أولئك الجاحدين المعاندين، الفاتنين المفتونين ، الصادين عن سبيل الله تعالى وعن اتباع رسوله بالقوة القاهرة

قال عز وجل ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي واذكر أيها الرسول في نفسك ، مانقصة في الكتاب على المؤمنين والكافرين في عهدك ومن بعدك ، لانه حجة لك على صدق دعوتك ، ووعد ربك بنصرك - اذكر ذلك الزمن القريب الذي يَمْكُرُ بِكَ فِيهِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِكَ فِي وَطْنِكَ ، بما يدبرون فيما بينهم بالسر من وسائل الايقاع بك ﴿ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ فأما الاثبات فالمراد به الشد بالوثاق والارهاق بالقييد والحبس المانع من لقاء الناس ودعوتهم إلى الاسلام وأما القتل فالمكر فيه طريقته وصفته الممكنة التي لا يكون ضررها فيهم عظيما وهو ما بينته الرواية الآتية عنهم ، وأما الاخراج فهو النفي من الوطن ، وقد روى كبار مصنفى التفسير المأثور أن أبا طالب قال للنبي ﷺ : ما يأمر به قومك ؟ قال

« يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني » قال من حدثك بهذا ؟ قال « ربي » قال نعم الرب ربك فاستوص به خير أقال « أنا استوصي به ؟ بل هو يستوصي بي » فترت ( وإذ بمكر بك الذين كفروا ) ولهذا قال ابن جرير ان الآية مكية وهو قول ضعيف كما تقدم في الكلام على نزول السورة في أول تفسيرها والصحيح ان التشاور في الامور الثلاثة بدار الندوة كان عقب موت أبي طالب وخديجة رضي الله عنها وكان الخروج للهجرة في الليلة التي أجمعوا فيها أمرهم على قتله ﷺ كما يأتي بيانه ، ويجوز أن يكونوا قد تحدثوا به قبل اجماعه واردة الشروع فيه الذي وقع بعد موت أبي طالب فبلغه فسأل النبي ﷺ عنه

وأما قوله تعالى ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ فهو بيان لحالهم العامة الدائمة في معاملته ﷺ هو ومن اتبعه من المؤمنين بعد التذكير بشر ما كان منها في مكة ولذلك لم يقل « ويمكرون بك » أي وهكذا دأبهم معك ومع من اتبعك من المؤمنين يمكرون بكم ويمكر الله لكم بهم كما فعل من قبل إذ أحبط مكرهم ، وأخرج رسوله من بينهم ، إلى حيث مهد له في دار الهجرة ، ووطن السلطان والقوة ، والله خير الماكرين لان مكره نصر للاحق واعزاز لأهله ، وخذل للباطل واذلال لأهله ، واقامة للسنن ، وأمام للحكم ، وقد بينا حقيقة المكر في اللغة في تفسير قوله تعالى (٣: ٥٤) ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وفي تفسير ( ٧ : ٩٨ أفأمنوا مكر الله ) الآية وخلاصته ان المكر هو التدبير الخفي لا يصلح المكروه إلى الممكور به من حيث لا يحتسب ، ووقاية الممكور له من المكروه كذلك . والغالب في عادات البشر أن يكون المكر فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل ولذلك تناول المفسرون ما أسند إلى الله تعالى منه فقالوا في مثل هاتين الآيتين — آية الانفال وآية آل عمران — أنه أسند إلى الله تعالى من باب المشاكلة بتسمية تحييب سعيهم في مكرهم أو مجازاتهم عليه باسمه ، والحق ان المكر منه الخير والشر والحسن والسيئ . كما قال تعالى ( ٤٣: ٣٥ ) استكباراً في الارض ومكر السيئ ولا يجيق المكر السيئ إلا بأهله ) ومن الدعاء المرفوع « وامكر لي ولا تمكر علي » رواه أبو داود ويراجع تفسير آية آل عمران من الجزء الثالث وتفسير آية الاعراف من الجزء التاسع



وأما قصة مكرم الذي ترتب عليه هجرة المصطفى وظهور الاسلام وخذلان  
الشرك ففيها روايات أوفاه رواية ابن اسحاق في سيرته وابن جرير وابن المنذر  
وابن أبي حاتم في تفاسيرهم وأبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس (رض)  
بألفاظ متقاربة نقل ماورد السيوطي في الدر المنثور منها عنه قال  
ان نفرأ من قريش ومن أشرف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دارالندوة واعترضهم  
ابليس في صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا من أنت ؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت  
بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم ولئن يعدمكم مني رأيي ونصح ، قالوا أجل  
فادخل فدخل معهم فقال انظروا في شأن هذا الرجل فوالله ليوشكن أن يؤاتكم  
في أمركم بأمره فقال قائل احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كماهلك  
من كان قبله من الشعراء زهير ونابعة فأنما هو كأحدهم فقال عدو الله الشيخ النجدي  
لا والله ما هذا لكم برأيي والله ليخرجن رائد من محبسه لأصحابه فليوشكن أن  
يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ثم يمنعوه منكم فما آمن عليكم أن يخرجوكم  
من بلادكم فانظروا في غير هذا الرأي ، فقال قائل فاخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا  
منه فإنه إذا خرج لم يضركم ماصنع وأين وقع وإذا غاب عنكم أذاه استرحم منه  
فإنه إذا خرج لم يضركم ماصنع وكان أمره في غيركم فقال الشيخ النجدي لا والله  
ما هذا لكم برأيي ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه للقلوب بما تسمع من  
حديثه ، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن إليه ثم ليسيرن اليكم حتى  
يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرفكم ، قالوا صدق والله فانظروا رأيا غير هذا فقال  
أبوجهل والله لأشيرن عليكم برأيي لا أرى غيره قالوا وما هذا ؟ قال نأخذ من  
كل قبيلة غلاما وسطا شابا نهدأ ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضر بونه به  
ضربة رجل واحد فاذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها فلا أظن هذا الحي من  
بني هاشم يقدرن على حرب قريش كلهم وأنهم اذا رأوا ذلك قبلوا العقل  
واسترحنا وقطعنا عنا أذاه فقال الشيخ النجدي هذا والله هو الرأي القول ما قال  
الفتى لا أرى غيره وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له ، فأتى جبريل عليه السلام رسول  
الله ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم

(الانفال س ٨) زعم بعضهم أنها لو شاء، قال مثل القرآن لأنه أساطير ٦٥٢

فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك في الخروج وأمرهم بالهجرة وافترض عليهم القتال فأنزل الله (أذن للذين يقاتلون) فكانت هاتان الآيتان أول ما أنزل في الحرب وأنزل بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه (وإذ يمدركم الذين كفروا) الآية اه وسائر خبر الهجرة معروف

ثم ذكر تعالى مكابرة من مكابرات هؤلاء المشركين المعاندين الماكرين قالها بعضهم فأعجبت أمثاله منهم فردوها فعزيت اليهم على الاطلاق وهي ﴿ واذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ المنزلة في القرآن ، الذي يعجز عن مثله الثقلان ، فيما أودع من علم وحكمة وتشريع وقصص وبيان ، وماله من التأثير في نفس كل انسان ، بقدر ما أوتي من بلاغة وعقل وقلب ووجدان ﴿ قالوا لو نشاء اقلنا مثل هذا ﴾ نقل هذا القول جمهور رواة التفسير المأثور عن النضر بن الحارث من بني عبدالدار وعلل هذه الدعوى الكاذبة بما هو أكذب منها وهو قوله ﴿ إن هذا إلا أساطير الاولين ﴾ أي قصصهم وأحاديثهم التي سطرت في الكتب على علاتها وما هو بوحى من عند الله تعالى . قال المبرد في أساطير: هي جمع أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأثنية وأثافي وأحدوثة وأحاديث وفي القاموس الاساطير الاحاديث لانظام لها جمع أسطار وأساطر وأسطور وبالها . في الكل . وأصل السطر الصف من الشيء ، كالكتاب والشجر اه . قال المفسرون وكان النضر هذا يختلف إلى أرض فارس فيسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وكبار العجم ويعر باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والانجيل ، كأنهم يعنون أن أخبار القرآن عن الرسل وأقوامهم اشتبهت عليه بقصص أولئك الأمم فقال انه يستطيع أن يأتي بمثلها فما هي من خبر الغيب الدال على أنه وحى من الله . ولعله أول من قال هذه الكلمة فقلده فيها غيره ، ولم يكونوا يعتقدون أنها أساطير مختلفة ، وأن محمداً ﷺ هو الذي اقترأها ، فانهم لم يكونوا يتهمونه بالكذب كما نقل عن كبار طوائفهم ومنهم النضر بن الحارث ، وقد قال تعالى في ذلك (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) بل كانوا يوهمون عامة العرب أنها كتبها وجمعها كما في آية الفرقان (٢٥ : ٥) وقالوا أساطير الاولين اكتبها فهي على بكرة وأصيلا) أي يحفظها ولم يكن كبار مجرمي قريش ولا أهل مكة يعتقدون هذا أيضا

فانهم كلهم كانوا يعلمون أنه أمي لم يتعلم شيئاً، بل تشاوروا في شيء، يقولونه ليصدوا به العرب عن القرآن فكان هذا القول منه، وقد كذبهم الله تعالى فيه فما استطاعوا له اثباتاً وكان النضر بن الحارث من أشدهم كتمراً و عناداً، وحرصاً على صد الناس عن القرآن، وقد روي عنه أنه هو الذي نزل فيه قوله تعالى ( ٣١ : ٦ ) ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً ) اذ اشترى قبينة جميلة كانت نهي الناس بأخبار الأمم وغير ذلك لصرفهم عن سماع القرآن اليها وهو الذي نزلت فيه الآية التي بعد هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها وهي الدالة على منتهى الجحود والعناد على قول بعض الرواة

وهذا القول الذي قاله النضر لا يدل على أنه كان يرى من نفسه القدرة على معارضة القرآن في أسلوبه أو بلاغته وتأثيره وهو من بلغاء قريش اذ لو قدر لفعل لانه كان من أحرصهم على تكذيبه بل هو طعن في أخبار القرآن عن الرسل لتشكيك العرب فيه وصرفاً عنه، وقد حكي الله تعالى عنهم أنهم قالوا « اقترأ » وقد يكون بعضهم اعتمد ذلك اذا كان نفي الله لتكذيبهم اياه خاصاً ببعضهم كالوليد بن المغيرة الذي قال لابي جهل والاحنس وغيرهما حين دعوه لتكذيبه إن محمداً لم يكن يكذب على أحد من الناس أفيكذب على الله ؟ وقد شمل التحدي بالقرآن هؤلاء المقترين عن اعتقاد أو غير اعتقاد إذ قال في سورة يونس ( ١٠ : ٣٨ ) أم يقولون اقترأ قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ) أي بسورة مثله مفترأة كما صرح بالوصف في سورة هود فقال ( ١١ : ١٣ ) أم يقولون اقترأ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتربات ) الخ وبيننا الفرق بين هاتين الآيتين وآية سررة البقرة في التحدي عند تفسير هذه الاخيرة ( راجع ص ١٩٢ و ١٩٣ من الجزء الاول تفسير ) ولقد كان زعماء طوائف قريش كالنضر بن الحارث هذا وأبي جهل والوليد بن المغيرة يتواصون بالاعراض عن سماع القرآن كما بمنعون الناس منه ثم يختلفون أفراداً إلى بيت النبي ﷺ ليلا يستمعون اليه ويعجبون منه ومن تأثيره وسلطانه على العقول والقلوب وكان يلتقي بعضهم ببعض أحياناً فيتلاومون ويؤكد بعضهم لبعض القول بعدم العود إلى ذلك، ومما كان من تأثير استماعهم أن قال الوليد بن المغيرة

[ لانفال: س ٨ ] تفضيلهم الهلاك والعذاب على الايمان بالقرآن إن كان حقا ٦٥٥

فيه كلمته المشهورة في وصفه ومنها أنه يعلو ولا يعلى وأنه يحطم ما تحته . فخافوا أن تسمعها العرب فما زالوا يلحون عليه في قول كلمة منفرة تؤثر عنه حتى اذا ما أقنعوه بوجود ذلك أطل التفكير والتقدير والنظر والتأمل والعبوس والتقطيب حتى اهتدى إلى الكلمة الماثورة عن جميع مكذبي الانبياء في تسمية آياتهم سحراً فقال: سحر يوتر - وقد تقدم بيان عذا في بحث الاعجاز من تفسير آية البقرة في التحدي .

(٣٢) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٣) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٤) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءُ لَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٥) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَّاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

بعد أن بين تعالى مكر قريش بالنبي ﷺ بين ما يدل على أن سببه الحجود والعتاد فقال

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ

السماء او ائتنا بعذاب اليم في صحيح البخاري أن قائل هذا ابو جهل . قال الحافظ في شرحه من الفتح الظاهر انه ابو جهل وان كان هذا القول نسب الى جماعة فلعله بدأ به ورضي الباقر قدس سره ، وقد روى الطبراني من طريق ابن عباس ان قائل ذلك هو النضر بن الحارث قال فأنزل الله ( سأل سائل بعذاب واقع ) وكذا قال مجاهد وعطاء والسدي ولا ينافي ذلك ما في الصحيح لاحتمال ان يكونا قالا له ولكن نسبه الى ابي جهل اولى ، وعن قتادة قال : قال ذلك سفهة هذه الامة وجهلتها . اه وقال القسطلاني في شرحه له : وروي ان النضر بن الحارث لعنه الله لما قال ( ان هذا إلا اساطير الاولين ) قال النبي (ص) «ويلك انه كلام الله» فقال هو وا ابو جهل

٦٥٦ كان المانع من عذاب أهل مكة وجود الرسول فيهم والاستغفار (التفسير ج ٩)

( اللهم ان كان هذا ) الخ واسناده إلى الجمع اسناد ما فعله رئيس القوم اليهم اه والمعنى اللهم ان كان هذا القرآن وما يدعو اليه هو الحق منزلا من عندك ليدين به عبادك كما يدعي محمد (ص) فافعل بنا كذا وكذا - اي انهم لا يتبعونه وان كان هو الحق المنزل من عند الله لانه نزل على محمد بن عبدالله الذي يلقبونه بابن أبي كبشة بل يفضلون الهلاك بحجارة يرمجون بها من السماء أو بعذاب اليم آخر يأخذهم على اتبائه ، ومن هذا الدعاء علم أن كفرهم عناد وكبريا ، وعتو وعلو في الأرض لا لان ما يدعوهم اليه باطل أو قبيح أو ضار ، روى أن معاوية قال لرجل من سبأ ما أجهد قومك حين ملكوا عليهم امرأة ؟ فقال أجهد من تومي قومك حين قالوا ( اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء ) ولم يقولوا فاهدنا له اه وما يحكيه القرآن من أقوال المشركين وغيرهم قد يكون بالمعنى دون نص اللفظ كما هو المعتاد بين الناس ، وقد يكون نظمه مع أدائه للمعنى بدون اخلال مما يعجز المحكي عنهم عن مثله ، وقد يتعين هذا في الكلام الطويل الذي يتحقق بمثله الاعجاز

قال تعالى ردا عليهم ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ أي وما كان من شأن الله تعالى وسنته ، ولا من مقتضى رحمته ولا حكمته ، ان يعذبهم وأنت أيها الرسول فيهم وهو انما أرسلك رحمة للعالمين ونعمة ، لا عذابا ونقمة ، بل لم يكن من سنته ايضا ان يعذب امثالهم من مكذبي الرسل وهم فيهم بل كان يخرجهم منهم أولا كما قال ابن عباس ﴿ وما كان الله معذبهم ﴾ هذا النوع من العذاب السماوي الذي عذب بمثله الامم فاستأصلهم او مطلقا ﴿ وهم يستغفرون ﴾ أي في حال هم يتلبسون فيها باستغفاره تعالى بالاستمرار روى الشيخان من حديث انس قال ابوجهل ( اللهم ان كان هذا هو الحق ) - الآية - فترات ( وما كان الله ليعذبهم ) الى قوله ( وما لهم أن لا يعذبهم الله ) الآية قال الحافظ في شرح الحديث من الفتح روى ابن جرير من طريق زيد بن رومان انهم قالوا ذلك ثم لما امسوا ندموا فقالوا اغفر انك اللهم فانزل الله ( وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ) وروى ابن أبي حاتم من طريق علي بن ابي طلحة عن ابن عباس ان معنى قوله ( وهم يستغفرون ) أي من سبق له من الله انه يؤمن وقيل المراد من كان بين اظهرهم حينئذ

من المؤمنين ، قاله الضحاك وابومالك ويؤيده ما أخرجه الطبري من طريق ابن ابيزى قال كان رسول الله (ص) بمكة فأنزل الله ( وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ) ثم خرج الى المدينة فأنزل الله ( وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ) وكان من بقي من المسلمين بمكة يستغفرون ، فلما خرجوا أنزل الله ( وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ) الآية . فأذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم الله تعالى . وروى الترمذي من حديث أبي موسى رفعه قال « أنزل الله على أمي أمانيه » فذكر هذه الآية قال « فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار » وهو يقوي القول الاول والحل عليه أولى وإن العذاب حل بهم لما تركوا التدم على ما وقع منهم وبالفوا في معاندة المسلمين ومحاربتهم وصددهم عن المسجد الحرام والله أعلم ما أورده الخافظ ويرد عليه ان الله عذبهم بالقحط لما دعا به عليهم النبي (ص) كما ثبت في الصحاح حتى أكلوا الميتة والعظام ولم يرتفع إلا بدعائه (ص) ولا يندفع إلا بتفسير العذاب المعتنع مع وجود الرسول والاستغفار بعذاب الاستئصال . ويؤيده أن ما عذب الله به قوم فرعون كان مع وجود موسى عليه السلام فيهم كما تقدم في سورة الاعراف والآيات نزلت مع السورة بالمدينة

وأما قوله تعالى ﴿ وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ أي وماذا ثبت لهم مما يمنع تعذيبهم بما دون عذاب الاستئصال عند زوال المانع منه بعد والحال أنهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام ولو للناسك ، قيل المراد به صدم النبي (ص) وأصحابه عام الحديبية سنة ست والآية نزلت عقب غزوة بدر سنة اثنتين والمنع كان واقعاً منذ الهجرة ، ما كان يقدر مسلم أن يدخل المسجد الحرام فإن دخل مكة عذبه إذا لم يكن فيها من يجيره . والمراد بالعذاب هنا عذاب بدر إذ قتل صناديدهم وروس الكافر فيهم ومنهم أبو جهل وأمر سراتهم لا فتح مكة كما قال الخافظ - بل لم تكن الهجرة نفسها إلا بصد المؤمنين عنه فقد كانوا يؤذون من طاف أو صلى فيه منهم إذا لم يكن له منهم أو من غيرهم من الاقوياء من يمنعه ويحميه ، وقد وضعوا على ظهر الرسول (ص) قرث الجزور وهو ساجد فلم يتجرأ أحد على رميه عنه إلا بنته فاطمة عليها السلام - ومنعوا أبا بكر من

الصلاة وقراءة القرآن فيه فبنى لنفسه مسجداً كان يصلي فيه ويجهر بالقرآن فصدوه عن الصلاة فيه أيضاً لأن النساء والاولاد كانوا يجتمعون لسماع قراءته المؤثرة فخافوا عليهم أن يهتدوا الى الاسلام . وقد تقدم خبره في ذلك وإجارة ابن الدغنة له ثم اضطراه الى رد جواره وهو من حديث الهجرة في البخاري (راجع ص ٥٥٥)

﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ أي مستحقين الولاية عليه لشر كهم ومفاسد فيهم كطوافهم فيه عراة الاجسام رجالا ونساء ، ولما أجاب الله دعاء أبيهم ابراهيم بأن يجعل للناس أئمة من ذريته كما جعله إماما لهم أجابه الله تعالى بأن عهده بالامامة لا ينال الظالمين ، وأي ظلم أعظم شناعة وفساداً من الشرك ؟ (إن الشرك لظلم عظيم) وكانوا يقولون : نحن ولاية البيت والحرم فنصد من نشأ، وندخل من نشأ. <sup>(١)</sup> فقال تعالى ﴿ إن أولياءه إلا المتقون ﴾ للشرك وسائر الفساد والظلم وهم المسلمون الصادقون وقد وجدوا . وهذا غاية التأكيد فانه بعد أن نفى ولاية المشركين عن بيت الله تعالى نفى كل ولاية على الاطلاق واستثنى منها ولاية المتقين من المسلمين وهم عدو لهم وخيارهم لا من لا فضل لهم في أنفسهم ، وإنما يدعون حق الولاية بانسابهم . وقيل ان الضمير في الموضعين لله تعالى أي ولم لا يعذب الله هؤلاء المشركين بعد انتفاء سببي منع العذاب والحال انهم ليسوا أولياءه وأنصار دينه الذين لا يعذبهم ؟ وكان سائلاً يسأل : من أولياءه تعالى إذا ؟ فأجيب بصيغة الحصر بالاثبات بعد النفي : ما أولياءه إلا المتقون . أي الذين صارت التقوى العامة صفة راسخة فيهم ، وتقدم ما يدل عليه هذا الاطلاق فيها من التفصيل في تفسير آية ( إن تقوا الله يجعل لكم فرقانا ) وما هي يبعيد . والقول الاول أقرب في هذا

« ١ » من العبر ان بعض شرفاء مكة الذين كانوا يتولون الحكم فيها الى عهد قريب قال هذا القول الشركي الجاهلي بعينه في الاسكندرية معبراً عن عقيدة أهل بيته بمناسبة ذكر ما كان من منعهم لاهل نجد من أداء فريضة الحج ، ونقل قوله مراسل بعض جرائد القاهرة من الاسكندرية في حديث له معه ، فكان انزاع الله منهم الولاية على البيت بأيدي من كانوا يصدونهم عنه وهم أهل نجد كما سبق للنبي (ص) والمؤمنين مع طغاة قريش الاولين . وقد آن للتعالمين بالانساب أن يفقهوا ان غرورهم بها مخالف للقرآن والوجدان والحنان وطبع هذا الزمان

السياق والثاني أخص ويؤيده في حد ذاته قوله تعالى ( ٦٢:١٠ ) ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ٦٣ الذين آمنوا وكانوا يتقون ) وبجوز الجمع بينهما ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ انه لا حق لهم في الولاية على هذا البيت ولا سيما بعد ظهور الاسلام ووجود أولياء الله الموحدين الصالحين ، وكانوا يدعون هذا الحق بنسبهم الابراهيمى وقد أبطله الظلم ، ويقوتهم في قومهم وإن كانت الى ضعف ، أو لا يعلمون أنهم ليسوا أولياء الله عز وجل ، ولا ان أولياءه ليسوا إلا المتقين فهم الآمنون من عذابه ، بمقتضى عدله في خلقه ، والحقيقون بالولاية على بيته ، على ما أعد لهم من الثواب والنعيم بفضله ، كما صرحت به آياته في كتابه . وقد أسند هذا الجهل الى أكثرهم إذ كان فيهم من لا يجهد سوء حالهم في جاهليتهم ، وضلالهم في شر كهم ، وكونه لا يرثي الله تعالى ، فإن امتنع رؤسائهم من الاسلام كبر أو عناداً ، فقد كان فيهم من يتختم إيمانه خوفاً من الفتنة ، ويتربص الفرصة لظهاره بالاستعداد للهجرة ، ومنهم المستعدون له بسلامة الفطرة ، ولتفاوت في الاستعداد كان يظهر المرة بعد المرة . والناس يطلقون الحكم في مثل الحال التي كانوا عليها على الجميع ويقولون ان القليل لا حكم له إن وجد فكيف ونحن لا نعلم بوجوده . ولكن الله تعالى لا يخفى عليه شيء ، ولا يقول إلا الحق ، ومثل هذا الحكم على أكثر الأمم والشعوب أو استثناء القليل منهم بعد إطلاق الحكم عليهم ، هو من دقائق القرآن في تحرير الحق ، وهو مكرر في مواضع من عدة سور ، وسبق تبييننا لهذا في تفسير ما تقدم منها .

هذا وإن جماهير المسلمين في أكثر بلادهم صاروا في هذا العصر أجهل من مشركي قريش في ذلك العصر بمعنى ولاية الله وأوليائه - سواء في ذلك ولاية الحكم والسلطان وهي الامامة العامة ، وولاية التقوى والصلاح ، وهي الامامة الشخصية الخاصة ، وجهلهم بهذه أعم وأعمق ، فالولاية عندهم تشمل المجانين والمجانين الذين ترتع الحشرات في أجسادهم النجسة ، وثيابهم القفيرة ، ويسبل اللعاب من أشداقهم الشرهة ، وتشمل أصحاب الدجل والخرافات ، والدعاوى الباطلة للسكرامات ، والشرك بالله بدعاء الاموات ، ومن أدلتهم عليها ما يتخيلون من رؤى الانبياء ، والاقطاب في المنام ، وما ينزعون من تلقيهم عنهم ما تنبذته شريعة المصطفى عليه السلام ، حتى صار ما هم



عليه دين شرك منافيا لدين الاسلام، فعليك بمطالعة كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لشيخ الاسلام ابن تيمية ومن أولى منه بمثل هذا الفرقان ؟  
ثم عطف على الحكم عليهم ما هو حجة على صحته وهو بيان حالهم في أفضل ما بني البيت لأجله وهو الصلاة، إذ كان سوء حالهم في الطواف عرارة معروفًا لا يجمله أحد، أوفي العبادة الجامعة للطواف والصلاة فقال ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ من المعلوم أن البيت إذا أطلق معرًا انصرف عندهم إلى بيت الله المعروف بالكعبة والبيت الحرام على القاعدة اللغوية في انصراف مثله إلى الأكل في جنسه كأنجم لثريا وهي أعظم النجوم هداية . روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانت قريش تطوف بالبيت عرارة تصفر وتصفق . وقال المكاء الصفير والتصدية التصفيق ، وقال كان أحدهم يضع يده على الأخرى ويصفر، وروي عنه أن الرجال والنساء منهم كانوا يطوفون عرارة مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، وروي الطستي فيما روى من أسئلة نافع بن الأزرق له أنه قال له أخبرني عن قوله عز وجل (إلا مكاء، وتصدية) قال المكاء صوت القنبرة والتصدية صوت العصافير وهو التصفيق وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلي بين الحجر (الأسود) والركن اليماني (يعني أنه يتوجه إلى الشمال ليجمع بين الكعبة وبيت المقدس في الاستقبال) فيجيء رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ويصيح أحدهما كما يصيح المكاء، والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ليفسد عليه صلاته قال (نافع) وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم أما سمعت حسان بن ثابت يقول :

تقوم إلى الصلاة إذا دعينا وهمتك التصدي والمكاء.

وفي بعض كتب اللغة أن المكاء طائر أبيض، وعن سعيد بن جبير : كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف يستهزئون ويصفرون فنزلت ( وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء، وتصدية ) وقال الراغب : مكاء الطير يمكومكاء : صفر . وذكر أن المكاء في الآية جار مجرى مكاء الطير في قلة الغناد : قال والمكاء ( بالضم والتشديد ) طائر ، ومكأت آسته صوت اه ويحتمل أن هذه الفعلة القبيحة كانت تقع منهم

عمداً أيضاً فذكر اللفظ المشترك ليدل عليها ولم يذكر اللفظ الذي وضع لها وحدها نراه ، وقال في التصديّة: كل صوت يجري مجرى الصدى في أن لا غناء فيه اه  
وجملة القول أن صلاتهم وطوافهم كان من قبيل اللهو واللعب سواء عارضوا بذلك الرسول ﷺ في طوافه وخشوع صلاته وحسن تلاوته أم لا

قال تعالى ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ فسر الضحاك العذاب هنا بما كان من قتل المؤمنين لبعض كبرائهم وأمرهم لآخرين منهم يوم بدر أي وانهم الباقين مكسورين مدحورين . وفيه إشارة إلى قولهم ( أو اتنا بعذاب أليم ) كأنه يقول : فذوقوا العذاب الذي طابتموه ، وما كان لكم أن تستعجلوه .

(٣٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٧) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ

نزل هذا في استعداد قريش لغزوة بدر وما سيكون من استعدادهم لغيرها بعدها . وبشمل اللفظ بعمومه ما سيكون مثل ذلك من الكافرين في كل زمن . ذكر رواة التفسير عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم أن هذه الآية الأولى نزلت في أبي سفيان وما كان من انفاقه على المشركين في بدر ومن اعانته على ذلك في غزوة أحد وغيرها ففي بعض الروايات أنه لما نجا بالعبير بطريق البحر إلى مكة مشى ومعه نفر من المشركين يستنفرون الناس للقتال فجاؤا كل من كان لهم تجارة فقالوا يامعشر قريش ان محمداً قد وترك وقاتل رجالكم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثاراً ففعلوا . وقال سعيد بن جبير إنه استأجر يرم أحد ألفين من الاحابيش من بني كنانة يقاتل بهم رسول الله ﷺ سوى من استجاش من العرب . وفيهم قال كعب بن مالك

وجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاصر ومقنع  
 ثلاثة آلاف ونحن عصاة ثلاث مئين ان كثرنا فأربع  
 وقال الحكم بن عتيبة في الآية : نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين  
 يوم أحد أربعين أوقية من ذهب وكانت الاوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالاً، هذا  
 على ما كان معروفاً من بخل أبي سفيان كما قالت زوجته يوم المبايعه لرسول الله (ص)  
 ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ أي عن الإسلام  
 واتباع خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ﴿ فسيفقونها ﴾ في سبيل الشيطان صدأً  
 وفتنة وقتالاً ﴿ ثم تكون عليهم حسرة ﴾ ونداما وأسفاً، لذهابها سدى، وخسرانها عيشاً،  
 إذ لا يطيبهم ممن أراد الله هدايتهم أحد ﴿ ثم يغلبون ﴾ المرة بعد المرة، وينكسرون  
 الكرة بعد الكرة ﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ أي يساقون يوم القيامة إليها  
 دون غيرها كما أفاده تقديم الظرف على متعلقه. هذا إذا أصروا على كفرهم حتى ماتوا  
 عليه ، فيكون لهم شقاء الدارين وعذابهما. ومن العبرة في هذا المؤمن أنهم أولى  
 من الكفار ببذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله لأن لهم بها من حيث جملتهم سعادة  
 الدارين ، ومن حيث أفرادهم الفوز باحدى الحسنين <sup>(١)</sup> هكذا كان في كل زمان  
 قام المسلمون فيه بحقوق الإسلام والايمان ، وهكذا سيكون ، اذا عادوا إلى ما كان  
 عليه سلفهم الصالحون . والكفار في هذا الزمان ينفقون القناطر المقنطرة من  
 الاموال للصدع عن الإسلام، وفتنة الضعفاء من العوام ، بجهاد سلمي ، أعم من الجهاد  
 الحربي ، وهو الدعوة الى أديانهم ، والتوسل الى نشرها بتعليم أولاد المسلمين في  
 مدارسهم ، ومعالجة رجالهم ونسائهم في مستشفياتهم . والمسلمون مواتون ، يرسلون  
 أولادهم اليهم ولا يباليون ما يعملون ( ذلك بأنهم قوم لا يعقلون )

﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ يعني أن الله تعالى كتب النصر والقلب  
 والفوز لعباده المؤمنين المتقين، والخذلان والحسرة لمن يعاديهم ويقاتلهم من الكافرين  
 للصدع عن سبيل الله الذي استقاموا عليه ، وجعل هذا جزءاً كل من الفريقين

ماداما على حالها، فاذا غيرا ما بأنفسهما غير الله ما بهما. جعل هذا جزاءهما في الدنيا وجعل جهنم مأوى للكفار وحدهم في الآخرة، لأجل أن يميز الكفر من الايمان، والحق والعدل من الخور والطغيان، فان يجتمع في حكمه سبحانه الضدان، ولا يستوي في جزائه التقيضان ( ٥ : ١٠٣ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الالباب ) فالخبيث والطيب المعنويان في حكم العقلاء والفضلاء، كالخبيث والطيب الحسين في حكم سليمي الحواس ولا سيما الشتم. وقد سبق لنا تحقيق هذا المعنى في تفسير هذه الآية من سورة المائدة (١) وفي تفسير (٣ : ١٦٩ ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) (٢) قرأ حمزة والسكاساني ( يميز ) بالتشديد من التمييز وقرأها الجمهور بالتخفيف. والمراد بلميز والتمييز ما كان بالفعل والجزاء كما قلنا لا بالعلم فهو بكل شيء عليم، وهذا التمييز الالهي بين الأمرين في الاجتماع البشري يوافق ما يسمى في عرف هذا العصر بسنة الانتخاب الطبيعي وبقاء أمثل الأمرين المتقابلين وأصلحهما. وسنن الله في الدنيا والآخرة واحدة كما قال أبو حامد الغزالي ( رح ) وإن جهل ذلك الخبيثون المتكلمون على الشفاعات والمغترون بالآقاب الدينية بن كل ملة وأمة. فالخبيث في الدنيا خبيث في الآخرة لا ينفعه شيء، ولذلك قال ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركه جميعا ﴾ أي ويجعل سبحانه الخبيث بعضه منضما متراكبا على بعض بحسب سنته تعالى في اجتماع المتشاكلات، وانضمام المتناسبات، واثتلاف المتعارفات، واختلاف المتناكرات، يقال ركه اذا جمع بعضه إلى بعض ومنه (سحاب مركوم) ﴿ فيجعلهم في جهنم ﴾ يجعل أصحابه فيها يوم القيامة ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ التامو الخسران وحدهم، لانهم خسروا أموالهم وأنفسهم

جاء مصر القاهرة من عهد قريب صاحب صحيفة سورية دورية من دعاة الالحاد المتفرنجين، فأقام فيها أياما قلائل استحكت فيها له مودة أشهر ملاحدة مصر ودعاة الزندقة والاباحة فيها، فعاد ينوّه بهم، وينشر دعايتهم، ويزعم أنهم

دعامة الترقى والعمران، بالدعاية الى تجديد ثقافة مصر بخلاف ما كان لها من ثقافة العرب والاسلام، والحق أن هؤلاء، كلهم هدامون للعقائد والفضائل وجميع مقومات الامة ومشخصاتها، وليسوا بأهل لبناء شيء لها، الا اذا سميت الزندقة واباحة الأعراض وتهديد السبيل لاستعباد الأجانب لامتهم بناء مجد لها. وقد ذكرني ذلك رجلا من قرية صالحة مرَّ به رجل من معارفه كان في إحدى المدن فطفق يسأله عن المساجد ومدارس العلم فيها وعن الصالحين من أهلها. فأجاب الرجل: أعن هذا تسأل مثلي؟ سألني عن أهل الخانات والمواخير، فأنني بها وبهم علم خبير (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون)

(٣٨) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ أَوْ نِعَمَ النَّصِيرِ

لما بين الله تعالى حال الكفار الذين يصرون على كفرهم وصددهم عن سبيل الله وقتال رسوله والمؤمنين وما لهم في الدنيا والآخرة قنفي عليه ببيان حكم الدين يرجعون عنه ويدخلون في الاسلام، لان الأنفس صارت تتشوف الى هذا البيان، وتساءل عنه بلسان الحال أو المقال، وهو ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء الكفار أي لأجلهم وفي شأنهم فالانام للتبليغ: إن ينتهوا عما هم عليه من عداوتك وحنادك بالصد عن سبيل الله والقتال لا وليائته المؤمنين بالدخول في الاسلام ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ منهم من ذلك ومن غيره من الذنوب، يغفر الله لهم ذلك في الآخرة فلا يعاقبهم على شيء منه، ويغفر لهم الرسول والمؤمنون ما يخصهم من إجرامهم فلا يطالبون قاتلا منهم بدم، ولا ساليا أو غانما بسلب أو غنم، وقرأ ابن مسعود «إن تنتهوا يغفر لكم» بالخطاب روى مسلم من حديث عمرو بن العاص

قال فلما جعل الله الاسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت ابسط يدك أبايعك ، فبسط يمينه فقبضت يدي قال « مالك؟ » قلت أردت أن أشترط قال « تشترط بماذا؟ » قلت أن يغفر لي ، قال « أما علمت يا عمر وازن الاسلام يهدم ما كان قبله وان الهجرة تهدم ما كان قبلها وان الحج يهدم ما كان قبله؟ » الحديث ( وان يعودوا ) الى العدا والصد والقتال ﴿ فقد مضت سنة الاولين ﴾ أي تحري عليهم سنته المطرودة في أمثالهم من الاولين الذين عادوا الرسل وقتلوه ، وقال مجاهد : في قريش وغيرها يوم بدر والامم قبل ذلك ، أقول وهي السنة التي عبر عنها بمثل قوله ( ٥٨ : ٢٠ ) ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الاذنين ٢١ كتب الله لاغابن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز ) وقوله ( ٤٠ : ٥١ ) إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ورم يقوم ( الاشهاد ) فاضافة السنة إلى الاولين لما لبستها لهم وجريانها عليهم

﴿ وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ أي وقتلهم حينئذ أيها الرسول أنت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة في الدين بالتعذيب وضروب الايذاء لاجل ترككم كما فعلوا فيكم عند ما كانت لهم القوة والسلطان في مكة حتى أخرجوكم منها لاجل دينكم ثم صاروا يأتون لقتالكم في دار الهجرة ، وحتى يكون الدين كله لله لا يستطيع أحد أن يفتن أحداً عن دينه ليكرهه على تركه إلى دين المكروه له فيتمتده تقيمه ونفاقاً - ونقول ان المعنى بتعبير هذا العصر : ويكون الدين حراً ، أي يكون الناس أحراراً في الدين لا يُكره أحد على تركه اكرهاه ، ولا يؤدي ويعذب لاجله تعذيباً ، ويدل على العموم قوله تعالى ( ٢ : ٢٥٦ ) لا اكره في الدين قديين (الرشد من الغي) وسبب نزول هذه الآية ان بعض الانصار كان لهم أولاد تهودوا وتنصروا منذ الصغر فأرادوا اكرامهم على الاسلام فنزلت فأمرهم النبي (ص) بتخييرهم ، ولكن المسلمين انما يقاتلون لحرية دينهم ، وان لم يكرهوا عليه أحد آمن دونهم ، ومارضى الله ورسوله في معاهدة الحديبية بتلك الشروط الثقيلة التي اشترطها المشركون الا انها في الصالح المانع من الفتنة في الدين المبيح لاختلاط المؤمنين بالمشركين واسماعهم القرآن اذ كان هذا اباحة للدعوة إلى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ولرؤية المشركين حال المؤمنين ومشاهدتهم انها خير من حالهم ، ولذلك كثر دخولهم في

الاسلام بعدها. وسدى الله هذا المصلح فتحاً ميداناً وأما ورود الحديث بقتل المرتد  
فهو وجه آخر من منع العبث بالاسلام كان له سبب سياسي اجتماعي بيناه في موضعه  
هذا هو التفسير المتبادر من اللفظ بحسب اللغة العربية وتاريخ ظهور  
الاسلام، وروي عن ابن عباس تفسير الفتنة بالشرك قال ابن كثير وكذا قال  
أبو العالية ومجاهد والسدي ومقاتل وزيد بن أسلم. أقول وعليه جمهور مؤلفي التفسير  
المشهوره من الخلف قالوا وقتلوهم حتى لا يبقى شرك وتزول الاديان الباطلة فلا يبقى إلا  
الاسلام ولذلك قال بعضهم: لم يجيء تأويل هذه الآية بعد وسيتحقق مضمونها إذا  
ظهر المهدي فإنه لا يبقى على ظهر الارض مشرك أصلاً على ما روي عن أبي عبد الله (رض)  
كتب هذا الآلومي وهو لا يصح أصلاً ولا فرعاً، ويؤيد الأول ما روي البخاري  
عن عبد الله بن عمر أن رجلاً جاءه فقال يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله  
في كتابه ( وان طائفتان من المؤمنين انتظرا ) الى آخر الآية فما يمنعك ألا تقاتل كما  
ذكر الله في كتابه ؟ فقال يا ابن أخي أعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب الي من أن  
أعير بهذه الآية التي يقول الله تعالى ( ومن يقتل مؤمناً متعمداً ) الى آخرها قال  
فان الله يقول ( وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ) قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول  
الله ﷺ اذ كان الاسلام قليلاً فكان الرجل يفتن في دينه اما يقتلوه واما يوثقوه  
حتى كثر الاسلام فلم تكن فتنة، الخ فابن عمر رضي الله عنهما يفسر الفتنة في آية الانفال  
هذه بما قلنا انه المتبادر منها ويقول إنها قد زالت بكثرة المسلمين وقوتهم فلا يقدر  
المشركون على اضطهادهم وتعذيبهم ولو كانت بمعنى الشرك لما قال هذا فان الشرك لم يكن  
قد زال من الارض ولن يزول ( ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ) الآية  
وقد ذكر هذه الرواية ابن كثير في تفسير الآية وزاد عليها روايات عنه أخرى  
بمعناها منها أنه جاءه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا إن الناس قد صنعوا ما ترى وانت  
ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله (ص) فما يمنعك أن تخرج؟ قال بمنعني  
ان الله حرم علي دم أخي المسلم. قالوا أولم يقل الله ( وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون  
الدين كله لله ) قال قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون ان تقاتلوا  
حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله، وفي رواية زيادة: وذهب الشرك. وذكر

[الانفال:س ٨] سلف المسلمين وغيرهم مع الشعوب الاخرى في الفتح والنصر ٦٦٧

أيضا أن رجلا أورد الآية على أسامة بن زيد وسعد بن مالك (رض) فقالا قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله . وهذا وما قبله من رواية ابن مردويه في تفسيره وقال محمد بن اسحاق بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا (حتى لا تكون فتنة) حتى لا يفتن مسلم عن دينه

﴿ فان انتهوا ﴾ أي فان انتهوا عن الكفر وعن قتالكم ﴿ فان الله بما يعملون بصير ﴾ فيجازيهم عليه بحسب عمله . وقرأ يعقوب ( نعملون ) بالتاء الفوقية بالخطاب . وفي سورة البقرة ( ٢ : ١٩٣ ) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴿ وان تولوا ﴾ وأعرضوا عن سماع تبليغكم ولم ينتهوا عن كفرهم وفتنتهم وقاتلهم لكم ﴿ فاعلموا أن الله مولاكم ﴾ أي فأيقنوا أن الله تعالى هو ناصركم ومتولي أموركم فلا تبالوا بهم ولا تخافوا قو ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ هو فلا يضيع من تولاه ولا يغلب من نصره

( فان قيل ) إن انتصار المسلمين في القرون الأولى كان لاسباب اجتماعية فلما تغيرت هذه الاسباب خانهم النصر حتى فقدوا أكثر مما لكهم، وإننا نرى الامم ينتصر بعضها على بعض بالاستعداد المادي من سلاح وعتاد وبالنظام الحربي الذي جهله المسلمون بغرورهم بدينهم وانكالم على خوارق العادات، وقراءة الاحاديث والدعوات، ولذلك تركه سياسة الترك وأسسوا لأنفسهم حكومة مدنية إلحادية تناهض الاسلام، ويوشك أن يتبعهم سياسة المصريين والافغان .

(قلنا) إن ما ذكره المعترض وهو واقع لا مفروض - حجة على المسلمين المتأخرين لا على الاسلام، فالاسلام يأمر باعداد القوى المادية، ويضيف اليها القوى المعنوية، ومنها بل أعظمها الايمان بالله وعاؤه والاتكال عليه باتفاق المعتلا، حتى الماديين منهم، ولم يشرع للناس الاتكال على خوارق العادات، حتى في أيام الرسول المؤيد بالآيات البيئات، ولما غلب المسلمون في وقعة أحد لتقصيرهم في الاسباب وتعجبوا من ذلك أنزل الله تعالى ( أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ) وقد وقينا هذا البحث حقه في تفسير هذه الآية وأمثالها من الآيات التي نزلت في تلك الغزوة من سورة آل عمران وسنعود اليه في تفسير آية ( وأعدوا لهم ما استطعتم



من قوة ) وغيرها من هذه السورة قريناً إن شاء الله تعالى

وما أضعف الترك والصريين وغيرهم من شعوب المسلمين إلا تركهم هداية القرآن في مثل هذا وغيره من إقامة العدل والفضائل وسنن الله في الاجتماع التي انتصر بها السلف الصالح، واستبداد حكوماتهم فيهم، وانفاق أموال الأمة والدولة فيما حرم الله عليهم من الإسراف في شهواتهم، وقد اتبع الأفرنج تعاليم الإسلام في الاستعداد للحرب وفي غير ذلك من سنن الله في العمران، فرجحت بهم كفة الميزان، وسيتبعونها في الأمور الروحية، بعد أن تبرح بهم التعاليم المادية والبشفية، ويتفاهم فسادهما في أهمهم، حتى تخرب بيوتهم بأيديهم، من حيث فقد المسلمون الجغرافيون النوعين كليهما من تعاليمه، وقام الجاهلون منهم يحتاجون عليه، بما أفسدوا وابتدعوا فيه ونسبوه إليه، وهو حجة عليهم وعلى جميع الخلق .

وأما الأمور الاجتماعية التي مكنت سلف المسلمين من فتح بلاد كسرى وقيصر وغيرهما من الشعوب فهي أكبر حجة للإسلام أيضاً، إذ ليست تلك الأمور إلا ما كان أصاب تلك الشعوب من الشرك وفساد العقائد والآداب، ومسارعيه، الاخلاق والعادات، من فشو الفواحش والمنكرات، وسلطان البدع والخرافات، التي جاء الإسلام لازالتها، واستبدال التوحيد والفضائل بها، ولهذا وحده نصرهم الله على الأمم كلها، إذ لا خلاف بين أهل العلم والتاريخ في ان العرب كانوا دون تلك الشعوب كلها في الاستعداد الحربي المادي، فلم يبق لهم ما يمتازون به إلا اصلاح الإسلام المعنوي. ولما أضع جواهر المسلمين هذه العقائد والفضائل، واتبعوا سنن تلك الأمم من البدع والردائل — وهو ما حذرهم الإسلام منه — ثم قصروا في الاستعداد المادي للنصر في الحرب ففقدوا النوعين منه، عاد الغلب لغيرهم عليهم

فنسأله تعالى هداية هذه الأمة، وكشف ما هي فيه من غمة، لتستحق نصره باتباع شرعه، ومراعاة سنته في خلقه، وبتقواه المنسرة لافرقان في العلوم والاحكام والاعمال، فيعود لها ما فقدت من الملك والسلطان اللهم آمين

تفسير الجزء التاسع كتابة وتحريراً بفضل الله وحوله وقوته ﴿

كله سنة ١٣٤٦ ونسأله الاعانة والتوفيق لاتمام ما بعده )

ولله الحمد والشكر أولاً وآخراً